العنوان
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل - هاتف : ٢٢٩١٥
الرياض - المملكة العربية السعودية

العرب

مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها : حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
٦٥ . ريالاً للأفراد
٧٥ . لغيرهم
ثمن الجزء ٥ ريالات

ج٣و٤ س١٢ رمضان وشوال سنة ١٣٩٧ أيلول تشرين ١ (سبتمبر — أكتوبر) ١٩٧٧

رِحْلَةٌ إلى بِلَادِ العُلَا

أعد المشرفون على (الندوة العالمية لدراسة تاريخ الجزيرة) لضيوفهم رحلة إلى مدينة العُلاَ ، ركبوا الطائرة من الرياض صباح يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى سنة ١٣٩٧ ﻫ (٢٧ ابريل ١٩٧٧ م) إلى مطار المدينة ومنه استقلوا الحافلات إلى العلا فقطعوا مسافة تقارب ٣٥٠ كيلاً وكان النزول في إحدى المدارس وكان كل شيء من أمور الإقامة مرتباً ومنظماً .

وكنت من بين أولئك الذين ذهبوا إلى العُلا ، ولكنني لم أُكلِّف نفسي عَناءَ الذهاب إلى الحِجْر حيث تقع الآثار التي كان من أهم دواعي الرحلة مشاهدتها ، وقد سبق لي أن زُرْت العلا ثلاث مرات وشاهدت تلك الآثار وقرأت كثيراً مما كتب عنها فاكتفيت من هذه الرحلة بأن دونت معلومات عن العلا وسكانها وعن بعض الأماكن القريبة منها . وقد استقيت كثيراً من تلك المعلومات من حضرة وكيل الأمير الشيخ عبد الله بن نويصر ، وأصله من بلدة الحَرِيْق ، ولكنه نشأ في هذه البلاد وأقام كل سني عمره حتى صار يُعَدُّ من أهلها ، ومكنه عمله في الإمارة بأن عرف كثيراً من أحوالها كما استفدت معلومات أخرى من بعض موظفي الإمارة وبعض رجال التعليم في هذه المنطقة .

مدينة العلا : تعتبر قاعدة لعدد من القرى ومناهل البادية الواقعة بقربها ، وقد ازدهرت البلدة في هذه الأيام ونمت نُمُوّاً سريعاً ودخلتها وسائل الحضارة

الحديثة ، وامتد عمرانها بامتداد الوادي الذي تقع فيه ، من العُذَيْب شمالاً حتى قرية مُغَيْرَاءَ في الجنوب نحو ٢٠ كيلاً .

وادي القُرَى : والعلا قديماً من أشهر قُرَى الوادي المعروف باسم (وادي القرى) وهذا الوادي يمتد من الشمال نحو الجنوب بما يقارب مائة كيل وله فروع كثيرة . فمن فروعه الغربية التي تنحدر من حرة عُوَيْرِض :

١ — غارِبُ
٢ — السُرَيْط (ويسمى طيب اسم)
٣ — حَوْضا
٤ — ثَرْبَة
٥ — شَلاَل
٦ — عَشَار
٧ — أمْ طُلَيْحة
٨ — دَ ن — وتدعى عكمة ، وعكمة جبل
٩ — مُرَاخ
١٠ — ساق
١١ — الخالص
١٢ — صدر (سدر)
١٣ — الضبيعة
١٤ — أمْ هَشِيم

ومن فروعه الشرقية التي تفيض في وادي الحجر — أعلى وادي العُلا —

١ — الأقرَع ويقابل فرع غارب
٢ — مُزَيْلقة
٣ — القُلَيْبَة
٤ — ضُوَيْن
٥ — أمَ جِرْفَان
٦ — الرُمَاحيَّةُ
٧ — حُمَيِّطُ
٨ — مَهَجْ ظُفَيْر بضم الظاء — مصغراً —
٩ — مَهَجْ ظَفِير بفتح الظاء
١٠ — أمْ عويذر وتصب في المعتدل[1] هي وما بعدها .
١١ — أمُ عاذر
١٢ — خَرْمُ الشُّيْرَةِ
١٣ — أمْ لحم
١٤ — تلعة الحماد
١٥ — تلعة المذبحة
١٦ — الْمَحَاش

---

(١) المعتدل هو أعلى وادي العلا دون الحجر ودون المذيب .

١٧ ـ رَمّ من جبال الـمَجْدَر والعُقَيف ١٨ ـ مُرَيْخَة

١٩ ـ مَلَح يصب في طرف وادي العلا الغربي قرب مُغَيْرَا

وقال لي أحد المدرسين : إن من فروع وادي العلا : العُذَيب وقُراقر ودَنَن ومُرَاخ وساق والخالص وصَدْر ، فيه قرية بهذا الاسم .

ويجتمع بوادي العلا بعد ذلك أودية من أشهرها وادي نخلة [1] ووادي الجِزْل ووادي عَمُودان .

وأشهر فروع وادي نخلة هي :

١ ـ الحاطِبة ٢ ـ الغَمْر ـ بفتح الغين ٣ ـ البرود

٤ ـ عذاقة ٥ ـ أراك ٦ ـ الصُّمَيْمة

٧ ـ واسط ٨ ـ القُلَيِّب ٩ ـ مَلَح ـ بفتح اللام

١٠ ـ الركاكنة ١١ ـ القطّار ١٢ ـ الصفا

١٣ ـ الحُوَيْض ١٤ ـ غَبيطين ـ مثنى غَبيط

وهذه الفروع تنحدر من الجبال الواقعة فيما بين العلا وخيبر .

أما فروع وادي الجِزْل وهو من أعظم الأودية تنحدر إليه سيول حرة عويرض المتجهة صوب الغرب فها هو أشهرها :

١ ـ أبو طينة (الماوَيْن) ٢ ـ الصَّلْفَة (فيه هجرة لبني عطية)

٣ ـ النَقِيب ٤ ـ عِرْقَيْن (مثنى عرق)

٥ ـ الضُّرَيس ـ بضم الضاد ٦ ـ رَبْثَا ـ بالراء فالباء وآخره ثاء مثلثة

٧ ـ الفارِعة (تجمع الأودية الستة) ٨ ـ نُقَيْع ـ بضم النون وفتح القاف وآخره عين

---

(١) وضع اسمه في الخريطة B ٤ ـ ٢ ـ I (الدعشان) ؟

٩ – حماطة

١٠ – ضَمْر – بالضاد المعجمة المفتوحة وإسكان الميم وآخره راء

١١ – الرَّقبَة

١٢ – الجيْفَة بكسر الجيم

١٣ – أمُّ نُصَيْب

١٤ – المُثَيْني

١٥ – نُعَاضا

١٦ – عَنْتَر

١٧ – الرَّغَاي

١٨ – أحَر – بفتح الالف والحاء المهملة وآخره راء

١٩ – الأثلة

٢٠ – عَوْرَشُ

٢١ – ظَبْيٌ

٢٢ – البروك

٢٣ – اللّحيانة

٢٤ – جَيْلَة

تجتمع هذه الأودية الثلاثة التي هي وادي القرى ووادي الجزْل ووادي نخلة ثم تلتقي بها أودية كثيرة منها وادي عمردان ووادي العيص ووادي العين وسيول أودية خيبر ثم تأتيها سيول أودية المدينة فتكون كلها وادياً واحداً يتجه مُغَرِّباً حتى يصب في البحر [١] .

قرى العلا ومواردها : والعلا مركز إمارة من إمارات المدينة المنورة ومن أشهر القرى وموارد المياه التابعة لامارة العلا : العين وأمُّ زَرْب والسَّليلة ، وقَعْرَةُ الدَّومة وهجرة ذُوَيْب (متان الْحَبِّ) وحُرَيْمِلٌ والأبْرق ، والْحُفْرَةُ وكل هذه تقع جنوب العلا وأكثر سكانها الطوالعة من عَنَزَة .

---

(١) قال في « وفاء الوفاء » – في ذكر مجتمع سيول المدينة : (ثم تنحدر هذه السيول ، فتلقاها سيول الشعاب من كنفيها ، ثم يلقاها وادي ملل بذي خشب ، وظلم والجنينة ، ثم يلقاها وادي ذي أوان ودوافعه من الشرق ، ويلقاها من الغرب بواط والحرار ، ويلقاها من الشرق وادي الأئمة ، ويلقاها وادي ترعة من القبلة ، ثم يلتقي هو ووادي العيص من القبلة ، ثم يلقاه واد يقال له حجر ووادي الجزل الذي به السقيا والرحبة في نخيل ذي المروة مغرباً ، ثم يلقاه عمودان في أسفل المروة ، ثم يلقاه واد يقال له سفيان حين يفضي الى البحر عند جبل يقال له أراك ، ثم يدفع في البحر من ثلاثة أودية يقال لها اليعسوب والنتيجة وحقيب انتهى .
ونقل عن المطرى أنها تفضي إلى البحر ، إلى كرا من طريق مصر .

ومن القرى والموارد التابعة لإمارة العلا في الجهة الجنوبية أيضاً : الجَديدة وسكانها الفويعات من بَلِيٍّ ، والخريمات للزَّبْن ، والضُّلَيْعة للوُحَشَة والنخوالِيْ والفَقَيِّر للفريعات والرشود ، والمحاسنة والقَعْرة للرموش ، وعمودان لهم أيضاً . وكل هذه المواضع أهلها فروع من قبيلة بَلِيٍّ .

والزبابر سكانها خليط من جهينة وبَلِيٍّ .

ومن القرى الواقعة في أعلى وادي العلا العُذَيْب والحِجْر وسكانهما الفُقراء من عَنَزَة .

ومُغَيْراء سكانها اليديان واحدهم أيدا من عنزة أيضاً وهذه في أسفل الوادي .

ومن قرى العلا الواقعة في الشمال الغَرْبيٌّ ثَرْبَةُ في طرف حَرَّة عويرض وفي وادٍ بهذا الاسم وهو من روافد وادي العلا وسكان ثَربة المواهيب من بَلِيٍّ .

وشَلاَل بفتح الشين المعجمة واللام مخففة بعدها ألف فلام للمناصير من قبيلة بَلِيٍّ .

وعَوْرَش وادٍ من فروع وادي النُجيزل فيه قرية بهذا الاسم سكانها المواهيب من بَلِيٍّ .

ضَاع بالضاد المعجمة بعدها ألف وعين معجمة سكانها المناصير من قبيلة بَلِيٍّ .

وجَيْلَةُ بالجيم والمثناة التحتية المسكنة بعدها لام وهاء قرية سكانها من بَلِيٍّ وغيرهم .

ومن القرى والمناهل الواقعة في الشمال الغربي من مدينة العلا : الفَرَعةُ بتحريك الراء ، وأبو طِيْنَة والفارعة وأبو راكة والنُشَيْفَة والنُجَيْل بضم النون وفتح الجيم ، وإنا — بكسر الالف — والبلاطة وبئر شُوَيْمة ، وتَفَيْهَةَ بفتح التاء المثناة الفوقية وكسر الفاء بعدها ياء مثناة تحتية فهاء ثم هاء أيضاً وقُصَيْب والخُشَيْبَة بضم الخاء المعجمة ، والوَرد بفتح الولو ، وجَيْدة بفتح

الجيم بعدها مثناة تحتية ساكنة فدال مهملة فهاء .

والقُوَيْرة وكل هذه واقعة في وادي الجزل وعلى روافده ، وسكانها من بَلِيٍّ .

هذه أشهر القرى والمناهل كما أملاها عليَّ وكيل الإمارة الشيخ عبد الله النويصر .

سكان العلا : يسكن مدينة العلا في العهد الحاضر عدد من الأسر منهم :

١ — الزُّحُوف انتقلوا من المابيّات
٢ — آل محمد
٣ — آل حمد
٤ — السلامة
٥ — المحفوظ
٦ — النافع
٧ — الوهيبة
٨ — آل عليّ
٩ — القضاة
١٠ — البدنة
١١ — الأُسَيْرَة
١٢ — العوَّاد
١٣ — القُروق ينتمون إلى بني عُذْرَة وهم من أقدم الأسر . ويسكنون الشُّقيق (١) .
١٤ — آل بُدَيِّر ، انتقلوا من تَيْماء
١٥ — التّامنة

هذه الأسر كما أملاها عليَّ الأستاذ عبد الله عمر بُدَيِّر وهناك أسر غيرها تنتسب إلى بني صخر كآل عيد وآل مبارك وآل سُوَيْرِي ، وآخرون ينتسبون إلى قبائل أخرى كقبيلة بلي وحرب وغيرهما . ويسكن في قرى العلا وأوديتها من القبائل فروع من عنزة ومن قبيلة بَلِيٍّ ومن جُهَيْنة ولكن هؤلاء قليل .

أما القبائل التي تسكن منطقة العُلا فمن أشهرها :

قبيلة بَلِيٍّ — بفتح الباء وكسر اللام وآخره ياء مثناة تحتيّة ، واحدهم بَلَوِيٌّ .

وأظهرت لوكيل إمارة العلا رغبتي بأن أعرف فروع قبيلة بَلِيٍّ فقال : سأحضر الآن رجلاً خبيراً بها . ثم أمر أحد الحاضرين بأن يدعو إبراهيم علي

---

(١) الشقيق : إحدى محلات بلدة العلا القديمة وهي القسم الشمالي من المدينة .

فتّوح ، فلما حضر قال : هذا يملي عليك ما تريد . فسألته : هل هو بلَوِيٌّ ؟ فقال : أنا من أهل الوجه ، ولكنني أعرف القبيلة وأعرف جميع فروعها . ثم أملى علي ـ ما نصُّه بعد إصلاح بعض عباراته :

قبيلة بَلِيٌّ : فرعان كبيران هما : مَخْلَد ـ بفتح اللام مخففة وخِزَام :

فمن مَخْلَد :

١ ـ المعاقلة الذين منهم الرِّفَادَات : واحدهم مُعَيْقلِيٌّ .
٢ ـ الوُحَشَة : واحدهم وُحَيْشِي .
٣ ـ العَرَدَات : واحدهم عَرَادِيٌّ .
٤ ـ السُّحَمَةُ : واحدهم سُحَيْمِيٌّ .
٥ ـ الرُّمُوثُ : واحدهم رموثي .
٦ ـ الزَّبَالَة : واحدهم زَبَالِي .
٧ ـ الهلْبَانُ : واحدهم هِلْبَانِيٌّ .
٨ ـ الحُمْران واحدهم حُمْرانِي وهم غير الحُمَر ، الذين واحدهم مَحْمَرِي ، وهاؤلاء من بَلِيٍّ أيضاً ولكنه لم يذكر لي من أيِّ الفرعين هم .
٩ ـ البَرَكات .

ومن خِـــزَام :

١ ـ وَابِصَةُ : واحدهم وابِصيٌّ .
٢ ـ المواهيب : واحدهم مَيْهُوبِي .
٣ ـ الفواضِلَةُ : واحدهم فَاضِلِيٌّ .
٤ ـ المَطَارِفَة : واحدهم مَطْرَفِيٌّ .
٥ ـ المَقَابِلَةُ : واحدهم مُقْبِلِيٌّ .

الوُحَشَةُ : أحد أفخاذ فرع مَخْلَد من بُطونِهِم :

١ ـ التّمارِين .
٢ ـ النُّعَيْرَاتُ .

العَرَدات ، من مخلد من أفخاذهم : المُشَيِّمات واحدهم مُشَيِّمي .
٢ ـ القُرُون : واحدهم قروني .
السُّحَمَةُ : من مَخْلَد ومن أفخاذهم :
١ ـ المظَهَرُ واحدهم مَظْهَرِيٌّ .
٢ ـ الهَروف واحدهم هَرْفِي .
٣ ـ الرَّواحلَة واحدهم رُوَيْحِلِي .
٤ ـ الزَّبْنُ واحدهم زَبْنِي .
٥ ـ القُوَاعين واحدهم قُوَيْعاني .
٦ ـ السليمـــان .
الرُّمُوث ومن أفخاذهم :
١ ـ الرُّشُود واحدهم رُشُودِيٌّ .
٢ ـ العَثَامينُ واحدهم عُثْمَانِي .
٣ ـ الزُّوَيَةُ واحدهم زُوَيْن .
٤ ـ الهُرَمَةُ واحدهم هُرَيْم .
٥ ـ المَحاسنة واحدهم مُحَيْسِنِي .
الزَّبَالَةُ من فرع مَخْلَد ، ومن أفخاذهم :
١ ـ المشاعِلَةُ واحدهم مُشَيْعِلِيٌّ .
٢ ـ الصَّرابِطَةُ واحدهم صُرَيْبِطِيٌّ .
٣ ـ العَصَابِيْنُ واحدهم عَصْبَانِيٌّ .
٤ ـ الجُدُولُ واحدهم جِدْلِيٌّ .
٥ ـ البُوَيْنَاتُ واحدهم بُوَيْنِي .
٦ ـ الخَشْمان واحدهم خَشْمَاني .
٧ ـ العَبَلَةُ واحدهم عُبَيْلِي .
٨ ـ السُّمَيْرَاتُ واحدهم سُمَيْرِي .
٩ ـ القَرَاعِطَةُ واحدهم قُرْعُوطِيٌّ .

الهيلبان من فرع مخلد ومن أفخاذهم :

١ — الجوابرة واحدهم جويبري .

٢ — الربادين واحدهم ربدي .

٣ — العجارشة واحدهم عجيترشي .

البركات : ويشمل اسم البركات من فروع مخلد :

١ — الفريعات ٢ — المعاقلة

٣ — الوحشة ٤ — الرموث

٥ — الهلبـــان ٦ — الحوالي

وقد تقدم ذكرهم ، أي إن هذه الفروع يطلق عليهم اسم البركات .

ومن فروع خزام : وابصة وأفخاذهم .

١ — الخضرة واحدهم خضري .

٢ — القواسمة واحدهم قواسمي .

٣ — الزروط واحدهم زرطي .

٤ — السبوت واحدهم سبوتي .

ومن فروع خزام : المواهيب وأفخاذهم :

١ — المناصير واحدهم منصوري .

٢ — الشوامى بفتح الميم بعدها ألف مقصورة (أبو شامة)

٣ — الرحيات واحدهم رحيباوي .

٤ — السراحين واحدهم سرحاني .

ومن فروع خزام : الفواضلة ومن أفخاذهم :

١ — الرقاقصة واحدهم رقيقصي .

٢ — الذراعين واحدهم ذرعاني .

٣ — الحميطات واحدهم حميطي .

هكذا أملى علي إبراهيم علي فتوح فروع قبيلة بلي ويلاحظ وقوع تداخل في بعض الأفخاذ .

٢ ـ الفُقَرَاء ـ من عَنَزَةَ ، واحدهم فَقِير .

ذهبت مع أحد رجال التعليم إلى قرية العُذَيْب الواقعة في وادٍ بهذا الاسم ، ويدعى أيضاً وادي الحشيش ـ أي العشب والرعي ـ شمالي العُلاَ ، فقابلنا أمير القرية ، وهو شيخ الفقراء ، فأحسن الاستقبال ، وقدم ما يقدم للضيف المتعجل ، من قهوة وتمر ولبن .

وقرية العُذَيب هذه حديثة ، عمرت سنة ١٣٤٥ . على ما اطلعت عليه في كتاب موجه للشيخ عبد الله بن سليمان بن بلهيد ـ رحمه الله تعالى من متعب بن صالح الفقير جاء فيه : (هاجرنا في وادي العُذَيب المعروف بوادي الحشيش ، واعترض علينا بعض الناس حيث قالوا : أنتم في وادي العذاب ، التابع لمداين صالح ، فإنا نسترحمكم أن تأمرونا بسكناه ، أو تنهونا ، نرحل عنه) ، وتاريخ الكتاب ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ . وقد علق عليه الأمير ابن مساعد بأنه أذن له ينزل تلك الهجرة وطلب من الشيخ أن يعرفه بالحدود المحرمة . فكان جواب الشيخ : (الذي تحصّل لنا من كلام المؤرخين أن وادي الحِجْر الذي فيه ديار ثمود مقدار ثمانية عشر ميلاً ، هو عبارةٌ عن مسافة تسع ساعات بدبيب الأقدام ، وسير الأثقال ، فإن اعتبر الموضع المذكور من شمالي الحجر إلى الموضع ، وكان خارجاً من هذه المسافة فلا بأس بسكناه ، والاستقاءُ من مياهه) ثم التوقيع : (رئيس القضاة : عبد الله بن بليهد) .

وقد استوضحت من الشيخ الفقير صاحب العُذَيب عن فروع عشيرته ، فأملى علي ما نصه :

الفُقَرَاءُ : واحدهم فَقِير ـ على الاسم المعروف ضدّ الغنيّ ـ فينقسمون إلى أقسام هي : ـ

١ ـ آل مبارك .
٢ ـ الشُّفَقَةُ واحدهم شَفَقِي .
٣ ـ الجَمَعَات واحدهم جِمْعِي ـ بكسر الجيم .
٤ ـ الحُجُورُ واحدهم حِجْرِي ـ بكسر الحاء .

٥ — المـُقـَرَةُ واحدهم صـُقـَيـْرِي — مـُصَقـَرا —
٦ — الحماعِلـَةُ واحدهم خـَـنـْعَـلِي .

افخاذ آل مبارك :

١ — المطلق ٢ — الرُّحـَيـْل
٣ — العصمان ٤ — الدرعــان
٥ — الصــالح

أفخاذ الشفقة :

١ — الحمدان ٢ — الـْجـُرَوَة واحدهم جـُرَيـْوِي
٣ — السواسية واحدهم سُوَيـْسِي .

أفخاذ الحجور :

١ — ابن مقبول ٢ — الحرصان
٣ — القــروم ٤ — الشرايدة
٥ — الـْهـَلاَبـَى واحدهم هـُلاَبِي. ٦ — الصُّهـْبـَان .

أفخاذ الحماعلة :

١ — الذِّيَابَةُ واحدهم ذيابي ٢ — الفـُضَـيـْل واحدهم فـُضَيـْلِي
٣ — الخِـنـْعـَان واحدهم أُخـَيـْنع ٤ — الحـُشُور واحدهم حـَشـْرِي
٥ — الجمعــان ٦ — الجديــد
٧ — الـْحـُرَيـْبـَاتُ واحدهم حُرَيـْبِي .

ثم عدت في اليوم الثاني إلى دار الإمارة لمقابلة وكيل الأمير ، لكي أستوضح عن فروع عنزة كالطوالعة والـْبِيدْيـَان الذين تقع منازلهم جنوب منطقــة العلا فيما بينها وبين خيبر وكذلك عن فروع جهينة التي تجاور قبيلة بلِي من الناحية الجنوبية من منطقة العلا ، ولكنني وجدت الرجل مشغولاً بتهيئة وسائل تجميل بلدته إبتهاجاً بعودة مليك البلاد المفـَدّى بعد شفائه مما ألم به من مرض ، فلم أرد الاثقال عليه وانصرفت وكان السفر في ظهر ذلك اليوم .

التعليم في منطقة العلا : في مدينة العلا عشر مدارس : ثانوية واحدة ومتوسطة وخمس مدارس ابتدائية وثلاث مدارس لمحو الأمية .

وهناك مدارس في القرى وهي ثلاث عشرة مدرسة في العُذَيب وشَلاَل ومُغَيْراء وأبو زَرايب والوَرْد والنُشَيفة وأبو راكة والنارعة والحَديدة (جديدة منقرة) والضُلَيعة والسَلِيلة .

وللبنات في مدينة العلا مدرسة ثانوية ، ومعهد لإعداد المعلمات ، ومدرسة متوسطة ، ومدارس ابتدائية ثلاث ، واثنتان لمحو الأمية .

آثار منطقة العلا : أهم الآثار في منطقة العلا هي الآثار الثمودية في وادي الحِجْرِ أعلى وادي العلا وقد ذكره الله في القرآن الكريم (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ) وقد ذكر الله أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، ولا تزال المواضع المنحوتة باقيةً ، وقد تناول الدارسون هذه الآثار ، وأُلِّفَتْ عَنْها المُؤَلَّفات .

أما بلدة العلا فمن آثارها قلعةٌ في قمة جبل صغير تدعى قلعة أُمّ ناصرٍ[1] تُطِلُّ على البلدة على القسم القديم منها .

وبقرب هذا الجبل عين قديمة تسمى تَدْعِل .

وعلى مقربة من الجبل الذي فوقه القلعة مسجد البلدة القديم ويدعى مسجد الصخرة .

أما المسجد الجامع فيدعى مسجد العظام . ويرى بعض الباحثين أن هذا الجامع هو المسجد الذي ذكر السمهودي مؤرخ المدينة في كتابه « وفاء الوفا » وها هو نص كلامه في تعداد المساجد النبوية من المدينة إلى تبوك : (الثالث عشر : بالحِجْر ، وذكر ابن زُبَالَة بدله : العُلا وكلاهما بوادي القرى . الرابع عشر بالصعيد صعيد قُرْح . الخامس عشر : بوادي القرى . وقال الحافظ عبد الغني : في مسجد الصعيد — وهو اليوم مسجد وادي القرى . قلت : فهذا والذي قبله بوادي القرى أحدهما في سوقها والآخر في قرية بني

(١) لا أدري هل مَ عوَّل من قال بأن في العلا [illegible] موسى بن نصير .

عُذْرَةَ ، لكن المجدُ غاير بين الثلاثة أخذاً بظاهر العبارة ، ولأن في رواية أخرى لابن زُبَالة : صلى رسول الله – ﷺ – في المسجد الذي بصعيد قرح ، من الوادي ، وتعلمنا مصلاهُ بأحْجَارٍ وعَظْمٍ ، فهو الذي يُجَمِّعُ فيه أهلُ الوادي) انتهى كلام السمهودي .

ومن آثار العلا : الْخُرَيْبَةُ – خُرَيْبَة العلا لا خُرَيبة الحِجْر – وهي بلدة دارسة فيها آثار كثيرة .

المابيّات : وعلى مقربة من العلا جنوباً بنحو خمسة وثلاثين كيلاً تقع آثار بلدة دارسة يطلق عليها الآن اسم الْمَابِيّات . ويفهم من نصوص المتقدمين أن اسمها الرَّحَبَة .

قال السمهودي في « وفاء الوفا » : الر حَبَةُ كَرَقَبةٍ بلاد عذرة قرب وادي القرى وسُقْيَا الْجِزْلِ وذكرها صاحب « المسالكُ والممالك » في توابع المدينة انتهى .

أما ياقوت فنقل عن نَصْر : الرحبة ناحيةٌ بين المدينة والشام ، قريبة من وادي القرى انتهى . ويرد ذكر الرحبة هذه في وصف الطريق من وادي القرى إلى المروة كما في كتاب « الأعلاق النفيسة » لابن رستة ص ١٨٣ و « البلدان » لليعقوبي ص ٣٤١ .

وهذا الموضع يقع في اتساع من الوادي ، ولعله أخذ اسمه من هذا .

ثم عُرفت الرحبة فيما بعد باسم مدينة صالح . قال ابن طولون : في كتاب « البرق السامي في تعداد منازل الحاج الشامي » قال ابن ناصر الدين في مسودة « توضيح المشتبه » : ومداين صالح التي بالقرب من العلا ، في طريق الحاج من الشام ، بلدٌ إسلاميٌّ ، وصالح المنسوبة اليه من بني العباس بن عبد المطلب ، وفيها قبور عليها نصايب ، تاريخها بعد الثلاث مئة . ذكره الحافظ أبو محمد القاسم بن البرزالي فيما وجدته بخطه انتهى كلام ابن ناصر الدين .

ويظهر أن كلمة (مداين) صوابها (مدينة) فقد ذكر ابراهيم بن شجاع

في كتاب ألفه سنة ٦٢٣ [١] وصف فيه الطريق من دمشق إلى مكة ، بعد أن ذكر العُلا ، وأنها المنزلة الثالثة والعشرون قال : الرابعة والعشرون : الحفاير : أرضُ رَمْلٍ وتلال وجبال ، ووادٍ متَّسِعٍ ، يُسَمّى الدَّيْدَان ، ومدينة صالح ، بها بقايا بنيان ، وبيوت وقلعة خرابٌ برأس تلٍّ عالي ، وآبار نَبْعٍ طيبة ، وعين ماء وفضاء وحفاير مطر . انتهى .

لمحة تاريخية عن وادي القرى : ووادي القُرَى هو وادي العُلا وقد تقدم ذكر فروعه وروافده ، وقد يطلق اسم وادي القرى على ما حوله من المواضع كوادي الجِزْل ، ويلاحظ ان المتأخرين من الرحالين ومؤلفي كتب المواضع اطلقوا اسم وادي القرى على أسفل أودية المدينة حيث تجتمع السيول ، فتخصب الأرض وتكثر هناك القرى ، على مسافة تقرب من مسيرة يومين غرب المدينة أي فيما يعرف قديماً باسم وادي ذي خُشُبٍ ، ولهذا يحسن بالقارىء ملاحظة ذلك .

وادي القرى الوارد ذكره في كتب التاريخ والذي غزاه الرسول ﷺ هو وادي العُلاَ وكان أشهر سكانه قبيلة بني عُذْرَة ومن مواضع تلك القبيلة على ما في معجم البلدان وغيره :

١ — أديم ، عند وادي القرى .

٢ — أضَاعِي ويعرف الآن باسم ضَاع ويقع في الشمال الغربي من العُلا في وادٍ من فروع وادي الجِزْل وفيه قَرية سكانها المناصير من قبيلة بَلِيٍّ .

٣ — الحاكَةُ : وتقع هذه شرق العلا على طريق حاج الشام ولها ذكر في رحلات الحج .

٤ — حدوداء .

٥ — ربب . وهذا الموضع والذي قبله لم أجد من يعرفهما .

٦ — الرَّقْعَةُ وهذه تقع جنوب العلا ، في الطريق إلى المدينة ، وقد ذكر

---

(١) « منازل الحجاز » لابن العطار مخطوط .

علماء السِّير أن الرسول ﷺ مَرَّ بها ، وأن له فيها مسجداً ذكره مؤرخو المدينة .

٧ ـ سُقْيَا الجزْل ، وهذه كانت من أشهر مدن هذه الناحية ، ولها ذكر كثير في كتب المسالك ومعاجم الأمكنة ، وتسمى أيضاً سُقْيَا يَزِيد ، وسُقْيَا بني أُمَيَّة ويظهر أنهم تملكوا فيها فنسبتْ إليهم للتفريق بينها وبين السُّقْيَا الواقعة بين مكة والمدينة والمعروفة الآن بأسم أمّ الْبِرْك .

ومما جاء في كتب المتقدمين عن السقيا هذه قول البشاري [1] : إنها أحسن مدن هذه الناحية ، والنخيل والبساتين مُتَّصِلَةٌ من قُرْحٍ إليها ، والجامع خارج البلد .

وقال ياقوت في « معجم البلدان » : سُقْيَا الجزْل موضع آخر مات فيه طُوَيْسٌ المخنث المُغَنِّي . قال : يعقوب : سُقْيا الجزْل من بلاد عُذْرَة قريب من وادي القرى) . انتهى .

وقال السمهوديُّ في « وفاء الوفاء » : (والسقيا أيضاً موضوع بوادي الجزْل ببلاد عُذْرَة ، قرب وادي القرى ، وذكر الأسديُّ أنها على سبع مراحل من المدينة ، وعلى نحو مرحلتين من ذي المروة ، وأنه كان يلتقي بها من يريد المدينة على غير طريق الساحل مع من يصل من الشام انتهى ، وللعلماء فيها كلام كثير .

والذي ظهر لي من كلامهم أنها تقع في موضع يعرف الآن باسم أم فُقُور ، والفقور جمع فَقْر يقصد بها المواضع المحفورة لتجري فيها مياه العيون ، وموضع أمّ فُقُور في مُلْتَقَى وادي الْجزْل بوادي المطْران ، غرب قلعة زُمُرُّد ، إحدى محطات السكة الحديدية ، في بَرَاح من الأرض ، في الشمال من أمّ زَرْب بمَيل يسير إلى الغرب ، على بعد نحو ٧٠ كيلاً من أم زرب . وعن العلا نحو ٥٠ كيلاً وتقع أمّ فُقُور بقرب خط الطول ٣٨/٠٠° وخط العرض ٢٦/١٣° .

---

(١) « أحسن التقاسيم » ص ٧٤ .

٨ — القُفَيْر ، وقد ورد هذا الاسم في معجم البلدان وغيره مصحفاً القُفير بتقديم القاف وهذا خطأ .

والفُقَيِّرُ لا يزال معروفاً ويقع غير بعيد من أمّ فُقُورٍ ، وهو الآن قرية سكانها الفُريعات والرُّشُود — والمحاسنة من قبيلة بَلِيّ .

٩ — كتمان .
١٠ — مُحَجّر .
١١ — المريسيع
١٢ — مياسر .
١٣ — ميساه .

هذه المواضع الأربعة ذكرها المتقدمون في بلاد بني عُذْرة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بني عُذْرة هاؤلاء اندمجوا في قبيلة بَلِيّ التي انتشرت في هذه الجهات .

١٤ — وادي القُرى ، ذكر المتقدمون أنه من بلاد بني عُذْرة .

ويظهر أن وادي القرى لخصوبة أرضه وكثرة مياهه كثر سكانه وبلغوا درجة من التحضّر بحيث أصبحوا خليطاً من مختلف الناس ، فقد كان في عهد رسول الله ﷺ يسكنه اليهود ، وقد غزاهم رسول الله ففتح البلاد عنوةً وغنم أموالها ، وأقام بوادي القرى أربعة أيام ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود تيماء استيلاء رسول الله ﷺ على خيبر وفدك (الحائط) ووادي القُرَى صالحوه على الجزْية ، وأقاموا في بلادهم ، فلما كان عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أخرج يهود خيبر وفدك (الحائط) ولم يخرج أهل تيماء ولا أهل وادي القرى لأنهما داخلتان في أرض الشام .

وفي صدر الاسلام كان سكانُ وادي القرى أكثرهم من الطّالِبِيِّيْنَ جاء في كتاب « الروض المعطار » : وادي القرى من أعمال المدينة وهي مدينة عامرة كثيرة النخل والبساتين وبها ناس من ولد جعفر بن أبي طالب ، وهم الغالبون عليها ويعرفون بالوادِيِّين انتهى .

ويظهر أن المقصود بهذه المدينة الرَّحبة التي تقدم الكلام عليها .

أصل الغناء في الحجاز من وادي القرى : ذكر ياقوت وغيره أن عمر بن داود بن زاذان مولى عثمان بن عفان كان من وادي القُرَى وكان يعرف بعمر الوادي وكان مُغنِّياً وكان مهندساً وكان في أيام الوليد بن يزيد ، وهو أستاذ حكم الوادي المغني الذي ترجمه صاحب « الأغاني » [1] وذكر طرفاً من أخبار أستاذه عمر . وتقدم أن طويساً المُغَنّي مات في سُقْيَا الْجزْل .

شعرٌ في وادي القُرى : وبعده ألا يجدر أن يرتاح ذهن القارىء من جفاف البحث بأبيات من الشعر لها صلة بوادي القرى ؟

قال جميل بن مَعْمَرٍ العذري :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
بِوادي القُرَى إنّي إذاً لَسَعِيدُ

وَهَلْ أَرَيَنْ جُمْلاً بِهِ وَهْيَ أَيِّمٌ
ومارَثَّ منْ حَبْلِ الوِصَالِ جَدِيدُ

وقال أحمد بن حَجَلَة في كتابه « منطق الطير » :

أَوَادِي القُرى هذي القُرى أيْنَ أهْلُهَا ؟
وماؤُهُمُ فِيهَا الذي كانَ مُنْصَبّا ؟

أظُنُّكَ لَمّا أنْ أكَلْتَ لُحُومَهُمْ
شَرِبْتَ عَلَيْهَا الماءَ من بَعْدِهِم شُرْبَا

وقال :

رَأَيْتُ قُرَى وادِي القُرَى في مَسِيرِنَا
وَبُنْيَانُهَا طُوبٌ ومنْ تَحْتِهِ حَجَرْ

وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا سَاكِنٌ مُتَحَرِّكاً
وَلَيْسَ بِهَا لِلْماءِ عَيْنٌ ولا أثَرْ

---

(١) ج ٦ ص ٦٢ .

وقال صلاح الدين الصفدي :

مَرَرْنَا بِوادِي القُرَى ضَحْوَةً
وَدُسْنَا بِهِ المَهْمَةَ الأَغْبَرَا

فَأَمْطَرَنَا اللهُ ذاكَ النَّهَارْ
فَكَانَ قِرَانَا بِوادي القُرَى

انطباعات عن الرحلة : لا يستطيع المرء أن يعرف حقيقة أيّ إنسان ما لم تَقْوَ الصِّلَةُ به بإختلاط أو مصاحبة أو معاملة ، فترة من الزمن ، والمرافقة في الأسفار من أقوى أسباب المعرفة ، ومن ثمرات هذه الرحلة الطيبة وإن كان وقتها قصيراً أنني ازددت معرفة ببعض الرفقاء .

لقد عرفت الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري منذ سنين العالم الباحث المُتَّزِنَ ، ولكني عرفته في هذه الرحلة الرجل الطيِّبَ الواسع البال ، الذي قلّ أن تُشاهده إلا مُبْتسماً ومع أنه كان عماد الرّحلة إلا أنه كان لا يميز نفسه عن أيّ واحد ممن معه بأي أمر من الأمور .

وعرفت كثيراً من الأخوة في هذه الرحلة ، معرفة زادَتْني تَعَلُّقاً بهم ، ممن لا أرى ما يدعو لذكر اسمائهم ، كما عرفت بعض الإخوة من أهل بلدة العلا ممن استفدت من معرفتهم ولقيت من تقديرهم ما يوجبَ عَلَيّ شكرهم .

ومما استفدته في هذه الرحلة معرفة موضعين من المواضع التي ورد ذكرها في خبر غزوة رسول الله ﷺ تَبُوك ، ذكر المؤرخون أن فيهما مسجدَيْن نبَوِيَّيْنِ هما : (١) ذُو الجِيفَة بالجيم مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية ففاء مفتوحة فهاء .

والموضع الثاني حَوْضَا بالحاء المهملة بعدها واو ساكنة فَضَادٌ معجمة . فألف مكسورة وقد ذكر المتقدمون هذين الموضعين على صور مختلفة في رسم اسميهما توقع في الحيرة واكتفى بإيراد ما ذكره السمهودي في كتابه « وفاء الوفا [١] » في ذكر مساجد تبوك ، ومنه يتضح اضطراب أقوال المتقدمين في

---

(١) ص / ١٠٣٠ الطبعة الثانية .

ضبط الاسمين المذكورين قال :

التاسع بذي الحليفة . قاله ابن زبَالة وغيره أيضاً وهو غريب لم يذكره أصحاب البلدان .

العاشر : بذي الخَلَيفة ، لم أرَ من جمعه مع الذي قبله إلا المجد [1] وقال : إنه بكسر الخاء المعجمة ، وقيل بفتحها ، وقيل : بجيم مكسورة وقيل بحاء مهملة مفتوحة . واقتصر في أسماء البقاع على كسر الجيم .

والذي في تهذيب ابن هشام ذكر هذا المسجد بدل الذي قبله ، وعكس ابنُ زُبَالة .

الحادي عشر : بالشوشق قاله الحافظ عبد الغني عن الحاكم قال المجد : وكأنه تصحيف [2] .

الثاني عشر : بصدر حَوْضَى بالحاء المهملة والضاد المعجمة ، مقصور ، كما وجد بخط ابن الفُرات . واقتصر عليه المَطَريُّ وقال المجد — مع ذكره لذاك في أسماء البقاع — : إنه بفتح الحاء والمد ، موضع بين وادي القُرَى وتبوك قال : وهناك مسجده ﷺ انتهى .

وهو مخالف لما ذكره هناك من المغايرة بين مسجد ذي الحليفة وبين مسجد صدر حَوْضَى في ذَنَب حَوْضَى ، ومسجد آخر في ذي الحليفة من صدر حَوْضَى ، والمغايرة هي التي في « تهذيب ابن هشام » ولعل صدر حَوْضَى هو المعبر عنه بِسَمنة في رواية ابن زبَالة . فإنه — كما سيأتي — ماءٌ قرب وادي القُرى . وفي نسخة المجد في حكاية روايته : ومسجد بذنب حُوَيْضَى ، بدل قوله : بسمنة .

---

(١) يقصد بالمجد : مجد الدين صاحب « المغانم المطابة » و « القاموس » وغيرهما .

(٢) يقصد تصحيف الشقة شقة بني عذرة وقد تكون تصحيف السقيا سقيا بني عذرة وهي سقيا الجزل التي تقدم ذكرها .

(٣) مراده « السيرة النبوية » التي ألفها محمد بن اسحاق ، ثم هذبها عبد الملك بن هشام . وهي مشهورة مطبوعة مراراً .

هذا طرف من اختلاف المتقدمين في ضبط هذين الاسمين .

أما الاسم الأول فليس الحليفة بالحاء المهملة ، ولا الخليفة بالخاء المعجمة ولا الحيفة ولكنه ذُو الجِيـْفَة بالجيم وإسكان الياء المثناة التحتية ، وفتح الفاء وآخره هاء ، وينطق الآن بحذف (ذو) وهو وادٍ من فروع وادي الْجِزْل ، ينحدر من حرة العُوَيْرِض مُتَّجِهاً صوب المغرب ، حتى يصب في وادي الْجِزْل ، ويقع بالنسبة لِحَوْضَا في الشمال على مسافة تقارب ٢٠ كيلاً .

ويوجد في الْجِيفْة ثَمَايِلُ (أحساء) وقت الأمطار ، والقادم من تبوك قد يَمُر بأعلاه .

أما حوضا فبالحاء المهملة بعدها واوٌ ساكنة فضاد معجمة ، وآخره ألف مقصورة ، وهو وادٍ صغير ينحدر من حَرَّة الْعُوَيْرِضِ أيضاً مُتَّجِهاً صوب الشَّرْق ، حتى يفيضَ في أعلى وادي الحِجْر الذي هو أعلى وادي العلا ، وهو يفيض في هذا الوادي في الشمال الغربي منه .

وطريق تبوك يمر بأسفل حوضا .

وأقرب منهل لهذا الوادي هو منهل ثَرْبَة ، وتقع في الجنوب الغربي منه بنحو ١٥ كيلاً .

وحوضا هذا جاء عنه في معجم البلدان وعنه نقل الفيروز آبادي في « المغانم المطابة [١] » ما نصه : حوصاء – بالفتح والمدّ – : موضع بين وادي الْقُرى وتبوك ، نزله رسول الله ﷺ حين سار إلى تبوك ، وهناك مسجد في مكان مصلاه ، في ذنب حوصاء ، ومسجد آخر في ذي الجيفة من صدر حوصاء . وقال ابن اسحاق : حوضا : بالضاد المعجمة والقصر ، كذلك وجدته [٢] مضبوطاً بخط ابن الفرات وقال : وبنى به مسجداً قاله الحازميُّ .

مدينة ذِي الْمَرْوَة : وقد استفدت من رحلتي هذه الاطمئنانَ بأن ما حددت به مدينة ذي المروة في كتابي « بلاد ينبع » كان صحيحاً فقد ذكرتُ

---

(١) ص ١٢٣ .

(٢) القول للحازمي وهو في كتابه « البلدان » .

أنها كانت تقوم في الموقع المعروف الآن باسم « أمْ زرب » في ملتقى الأودية التي منها وادي الجزل ، ذلك أنني عرفت أن المروة التي كانت تسمى بها تلك المدينة لا تزال معروفة باقية ، وتقع بالنسبة لها غرباً غير بعيد منها بينها وبين جبل يدعى الآن الظليعة (بقرب خط الطول ٢٢َ – ٣٨ْ وخط العرض ٣٨َ – ٢٥ْ تقريباً) .

والمروة تلك صخرة بيضاء منتصبة .

ولكي يدرك القارىء أهمية مدينة ذي المروة يحسن إيراد طرف مما ورد عنها في كتب المتقدمين :

قال البكري [1] : وعنه نقل صاحب « الروض المعطار [2] » : (ذو المروة من أعمال المدينة قرى واسعة لجهينة) . ومفهوم هذا أن اسم ذي المروة يشمل المدينة المذكورة وما حولها .

وعدها المقدسي في كتاب « أحسن التقاسيم » [3] من مدن خَيْبَرَ هي والحوراء .

وفي « معجم البلدان » (ذو المروة قرية بوادي القُرى ، وقيل بين ذِي خُشُبٍ ووادي القرى ، نسبوا اليها أبا غسان محمد بن عبد الله بن محمد الـمَرْوِيَّ سمع بالبصرة الفضل بن الحُباب ، وروى عنه محمد بن عبدوس النسويُّ ، سمع منه بذي المروة) انتهى .

وقال أيضاً : (ذو المروة يفضل تَمْرُهُ على سائر تمور الحجاز إلا الصَّيحاني بخيبر ، والبردى والعجوة بالمدينة) انتهى .

وجاء في كتاب « وفاء الوفا » للسمهودي ما نصه : (ذو المروة على ثمانية بُرُدٍ من المدينة . وقال المجد : هي قرية بوادي القرى ، وهو مأخوذ من قول ياقوت : ذو المروة قرية بوادي القرى ، على ليلة من أعمال المدينة ، ثم قال المجد : وقيل : بين ذي خُشُبٍ ووادي القرى .

---

(١) معجم ما استعجم ١٢١٨ .
(٢) ص ٥٣١ .
(٣) ص ٨٣ .

قلت : كونها بين ذي خشب ووادي القرى المشهور المعروف ، لكن أهل المدينة اليوم يسمون القرى التي بوادي ذي خشب : وادي القرى ، فلعله مراد ياقوت .

وذكر الأسدي ما يقتضي أنّ ذَا المروة بعد وادي القرى بنحو ثلاث مراحل جهة المدينة . وروى ابن زبالة ان النبي ﷺ نزل بذي المروة وصلّى بها الفجرَ ، ومكث لا يكلمهم حتى تعَالَى النهارُ ، ثم خرج حتى أتى المروة فأسند إليها ظَهْرَهُ مُلْصِقاً ثم دعا حتى ذَرَّ قرن الشمس شرقاً ، يدعو ، ويقول في آخر دعائه : « اللهم بارك فيها من بلادٍ ، واصرف عنهم الوباء ، وأطعمهم من الحُسْنَى ، اللهم أسقهم الغيث ، اللهم سلمهم من الحاج وسلم الحاج منهم » .

وفي رواية أنه نزل بذي المروة فأتته جُهَيْنَةُ من السهل والجبل ، يشكون اليه نزول الناس بهم ، وقهر الناس لهم عند المياه . فدعا أقواماً فأقطعهم وأشهد بعضهم على بعض بأن قد أقطعتهم وأمرت أن لا يُضَامُوا ودعوت لكم ، وأمرني حبيبي جبريل أن أعدكم حلفاء) .

وقال أيضاً : [1] (وفي سنن أبي داود أن النبي ﷺ نزل في موضع المسجد تحت دَوْمَةٍ فأقام ثلاثاً ، ثم خرج إلى تبوك وأن جُهَيْنَةَ لحقوه بالرَّحبَة ، فقال لهم : « من أهل ذي المروة » ؟ قالوا : بنو رِفَاعَةَ من جُهينة . فقال : « قد أقطعتها لبني رفاعة » . فاقتسموها فمنهم من باع ، ومنهم من أمسك فعمل) .

ولما ذكر مساجد النبي ﷺ في طريق تبوك عد الثامن عشر بذي المروة وقال : (قال المطريُّ : على ثمانية بُرُدٍ من المدينة كان بها عيون ومزارع وبساتين أثرها باقٍ إلى اليوم) . انتهى .

وأضيف إلى ما تقدم أن آثار البلدة من أقنية وأُسُسِ بناءٍ وآثار زراعة لا تزال باقية .

---

(١) ص ١٠٣١ الطبعة الثانية .

قُرْحُ أين تقع ؟ قرح هذا بالضم ثم السكون وهو سوق وادي القرى يضاف اليه صَعيد قرح على ما ذكر ياقوت والفيروز آبادى والسمهودي ، وكان من أسواق العرب في الجاهلية ، وقيل : إنّ هلاك قوم عاد كان في هذه القرية (١) ومن أوفى من وصفه من المتقدمين ممن اطلعت على كلامهم المقدسيُّ في كتاب « أحسن التقاسيم » الذي ألفه سنة ٣٧٥ قال : (وناحية قُرْح تسمّى وادي القرى ، وليس بالحجاز اليوم بلدٌ أجلُّ وأعمَر وآهَلَ وأكثر تجارة وأموالاً وخيراتٍ — بعد مكة — من هذه ، عليها حصن منيع ، على قُرْنتِهِ قَلْعَةٌ ، قد أحدقت به القرى ، والتفّتْ به النخيل ، ذو تمور رخيصة ، وأخبارٍ حسنة ، ومياه غزيرة ، ومنازل أنيقة ، وأسواق حارّة ، عليه خندق ، وثلاثة أبواب محددة ، والجامع في الأزقّةِ ، في محرابِهِ عَظْمٌ ، قالوا : هو الذي قال للنبيّ ﷺ : لا تأكلني فأنا مسموم .

وهو بلد شاميٌّ مِصْريٌّ عِراقيٌّ حِجَازيٌّ ، غير أن ماءهم ثقيل ، وتمرهم وسط ، وحَمّامُهم خارج البلد . والغالب عليها اليهود) انتهى .

لم أستطع الاهتداء إلى موضع قرح ولكنني استنتج استنتاجاً من كلام المقدسي : أنه القسم الشمالي من مدينة العلا فقد ذكر ان حصن البلدة على قُرّنته قلعة . وكما يفهم من ذكر مسجد قرح المنسوب إلى النبي ﷺ أنه عَلَم بِعَظْمٍ ، وتقدم ذكر جامع العلا الكبير ، وأنه يسمى مسجد العظام ، وفي الطرف الغربي من البلدة القديمة قلعة على جبل . استنتج من كل هذا أن بلدة قرح جزء من العُلا شملها الآن اسم العلا ويؤيد هذا ما أورده ابن جرير في تفسير سورة الأعراف عن ابن اسحاق — في الكلام على قوم ثمود : وكانت منازلهم الحِجْر إلى قُرْح وهو وادي القرى ، وبين ذلك ثمانية عشر ميلاً . انتهى .

وهذا ينطبق على ما يعرف الآن باسم خريبة العلا ، وهي الطرف الشمالي من البلدة وتبعد عن الحجر بنحو ٢٥ كيلا وهو يقارب ١٨ ميلاً .

---

(١) « وفاء الوفاء » ص ١٢٨٨ .

(٢) صفحة ٨٤ .

ولهذا فاسم العُلا شَمَل ما كان يعرف قديماً باسم قُرْح ، وكثيراً ما يحدث مثل هذا بحيث يسمي الموضع وما حوله باسم جزء منه فيطغى اسم ذلك الجزء على جميع الموضع ويُنْسَى ما عداه .

وعلى ذكر بلدة العلا نجد وصفها في أول القرن السابع قريباً من وصف المقدسي لقرح . قال ابراهيم بن شجاع الحنفي في كتاب ألفه سنة ٦٢٣ [١] : (العلا أرضُ رَمْلٍ أبيض ، بين جبلين عاليين ، ثم مضيق ، ثم وادي ، ونبات كثير ، وعيون ، ثم مدينة العلا وسط الوادي ، نخل كثير ، وتمر ، والمدينة صغيرة ، وبها قلعة صغيرة على رأس جبل صغير ، وعيون عذبة يزرع عليها ، ولها أمير ، ويودعون بها أمتعتهم) .

ووصفها ابن فضل الله العمري في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » بأنها إحدى مدن الحجاز ، ماءٌ جارٍ ، ونخل وزرع ، يضرب بمفازتها المثل ، ليس بالمفازة ماء إلا بئر الأخيضر بوسطها ، ثم حفاير الزمرد وشعب النعام .

وقال صلاح الدين الصفدي في رحلته إلى الحج :

لقد بعــد العــلا ونأى محــلاً	وطال ، ونحن نسأل عن عريبه ؟
ويا عجباً لــه يزداد بُعْــــداً	وقد قمنا إليــه من جنيبـــــه

وقـــال :

لـــا حججــتُ وحجــتي	لم تـــرض مـــا بـــين المـــلا
أبصرت قـــدري خـــامــلا	لـــا دخلتُ إلى العــــــلا

وقـــال :

خرجنا نحو طيبــة من دمشــق	بأفئـــدة للقياهـــا حـــــرارِ
ولكن في العلا زدنا اشتياقـــاً	كأنَّ قلوبنا حُشِيتْ بِنـــارِ

---

(١) « منازل الحجاز » مخطوط .

(٢) « درر الفوائد المنظمة : ٤٦٤ .

(وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار)

الدَّيْدَانُ : أطلق كثير من علماء الآثار من المستشرقين هذا الاسم على منطقة العُلا ، وكنت أظن أن الاسم اغريقياً أو رومانياً لم يعرفه علماء العرب ، ولعلي أشرت إلى هذا في الكلمة التي القيتها في (الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة) في شهر جمادي الأولى من هذا العام ، فعقب طالب في قسم الآثار على كلمتي قائلاً : قد ذكرها صاحب « معجم البلدان » فشكرته ولم ارد البحث في الموضوع لأنني أعرف أن صاحب معجم البلدان قال : الدَّيْدَان مدينة حسنة ، كانت في طريق البلقاء من ناحية الحجاز ، خربت . انتهى .

وأعرف أن هذا الكلام لم يحدّد موضع هذه المدينة ، وما أطول المسافة بين البلقاء والحجاز ؟! وذكرت في كلمتي تلك قول ابراهيم بن شجاع الحنفي ، وهو معاصر لياقوت ، بأن الديدان وادٍ فيه مدينة وقد تقدم في الكلام عن الرَّحَبَة .

وفي أثناء الرحلة قابلني ذلك الطالب ، ويظهر أنه من أهل العلا الحضر ، فوجه إليّ أسئلة فهمت منها أنه لا يقصد الاستفادة ، وإنما يريد أن يظهر مقدرته العلمية ، فحاولت إفهامه بأن كلام إبراهيم بن شجاع صَرِيْحٌ في إطلاق ذلك الاسم على اسفل وادي العلا بخلاف كلام ياقوت . والغريب في الأمر أن هذا الطالب يريد أن يقدم رسالة تتعلق بدراسة هذا الموضع نفسه لنيل درجة جامعية وما كان يعرف قول ابن شجاع فيه ولا ما جاء في كتب المتقدمين غير ابن شجاع عنه ولهذا حاول جاهداً أن يظهر أن قول ابن شجاع قول لا قيمة له ، ولعله فعل هذا لأنه لم يسبق أن قرأه ، قال : إنه قرأ عن آثار هذه المنطقة كثيراً وصار يورد أقوالاً استقاها كلها من كتاب المستشرق موزل عن « شمال الحجاز » ولم يذكر اسم الكتاب وأخذ يعدد أسماء مؤلفات لم يرها فأفهمته بمصدر أقواله وبأن بعض ما ذكر ليس صحيحاً ، ولما لم أر الفتى في موقف المستفيد ورأيته كما قيل : زَبَّبَ قَبْلَ أنْ يُحَصْرِمَ) انصرفت عنه .

أذكر هذا والأسى يغمرني من حالة كثير من شبابنا الذين عندما ينال أحدهم طرفاً يسيراً من العلم يتوهم أنه بلغ الغاية .

حمد الجاسر

بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية

من أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ الجزيرة

ـ محمد بن احمد الملقب بابن المليح	انس الساري والسارب من اقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب .
الخزانة العامة ـ دار الوثائق ـ الرباط رقم ك ٢٣٤١	حج عام ١٠٤٠ هـ
ـ ابو سالم العياشي	الرحلة العياشية
المكتبة الملكية بالرباط رقم ١٥٦	حج عام ١٠٧٤ هـ
ـ احمد المشتوكي	هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام
الخزانة العامة بالرباط ق ١٩٠	حج عام ١٠٩٦ هـ
ـ احمد بن ناصر الدرعي	الرحلة الكبرى
الخزانة العامة بالرباط د ١٢٩١	حج عام ١١٢١ هـ
ـ عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي	رحلة القاصدين ورغبة الزائرين
المكتبة الملكية بالرباط ٥٦٥٦	حج عام ١١٤١ هـ

ـ ابو محمد الشرقي الاسحاقي	رحلة الوزير الاسحاقي
المكتبة الملكية بالرباط ١٤٢٨	حج عام ١١٤٣ هـ
ـ عبد المجيد بن علي الملقب بالزيادي	بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام
الخزانة العامة بالرباط ك ٣٩٨	حج عام ١١٤٨ هـ
ـ احمد اللكوسي الحضيكي	رحلة إلى الحرمين الشريفين
الخزانة العامة بالرباط د ٨٩٦	حج عام ١١٥٢ هـ
ـ ابو مدين احمد بن الصغير الدرعي	الرحلة الحجازية
الخزانة العامة بالرباط ق ٢٩٧	حج عام ١١٥٢ هـ
ـ محمد بن عبد السلام الناصري	الرحلة الكـبرى
الخزانة العامة بالرباط د ٢٦٥١	حج عام ١١٩٦ هـ
ـ محمد بن عبد الوهاب بن عثمان .	احراز المعلي والرقيب في حج بيت الله الحرام
المكتبة الملكية بالرباط ٥٢٦٤	حج عام ١٢٠٠ هـ

طوبوغرافية المنطقة :

فرضت طبيعة المنطقة الواقعة ما بين (خليج العقبة) و (مكة المكرمة) على القوافل سلوك طريق خاص يضيق شمالاً لاقتراب السلاسل الجبلية من البحار ، ويتسع كلما اتجهنا نحو الجنوب .

وهذا الطريق ينقسم إلى مناطق متباينة من حيث البيئة والمناخ وصلاحيته للحياة البشرية وقد عكست (مخطوطاتنا) جميع هذه المظاهر الطبيعية إلى حد يمكن معه القول بأنها تعد دراسة طوبوغرافية للمنطقة .

وأهم ما تتصف به الطريق :

١ — من (خليج العقبة) إلى (عش الغراب) :

الطريق ساحلي تكثر به المرتفعات والوهاد وتعبره القوافل في عدة ممرات ولا تخلو بعض نواحيه من وجود أحساء ونخيل .

والمخطوطات تكاد تجمع على أن العقبة هي (أول أرض الحجاز ... فان من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود ويتقوى الحر وتسترمل الأرض) (العياشي . ص ١٧٦) .

والطريق بعد العقبة عقبة (ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل اثر جمل كأنه متن الصراط إلا أنه غير مستقيم (الدرعي ص ٩١) .

٢ — من (عش الغراب) إلى (عيون القصب) :

تصبح الطريق داخلية بوجه عام ، تكتنفها مرتفعات جبلية (ومن هنا لا يرى البحر إلى عيون القصب بعد ثلاث مراحل بين جبلين في أرض كثيرة الغبار تسمى وادي القر لبرودته وهو طويل متصل إلى مغارة شعيب وليس به ماء) (الناصري . ص ٢٠٣) . وأهم مناطق هذه المرحلة مغارة شعيب التي توجد (بها مياه جارية عذبة طيبة خفيفة وفيها مرعى للابل والبغال) الدرعي الصغير ص ١٠٨) .

أما مدين فهي (بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة) (الصغير ١٠٨) .

٣ — من (المويلح) إلى (الوجه) :

الطريق ساحلية تتدفق في بعضها المياه الغزيرة كما تنتشر أشجار النخيل ولا تخلو بعض مناطقها من زراعة الخضر وبعض الحبوب .

وتتوفر هذه المرحلة على أربعة موانىء هي بالتوالي : المويلح ، الازلم ، اصطبل عنتر ، الوجه .

٤ — من (اكره) إلى (الينبوع) :

تصبح الطريق داخلية وتشتد حرارتها ولا توجد فيها عمارة .

ويمكن تسمية هذه المرحلة بطريق الأودية لوجود ست اودية أهمها : وادي اكره ، العقيق ، النبط ، النار (هبت على الناس ريح السموم وتسقيهم من نضيج اليحموم واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس واشتد العطش على الرجال فبركت الابل وفرت لظلال الاشجار) الدرعي ص ٩٥) .

والطريق بين المويلح والينبوع يعد من أهم المراحل (فلا عمدة للحجاج في طعام ولا في علف سوى الماء عند الحاجة اليه وجله قبيح فلا ينزلون في هذه المفاوز إلا النزول المعتاد الذي لا يحصل بدونه المراد ويسمونها اليوم العشارية لأنها عشرة مراحل متوالية لا إقامة فيها) (الزبادي ص ٦٦) .

٥ — من (الينبوع) إلى (مكة المكرمة) :

الطريق داخلي ، آهل بالسكان وتعزز به الينابيع وتكثر به الأراضي الزراعية (الينبوع أول بلاد الحجاز العامرة فيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية ... وهذا العمران متصل نحو ثلاثة أيام (العياشي ص ١٧٦) .

ومن أشهر أودية هذه المرحلة : رابغ ، وادي العميان ، والزاهر .

ومن الملاحظ ان الطريق الذي تعبره قوافل الحجاج بين العقبة ومكة

لم يتغير طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة كما تؤكد ذلك دراستنا لهذه المخطوطات . واذا كانت مسافة هذا الطريق نحو ١١٥٠ كم فان القوافل تقطعها خلال شهر تقريباً بعد ان ترحل ٢٥ رحلة ، وأهم المراحل :

بعد خليج العقبة ، حفائر النخل ، ظهر الحمار ، عش الغراب ، مغاير شعيب ، مدين ، المويلح ، بندر الازلم ، اصطبل عنتر ، بندر الوجه ، اكره ، العقبة الزرقاء ، الحوراء ، العقيق ، النبط ، وادي النار ، الينبوع ، السقائف ، بدر ، مستورة ، رابغ ، قديد ، خليص ، عسفان ، وادي العميان ، وادي الشريف ، فمكة المكرمة .

ومن مكة نحو المدينة تعود القوافل من نفس الطريق حتى بدر ومنها تتجه نحو الجديدة ، النازية ، الفريش فالمدينة المنورة . وهذا الطريق يعرف : (بالطريق السلطاني) . وتقطعه القوافل خلال إحدى عشرة مرحلة . ومن المدينة المنورة تتجه القوافل نحو الينبوع فخليج العقبة . اما الطريق بين مكة وجدة فتقطعه القوافل في مرحلة واحدة . وما بين مكة والطائف فخلال يومين لوجود المرتفعات الجبلية : (والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي ويستريح المارة بالنزول فيها واشتراء ما يحتاج من طعام وعلف ... أخذنا في صعود الجبل العظيم .. وغالب الطريق في هذا الجبل قد نقر من الصخور العظام وتصدت الحجارة فيها ببناء رشيق مصفح ... وفي هذا الجبل أشجار عظيمة من العرعار وغيره .. ورأينا القرود تصيح وتثب في أعالي تلك الصخور فتعجبنا من ذلك ... ثم سلكنا في شعاب ذات مياه غزيرة ... إلى أن وصلنا إلى قرن الثعالب وبازائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه ... إلى أن وصلنا بلد الطائف) .

(العياشي ١١٦ جـ ٢)

(فما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكاناً أشبه ببلادنا منه) (العياشي ١١٦ جـ ٢) .

تعكس مخطوطاتنا الأوضاع المختلفة للحياة الاقتصادية في هذه المنطقة من زراعة ورعي وتجارة ومواصلات ، ومهما قيل عن قساوة الطبيعة فان سقوط الأمطار في بعض الفصول ووجود ينابيع المياه بالاضافة إلى سهولة استخراج الماء من الآبار تساعد جميعها على إنتاج أنواع مختلفة من المزروعات وعلى تربية اعداد مهمة من الماشية (وهذه البلاد الحجازية مطرها قليل وان نزل كان طوفاناً في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب المتطاولة بها) .

(الناصري ٢١٠)

يضاف إلى ذلك وجود أراضي خصبة صالحة للزراعة (وعادة أهلها كغالب أودية الحجاز يزرعون على ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء) (الناصري ٢٣٠) .

ومن الأمثلة التي ساقها رحالتنا عن خصب بعض المناطق ومنتجاتها :

مزارع مدين (فعادة اعراب مدين ان تتسوق الحجاج هناك باحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه) (الدرعي الصغير ١٠٨) .

وتبوك حيث توجد (بساتين وكان أهلها يأتون بالرمان والعنب يبيعونه للحجاج) (رحلة ابن عثمان) . والينبوع وبدر ورابغ (الذي تزرع فيه مقاثي كثيرة ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز . (العياشي ١٨٥) .

أما أراضي قديد فتنتج الفواكه المختلفة وبها (دلاع جيد رخيص ويسمونه بلغتهم حبحب ولا يكاد ينقطع شتاء ولا صيفاً إلا في السنة الجدبة) (العياشي ١٨٦) .

وفي وادي الشريف (قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري وأعظمها القرية التي ينزل فيها الحاج وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مؤنقة) (العياشي ١٨٧) .

وفي وادي الزاهر (جنان مكة آبار وأشجار وخضروات) (العياشي ١٨٩) أما في ضواحي المدينة المنورة فتوجد (فواكه في غاية الجودة خصوصاً

عنبها ورطبها وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجزر والباقلا والملوخية والبامية والبصل واللفت) (العياشي ٣٠١) .

وفي منطقة آبار علي توجد (آبار كثيرة عذبة باردة تسقى بها نخيل عليها وخضر كثيرة سيما الباذنجان الكثير والقرع بأنواعه الجيد) (الناصري ٢٨٩) .

ثم (نمشي في أرض متسعة خصبة تجتمع اليها سيول كثيرة وتزرع فيها مقاثي متنوعة تسمى برقة) . (الناصري ٢٣٢) .

أما الظهران (فهو واد كبير به قرى ونخيل وبساتين وفواكه وخضر وعيون عذبة ... تقام به سوق عظيمة .. ومنه يحمل لمكة أودية من الفواكه والخضر) (الناصري ٢٣٢) .

وبوجه عام (اكثر المقاثي في بلاد الحجاز انما تزرع على ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء (العياشي ١٨٦) .

وفي الطريق من مكة إلى الطائف تتعدد المناطق الخصبة التي تنبت أنواعاً مختلفة من الفلفل والفواكه (وادي نعمان ... واد عظيم أفيح ... به ادواح يانعة وقد كساه الخصب ألواناً ... وبازاء قرن الثعالب القرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه . (العياشي ١١٦ . ج ٢ .)

ومن نماذج الري التي أثارت انتباه بعضهم خليص حيث (سيق الماء في قنوات محكمات من العين ينفجر في مواضع للسقي ... إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية ... ثم يخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد) (العياشي ١٨٦) .

أما تربية الماشية فتقوم بها مجموعة من القبائل التي تنتقل في البادية إلى حيث الكلأ والعشب وقد سجل بعض رحالتنا حالات مختلفة لمتاجرة هذه القبائل مع قوافل الحجاج بأنواع الماشية ومنتجاتها :

ونزلنا بندر الازلم ووجدنا شرذمة من الاعراب يبيعون الحشيش والغنم ... ولما بلغنا العقبة السوداء ... تلقت الاعراب الركب بكثرة السمن واللبن والخرفان للبيع (الدرعي ٩٦) . وكثيراً ما تستعد هذه القبائل لمواسم الحج (واخبرت ان

العرب يستعدون لذلك في أول السنة فيحصدون في البادية أيام الربيع وييبسونه وينقلونه إلى قرب الامصار حتى تأتي الركبان فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم) (العياشي ص ٣٠٠) .

كما ان متاجرة اعراب البادية مع المدن لا تنقطع (ومن عادتهم في الشراء من الاعراب الذين يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم ان يشتري منهم قوم من الاعراب الساكنون بالمدينة وأطرافها ... فيدخلونه الاسواق ويشتري منهم أهل المدينة) (العياشي ص ٣٠٠) .

كانت للتجارة الأهمية الكبرى في النشاط الاقتصادي بهذه المنطقة ويمكن القول بأن جميع المراكز التي كانت تحط بها الرحال هي أسواق تجارية بالدرجة الأولى : (اعراب مدين ... تسوق الحجاج هناك باحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه) (الصغير ص ١٠٨) .

وأهل تبوك (يأتون بالرمان والعنب ويبيعونه للحجاج (ابن عثمان) .

وفي الينبوع يوجد أهم سوق في (القرية التي ينزل بها الحاج ... وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج) (العياشي ١٧٨) .

وفي بدر (اسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد (العياشي ١٨٣) .

وفي الفرع قرى متعددة متفرقة ذات نخيل وذات ظل ظليل وعيون جارية عذبة .. وقامت بين أهله وبين الركب سوق عظيمة في المحتاج من زرع وغنم وعنز) (الناصري ٢٨٧) .

وإلى جانب تجارة المزروعات والغلل هناك تجارة الاسماك والجواهر (وسرنا فنزلنا الحوراء ... وبها الجبل المنقطع في البحر يسكنه اعراب كثير عيشهم صيد السمك وقد باعوا في الركب منه كثيراً ... وهم يغوصون في بعض الأحيان بمكان قريب منهم في البحر فيقعون على جواهر نفيسة يشتريها منهم بعض من مر بهم من الحجاج بثمن بخس) (الناصري ٢١٢) .

وأعظم المراكز التجارية المدن الأربع : مكة ، المدينة ، جدة والطائف ،

ومن أهم اسواق مكة : المدوة [1] (ثم اتينا المدوة في زحام كثير في السعي لانه من أسواق البلد العظيمة) (العياشي ١٩٢) .

وفي جدة (اسواق ممتدة مع جانب البحر وغالبها أخصاص واسعة متفتحة إلى البحر) (الدرعي ١٣٢) .

أما الطائف ففيها (اسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد ويجلب اليها الحبوب والثمار والزبيب والعسل مما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل الينا انا لم نر مثل ذلك في الكثرة في الاسواق العظيمة) (العياشي ١١٦ ج ٢) .

وعن وسائل المواصلات هناك الرواحل من القوافل ، وقد كانت (من عاداتهم في اكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبوع ان بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين فمن احتاج الكراء من ارباب الدواب أو ارباب السلع اتى اليهم فيعقدون له الكراء مع صاحبه ويتكلفون بما عسى ان يصدر من الجمال من غدر في الطريق بهروب أو مكر ... ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكرى وذلك دأبهم بمكة أيضاً) (العياشي ٣٠٠) .

اما كيفية السير (فصرنا نرحل عند الزوال وننزل عند الفجر والشروق على حساب ما اقتضاه الحال) (الزبادي ص ٥٥) .

وكثيراً ما كانت بعض مراحل الطريق والوعرة منها تنظم بشكل خاص (فسلكنا طريق المصانع .. والمصانع سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق فجعلوا تلك الاعلام المبنية دليلاً عليها وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً طويلاً خارجاً إلى ناحية الطريق ليستدل به الماشي ليلاً وربما علقوا على بعض الاعلام مصابيح بليل وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل حتى انتهوا إلى رأس وادي الرمل) (الزيادي ٥٦) .

ولا تخلو بعض المراحل من أماكن خاصة يستريح بها الحاج (والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي ويستريح المارة بالنزول فيها واشتراء ما يحتاج من طعام وعلف كما ذلك بطريق جدة ... وقد آوانا الحر إلى قهوة باصل الجبل

---

(١) الصواب : (المروة) .

بين صخور عظام حولها ماء صاف عذب بارد سهل التناول للصارد والوارد (العياشي ١١٦ ج ٢) .

وفي الموانيء توجد السفن التي تربط بلاد الحجاز بالمناطق المجاورة لها ، كميناء المويلح (وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من سويس والقادمة من جدة) (الدرعي ٩٣) . .

وميناء الحوراء (مرفأ سفن مصر) (الناصري ٢١٢) .

ومرسى الينبوع الذي (يجلب منه الميرة للمدينة فان السفن الجالبة للطعام من مصر ترسو بينبوع البحر ما كان منها للمدينة) (الناصري ٢١٥) .

ويعد ميناء جدة الاول في بلاد الحجاز (فهي من أعظم البقاع وهي مدينة ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار وغالبها معمول بالشريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار وهي مع ذلك كبيرة المقدار واسعة الانحاء تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن) (العياشي ١٠٤ ج ٢) .

وإلى جانب ما تقوم به الموانيء من دور في المواصلات يتوفر كل منها على (حصن كبير فيه عسكر وامين ويخزن فيه الميرة) (الدرعي ٩٣) .

(وشأن هذه البنادر ان يخزن فيها الطعام على الدوام ليجده الركب في الذهاب والإياب ويترك الناس فيها ما استثقلوه من الازودة والأطعمة إلى الرجوع ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر لما قدر أحد على سلوك هذه الطرق لكثرة مخاوفها وقلة مرافقها) (الزيادي ٥٦).

والحديث عن التجارة يجرنا إلى ذكر ما أوردته مخطوطاتنا عن الأسعار والعملة وأنواع المكاييل ، ففي موسم الحج تعيش البلاد ظروفاً خاصة (فلا سعر معلوماً ولا مكيال وافياً ولا ميزان صحيحاً كل يفعل ما يشاء ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك) (العياشي ٢٨٥) .

وبعد انقضاء أيام الموسم (رجعوا إلى معتاد حالهم في الأمور الدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكاييل والموازين) (العياشي ٢٨٥) .

وترتفع الأسعار أيضاً في الفصول الغير الممطرة (ولم تزل الأسعار على ما

تقدم من الغلاء إلى أن هجم الشتاء وقرب زمن الربيع فلانت الاسعار وكثر اللبن والجبن في الاسواق . (العياشي ٣٠٢) .

وعن اثمان بعض الحاجات (كان القمح ثلاثة اصاع بريال ... اما التمر فنحو اربعة أصاع بالريال والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت ... والعسل اشتريت رطلاً منه بقريب من ثلث الريال ... وأما الفواكه ... العنب بثلاث مئة للرطل .. واللبن يباع بمائتين للرطل) (العياشي ٣٠٢) .

أما العملة المستعملة فنجد : الدينار الذهبي

الريال الفضي

القيراط المسكوك من الفضة

القرش

المائديـــة

وقد كان الريال يساوي ٥٠ قيراطاً . وعن المكاييل هناك : الصاع او الربعي واجزاؤه الركيلة .

الناحية الاجتماعية :

رغم الأحوال الصعبة للحياة في المنطقة ما بين خليج العقبة والطائف فان الطابع المميز للسكان بها يكاد يكون الاستقرار بوجه عام ، وذلك في الواحات التي تتوفر على المياه وبعض الأراضي الصالحة للزراعة وتربية الماشية . والمراكز التي تحط بها الرواحل على طول الطريق جميعها قرى تتوفر على الكثير من الشروط التي يتطلبها نزول الحجاج من طعام وشراب وإقامة وعلف للدواب وغير ذلك ، وحسب مخطوطاتنا هذه ، يوجد ما بين خليج العقبة ومكة وهي مسافة تقدر بنحو ١١٥٠ كلم ، ازيد من ٢٥ قرية تختلف عن بعضها من حيث الاهمية والسعة وتجمع السكان :

ففي الينبوع مثلاً (قرى كثيرة ... وهذا العمران متصل ثلاثة أيام ... وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق وتعمر

هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج (العياشي ٨٧٨) .

وفي خليص حيث عين ماء تجري ، ابنية وقهاوي وسوق) (العياشي ١٨٧) .

ويتجلى طابع الاستقرار في المدن الاربع الرئيسية : مكة ، المدينة ، جدة والطائف ولكل منها طابعها المميز بحكم موقعها وأهميتها وظروفها العامة :

(فأهل المدينة أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا وتغال في الملابس الفاخرة وتزينوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم لكثرة سكنى الاعاجم بها فان بها طائفة كبيرة من عسكر الترك ... خلاف أهل مكة فانهم لم يزالوا على اعرابيتهم واستعمال البداوة وعدم المبالات والإعتناء في الملابس والمآكل قد غلبت عليهم البداوة وكثرة مخالطتهم لاهل البادية وسكناهم بها حتى امراؤها من الاشراف فان غالب سكناهم بالبادية وان كانت لهم منازل بمكة ... ولباسهم على زي لباس العرب) (العياشي ٣٠٣) .

أما جدة (فمن أعظم البقاع وهي مدينة كبيرة ممتدة على ساحل للبحر نحو ميلين ... فيها قهاوي ومجالس حسنة يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها ورشها بالماء وفيها جلوس غالب أهل البلد وقد اتخذوا فيها اسرة كبيرة منسوجة بصفة محكمة) (العياشي ١٠٤ جـ ٢) .

وفي الطائف (قصور تحيط بها جنان من نخيل قليل وأعناب كثيرة وفواكه مما يشتهون) (العياشي ١١٦ جـ ٢) .

لقد كان من نتيجة تعامل اعراب هذه المناطق مع الوفود المختلفة للحجاج أن تأثروا وأثروا وظهرت لديهم مع الأيام عادات وتقاليد لم يغفل رحالتنا عن تدوين بعضها (لا زالت معهم في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة قديمة وافصح منهم عرب برقة لقلة مرور الناس بهم وعدم مخالطتهم لغيرهم وقلة جولانهم وعدم دخولهم الأمصار عكس الحجاز) (للناصري ٢٨٨) .

وإذا كان الحجاج يفدون على الحرمين من جميع بقاع العالم الاسلامي فان اهم الوفود الإسلامية كما دونتها بعض مصادرنا هذه ، كانت تتكون من

(الركب الفاسي ثم الجزيري ثم المصري ثم الشامي ثم اليمني ثم الاصطنبولي ثم العراقي ثم الكوفي ثم البصري ثم المندي ثم العجمي ثم الكنكي السرتي ثم القرماني ثم البنكلي والبعض من هذه القبائل الرحل هي التي كانت تقوم بأعمال النهب وقطع الطريق على قوافل الحجاج وعند استقصاء عوامل خروج هذه الجماعات كما جاء في مخطوطاتنا ، نجد :

١ – جدب مناطقها أو اشتداد القحط في بعض المواسم .

٢ – جهالتها الجهلاء .

٣ – انعدام السلطان .

٤ – طغيان نفوذ بعض القبائل .

٥ – عمليات انتقام وثأر .

وكثيراً ما كانت تستغل التضاريس الوعرة للتربص بها كأن ترابط في بعض الممرات والأودية وعند المرتفعات :

(ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل أثر جمل كأنه متن الصراط إلا أنه غير مستقيم وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشد اذايتهم وتعظم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة) (الدرعي ٩١) .

(ثم مررنا إلى مرحلة تنتهي عند اصطبل عنتر وقد اختفى بها العربان للأذى وتستروا (الصغير ١١٠) .

وعن طغيان بعض القبائل هناك (حرب التي عمرت من البلاد الحجازية مسافة اثني عشر مرحلة ... ينيفون على مائة الف رجل لا يقيمون وزناً لقبيلة من قبائل الحجاز) . (الناصري ٢٢٧) .

وغالباً ما كانت عمليات قطع الطريق تستهدف الحصول على أموال ومؤن وذخائر ولم تكن للقتل وسفك الدماء أي لسد الحاجة بالدرجة الأولى : (وكانوا لقوا من الحرامية شدة في الطريق ... ودفعوا للاعراب مالاً كثيراً نحو مائة الف بعدما انتهب من ركبهم وقتل اناس) (العياشي ١٩٠) .

وقد كان لانعدام السلطان اثره الكبير في هذه العمليات (فالسراق يهجمون على الناس هجوماً ويعظم اذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم) . (العياشي ١٩٢) .

كما أن هذه العمليات كانت تتم للانتقام والثأر (عند عسفان وجدنا الأعراب هناك لمحاربة المصري لشنآن بينهم وبعثوا الينا لما نزلنا رسولاً وهم بالجبل يذكر للشيخ ان المغاربة ليس بيننا وبينكم الا الخير واردناكم ان ترحلوا وتخلوا بيننا وبين المصري انه تعدى علينا) (الصغير ١٣٨) .

وبالمقابل هناك قبائل كثيرة في بوادي هذه المناطق كانت تقوم بالاضافة إلى خدمة الحجاج ، بحمايتهم والتعهد بشؤونهم مقابل أموال معلومة (وبعث لهم عشرة آلاف ريال مرتب سنة فامتنعوا عن قبولها وردوها وقالوا لا نقبل شيئاً إلا إذا دفعت لنا مرتب اربع سنين السالفة) (الناصري ٣٠٩) .

وإذا ما داهمت القافلة المحمية أخطار ، هب حماتها من أفراد القبيلة للدفاع عنها (فاخرج الشيخ خزانة البارود وأمر بتفريقه على الرماة في المحلة ... وعندما حط الركب في فضاء متسع وخلع على الاعراب ما رآه من الخلع عادوا بسلام) (ابن مليح ٨٦٠) .

ومن جهة أخرى ان دراستنا لهذه المصادر تكشف لنا عن حقيقة هامة وهي ان ما كان يلاقيه الحجاج من أهوال ومحن ناشئة بالدرجة الأولى عن قساوة الطبيعة ووعورة التضاريس وأخطار السيول وشدة البرد إلى جانب عمليات النهب وقطع الطريق :

(في وادي النار هبت علينا ريح غربية كانت أول النهار باردة ووسطه وآخره سموماً لقي منها شدة ولم يروا أشد منه قبله) (العياشي ١٧٧) .

(وقع به سيل عرم بعثر الحجاج فذهبت بسببه رقاب ودواب وأموال عريضة ولم ينج إلا من كان على التلول والكدى) (الناصري ٢٠٩) .

(وما قط رأينا مثل هذه الرحلة في درب الحجاز طولاً وبرداً حتى مات بها خلق كثير من الجوع والبرد) (الناصري ٣١١) .

(وربما نزل البرد بهذه البلاد يحاكي في الكبر بيض الدجاج فيهلك الناس والدواب) . (الناصري ٢١٠) .

وفي بندر الوجه (هب على الناس ريح السموم وتسقيهم من نضيج اليحموم واشتداد الحر وتوالي الكرب على الناس واشتد العطش على الرجال فبركت الابل وفرت لظلال الأشجار ... مات من المغاربة زهاء الستين ... نساء وصبياناً ورجالاً وولداناً هذا ما رأينا عيانا) (الدرعي ٩١) .

ووادي النبط (واد كبير بين جبلين لا سعة فيه في النبط إلى الخضيرة فاذا طلع النهار واشتد الحر حجبت الجبال عنه الهواء فينعكس غربياً أو شرقياً صاعداً مع الوادي او منهبطاً فيصير سموماً محرقاً ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع فربما اتلف الناس فيه العطش فتموت المئات بل الآلاف في اسرع مدة)(الدرعي ٩٧).

وعمليات قطع الطريق وما ينشأ عنها من مضاعفات خطيرة لم تكن تخلو منها بلد من البلدان ، فالرحالة المغربي الدرعي الصغير الذي حج عام ١١٥٢ هـ ، أثبت في مذكراته عن هذه الرحلة مقارنة عجيبة ، فقد قطع المسافة ما بين فاس وايمنتانوت (بسوس) خلال ثلاثة اشهر وسبعة أيام وهي نفس المدة التي قطع خلالها المسافة ما بين طرابلس الغرب ومكة (وهذه مسافة عشرة أيام بيننا وبين فاس قطعناها في ثلاثة أشهر وسبعة أيام مع ما لقينا فيها من الأهوال والأمور المفزعة وما ذلك إلا لقلة الأحكام وكثرة الفساد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) (الصغير ٢٧٢) .

وعن أسماء بعض القبائل التي ورد ذكرها في المخطوطات ، هناك :

- عرب بني عطية عند خليج العقبة .
- اعراب مدين عند بلدة مدين ويدعون العميرات .
- عند المويلح أعراب بني عقبة ومغازة .
- عند اكره اعراب هتيم .
- عند الحوراء اعراب جهينة .
- قرب بدر عرب صبح .

ـ قبائل حرب بلادهم من الدهناء إلى الطائف إلى المدينة المنورة .
ـ اعراب عترة عند منطقة هدية .
ـ قرب الينبوع اعراب الاحويطات وبنو سعد .

المظهر الفكري :

أبرزت مخطوطاتنا في هذا الجانب :

١ ـ دور مكة والمدينة كمركزين ثقافين رئيسين في بلاد الحجاز لمكانتهما الدينيـــة .

٢ ـ حلقات العلم في بيت الله الحرام والمسجد النبوي الشريف لمختلف العلوم ، ولكل منها كراسي خاصة وأماكن معينة وأوقات محدودة .

٣ ـ العلماء ينتمون إلى مناطق مختلفة من العالم الاسلامي شرقاً وغرباً ، وتتضمن هذه المخطوطات قوائم طويلة لهؤلاء العلماء خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة .

٤ ـ لكل عالم اختصاص خاص ومؤلفات عديدة في ميادين اختصاصه وتتوفر مكتباتهم الخاصة على مؤلفات لا حصر لها ، وكثيراً ما كانوا يطلعون عليها طلبتهم ويسمحون لهم بالنقل عنها . أي أن حلقات العلم لا تقتصر على المسجد وحده وإنما تنعقد في منازل العلماء أيضاً (فكانت بيني وبينه محبة وقال لي كلما تحتاج من الكتب للنظر فعندي) (الصغير ٧٦) .

(ذاكرنا في مسائل من العلم واطلعنا على جملة مؤلفاته ومصنفاته وهي كثيرة) (الاسحاقي ٢٨٧) .

ولما كان قسم هام من المصادر التي اطلع عليها حجاجنا قد ضاع أو وقع به تحريف وغيره فان مخطوطاتنا قد اصبحت مصدرنا الأول حسب القاعدة المعروفة (اذا ضاع الاصل حل الفرع محله) .

٥ ـ لقد أجاز هؤلاء العلماء طلبتهم المغاربة في شتى أنواع المعرفة ، وكل إجازة تتضمن التعريف بالعالم وموطنه وشيوخه الذين درس عليهم ، وموضوع

الاجازة . كما تحمل اسم طالب العلم المجاز وتوقيع العالم وخاتمه وتاريخ الاجازة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بصفتي الجمال والجلال وشرع الحرام والحلال .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي من الضلال وعلى آله واصحابه الذين خصهم الله بأعظم الأعمال ومن تبعهم من ورثة الانبياء على أحسن حال مستديمين إلى يوم ظهور محامد الصفات ومحاسن الجلال .

أما بعد فان الاجازة من سنن العلماء العاملين ومن طريقة الناسكين والعاملين ولهذا طلب مني ذلك وان لم اكن أهل لذلك من هو بالعلم موصوف والكمال معروف الشيخ عبدالله ابو مدين ابن احمد الصغير الدرعي فاجبته لذلك فاقول : قد أخذت فقه الحنابلة عن مولانا مفتي الحنابلة في المدينة المنورة الشيخ ابراهيم بن محمد سنده المعروف وعن السيد مصطفى القادري البغدادي سنده المعروف أيضاً واجزته بذلك حسبما اجازاني واساله ان لا ينساني في دعواته .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه اجمعين وتابعيهم باحسان إلى يوم الدين حرر يوم الخميس الثالث من شهر ذي الحجة عام ثلاثة وخمسين ومائة والف .. كتبه الفقير إلى الله تعالى محمد حديدي الحنبلي بن الشيخ محمد سنبل الفقيه بالمروة) . (الصغير ص ١٩٣ — ١٩٤)

٦ — وإلى جانب التدريس يتولى العلماء أيضاً مناصب القضاء والفتوى والإمامة والخطابة والشهادة ، وان رغبوا عنها لما أصبح عليه الأمر من التزام وبيع وشراء لهذه المناصب (واما الخطبة فهي كالامامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الايام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء) (العياشي ٢٨٨) .

٧ — وقف مدونو مخطوطاتنا طويلاً عند تسجيل الاحداث التي عرفتها الأماكن المختلفة التي مروا بها ما بين العقبة والطائف ، دون ان يغفلوا عن ذكر الأوضاع القائمة ، وقد رجعوا في ذلك إلى مصادر ومراجع عديدة في

المشرق والمغرب ونقلوا عنها الكثير من المعلومات ، مما جعل مذكراتهم أشبه بدائرة المعارف بالنسبة لكل منطقة أو مدينة ، أو قرية .

٨ ــ في الحرمين الشريفين مكتبات عمومية تتوفر على العدد العظيم من المؤلفات الهامة في مختلف العلوم والفنون ، وقد رجع اليها رحالتنا ونقلوا عنها :

(... خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة (العياشي ٢٨٤) .

(فصل في ذكر ما شاهدته بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته أو الا نادراً في خصوص خزائنها) (الناصري ٢٨١) .

(انتهى كلام ابن رشيد رحمه الله حسبما نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه وصاحبه عبد المهيمن الحضرمي رحمه الله تعالى رأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار) . (العياشي ٢٢٨) .

٩ ــ قيام بعض علمائنا الحجاج بالتدريس في الحرمين الشريفين :

(لما كان أول شهر صفر ألجاني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن اقرأ لهم مختصر الشيخ خليل في فقه مالك ... فابتدأت قراءته في مؤخر المسجد بالجانب الغربي منه وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب) (العياشي ٢٨٦) .

١٠ ــ من عادات علماء الحرمين انقطاعهم عن التدريس يومي الثلاثاء والجمعة (ومن عادة المدرسين بالمدينة تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء والجمعة) (العياشي ٢٨٩) .

١١ ــ وكما نقل حجاجنا الكثير من علمائهم في الحرمين الشريفين ودونوا ذلك في مخطوطاتهم ، قام البعض منهم بشراء العديد من المؤلفات في الموضوعات المختلفة . وفي مكتباتنا اليوم عدد من هذه المخطوطات انما لا يوجد بها ما يؤكد بأن نقلها إلى المغرب قد تم في هذه الفترة المتحدث عنها ، ومن ذلك على سبيل المثـــال :

- اخبار مكة		محمد بن عبدالله الازرقي	الخزانة العامة بالرباط
ق ٤٣

- العقد الثمين في تاريخ البلد الامين		الخزانة العامة بالرباط
ك ٢٣٥٦

- النبذة اللطيفة		شهاب الدين القليوبي	الخزانة العامة بالرباط
ك ١٤١١

- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها والبيت الشريف
لمحمد جار الله بن القاضي القرشي
الخزانة العامة بالرباط
ك ٢٤٥

الأحوال السياسية :

أهم ما دونته مخطوطاتنا في المجال السياسي لبلاد الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة :

١ - التعرض لاوضاعها العامة المتمثلة في :

أ - انحصار مناطق نفوذ العثمانيين وشريف مكة .

ب - التزام المناصب الشرعية .

الامر الذي نتج عنه مضاعفات خطيرة أبرزها :

(١) انعدام الامن بوجه عام في البوادي والمدن .

(٢) الجهالة الجهلاء التي أصبحت عليها الأغلبية العظمى من الناس .

(٣) انتشار البدع المختلفة .

٢ - الدعوة إلى إصلاح العباد والبلاد :

أ - بمحاربة البدع .

ب — بالعودة بالناس إلى الدين الاسلامي القويم .

جـ — بإقرار الأمن في ربوع البلاد .

٣ — وعندما قامت حركة الاصلاح بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة وتزعم جيوش الموحدين حفيد الشيخ الأمير عبد العزيز ، تردد صدى الحركة في بعض مخطوطاتنا هذه .

لقد لاحظ حجاجنا انحصار النفوذ العثماني في مراكز محدودة :

— في بندر المويلح (هناك حصن كبير فيه عسكر) (الدرعي ٩٣) .

— في بندر الوجه (حصن حصين في جرف واد كبير) (الدرعي ٩٤) .

— في جدة (في كلا طرفيها حصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة وعسكر لا يفارقه وقد رأيت في الحصار القريب منها ما يستغرب وصفه من المواقع طولاً وكبراً ورأيت بها مدفعاً له خمسة أفواه بصنعة غريبة) (العياشي ١٠٤) .

— وفي المدينة « كبير العسكر الساكن بالقلعة) (العياشي ٣٠٩) .

كما أن نفوذ شريف مكه لم يكن يتجاوز أحياناً ربضها (عمالتها اليوم من خارج جدة والطائف والظهران وما كان بالقرب منها هو الذي في إيالة أمير ها وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا) (الناصري ٢٥٣) .

ومما زاد في اضطراب الأوضاع بالبلاد التزام المناصب الشرعية :

(والحاصل ان المناصب الشرعية كلها في البلاد الشرقية حجازاً أو مصراً أو شاماً من إمامة وخطابة وآذان واقامة وقضاء وفتوى وشهادة بل ووقيد المساجد انما تنال بالشراء من الولاة فاذا مات صاحب خطة او عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه على اي حال كان من صلاحيته لذلك ام لا ، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصاً مناصب القضاء) .

(العياشي ٢٨٨) .

وهكذا كان من مضاعفات الأوضاع السياسية السيئة ان مهد الاسلام لم يعد يعرف طعماً للسلام بسبب :

١ ـ انعدام الامن بوجه عام :

(وأعراب الحجاز اليوم لاتنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولي الحرمين)

(الناصري ٢٥٣)

وقبائل حرب (التي عمرت في البلاد الحجازية مسافة اثني عشر مرحلة ... ينيفون على مائة الف رجل لا يقيمون وزناً لقبيلة من قبائل الحجاز أصلاً مع ما هم عليه من الظلم والحرابة والتوغل في الفحش والجهل) .

(الناصري ٢٢١)

الأمر الذي يخشى معه حدوث ما لا تحمد عقباه (وأخشى ان طال هذا الأمر أن يتعطل الحج) . (الناصري ٣١٠)

وحتى في الحرمين الشريفين لا يأمن الانسان على نفسه وماله :

ففي مكة (السراق يهجمون على الناس هجوماً ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وارخاء العنان لهم) .

(العياشي ١٩١) .

وفي المدينة (وعلى طول إقامتي بالمدينة لم ادر كيفية تصرف الولاة فيها ولا من له التصرف التام بها) (العياشي ١٩١) .

فلا عجب والحال كما ذكرنا ان يثير انتباههم وجود بعض الأمن في نواح من الحجاز (وقد شاهدنا في هذه الحضرة من العافية التي بسطها الله في الطرق والقرى والامان التام ما قضينا منه العجب) (العياشي ١٣٢) .

٢ ـ وللجهالة الجهلاء التي أصبحت عليها أغلبية المسلمين :

(قدم خلق كثير من الأعراب ... واكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهب جلهم لا يعرف صلاة وصوماً ... وبالجملة فعرب الدرب

والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل) (العياشي ٣١٢) .

٣ ـ ثم لانتشار البدع الضالة التي أثرت في عادات الناس وأخلاقهم ، من ذلك تصرف الحجاج في موضع (يسمى السقائف ويقال له دار الوقدة يقدون فيها الشمع الكبير ... وشاع عندهم ان الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا ناراً ... وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس انها من أعظم القربات)

(العياشي ١٨١) .

وفي بدر (هضبة في الجبل ... والحجاج يتمسحون به ويتطارحون عليه ... رأيت هناك حجراً مخروقاً شبه مغارة ينزل الناس متبركين بها ... ويؤثرون في ذلك خرافات لا أصل لها) (الناصري ٢٢١).

وقد بلغت الجرأة والتطاول بالبعض ممن التقى بهم الشيخ العياشي في المدينة حدا جعل شيخنا يدوي بصريح العبارة (وهذه جرأة عظيمة منه قاتله الله ... إلا أن الاهتمام بمثل هذا في هذه الأوطان أغرب من غريب) (العياشي ٢٨٤) .

ونتيجة للأوضاع السيئة التي آلت اليها أحوال العباد والبلاد توجه حجاجنا بالدعوة إلى الله أن يجيء لمهد الاسلام من يحارب البدع ويعود بالناس إلى مبادىء دينهم القويم حتى يعم الأمن وتصلح أحوال المسلمين :

(فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء قلما تجد أحدهم يحسن شيئاً من رسوم الشريعة ... فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياماً أو حدا من حدود الشريعة ؟) (العياشي ٣١٢) .

(وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل الله ان يميتنا على سنة النبي المستقيمة لا نرى فيها عوجاً ولا امتاً) (العياشي ١٨١) .

(والسراق يهجمون على الناس هجوماً ... لقلة الحكم بتهاون الحكام)

(العياشي ١٩٢).

(فلو قيض الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كبير) (العياشي ١٩٢) .

(ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه اي اعانة للحجاج ، ولكن الله يفعل ما يريد) (العياشي ٢٣١) .

فالأوضاع التي استنكرها بعض حجاجنا ممن زاروا البلاد خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة والنصف الأول من الذي يليه ، والأماني التي عبّروا عنها لانقاذ البلاد والعباد هي نفس المبادىء التي ستقوم عليها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند منتصف القرن الثاني عشر للهجرة والمتمثلة خاصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعودة إلى مبادىء الدين القويم .

وعندما انطلقت حركة الاصلاح الوهابية بزعامة الأمير عبد العزيز بن سعود ، رددت بعض مخطوطاتنا صدى ذلك :

١ — التأكيد على ان الاصلاح ليس وقفاً على جهود الحاكم وحده :

و (عهدتهم على الأمير وعلى كل من له على ذلك طاقة) (الناصري ٢١١) .

وهذا تأييد صريح للحركة الاصلاحية بعد ان عجزت السلطة القائمة عن تحقيق ذلك .

٢ — تفصيل القول في القبائل التي تجاوبت مع الحركة الاصلاحية وعمليات الانتقام التي تعرضت لها من قبل شريف مكة :

(واعراب الحجاز اليوم « عام ١١٩٦ هـ » غالبهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولي الحرمين ... وفي سنتنا هذه وقعت دائرة بينه وبينهم ... ومع ذلك لم ينقادوا له ولا اقاموا له وزناً وحجة الأمير عليهم انهم يتحزبون عليه ممن والأهم من الاعراب فنكثوا بيعته بعد ان دخلوا فيها) (الناصر ٢٥٣) .

ومن أهم المناطق التي انضمت للحركة الإصلاحية التي تعرضت لنقمة شريف مكة :

(وقد وصلناها « اي الجديدة » ووجدناها مخربة خربها سلطان مكة سرور عند توجهها إلى المدينة) (ابن عثمان) .

(ووجدنا أهل رابغ فارين من بيوتهم خوفاً من الشريف سلطان مكة)

(ابن عثمان).

(وحتى قديد خربها سلطان مكة في وجهته هذه إلى المدينة) (ابن عثمان)

(الوجه ... داثر من العمارة في هذا الزمان (١١٩٦ هـ) (الناصري ٢٠٩) .

(قديد ليس به الآن عمارة ولا نخل ولا بستان) (الناصري ٢٣٠)

(خليص اليوم خالية ما بقى بها إلا أثر انقاضها) (الناصري ٢٣١)

– وعندما قامت الحركة الاصلاحية وتمكنت من القضاء على بعض البدع كبدعة دار الوقدة سجلت مصادرنا ذلك :

(دار الوقدة كانت من قبل دار الحاج وبها يوقدون الشمع ... والآن (عام ١١٩٦ هـ) لا ينزلها الركب غالباً) (الناصري ٢١٧) .

وفي الختام تعكس بعض مخطوطاتنا أملها الكبير في نجاح حركة الإصلاح لينعم مهد الاسلام بالرخاء والطمأنينة والسلام (لا أحرمنا الله من العودة اليها مع امننا) (الناصري ٢١٦) .

وعند مطلع القرن الثالث عشر للهجرة كانت الجزيرة العربية تعرف صراعاً قوياً وتطوراً هاماً بعد ان نجحت الحركة الجديدة في نجد في الحصول على تأييد (كثير من الناس ... وانتقلت أخلاق الاعراب من التوحش لى الانسانية ... وانعدم الشر ... واحبتهم سائر الامم) (ابن سند ١٦٧) .

وبعد ان دخل الاعراب في العقيدة التي تدعو إلى كتاب الله وترك البدع (الجبرتي ٢٠٧) .

الدكتور عبد الكريم كُرَيِّم

- ١٢ -

ونُوَاصِلُ السير مع الرحالة العيّاشي المغربي ، بتلخيص ما يتعلق بالحجاز من رحلته « ماء الموائد » فقد وصف الآثار التي شاهدها في مكة .. وذكر الأمكنة التي ينبغي أن تزار فذكر من بينها جدة والطائف — وقد نشرنا كلامه عنهما كاملاً منذ بضع سنوات — والجعرانة ، وقد تقدم حديثه عنها في الحلقة الأولى من ملخص الرحلة .

لقد أدّى مناسك الحج سنة ١٠٧٣ وسنكتفي بعرض لمحات من مشاهداته بإيجاز ، إذ الكلام عن الحج ومناسكه ومشاعره ، وما يفعله المرء من الاستعداد لأدائه من الأمور التي تتكرر في كل زمان عند جميع من كتبوا عن ذلك

المبيت بمنى قبل الوقوف : قال : (وكان نزولنا بمنى فوق مسجد الخيف بسفح ثبير ... وبتنا تلك الليلة بمنى ولم يبت بها إلا المغاربة وقليل من غيرهم ، وكثير من الناس ذهبوا إلى عرفات وذلك دأبهم منذ أزمان فقد قال الحطاب : وهذه السنة — اعني المبيت بمنى هذه الليلة — قد أميتت منذ أزمان ، وقد ذكر ذلك كثير من المرتحلين كابن رشيد والعبدري ومن بعدهما ، وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الأركاب .

وصف الموقف النبوي بعرفة : قال العياشي : (إلى أن وصلنا إلى موقف النبي ﷺ وما عرفناه قبل هذه السنة (١٠٧٣) هـ وبعث معنا شيخنا أبو مهدي رجلاً دلّنا عليه ، وهو تحت موقف الإمام اليوم في أصل الجبل على صخرات مفترشة ، وبني على تلك الصخرات محوط شبه مسجد) [١] .

---

(١) : « العياشية : ١/١٩٣ .

ثم وصف الانصراف من عرفة ، والنزول بمزدلفة ، وقال : (وعدلنا يميننا واستندنا للجبل ونزلنا – في المزدلفة – فلما غاب القمر أخذ السراق يرموننا بالأحجار من الجبل لقربنا منهم ، وكان ظنهم أنهم يخرجوننا من الرحال بذلك فيصادفوا فرصة ، فكفانا الله شرهم) [1] .

وادي النّار (محسر) : وقال : (وسرنا حتى جئنا وادي النار ، وأسرعنا به وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك إن مررت بطريق الأركاب ، وأنت ذاهبٌ إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى ، وترتفع بك الأرض ، وبهذا عرّفهُ أعلم عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلويُّ في رحلته ، إذ سأله عن [2] حدّه) ونقل في موضع آخر عن رحلة ابن رشيد [3] ما نَصُّه : قال أبو عمرو بن الصّلاح : وأول مُحَسِّر من القرن المشرف من الجبل ، الذي على يسار الذاهب إلى منى ، ثم يخرج منه سائراً إلى منى سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى الكعبة (؟) وليس من مُزْدَلِفة ولا من منى ، وهو مسيل ما بينهما) [4] انتهى .

في منى أيام التشريق : قال (ثم جئنا إلى منازلنا بمنى ، وكان نزولنا وراء المسجد قرب الغار الذي نزلت به سورة المرسلات على النبي ﷺ وخبره مذكور في الصحيح ، وقد بني على بابه محوط شبه مسجد صغير ... وهو في أصل جبل ثبير ، بينه وبين مسجد الخيف رمية بحجر .

وكان نزولنا في هذا المحل إيثاراً لقرب هذا المكان وقرب المسجد ، مع كونه أنظف وأوسع ، وأقرب للجبل الذي يشرف منه على منى كلها ، وهو أستر وأمكن للإنسان في حاجته ، والناس يتحامون القرب من الجبل تقية من أذى السراق ، يستجير بعضهم ببعض ، ويفرون إلى الدخول في غمار الناس ، لا يبالون بما نالهم في ذلك من وطء الأقدام ، وتقطيع الحبال ، وتعفن الأرجاء ،

---

(١) : « العياشية » ١٦٤/١ .
(٢) : « العياشية » ١٦٥/١ .
(٣) نشرت « العرب » كل ما يتعلق منها بالحجاز .
(٤) : « الرحلة العياشية » ٢٥٥/٢ .

واستنشاق الروائح الكريهة ، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جنب هذه المضار ، وكان منزلنا أنظف المنازل وأحسنها وأبعدها عن الأذى وأبهجها) [1] .

وصف سوق منى :

(ثم في الغد عمرت الأسواق ، وكثر الانفاق ، وخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات ، وتزاحم الناس على الشراء رجاء لبركة ذلك المكان ، وأكثر التجار يقولون : إن من اشترى شيئاً من منى وجعله في تجارته وجد بركته ، وظهرت له ثمرته ، ولا يبعد ذلك فإنه موسم شريف ، ومحل بركة ، يأتيه الناس من كل فجٍّ عميق ، ليشهدوا منافع لهم) [2] .

ذبائح منى : (وقد ذبح في منى في ذلك اليوم والذي بعده من البقر والغنم ما أحسَبَ الغنيّ والفقير ، وكفى الوارد والمستوطن ، وامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم ، وأما الجلد والساقط والأكارع فلا ترى أحداً يأخذها ، بل بقي كثير من الغنم غير مسلوخ إلى أن ارتحل الناس من هناك ، لم يمسه الناس ، فمن الفقراء من يأخذ نحواً من عشرة من الغنم ، فيبيعون لحومها بأرخص ثمن ، وييبسون ما قدروا عليه ، ضيافة الله الذي لا يقدر أحد على كفاية خلقه سواه ، فقد ورد من آفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى ، أغنياء وفقراء فأكل الكلُّ من ضيافة مالكهم ، وتزودوا ما قدروا ، وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوامّ ، فأقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريباً من ذلك في قفولي من الطائف فوجدت به عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تُمَسّ إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها) [3] .

المنازل في منى : (وبعد الفراغ من الرمي جئت لمنزل شيخنا تاج الدين فوجدت عندهم شيخنا سيدي عيسى الثعالبي ... ولأهل مكة — خصوصاً الأكابر من أهل الوظائف كالعلماء والأمراء والتجار وأكابر البلد — منازل

---

(1) : « العياشية » ١/١٩٨ .
(2) : « العياشية » ١/١٩٩ .
(3) : « العياشية » ١/١٩٨ .

بمنى يتزلونها أيام الموسم ، متقنة البناء ، غالبها مشرف على السوق فيها غرف عالية ، ومطابخ ومرافق ، وربما نزلوها في بعض الأحيان في فصل الربيع فصل التفرج ومنزل شيخنا تاج الدين المالكي هذا من أحسن المنازل ، لــه مصطبة مونقة بجانب الطريق ، لها شبابيك) [1] .

الليلة الثانية في منى :

(ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر والشام في إيقــاد المصابيح ، واتخاذ المصانع منها [2] ، وصور الأشجار والأخبية ، وأكثروا الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو ، وفعل مثل ذلك السلطان زيد ، وفي ذلك نزهة للأبصار ، وتسلية للأفكار ، ومجال للاتعاظ والاذكار ، والقبول والإنكار ، منزل جمع أصناف العباد ، وحشر إليه عمّار البلاد ، فهو أجمل الأندية ، ومبــانيه أحسن الأبنية ، تشرق بالنهار فَسَاطيطه المونقة ، وبالليل مصابيحه المشرقة) .

ثم وصف ما شاهده من الآثار في مِنى ، ومنها :

مسجد العقبة : قال : (وهذا المسجد هو المكان الذي بايع الأنصار ﷺ بيعة العقبة ، فهو من المساجد المنسوبة للنبي ﷺ .. وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى) [3] .

مسجد الخيف : (وهذا المسجد يسمى مسجد علي ، قيل ان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه ، وهو موضع منزل النبي ﷺ وأصحابه في حجة الوداع .

وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله ٤٠٠ قدم وعرضه ٣٤٠ وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها ٢٤ ذراعاً من خارجه .

ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه عليه السلام

---

(١) : « العياشية » ١/١٩٩ .

(٢) : « العياشية » ١/٢٠١ .

(٣) : « العياشية » ١/١٩٨ .

وصحن هذا المسجد كبير ، إذ المسقف منه مقدمه نحو أربعة صفوف ، ومن سائر الجوانب غير مسقف) .

. مسجد النحر بمنى : (مسجد النحر وهو موضع منحر النبي ﷺ ، وهو في وسط الدور مقابلة الجمرة الوسطى ، وما عرفته إلا في هذه السنة (١٠٧٣ هـ) دلني عليه شيخنا أبو مهدي ، وهو مسجد واسع حسن البناء إلا أنه انهدم أكثره ، وتلوث بالأقذار والكناسات) [٢] .

مسجد الكبش : (وهو في شعب مقابل الجمرة الوسطى على يمين الذاهب إلى العقبة ، وهو بين صخور كبار ، ليس حوله ديار ، ويقال إنه الموضع الذي أخذ فيه ابراهيم عليه السلام الكبش الذي فدي به الذّبيح عليه السلام ، وهناك ذبحه) [٣] .

انتهاك المساجد والمزارات خارج مكة : وقال (وغالب المساجد والمزارات التي هي خارج مكة تنتهك في أيام الموسم ، وينزلها الناس بدوابهم ، ويطبخون فيها من غير نكير ، وهي من البلايا العظيمة) [٤] .

التعجل من منى : (وفي اليوم الثالث تعجل الناس كلهم وتلك عادتهم ولم يبق إلا ركب أهل العراق ، وكلمنا أصحابنا المغاربة فأبوا إلا الإستعجال لشراء القماش بمكة ظناً منهم أن بتأخير يوم يفوت غرضهم ، ولم يشعروا أن ما فاتهم من ثواب هذه الليلة وإحياء هذه السنة أعظم مما يدركون من الغرض العاجل مع أنه لا يفوتهم ولو تأخروا) [٥] .

ــ ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى ورمينا الجمار بلا زحمة إذ لم يبق بمنى إلا نحن وركب أهل العراق .

---

(١) : « العياشية » ٢٠٤/١ .
(٢) : « العياشية » ٢٨٣/٢ .
(٣) : « العياشية » ٢٨٤/٢ .
(٤) : « العياشية » ٢٨٣/٢ .
(٥) : « العياشية » ٢٠٤/١ .

ثم سرنا حتى نزلنا المحصب ، ولم يحصب أحد سوانا ، بل كثير من الناس لا يعرفونه ، وتعجبوا من نزولنا هناك ، وصلينا بالمحصب الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وبعده أخذنا في الرحيل فأصابنا مطر وابل ، ولم يمكنا المرور وسط مكة للزحمة والظلمة فعدلنا ذات اليمين إلى كداء ، ومررنا وراء الجبل حتى نزلنا أسفل ذي طوى بالمحل المسمى بالشبيكة ، وهناك ينزل الركب المغربي ، وبتنا هناك ثم تركنا هناك خباءنا وإبلنا وبعض أصحابنا ودخلنا إلى مكة ، ونزلنا بالمكان الذي اكتريناه قرب باب ابراهيم)[1] .

وصف منى قبل نزول الحجاج فيه : وتأملت بسيط منى وشعابه ، وتبينت سعتها وامتدادها[2] ، وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق ، ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال : من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الراكب بعد ارتحاله . ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها ، قصور عالية ، وأسواق حافلة ، وجنود مجندة ، وملابس فاخرة ، وأطعمة شهية ، ومراكب هنية ، وبضائع غير معدودة ، ومتاجر ثمينة ، إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل ، وصلاة وقراءة ونحو ذلك ، وإطعام طعام ، ورمي حجار ، وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا .

ولا تمر على ذلك كله ثلاثة أيام حتى لا تُحِسُّ منهم من أحدٍ ولا تسمع لهم ركزاً ، فلا ترى في منازلهم إلا عظاماً نخرة ، وخرقاً بالية ، وفضلات منتنة ، وغثاءً أحوى ، وقتاماً أغبر ، تسفيه الريح وتذروه ، وهذا هو الحقيقي (؟) للدنيا ، فليعتبر أولو الأبصار ، من سكان البادية والأمصار[3]) .

الأمن في الحجاز في عهد الشريف زيد :

تقدم وصف مشاهدة العياشي لموكب أمير مكة ، وثناؤه على ذلك الأمير

---

(١) : « العياشية » ٢٠٥/١ .

(٢) في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٠٧٣ .

(٣) : « العياشية » ١٢٥/٢ .

بحسن السيرة ، وانتشار الأمن في عهده (١٠٧٣ هـ) وقد تحدث عن ذلك في مواضع أخرى منها قوله : (وقد شاهدنا في هذه الحضرة من العافية التي يبسطها الله في الطرق والقرى ، والأمان التام ما قضينا منه العجب فمن ذلك أنّا ألفينا عيراً في ليل مظلم ، تحمل أحمالاً من البزّ الهندي والقماش الرفيع نحو عشرين جملاً ، وطلبنا أحداً من أصحابها نسأله عن خبر البلد فلم نجد معها أحداً ، وذهبنا نحواً من ميل فوجدنا أصحابَها في قهوة مستريحين ، وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد ، وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام زيد ووالده محسن ، فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلاً جاء للسلطان محسن فقال : إني وجدت بالبلاد الفلانية حملاً من البزّ في الطريق . فقال له : ومن أخبرك بأنه البز فقال له : مَسَسْتُهُ برجلي . فأمر بقطع رجله وقال : لِمَ مَسَسْتَهُ برجلك ؟! إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات لا نعلم صحيحها من سقيمها . ومن لطيف ما شهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها أن المسافرين من مكة إلى جدة ، أو من جدة إلى مكة يكترون الحمير للركوب ولا يذهب صاحب الدابة معها ، فإذا ذهب المكتري إلى المحل الذي يذهب إليه أرسل الحمار ، ولا عليه منه ، فلا يأخذه أحد إلا ربّه إن كان في ذلك البلد أو نائبه ولكل واحد من أصحاب الدواب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكريها له . ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه)[1] . وقال أيضاً : وأعانهم – يعني الجمالين على قطع المسافات ، ما بسط الله في تلك البلاد من العافية الوافية ، فلا ترى لصّاً ولا سارقاً في ليل ولا نهار إلا في قرب من المدينة – كما تقدم – . وإنما تشتعل نار الحرية والسرقة في تلك البلاد أيام الموسم فقط لاختلاط الناس واجتماع الأوباش من كل أوب . وقد عاينّا من الطمأنينة في الطريق والعافية والسكون في مسيرنا هذا ما قضينا منه العجب ، لأنا ما كنا نسلك هذه البلاد إلا في أيام الموسم ، ونعاين ما يقع بها من النهب والسرقة والروعات المتوالية ، فظننا أنها كذلك دائماً »[2] .

---

(١) : « العياشية » ١٠٩/٢ .
(٢) : « العياشية » ٩٣/٢ .

ومع ذلك فقد تحدث حوادث كثيرة ، وقد يلاقي الحجاج من عنت الجمالين وأذاهم الكثير .

المكارون من عرب الحجاز : قال : (واكترينا من عند أناس من عرب الحجاز ، ليس لهم دين ولا مروءة ، كلما عقدنا معهم عَقْدا ، حلوه ، وأبرمنا أمراً نقضوه ، طلباً لزيادة في الكراء ، إلاّ بعد شدّ الأحمال على الجمـــال .

ثم سرنا – من مكة – مع رفقة ليس فيها أحد من أبناء جنسنا وضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وأساء الأكرياء معنا في الركوب والنـــزول والحملان ...

ونزلنا في خليص ، في رأس العين بقهاوي هناك ، واستطال علينـــا المكارون ، إذ ليس بالقافلة أحد من المغاربة وقالوا : إن أمتعتكم ثقيلة ، فإما أن تزيدوا في الكراء ، وإما أن نطرح لكم أمتعتكم هنا حتى يقدم عليكم الركب ، وزدنا لهم في الكراء .

والحاصل أن ما اكترينا به من مكة إلى المدينة أزيد مما اكترى الناس من مكة إلى مصر ، واغتفرنا ذلك كله رغبةً في إقامة أيام بالمدينة قبل الركب فكمل الله مرغوبنا .

عنزة في طريق المدينة : وقال : (ولما ارتحلنا من جديدة جدوا في السير ، وساروا سيراً حثيثاً . ونزلنا قبور الشهداء عند طلوع الشمس ، ثم ارتحلنـــا من هناك قبل الظهر ، وساقوا سوقاً عنيفاً ، وكانوا يتخوفون عادية من لصوص عَنَزَة في تلك المسافة ، وما غابت الشمس حتى دنونا من جبل مفرح .

وكان معنا في القافلة شيخ حرم المدينة ، تجدّد في تلك السنة ، وقدم من اصطنبول ، وعزل الذي كان قبله ، فقدم مكة أوّلاً وحجّ ، ثم سار إلى المدينة ، وعندما وصلنا السبيل الذي هناك وجدنا طائفة من عسكر المدينة جاءوا يتلقونه ، فأمن الناس واطمأنت قلوبهم ، وخرج شيخ الحرم من محفّته ولبس

---

(١) : « العياشية » ٢/٢٨٥ .

أحسن ثيابه، وركب فرسه وسرنا سيراً حثيثاً فوصلنا ذا الحليفة نصف الليل [1] .

وقال أيضاً : (وكان المحل – من ذي الحليفة إلى الفريش ، محلّ خوف ، لأن تلك المسافة يطرقها لصوص عنزة، وهو في درك بني سالم ومنازلهم بعيدة عنها ، وصاحبنا المكاري من بني سالم فطار قلبه خوفاً من عنزة ، ولم نزل نسير رويداً طول الليل إلى أن وجدنا أول القافلة ببطحاء الفريش) [2] .

العرب والركب الشامي : قال : « ثم خرج الركب الشامي من المدينة على وجل عظيم من العرب الذين يمرون بهم في طريقهم ، وقد كانوا قد أوقعوا بالركب وقعة شنيعة في ذهابهم (؟) قرب تبوك وأخذوا مئتين من إبل الركب، وأموالاً لا تحصى ، وقتلوا أقواماً . وسبب ذلك أنه كانت لهم إتاوة على الركب في كل سنة ، يأخذونها من أميرهم ، كما هو شأن أرباب الدرك في كل طريق ، يعطونها من بيت المال، وفي هذه السنة عُزل الأمير الذي كان يأتي بالركب كل سنة ، واستبدل به غيره ممن لا يعرف حال الطريق وأعرابها ، فلما جاءته شيوخ العرب أرباب الدرك لأخذ ما كان لهم عادة من عند السلطنة منعهم من ذلك ، وأغلظ لهم في القول ، وظن أن قوة عسكره تحميه منهم ، ولم يعلم أن من قبله من الأمراء ما تحملوا لهم بذلك إلا لعجزهم عن مقاومتهم ، فراجعوه في ذلك ، وناشدوه فصمّم على الامتناع ، فلما أيسوا منه شنّوا الغارة على الركب فدافعهم قليلاً فانهزم ، فنهبوا من الركب شيئاً كثيراً ، فلما رجع لم يخرج من المدينة حتى بعث نجيباً إلى الشام ليأتيه المدد ، وواعدهم موضعاً معروفاً في الطريق ، ومع ذلك التزم للأعراب بأزيد مما هو عادتهم ، فسلم الله تعالى الركب بسبب ذلك) [3] .

الجهل والفقر هما أصل الداء : لا شك أن كثيراً من الأمراض الاجتماعية في كل أمة وفي كل زمان ومكان ، إنما تنشأ عن الجهل وعن الفقر ، وهكذا كانت حالة أبناء البادية في عصر الرحالة العياشي ، كما وصفها ، وكما هـــو

---

(١) : « العياشية » ٢٨٦/٢ .

(٢) : « العياشية » ٦٢/١ .

(٣) : « العياشية » ٢٤٦/١ .

معروف . قال في كلامه على المدينة المنورة ، أثناء الزيارة الرجبية : (وَفَدَ خلق كثير من الأعراب ، وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهب ، جلهم لا يعرف صلاة وصوماً ، فتدخل جماعة منهم المسجد غاسلين أطرافهم يريدون الصلاة على زعمهم ، فيقف أحدهم ملياً ثم يسجد على قدر ما يرى ، إما ثمان سجدات أو عشر سجدات أو أكثر على حسب نشاطه ثم ينصرف وغالبهم على هذا الوصف ، ومنهم أفراد يدينون بدين الحق ، وسلامهم على النبي ﷺ : حيّا الله محمد . رافعين بها أصواتهم ..

وأخبرني شيخنا المُلاَّ ابراهيم عن الشيخ القشاشي أنه بينما هو ذات يوم عند المواجهة ، إذ جاء أعرابي في شملته ، وبيده عصاه ، حتى وقف أمام الوجه الشريف ، فضرب بعصاه الأرض مرتين وهو يقول : يا محمد يا محمد لا تقل أنا ما جئتك ، ها أنا ، وذهب ولم يزد على ذلك .

وكان الشيخ يقول : عسى أن يكون ذ لك نافعاً له عند الله فإن ذلك مبلغ علمه ....

وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب ، وأكثرهم جفاء ، قلّما تجد أحدهم يحسن رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل .

وعوام الأعراب والبربر بمغربنا بالنسبة إلى هاؤلاء ، فقهاء ، فلا تجد عاميّاً بالمغرب وإن بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود وإن كان لا يحسن أن يقرأ فيها ، ويعلم وجوب صوم رمضان بل هو أشد عندهم من الصلاة بخلاف هاؤلاء فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا ؟ وهو رجل كبير كهل ، فقال : إني إلى الآن لم أصُمْ ، لكن أبي صام ثلاثة أيام . فاستفهمه عن ذلك فقال : إن الرجل عندنا إذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام ، فيقولون فلان صام ، وذلك علامة بلوغه حدّ الكبر ، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياماً ولا غيره ، وهم جديرون بذلك لبعدهم من الأمصار ، وقلة القرى في بلادهم فلا يجدون أحداً

يعلمهم الخير ولا يرشدهم إليه ، وعلى تقدير دخولهم الأمصار في بعض الأحيان فلا يلقى إليهم أحد بالاً ولو رآهم أكبر فقهاء الأمصار يصلون الصلاة المتقدمة من تتابع السجدات لا يزيد على أن يضحك منهم ، أو يتغافل ويذهب عنهم ، فمتى يعرف هاؤلاء صلاة أو صياماً أو حدّاً من حدود الشريعة ؟ .

ولقد رأيت رجلاً بالينبع ظهر الشيب في مفرقه ، وسألته عن مكة فقال لي : ما حججت قط . وبينه وبين مكة ثمانية مراحل (؟) ، وسألته عن المدينة فقال لي : دخلتها مرتين أو ثلاثاً وبينه وبينها ثلاثة مراحل ، وأمثال هاؤلاء كثيرون) [1] .

من مكة إلى المدينة :

ولنرافق رحالتنا – بعد أداء الحج ووصف المشاعر المقدسة في مكة وآثارها في رحلته إلى المدينة ، حيث يصف لنا كثيراً من المواضع التي مرَّ بها .

الطريق من مكة إلى المدينة : قال : (ولما كان يوم الأحد الموفي عشرين ذي الحجة أخذ المغاربة في الرحيل من مكة بعد ما قضوا أوطارهم واشتروا تجاراتهم ، وهم أول الأركاب الواردة من الآفاق خروجاً من مكة . بل لا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة المشرقة ، فطفنا طواف الوداع ضحى وخرجنا إلى منزل الحاج وهو الشبيكة .

ثم ارتحلنا من الشبيكة وهي الثنية السفلى التي بأسفل مكة ومنها خرج النبي ﷺ .

قال ابنُ رُشَيْدٍ في رحلته : وذكر بعض أئمتنا أن الخروج إلى عرفات الثنيّة السفلى أيضاً فروى عن الحافظ أبي محمد علي بن أحمد الأندلسي قال : كداء المحدودة هي بأعلى مكة عند المحصب ، حلق رسول الله ﷺ من ذي طوى بقريب (؟) من شعب الشافعيين (؟) عند قعيقعان حلق رسول الله ﷺ منها إلى المحصب فكأنه ﷺ ضرب دائرة في دخوله وخروجه ، بات ﷺ

(١) : « العياشية » ١/٣١٢ .

بذي طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها ، وفي خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب . قال أبو محمد الأندلسي الظاهري : أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العبادي عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك . قال ابن رشيد : وإنما سلك رسول الله ﷺ هذا الطريق ملحقاً (؟) شبه دائرة لأنه لا يحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج منها إلا كذلك فتأمله والله أعلم . قلت : وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم من خروجه ﷺ إلى عرفات من كدًا لم أر من ذكره من أهل السِّيَر والحديث ، مع شدة تتبعهم لأفعاله وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته ﷺ ومثل هذا لا يكاد يخفى من أفعاله في ذلك الجمع العظيم ، فقد حُفِظ من أفعاله ﷺ في تلك الحجة الخفيّ والجلي حتى مَبَاله (ع . س) في الشعب قبل الوصول إلى مزدلفة ، فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسِّيَر ؟ بَيْدَ أنّ أبا محمد بن حزم مُغْرًى بجمع الغرائب مع سعة اطلاعه ووفور علمه ، وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف ، فقد ذكر بعض الأئمة أن أبا محمد بن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع مساقاً لا يمكن أن يسوقها كذلك ، حتى بعض من حضرها لكثرة ما جمع ، ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها ، وهو أهل للملك . والمذكور عند سائر المحدثين أنه ﷺ لم يزل نازلاً بالأبطح من يوم دخوله مكة إلى أن ارتحل ذاهباً إلى منى يوم التروية ، ويبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى مكة ، ثم يخرج من كدى ثم يصعد إلى كدا ، فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان الذي ارتحل (منه) ومثل هذا ليس من الأفعال الجبليّة ، ولو فعله ﷺ لكان فيه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به ، ولسأله أصحابه عن السر في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية ، ولو كان ذلك لنقل نقلاً مستفيضاً ، وصار من أفعاله المطلوبة وليس هذا مثل إدارته ناقته في محل ، لخفة الادارة ، وقد تكون لغرض اقتضاه

---

(١) الصواب : المذري .

الحال ، مثل قصد العدول إلى ناحية ، أو إرادة تكليم أحد ، فدارت الناقة لأجل ذلك وذلك كثير ما يقع للإبل ، ومع ذلك فقد نُقِل ، فليتأمّل ما ذكرنا ، والله أعلم) [1] .

السَّبِيل بين قديد والجحفة : قال : (ومررنا بقديدٍ في الضحى الأعلى ولم يقل الناس ذلك اليوم ، لأن الهواء فيه بعض رطوبة ومررنا بالسبيل [2] الذي هناك قبل العصر وفيه ماءٌ قليل ، وحوله ناس من الأعراب يبيعون العلف والحبحب والرطب ، يأتون بكل ذلك من القرية التي بإزائه ، وبينه وبينها عشرة اميال على يمين القادم من مكة ، ولم نبت ذلك اليوم حتّى قاربنا الرمل الذي دون الجُحفة) [3] .

سبيل محسن في البزواء

(ثم ارتحلنا من رابغ وبالغ الناس في حمل الماء خوفاً من العطش لكون البزوة معروفة في أيام الشتاء ، فضلاً عن أيام الحرّ — بذاك . وقد أخبرنا شيخنا محمد بن مساهل الطرابلسي أنه لما حج في سنة سبع وستين خرجت عليهم ريح في هذا المحل أهلكت كثيراً من الناس ، وكان ذلك في أيام البرد ، ولأجل ما يقع في هذه المحل من العطش اتخذ فيه سبيلانِ للماء يجلب إليهما من نحو مرحلة أحدهما يسمّى سبيل محسن إضافة لبانيه ومحبّسه الأمير محسن والد زيد بن محسن أمير مكة ، وهو الذي يلي مسيترة ، والآخر لولده زيد وهو الذي يلي بَدْراً ، وقد قسما المسافة ما بين بدر ومسيترة ثلاثاً في التقدير ، إلا أنهما قل ما يوجد فيهما ماء ، ليسارة ما يحمل إليهما من الماء لبعد [4] الشقة) .

بين بدر والصفراء

(ثم ارتحلنا .. من قرب سبيل محسن ، ومررنا بالسبيل الآخر ظهراً ،

(١) : « العياشية » : ١/٢٢٧ — ٢٢٩ .
(٢) سبيل محسن له ذكر في الرحلات .
(٣) : « العياشية » ١/٢٢٩ .
(٤) : « العياشية » ١/٢٣٠ .

وجئنا لبدر قبل غروب الشمس بقليل ، ونزلنا على طرف البركة التي هناك ولم يتيسر للناس اخراج خزينتهم في تلك الليلة ، فلما أصبحوا أخذ الناس في دفع أزوادهم المدخرة هناك ، ووجدوا ببدر رطباً كثيراً بأرخص قيمة ، وأخذوا منه ما اشتهوا . ولما لم يرتحل الركب صبحاً ظنوا أنهم لا يرحلون إلى آخر النهار ، ويبرد الهواء وبينما هم في اشتغالهم قبل الظهر بقليل في أشدّ ما يكون من الحر إذ ضرب شيخ أهل تونس طبله ، وارتحل الناس بلا مشورة ، واشتد الحر عليهم ما بين تلك الجبال ، ولم يصلوا إلى الصفراء حتّى وقع الموت في الإبل والناس فمات ناس وإبل كثيرة من شدة الحرّ . وكان من لطف الله بنا أنا لما اشتد الحر عدلنا إلى قهاوي على يسار الطريق وأنخنا إبلنا خارجها ودخلناها وجلسنا فيها ساعة حتى استرحنا واستراحت الإبل ، وتوضأنا وصلينا الظهر والعصر ، ثم سرنا آخر الناس كلهم فلم يضع لنا جمل ولا رجل في ذلك اليوم . وبتنا بعد ما جزنا الصفراء بساعة عند مفرّق الطرق التي تذهب إلى الينبع والتي تذهب إلى جديدة) [1] .

بئر المُلاّ نافع :

وذكر وهو عائد من المدينة إلى مكة مروره ببئر تدعى (بئر المُلاّ نافع) وسيأتي ذكره عند ذكر العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة . قال : ثم إلى مستيرة [2] (؟) ثم خرجنا منها ، وعدلنا يميناً ، عن طريق الركب المعهودة ، وتركنا المسافة المسماة بالبزوة يساراً ، ودخلنا بين تلول وكثبان ورمل عظيم ، ونزلنا بئر الملا نافع قرب الصباح ، بعد ما غلبت الإبل وهذه البئر تنسب إلى أحد الفقهاء الحنفية المستوطنين بالمدينة ، وقد تقدم ذكره – وهو الذي حفرها بماله ، ونفع الله بها العباد ، لأنها في مكان منقطع بين رمال كثيرة ، وكان صاحبها الذي تنسب إليه حاضراً معنا في القافلة لأنه حج في هذه السنة .

وهذه الطريق لا يسلكها إلا القوافل لكثرة رمالها ، وإنما سلكوها لأنها

---

(١) : « العياشية » ١/٢٣٠ .

(٢) هي (مستورة) .

المضيق الأخرى يوم فلما أخذ عن يمين بدر إلى أن تنزل بالصفراء ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا الصفراء وسط الليل) [1] .

الجديدة : قال : « ثم ارتحلنا — من مفترق الطرق — وجئنا الجديدة وقت الغداء ، واشتد الحرُّ ، ونزل الناس بها لخزن أموالهم وأحمالهم ، وما يفضل من زاد وعلف إلى أن يرجعوا من المدينة ، وتلك عادة الركب المغربـي والمصري ، بل غالب المصريين يبعثون أحمالهم وأثقالهم من بدر إلى الينبع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرض لهم في الزيارة ، إذ لا قصد لهم إلا في الكراء . وليس في بلاد الحجاز مكاناً أشدّ حرّاً من هذه الخيوف فيما علمنا .

ووجدنا هناك برْكةً عظيمة بجديدة ، بناها أمير الحاج الشامي ، ذات ماء غزير ، قد صنعت وراءنا وما كنا رأيناها قبل ذلك ، أعانت الناس في سقي الإبل وملء القرب ، ولولا هيَ لافناهم وإبلهم العطش ، لأن ماء القرية التي ينزل بها الحاج وجدناه قد غار ، ورجع الناس إلى البركة فسقوا واستقوا ، وعزموا على الرحيل ، ثم بدا لهم في المبيت لكثرة الموتى والمرضى ، ترى الرجل يمشي في حوائجه فتغيب عنه ساعة ، ثم يقال لك قد مات ، وذلك ، والله أعلم ، من شدة الحر وكثرة شرب الماء مع التعب المفرط ، فتنفطر قلوبهم .. وفي هذه القرية مسجد جامع ببناء متقن تجري العين من تحته من بناء الأمير رضوان (ح) وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدلُّ على علُوِّ همته) [2] .

النازية : (ثم ارتحلنا من جديدة وجئنا وقت الغداء للنازِيّة ، ووجدنا بأوّلها سبيلاً فيه ماء) [3] .

عرق الظبيـــة :

(وجئنا لمسجد الغزالـــة وهو من المساجد التي (صلى) فيها النبي ﷺ ،

---

(١) العياشية ٢/٢٨٦ .

(٢) : « العياشية » ١/٢٣٠ .

(٣) : « العياشية » ١/٢٣١ .

وهو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية ، وأناخ الناس فيه حتى أفطروا ، ثم سرنا صاعدين مع الوادي حتى أتينا بئر الروحاء) [1] .

الروحاء : (ثم سرنا — من مسجد الغزالة — صاعدين في الوادي حتى أتينا بئر الروحاء قبل الظهر ، وأنخنا فيه ساعة واستقينا منه ماء قليلاً ، لأن بئره طويل ، وماؤه ضنين ، وهو حلوٌ ، وحوله بركة عظيمة قد تعطلت ، وبقربها مسجد وثيق البناء صحيح ، ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أيّ إعانة للحجاج ، ولكن الله يفعل ما يريد .

وقد ذكر السيد السمهودي قريباً من البئر مسجداً من مساجده ﷺ ولا أدري هل هو المبنى الآن أو غيره ، وقد تأملت فيما قرب من البئر فلم أر أثر مسجد غير هذا) [2] .

شرف الروحاء / قبور الشهداء : ثم سرنا منه — بئر الروحاء — واشتد الحر ، وجعلت الإبل تدخل في الشجر وتطلب الظل ، وتمتنع من المشي ولو ضُرِبتْ فيسير الناس ساعة ثم يقفون ، ومات أناس آخرون ، ولم ننزل حتى قربنا من شرف الروحاء : وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء قبل العشاء بقليل) [3] .

ثم ارتحلنا بعد طلوع الفجر — من شرف الروحاء — وجئنا لقبور الشهداء ، عند طلوع الشمس ، وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلماً ، وقد ذكر السمهودي مسجداً من مساجده ﷺ بشرف الروحاء ، وهناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد ، يزوره الناس ، وأظنه هــو .

وفي شرف الروحاء آثار آبار معطلة ، وبنيان داثر . وقد كانت هناك في القديم قرية ولم يَبْدُ الآن بها شيء من ذلك .

---

(١) : « العياشية » ٢٣١/١ .

(٢) : « العياشية » ٢٣١/١ .

(٣) : « العياشية » /٢٣١ .

وقد وجدنا هنالك سبيلاً آخر مبنياً ، تجدد وراء نا فيه ماء ، وحوله ناس من الأعراب يبيعون الماء والعلف ، وأخبرنا أن وراء الجبل بلد خال ، فيه آبار وبعض نخيل . وأظنها السّقيا [1] ، فإنها قريب من شَرَف الروحاء [2] .

الفريش : (فلما جاوزنا شرف الروحاء .. جئنا الموضع المسمّى بالفريش[3] فأناخ الناس حتى أفطروا ، وساروا في يوم حار عازمين دخول المدينة المشرفة في ذلك اليوم ، ولم يَعْبَأ الناس ولا إبلهم بما لقوا من شدة الحر في ذلك اليوم لشدة الفرح) [4] .

مُفَرِّح : قال : (وأول مكان تُرى منه قبابها وأسوارها ، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها الجبل المسمى بمفرح فتسارع الناس عند الدنو منه لصعوده ...

ثم أورد قصيدة له طويلة :

هـــذا مُفَرِّحُ كاسمــــه وكأنه
ياقوتة رُشّتْ بذائب عَيْبَـــــرِ

وأمامـــه البيداء يسطــع نورُهـــا
لبصائر الزوّار ، هَلْ مِنْ مُبْصِرِ ؟

وعلى يمينك قَدْ بدا (عَيْرٌ) يُرَى
بالقرب كالثور العقير الأعْفَرِ

وأنِخْ ركابك بـ (المُقدَّس) إنه
لمبـــارك ، وبمائـــه فتطهّـــرِ

واحْدُ الرِّكابَ مع (العقيق) منعما
عينيك في ذاك المكان النيِّــرِ

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٣١ .
(٢) السقيا هي أم البرك وليست هذه التي ذكر .
(٣) في الأصل (بالعريش) تصحيف .
(٤) : « العياشية » ١/٢٣٢ .

يا حبّـذا (أُحُدٌ) نَرَاهُ يُحِبُّنَا
ونُحِبُّهُ ، جبل جميل المَنْظَرِ
فكأنمـا هُوَ حُلَّةٌ من عَسْجَدٍ
صُبِغَتْ جوانبُهـا بمِسك أذْفَرِ

— — إلى أن قال — : ولما تجاوزنا جبل مُفَرَّج بغلوة أو غلوتين وصلنا إلى منتهى أبْعَد الحرمين ، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد ، وحدُّه طرف البيداء) [1] .

في المدينة المشرفة :

في المدينة المشرفة : (كان دخولنا للمدينة المشرفة ليلة الخميس الثانية من المحرم فاتح عام ثلاثة وسبعين وألف وبتنا تلك الليلة برباط سيدنا إسماعيل ابن جعفر الصادق ، فمنّا مَنْ زار ومنا من تأخر إلى الصباح لأن الحرم الشريف بعد صلاة العشاء يغلق ولا يفتح إلا قرب الفجر) [2] .

ثم تحدث عن الزيارة ، وعن وصف الحرم الشريف ، والروضة المقدسة ، والقبور الكريمة ، ووصف ما في المدينة من مساجد وآثار ، وعوّل على السيد السمهودي — مؤرخ المدينة — فنقل عنه ، وأكثر النقل ، وما أضافه يميزه بقوله : (قلت) أو (وهذا لم يذكره السيد) .

في الحرم الشريف : قال : (ولما كان يوم الثلاثاء سابع الشهر محرم — ارتحل الركب المصري من المدينة بعد اقامة ثلاثة أيام بها ، وكان الحرم الشريف في أيام إقامتهم لا تكاد تسمع فيه صوت قارىء ولا مؤذن لكثرة اللغط والصخب ورفع الأصوات وازدحام الناس في المسجد لا ينقطع ذلك ليلاً ولا نهاراً لأن أبواب الحرم لا تغلق ما داموا هناك ، ويكثرون بالليل ايقاد الشموع في المسجد ، وتجتمع إليهم صبيان أهل المدينة يقرأون لهم موال

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥ .
(٢) : « العياشية » ـ ١/٢٣٥ — بتصرف يسير .

وقصائد في مدح النبي ﷺ وهم محدقون بهم ، ويسمون ذلك مولد النبي ﷺ ، يستعدون له من بلادهم بالشمع والحلواء ، ويدفعون للصبيان أجرة على ذلك ، ويقع على أرض الحرم من الشمع المذاب شيء كثير لأجل ذلك ، فيلتقطونه ويجمعونه ، ويرجعون به إلى بلادهم تبركاً به ، فتجد منهم في المسجد بالليل جماعات كثيرة على هذا النمط ، فيكثر لذلك الصياح في المسجد واللغط الذي لا ينبغي . لاسيما مع ما يضاف إلى ذلك من ولاول النساء ، وبكاء الأطفال واختلاط النساء بالرجال وبالجملة فعوامّ المصريين من أبعد الغوغاء عن إصابة الصواب لولا أن بحر رسول الله ﷺ لا تكدّره الدلاء لكانوا جديرين بالمقت بسبب ما يحصل منهم من سوء الأدب وسيء الأقذار في الحرم الشريف ..

حكى لي بعض المجاورين أنه وجد في بعض المواسم رجل مع امرأة في الحرم الشريف ، فحملا إلى الحاكم ، فشهدت البينة أنها زوجته ، وقيل له : ما حملك على ما فعلت ؟ . فقال : انه لا وَلَدَ لنا ، فرجوت أن تحمل المرأة ببركة هذا الحرم ، فعذر بجهله ، ولم يعاقب [1] .

وقال عن فرش الحرم الشريف : (ولما استهل ربيع النبويّ نظف الحرم الشريف ، وفرش بفرشه المعهودة من الزرابي المبثوثة الحسان ، التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك ، وغاليها يأتي من أرض الهند ، من عند ملوكها ، وقـد رأيت سُدَى بعضها حريراً خالصاً ، وكنت أتوَقّى الصلاة فيها ، وطعمها من جيّد الصوف) [2] .

وقال : (وكانت عادة المصريين ليلة رحيلهم من المدينة أن يجتمع أمراؤهم وكبراء أهل المدينة والأغوات في صحن المسجد ليلاً ، ويوقد شمع كثير ، على حَسَكٍ كبار من فضة وُشيّتْ بذهب ، ويحضر جماعة من المنشدين ينشدون قصائد في مدحه ﷺ وينثر عليهم من اللوز والسكر والأزهار وأنواع الحلوى ، ويدار عليهم بالأشربة اللذيذة إلى أن يمضي هزيع من من الليل ، وهذه عادة أمرائهم وأمراء الشاميين في ليلة الرحيل ، ولم يفعل

---

(١) : « العياشية » : ٢٤١/١ ، ٢٢١ : ٢٨٤/١ .
(٢) يقصد لحمتها – أي ظاهرها –

المصريون شيئاً من ذلك في هذه السنة ، لما وقع من الاختلاف والعزل بين أمرائهم – كما تقدم [1] .

البَقيع – مقبرة المدينة – قال : (فأول ما يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب ، على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي في وسط البقيع إلى ناحية المشرق .. وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة ، فهناك مسجد صغير قيل إن فيه موقف النبي ﷺ حين خرج يستغفر لأهل البقيع ، وقيل : هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها ، وفيها دفن كثير من أهل البيت) [2].

وسرد في البقيع المشاهد المعروفة في عهده :

مساجد المدينة : وتتبع مساجد المدينة مسجداً مسجداً فوصفها معولاً على السمهودي ، ومن تلك المساجد :

مسجد قبا : قال بعد أن وصفه : وفي خارج المسجد من ناحيته الغربية رباط كبير مليح مبني بالحجارة المنحوتة ، فيه بيوت كثيرة يسكنها الغرباء وله أوقاف ، ومقدمهم القيم بأمر الرباط صاحبنا الشيخ صالح بن أحمد اليمني المصري [3] .

مسجد الجمعة : (وهو في طريق قبا على نحو ميل أو أقل من مسجد قبا عن يمين الذاهب من المدينة إليها ، على الطريق التي تمر بين النخل ومن مَرَّ على

---

(١) ذكر (ص ٢٣٦ ج ١) : وكانوا – يعني المغاربة – تخوفوا إزعاج المصري إياهم من الإقامة هو شأنه في غالب السنين ، فلا يقيمون إلا يوماً واحداً ، وفي هذه السنة أشغلهم عن ذلك ما وقع منهم من الاختلاف فقد جاءت كتب من مصر بعزل الأمير ابراهيم ، وتولية أبي الشوارب مكانه . وأبى المعزول أن ينقاد لحكم العزل حتى كادت أن تكون فتنة ولكن الله سلم فاستسلم للأمر وسلم المحمل للأمير عبدان ، وكان حج معه . وأقام هو بالمدينة إلى أن توفي بها بعد شهر أو أزيد .

(٢) : « العياشية » ١/٢٤٤ .

(٥) العياشية : ١/٢٣٨ .

(٣) : « العياشية » ١/٢٤٨ .

طريق الحرّة الغربية فهو على يساره . فقد روي أن النبي ﷺ لما خرج من قبا في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي وهي أول جمعة صلاها ﷺ بالمدينة . وهذا المسجد اليوم في منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخيل من أكثر جهاته .

وفي شماله أطم خراب قيل إنه محل عتبان بن مالك ﷺ وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال إنه المكان الذي صلى به النبي ﷺ من بيته ، ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سال ، ومنازل قومه في غربي الوادي على طرف (الحرّة) [1] .

مسجد الفضيح : وهو مسجد صغير شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشز من الأرض مرضوم بحجارة سود ...

ويعرف الآن بمسجد الشمس . قال السيد : ولا أعلم سبب هـــذه التسمية) [2] .

مسجد بني قريظة : قرب حرّتهم الشرقية على باب حديقة هناك ، وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة ، وأطم الزبير بن باطا القرظي داخل في هذا المسجد ... وهذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة . وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي في موضع منار المسجد قبل انهدامه) [3] .

مسجد مشربة أمّ إبراهيم : وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية) [4] .

---

(١) : « العياشية » ٢٤٨/١ .
(٢) : « العياشية » ٢٤٨/١ .
ويعني بالسيد السمهوري .
(٣) : « العياشية » ٢٤٨/١ .
(٤) : « العياشية » ٢٤٩/١ .

مسجد بني ظفر : شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية ، ويعرف اليوم بمسجد البغلـــة ...

وعند هذا المسجد آثار في الحرة من جهة القبلة يقال إنها أثر حافر بغلته ﷺ وهناك أيضاً أثر على حجر كأنه أثر مرفق ، يُذْكر أن النبي ﷺ اتكأ عليه ، ووضع مرفقه الشريف عليه ، وعلى حجر آخر أصابع . والنـــاس يتبركون بها) [1] .

مسجد الاجابة : وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس ، وهو شمالي البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض ، بإزائه تلول هي آثار قرية بني معاوية) [2] .

مساجد الفتح : الأول المرتفع على قطعة من جبل سلع في المغرب ، يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية ، هو المراد بمسجد الفتح عند الاطلاق ويقال له أيضاً مسجد الأحزاب والمسجد الأعلى ...

وأما المساجد التي في قبلته فقد روي أن النبي ﷺ صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله) ...

الماء في المدينة : وتحدث العياشي عن عين المدينة (العين الزرقاء) وعما في المدينة من آبار أثرية فقال ما ملخصه :

مسجد القبلتين : (غربي بطحان وسلع ، قريب من العقيق في مكان مرتفع ، والطريق إليه في آكام سود من الحرة وشعاب ... وعليه بناء وثيق . وليس بقربه شيء من العمارة ، وقريب منه حديقة فيها بئر ماء . وأرض تزرع) [3] .

مسجد السقيا : (على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية

---

(١) العياشية : ٢٤٩/١ .
(٢) : « العياشية » ٢٥٠/١ .
(٣) : « العياشية » ٢٥٢/١ .

على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن ، ويشرف على المدينة ... قلت : وهو اليوم مبني ببناءٍ وثيق ، يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان خصوصاً أيام الموسم ، فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية) [1] .

مسجد ذباب : (ويعرف اليوم بمسجد الراية ، وهو على جبل صغير قريب من سلْع من شرقيّه ، قريب من ثنيّة الوداع ، على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام .

كهف سلع ، وشعب بني حرام

(قال السيد : على يمين المتجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية ، بقرب شعب بني حرام عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان فإذا دخلها صعد يسيراً في المشرق كان الكهف عن يمينه ، وأعلى منه في المشرق كهف آخر لكنه صغير جداً فالأول هو المراد ، وإذا توجه من هذه السائلة طالب مساجد الفتح كان شعب بني حرام على يمينه ، وهو شعب متسع فيه آثار مساكنهم ، وأثر مسجدهم الكبير ...

قلت : وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي إلا أنه لا بناء عليه . وإنما عليه حظير صغير ، وهو لا يعرفه كثير من الناس ، ولا يُؤْبَهُ به ، وكذا الغــار) .

مصلى الأعياد : (المشهور منها الآن ثلاثة كلها غربي المدينة خارج باب المصري بين الموضع المعروف بالمناخة وبطحان) [2] .

المشهد (قبر حمزة) : (والمشهد عليه قبّة عالية متقنة [3] ، وبابه مصفح بالحديد . وحوله بناء متسع فيه بئر ، وفيه أخلية للوضوء متصلة بالسطح .

(١) : « العياشية » ٢٥٣/١ .

(٢) : « العياشية » ٢٧٣/١ .

(٣) البناء على القبور محرم شرعاً ، والحمد لله الذي طهر هذه البقاع المباركة مما لا يبيحه الشرع الشريف .

قال السيد : والقبر الذي عند رجلي حمزة والذي بالصحن ليسا من قبـور الشهداء ، وفي خارج المشهد بئر أخرى كبيرة . وبإزائها صفة مسجد ، وتحته ماجل ماء يهبط إليه بدرج ، وباب المسجد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس يأتي القيّم من المدينة ، بالقصد لذلك) [1] .

المهراس : وفي أصل الجبل ــ أحد ــ غار يزعمون أن النبي ﷺ اختفى فيه ، ولا يصح ذلك ففي « مسند أحمد » عن ابن عباس رضي الله عنهما : وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقال الناس (؟) الغار ، إنما كان تحت المهراس . هـ .

وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع للصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس ، وهي مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة ، يجتمع فيها المطر ، قل ما تخلو منه ... وفيه غسل جرحه ﷺ ، يوم أحد كما في « الصحيح » .

مسجد الفسح (؟) ومسجد الثّنيّة : وهو المسجد اللاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب للمهراس ، وهو صغير منهدم ...

قلت : وبين هذا المسجد وبين مشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج ، غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية ، واحدة ثنايا الانسان يقال : إن فيه كسرت رباعية النبي ﷺ .

مسجد ركن جبل عينين الشرقي : على قطعة من الجبل ، والجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة .

مسجد الوادي : على شفيره شامي جبل عينين قريب من مسجد ركن جبل عينين يقال إنه مصرع حمزة رضي الله عنه وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا فصرع .

---

(١) : « الرحلة العياشية » : ٢٥٤/١ .

مسجد طريق السابلة : وهو الطريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضي الله عنه [1] .

مسجد في طريق أحد : وفي الطريق إلى أحد أيضاً عند آخر النخيل مسجد صغير محوط عليه بأحجار ، يقال إن النبي ﷺ جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أحُد ، ولم يذكره السيد ـ رحمه الله ـ [2] .

المياه في المدينة المنورة

العين الزرقاء

(وقد جعل لماء بئر أريس نفقاً من أسفلها على وجه الماء ، حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس ، وهي بئر كبيرة قد أمدّت بمياه آبار متعددة منها بئر أريس . فصارت متبحرة (؟) يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار . فاتخذت لها أسراب تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ، ثم إلى غربي المدينة ، فقسمت جداول فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه ، فأظهرت داخل المدينة مناهل متعددة ، وبنى لها بناء متقن ، يهبط إليها في نحو ثلاثين درجة محكمة البناء ، متقنة الوصف ، واسعة الممشى منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم .

والذي رأيت منها ثلاثة مواضع : أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع ، في المكان المسمى الآن الحرة والآخر : شامي المسجد بعيداً منه إلى ناحية باب الشامي . والآخر : خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط . وأما خارج المدينة فإذا خرجت في محال متعددة أيضاً ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلاً كلما انحدرت في أرض المدينة ، إلى أن خرجت على وجه الأرض قريباً من الغابة ، شرقي مسجد رومة ، بينه وبين أحد . وعليها هناك المزارع وقد رأيت جدولاً منها قريباً من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج .

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٧٣ .
(٢) : « العياشية » :

وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماء . وألذّه ، بها جل انتفاع أهل المدينة ، ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة . ومنها تملأ الدوارق التي توضع في الحرم للشرب ، وهي لا تكاد تحصى كثرة ، فما أعظم بركتها وأوسع نفعها [1] ولقد شاهدت من يستشفي بمائها ، وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء ، ولله در القائل : —

لئن قيل في زرق العيــون شآمــة
فعندي أن اليُمْن في عينها الزُّرْقَــا

بئر البصة : (بضم الموحدة وتخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد .

وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا ، في حديقة نخل على طريق بطحان ، وماؤها أخضر وهناك بئر أخرى صغيرة ... ورجح السيد أنهــا الصغرى .. وقد ابتني بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج ينزل بها إليها ، وقد شربنا من مائها مراراً) [2] .

بئر زمزم : وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق ، حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا ، وهي بئر مليحة ، في حديقة نخل ، حولها بركة وبناء .

وسميت زمزم تشبيهها بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق ، وقد زرتها والحمد لله ، وكانت إذ ذاك ملكاً لبعض أصحابنا من المغاربة المجاورين ، فاطعمنا من تمر حديقتها وسقانا من مائها .

وقال في موضع آخر : هي إحدى الآبار المنسوبة للنبي ﷺ ، واشتهرت بزمزم تشبيهاً لها بزمزم المكيّة لبركتها واشتفاء الناس بها ، وهي في غربي المدينة مما يلي الحرَّة ، وماؤها عذب [3] ...

---

(١) : « العياشية » : ٢٧٥/١ .

(٢) : « العياشية » : ٢٧٧/١ .

(٣) : « العياشية » : ٢٨٠/١ و ٢٨٨/٢ .

بئر السقيا : والسقيا في آخر منزلة النقا على يسار السالك إلى بئر علي ، وهي بالحرة الغربية ، وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هناك) [1] .

بئر اليسيرة : (ـــ من اليُسْر ضدّ العسر ـــ وتعرف الآن ببئر العهن ، بكسر فسكون .

وهي معروفة في العوالي مليحة جداً ، منقورة في الجبل ، وعندها سدرة ...

وقد زرتها وهي في عوالي المدينة قريب من مسجد بني قريظة ، وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة ، ملك لبعض المغاربة) .

بئر غُرْس : ـــ بضم فسكون .. بئر شرقي قُبَا على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال ، وقد جُعِل لها درج ينزل إليها منها ، وحولها حديقة ، وبجانبها مسجد ، وقد زرتها) .

بئر رومة : وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال ، ولم أزر هذه البئر إلا مرة واحدة لبعدها ، والطريق إليها على مساجد الفتح . ثم يعدل يساراً إلى ناحية مسجد القبلتين ، ثم يمر تحته أسفل منه قاصداً العقيق فهي هنـــاك ، وبقربها مزارع .

بير حاء : (وهي اليوم في حديقة صغيرة من سور المدينة (؟) شماليه ، بينهما الطريق ، وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع ، وهي بينه وبين باب الشامي) .

بئر بضاعة : بضم الموحدة على المشهور ، وهي في حديقة كبيرة ذات نخل ، أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي ، غربي الخارج منه قليلاً وحولها مسجد وبركة ماء) .

بئر أريس : هذه البئر في حديقة غربي مسجد قبا قريب ، وماؤها غزير ، يسقى منه إلى بركة في الحديقة . وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار وبها عنب كثير .

---

(١) : « العياشية » : ٢٧٩/١ .

وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة فيها والتفرج وقد جعل لمائها نفقاً من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء)[1] .

ماء آبار المدينة ، قال : (كان في رباط الشيخ عبد القادر الجيلاني بقرب باب النساء بينه وبينه ثلاث خطوات ، بئر حلو على خلاف المعتاد من آبار المدينة ، فإنها مالحة ، فبينما أنا أتحدث مع نقيب الرباط متى جرى ذلك فقال لي : إنما حدثت فيها الحلاوة منذ أعوام قريبة ، وكانت كغيرها من الآبار فأصبحت ذات ليلة وهي حلوة ولا يعلمون السبب في ذلك فقلت له : لعل مجرى العين قد انخرق فيها ؟ فقال : ليس بالقرب منها مجرى للعين . والله أعلم بحقيقة ذلك .

أهل المدينة كما وصفهم العياشي

أطال الرحالة العياشي الإقامة في المدينة في زيارته هذه . فقد دخلها في الليلة الثانية من شهر المحرم (١٠٧٤هـ) وخرج منها إلى مكة في السابع عشر من شهر شعبان من تلك السنة[2] . ولهذا فقد تحدث عن آثار المدينة وعن أهلها باستفاضة . وأحاديثه شيقة وممتعة ، يحسن إيرادها بنصها . قال : (وأهل المدينة — زادهم الله خيراً وأوسع عليهم ، أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا وتغال في الملابس الفاخرة ، وتزيّوا بزي الأعاجم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، لكثرة سكنى الأعاجم بها ، فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك ، وبها من الأعاجم أقوام كثيرون من الأكراد والترك وأطراف الشام ، يشترون الحصص والجامكية ، فيجلسون بالمدينة ويرتزقون بما يأتيهم من ذلك على حالهم التي كانوا عليها في بلادهم من التوسعة ، فاقتدى بهم غالب أهل المدينة من أقويائها .

---

(١) : « العياشية » : ٢٧٥/١ .

(٢) : « العياشية » : ٢٨٦/١ .

(٣) : « الرحلة العياشية » : ٢٨٤/١ .

وقد كانت المدينة في الزمان المتقدم معروفة بالقناعة حتى قال مالك ﷺ بالكفارة والنفقات بالتفاوت بين المدينة وغيرها لقناعتها . قال (الأمر في هذا الزمان إلى خلاف ذلك ، فصاروا أرفه الناس عيشاً ، وأكثرهم في المآكل والملابس إسرافاً ، أعني الكبراء منهم ، وأما الفقراء وغالب المجاورين – خصوصاً المغاربة – فهم على حالهم من الفقر والمسكنة .

ولقد أُخْبِرْتُ أنَّ للنساء عليهم عادة يسمونها الشخشخة وهو ما تشتري به المرأة ما تشتهيه من الأزهار ، فربما بلغ ذلك ريالاً في كل يوم [1] .

عادات أهل المدينة : وقال : (من عادة أهل المدينة إذا ذهبت الأركاب ان ينظف الحرم الشريف ويفرش بفرشه المعهودة ، من الزرابي المبثوثة الحسان ، التي لا يوجد لها نظير إلا في بيوت الملوك ، وغالبها يأتي من الهند من عند ملكها ، وسُدّي بعضها حرير خالص ، وطعمها من جيد الصوف الملون الذي لا يكاد يفرق بينه وبين الحرير إلا ذو بصيرة ، يفرش به المسجد النبوي القديم المسقف كله ، وتخرج الربائع (؟) التي فيها المصاحف العتيقة والأجزاء الحسان من وقف الملوك والكبراء ، وصُفّتْ في قبلة المسجد ، وفتحت خزائن الكتب العلمية الموقفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة ، وشرع الأئمة في القراءة والتدريس .

وكانت عادتهم إذا كان اليوم السابع عشر من ذي القعدة – ويسمونه الكنيس – جمعت بسط الحرم كلها وأدخلت في المخازن فلا يبقى في المسجد إلا الحصر ، وأدخلت المصاحف التي في المسجد والسبحات إلى الروضة . ورد كل من استعار كتاباً إلى صاحبه أو إلى ناظر الخزانة التي أخذ منها واقتضى غالب الديون ، وتفاصل الشركاء ، وانتهى أمر غالب الأكرية ، يتهيأون بذلك للموسم ، لأنه في غالب الأمر مظنة ارتحال قاطن ، وقدوم غالب ، واجتماع الناس من الآفاق ، واشتغال أهل المدينة بقبض الأقوات والجرايات التي تأتيهم من الأوقاف ، وذهاب من يريد النسك إلى مكة أو من يريد

---

(١) : « العياشية » : ٢٠٢/١ .

التجارة فلا يبقى في المدينة إلا القليل من الناس ، ويكنس الحرم الشريف في ذلك اليوم ، وفيه يكنس البيت العتيق بمكة أيضاً ، ويفعل فيها مثل ذلك .

وأيام الموسم عند أهل الحرمين فيها يجمعون غالب أمور معاشهم فلا يتفرغ أحد لتدريس ولا عبادة إلا ما لا بُدَّ منه ، فإذا انقضت أيام الموسم وذهبت الأركاب الواردة من الآفاق ، ولم يبق بالحرمين إلا أهلها رجعوا إلى معتاد حالهم في الأمور الدينية من القراءة والتدريس وأنواع العبادات ، والدنيوية من الفلاحة والتسعير في الأسواق وتصحيح المكاييل والموازين .

وأما أيام الموسم فلا سِعْرَ معلوماً ، ولا مكيال وافياً ، ولا ميزانَ صحيحاً ، كلٌّ يفعل ما شاء ، ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك ، إلا أن يقع أمر مهمٌّ .

ويتنافس الناس في الخدمة في ذلك اليوم بنقل البسط وغيرها ، ويعمل في ذلك الأمراء والكبراء العظام فمن دونهم .

ولما قربت ليلة المولد الشريف بولغ في تنظيف الحرم وتزيينه ، وغسلت مصابيحه ، وجعل فيها مائعٌ شديد الحمرة لا أدري ما هو وألقي فوقه قليل زيت طيب أخضر ، فإذا توقد المصباح ظهر إشراق المصباح لشدة صفائه وملاقاته لضوء النار ، وأشرقت حمرة ذلك المائع لكونها ملاقية لصفاء الزجاج فتصير حمرته كحمرة الياقوت ، وذلك الخط من الزيت فوقه أخضر كالزمرد ، وفوقه صفاء الزجاج يتموَّج فيه ضوء النار ، وينعكس فيمازج اشراقه صفاء الزيت وخضرته ، وصفاء المائع الأحمر وحمرته ، فلا تسأل عن حسن ذلك المنظر وبهائه ، وقد رتبت المصابيح في تعليقها ترتيباً حسناً لائقاً ، وشكلت تشكيلاً بديعاً بين تربيع وتدوير ، فيا له من منظر ما أبهجه ، ومن ليل ما أسرجه ، فإذا كان بعد صلاة العصر من اليوم الحادي عشر أخرجت القناديل الكبار والحسك ؟ ، العظام من الحجرة الشريفة ، غالبها من النحاس المطلي بالذهب ، وكل واحدة أعظم من قعدة الرجل العظيم ، وصفت في صحن المسجد ، ووضعت فيها الشمع الغليظة الصافية اللون منها ما يزن نصف قنطار

ومنها دون ذلك ، وفي وسط تلك القناديل قنديل كبير من فضة خالصة ، زنته أكثر من قنطار ، فيه خمس حسك كبار من فضة مدور الشكل فيوضع في كل حسكة منه شمعة ، وتبسط البسط الرفيعة ، من جوانب القناديل من كل جهة ، بجلوس الأمراء وأرباب المراتب ، وبجلوس المنشدين ، فإذا صليت المغرب أوقدت المصابيح كلها ، والشمع الذي في صحن المسجد ، وأخذ الناس في الاجتماع ، وأوقدت أربع مشاعل كبار ، على أسطين معدة لذلك في صحن المسجد ، اثنان في مقدمه ، واثنان في مؤخره ، فإذا صليت العشاء جلس الأمراء في الفرش المعدة لهم كل على مرتبته ، وجلس الشعراء أمامهم والمنشدون ، وضربت خيمة قريبة من باب النساء ، ووضعت فيها أنواع الأشربة الحلوة ، فإذا امتلأ المجلس وغص بأهله وجلس كل واحد في موضعه قام المنشدون فينشدون من غرر القصائد في مدح النبي ﷺ ، ما انتخبوه وأعدوه لذلك الموضع بألحان عجيبة ، وتراجيع متسقة ، وبازائهم جماعة يردون عليهم بأصوات حسنة ، فيجيء السقاءون بأنواع الأشربة الحلوة فيسقون الأمراء ثم المنشدين ومن معهم من أتباعهم ثم سائر الناس ، ثم يؤتى بأنواع الرياحين والأزهار فتوضع بين أيديهم أضعافاً ، ثم تفرق أيضاً على الحاضرين ، ثم يؤتى بأطباق من اللوز والسكر وأنواع الحلوى فتفرق أيضاً وينثر ما بقي منها على عامة الناس ، ولا يزالون كذلك حتى يمضي من الليل ما شاء الله النصف أو قريب منه فينصرفون .

وهذه الليلة من الليالي الغر المسترخص شراؤها بباقي العمر ، لولا ما شانها من كثرة النساء في المسجد واكثارهن من الولاول ، إلا أن أكثرهن في مؤخر المسجد من قبة الشمع وما حولها إلى آخر المسجد [٢] .

ومن عادة أهل المدينة أيضاً في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء ، في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد ، فيأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم وتطريب

---

(١) : « العياشية » ١/٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٢) الناصرية ج ٢ / ٥٣ - ٥٦ .

وتقسيم ، والناس محدقون بهم ، ولهم أتباع يردون عليهم ، مثل ما تقدم في ليلة المولد ، إلا أنهم لا يحتفلون لذلك في ليلة الجمعة ، كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريباً منه)[1] .

ومن عاداتهم يوم الجمعة الخروج للبقيع ، ووضع الرياحين الكثيرة على القبور ، خصوصاً المشاهد المعلومة فيكون عندها أضغاث من الرياحين ، ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضاً ؛ ويلقى من طيقان الشبابيك التي داخلها ، فلا يزال هنالك حتى يذبل ويذوي ، فيخرج في كناسة الحجرة ويقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة وما يتساقط من الطيب ، فيجمعون ذلك فيهدون منه لأصحابهم والأكابر ويبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق[2] .

ومن عاداتهم يوم الجمعة أيضاً أن يكنس المسجد النبوي كله . ويؤتى بأغطية من ديباج أسود مخوص بالذهب فيعلق على أبواب المسجد ، ويؤتى برايتين سوداوين من ديباج مخوص أيضاً ، فيركزان عن يمين المنبر وشماله ، وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجاً من ذلك النعت ، ويعلق أيضاً على أبواب الحجرة الشريفة . فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن فيبتدىء مؤذن الرايسية بالذكر والصلاة على النبي ﷺ وقراءة آيات من القرآن فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي ﷺ والتلاوة على المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال ، يقتسمون الوقت بذلك فإذا قرب دخول الإمام قام أحد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله ، فإذا دخل الإمام ورقى المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي وسط المسجد ، وكيفية آذانهم أنه يبتدىء رئيسهم فيقول : الله أكبر الله أكبر فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة ، ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله مثنى

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٨٧ و « الناصرية » : ج ٢ ص ٥٦ فما بعدها .

(٢) : « العياشية » : ١/٢٨٧ .

(•) الناصرية ج ٢ ص ٥٦ .

فيقولونه أيضاً بعد فراغه دفعة واحدة ، وهلم جرّ إلى آخر كلام الآذان (١) .

وأما الخطابة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء فمنهم مقل ومكثر ، وذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة وهو الغالب ، فمنهم من تدور نوبته في كل شهر مرة ، ومنهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرّة في السنة ، ومنهم بين ذلك على حسب انصبائهم في المال المأخوذ على ذلك . والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازاً ومصراً وشاماً من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة ، بل ووقيد المساجد إنما تنال بالشراء من الولاة .

ومن عادة المدرسين في المدينة تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس ، يوم الثلاثاء ويوم الجمعة ؛ ويقرأون فيما سوى ذلك من الأيام . خلاف عادتنا في المغرب من التعطيل يوم الخميس والجمعة : فكنت أيام إقرائي بالحرم الشريف يكلفوني القراءة يوم الخميس فيشق ذلك عليّ لكونه خلاف المعتاد لدينا ، ولخروجنا في ذلك اليوم إلى زيارة أحد أو غيره من المشاهد ، فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء ، فأبوا كل الإباءة ، فجريت على عادتهم كما قيل :

إن جئت أرضاً أهلها كلهم عورٌ فغمض عينيك الواحدة

ولا أدري ما السبب في تعطيل الثلاثاء لديهم ، والخميس والجمعة سببهما شهير .

ومن عادتهم في اقامة الصلوات الخمس في الحرم الشريف تقديم الصلوات

---

(١) : « العياشية » : ٢٨٧/١ .
(٢) « الناصرية » : ج ٢ ص ٥٧ .
(٣) : « العياشية » : ٢٨٧/١ .
(٤) : « الناصرية » : ج ٢ ص ٥٧ .
(٥) العياشية ٢٨٩/١ .

في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي فيؤخره إلى قرب الإسفار ، فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس ، وما يقيل غالب الناس إلا بعـــد الصلاة ، فيذهبون بعد الصلاة إلى منـــازلهم لنوم القائلة ، وكان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك فتكاد صلاة الظهر تفوتهم في المسجد لأنهم لا يتأهبون لها إلا بقدر الآذان، وليس بين الآذان والصلاة قدر يسع التأهب فمن لم يتأهب للصلاة قبل دخول وقتها فاتته في الجماعة غالباً وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر إلى ربع القامة أو أزيد للإبراد في شدة الحرّ ...

وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق وقته عنده كالمالكية ، ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أرباب المذاهب إلا في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أيّ مذهب كان ، فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي فإن صلى أحدهما فيه صلى الآخر في المحراب الذي على يمين المنبر الشريف ، وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس [1] .

ومن عاداتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف فيصلى عليها بالمسجد ، ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف بها وُقيفةً ، ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره ، إلا جنائز الروافض كالنخاولة فانها لا يدخل بها المسجد ، ولا يؤتى بها للمواجهة ، بل يأتي أصحابها إلى خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون ، ولقد أحسن من سنّ لهم ذلك من الولاة ، فحق من يبغض ضجيعي الرسول ﷺ ورفيقه في الحياة والممات أن يبعد من حماه حياً وميتاً . قيض الله من يخليهم منها إلى تيما وأريحا آمين آمين [2] .

ومن عاداتهم في الاملاكات أن يكون عقد النكاح في المسجد الحرام ، فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب ، والخطيب ، فيجلسون

---

(١) : « العياشية » : ٢٨٩/١ .
(٢) : « العياشية » : ٢٩٥/١ ، أما الجملة الأخيرة فهي من زيادات : الناصرية ج ٥٩/٢ .

صفيّن ، من المنبر إلى الحجرة الشريفة ، صف مستقبل القبلة ، وصفٌ مسند ظهره إلى جدار القبلة ، وجلس عن يسار الشيخ كبير الخطباء بالمدينة أحمد البرّي ، وبإزاء الخطيب المتعاقدان ، فشرع في الخطبة ، وأطال الثناء على الله بما أهله ، وعلى رسوله ﷺ .

ولقد حضرت إملاك هندي قدم من مكة في الرجبية ، مع الشيخ عيسى كان بينهما صحبة . فأراد العقد لولده مع ابنة رجل آخر من كبار تجار الهند ، فلما كان وقت العقد ذهب بي الشيخ معه وكرهت خلاف أمره ، وما كنت أحب حضور محافل أهل الدنيا المشوبة بأنواع من التصنع والمباهاة خصوصاً في ذلك المحل الذي حق الانسان فيه أن يخضع ويخشع ... فجلس الشيخ مسنداً ظهره للمنبر النبوي وجلست بإزائه ، وجلس أرباب المراتب من العلماء والخطباء وأكابر الناس ثم ذكر المتعاقِدَيْنِ ، وأطال الثناء عليهما إلى أن ذكر العقد وأشار إلى المتعاقدين ، ورضيا بذلك كل ذلك بلسان الدلو (؟) وصوت جهوري وذلك الذي أنكرته مع المبالغة في الثناء على المتعاقِدَيْنِ بما أكثره زُورٌ بحضرة أشرف الخلق وفي روضة الجنّة ، فصغرت نفسي عندي ، وتضاءلت ، وودت أنّي لم أحضر ذلك المجلس ، ولو كنت أعلم أنّ صورة المجلس على هذا الوجه ما حضرته .

ثم أتي بأطباق الرياحين ووضعت بين الصفين ، وأطباق من اللوز والسكر وفرق ذلك على الحاضرين وقام المنشد فأنشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي ﷺ فافترق المجلس ، وقام الحاضرون إلى المتعاقدين يهنونهما ، وهـذه صورة إملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطّة وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم .

فاذا كان ليلة الدخول أتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه ، ومعه الشموع حتّى يوقف على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة ، فيدخل ويسلم على النبي ﷺ ، ويدعو فيخرج ، ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها عكس المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي

التي تُزفُّ إلى زوجها ، وأن الدخول في بيت الزوج ، وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يُزَفُّ ، فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة ، وجاء الناس لتهنئته ، وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج ، ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة ، وعادات السادات سـادات العادات) [1] .

نساء المدينة : (ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلى التنزه والتفرج في البساتين ، والأماكن المنفسحة ، ويسمون ذلك القايلة (؟) فيقولون : تقيّل اليوم في الموضع الفلاني وخروج الرجال لذلك أكثر ، فتكلف المرأة زوجها في ذلك من النفقة ما لا قدرة له عليه) [2] .

وقال أيضاً عن النساء في المدينة : .. (بيد أن نساءهم يبالغون (؟) في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولا مغرز إبرة ، حتى من أطرافها ، يلبسن الخفاف السود ، ويتبرقعن ، ويسدلن من أزرهن ما يكون نهاية في الستر ، إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج ، فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة ، فيكون ما سترته ظاهراً أبديته باطناً . وبهذا فسر بعض العلماء قوله ﷺ : « رُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة » [3] .

من عادات أهل المدينة : (ولأهل المدينة ولوع وغرام شديد بأكل اللحم ، زاعمين أنهم يستضرون بتركه لحرارة أبدانهم ويبسها ، فيحصل لهم الترطيب به ، فإذا أكلوا غيره حصل لهم يبس في الطبيعة حتى أن من نسائهم من لا يطبخ غداءً ولا عشاء إلا أن يكون لحم ، ويقلن : نحن لا نعرف الطبخ بلا لحم ، ولو أدّى ذلك إلى بقائهم بلا عشاء ولا غداء . وقد أخبرني بعض أصحابنا أن من أهل المدينة من يشتري العبد فلا يكون له شغل إلا شراء اللحم ،

---

(1) : « العياشية » ١/٢٩٥ .
(2) : « العياشية » : ١/٢٠١ .
(3) : « العياشية » : ١/٢٤٥ .

فيدور عليه في المدينة وأسواقها وفي العوالي وقباء ، في زمن قلته ، فلا يرجع إلى سيّده حتى يحصله ، أو يدور المدينة ونواحيها كلها ، فإذا حصله كان ذلك شغله في ذلك اليوم ، ولا يستعمله في غيره ، لأنه إنما تملكه بقصد ذلك) [1] .

الثروة والتجارة في المدينة : وقال : وبعد رحيلهم – يعني المصريين – من المدينة بثلاثة أيام نزل الركب الشامي ، ولقوا من الحر في الطريق شدة عظيمة كالذي وقع للمصري قبلهم أو أشد ، فمات منهم جملة كثيرة في الطريق ، وجملة بعدما وصلوا إلى المدينة . وأقاموا بالمدينة المشرفة عشرة أيام ... ونصبت الأسواق ، واتسعت الأرزاق ، وقسمت الصدقــات ، وكثرت الإنفاقات ، وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة ، وطعام وزيت وأشربة ، يبيعونه في المدينة عند قدومهم ، ويدخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة ، ولأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة وهي أنه لا تبقى مخدرة من النساء إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها ، ولها على الرجال في ذلك الوقت إتاوة يؤدونها لهن ، فيبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن من طيب وشبهه ، وربما لا تقنع إحداهن من زوجها إلا بالخمسين ديناراً فما فوقها . فقد حكي أن امرأة بعض المدرسين بها ، أعرفه ، طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة ، فدفع لها عشرة دنانير ، فاستقلتها ، وذهبت من شدة الغيظ فرمت بها في المرحاض[2] وأتلفتها عليه ، وقالت : أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار ، فلم يملك من أمره إلى أن ذهب وتسلف خمسين ديناراً فدفعها لها [3] .

---

(١) : « العياشية » : ٣٠٢/١ .

(٢) حاشية مكتوبة بالقلم : (هذه الدالة التي لنساء المدينة على أزواجهن قديمة في الأوس والخزرج ، سكانها الأقدمين ، واقتدى بهن نساء المهاجرين بعدما كن كالميت بين يدي ... بمكة عند أزواجهن ، يشير الى ذلك قصة عمر مع زوجته وقصة حفصة مع النبي صلى الله عليه وسلم كما في « البخاري » وغيره » .

(٣) : « العياشية » : ٢٤٥/١ .

عادات أهل المدينة في المعاملات التجارية

(ومن عاداتهم في التعامل أنهم يسمون الأربعين مايدياً [1] حرْفاً [2] فيقولون : عشرة أحرف وعشرون حرفاً [3] ، يعنون كل أربعين قيراطاً من قراريط الفضة المسكوكة يعد حرْفاً كقولنا في بلادنا لهذا المقدار مثقالاً ، ويقولون للدينار من الذهب المسكوك شريفياً أو سلطانياً .

ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالاً وقرشاً قلت : وهذا خلاف عُرْف مصر في القرش ، فإنه عندهم أقل من الريال .

ويقولون للقيراط المسكوك مُحلّقاً ، وبمصر يقولون له فضة وقالدياً .

ويقولون للصاع الذي به التعامل ربْعياً ، ولجزءيه كيلة ، ويسمون الحروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهباً فيقولون : عشرون ذهباً أو ثلاثون ذهباً يعنون عشرين حرْفاً [2] من غير قصد إرادة الذهب ، إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها .

وقد وقعت بيني وبين بعض مدرسي المالكية مناظرة بسبب هذه المسألة ، أعني تسمية الصرف بالذهب ، وذلك أن بعض الموثقين كتب في معاملة بين شخصين : أربعين ذهباً أو ثلاثين ذهب – يعني الصروف – فلما كان وقت الاقتضاء قال له : إني آتيك بالصروف التي هي العدة المذكورة من القراريط ، قال له المدرس : لا يحل ذلك إلا مع المتاجرة لأن هذا صرف مؤخر ، فإن الذي في ذمتك هو الذهب ، وأنت الآن تريد دفع الفضة عنه ، فهو صرف ما في الذمة ولا بُدّ فيه من صرف هنا ، إذ المراد بلفظ الذهب هنا العدّة المذكورة من الفضة باتفاق من المتعاملين وغيرهما من سائر الناس حتى المدرس بنفسه لا ينازع في ذلك ، والعبرة إنما هي بمدلول اللفظ المفهوم منه عند المتعاقدين لا بمدلوله لغة ، فإن العرف الخاص نقل هذا اللفظ من مدلوله لغةً إلى مدلول

---

(١) كذا في الناصرية : ٢/٦٠ .

(٢) كذا في « الناصرية » ، وفي العياشية (صرفا) وفي العياشية : (الصروف) .

آخر معروف في العرف الخاص لا ينازع فيه أحد من أهل البلد ، فلو أرادوا مدلول الذهب لغة [1] عنه باللفظ الدال عليه في عرفهم كما قدمنا . ويفيد ذلك كون هذا المقدار من الفضة وهو الأربعون قيراطا ليس في الذهب فَرْدٌ يقابله من أفراد الذهب المسكوك الذي يقع به التعامل حتّى يصار إلى أنـــه هو المراد ، فلو قلنا أن المراد الذهب لغةً لكان فيه جهالة إذ لا يدري أهي أربعون ديناراً أو أنصاف الدينار أو أرباعه ولأن كل ذلك لا يقابل الأربعين قيراطاً التي هي المرادة ، فلو كان في التعامل ذهب مسكوك يروج رواج الأربعين قيراطاً لتوهم أنه المراد . فلما بلغ ما قلت إلى ذلك المدرس لم يذعن للحق فطلب الاجتماع بي وجاءني وذكرت له ما تقدم فلم يجد مدفعاً إلا أن قال : أنظر ما تتقلدن من ذلك فإني أخاف أن يكون ذلك ذريعة للناس إلى التعامل بالربا . فقلت له : إذا وضح الحق فلا يترك مخافة الوقوع في الباطل فإن ذلك إنما يكون مع التباس الأمر واشتباهه فيحتاط الإنسان لدينه ، فترك ما لا بأس به حذراً مما به البأس وأما بعد تمييز الباطل بصفته المعلومة شرعاً وتمييز الحق جانباً منه بوصفه المعروف حتّى لا يخاف التباس الحق بالباطل فلا معنى لترك الحق إذ ذاك لأجل توهم متوهم .

ثم انجر بنا الكلام إلى مسألة صرف الريال بالمائدية وهي القراريط المذكورة من دون وزن بل بالعدد وقد جرى على ذلك عمل أهل الحجاز ومصر إلا القليل ، وقليل ما هم ، فقلت له : لو انضبط لهم مقدار معلوم من خمسين أو ستين من القراريط تكون في وزنها قريباً من وزن الريال لخرجت عن مسألة « العتبية » من قول ابن القاسم في الدينار بعشرين قيراطاً من الذهب ، إذ لا فرق بين الذهب والفضة في ذلك فلما خفف في دينار واحد في مقابلة عشرين قيراطاً فليكن كذلك درهم كبير من الفضة وهو الريال في مقابلة أجزاء كثيرة من الفضة نحو الأربعين أو الخمسين أو الستين إذ لا عبرة بكثرة العدد وقلتـــه . مع اعتبار التفاوت اليسير في الوزن ، وانفراد احدى الجهتين بواحدة ، ولكن لما لم ينضبط العدد المدفوع فيه الريال فتارة يكون خمسين وتارة إلى ستين كان

---

(1) كذا ولعل الصواب : (لعبروا عنه) .

في ذلك مكايسة ظاهرة ، وخرجت المسألة من بابها المعروف الذي سبب الرخصة مع الضرورة ، فأبى من قبول ذلك ولو مع الانضباط حتى أطلعته على كلام شيخ مشائخنا سيدي العربي الفاسي في مسألة الريال والرد فيه من دراهم وقته ، أو المبادلة ، وقد حقق ذلك كل التحقيق ، فلما رآه رجع إلى مثل قوله الأول ، والجواب عنه ما قررنا) [1] .

وقد ذكر العياشي — في موضع آخر من رحلته [2] : (وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة ، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي ، نسبة للأمير الشريف صاحب سجلماسة) انتهى ولا أدري من يعني بكلمة عندهـــم .

الاسعار في المدينة

وقد كانت الأسعار أيام مجيئنا المدينة شديدة ، فكان القمح ثلاثة آصع بريال ، والصاع عندهم يقرب من ثلاثة آصع بصاع الزعوة (؟) وأما التمر فنحو أربعة آصع بالريال ، والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت ، خلاف المعهود في غالب البلاد ، والعسل اشتريت رِطْلاً منه للدواء بقريب من ثلث ريال ، والسمن دون ذلك ، وأما الفواكه فكانت في أيامها ووسط إبّانها العنب بثلاثة مائدية للرطل ، وقد رأيت رمانة في آخر الإبان بيعت بخمس مائدية [3] .

ولم تزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء إلى أن هجم الشتاء وقرب زمان الربيع ، أرخت السماء عزاليّها بالأمطار الغزيرة المتوالية وسالت الأودية ، ولم يأت أحد من ناحية إلا حدّث بالجو د فلانت الأسعار وكثر العبر (؟) والجبن في الأسواق ، وكان الجبن أول ما بدا يباع بثمانية مائدية للرطل ، فلم تمض إلا

---

(١) : « العياشية » : ٢٩٧/١ .
(٢) « العياشية » : ٢٠/١ .
(٣) : « العياشية » : ٣٠١/١ .

مدة يسيرة حتى صار يباع بمائدين ، وكثر اللحم السمين ، وكان قبل ذلك هزيلاً جداً ، ومع هزاله قل ما يوجد [1] ...

من عادات أهل المدينة

ولأهل المدينة موسم كبير في شهر رجب ، يحتفلون فيه لزيارة حمزة والشهداء (رض) يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة واليمن والطائف والينبع ، فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج ، ويخرج أهل المدينة إلا القليل ، بأولادهم ونسائهم ، ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار ، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها ، وتنصب الأسواق العظيمة هنالك ، يخرجون من أوائل رجب ، ويتلاحق الناس كل على قدر حاله ، فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر وهو اليوم المشهود عندهم ويوم الزينة ، فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم ، ويحصل هنالك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء ، والرمي بالمدافع والمحارق ، ويبيت الناس طول ليلهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر ، ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير ، وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر ، لا تنقطع القراءة الليل بأجمعه والنهار بتمامـــه وكبيرهم شيخنا الملا ابراهيم (رضي الله عنه) .معهم لا يفارقهم في ذلك المحل ، وكيفية القراءة ، أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ أحدهم فيقرأ جزءاً ويسمع الباقون ، فإذا فرغ من حزبه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون ، ثم كذلك سائر الليل والنهار . وحكى لي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم : إن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها ، والتكلف في النفقات ، والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم، الشبيه بشدّ الرحل بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة ، واعتياد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع ، وكان ذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا ، ويشدّد النكير عليهم في ذلك ، فبينما هو

(١) : « العياشية » : ١/٣٠٢ .

ذات يوم من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريب منها ، إذ غلبته عيناه فرأى النبي ﷺ وهو يدخل ويخرج في الحجرة ، ويقوم ويقعد ، كفعل متهيّىء لسفر ، وأثاث السفر معدّة بين يديه . فقال له : يا رسول الله ما هذا الذي أرى ؟ أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة ؟ قال : لا إنما نريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة ، أو كلاماً هذا معناه ، فانتبه الفقيه من نومه ، وتهيأ للخروج مع الناس فعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك) [1] .

من عادات أهل المدينة أيضاً قال : (وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد – مساجد الفتح – لقصد التفرج في أيام كثيرة ، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة فيبيتون بها في لهو وطرب ، وهو يوم النصف من شعبان . وقد خرجنا مرّة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء ، ولم نتمكن من الدخول إليه ، وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة) [2]

ومن عاداتهم بمكة والمدينة التهنئة بالشهر أيّ شهر كان ، خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد وما شاكلها . ولديهم لا بُدَّ من التهنئة في أول يوم من كل شهر فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنئه بالشهر في منزله . ولله در القائل :

إنّ الأهلّةَ في السماء مناجـــل بطلوعها تتحصّدُ الأعمـــارُ
أبَداً يُهَنّيءُ بعضُنَا بعضاً بهـا وطلوعها بأفولنـــا إنـــذارُ

من عادات أهل المدينة أيضاً : وقال : (وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المتنزهات من سالف الدهر ، ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة . قال شيخنا أبو سالم ؛ إمام المرتحلين في زماننا هذا – وقد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات ، فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه ،

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٥٤/ ٢٥٥ .
(٢) : « العياشية » : ٢٥١/١ .
(٣) : « العياشية » : ٢٨٩/١ .

وطبخت الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب ، وأقاموا به يوماً أو يومين ، وقد سال مرة سيلاً عظيماً منع الرفاق الوافدين من مكة للرجبية من الوصول إليها إلا بعد مدة ، قال وقد حضرني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها :

جرى العقيق ودمعي كالعقيق جرى
فلا تَسل سائلي عمــا هناك جــرى

ـ ٨ أبيات [1]) .

من عادات أهل المدينة (النخاولة)

لهم عادة في كل يوم خميس غالباً يأتون إلى مشهد السيد اسماعيل من أول النهار ويطبخون هنالك طعاماً كثيراً ، ويجمعون رجالاً ونساء بأولادهم ، وفي الغالب يأتون لختان أولادهم ، فإن من له ولد يريد ختانه لا يختنونه إلا في ذلك اليوم في ذلك المكان ، وربما جاؤوا لغير ختان بل لمجرد الزيارة واطعام الطعام ، ولا يحضر معهم غيرهم وغالب ما يطبخون هنالك الأرز والهريسة باللحـــم .

وصفة طبخ الهريسة أن يجعل اللحم في المطبخ ويجعل معه اللحم ، ويطبخ حتى يفارق اللحم العظم فتزال العظام ، ويبالغ في طبخ اللحم مع القمح حتى يطيب القمح وينزلع فيأخذون عصياً شبه المغارف عراض الرؤوس فيلوكون ذلك به حتى يختلط اللحم مع القمح ويصير مثل العجين فيأخذونه في الأواني ويصبون عليه السمن ، وهي عند أهل الحجاز من أشهر الأطعمة ، وهي قوية إذا شبع منها الإنسان قد لا يشتهي الطعام يوماً وليلة [2] .

الزيارة الرجبيـــة

جرت عادة أهل المدينة بزيارة قبر سيدنا حمزة (رض) كل يوم خميس

---

(١) : « الرحلة الناصرية » : ج ٢ ص ٧٣ .
(٢) : « العياشية » : ١/٢٨٤ .

وربما باتوا هنالك ليلة الخميس في غالب الأحوال ... ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في يوم الخميس سبباً إلا أن يكون ما ورد من أن الأموات يعلمون بزائريهم يوم الجمعة ، ويوماً قبله ويوماً بعده ، فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع ، ويوم السبت لزيارة قبا فلم يبق إلا يوم الخميس ...

وباب المشهد لا يفتح إلا يوم الخميس يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك .

ولأهل المدينة موسم كبير في رجب يحتفلون فيه لزيارة حمزة والشهداء (رض) ، يأتي الناس من أقطار الحجاز من مكة واليمن والطائف والينبع فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج ، ويخرج أهل المدينة إلا القليل بأولادهم ونسائهم ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيم الكبار ، ويخرج أمراء المدينة وعسكرها ، وتنصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب ، يتلاحق الناس كل على قدر حاله ، فيتكامل خروجهم في الثاني عشر وهو اليوم المشهود عندهم ، ويوم المدينة ، فلا يبقى في المدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم ، ويحصل هنالك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب أشياء كثيرة ، والرمي بالمدافع والمحارق ، ويبيت الناس طول ليلهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر ، ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير .

وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر ، لا تنقطع القراءة الليل أجمعه والنهار بتمامه ، قال : وكبيرهم شيخنا الملا ابراهيم رضي الله عنه ، معهم لا يفارق ذلك المحل ، وكيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم ، فيبدأ أحدهم فيقرأ جزءاً فيسمع الباقون فإذا فرغ من جزئه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون ، ثم كذلك سائر الليل والنهار . قال : وحكي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ، ويقول لهم أن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك

---

(١) : « العياشية » : ١/٢٥٢ .

من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها ، والتكلف في النفقات ، والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم الشبيه بشدّ الرحال بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة، واعتياد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع . وكان ذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا ويشدّد النكير عليهم في ذلك جداً – ثم ذكر أن ذلك الفقيه رأى النبي ﷺ يدخل الحجرة ويخرج منها ويقوم ويقعد وانه قال : إنما أريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة ، وكلاما هذا معناه ، قال : فانتبه الفقيه من نومه وتهيأ للخروج مع الناس فتعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم ...

ولما كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز واليمن ، كمكة والطائف واليمن ونجد وجدة وما والاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية، وزيارة سيد الشهداء حمزة ﷺ فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكـــة ونواحيها ، ولم يزل الناس يتلاحقون ، فخرج أهل المدينة إلى أُحد من اليوم الخامس والسادس من الشهر ، ورجعوا في اليوم الثاني عشر ، ولم يبق بالمدينة إلا القليل ، وخرج العسكر لحراسة الناس في الطرقات من المدينة إلى أُحد .

وبعد الرجوع من أحد نزل الوافدون في المدينة ينتظرون الرجبية وهي ليلة سبع وعشرين منه ، ليلة المعراج ، وقدم خلق كثير من الأعراب ، وكانت بالمدينة سوق عظيمة ، وامتلأ المسجد وجوانبه فما من يوم إلا ويزداد الخلق فيه كثرة ، فإذا كانت الليلة السابعة والعشرين تكامل حشر الناس ، فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلّما يجد موضعاً لصلاة المغرب والعشاء فيغص المسجد بمن فيه ، ويفتح الحرم طول الليل ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة ، كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح ، فاذا أصبح أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد ، وصياح وصراخ ، رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي ﷺ والاستغاثة به ، فيرق قلب سامعهم ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم ، فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل ...

---

(١) : « العياشية » : ٢٥٣/١ – ٢٥٥ .

وإذا استهل شهر شعبان أخذت القوافـل في الرجوع إلى مكة ، ويرجع غالب من جاء من أهلها ، ولا يبقى إلا القليل ممن يريد شهود رمضـــان بالمدينة) [1] .

فواكه المدينة وخضرها

وفواكه المدينة مع غلائها في غاية الجودة ، خصوصاً عِنَبها ورُطَبها ، وأما الخضر فأكثرها وجوداً الجَزر والباقلاً والملوخية والبامية والبصل واللفت .

والخضر البرية ليس بها إلا الخبّيز) [2] .

الصحة في المدينة : (ولا يأكل أحد في تلك البلاد السمن القديم والشحم القوي إلا أضرّ به ما لم يكن حديث عهد بالبلد ، فإذا طالت إقامته بالبلد تطبع بطبعهم . وطبع ذلك البلد المشرف وهواؤه قلما يوافق أحداً من أهل مغربنا الأقصى ، ممّن بلده ريف ذات مياه وخصب ، وإنمـا يوافق أمزجة أهل الصحراء كتوات وتجراره وأهـل السودان وذلك ــ والله أعلم ــ لفرط حرارة هاؤلاء ، فقلما رأيت أحدهم مريضاً في تلك البلد إلا مرضاً خفيفاً ، وقلما رأيت أحداً ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألظّ به المرض إلا القليل ، ممّنْ طالت إقامته جداً في البلد وتطبع بطبع أهلها .

وقال : من يوم قدومنا للمدينة كل من تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا : استعدوا لحمّى المدينة ، فلا بُدّ لكم منها . فإنها تحفة النبي ﷺ وكرامته لجيرانه لتمحيص ذنوبهم . وكان بعض أصحابنا يتمعض (؟) من ذلك ، ويشق عليه سماعه منهم ، ويقولون : نحن نرجو أن تكون كرامة النبي ﷺ لنا بغير ذلك . فكان أولنا وقوعاً في المرض ، وأطولنا إقامة فيه ، والله يغفر له ويكفر زلله ، قال : ولا بُعْد ولا نكْرَ في تسمية الحمّى بتحفته ﷺ ولذلك

---

(1) : « العياشية » : ج ١ ص ٣١٠ .
(2) : « العياشية » : ٣٠١/١ .

أصل في السنة ، فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى استأذنت على النبي ﷺ فقال لها : « اذهبي إلى الأنصار ، فإن لهم علينا يَداً — أو كما قال ﷺ — وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جابر ﷺ : استأذنت الحمى على رسول الله ﷺ فقال : « من هذه ؟ » فقالت : أمُّ مَلْدَم . فأمر بها إلى أهل قبا ، فلقوا ما لا يعلمه إلا الله ، فأتوه فشكوا ذلك إليه فقال : « ما شئتم ، إن شئتم دعوت الله أن يكشفها عنكم وإن شئتم تكون لكم طهوراً » ؟ قالوا : أو تفعل ؟ قال : « نعم » قالوا : فَدَعْها .

ولما قرب زمان انقضاء الحرّ ، وأقبلت هوادي زمن البرد ، وظهرت البرودة في الهواء صباحاً ومساء ، أخذوا يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد — ويقولون : ان البرد في أول إبانه يسرع إليه فساد الأمزجة ، وهو أضر من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء ويقولون : إن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صحيح الشتاء ، وشديد الزمهرير . وكنا نحن لإلْفِنا البرد الشديد في بلادنا نتلقاه بأبداننا ، ونعرّي له أطرافنا فرحاً بقدومه ، لما قاسيناه من شدّة الحرّ الذي لم نعهد مثله في قطرنا . فكانوا ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي ويقولون : ليس هواء هذه البلدة وبردها كالذي تعهدون . فكنا لا نلتفت لذلك ، ثقةً بما نعهده في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه الا كنسبة زمان الاعتدال لزماني الحرّ والبرد — فكان ذلك — مع قدر الله تعالى — هو السبب في حصول المرض المتطاول بنا وبكل أصحابنا ، ولقد صدقوا فيما قالوا ، ويشهد له قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اتقوا البرد في أول إبانه ، وتلقوه في آخر أوانه ، فإنه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار ، فأوله محرق ، وآخره مورق ، ذكره الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » .

خصوصاً في تلك البلاد ، فإن بدن الانسان يكون مشتعلاً حرارةً لغلبة الحرّ ، فإذا فاجأ البردُ البدنَ في تلك الحرارة أضرَّ به ، بخلاف البرد الذي

---

(١) : « الناصرية » : ٢/٦١ .

يجيء في آخر الإبّان فإنه يصادف البدن قد سكنت حرارته [1] .

الادارة والحكم في المدينة

تُدار الأمور العامة في المدينة المنورة في الوقت الذي كان العياشي فيها (١٠٧٤ هـ) من قبل أمير المدينة وولاة الأتراك ، وأما شؤون الحرم الشريف فيتولاها شيخ الحرم وشيخ الأغوات ، والأغوات (الطواشية) يمثلون في في ذلك العهد مُجتَمَعاً له عاداته وتقاليده الخاصة ، كما وصفه العياشي . فلنبدأ بهذا الوصف .

الأغـــوات

وشيخ الحرم وهو كبير العبيد الأغوات الموقوفين على خدمة المسجد والحجرة الشريفة ، والأغا بلغتهم كناية عن الخصي من العبيد ، واختاروا وقف الخصيّ دون غيره لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغاً من الأشغال ، اذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم وهو أبعد من دنس الجنابة ومباشرة النساء ، وهم عدد كثير قريب من الثمانين ، يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقلّتهم ، والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم ومؤونتهم من بيت المال ، وما زاد على ذلك انما يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة ، أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض ، ويسمى ما سوى الأربعين البطالين لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة ، ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة ، وانما يجلسون خارجها ، ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك ، فلكل واحد منهم رتبـــة معلومة ، وشغل معلوم .[*] فإذا مرّ بالأصاغر أحد الأكابر قاموا كلهم ، وكذا الأكابر فيما بينهم ، فأكبرهم شيخ الحرم وهو يتجدد في الغالب إما في سنة أو سنتين أو أكثر ، ولا يأتي الا من دار السلطان من عبيده ، ويليـــه

---

(١) : « العياشية » : بتصرف ٣٠١/١ .

(*) : « الناصرية » : ٦٦/٦٥/٢ .

النقيب ويليه المستشار وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدّى لهم أو للحجرة ، وبيده مفاتيح الحجرة وحوامل الزيت والشمع ، وبيده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد ومن أوقافهم ، فإذا مات واحد من الأربعين دخل واحد من البطالين في موضعه ، وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه ، وليس فيهم شافعي ولا حنبلي ، بل كلهم حنفية أو مالكية على مذهب ساداتهم الذين أوقفوهم ، وذلك لأن الشافعية والحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان ،

ومن أوقف عبداً من الأغوات على الحجرة نُسِبَ إليه ، سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء ، فيقال : أغافلان وكلهم يبيتون في المسجد ما عدا شيخ الحرم والنقيب ، وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بيّن من مرض أو نحوه ، ولاكنهم — جزاهم الله خيراً عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله وكلهم أهل خير وبركة — قد اختارهم الله لخدمة أشرف البقاع ، وشرفهم بالنسبة لأشرف الخلق ﷺ [1] .

وقد كان كبيرهم المتسلم أيام مجاورتنا الآغا يحيى ، وهو من أوقاف الشيخ الصالح الحاج الأبرسيدي أبو حفص بن الشيخ عبد القادر بن بو سماحة المغربي من ناحية فجيج ، وتوفي الآغا يحيى بعد خروجنا من المدينة ونحن بمكة ، وتولى مكانه الآغا مصطفى وهو مالكي أيضاً.. وكلاهما كان يبالغ في تعظيمنا والاحسان الينا .

ومن عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار — وهي الفنارات عندنا — مشعلة ليخرجوا الناس من المسجد فيأتون إلى المواجهة والصف الأول يقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره ، فيخرجون كل من فيه ، فإذا لم يبق أحد بذلك الصف تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها ، فينتقلون إلى الصف الذي يليه ، ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد ، ويطفئون

---

(1) : « العياشية » : ١/٣٠٥ و « الناصرية » : ج ٢ / ٦٦ و ٦٧ .

المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي داخل الحجرة ، فيخرجون فرشهم من الحواصل ، فينامون هنالك ، ولا ينام أحد منهم في المسجد ، بل ولا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة (؟) ومنهم أناس على قدم صدق في العبادة ، وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد .

ومن وراء المسجد في الناحية الشامية ميضاة كبيرة ، فيها بئر كبير وأخلية ، وفتح لها باب إلى آخر المسجد ولا يفتح إلا ليلاً بعد غلق الأبواب ، وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات ، وازالة حقنة من احتاج إلى ذلك بليل .

فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم ، وخشعوا فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة ، فمن احتاج منهم إلى كلام أحد كلمه كأخي السرار .

ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل ، حتى بالسعال والعطاس ، وتنزل عليهم السكينة ، وتلحقهم هيبة المكان ، وليس ذلك منهم مجرد استعمال ، بل لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان قال : ولقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بليل أن يصل إلى الروضة ولطرف الحجرة والمواجهة إلى الأفراد منهم وأنهم يسمعون بالليل قعقعة السقوف وقرقعة الشبابيك حتى يظن أن أحد أبواب الحجرة فتح أو أن بعض السقوف وقع ، فلا يجدون شيئاً من ذلك ، وذلك ، والله أعلم ، لنزول ملائكة الرحمة على قبره ﷺ وقدوم بعض رجال الغيب للزيارة ويظهر ذلك بالليل لهدوء الأصوات به ، وخلو المكان ...

فإذ كان بعد الثلث من الليل جاء رئيس المؤذنين ففتحوا له وصعد إلى المئذنة الرايسية وأذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي ﷺ فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضؤون ، ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصابيح ، فإذا فرغوا من الإصباح ، وقرب الصباح ، فتحوا أبواب الحرم ، ولا يأتي وقت فتحها حتى تجتمع بأبواب المسجد جماعة كثيرة من المتهجرين ، ينتظرون الفتح ، فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين ، وتسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر ، فمن سبق إلى موضع كان

أحق به ، فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة (؟) له في محله ، فلا يجلس أحد فيه ولو أبطأ ، وكثيراً ما يعتدي في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره ، فإذا بسط فيه فروته أومنديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة وأسبابها وكثير منهم يبطىء في الطهارة فيحجر على الناس المحل ، وربما عرض لأحدهم حاجة بمنزله أو في السوق فيترك النمرة في محله ولا يقربه أحد وإن أبطأ كثيراً ، وفي ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى ، على أن دخولهم مزدحمين ، واستباقهم إلى الروضة حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دوي سوء أدب لا يخفى ...

وساداتنا الأغوات رضي الله عنهم وجازاهم خيراً لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف ، وتأديب من أساء الأدب فيه بلغط أو رفع صوت أو نوم ولو في قائلة إلا في مؤخر المسجد ، ومن وجدوه مضطجعاً من دون نوم للاستراحة ، فإن مدّ رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه ، وان استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستدبراً لها تركوه ، ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار ، فإن خرجت طائفة جلست طائفة .

ولهم ديار وخدم وأتباع ، وخيل وضياع ، وسعة دنيا . ولا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد ، بل لبعضهم أزواج وسراري ، اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع .

وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط ، ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره ، ولا يولى عليهم ولا يعزل منهم ، إلا بأمر شيخهم . ولا يرث معهم بيت المال ان مات أحدهم ، إنما يتوارثون بينهم . ومن وجبت عليه عقوبة منهم أو أدب أدبوه ، من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية ، كل ذلك تعظيم لجانب النبي ﷺ أن تكون لأحد ولاية على عبده وخدم حجرته الشريفة ولا يدخل معهم من العبيد الذين يهدون من الآفاق إلا من رضوا إدخاله ، بمال يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال ، ومع ذلك يبقى في رتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجة . فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين ، وإن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو

سرقة أو شيء يشينه نفوه إلى حيث شاء من البلاد .

وبالجملة فلعبيد سيدنا رسول الله ﷺ وخدام مسجده جلالة قدر ، وعظيم منصب ، وسعة أرزاق وكرم أخلاق ، وهم أحقّاء بذلك .

ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة ، تنفذ أحكامه ، وتمضي تصرفاته ، في القوي والضعيف والشريف والمشروف ، ويطأ عَقِبَهُ الكبراء والأشراف)[1]

أمراء المدينة : قال في الكلام على الخطبة في المسجد النبوي الكريم : (ولم يكن يدعى في الخطبة يوم الجمعة إلا لثلاثة ، أولاً بعد الصلاة على النبي ﷺ والترضي عن : الآل والخلفاء والصحابة — للسلطان الأعظم ملك الترك ، إلا أنهم يبالغون في تعظيمه بأوصاف لا ينبغي أن يعظم بها أحد من الخلق ، خصوصاً بحضرة الرسالة (؟) وليس في تلك الأوصاف أحسن ولا أجمل ولا أكمل من قولهم فيه : خادم الحرمين الشريفين ، فأكرم بها نسبة — وقد رأيت في بعض التواريخ أن أول من وصف بذلك من الملوك في الخطبة السلطان الأجل صلاح الدين أيوب وأنه لما قال الخطيب ذلك وسمعه سجد شكراً لله أن أهّله لذلك وسماه به ... ثم بعد الدعاء للملك الترك موصوفاً بكونه ملك البرين والبحرين ، والشامين والعراقين يدعى للسلطان زيد بن محسن موصوفاً بكونه حامي الحرمين الشريفين . ثم يدعى لأمير المدينة السيد الحسين بن حماد موصوفاً بكونه حامي حمى المدينة وأميرها ، على أنه — فيما يظهر — ليس له من ولاية المدينة وإمرتها إلا الاسم أو ما يقرب منها (؟) لأنه من تحت أمير السلطان زيد والتصرف لنوّابه وأقاربه .

وقد كانت إمرة المدينة فيما مضى والتصرف في ولايتها لبني حسين ، كما أن ولاية مكة لبني حسن ، وكانت تقع بينهما حروب ، وكانت بنو حسن لهم قوة وبطش ربما غلبوا عليهم . والآن صار الأمر لبني حسن ، فجمعوا الولايتين ، ولم يبق لبني حسين إلا رسوم قليلة من ولاية المدينة ، وصاروا كلهم إلا القليل بادية يرحلون وينزلون بنواحي المدينة ، وهم قبيلة عظيمة قوية ،

(١) : « العياشية » : ٣٠٥/١ الى ٣٠٩ .

ليس لهم إسم إلا بنو حسين ، وكبيرهم الموسوم بولاية المدينة ، نازل بالمدينة ، وبعض أقاربه ، ولهم شارة حسنة ، ومنازل رفيعة تدل على نباهة الذكر) [1] .

تصرف الولاة في المدينة : (وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدر كيف تصرف الولاة فيها . ولا من له التصرف التام بها . فإن شيخ الحرم وهو كبير الخدام تنفذ أحكامه . وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً ، وابن عم السلطان زيد وزوج ابنته السيدة تقيّة النائب عنه في النظر في مصالح البلد كذلك ، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذلك . والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب وهو من خُدّام السلطان كذلك ، ولا أعلم هل لكل واحد من هاؤلاء ولاية على قوم بالخصوص أو على عمل من الأعمال ، ولم يشف لي أحد غرضاً في كيفية ذلك ، ولم أبالغ في الفحص عنه ، إذ لم يتعلق لي به غرض إلا مجرد العلم بالاحاطة بأخبار المدينة دينيّها ودنيويّها لحبّي لها ولساكنيها) [2] .

إتاوات ومكوس : وقال : (ولما كان منتصف صفر دخل الركب العراقي إلى المدينة ونزلوا شامي سلع من غربي ذباب إلى قريب من مساجد الفتح . وكنا نخرج في بعض الأيام إلى مخيمهم قصد التفرج . وقد أخذوا فيما بين مكـة والمدينة نحواً من ٤٥ يوماً بسبب أداء المكوس الموظفة عليهم من قبل الأمراء . وجملة ما أدوا من خروجهم من أصبهان يزيد على خمسين ديناراً ذهباً لكل رأس ، والخمسون عندهم معدة لهذا زيادة على النفقة والكراء ، فإن كانت المكوس التي تنوبهم خمسين فأقل لم يتضرروا لاستعدادهم بها وما زاد على الخمسين استقروا به .

وقد أخذ منهم هذه السنة عامل البصرة لما مرُّوا بها ثلاثين ديناراً وأشخص معهم عسكراً وأميراً من قبله حتى يردهم إلى البصرة ... متعللاً بأنهم ليسوا في ولاية سلطانه فلا تجب عليه حمايتهم إلا بإتاوة يأخذها منهم . ولأجل ذلك لا

---

(١) : « العياشية » : ١/٣٠٩ .

(٢) : « العياشية » : ١/٣٠٩ .

يدفع هذا المكس أهل بغداد ولا أهل الكوفة والبصرة وان قدموا معهم في الركب لأنهم في طاعة ملك الروم وأمراء هذه البلاد عماله ....

وناهيك بما يقع لحجاج المغاربة في دخولهم مصر وخروجهم منها ، إلا أنهم لا يأخذون إلا ممن معه تجرة . وعند الخروج من مصر لا يأخذون إلا من أهل المغرب الأقصى وأهل السودان ، متعللين بما ذكرنا أولاً أنهم ليسوا من رعية السلطان ، فلا يخرجون السلع من بلد السلطان إلى بلاد سواها إلا بِجُعْلٍ ...

ولا يأخذ سلطان مكة شيئاً من كل من يرد من الشام ومصر والمغرب لانه وإن كان مستقلاً في مملكته هو في الحقيقة عامل من عمال صاحب الروم ، يأتيه من مصر من الأموال والأطعمة ما يقوم بكفايته وكفاية عساكره .

وأما أهل اليمن فأمراؤهم في الإمامة أقاربه من النسب والمذهب ، وبينهم مواصلات كثيرة ومحاماة .

وأما الهند فلا يقدمون إلا في البحر ، وغالبهم تجار ، فيدفعون العشر بجدة ، وإن قدم بعض كبرائهم قاصداً للحج فقط فإنه يستصحب من الهدايا والتحف ما يجل وصفه ، وأخذ أمير مكة في هذه السنة من هاؤلاء الأعجام أهل العراق أحد عشر ديناراً ذهباً لكل نفس ، ستة لدخول مكة ، وخمسة لدخول المدينة وقد حبسهم عن المشي بعد الخروج من مكة إلى مرّ الظهران حتّى أقاموا هنالك نحواً من ١٢ يوماً بسبب بقية بقيت عليهم من الخـراج . فلما وصلوا إلى بدر حبسهم أميرهم هناك أسبوعاً حتّى أعطوا ثمانية دنانير أخر ، لكل نفس ، متعللاً بانقضاء الزاد والعلوفة بسبب التعطيل المذكور ، وهذا كله سوى ما يعطونه الأعراب من يوم خروجهم من المدينة ، وقد قدموا هذه السنة بركب عظيم ، فيه داية السلطان وطبيبه وحاجبه ووزيره ، وعدة الذين أعطوا المكس من الأعجام سوى الأعراب والخدام ثمانية عشر مائة .

---

(١) : « العياشية » : ٢٣٢/٢٨٩/١ .

نفوذ الأتراك في المدينة : وقال عن الأتراك : (بها طائفة كبيرة من عسكر السلطان ، زاعمين أنهم معدون لحراستها ، وفي الحقيقة إنما يأكلون مال السلطان في غير شيء فلا يغيثون ملهوفاً ، ولا يردعون ظالماً) [1] .

المناصب الشرعية :

(والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا ومصرا وشاماً من إمامة وخطابة واذ ان وإقامة وقضاء ، وفتوى وشهادة ، بل ورقيد مساجد إنما تنال بالشراء من الولاة فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالاً للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا ، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصاً منصب القضاء ، فما رأينا ولا سمعنا في البلاد كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعاً ، وإنما مدار أمرهم على الرضا جهاراً ، فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مراراً متعددة بحسب كثرة الرُّشَى وقلتها .. على أن بعض أصحابنا وهو الشيخ عبد الله با عفيف اليمني قد أثنى على قاضي المدينة لحينه وهو القاضي مكي ثناء حسناً وزعم أنه متبع للحق جهده وأنه من أصحاب شيخنا السيد محمد باعلوي اليمني المكي ، وانه هو الذي أمره بتولية خطة القضاء والبقاء فيها بعد إرادة التنصل عنها . وغالب الناس بالمدينة على خلاف مُدّعى صاحبنا هذا في هذا القاضي والله أعلم بحقيقة أمره ، بَيْدَ أن في سنة تسع وخمسين وهي أول سنة حججت فيها جاء إلى المدينة قاضي تركي من قبل القسطنطينية ، فأظهر العدل فيها غاية ، وأقام الدين على الحق ، وضرب على أيدي كثير من ولاة المدينة ، ومنعهم من كثير من الباطل والظلم الذي هم به متصفون ، فثقلتْ وطأته عليهم ، واشتدت شكيمته على السلطان الأمير زيد بنفسه ، حال بينه وبين كثير من مراداته التي على خلاف الديانة ، وكان السلطان زيد قدم في تلك السنة الى المدينة ، وأقام بها مدة ، فلم يزل يحتالون (؟) على القاضي حتى اغتيل ليلة من الليالي وكان يأتي إلى المسجد النبوي قرب صلاة الصبح راكباً ، يصلي في

(١) : « العياشية » : ٢٠٢/١ .

المسجد ، فكمن له رجل قريباً من باب المسجد فضربه بجنبية فقطع بها أمعاءه ، ففرّ الضارب في ظلمة الليل ، ولم يكن مع القاضي إلا قليل من خدامه ، فأجرى فرسه من ألم الضربة حتّى أتى باب المسجد ، بل قيل : إنه دخل المسجد بفرسه حتّى أتى وجاه الوجه الشريف فنزل وأخذ بشباك الحجرة ... ولم يرسل يده من الشباك حتّى قبضت روحه ، وفرّ الضارب ، ولم يُدْرَ أين توجه ، حتّى سمع به بمكة أو بجدة ، فأظهر السلطان التأسف على موته ، وأظهر التفتيش على الضارب وزعم أنه لا علم له به ، ولو علمه لنكّل به وقتله ، والخاصة من الناس لم يصدقوه في ذلك ، وعلموا أنه لا يقدر أحد على الجرءة إلا بإذنه ، وأنه لا يخفى عليه فاعله لشدة حزمه ، وعظيم مكره ، وكثرة بهائه (؟) حتّى إنه لا يكاد يخفى عليه سارق شملة بأرض الحجاز كلها فكيف يخفى عليه مثل هذا .

فبالله أي قاضٍ بعد هذا الشهيد يقدر على إظهار الحق والقول به في هذه الديار وما شاكلها . والى الله المشتكى .

العلماء في المدينة من أهلها ومن غيرهم

يُعْنَى الرحالون الذين يفدون إلى الحجاز — أعظم عناية — بالاتصال بعلماء الحرمين وغيرهم من الوافدين عليهما ، لتلقي العلم والرواية عنهم ، ولهذا تعتبر الرحلات من المصادر المهمة لدارسي الحياة العلمية في مكة والمدينة .

ورحالتنا العياشي من أولئك الذين حرصوا على الالتقاء بالعلماء في المدينتين الكريمتين وقد تحدث فأوفى الحديث عمن اجتمع به منهم ، ممن نكتفي بسرد أسمائهم ، فمنهم : —

١ — الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمن الربيع[٢] (؟) اليمني ، الزبيدي ، وهو أول من قرأ عليه في المدينة وقال عنه : (ما سمعت أن في أقطار

---

(١) : « العياشية » : ٢٨٨/١ .

(٢) كذا ولعله (الديبع) بالدال .

الأرض كلها على كثرة من سمعت أحسن منه تلاوة للقرآن) وأطال في الثناء عليه ، بدأ القراءة عليه في صفر سنة ١٠٧٣ بالمسجد النبوي [1] .

٢ — الملا ابراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشهراني نسبة إلى شهران من بلاد الكرب [2] أطال الثناء عليه وأخذ عنه ، ثم اجتمع به مرة أخرى وزار معه شيخه الملا محمد شريف الذي قدم للحج هذا العام ١٠٧٣ .

٣ — ياسين بن محمد بن غرس الدين الخليلي أحد خطباء المسجد الحرام وأئمته ، قرأ عليه وأطال الثناء [3] .

٤ — ابراهيم بن الشيخ خير الدين الخياري ، قدم والده من القاهرة إلى المدينة سنة ١٠٢٧ فتولى الامامة والخطابة والتدريس وخلفه ابنه بعد وفاته ، قرأ عليه ، وأورد شيئاً من شعره ، ومنه في مدح العياشي : —

مُذْ لاح بالمغرب المأهول فاضلـــــه
وراح مرتضعاً ثديَ العلا نـــاشي
عاشت معالم أربـــاب النهى وسمت
ولا عجيب إذا عاشت بعيـــاش
فليبق للعلم كي تبقى مــــدارسه
مأهولـــة يقتفيهـــا الفاضل الناشي

وقال العياشي :

سبرنا العـــالمين فمـــا رأينـــا كابـــراهيم سيدنـــا الخياري
تخـــيره الزمـــان كمـــا تراه خياراً من خيار من خيار [4]

٥ — بدر الدين الهندي النقشبندي ، قدم المدينة سنة ١٠٦٨ أخذ عنه وأثنى عليه [5] .

---

(١) : « الرحلة العياشية » : ٣١٦/١ .
(٢) : ٣٢٠/١ إلى ٣٤٢ (٢٢ صفحة) و ٢٨٧/٢) .
(٣) ٤٤٣/١ .
(٤) : « العياشية » : ٤٤٤/١ الى ٤٤٩ .
(٥) : ٤٤٩/١ إلى ٤٥٣ (٤ صفحات) .

٦ ــ عبد الله با عفيف اليمني ، اجتمع به في الطريق من مكة إلى المدينة ثم في المدينة وذكر أن له قصائد نبوية وفي مدح شيخه محمد باعلوي الحضرمي المكي ، المتوفي سنة ١٠٧١ ، وأورد له قصيدة نبوية وأخرى رائية في مدح شيخه وثالثة [١] .

٧ ــ أحمد بن تاج الدين : أطال الثناء عليه ، وذكر عنه غرائب في علم الحساب والتوقيت وأنه انفرد في تلك الأفكار بمعرفة علم السيميا والزايارج والحدثان [٢] .

٨ ــ محمد بن سليمان الروادني ولقبه بحكيم الإسلام وأطال الثناء عليه [٣] .

٩ ــ المُلاَّ نافع ، قال عنه : ومنهم ــ يعني العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة ، الشيخ المسنُّ المعقولي المفسر الملا نافع العجمي شهير الصيت عند علماء العجم ، وعند أرباب الدولة ، تنثال عليه صلاتهم في كل أوان ، ويرون له مزية على غيره ، وقد سكن المدينة مدة ، وهو شيخ كبير ، قد أصابته آفة في رجليه ، فصار يمشي على عصوين ، يقرأ عليه « تفسير البيضاوي » في الحرم الشريف ، ولا يحضر مجلسه إلا الأتراك ، أو من كان عارفاً بلسانهم ، فإنه إنما يكون يقرر باللسان التركي والفارسي ، ولذلك لم أحضر مجلسه ولم أستفد منه شيئاً ، والعارفون بلسانه يثنون على حسن تقريره وجودة ملكته [٤] .

١٠ ــ محمد الفزاري ــ من فزارة بلدة بين أعالي النيل وأرض السودان ، استوطن المدينة ٤٠ سنة ، وقال عنه : (من أقدم المجاورين وأكثرهم معرفة للأماكن التي تزار) [٥] .

---

(١) : ٢٨٩/٢ إلى ٢٩٧ .
(٢) ٢/٢ إلى ٣٠ .
(٣) : ٣/٢ إلى ٤٦ (١٦ صفحة) .
(٤) : ٥٧/٢ .
(٥) ٤٦/٢ .

١١ — (محمد بن علي بن عبد القادر المالكي ، أصل سلفه من المغرب ، ولأسلافه في المدينة صيت ، وبيتهم مشهور بالعلم ، وهو أحد خطباء الحرم والمفتي المالكي ، وأورد من شعره [١] .

١٢ — يحيى بن الباشا الأحسائي ، ووصفه بالنحوي وأورد طرفاً من شعره [٢] .

١٣ — ومن علماء المدينة الذين لم يأخذ منهم ولم يأخذوا عنه ابراهيم الحجار الحنفي ، عمري النسب ، من مدرسي الحرم .

١٤ — الشيخ علي الضرير المالكي الأحسائي . جاور بالمدينة مدة طويلة ، وله بعض معرفة بمذهب مالك . يدرس الرسالة أحياناً ، وحضرت يوماً مجلسه عند المنبر النبوي ، يسرد عليه « تفسير البغوي » أو « الدر المنثور » للسيوطي لا أدري أيهما لطول العهد ، فلم أسمع تحقيقاً ولا تحصيلاً .

وهو رجل ذكي الطبع يكاد يحفظ كل ما يسمع ، وربما هجم على انشاء الشعر في بعض الأحيان ، فتقع له أبيات تستطرف ، في خلال الغثاء الذي يسيل به واديه ، سمعته ينشد ذات يوم مطارحات زعم أنها وقعت بينه وبين شيخنا تاج الدين .

وقد جمعتني وإيـــاه قافلة في رجوعنا من مكة إلى المدينة ، فرأيت منه عجباً ، يركب النجيب فيسير به العَنَق ، فإذا وجد فجوة نَصّ من دون سائق ولا قائد .

وأخبرني بعض أصحابنا أنه ربما يمر راكباً من المدينة على طريق الفُرْع ، فيتقدم أمام القفل وحده فلا يخطىء الطريق مع توعرها ، وكثرة شعابها ، والتفاف أشجارها ، فينفذ فيها نفوذ الماهر الخرّيت .

— وما رأيته قط بالمدينة وأفنيتها ولا في الطواف ، والسعي يحتاج إلى قائد .

(١) ٤٧/٢ إلى ٥٣ .
(٢) ٤٣/٢ — ٤٦ .

ومن طالع « نكت الهميان في نكت العميان » لصلاح الصفدي لا يستغرب مثل هذا من ذكائهم وفطنتهم ، وناهيك بما يحكى عن الإمام الشاطبي أنه مر بموضع في سفرة له وهو راكب فانحنى فوق الدابة ، فقيل له في ذلك . فقال : أليس ها هنا شجرة ؟ فقالوا : ما نرى من شجر . فقال لهم : أنظروا إن لم تكن هنا شجرة فلا تثقوا بشيء مما تأخذونه عني ، فإني مررت بهذا الموضع منذ عشرين سنة ، وفيه شجرة ، فحفروا فوجدوا عروق الشجرة وأصولها ، وقد اندثرت فروعها [1] .

١٥ — محمد السوداني : من مدرسي الحرم وهو كفيف البصر [2] .

١٦ — محمد بن رسول الشهرزوري الحنفي ، قال عنه : (ذو الحسب الزكي والنسب العلي ، وذكر أنه ربما درس في الحرم في فقه الشافعية [3] .

١٧ — أحمدالبرّي الحنفي : رئيس الخطباء وجمال الأدباء، وأحد الفصحاء اللسن ! وذكر شعراً له حينما استعار منه جزءاً من طبقات الشافعية للسبكي [4] .

١٨ — الشيخ مرزا الشامي الدمشقي ، قال عنه : له خبرة بطريق القوم ، واعتناء بجمع كتب الفن سيما مؤلفات ابن عربي [5] .

كذا قال ، وابن عربي وأمثاله ممن ابتلي بهم المسلمون ، وآراء المحققين من العلماء فيه وفي مؤلفاته معروفة .

١٩ — عبد الله بن نُمَيّ العمودي اليمني ، وصفه بالعبادة والتصوف .

٢٠ — حسن البَرّي ، ذكر أنه كان يجلس في الروضة فيجتمع اليه جماعة من العوام والطلبة ، وذكر أنه سمعه يشرح حديث « إن الله يضحك إلى رجلين » الخ ومثّل لذلك بوحشي .

---

(١) : « الرحلة العياشية » ٥٦/٢ .
(٢) : ٥٧/٢ .
(٣) : ٥٧/٢ .
(٤) ٥٨/٢ .
(٥) ٨٥/٢ .

وقد كتب عن هذا منتقداً ، وقال إنه لم يذكر ذلك له ولا لأحد من أصحابه خشية أن يظن به استراق السمع في مجلسه والتطلب لموراته [1] .

٢١ — جمال الدين النقشبندي ، وصفه بكونه شيخه وأنه لقيه بمكة ، وذكر أنه توفي سنة ١٠٧٦ ودفن بالبقيع . بلغه خبر وفاته وهو في المغرب [2] .

٢٢ — الملا محمد شريف بن القاضي يوسف بن محمد الصديق الكوراني ، من العلماء الذين اجتمع بهم وأجازه وهو شيخ أستاذه ابراهيم بن حسن الكوراني [3]

عناية العياشي بوصف الكتب

الكتاب هو أداة العالم ، ووسيلته التي تنمّي علمه ، ولهذا فليس غريباً أن يعنى العياشي بوصف ما يطلع عليه من نوادر الكتب .

قال في كلامه على قرية والّي [4] :

وقد وجدنا في روضة — محمد بن موسى الصالح المدفون في تلك القرية — سفراً من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق ، وقد أفسد القطر جانباً منه ، ومعه إجازات لبعض السادة القادرية بخط مشرقي ، وتعجبنا من وصول ذلك إلى هذه القرية ، وما نظنه إلا من كتب سيدي محمد بن اسماعيل [5] ، فإنه لما مات بتكورادن سنة ١٠٦٤ خلف كتباً كثيرة ، وأوصى بها لخادم الروضة الروضة النبوية . وبقيت كتبه هناك مدة ثم حملوها إلى القليعة فارّين بها لما بلغهم أن متولي البلد يتحدث بأخذها ، ولم تزل هناك إلى أن ذهب سيدي

---

(١) ٢/٨٨ .
(٢) ٢/٩٠ .
(٣) : ٢/٢٨٧ .
(٤) في الهامش : وهي بين أوجرت ونفزاوة .
(٥) في الهامش : (محمد بن اسماعيل الكوراني) .

علي بن الشيخ الحفيان للحج بعد ذلك بسنين فبعثوها معه ، وضاع كثير منها بسبب ذلك ، وقد رأيت بعضها بالمدينة الشريفة ورأيت زمام ما وصل منها ، وليس يشبه ذلك وقد أخبرني بنفسه رحمه الله قبل موته بسنة ، لما لقيته بفجيج أن كتبه تبلغ قريباً من ألف وخمسمائة تأليف ، والذي بلغ منها إلى المدينة المشرفة نحو من مائة وسبعين سفراً ، رأيت منها جملة كثيرة . وهي كتب نفيسة جداً ، اقتنى أكثرها لما كان بمدينة اصطنبول اشتراها له الوزير الأعظم .... لما قال له : إن بهذه المدينة كتباً نفيسة وليس لي ما أحصل به امنيّي منها . فبعث دلاّل الكتب وقال له : كل ما يقع بيدك من الكتب فاعرضه على هذا الشيخ فما استحسن منها فاتركه له ، وخذ الثمن من عندي لأربابه ، فلم يزل ذلك دأبه مدة إقامته هناك [(١)] .

وقال أيضاً : ومما أتلفه هذا السيل (سيل ٩ شعبان سنة ١٠٧٣) الذي دخل المسجد الحرام بمكة ، خزانة من الكتب لشيخنا أبي مهدي عيسى الثعالبي كانت في المسجد على وجه الأرض ، ولها باب مفتوح إلى المسجد بين باب حزورة وباب ابراهيم ... أتى عليها الماء كلها ولم يسلم منها شيء ، وكانت نحو ثمانين سفراً ، فيها من نفائس الكتب وغرائبها التي لا تكاد توجد في غيرها . ما أكثر أسفه عليها بعد ذلك ، فأمر بها فحفرت لها حفرة في الأرض ودفنت فيها ، وكان منها أجزاء من المدونة الكبرى التي هي أم الدواوين الفقهية ولم يسلم منها شيء ، وكثر أسفي على عدم رؤيتها لغرابتها ، وتكون أكابر الفقهاء من قبل هذه القرون لم يظفروا منها بشيء ، وأظن أنه أخبرني أنه وجد المذكورة في خزانة رباط الموفق وأنها كانت بيد الإمام الحطاب . : ومنها الأجزاء عيون الأدلة لابن القصار ، وكان يثني عليه كثيراً في بسط أدلة المذهب والانتصار له والرد على المخالفين ، مع التحقيق التام إلى غير ذلك من الكتب منها ما هو ملكه ، ومنها ما هو من كتب الوقف [(٢)] .

---

(١) : « العياشية » : ١/٤٠ بتلخيص .

(٢) : « العياشية » : ٢/٩٧ .

رحلة ابن رُشَيد [1] : اطلع عليها ونقل عنها وقال : (نقلته من نسخة عليها خطه واجازته لتلميذه صاحبه عبد المهيمن الحضرمي رحمه الله ، رأيت هذه النسخة بمكة المشرفة عدة أسفار . وذكر في آخرها أنه استخرجها من مسوداته بعد عشرين سنة من رجوعه بسؤال عبده المهيمن المذكور منه ذلك قال : بعد ما كنت أغفلت ذلك وأعرضت عنه لقلة من يرغب فيه . فإذا كان الناس في زمانه لا يرغبون في جمع فوائد المرتحلين سيّما مثله في ضبطه واتقانه وكثرة جمعه فما بالك في زماننا هذا الذي عم فيه الفساد ، وغلب على بضاعة العلماء ، ولا يسمع من فوائد الرحلة إلا ما كان أسماراً ، وصارت صلة الأدب فيه أطماراً ، فالمشتغل بجمع ذلك مثلي ، أو من هو على شكلي ، ليس في الرأي ذا أصالة ، إن لم يجعل ذلك عوضاً عن البطالة) [2] .

وقال أيضاً عن رحلة ابن رُشيد :

رأيت منها عدة أجزاء بمكة عند شيخنا أبي مهدي ، وكانت في وقف المغاربة برباط الموفق ، وعلى هذه النسخة خط المصنف في أماكن . وخط تلميذه الإمام عبد المهيمن الحضرمي ، وكانت النسخة ملكاً له .

ثم لخص منها فوائد [3] .

منتهى السول من أمداح الرسول ﷺ : رأيت بمكة سِفْراً في الغالب الكثير من أمداح النبي ﷺ قال كاتبه في آخره : كُمل السفر التاسع من كتاب منتهى السول من مدح الرسول . وذلك في أوائل ربيع الآخر عام ٦٧٣ وكتب محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن عبد الرحمن الانصاري . قلت : وهذا التأليف لم يقصد به جامعه جمع كلامه أو كلام مخصوص ، بل ما انتهى إليه من الأمداح النبوية وما شاكلها ، والله أعلم كم بقي لتمام الكتاب .

---

(١) نشرت « العرب » كل ما يتعلق بالحجاز منها .

(٢) : ٢٢٨/١ .

(٣) : ٢ / ٢٤٠ إلى ٢٥٦ .

ومن جملة ما في هذا السفر : المعلم الرابع من كتاب الدرة السنية في المعالم السنية ، وهو في السيرة النبوية والأعلام المحمدية ، للقاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي . وذكر في آخره أن عدد أبيات الكتاب سبعة آلاف بيت من الرجز . وأنه أنشأه بقرطبة سنة ٦١٤ في أشهر آخرها مستهل صفر من السنة المذكورة . والمعالم الثلاثة لا أدري فيما هي .

ومن جملة ما في هذا السفر . وهو نحو النصف كتاب اللآلي المجموعة من باهر النظام ، وبارع الكلام . في صفة مثال نعل رسول الله عليه الصلاة والسلام . مما انتدب لجمعه رجاء نفعه عبد الله بن محمد بن هارون الطائي القرطبي ، وسبب جمعه — على ما قال — : أنه سئل منه نظم أبيات تكتب على النعل المشرفة فكتب في ذلك قطعة ، وندب أدباء قطره الأندلس لذلك فأجابوا ، وكتب من ذلك ما وصل إليه ، وجملة ما فيه من المقطعات ينيف على مائة وثلاثين بين صغيرة وكبيرة . قلت : ولم يطلع على هذا التأليف شيخ مشايخنا الحافظ أبو العباس المقري مع سعة حفظه وكثرة اطلاعه ، ومبالغته في التنقير والتفتيش عما قيل في النعل . ولم يطلع لمن قبل عصره إلا على عدد أقل من هذا بكثير ، وغالب ما أودعه في كتابه « فتح المتعال في مدح النعال » كلامه وكلام أهل عصره ، ولو اطلع على هذا الكتاب لاغتبط به كثيراً [1] .

تاريخ الإسلام للذهبي : قال عنه : (ومما رأيته من الكتب الغريبة بمكة المشرفة تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي ، وهو عشرة أجزاء كبار على السنين من أول الهجرة ، فجعل كل عشر سنين طبقة ، فصار سبعين طبقة ، إلى آخر المائة السابعة ، وهو كتاب حافل لم يدع شاذه ولا نادة مما تتشوق إليه النفس من علم التاريخ إلا أودعها كتابه مع الاختصار والاتقان ، فكأنها جمعت له الدنيا وأهلها في صعيد واحد ، وهو موجود في وقف قايت باي بمكة في رباطه المعروف . وقد رأيت منه أجزاء وطالعت بعضها ، ومما قيدت من بعضها [2] :

---

(١) : ٢/٢٥٦ .
(٢) : ٢/٢٥٧ إلى ٢٥٨ .

طبقات الصوفية للمنوي : قال : ومن الكتب الغريبة التي رأيتها بمكة طبقات الصوفية للمنوي .. وقد أجاد فيها .. سيّما للمتأخرين من الصوفية فلم أر أخبارهم مستوفاة في غيرها [1] .

القوانين لابن أبي الربيع : قال : ومما رأيته بمكة القوانين لابن أبي الربيع في علم النحو ، ومما قيدته منها [2] :

كتاب الجفر الكبير الذي قل أن يوجد في الدنيا رآه عند الشيخ أحمد بن تاج الدين ، في المدينة ، ولخّصه [3] .

عنقاء مغرب ومعرفة فتح الأولياء وشمس المغرب لابن عربي قال : إنه استعاره من الشيخ مرزا الشامي الدمشقي في المدينة ، وهـذا الشيخ جمع من كتب الفن كثيراً سيما مؤلفات ابن عربي فله بها اعتناء ، وقال عن الكتاب : (ما رأيته قبل ولا بعد إلا عنده) [4] .

١ – الخلفيات واسمها : « الفوائد المنتقاة الحسان . من الصحـــاح والغرائب » تخريج أبي نصر الشيرازي من أصول سماعات القاضي أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الخلعي ، وهي عشرون جزءاً ، سمعها على شيخه الثعالبي [5] وانتقى منها .

٢ – أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً لتقي الدين الفاسي مؤرخ مكة [6] .

٢ – شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة لأبي القاسم القشيري ، رواها عن شيخه وأوردها ملخصة [7] .

---

(١) ٢٥٨/٢ إلى ٢٥٩ .

(٢) ٢٥٩/٢ .

(٣) : ٢/٢ إلى ١٧ .

(٤) : ٨٦/٢ .

(٥) ١٣٩/٢ الى ١٦١.

(٦) ١٣٩/٢ .

(٧) : ١٦١/٢ إلى ١٦٧ .

العود من المدينة إلى مكة

قال : (وتهيأ خروجنا من المدينة المشرفة ضحى يوم الثلاثاء (١٧ من شعبان) وقطعت المسافة إلى ذي الحليفة راجلاً فوجدنا القافلة بذي الحليفة ونزلنا هناك إلى أن قرب العصر فارتحلنا .

وهالني الركوب في الشقدف لأني ما عهدته قبل ، وعادلني في الجانب الآخر أخي عبد الرحمن ، ولم أستأنس ركوبه إلا بعد مدة ، وكان يخيل لي إذ صرت في جنب البعير أن الجانب الذي أنا فيه قد مال للسقوط وكذلك كان يخيل لصاحبي حتى تمرّنّا به فكنا ننام فيه ما شئنا ، ونمدّ أرجلنا ونضطجع كيف شئنا وسرنا غالب تلك الليلة منفردين عن القافلة لم نلحق من قبلنا ولا لحقنا من بعدنا ... إلى أن وجدنا القافلة في بطحاء الفريش فملنا عن الطريق قليلاً وأنخنا تحت سمرة) [١] .

وصف الشقدف : قال : (ولما انتصف شهر شعبان تأهبنا للسفر ، واكترينا جملين بثلاثة عشر قرشاً ، واتخذنا لركوبنا شقدفاً [٢] وهبه لنا شيخ الأغوات آغا سليم .. وهو محمل كبير ما رأيته إلا في أرض الحجاز ، ذو شقتين توضع كل واحدة على جنب البعير ويقرن بينهما بحبال وثيقة على ظهره ، ولا بُدّ للراكب فيه من معادل له في الجهة الأخرى ، مقارباً له في الرزانة ، ثم يوصل بين الشقتين من أعلى بحبال يظلل عليها بغطاء يقي الحرّ والبرد وهو من أشهى المراكب وأهناها ، سيما لمن له فرش وثيرة ووسيدة يتكىء عليها من الجانبين ، فإنه لا يكاد يحس بأن الإبل تسير به ، فقد رأينا من اعتاد الركوب فيه ينام من أول الليل إلى آخره ولا يستيقظ إلا بإناخة الجمل عند النزول ، وقد لا يستفيظ) [٣] .

كراء الرواحل : ومن عاداتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبع ، أن بالمدينة رجالاً يعرفهم غالب الحمالين ، فمن احتاج الكراء

---

(١) : « العياشية » : ٩٢/١ .

(٢) الشقدف من المراكب القديمة كالهودج ، وقد مر وصفه في الكلام على رحلة التجيبي .

(٣) : « العياشية » : ٩٢/٢ .

من أرباب الدواب وأرباب السلع أتى إليهم ، فيعقدون له الكراء مع صاحبه ، ويتكفلون بها عسى أن يصدر من الجمّال من غدر في الطريق بهروب أو مكر ، ويسمّى أحد هاؤلاء المُخَرِّج ، فلا يعقد أمر كراء إلا بحضرة أحدهم .

وجلوسهم في الغالب بباب المصري ، ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري ، وذلك دأبهم بمكة [1] .

طريقة السير : — لم نعتد المشي في الليل كما هو شأن أهل تلك البلاد ، فإن سيرهم بالليل ، لا يحملون الإبل من السير إلا ما سمحت به أنفسها عن اختيارها فيتركونها تمشي على مهل بلا سائق وذلك الذي أعانهم على قطع تلك المسافات بضامر إبلهم مع هزالها وضعفها .

وكما وصف العياشي الإبل في الحجاز هذا الوصف ، فإنه قد وصف وسيلة الركوب الأخرى وقد سار عليها من مكة إلى جدة فقال [2] :

ولم أر أسرع شيئاً من حمر الحجاز ولا أوطاه مركباً ، ولا أقل تَعَباً مع السرعة المفرطة في المشي ، فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك منها شيء مع الإسراع في المشي فلا يكاد يتبين لي حركة شيء منها ، مع أن مركوبي ليس من أجاودها ، فلقد أخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة فيركب عليه ويصلي الصبح بمكة ، وهي مسافة القصر تحقيقاً ، وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها ، فيبلغ الحمار مائة دينار ذهباً . وقد رأيت حماراً عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجبيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة ، تقتحمه العين ، فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن) [3] .

وقد وصف المواضع التي مَرَّ بها وصفاً لا يخرج عما وصفها به حين قدومه إلى المدينة . ومن ذلك :

---

(١) : « العياشية » : ٣٠١/١ .
(٢) : « العياشية » : ٩٣/٢ .
(٣) : « العياشية » : ١٠٤/٢ .

البزوة : ثم ارتحلنا بعد الزوال من بدر ، ونزلنا دور (؟) الخبث ، قرب السبيل الأول الذي بالبزوة في وسط الليل ، ووجدنا البزوة مخصبة كأنها بستان .

ثم ارتحلنا منه غداً قرب الزوال ونزلنا قرية مستيرة [1] قرب الصباح ، ووجدنا البطيخ بها أرخص ما يكون حتى اشترينا خمسة بمحلّق [2] .

رابغ : ونزلنا رابغ .. ووجدنا السيول قد اجتاحت أكثر منازل أهله ، وذهبت بمزارعهم وهدّت الجانب الذي فيه المنارة من مسجدهم ، وأفسد الطريق ، وتعبنا في قطع الوادي .

ثم ارتحلنا منه ، وغوى أهل الرفقة عن الطريق في الرمال التي بينه وبين قُدَيْد ونزلنا آخر الليل عند السبيل الذي هناك ووجدنا به قهوة وقوماً يبيعون العلف والحبحب ؛ ثم ارتحلنا منه ومررنا بقديد [3] .

عُسْفَان : ثم ارتحلنا من خُلَيص ومررنا بعسفان وسط الليل ، وعندما مررنا بالثنية التي تهبط من خليص على عسفان تنسمنا نسيماً طيباً وعرفاً ذكيّاً ، استنشقه كل من معنا من راكب وراجل . وقلنا لمن معنا من العرب : ما هذا الشذا ؟ فقال : عرف الخزامى ، فإن منبتها في هذا المحل كثير فسألت أحداً منهم وناولني ضغثاً منها فإذا هو نبت له زهرة وعَرْفٌ ذكي ، من أذكى مشموم ـ شممناه في تلك البلاد ...

وعند قرية عسفان فارقنا من الربع [4] – وهي القافلة بلغتهم – من أراد الذهاب إلى جدة فعدلوا يميناً ، ودخلوا في إحدى تلك الشعاب التي بيمين القريـــة .

برقة : مررنا عسفان وسط الليل ... ونزلنا آخر الليل بمحل يسمى برقة ،

---

(١) كذا تكرر اسم مستورة .
(٢) : « العياشية » : ٢/٩٤ .
(٣) : « العياشية » : ٢/٩٤ .
(٤) الربع هم المرافقون والمصاحبون أياً كانوا .

دون السبيل الذي هناك ، فيه رمال ذات أشجار ، بين تلك الرمال تلاع تمرّ بها السيول ، فيها مزارع ومقاثي كثيرة ، تجلب منها إلى مكة وإلى جدة ومن الظهران وتسوقنا العرب هناك بالحبحب الكثير الحلو الفاخر .

ثم ارتحلنا من هناك ونزلنا مرّ الظهران آخر الليل .

الوصول إلى مكة : (ليلة الأحد ٢٩ شعبان)

ارتحلنا من مر الظهران بعد الزوال ودخلنا مكة المشرفة بعد ما ذهب ثلث الليل ، وكنا حرصنا على دخولها نهاراً فأبى من معنا من العرب لأنهم كانوا يخافون من أخذ الأمير إبلهم يحملها إلى المدينة ، فإنا وجدنا ولده في طائفة من العسكر بذي طوى ، وقد أخرج مضاربه وخيامه إلى هناك برسم السفر إلى المدينـــة .

وأنخنا في سوق باب ابراهيم بالسفحة (؟) التي أمام رباط الموفق الذي هو معدٌ للمغاربة .

ثم حملنا أمتعتنا إلى دار نزلنا بها وراء سوق الشامي من ناحية الباب الذي يلي دار الندوة قريباً من جبل قعيقعان في مكة المكرمة :

أقام الرحالة العياشي في مكة حتى انتهج الحج ، ثم رجع إلى المدينة [1] .

في المدينة مرة أخرى : خرج من مكة ١٨ ذي الحجة سنة ١١٧٣ فوصل المدينة ليلة ٢٩ منه . قال :(ولما وصلنا وجدنا أبواب المدينة مغلقة فطرحنـــا أمتعتنا بالمناخة قرب مسجد العيد ، ونزل في مقام اسماعيل بن جعفر الصادق .

وأقام في المدينة خمسة أيام وسافر منها يوم الخميس الثاني من محرم سنة ١٠٧٤ [2] .

من المدينة إلى ينبع : ارتحلنا صباحاً من ذي الحليفة ، وأخذ الناس السير ،

---

(١) : « العياشية » : ٢/٩٤ .
(٢) : « العياشية » : ٢/٢٨٧ – ٢٩٧ .

ولم يقيلوا لا سويعة قدر ما أكلوا قريباً من الفريش ، ومررنا بشرف الروحاء قبل المغرب ، ولم نبث الا قرب منصرف الروحاء .

وفي الغد ارتحلنا ومررنا بمسجد الغزالة وسرنا حتى نزلنا بالجديدة بعد ما اشتدت القائلة ، ووقف الناس بها هنيئة ريثما أخرجوا أمتعتهم التي اختزنوها ، فارتحلوا ولم ينزلوا الا قرب الصفراء حيث تنصرف الطريق يميناً الى ينبع ...

وفي الغد ارتحلنا وملنا يميناً مع شعاب متوعرة ، وعند المنصرف قبر يقال إنه قبر عبيدة بن الحارث سيد شهداء بدر أحد المبارزين في ذلك اليوم ، وزرناه وسرنا إلى قريب من الظهر فوصلنا بسيط الدهناء ووجدنا البركة المعمولة هناك ممتلئة ماء ، ووقع شنآن بين المغاربة الأفريقيين والجوانيين ولم ينزلوا حتى كاد يبدو لهم نخيل ينبع ... وما سرنا قط مثل هذه المراحل طولاً إلا أن الله لطف بالركب فلم يروا محارباً ولا سارقاً [1] .

من ينبع إلى صحراء سينا : لم أر فيما قرأت من رحلة العياشي في وصف الطريق من ينبع إلى صحراء سيناء ما أراه يضيف جديداً في تحديد المواضع التي مرَّ بها سوى ما نقله عن رحلة ابن رُشيد الفهري الأندلسي ، وهي رحلة قد نقلتها ونشرت ما يتعلق منها بالحجاز في مجلة « العرب » غير أن في المخطوطة التي نقلت عنها كلمات غير واضحة أشرت إلى مواضعها . وها هو ما نقله العياشي من تلك الرحلة مما يتعلق بوصف هذا الطريق ، مع ما يضيفه العياشي :

ينبع : قال ابن رشيد : ولما وافينا ينبع خرج مغنّون بأصوات طيبة عذبة ، يرددون هذه الأبيات ، ويحيّون بها القادمين ، ويحيون نفوسهم الميتة بطيب تلك النغمات :

أيها القادمون أهلاً وسهلاً
كيف نجدٌ ؟ وكيف بانُ المُصَلّى ؟
كيف خلّفتم العقيقَ وسلْعاً ؟
وقبا والنقا ومن ثَمَّ حلاّ ؟

(1) : « العياشية » : ٢/٢٩٨ .

فأجابوا : لله ما كـــان أهنـــــا

زمن الملتقى ، وما كان أحلّى !!

قال ابن رشيد : لله درهم حادوا عن الجواب ، لما رأوا أنهم لا عذر لهم في الاياب .

وينبعُ عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر رووا أن رسول الله ﷺ صلى في مسجد ينبع ، وهو من حديث محمد بن عمر بن أبي طالب رضي الله عنه .

قلت : يفهم من قول ابن رشيد : لله درهم الخ أن (كَيْفَ) في كلام السائل للإنكار والتوبيخ عن الرجوع من تلك الأماكن ، وكيف طابت نفوسهم حتى خلفوها ؟ وليس في الكلام ما يدل على ذلك . بل يمكن أن تكون للسؤال حقيقة عن تلك الأماكن على وجه التحسُّر والتحزُّن والاشتياق إليها كالتي قبلها ، وإذا كان كذلك فالجواب مطابق لأنه إخبار بما يزيد في شوق السائل وحنينه إلى تلك المعاهد .

وأما مسجد ينبع فقد ذكر السيد السمهودي أنه من المساجد التي صلى فيها النبي ﷺ وأنه مسجد القرية التي ينزل بها الحاج . وقد ذكر أهل السير أن النبي ﷺ وصل إليها في إحدى غزواته .

وأما الأبيات المتقدمة فقد اشتهرت بين أدباء المغرب في قرب ذلك العصر ، وعارضها بعضهم ، وذيل عليها آخرون وممن ذيل عليها الأديب البارع أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي الزاهد نزيل تونس المتوفي بها سنة ٦٨٧ قال العزمي (؟) بعد التعريف به ، وذكر جملة مستكثرة من نظمه ما نصه : وأنشده بعض حجاج المغاربة هذه الأبيات — فذكرها وذكر أنه سمعها بالبقيع (؟) وسأله أن يزيد عليها فقال رحمه الله :

حيث روض النعيم بالأنس يجـــنى

وعروس السرور بالسعد تُجلّى

— ثم أورد ٢٦ ستة وعشرين بيتاً بعد هذا وقال : ثم أطال فيها ، وهي

وهي كلها سَلْسَةٌ غريبة المناحي ، رائعة الألفاظ ، عذبة المعاني [١] .

المغيرة : قال ابن رشيد : ووافينا من ينبع المغيرة ، ماء يحتفر في أحساء . وضبط هذا الاسم مَفْعَلَةٌ – بفتح الغين من التغيير . انتهى .

قلت : والماء المذكور يسمى في هذه الأزمان نَبْط ، وما ذكر في ضبطه إن كان من التغيير – كما قال – فيكون مفعلة بفتح الغين المعجمة وتشديد الياء اسم مفعول والذي ينطق به الكافة في أمثالها – وهي كثيرة – مُغيرَة بفتح الغين المعجمة ، وبياء ساكنة خفيفة تصغير مغارة – من الغور وهو الأنسب بالأمكنة المسماة بهذا الاسم والله أعلم) [٢] .

مغارة شعيب : قال ابن رشيد : مغارة شعيب هي ماء مَدْين ، بلد جذام ، يروى عن النبي ﷺ أنه قال لوفد جذام : « مرحباً بقوم شعيب وأصهار موسى ، ولا تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له » .

ومدين الذي سميت به أحد بني وائل من جذام [٣] .

القباب : قال ابن رشيد : ورحلنا من نخيل ضحى يوم الأربعاء إلى موضع يعرف بالقباب ، وافيناه ضحى يوم الخميس فيه مصانع للماء كثيرة ، في جباب مَقْبُوّة ، وفيه غدر .

وأنشد في وصف تلك الليلة :

لَيْلٌ كأنَّ مداه عكس أحرُفــه

ليل ، وليل ، فلا طول ولا قِصَرُ

قلت : ولا أثر لشيء مما ذكر من المصانع والجباب في وقتنا هذا في الطريق التي يسلكها الحاج في تلك الناحية ، وأما البيت الذي أنشده فليتأمله العارف بمقاصد البلغاء هل يدل على طول الليلة وشدتها أو حسنها واعتدالها ، وهو إنما ساقه مساق الدلالة على طولها وشدتها ، ولم يتبين لي الآن وجه ذلك [٤] .

---

(١) : « الرحلة العياشية » : ٢٤١/٢ – ٢٤٢ .
(٢) : « الرحلة العياشية » : ٢٤٣/٢ .
(٣) : « العياشية » : ٢٤٣/٢ .
(٤) : « الرحلة العياشية » : ٢٤٣/٢ .

من ظرفاء اليمامة أبو العيناء

(سيصدر قريباً مؤلف أدبي ممتع للاستاذ الباحث الشيخ محمد بن ناصر العبودي بعنوان : « أخبار أبي العيناء اليمامي » وقد رأت « العرب » إتحاف قرائها بطرف من مباحث هذا الكتاب ، للإطراف والترويح عن النفوس ، وللإمتاع بما يحوي من فوائد) .

أبو العيناء مع الخلفاء :

بلغ أبو العيناء من علو المنزلة في الظرف ، ومن المكانة في الأدب إلى أن يفكر الخليفة في منادمته ومجالسته ثم يعرض عليه ذلك . ولكن أبا العيناء يخشى ألا تمكنه علته في ذهاب بصره من الوفاء بحقوق مجالسة الخليفة ، وهذا يقصد به أن يكون نديمه ومجالسه بصفة رسمية أو على وجه الدقة أن يسلك في سلك الموظفين الذين يختصون بالسلطان والا فهو يجالسه ويحادثه كثيراً كما سيأتي .

روى الإمام ابن الجوزي عن أبي العيناء قال ، قال المتوكل : قد أردتك لمجالستي ، فقلتُ : لا أطيق ذلك ، ولا أقول هذا جهلاً بما لي في هذا المجلس من الشّرف ولكنني محجوب [1] والمحجوب تختلف إشارته ، ويخفى عليه الايماء ، ويجوز أن يتكلم بكلام غضبان ووجهك راضٍ ، وبكلام راضٍ ووجهك غضبان ، ومتى لم أميِّز هذين هلكتُ قال : صدقت ، ولكن تلزمنا [2] فقلت : لزوم الفرض الواجب ، فوصلني بعشرة آلاف درهم . [3] .

ورويت القصة على وجه آخر ، ولعلهما واقعتان مختلفتان في التوقيت وان اتحدتا في الموضوع .

وهو أن المتوكل قال لابي العيناء بعد كلام سابق ؛ دع هذا ، ونادمنا ، فقال : أنا رجل مكفوف ، وكل مَنْ في مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أُخْدَمَ ، ولست آمَنُ من أن تنظر إليَّ بعين راضٍ وقلبك عليَّ غضبان ،

---

(١) محجوب كفيف البصر .

(٢) أي تكثر زيارتنا .

(٣) كتاب الأذكياء ص ١٠٠ — ١٠١ وتاريخ بغداد ج ٣ ص ١٧٤ والمنتظم ج ٥ ص ١٥٧ . وبعض القصة في الكناية والتعريض للثعالبي ص ٣٦ .

أو بعين غضبان ، وقلبك راضٍ ، ومتى لم أميّز بين هذين هلكتُ ، فاختار العافية على التعرض للبلاء (١) .

ونقل التوحيدي عن أبي العيناء أنه قال : قال لي المتوكل : امض إلى موسى ابن عبد الملك ، واعتذر اليه . ولا تعرفــه اني وَجَّهْتُكَ ، فقلت له : تستكتمني بحضرة ألف ؟ قال : إنما عليك أن تنفّذ فيما تُؤمَر به ، وعليَّ أن أحترس مما أخاف منه (٢) .

قال الشابشتي : كان المتوكل يعجب بكلام أبي العيناء وسرعة جوابــه ونوادره (٣) .

وقال الإمام ابن الجوزي : روى أن الخليفة المتوكل قال : أشتهي أن أنادم أبا العيناء ، لولا أنه ضرير فقال أبو العيناء : إنْ أعفاني أمير المؤمنين من رؤية الأهلة ، ونقش الخواتيم فإني أصلح (٤) .

وأحاديث أبي العيناء مع المتوكل كثيرة كما قال الحصري : لأبي العيناء مع المتوكل مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض ، وقد ذكر جملة منها من ذلك ما نقله عن الصُّولي : حدثني أبو العيناء قال : لما أدخلت على المتوكل ، فدعوت له وكلمته ، استحسن كلامي . وقال لي : إن فيك شرّاً ، فقلت : يا أمير المؤمنين : إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، فقد زكّى الله تعالى وذمّ ، فقال في التزكية : (نِعْمَ العَبْدُ إنّهُ أوّابٌ) وقال في الذّمّ (همّاز مَشّاء ، بنميم منّاع للخير مُعْتَدٍ أثيم) .

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٨ ووفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٩ وجمع الجواهر ص ١٥٩ وآمالي المرتضى ج ١ ص ٣٠١ .

(٢) البصائر والذخائر ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٣) الديارات ص ٥٣ .

(٤) تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٧٤ وأخبار الظراف والمتماجنين ص ٦٤ ومعجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٧ . والأذكياء وزهر الآداب ج ١ ص ٣٢٩ ووفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٧ ومحاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٣١ وجمع الجواهر ص ١٥٩ وأمالي المرتضى ج ١ ص ٢٥١ والديارات ص ٦٠ مرآة الجنان ج ٢ ص ٢٩٧ والظراف والمتماجنين ص ٦٩ .

إلى أن قال : وان كان الشر كفعل العقرب التي تلدغ السيّىء والدنيّ بطبع لا بتمييز فقد صان الله عبدك عن ذلك .

إلى أن قال أبو العيناء ، قال لي المتوكل : مـــا تقول في داري هذه ؟ قال : قلت رأيت الناس بنوا دورهم في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك [1] .

فقال لي : ما تقول في عبيد الله بن يحيى ؟ قلت : نعم العبد لله ولك مُقَسّمٌ بين طاعته وخِدْمَتِك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عاد بصلاح ملكك على كل لذة .

قال المتوكل : فما تقول في صاحب البريد ميمون بن إبراهيم ؟ وكان قد علم اني واجد عليه لتقصير وقع منه في أمري ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، يد تسرق ، واسْتٌ تضرط ، وهو مثل اليهودي سرق نصف جزيته ، فله إقدام بما أدّى ، وإحجام بما أبقى ، إساءته طبيعة ، وإحسانه تكلف [2] .

وكذلك قال البكري : لأبي العيناء أخبار كثيرة ، ونوادر معجبة ، ومجالس شهيّة مع المتوكل .

وقال له المتوكل يوماً : يا أبا العيناء ، لا تكثر الوقيعة في الناس ، فقال : إن لي في بصري لشغلاً عن الوقيعة فيهم . قال : ذلك أشد لحيفك في أهل العافية [3] .

وزاد الراغب الاصبهاني بعد ذلك : أعرف الناس بعوار العور [4] .

ودخل أبو العيناء على المتوكل فقال : كيف كنت بعدي ؟ قال أبو العيناء : في أحوال مختلفة خيرها رؤيتك ، وشرُّهَا غيبتك . فقال المتوكل : قد والله

---

(١) هذه الجملة وردت منفردة في عدد من المراجع مثل « اللطائف والظرائف » ص ٢٣ .

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ٣٢٣ – ٣٢٤ . وجمع الجواهر ص ٢٨٢ – ٢٨٣ ومروج الذهب ج ٤ ص ١٣٥ . وله غيره .

(٣) المصدر نفسه والبصائر والذخائر ج ٣ ص ٢٤٨ . وجمع الجواهر ص ٢٨١ .

(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٨٩ وفيه المهدي وهو غلط لأن أبا العيناء ولد بعده .

اشْتَقْتُكَ ، قال أبو العيناء : إنما يَشْتاقُ العبدُ ، لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيّد فمتى أراد عبده دعاه [1] .

وقال له المتوكل : مَنْ أسْخَى مَنْ رأيتَ ؟ قال أبو العيناء : ابنُ أبي دؤاد . قال المتوكل : تأتي إلى رجل قد رفضناه فتنسبه إلى السخاء ؟

قال : إنَّ الصدق – يا أمير المؤمنين – ليس في موضعٍ من المواضع أنفق منه في مجلسك ، وان الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد ، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون ، وجود ابن أبي دؤاد منسوب إلى المعتصم ، فاذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابني يحيى إلى السخاء فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين .

قال المتوكل : صدقت ، فمَنْ أبخلُ مَنْ رأيتَ ؟

قال أبو العيناء : موسى بن عبد الملك . قال : وما رأيت مِنْ بخله ؟ قال : رأيته يخدم القريب كما يخدم البعيد ، ويعتذر من الاحسان كما يعتذر من الاساءة .

فقال له المتوكل : قد وقعتَ فيه عندي مرتين ، وما أحب ذلك ، فألقه واعتذر اليه ، ولا يعلمْ أني وجّهتُ بك .

قال أبو العيناء : يا أمير المؤمنين ، مَنْ يستكتمني بحضرة ألفٍ ؟

قال : لن تخاف ، قال : على الاحتراس من الخوف .

فصار إلى موسى فاعتذرَ كل واحد منهما إلى صاحبه ، وافترقا عن صُلْح ، فلقيه بعد ذلك بالجعفري [2] فقال موسى : يا أبا عبد الله قد اصطلحنا فمالك لا تأتينا ؟ فقال أبو العيناء : (أتريد أن تقتلني كما قتلْتَ نفساً بالأمس) . فقال موسى : ما أرانا إلا كما كنا ! [3] .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٣٢٨ . وجمع الجواهر ص ٢٨٤ وأمالي المرتضى ج ١ ص ٣٠٠ .
(٢) الجعفري قصر من قصور المتوكل .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري سنة ست وأربعين ومائتين فقال له المتوكل : ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال : ان الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك ، فاستحسن كلامه [١] .

وقال له المتوكل : ما أشدُّ ما مر عليك من فقد بصرك ؟ فقال أبو العيناء : ما حُرِمْتُ منه من النظر اليك أيها الأمير [٢] .

وقال أبو العيناء : لَمّا أُدْخِلْتُ على المُتَوَكِّل عاتبني جُلَسَاؤه . فلما بَرَزْتُ عليهم ، قال المتوكل : ادفعوا [٣] اليه عشرة آلاف درهم إتِّقاءً للسانه ، فقلتُ : قد قتلتني والله يا أمير المؤمنين . قال لي : ويحك ، وكيف ذلك ؟ قلتُ : لأنَّ مَنْ خِفْتَهُ لا يعيش . فقال : ليس خوف فَرَقٍ [٤] ، ولكن خوفُ صِيانة [٥] .

وَعُرِضَتْ جارية على المتوكل ، فقال لأبي العيناء هذه عُرِضَتْ على أنها شاعرة فقل شيئاً لتجيز ، فقال أبو العيناء :

أحمد الله كثيراً .

فقالت : حين أنشاك ضريراً .

فقال أبو العيناء : يا أمير المؤمنين : قد أحْسَنَتْ في إساءتها [٦] .

وقال المتوكل لأبي العيناء : إني لأفْرَق من لسانك . فقال أبو العيناء : يا أمير المؤمنين الكريم ذو فَرَقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وقاحة وإقدام [٧] .

وقال أبو العيناء : أنشدني المعتصم بعقب مدح جرى لبغداد :

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٧ – ٢٨٨ ووفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٨ .
(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٢٠ .
(٣) يخاطب المسؤولين عن خزانته .
(٤) الفرق الفزع وشدة الخوف .
(٥) البصائر والذخائر ج ١ ص ٨٦ .
(٦) البصائر والذخائر ج ٢ ص ٢٦٥ (طبع دمشق) .
(٧) غرر الخصائص ص ٢٣٢ .

سقاني بعينيه كأس الهوى فظلْتُ وبي منه مثل اللّمَمْ (١)
بعينيْ مهاةٍ شقيقته وشُنْبِ عِذابٍ وفرْعٍ أحَمّ

قال أبو العيناء : فتوهمت أنه يعني سُرّ مَنْ رأى ويكنى عنها بهذا الكلام فقلت : يا أمير المؤمنين قال مروان في جدك قريش : الأبلج ذوالبهاء ؛ غيث العفاة غَدّا الانواءِ ؛ وهم زمام الدّوْلةِ الزهراء فقال : قل يا أبا عبد الله في مدح بني هاشم لك ولغيرك فلقد أصَبْتَ مقالاً ، فأنشدته لمروان بن أبي حفصة :

إلى مَلِكٍ مثل بدر الدُّجى عظيم الفِناءِ ، رفيع الدُّعَمْ
قريع نزار ، غداةَ الفخارِ ولو شئت قلت : جميع الأممْ
له كَفُّ جُود تُفيد الغنى وكَفٌ تُبيد بسيف النِّقَمْ

فقال : زدني ، فأنشدته :

انتجعي يا ناق مَلْكَ غالب قريش بطحاء أولى الأهاضب
والرأس ممدود على المناكب مَدَّ القباطيٍّ على المشاجب

إلى أن قال : فقال المعتصم : حسبك يا أبا عبد الله . ثم ذكر أنه أعطاه مالاً عظيماً وانصرف ، فقال الناس : يا أبا العيناء ، ما هذا ؟ فقال : مال الله على يد عبد الله . الحمد لله ، والشكر لأمير المؤمنين ما دامت السماء ، وما حملت مقلتاي الماء (٢) .

دخل أبو العيناء على محمد بن عبد الملك الزّيّات الوزير ، فجعل لا يكلمه إلا بأطرافه . فقال أبو العيناء ان من حق نعمة الله عليك ، لما قد أهّلَكَ له في هذه الحال التي أنت عليها ، أن تجعل البسطة لأهل الحاجة إليك ، فبقضاء الحاجات تدوم النِّعم » .

فقال محمد : أما إني أعرفك فُضُولياً كثير الكلام ، أوَ تَرى أن طول

(١) اللمم الجنون غير المطبق .
(٢) المحاسن والمساوىء ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

لسانك يمنع منّي أن أؤدبك إذا زللت . وأمر به إلى الحبس .

فكتب اليه أبو العيناء من الحبس : قد علمت أن الحبس لم يكن تقدم إليك ، ولكنك أحببتَ أن تريني مقدار قدرتك عليّ ، لأنّ كل جديد يُستَلَذّ ، ولا بأس أن تريني من عفوك مثلما أريتنا من قدرتك .

فأمر بإطلاقه وانقطع عنه مدة ، فلقيه ، فحبس محمد بن عبد الملك دابته عليه [1] ، فقال : ما لي لا أراك يا أبا عبد الله ؟ فقال له أبو العيناء : أما المعرفة بعنايتك فمناكرة ، ولكنني أحسب الذي جَدّدَ استبطاءك فراغ حَبْسك ممّن كان فيه فأردت أن تغمرني فيه [2] .

تديّنـــه :

أخبار أبي العيناء ، وما أثر عنه من النوادر لا تدل على دقته في التعبير دقة تبعده عن شبهة قد تلحق دينه فهو كان يمزح ويلقي بالنادرة وان كان ظاهرها يخالف ما ينبغي أن يكون عليه المتدين الحريص على دينه . وربما كان لحبه للنادرة أثر في اقتناصها ولو كان فيها ما يوحي بسوء في التعبير الذي ينبغي أن يصان عنه جانب التدين . ومع ذلك فانه كان مستوراً في الدين فلم يرم بالعظائم التي رمى بها بعض الأدباء في عصره كالزندقة ، ولا بالمذاهب المنحرفة عن الجادة السلفية في الاعتقاد كمذهب الجهمية والمعتزلة .

على أن الشيء الذي سجل عليه أنه ليس من الورع بذاك فكان أخذ حَمَلاً سميناً وأكلَه دون رضى صاحبه ، وأوصى صديقاً له تولى ولاية بأن يخون فيها ويسرق ، وكان حَرِيّاً بأن تلحقه تهمة بأحد غلمانه لولا أنه احتاط لذلك . على أننا اذا حاولنا التماس العذر له نقول إنه ربما كان أخرج تلك الأقوال ، وفعل بعض تلك الأفعال من باب التنادر والملاطفة ، ونستدل على ذلك بأنه هو الذي كان يرويها ، ويتملح بها .

---

(١) أي وقف عليه وهو راكب دابته .

(٢) جمع الجواهر ص ٣٠٠ وهي بلفظ أبسط من هذا في الديارات ص ٥٥ .

روي عن ابي العيناء انه قال : وضعتُ أنا والجاحظ [1] حديث فدك [2] وأدخلناه على الشيوخ في بغداد ، فقبلوه ، الا ان ابن شيبة العلوي ، قال : لا يشبه آخر هذا الحديث أوله ، فأبى أن يقبله ، وكان أبو العيناء يحدث بهذا بعد ما كان [3] .

وقال أبو العيناء : مررت يوماً في درب بسُرَّ مَنْ رأى فقال لي غلامي : يا مولاي ، في الدرب حَمَلٌ سمينٌ ، والدرب خالٍ ، فأمرتُه أن يأخذه ، وغطيته بطيلساني ، وصرت به إلى منزلي ، فلما كان من الغد جاءتني رُقْعةٌ من بعض رؤساء ذلك الدَّرْب مكتوب فيها : جُعلتُ فداك ، ضاع لنا بالأمس حَمَلٌ ، فأخبرني صبيان دَرْبنا أنك أنتَ أخذْتَه ، فأمر بردّه متفضّلاً ، فكتبتُ إليه : يا سبحانَ الله ، ما أعجب هذا الأمر ! مشايخ دربنا يزعمون أنك بغّاء ، وأكذّبُهم أنا ولا أصدّقهم ، وتُصدّقُ أنتَ صبيان دربك اني أخذتُ الحمل ، قال : فسكتَ ولم يُعاوِدْني [4] .

ان هذه القصة توحي بشيئين غير سرقة الحمل : الأول : أن غلام أبي العيناء يعرف عنه قلة الورع حين عرض عليه أخذ الحمل . الثاني : الكذب على الرجل فيَ رميه بذلك النعت الخبيث .

وروى الحافظ الخطيب عن أحمد بن محمد بن عيسى المكيّ قال ، كتب أبو العيناء إلى صديقٍ له ولي ولايةً :

أما بعد ، فإني لا أعظُكَ بوعظة الله فإنك عنها غنيٌ ، ولا أخَوّفك إياه لأنك أعلم به مني ، ولكني أقول كما قال الأول :

---

(١) في معجم الأدباء (الحافظ) تحريف .

(٢) فدك قرية تقع بالقرب من خيبر راجع الكلام عليها في كتاب « في شمال غرب الجزيرة » للأستاذ حمد الجاسر ص ٢٤٥ وما بعدها ويريد بحديث فدك حديثاً في الخلاف الذي حصل بين أبي بكر الصديق وفاطمة رضي الله عنهما حول فدك فيما يظهر .

(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٩ . ونكث الهميان ص ٢٦٥ .

(٤) معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ ونكت الهميان ص ٢٦٨ ونهاية الأرب ج ٤ ص ٧١ .

أحار بن بَدْرٍ قد وليتَ ولايــــةً فكُنْ جُرَذاً منها تخون وتسرق [1]
وكاثِرْ تميما بالغنى ، إنمـــا الغنى لسانٌ به المرءُ الهَيُوبَةُ ينطــق

واعلم أن الخيانة فطنةٌ ، والأمانة حرفة [2] . والجمع كيْسٌ ، والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرنّ صغيراً ، فإنّ من الدور إلى الدّور وابلاء الولاية رقدة ، فتَنَبّهْ قبل أن تُنَبّه ، وأخو السلطان أعمى عن قليل سوف يبصر ، وما هذه بالوصية التي أوصى بهـــا يعقوبُ بنيه ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل ، وترك الآجل [3] .

أرأيت أسوأ من هذه الوصية إذا أخرجت مخرج الجد . وأرأيت أنها لطيفة خفيفة الروح إذا أخرجت مخرج الهزل وقيلت لمن لا يغتر بها ، ولا يأخذ بما فيها ؟ وأغلب الظن أنه كذلك لأن أبا العيناء قال له : إنك أعلم بالله مني ، وقوله في آخرها : وما هذه بالوصية التي أوصى بهايعقوب بنيه .

أما مذهبه فإنه لا بد أن يكون موضع التفات للتعرف عليه في ذلك الوقت الذي كان وقت الاختلاف والشقـــاق في المذاهب نتيجة لتأثير الفلسفات الوافدة على بلاد المسلمين في ذلك الوقت كالفلسفة اليونانية والأفكار الهندية والزرداشتية ، إضافة إلى المذاهب الكثيرة المنتشرة في بلاد المسلمين وبخاصة مذهب الشيعة .

فكان أنْ سأل المتوكل أبا العيناء عن مذهبه ، فأجابه أبو العيناء بجواب مقنع لمن كان في ذلك الوقت : ولندع الصُّولي يروي ذلك فيقول إن أبا العيناء حدث فقال : قال لي المتوكل : بلغني أنك رافضي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ، ومنشّي مسجـــد جامعها ، وأستاذي الأصمعي ، وجيراني باهلة ، وليس يخلو الناس مِنْ طلب دينٍ ودنيا ، فان أرادوا ديناً فقد أجمع المسلمون على تقديم مَنْ أخّروا ،

---

(١) حار في بدء أصله حارث بن بدر وحذفت الثاء للترخيم . والجرذ واحد الجرذان .
(٢) حرفة فقر : وحرمان .
(٣) تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٧٦ وهي أيضاً في محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٣ .

وتأخيرَ مَنْ قدموا [1] وان أرادوا دنيا فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين الا بك ، ولا دنيا الا معك ، أبوك مستنزل الغيث [2] وفي يديك خزائن الأرض ، وأنا مولاك ، فقال ان ابن سَعْدان [3] زعم ذلك فيك . فقلت : ومَن ابنُ سعدانَ ؟ والله ما يُفَرِّقُ بين الإمام والمأموم ، والتابع والمتبوع ، إنما ذاك حاملُ دِرَّة [4] ، ومُعَلِّمُ صِبْيَةٍ ، وآخذ على كتاب الله أجْرَة ، فقال : لا تفعل لأنه مؤدِّبُ المؤيّد [5] فقلت : يا أمير المؤمنين ، انه لم يؤدبه حِسْبة ، وانما أدَّبَهُ بأجرةٍ ، فإذا أعطيته حقه فقد قضيت ذمامه [6] .

فقام ابن سَعْدان ، فقال : يا أبا العيناء ، لا والله ما صدق أمير المؤمنين في شيء مما حكاه عني ، ثم أقبل على المتوكل ، فقال : أي شيء أسهل عليك يا أمير المؤمنين : مَنْ أن يقضي مجلسك على ما تُحِبُّ ثم يخرج هـذا فتقطعني قال : فضحك المتوكل [7] .

ولعل من الطريف أن نذكر في هذا الفصل ورداً لأبي العيناء كان يقوله إذا خرج من داره لا شك أنه مستوحى من علته ، وهي العمى .

قال الحصري كان أبو العينـاء إذا خرج من داره يقول : اللهم اني أعوذ بك من الرَّكْبِ ، والرُّكبِ ، والآجُرِّ والخشب ، والزّوايا والقرَبْ [8] . فهو يستعيذ بالله من شر الرَّكْب وهم الجماعة الذين يركبون دواباً ربما تخبط

---

(1) يريد بذلك التفضيل بين الصحابة .

(2) يشير الى جد آل العباس وهو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (ص) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد استسقى به الغيث أي أخرجه ليدعو للناس بنزوله .

(3) هو ابراهيم بن سعدان المؤدب ترجم له ياقوت وغيره .

(4) الدرة سوط صغير .

(5) هو ابن الخليفة .

(6) ذمامه حقه .

(7) معجم الأدباء ج ١ ص ١٥٣ ١٥٤ والديارات ص ٥٨ .

(8) زهر الآداب ج ١ ص ٣٢٦ .

ماراً ، أو تضيق طريقاً ، أو على الأقل تثير غباراً متصاعداً يلوث الجوّ ، ويزكم الأنوف ، وقد يكون الركب من ذوي السلطان في ذلك الوقت الذين لم يكونوا يبالون فيه بمشاعر العامة والدهماء .

وهو يستعيذ من الرُكَب جمع ركبة لأنها كثيراً ما تضرب الأعمى في الزحام فيتأذى من ذلك ، أما الأمر الأفظع من الرُكَب فهو الآجر الذي قد يتساقط فيقع فوق رأس الأعمى دون أن يشعر به أو يجعل كومة في الطريق استعداداً للبناء به فيعثر به الأعمى فيسقط . وقد يتبعثر الآجُرُ في الأرض فيجعل مسلك الأعمى في الطريق صعباً وعراً بعد ما كان سهلاً نقياً . والأمر الآخر الأفظع منه هو الخشب الذي يحمل على الدواب ، ويسار به في الأزقة والشوارع ، وقد تكون ضيقة فتضايق أطراف الخشب أطراف الأعمى حتّى يتأذى بذلك وربما يصاب بجروح يطول بها الوقت في ذلك الزمان قبل أن تندمل . وقد لا ينجي منه اللصوق بالجدار ونحوه .

أما الروايا جمع راوية ، والقرب : جمع قربة . فهي أدوات نقل الماء على الدّواب ، وإذا لامست الأعمى في الشتاء تأذّى باتّساخها ، وببرودة مائها ، وربما أصاب ثيابه من ظاهرها ما يشك في طهارته ..

أرأيت كيف كان ورد أبي العيناء وأنه بما يضيق به الأعمى في الشوارع الضيقة لخبير .

ولكن هل هذا ورد رجل متدين يحرص على أن يكون ورده مستوحى من الكتاب والسنة والأدعية المأثورة ؟ لا شك في أن الاجابة الصحيحة ستكون بالنفي .

وهناك سؤال عن علاقة أبي العيناء بالخمر أكان يعاقرها ؟ أم كـــان هاجرهـــا ؟

ذكروا أن الخليفة المتوكل قال له : كيف شربك للخمر ؟ قال : أعجز

عن قليله، وأفتضح عند كثيره[1] ...

فهل هذه إجابة من يشرب منها شيئاً ؟ أم هي إجابة من يجتنبها ؟ أم هي اجابة معدة لمقام الخليفة الذي ذكروا أنه كان منها غير بعيد ؟ الذي يظهر أن أبا العيناء لم يكن شراباً للخمر ، هذا ما يدل عليه جوابه ، ولكنه لم يَجْزِم النَّفْي ، ولم يخرجه مجرداً لأنه في مقام كهذا الذي وصفْناه .

ونجد شعراً منسوباً لأبي العيناء نسبه إليه مؤلف ليس بالغ البعد عن عصره هو الشابشتي صاحب كتاب الديارات وهو صريح في الشرب ، فان كانت نسبته اليه صحيحة ، ولم يكن قاله بقصد مجاراة المُجّان من الشعراء أمثال أبي نواس يبين قدرته على صنعة الشعر في الخمريات فانه يدل على أن أبا العيناء كان قد جرب معاقرة الخمر ، ومصاهرة ابنة الدَّنّ وهذا هو الشعر[2] :

نزلنا دَيْرَ باشَهْرا	على قِسّيسه ظُهْرا
على دين يشوعيّ	فما أسْنَى ، وما أمْرَا
وسَقّانا وروّانا	من الصافية العَذْرا
فطاب الوقت في الدَّير	ورابطْنا به عَشْرا

وهذا بعض الشعر وتمامه عند الشابشتي تسعة أبيات[3] .

وظني أنه مصوغ وأن نسبته إلى أبي العيناء غير صحيحة ، وان كان الظاهر أن الشابشتي لا يشك في نسبته إليه بدليل أنه ساق ترجمة لأبي العيناء ، وروى نوادر كثيرة عنه لمناسبة ذكره لهذا الشعر .

وهذه طرفة لا تليق أن توجه إلى رجل مشهور بالورع على خفة ظلها ، ووقوعها في محلها من التمالح والثناء — وبخاصة إذا كانت بين صديقين حميمين

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٨ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٦٨ . وجمع الجواهر ص ١٥٩ .
(٢) معجم البلدان رسم (باشهرا) ج ٢ ص ٤٩٩ .
(٣) الديارات ص ٥٢ .

ترفع بينهما بسط التكلف وتطرح عنهما معاً أثقال الاحتشام وهي كما رواها الراغب الأصبهاني حين قال :

كتب ابن مكرم إلى أبي العيناء : عندنا سكباج [1] يُرْعِف المجنون [2] وحديث يُطرب المحزون ، واخوانك الملحدون [3] . فلا تعلو عليَّ وآئتون ! فكتب اليه أبو العيناء : (أخسئوا فيها ولا تكلِّمون) [4] .

وهذا السؤال الذي قد يكون وراءه ما وراءه وان كان قد طرح على سبيل الإحراج والسخرية أو ربما كان قد طرح على سبيل المزاح والمداعبة . ولكنه على أية حال لا يمكن أن يلقى على رجل تقي ، مشهور بالتدين ، سليم العرض من أقوال الناس إلا على غير سبيل الجد .

قال جناح بن سلمة لأبي العيناء يوماً : ما طُهُورُكَ وقد خرج توقيع أمير المؤمنين في الزنادقة [5] ؟ فقال أبو العيناء : أستدفع الله عنك واصهارك [6] .

وهذه التالية التي زعم أنها طرفة وهي تثير الاشمئزاز بل ان أبا العيناء لو كان متين الدين لـَمـَّا قبل أن تقال له فضلاً عن أن يقرها في الظاهر وأن يجيب عليها بجواب يدل على استهانته بما تضمنته .

قال له العباس بن رُسْتُم يوماً : أنا أكفَرُ منك ، فقال له أبو العيناء : لأنك تكْفُر ومعك خفير مثل عبيد الله بن يحيى وابن أبي دواد — القاضي — وأنا أكفر بلا خفارة [7] .

---

(١) السكباج مرق يعمل من اللحم والخل أصل الكلمة فارسية (سكبا) راجع الألفاظ الفارسية العربية ص ٩٢ .
(٢) في الديارات ترعب المجنون والظاهر أن ذلك تحريف لأن المجنون لا يرعبه المرق .
(٣) في الديارات المحازون تحريف .
(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٣٠٧ . والديارات ص ٦٠ .
(٥) أي وقع الخليفة أمراً بالقبض على الزنادقة ومعاقبتهم .
(٦) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٩١ ونكت الهميان ص ٢٦٧ .
(٧) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٩٥ ونكت الهميان ص ٢٦٨ .

وهذه النادرة الأخرى وفيها يقول أبو العيناء : إنه يخشى أن تلحقه تهمة كانت تلحق كثيراً من مترفي عصره وكانت تصيب بعضهم ، ولو كان أبو العيناء على درجة عالية من التدين لما لحقته مثل تلك التهمة .

قيل لأبي العيناء : لِمَ اتخَذْتَ خادمَيْنِ أسْوَدَيْن ؟ قال : أمّا أسْوَدان فلئلا أُتَّهَمَ بهما ، وأما خادمان [1] فلئلا يتهما بي [2] .

واعترف أبو العيناء بشيء من العقوق لوالده وان كان أخرج ذلك مخرج الهزل ورواه ليضحك الناس على الوالد الذي يكون شديداً على أولاده .

فقد قال أبو العيناء : أنا أول مَنْ أظهر العقوق بالبصرة ، قال لي أبي : يا بُنَيَّ : إنّ الله تعالى قرن طاعته بطاعتي ، فقال : (اشكرْ لي ولِوالِدَيْكَ) فقلت له : يا أبتِ ، إن الله ائتمني عليك ولم يأتمنْك عليّ فقال تعالى : (ولا تقتلوا أوْلادكم خَشْيةَ إمْلاقٍ) [3] .

وإذا كان عقوق والده صحيحاً فان ابنه قد اقتص لوالد أبي العيناء من ابنه اذ رووا أنّ أبا العيناء قال لابنه وهو مريض : أي شيء تشتهي ؟ قال : اليتم [4] . أي : أن يصبح يتيماً ومعنى ذلك أنه يتمنى لأبيه الموت وقد وردت آثار عدة على أن من عق أباه يعقه ابنه [5] .

ولقد هجاه بعض شعراء عصره بقلة التدين ، ولكن الذين هجوه هم

---

(١) خادمان هنا معناها مجبوبان . وقد صرح بذلك الثعالبي في اللطائف والظرائف ص ٧٦ . والراغب في محاضراته ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٩٨ . ونكت الهميان ص ٢٦٨ .

(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٩٩ . والبصائر والذخائر ج ٣ ص ٢٩٩ وزهر الآداب ج ٣ ص ٢١٩ . ونكت الهميان ص ٢٦٩ . وجمع الجواهر ص ٢٤٤ . والغيث المسجم ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٤) جمع الجواهر ص ٢٨٢ .

(٥) أوردنا جملة صالحة منها في كتابنا (الأمثال العامية في نجد) عند ذكر المثل (البر سلف) فراجعه ان شئت .

من يستحقون الهجاء بقلة التدين أكثر منه ، إذ بعضهم من المشهورين بذلك كالحمّاز الذي قال فيه [1] :

كَذَبُوا ليس أبو العيناء في الكفر دَعِيّاً
ظلموا البائس ما زال من الله بَرِيّاً
وبذا نعرفه مذ كان ، لا كان ، صَبِيّاً
فاخبروه تجدوه بالذي قُلْتُ مَلِيّاً

وأحمد بن أبي طاهر في قوله من مقطوعة في ذم أبي العيناء [2] :

قد طبع اللهُ على قلبه فالكفر مُسْتَوْلٍ على طبعه

ووصمه بعضهم بشيء آخر في بيتين لم نشأ ايراد الثاني منهما لإقذاعه وهما لأبي عمر السراج وأولهما [3] :

جاد أبو العيناء فيما اشتهى من لَذّة العيش بلا مَرْزِيَه

أما محمد بن عروس فقد تناول بالهجو نواحي عدة من شخصية أبي العيناء ، ثم أجمل ذمه إجمالاً مما لا يدع مجالاً للشك في أنه لم يتحر الحقيقة في قوله [4] :

ظرف أبي العيناء مملول ودينه لا شك مدخول
وليس ذا علم بشيء ولا له اذا حَصَّلْتَ محصول
ما هو الا جملة غثّة وليس للجملة تفصيل

---

(١) نور القبس ص ٣٢٤ .
(٢) ذكرك في فصل .. بلاغة أبي العيناء ..
(٣) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٠٦ .
(٤) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٩ (طبعة محي الدين عبد الحميد) .

شعر ابي العيناء :

لأبي العيناء شعر جيد أوصله إلى مرتبة الشعراء المعترف بهم ، وان كان مُقِلاً من الشعر ولم يشتهر بشعره لأنّ شهرته بنوادره وذكائه غطّت على ذلك :

وقد أفرد له الإمام المرزباني ترجمة في معجم الشعراء ووصفه بأنه قليل الشعر جداً وذكر له شاهداً شعرياً واحداً قال رواه الصولي له عن المُبَرّد :

لعمري لئن كانت نواكم تباعدت لما قرّ بنيا [1] منكم الدار أطول
فـإن تنأيِّ الدار عنكم فمبلغ الينا ، وان كان التبصر أجمل [2]

وهذا الشاهد كما ترى رَثٌّ ان لم نقل انه غثٌّ ، ولأبي العيناء مقطوعات شعرية جيدة سيأتي إيرادها فيما بعد عن غير المرزباني .

ونعته ياقوت بأنه الأخباري الأديب الشاعر . ثم ذكر في آخر ترجمته مختارات من شعره [3] . وقال ابن خلكان : له أخبار حسان ، وأشعار ملاّح مع أبي علي الضرير [4] . ووصفه ابن النديم بأنه كان فصيحاً بليغاً شاعراً . ثم ذكر أن لأبي العيناء شعراً جمع في كتاب اسمه « شعر أبي العيناء » .. وهو في نحو ثلاثين ورقة [5] .

---

(١) ربما كان الصحيح (لما قربتنا) .
(٢) معجم الشعراء ص ٤٤٨ .
(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٦ .
(٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٦٦ .
(٥) الفهرست ص ١٨٧ .

وهذا دليل على أن أبا العيناء مقل من الشعر اذ ثلاثون ورقة ليست بالحجم الكبير لشعر جمع في وقت ليس ببعيد من وقت الشاعر .

قال في ذم الزمان [1] :

تولت بهجة الدنيا ... فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم ... فما أدري بمن أثق

وفي الشكر والثناء :

رأيت معالم الخيرا ... ت سدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب ... ولا دين ، ولا خلق

أنشد الثعالبي لأبي العيناء [2] :

شكرك معقود بإيمان ... حكمتم في سري وإعلاني
عقد ضمير ، وفم ناطق ... وفعل أعضاء وأركان

وفي الصداقة والإخوانيات [3] :

لعمرك ما حق امرىء لا يعد لي ... على نفسه حقاً علي بواجب
وما أنا للنائي علي بوده ... بودي وصافي خلتي بمقارب
ولكنه ان مال يوماً بجانب ... من الصد والهجران ملت بجانب

شعره في الهجاء : طبيعي أن يكون لأبي العيناء شعر في الهجاء ما دام شاعراً مذكوراً بشعره لأن نثره كثير منه كان في الهجاء ، أو كان قوارص كلم ساخرة وقعها على النفس أعظم من وقع الهجاء الشعري التقليدي الذي اشتهر عنه بعض الناس كأنه لا يزيد على كونه صنعة من الصنائع .

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣٠٣ .

(٢) المنتحل ص ٨١ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٧ .

فمن ذلك قوله يهجو أسدَ بنَ جَوْهر :

تَعِسَ الزَّمانُ لقد أتى بعُجَابِ ... ومَحَا رُسُومَ الظَّرْفِ والآدابِ
وافى بِكُتّابٍ لو انبَسَطَتْ يدي ... فيهم ، رَدَدْتُهُمُ إلى الكُتّابِ
جِيلٌ من الأنعام إلاَّ أنهُـمْ ... مِنْ بينها خُلِقُوا بلا أذْنابِ
لا يَعْرِفون إذا الجريدة جُرِّدَتْ ... ما بَيْنَ غَيَّابٍ إلى عتَّابِ
أو ما ترى أسَدَ بن جوهرَ قد غدا ... مُتَشبِّهاً بأجِلَّةِ الكُتّابِ
فاذا أتاه سائِلٌ في حاجة ... رَدَّ الجوابَ له بغيرِ جَوَابِ
نكلَتْكَ أمُّكَ ، هَبْكَ مِنْ بقرالْ ... فَلا ما كنت تغلَطُ مرةً بِصَوابِ[1]

وقال في هجاء الوزير أحمد بن الخَصِيب :

قُلْ للخليفة يا ابنَ عمِّ محمد ... إشْكِلْ وزيرك إنّه رَكّالُ[2]
قد أحجم المتظلمون عنه مخافةً ... منه ، وقالوا : ما تَرُومُ مُحَالُ
ما دام مُطْلَقَـة علينا رِجْلُـه ... أو دام لِلنَّزِق الجَهول مَقَالُ
قَدْ نال مِنْ أعراضنا بلسانه ... ولرجله بين الصدور مَجَالُ
إمْنَعْهُ مِنْ رَكْلِ الرجال وإنْ تُرِدْ ... مالاً ، فعند وزيرك الأموالُ[3]

وقال في الشكوى :

الحمـد لله ليس لي فَـرَسُ ... ولا على باب منزلي حَرَسُ
ولا غُلامٌ إذا هَتَفْتُ بـه ... بادر تَحْوي كأنّه قَبَسُ
إبني غُلامي ، وزوجتي أمَتِي ... مَلَّكَنِيها المَلاّك والعُرُسُ
غَنِيتُ باليأس ، واعتصمت به ... عَنْ كُلِّ فَرْدٍ بوجهه عَبَسُ
فما يَراني ببابه أحَـدٌ ... طَلْقَ المُحَيّا سَمْحٌ ولا شَرِسُ[4]

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣٠٣ وغرر الخصائص ص ١٣٧ وفيه زيادة بيتين .
(٢) أشكله ، أي وضع فيه الشكال ، وهو حبل تقيد به الدابة ، وركال ، يركل الناس برجله .
(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣٠٤ .
(٤) المصدر نفسه .

وأنشد ابن المعتز لأبي العيناء وقال انه مما يستحسن له قوله في علي بن الجهم :

أراد ابن جَهْـــم أن يقول قصيدة بمَدْحِ أمير المؤمنين فأذَّنــا
فقلتُ له : لا تَعْجَلَنْ بإقــامـةٍ فلستُ على طُهْرٍ ، فقال : ولاأنا

قال ابن المعتز : وقد روى الناس أن هذين البيتين لمروان ، وليسا ذلك بشيء [1] وقد أكد نسبتهما إلى أبي العيناء الشابشتي حيث رواهما له جازماً [2].

ومن شعره في المال [3] :

مَنْ كان يملك دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ
شَفَتَاهُ أنواعَ الكـلام فقـالا
وتقدَّم الفصحاءُ فاستمعوا لـــــه
ورأيتَه بين الورى مُخْتَـــالا
لـولا دراهمُهُ التي في كيســه
لوَجَدْتَه شَرَّ البَرِيَّـةِ حـالا
إنَّ الغنيَّ إذا تكلَّـــمَ كاذبـا
قالوا : صَدَقْتَ ، وما نَطَقْتَ مُحَالا
واذا الفقير أصاب ، قالوا : لم يُصِبْ
وكَذَبْتَ يا هذا ، وقُلْتَ ضَـلالا
إنَّ الدَّراهـم في المواطن كلهـا
تكسو الرجال مهابـةً وجـلالا
فهي اللسان لِمَنْ أراد فصاحـــةً
وهي السِّلاح لِمَنْ أراد قتـــالا

(١) طبقات الشعراء ص ٤١٦ .
(٢) الديارات ص ٥٦ – ٥٧ .
(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣٠٤ – ٣٠٥ .

ومن شعره الفلسفي [1] :

يا وَيْحَ هذي الأرض ما تصنع
أكُلُّ حيٍّ فوقها تَصْرَعُ ؟
تَزْرَعُهُمْ حتى إذا ما أتَوْا
أشُدَّهُمْ تحصد ما تَزْرَعُ

وقوله في الدنيا [2] :

مذمومة بالهم مخطوبة سَمٌّ ذُعافٌ درٌّ أخلافها
ولم تزل تقتل ألاّفها أفٌّ لِمَنْ تقتُل ألاّفها

وقال في الفخر [3] :

ألَمْ تَعْلَمي يا عَمْرَكَ اللهُ أنني
كريم على حينِ الكرامُ قليلُ
وإنّي لا أخزَى إذا قيل مُقْتِر
جَوادٌ ، وأخزَى أن يقال : بخيلُ
وإن لا يكن عظمي طويلاً فإنني
له بالخصال الصالحات وَصُولُ
إذا كنتُ في القوْمِ الطُّوالِ فَضَلْتُهُمْ
بطَوْلي لهم حتى يقال طويلُ
ولا خير في حسن الجسوم وطولها
اذا لم يَزِنْ طُولَ الجسوم عُقُولُ
وكائن رأينا من جسوم طويلة
تموت إذا لم تحيهنّ أصُولُ

---

(1) المصدر نفسه ص ٣٠٦ .
(2) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٦٨ .
(3) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

ولم أرَ كالمعروف ، أما مذاقـــه
فحُلْوٌ ، وأما وَجْهُهُ فجميلُ

وذكر الشابشتي أن أبا العيناء قال في التشفي من رجل عزل عن عمل كان يتولاه :

قـل لزيـد بن صـاعـد جاءكَ العزل في لطـف
فاجْـرَع الهَـمّ واصْطَبِرْ فعلى رَبِّكَ الخَلَـفْ
أنـت أيضـاً إذا وَلِيـتَ فـلا تكـثر الصَّلَفْ [1]

وفي المطل وخلف الوعد أنشد له الثعالبي [2] :

إني لأعجب بل فعالك أعجب من طول ترددي ، إليك وتكذب
وتقول لي قولاً أظنك صادقاً فأجيء مِنْ طمع إليك وأذهب
فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالوا : مسيلمةٌ ، وهذا أشعبُ

مع ما ذكرنا من شعر أبي العيناء في هذا الفصل وفي فصول متفرقة في الكتاب ومنه مقطوعات في فصل عماه ، فإننا نجد ياقوتاً رحمه الله يقول في كتابه معجم البلدان : ان أبا العيناء قليل الشعر جداً لم يصح عندي له شيء من الشعر البتّة [3] .

هذا مع أنه أورد له تسع قطع شعرية في ترجمته من معجم الأدباء فإما أن تكون العبارة مقحمة أو يكون ياقوت كتبها قبل أن يصل علمه إلى القطع التي أوردها مع أن عدداً من المؤلفين نظموا أبا العيناء في سلك الشعراء ، ومنهم المرزباني صاحب المعجم كما تقدم ، ومنهم معاصر أبي العيناء وهو ابن المعتز حيث أورد أخباره في كتابه طبقات الشعراء ، وأنشد من شعره بيتين نقلناهما

---

(١) الديارات ص ٥٥ .
(٢) نثر النظم ص ٣٦ .
(٣) معجم البلدان : رسم دير باشهرا ج ٢ ص ٤٩٩ .

في هذا الفصل إضافة إلى المراجع العديدة التي ذكرت شعر أبي العيناء أو التي وصفته بأنه شاعر .

بل ان بعضهم أورد له شعراً قاله على البديهة ودون تروٍّ أو إعمال فكر وذلك ما لا يتأتى لكثير من الشعراء المكثرين فضلاً عن غيرهم وذلك في بيتين أوردناهما مع قصتهما في فصل (بديهيته) .

أما وصفه بأنه شاعرٌ أوَّانٌ له شعراً أوْ أشعاراً أو نسبة شعر إليه فهذا فيه عدة نصوص إلى جانب ما صرح به ابن النديم من أن شعره جمع فبلغ ثلاثين ورقة وابن النديم أعلم بحال شعر أبي العيناء لقربه من زمانه نسبياً من ياقوت الذي هو أبعد زمناً عنه .

ومن الذين وصفوه على سبيل الاجمال بالشعر الحافظ ابن حجر إذ قال : له أخبار حسان واشعار [1] .

وقال الامام الدارقطني : كان أبو العيناء حسن الشعر ، جيد العارضة ، مليح الكتابة والترسل ، خبيث اللسان ، كثير التعريض بذم [2] .

ووصف أبو بكر الزبيدي أبا العيناء بأنه كان أديباً ظريفاً شاعراً [3] وقال الشابشتي : كان حسن الشعر[4] وهذا إثبات لكونه شاعراً بطبيعة الحال .

وقال اليافعي : أبو العيناء صاحب النوادر والشعر والأدب ... له أخبار حسان ، وأشعار ملاح [5] .

---

(١) لسان الميزان ج ٥ ص ٣٤٥ .
(٢) لسان الميزان ج ٥ ص ٣٤٦ .
(٣) طبقات النحويين واللغويين ص ١٨٧ .
(٤) الديارات ص ٥٣ و ص ٦٠ .
(٥) مرآة الجنان ج ٢ ص ١٩٦ .

مَعَ ٱلقُرَّاءِ.. فِي أَسْئِلَتِهِمْ وَتَعْلِيقَاتِهِمْ

مَدِينَة حَايِل

... كنتم زرتم مدينة حائل منذ بضع سنوات ، وقد علمت أنكم تؤلفون عنها كتاباً . وحيث أنني أعنَى بدراسة الناحية الجغرافية عن تلك الجهة فهل تتفضلون بمساعدتي بما قد أستفيد به في الموضوع ، وخاصةً ما كتبتم عنها ، إن كنتم نشرتم شيئاً من ذلك .

جامعة الرياض : سعد اليحيى

العرب : قام رئيس التحرير بتأليف معجم شامل عن (شمال المملكة : إمارات حايل والجوف وتبوك وعَرْعَر والقُرَيَّات ، وهو أحد أجزاء « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » وقد صدر القسم الأول منه في ٤٨٠ صفحة يحوي من حرف الألف إلى نهاية حرف الحاء ، وبقية الأقسام تحت الطبع .

وهذا الكتاب لا يقتصر على وصف المدن والقرى في تلك النواحي بل يشمل مختلف المواضع من جبال وأودية ومياه ، ومواقع أثرية قديمة .

أما عن مدينة حائل فإلى السائل الكريم نص ما جاء في ذلك الكتاب عنها .

حائل – بفتح الحاءِ المهملة بعدها ألف فهمزة مكسورة تقلب ياءً فلام – : الحائل لغة : الناقة لم تحمل عامها ذاك ، ورجل حائل اللون : إذا كان أسود متغيراً – والعامة يسهلون الهمزة في كلمة (حائل) فيبدلونها ياءً ، كعادتهم في مثل هذا الاسم .

في كتب المتقدمين يطلق اسم حائل على موضعين ، أحدهما وادي أو موضع في بلاد طيء ، والثاني رمل وأرض جنوب الوشم بقرب المُروت ، على طريق حاج اليمامة قديماً ومما ينبغي أن يلاحظ أن اسم حائل حينما يرد في

شعر قُشَير أو جَعْدة أو عُقَيل أو غيرهم من بني عامر فإن المقصود به في الغالب الموضع الواقع قرب الـمَرُّوْت ، وقد ورد هذا كثيراً ، وقد وقع الخلط من كثير من الباحثين قديماً وحديثاً بين الموضعين ولا يعنينا في بحثنا الآن إلا الموضع الذي في بلاد طيء .

وتكاد تجمع أقوال المتقدمين على أن اسم حائل كان يطلق على وادٍ ، ويحسن أن نورد جملاً من أقوالهم : —

قال الهجري [1] : (حائل وادٍ يفلق بين الرمل وأجا ، ليس ثَمّ وادٍ غيره ، يَصُبُّ في الـحَزَن) . انتهى .

وقال البكري : (وحائل أيضاً موضع آخر بجبلي طيء . وقال أبو سعيد الضرير : حائل : بطن وادٍ بالقرب من أجا ، وهذا هو الذي أراد امرؤ القيس بقوله :

تَصَيَّفَهَا حتى إذا لم يَسُغْ لَهَا ... حَلِيٌّ بأعْلَى حَائِلٍ وقَصِيصِ

ويدل على ذلك قوله :

تَبِيْتُ لَبُوْنِيْ بِالْقُرَيَّةِ أُمَّنَـا ... وأَسْرَحُهَا غِباً بِأَكْنَافِ حَائِلِ

والقُرَيَّةُ : بجبلي طَيِّءٍ معروفة .

ويشهد لك أن حائلاً هذا قريب الروحاءِ قول حسان — أنشده ابن إسحاق — :

بَيْنَ السَّرَادِيْـحِ ، فَأُدْمَانَـةٍ ... فَمَدْفَعِ الرَّوْحَاءِ من حَائِلِ [2]

وفي « معجم البلدان » : حائِلُ قال ابن الكلبي : وادٍ في جبلي طَيِّءٍ قال امرؤ القيس :

---

(١) « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » ص ٢٨٥ .

(٢) « معجم ما استعجم » ولقد أبعد النجعة فأين الروحاء من حايل التي ذكر ، وإذا صحت كلمة (حايل) في شعر حسان فهو موضع ثالث وهو في الحجاز بقرب المدينة المنورة .

أبت أجأ . . . .

ودخل بَدَوِيٌّ إلى الحضر فاشتاق إلى بلاده فقال :

لَعَمْرِي لَنَوْرُ الأُقْحُوَانِ بحائلٍ ونَوْرُ الخُزَامَى ، في أَلاءٍ وعَرْفَجِ
أَحَبُّ إلينا ـ يا حُمَيْدَ بْنَ مالِكٍ
مِنَ الوَرْدِ والخِيْرِي ، ودُهْنِ البَنَفْسَجِ
وَأَكْلُ يرابيعٍ وضَبٌّ وأَرْنَبٌ أَحَبُّ إلينا من سُمانى وتَدْرُجِ
وَنَصُّ القِلاصِ الصُّهْبِ تَدْمِي أُنوفُها
يَجُبْنَ بِنَا مَا بَيْنَ قَوٍّ ومَنْعِجِ
أَحَبُّ إلينا مِنْ سَفِينٍ بِدِجْلَةٍ
وَدَرْبٍ مَتَى مَا يُظْلِمِ اللَّيْلُ يُرْتَجِ

وقال جابرُ (بنُ حُنَيٍّ التغلبي) :

ولَقَدْ أَرَانَا ـ يا سُمَيَّ ـ بِحَائِلٍ نَرْعَى القُرَيَّ فَكَامِساً فالأَصْفَرَا
فالجِزْعَ بَيْنَ ضُبَاعَةٍ فَرُصَافَةٍ فَعَوَارِضٍ ، حُوَّ البَسَابِسِ مُقْفِرا
لا أَرْضَ أَكْثَرَ مِنْكِ بَيْضَ نَعَامَةٍ
وَمَذَانِباً تَنْدَي ورَوْضاً أَخْضَرَا

وفي « المشترك وضعاً » لياقوت أيضاً : حائلُ : موضعان :

الأول : موضع بأرض اليمامة لبني قُشَيْر . وقال الحفصي : لبني نُمَيْرٍ وبني حِمّانَ .

الثاني : حائل : ماءٌ في بَطْنِ النَّمَرُّوتِ مِنْ أَرْضِ بَنِي يَرْبُوع .

الثالث : حائِلُ : وادٍ في جَبَلْ طَيِّءٍ ، قال امرؤ القيس :

تَبِيتُ لَبُونِي بِالقُرَيَّةِ أُمَّنا وَأَسْرَحُها غِبّاً بِأَكْنَافِ حَائِلِ

وقول ياقوت : إن الاسم يطلق على موضعين ، ثم ذِكره موضعاً ثالثاً غيرُ مستقيم . فموضع بني قُشير ومن معهم هو الذي في بطن النَّمَرُّوت .

وإذن فهما موضعان لا ثلاثة .

وياقوت – رحمه الله – في كتابه « المشترك » عندما يجد للمتقدمين أقوالاً في تحديد الموضع الواحد قد يظن أن كل قول يُقْصَدُ به موضعٌ منفصل عن غيره ووقع هذا كثيراً في هذا الكتاب .

هذا مجمل كلام المتقدمين عن حايل الوادي – فلنحاول تحديده على ضوءِ ما ذكروا . يُدْعى أعلى وادي حائل الآن الأدَيْرِع (وانظر هذا الاسم) وتمتد فُروعُهُ من جبل حَضَنٍ الواقع جنوب أجا ، ثم تجتمع فيه جميع سيول أجا التي تنحدر إلى الشرق ، وترفده أودية صغيرة تأتي من الجنوب ، وتجتمع كلها على مقربة من مدينة حائل شرقها ، ثم يتجه الوادي نحو الشمال الشرقيّ ، حتى تَكُبُّ به رمالُ النفود ، فتصرفه نحو الجنوب الشرقي ، حيث تلتقي معه سيول شرقيّ جبل سَلْمَى وما دونها من أودية ، وبعد اجتماعها تفيض على مقربة من بَقْعَاءَ حيث تحجزُهَا الرمال . وقول الهجري بأن هذا الوادي يَفْلِقُ بين الرمل وأجا لَيْسَ ثَمَّ وادٍ غيره يصبُّ في الحَزْن ، وهو يقصد حَزْنَ بني يربوع قد يكون هذا قبل تراكم الرمال الحاجزة بينه وبين الحزن ، ووجود مناهل في أحناءِ تلك الرمال وأرض جلد يُؤيِّد رأي الهجري .

وذكر ياقوت أن سيل حائل ينتهي إلى قاعٍ يسمى قُرَاقِر (انظر هذا الاسم) تسيل إليه أودية ما بين الجبلين ، في حَقِّ أسَدٍ وَطَيِّءٍ . ويظهر أن كلمة قراقر يقصد بها في الأصل القاع الذي تجتمع فيه السيول ثم أطلقت اسماً لمواضع متعددة (يقع وادي حايل من أعلى فروعه إلى حيث ينتهي قرب بقعاءَ بين خَطَّي الطول ٠٠َ – ٤١° و ٤٠َ – ٤٢° وخَطَّي العرض ٠٠َ – ٢٧° و ٠٠َ – ٢٨°) .

هذا عن حائلِ الوادي ، فماذا عن حائلِ البلدة ؟ ! لم يطلق اسم حائل على البلدة – فيما أعلم – إلا في عصر متأخر ، وكانت الشهرة إلى ما قبل قرنين من الزمن لبلدة قَفَار ، الواقعة جنوب قرية حائل التي كانت قرية

صغيرة شرق موقع المدينة الآن ، في مضيق من الوادي يدعى الْخَنَقَةَ ، بين سلسلة منفصلة من هضاب أجإ يفصلها الوادي ، فتسمى السَّمْراوين – مثنى سَمْرَاءَ – ممتدة على الخَنَقَةِ في موضع يدعى السافلة إلى حيث يتّسع الوادي عند نخيل الرِّبيْعيّة ، ولا تزال آثار البناء بارزة ، ويقول أهل بلدة حائل : إن البلدة القديمة كانت معمورة إلى عهد غير بعيد ، حيث كانت مَقَرَّ آل عليٍّ حُكّام حائل الذين انتزع الحكم منهم آل رَشيد في منتصف القرن الثالث عشر .

وآثار سُور البلدة بارزة ، وقد شاهدتّها .

ويقول موزل ما تعريبه [1] : (اسم حائل كان يطلق على وادٍ في الأصل ، وكانت البلدة تسمى القَرْيَة ، ولتمييزها عما يسمى بهذا الاسم قيل قَرْيَة حائلٍ ، ثم أسقط منها الاسم المضاف ، فقيل : حائل ويورد قول امرىء القيس عن إقامته في القَرْيَةِ في حائل في مراعي بني ثعل .

ويغلط موزل حين يورد ما ذكر الأصفهاني في « الأغاني » [2] ونصه : أن ابن الطّثْرِيّةِ وابن بَوْزل خرَجَا بسيرانٍ حتى نزلا برَمْلَةِ حائل بين قفار الملح – ثم أورد من شعر ابن الطّثْرِيّةِ قوله :

بِأسْفَلِ خَلٍّ الْمِلْحِ إذْ دَيْنُ ذِي الْهَوَى
مُؤَدًّى ، وإذْ خَيْرُ الْوِصَالِ أوَائِلُـــــهُ

ثم يعقب عليه : ينبغي أن يكون هذا الموضع هو واحة قفار الواقعة على بعد ١٢ كيلاً من حايل . وهذا خطا ، فما ذكر الأصفهاني ينطبق على حائل التي بقرب الْمَرُّوتِ جنوب نجد ، بقرب منازل ابن الطّثْرِيّةِ وقومه .

ويورد موزل ما ذكر ابن جرير في تاريخه [1] من أن أحَدَ طَيِّءٍ نصح

---

(١) « شمال نجد » حاشية ص ٨٣ الأصل الإنجليزي .

(٢) ص ٧ – ١٠٨ طبعة الساسي .

(٣) ص ٢ – ٢٠٤ ط أوروبا .

الحُسين بنَ علي – حين خرج على يزيد – بأن يَسير معه حتى يبلغ مَنَاع ، حيث امتنعت طيءٌ من ملوك غَسّان وحِمْيَرَ ومن النعمان بن المنذر ، ثم ينزل الْقريّةَ – وسيأتي الخبر بطوله في الكلام على (مَنَاع) ويعلق على هذا بما تعريبه [٢] : إنها لحقيقة ممتعة أن يكون ملوك الغسانيين قد أغاروا على بلاد قبيلة طَيِّءٍ كما كان يفعل زعماءُ قبيلة الرُّوَلَةِ الحديثة التي تنزل منازل الغسانيين القديمة ، وهم يحاولون الاستيلاء على أجزاء من تلك البلاد .

ولقد حاول ملوك الحيرة السيطرة على طريق النقل الممتدة من الْحِيْرَة إلى وسط الجزيرة فشنوا الغارات على الجماعات العنيدة من قبيلة طَيِّءٍ .

ولم يتمكن الغسانيون ولا ملوك الحيرة من محاصرة القرية التي كانت حسبما نعتقد مسورة ، إذ كان من الصعب عليهم نقل المواد اللازمة لمحاصرة منطقة تبعد كثيراً عن موطنهم . انتهى كلام موزل .

أما متى أُطلق اسم حائل على القرية فليس لديَّ من النصوص ما يُحَدِّدُ ذلك الزمن ، غير أنه كان معروفاً في أول القرن الثاني عشر الهجري .

ومما هو معروف عند سكان هذه الجهات أن بلدة قفار كانت أقوى من حائل ، وأكثر سكاناً .

ولم أر لبلدة حايل منذ القرن الحادي عشر فما قبله ذِكْراً فيما اطلعت عليه من أخبار هذه الجهات ، وقد قام أمراءُ مكة بغزوات إليها فلم يذكر مؤرخو تلك الغزوات حائلاً ، وإنما ذكروا (شَمّرَ) ظناً منهم أنه اسم موضع كما في « سمط النجوم العوالي » للعصامي [١] فقد ذكر أن شريف مكة خرج غازياً في سنة ٩٦٣ (نحو شمر ، وهربوا إلى رؤوس الجبال فقصد منازلهم وخرب شمر المذكور لأنه من أمنع مواطنهم) وذكر أنه غزا جبل شَمّر وأوقع ببني لام سنة ٩٦٤ . وذكر أن في شعبان سنة ١٠٨٠ (ثمانين

---

(١) « شمال نجد » هامش ص ٨٣ الأصل الإنجليزي .
(٢) ٤ – ٣٦٥ – ٣٦٦ – ٣٧٥ – ٤٠٦ .

وألف) حدثت وقعة قفار بين السيد حمود من قواد أمير مكة الشريف سعد بن زيد وبين عنزة [1] .

وقد زار بلدة حايل كثير من الرحالين ، من مستشرقين وغيرهم ، بعد أن أصبحت قاعدة للإمارة . ومرت بها حقبة من الزمن كانت قاعدة للحكم في نجد ، منذ أن تضعضع حكم آل سعود بعد وفاة الإمام فيصل والاختلاف بين أبنائه ، حيث استولى آل رشيد على البلاد كلها ، حتى استولى الملك عبد العزيز — رحمه الله — على مدينة الرياض — سنة ١٣١٩ — فانحصرت إمارة آل رشيد في الشمال ، وما زالت تتقلص حتى استولى الملك عبد العزيز على حائل في شهر صفر أول عام ١٣٤٠ هـ وها هي بعض أقوال بعض من زاروا بلدة حائل .

زارها السيد عباس المكي الحسني الموسوي في سادس المحرم سنة ١١٣١ هـ فقال [2] : (فأتينا على جبل شَمَّر ، والكل منّا لذيل الانشراح قد شمّر ، وهناك قرية تسمى (حائل) ضرب الأنس بينها وبين الهموم بحائل ، ذات نخيل وأشجار ، وعيون وآبار ، وطيور وأزهار ، وبساتين واسعة وثمار ، وكأنها روضة من رياض الجنان ، فيها من كل فاكهة زوجان ، وأهلها عرب كرام ، شمل كرمهم الخاص والعام ، لم تلق فيهم غير شجاع عظيم ، وجواد كريم ، وبها كُلُّ غادةٍ أُمْلُوْدٍ ، تفتك بلباتها الأسود ، هيفاءُ رعبوبة رداح ، محياها يضيءُ كالمصباح ، كاملة الحسن والأوصاف قد جمعت بين الجمال والعفاف :

مِنْ كُلِّ غَيْدَاءَ ، إِذَا أَسْفَرَتْ ... جَلاَ مُحَيَّاهَا سُجُوفَ الدُّجُوْن

وَالْمُقْلَةُ الكَحْلاَءُ مهمَا رَنَتْ ... أَثَارَتِ الْحَرْبَ بِكَسْرِ الْجُفُوْن

وزار والان الفنلندي بلدة حائل سنة ١٨٤٥ م (١٢٦٢ هـ) فقال عنها [3] :

(١) « سمط النجوم العوالي » للعصامي ٤ — ٥١٢ .

(٢) « نزهة الجليس » جـ ١ — ٩٢ — الطبعة الثانية .

(٣) صور من شمالي جزيرة العرب ٢٠٢٥ ١٢٧ .

وتقوم حائل في وادٍ مسطح ومنخفض ، يمتد تقريباً من الشرق إلى الغرب في سفح جبل (سمرا حايل) وفي طرفه الشرقي نبعٌ وحيد ماؤه فاتر ، ضارب إلى الملوحة ، ويبدو أنَّ الأكواخ الطينية الأولى بُنيت حوله . وهناك آثار مهدمة أحدث منها عهداً أما اليوم فالبِئر مهجورة ، بعد أن انتقل السكان تدريجياً إلى محلة أعلى باتجاه الغرب ، حيث سهل البطين الفسيح ، الذي تكثر فيه الجداول الداخلية ... وَأهَمُّ شيء يجب أن يفكر به المواطنُ الجديد بادىءَ ذِي بدءِ هو تأمين ماءِ الرَّيِّ ، وحالَ اكتشافه الماءَ يحفر بئراً وسرعان ما تنمو حوله بساتينُ النخل والأشجار المثمرة الأخرى ، ثم تُبْنَى في وسط البساتين منازل من المواد المستعملة في الصحراء ، كاللبن وقطعة أصغر حجماً من الآجُرِّ الذي يصنعه السوريون ، ومن جذوع شجر النخل أو الأثل تعمل الأبواب ؛ وحافة السقف ، وهو دائماً مسطح ، وأكثر البيوت من طبقتين غرفهما قليلة ، ولكنها فسيحة ومريحة ، ولا يدخلها النور إلا من الباب ، ومن كُوَّاتٍ صغيرة في الجدران تحت السقف مباشرة ، وفي كل بيت دون استثناء مَقْهَى منفصل عن المبنى ، ويواجه البستان أو هو في وسطه لاستقبال الضيوف ، وفيه تجتمع الرجال لتبادل الأحاديث وللنظر في الأعمال ، ويحيط بأرض كل بيت سور ، غير أن مساحة القرية الفسيحة تجعل إحاطة الأرض بالأسوار أمراً مستحيلاً على أكثر السكان ، ولا يمتاز مَقَرُّ ابنِ رَشيد عن سواه بسوى أنه أكبر حجماً وأوسع أرضاً ليؤوى عائلته الكبيرة ، وأتباعه وضيوفه الكثيرين طوال السنة ، فكل غريب يأتي إلى حائل وليس له فيها أنسباء أو أصدقاء يحل ضيفاً في قصره ، واثقاً بأنه يُستقبل ويستضاف طوال المدة التي يريدها ، وينيخ المسافرون جمالهم في ساحة فسيحة تسمى مَنَاخاً تحيط بها مبانٍ صغيرة وغرف هي زرائب تشبه بعض الشبه الخانات الفارسية ، وينام الغرباءُ فيها وفي المقهى والجامع ، والضيوف الأقل شأناً يفترشون أرض الساحة قرب جمالهم .

وتلتصق بجدران المباني المحيطة بالساحة أرائك ومقاعد من الطين ، وبين تلك الجدران يعقد الرئيس محكمته مرتين في اليوم ، مرة صباحاً والأخرى بعد الظهر .

وفي القرية ساحات كثيرة مكشوفة ، وأسواق تباع فيها اللحوم والخضار والمؤن على عكس ما هو في الجوف والقرى الشمالية ، حيث يُعقَدُ عرض الأغذية للبيع في الساحات العامة عملاً شائناً . والأسواق في حائل عَريضة مُريحة ، مع أنها غير معبدة ، وفي السُّوق الرئيسية المسماة لُبْدَة عدد من الحوانيت المكشوفة ، أصحابها تجار متجولون ، يأتون من العراق والمدينة والقصيم وفي حائل اليوم ٢١٠ من منازل و ٢١٠ عائلات ، وإذا استمر اتساع البلدة اتصلت قريباً بقرية صغيرة اسمها الوُسَيْطَا يسكنها عشر عائلات ، وتبعد عن حائل ثلاثة أرباع الساعة في السهل الأقرب إلى سفح أجا) . انتهى كلام والان .

وزارها بلجريف (وليم جيفرد) سنة ١٨٦٢ م (١٢٧٩ هـ) في عهد الأمير طلال بن رَشِيد ، فذكر [١] أنه قابل الأمير بواسطة زامل أمين الخزينة ، فأدخله من باب سِرّيٍّ — عند الفجر — إلى غرفة يقوم بحراستها عبيد سود — ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون ، لا تصل أصواتهم المتكلمين — ثم ذكر أن عُبَيْداً عَمّ طلال — وقد وصفه بالمكر كتب معه كتاباً إلى الأمير عبد الله الفيصل ، وذكر أن عُبَيْداً سار غازياً من حايل ، وأن طلالاً حين سار عمه شعر بالحرية ، فدعا بلجريف لمقابلته في ٦ أيلول (سبتمبر) ، فحضر إلى غرفة زامل — بعد الظهر — وقد أقيم على الباب حارسٌ لإبعاد الزوار ، ثم أقبل طلال يخفره حارسان مسلحان ، تركهما في الفناء ، كان عاديَّ الثياب ، جِديَّ النظرات ، أكثر من العادة ، ينِمُّ مُحَيّاه عن انشغالٍ شديد ، فجلس وصمت ، ولم نشأ أن نفسد صمته ، وأخيراً نظر إليَّ وقال : لا تسألني في هذه الظروف ، ولن أعطيك جواباً ، على أني أؤكِّد لك مؤازرتي ، تابع رحلتك وعندما تعود ستحقق ما تريد .

وقد زار مدينة حائل الرحالة الإيطالي [٢] كارل غوارماني ، سنة ١٨٦٤ م

---

(١) « اكتشاف جزيرة العرب » ص ٥٠ .

(٢) « اكتشاف جزيرة العرب » ٢٩٠ ٢٩٥ .

(١٢٨١ هـ) ، وكان أول ما لفت نظره عند وصوله إليها رؤية جثة يهودي عجمي ادعى الإسلام ، ولكنه أبى تأدية الشهادتين حين افتضح أمره ، وكان جاء نجداً لشراء خيل للشاه ، فقضت عليه الجماهير . ووصف الأمير طلال بن رشيد بأنه يجسد المثال الكامل في نظر البدو ، وكان يعقد مجلس القضاء أمام القصر صباحاً ، وأمام المسجد مساء ، وكان يعلن على رؤوس الأشهاد أن الأيتام والأرامل أحب إليه من أهل بيته ، وكان كرمه كرماً متطرفاً ، فقد منح شاعراً أعمى مائة ريال وثوباً ضافياً وجملاً وجواداً ، لقصيدة أنشدها ، أما قضاؤه فكان عادلاً لكنه صارم . وكانت النتيجة أمانة الطرق .

وقال ابن دخيل [1] : بلدة حائل الكائنة جنوبي أجا ، وشمال السمراء ، في مستوى من الأرض ، وهي بلدة كبيرة فيها أسواق عامرة ، وتجارة واسعة .

وسميت حائل لأنها هي الحائل أو الفارق بين سَلْمَى وأجا ، ويقول أهلها إنما سميت حائل لأنها لا تلد أميراً أجْنَبياً ، بل إنما أولياؤها منها .

ويقولون : إن عاصمة الإمارة في قديم الزمن (السافلة) وهي الآن خراب آثارها باقية ، وتبعد نحو ساعة من شرقيها .

والذي عمر هذه الإمارة [2] آل عَلِيّ الذين منهم آل رَشيد .

وقالوا : عمرت السافلة في نحو القرن السابع ونصف (؟) ، وما لبثت أن خربت ، وعمرت هذه الإمارة [3] على أثرها ، والظاهر أن هذه الإمارة سميت باسم وادٍ هناك ، يسيل سيلاً عظيماً إذا نزل المطر ، فغلب الاسم عليها كما هي العادة ، ونسي أهل البلد هذا المعنى .

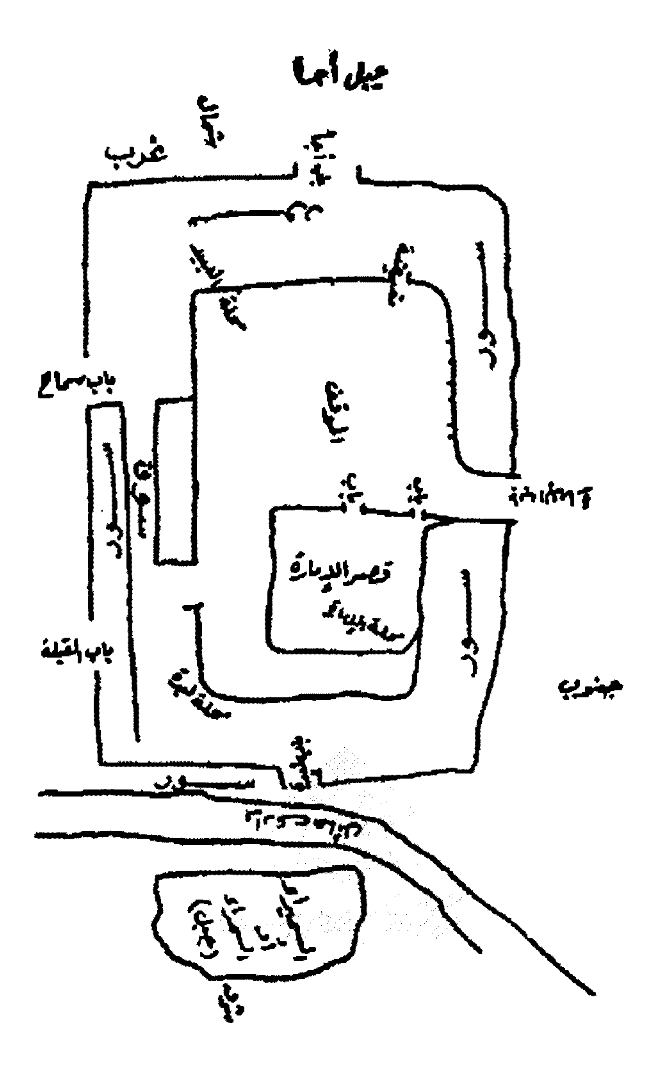
وقد جاء ذكره وعلى موضعه في « معجم البلدان » ـ ثم أورد نصوصاً من المعجم وقال : وهذا الوادي كثير الخير ، يأتي سيله من أمكنه بعيدة ، تصب فيه ، فيفيض على البلد ، ويسقى الزروع وغيرها .

---

(١) « القول السديد » مخطوط .

(٢) كذا ولعل الصواب : أنشأ هذه الإمارة .

(٣) كذا والصواب (البلدة) أي حايل .



مدينة حايل كما رسمها ابن دخيل سنة ١٣٣٠ تقريباً .

والبلدة واقعة على جالِهِ الشمالي وهو واقع بينها وبين السُّمَيْرا كما ترى في الرسم التقريبي :

وفي كلام ابن دخيل هذا أخطاءٌ صححها أحد أدباء حائل فهد العلي العُرَيْفِي بما ملخصه [1] :

---

(١) « العرب » السنة الثالثة ص ٧٦٣ .

١ ـ قوله : إن بلدة حائل جنوبي أجا وشمالي السمراء بعيد عن الصواب لأن حائلاً تقع في شرق أجا وغرب السمراء .

٢ ـ وقوله : لأنها الحائل والفارق بين سلمى وأجا . المعروف عند أهل المنطقة أن هذا الوصف يخص وادي (الأديرع) الذي يحول إذا سال بين أهل سَلْمَى وأهل أجا ، وقد نشأت حايل على سفحه الغربي فاتسعت وتوشك أن تصل إلى أجا .

٣ ـ السافلة التي ذكر أنها عاصمة الإمارة ، ينطقها أهل هذه الجهة السُّوَيْفِلة بالتصغير والمعتقد عندهم أن العاصمة قديماً كانت بلدة قَفَار وكان لها في الماضي شأنٌ كبير .

٤ ـ والقول بأن بلدة حايل على جال الوادي الشمالي . الصواب على الجال الغربي . والسميراءُ ـ في كلامه ـ صوابها السمراءُ .

وقال موزل [١] : ـ وقد زار مدينة حايل سنة ١٩١٤ (١٢٣٤ هـ) :

(كانت حايل في أوج ازدهارها في عهد محمد بن رَشيد ، تتألف من ٤٠٠٠ منزل ، تقريباً ، لكل أسرة منزل وهذه المنازل تقع في أربعة أحياءَ (حارات) حول سوق المدينة ، المعروف باسم سوق الْمَشَاهِدَة .

١ ـ كان حيُّ بَرْزَانَ يقع في الناحية الشرقية .

٢ ـ وإلى الجنوب موقع لُبْدَةَ .

٣ ـ وحَيُّ مُغَيْضَةَ يقع غرباً .

٤ ـ أما حَيُّ عَقْدَان فيقع في الشمال الغربي من السوق . ولكل من برزان ولُبْدة ومُغَيضة علم خاص وقت الحرب . وفي المدينة عدد من التجار يقرب من ثمانين أسرة ، ممن هاجروا من النَّجَف ـ في العراق ـ وأقاموا في برزان ولبدة .

---

(١) « شمال نجد » .

وفي مدينة حايل جامعان ، وفي سماح وسوق النّحاحيس مسجدان ، وفي مسجد برزان تقع مدرسة الـمـُرْشـِدِي الدينية ، وفي لُبْدَةَ مدرسة ابن مَرْعي ، وهاتان المدرستان يقوم معلموهما بتدريس العلوم الدينية .

وفي مدينة حايل صانعٌ ماهر في صنع الأسلحة (السيوف) وتحليتها بأنواع النقوش وتزيينها بمهارة يدعى محمد بن باني ، وهو من أسرة تدعي أنها من أصل (............) .

كان للأمير حرس خاص يقرب من ٤٠٠ (أربعمائة) مولى من الرقيق ، يسكن هؤلاء في منازل يحوى المنزل عشرين منهم تقريباً ، وإلى جانب هؤلاء عدد كبير من الشبان المتطوعين للخدمة ، يطلق عليهم مع الموالي (رجاجيل الشيوخ) وكانت الأخلاق العامة في حايل على أدنى مستوى .

وفي الاضطرابات التي حدثت بعد سنة ١٨٩٧ م دُمِّرَ قسم كبير من حائل ، وقطعت النخيل ، وطُمِرت الآبار ، وقد أمر الوزير زامل السبهان ببناءِ سور للبلدة من اللّبِن ، خوفاً من هجوم مفاجىء) .

وقال أيضاً : [1] (يفصل مدينة حايل طريق الحج الذي يدخل المدينة من ضاحية السُّوَيْفيلَةِ شرق شمال حائل — ثم يتجه إلى الجنوب الغربي إلى سوق العبيد ، فاصلاً المدينة إلى قسمين الحيّ الجديد في الشمال الغربي ، والحيّ القديم في الجنوب الشرقي ، وفي الحيّ الجديد يسكن ابن رشيد وخدمه) .

وقال أيضاً : (وفي سنة ١٩١٠ في عهد زامل السبهان حينما كان يتوقع الهجوم من ابن سعود ، أو الموالين له من الأسرة الرشيدية — أقيم سور من اللبن على المدينة ، له أربعة أبواب واحد إلى الجنوب ، ومنه الطريق إلى قفار ، وقصر العَشْرُوَّات ، والثاني إلى الغرب إلى وادي عُقْدَةَ والثالث إلى الشمال يقابل قرية الوَقـِيد ، والرابع إلى الشرق يؤدي إلى بَقْعا) انتهى .

---

(١) موزل : « شمال نجد » .

وتقع مدينة حايل في سفح جبل أجا من الشرق ، في سهل ذي تربة رمليّة حمراء ، ممتد بمحاذاة ذلك السفح ، يتسع جنوباً وشرقاً . بينما يقع في جهته الشمالية الشرقية جبل السمراء ، وهو أنف كان مُمتداً من جبل أجا يفصله الوادي ، وترتفع الأرض قليلاً فيما بينه وبين أجا ، وقد شمل العمران ذلك المرتفع .

ويقدر ارتفاع موقع حايل عن سطح البحر بنحو ٩٠٠ متر تقريباً .

وتطلُّ قمم أجا على المدينة ، بل يكاد الجبل أن يحتضنها ، وتشاهد بلدة قفار ذات البساتين والأشجار جنوب المدينة ، ويلبُّ بها من الشرق مجرى الوادي ، وقد بلغه العمران ، وفي أسفله النخيل الكثيرة في السويفلة ، وفي سفح السمراء .

ويشاهد من المدينة في الجنوب الشرقي جبل نوف (ينوف قديماً) ويمتد السهل شرقاً حتى مرتفعات ياطب من دون جلدية وما حوله من جبال . وجنوباً نحو ٣٠ كيلاً حيث جبال أركان والمُلَيْحة شرق بزّاخة .

(وتقع مدينة حايل بقرب خط الطول ٣٠ – ٤١° وخط العرض ٣٣ – ٢٧°) .

ويربطها بالقصيم طريق معبّد ، ويربطها بالمدينة طريق معبد أيضاً يفترق عن طريق القصيم بعد قرية الحناكية (نخل قديماً) للقادم من المدينة .

وهناك طريق يمتد منها إلى العراق ، كان الحجاج يسلكونه في عهود متأخرة ، غير الطريق المار بقرية فيد ، ولكنه لم يُعبّد بعد ، وكذا الطريق إلى الجوف – وطريق تيماء .

وبعد زوال إمارة آل رشيد باستيلاء الملك عبد العزيز – رحمه الله على قاعدة تلك الإمارة ، بدأها الانتعاش ، ولكن بصورة بطيئة ، فقد أنهكت أهلها الحروب ، وانقطعت السبل فأصيبت البلدة بالضعف مما اضطر كثيراً من أهلها إلى مغادرتها ولكنها ما زالت تنتعش كغيرها من مدن المملكة ،

وشملتها مظاهر العمران ، فحفرت بقربها الآبار (الارتوازية) وفتحت فيها مدارس . وأنشيء مستشفى ، وأصبحت قاعدة لشمال نجد ، من القصيم شمالاً حتى حدود المملكة شرقاً وشمالاً ، وحتى غرب حرة خيبر بقرب المدينة غرباً .

وفي (عام ١٣٨٧) كان في حايل ثماني مدارس إبتدائية ، مجموع طلابها ٢٥٦٧ — ومدرستان متوسطتان تلاميذهما ٣٧٦ ومعهد للمعلمين طلابه ١٩٩ — ومدرسة ثانوية طلابها ٤١ (مجموع الطلاب : ٣١٨٣) .

وقُدر عدد سكان المدينة بـ ٢٠١٢١ نسمة .

ثم منذ خمس سنوات تغيّرت المدينة تغيُّراً مفاجئاً فقويت حركة العمران ، واتسعت المدينة وكثر سكانها .

تاريخ نجد للقاضي

ورد في البحث المنشور عن (مؤرخي نجد) في المجلد الخامس من مجلة « العرب » — ص ٨٩٢ ذكر الشاعر ابراهيم بن محمد القاضي أنّ له تاريخاً نقل عنه الشيخ مقبل بن عبد العزيز الذكير في تاريخه ، وقال عنه : (استخلصنا منه جزءاً قليلاً من حوادث البادية) .

وأنه كان موجوداً إلى سنة ١٣٤١ .

وقد علمت من حفيده الاستاذ إبراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد القاضي الموظف في (جامعة الرياض) :

١ — أن الشاعر ابراهيم توفي في شهر المحرم سنة ١٣٤٦ .

٢ — أن تاريخه محفوظ لدى أحفاده في الرياض وشكراً للأخ الأستاذ ابراهيم القاضي . ورحم الله جده المؤرخ الشاعر .



آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب

الدكتور محمد بن أحمد الضبيب ، الأستاذ المشارك في كلية الآداب في جامعة الرياض ، من خيرة الشباب المعنيين بدراسة التراث ، ومما صدر له من المؤلفات كتاب « آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب » وهو سجل بجميع ما كتبه الشيخ — رحمه الله — بأسلوب حديث ، وأوفى مرجع عما نشر عن مؤلفاته مع ملخص لترجمته .

ويقع هذا الكتاب في نحو مئتي صفحة في طباعة أنيقة (المطابع الأهلية للأوفست في الرياض) وقد صدر هذا العام (١٣٩٧ / ١٩٧٧ م) .

البترول والمستقبل العربي

المؤلفات عن النفط لا تحصى كثرة ولكنّ الباحثين من أبناء بلادنا في هذه المادة التي ترتكز عليها حياتنا قليلون ، ومنهم الأستاذ عبد العزيز مؤمنة المعروف باتجاهه في أبحاثه وكتاباته تلك الوجهة ، وآخر ما اطلعت عليه من تلك الأبحاث كتاب « البترول والمستقبل العربي » وقد جاء في كلمة إهدائه لابنه : (ولما كنّا أمام مفترق طريق تاريخي ومصيري فإن علينا أن نستفيد من معطيات الحاظر وهي عظيمة ، من أجل النهضة الشاملة التي تحقق الحياة الحرة الكريمة للجيل الذي سيواجه غروب شمس البترول) ويقع الكتاب في أربعة عشر فصلاً هي :

١ — دراسة وتحليل لمشكلات تزايد الدخل البترولي .

٢ — الشركات والدول التابعة لها هي المستفيد الأكبر من أموال البترول .

٣ – كيف نتمكن من خلق ارتباط منتظم بين القطاع البترولي وبين بقية القطاعات الاقتصادية الأخرى .

٤ – الأبعاد الجديدة للصراع بين الدول المنتجة والدول المستهلكة .

٥ – دراسة وتحليل للتفاعلات القائمة حول أسعار البترول .

٦ – مخطط كيسنجر للطاقة يهدف إلى استمرار السيطرة الأمريكية على موارد البترول .

٧ – استعادة الملكية البترولية بين المد والجزر .

٨ – كيف نواجه الموقف البترولي الجديد بعد الدعوة إلى خفض الاستهلاك والأسعار في الدول الصناعية ؟!

٩ – المعطيات السياسية والاقتصادية لسنة ١٩٧٤ .

١٠ – نظرة شاملة حول الانتاج البترولي واحتياطه .

١١ – اتجاهات التجارة الخارجية لعدد مختار من الدول العربية .

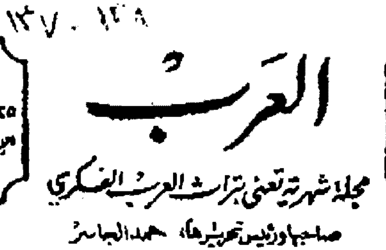
١٢ – بحث في الفعاليات الأساسية لعملية التنمية .

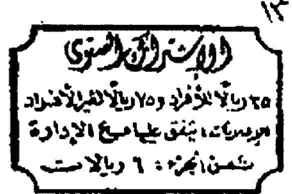
١٣ – الحماية المتوجبة لأسعار البترول وعائداته ضد التضخم .

١٤ – حقائق وأرقام عن الأهمية الاقتصادية للبترول العربي .

ثم المراجع وهي ٢٩ بين كتاب وتقرير باللغتين العربية والانجليزية . ولعل المؤلف لم يبالغ حين وصف هذا الكتاب بأنه (زاد للفكر الواعي الجاد في أخطر قضية واجهت العرب وهي قضية البترول) ويقع الكتاب في ٢٨٠ صفحة ، في طباعة جيدة ، وتاريخ الطبع (محرم ١٣٩٦ يناير ١٩٧٦) في بيروت .

العنوان
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل - هاتف ٢٢٩١٥
الرياض - المملكة العربية السعودية





ج٥و٦ س١٢ ذوا القعدة والحجة ١٣٩٧ — تشرين٢ ك١ (نوفمبر/ديسمبر ١٩٧٧

كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب

توسع المتقدمون من العلماء في علم الجغرافية ، فلم يكتفوا بما ألفوه عن هـــذا العلم بهـذا الاسم [1] ، ولا بمـــا أطلقوا عليه « تقويم البلدان » أو ماسموه علم « الممالك والمسالك » أو «مساالك الممالك » بل أفردوا قسما منه خاصا بوصف طرق الحج ، ودعوه كتب « المنازل » أو « منازل الحجاز » أو « منازل الحج » ضمنوه في أول الأمر كتب « المناسك » المؤلفات التي خصصت لبيان أحكام الحج ووصف أعماله ، ثم أفردوه فى مؤلفات خاصة ، تنفرد بها بلادنا .

كما تختص هذه البلاد بكثرة كتب الرحلات للحج التي لاتقف عند وصف المراضع وتحديد المسافات بينها بل تشمل وصف جميع جوانب الحياة في هذه البـــلاد على اختلاف هذه الجوانب .

وقد أفردت لدراسة تلك الرحلات مؤلفا دعوته « في رحاب الحرمين» ومنذ نحو عشر سنوات (شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٨) ومجلة « العرب» تنشر بحوثاً عن تلك الرحلات ، بدأتها بالحديث عن رحلة ابن رشيد الفهرى

(*) من أبحاث (الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة) ألقي يوم الثلاثاء ٧-٥-١٣٩٧

(١) الجغرافية — بالعجام الغين واهمالها .

الأندلسي (٦٥٧ - ٧٢١) الذي حج سنة ٦٨٤[1] ه إلى شهر ربيع هـذا العام (١٣٩٧) حيث نشرت ملخص رحلة البلوي الأندلسي الذي حج سنة ٧٣٧ا تحدثت عنها المجلة من حيث الزمن ، أما آخر رحلة نشرت فهي رحلة ابن عبد السلام الدرعي المغربي المتوفى سنة ١٢٣٩ - الذي حج سنتي ١١٩٦ و ١٢١١ ه وألف رحلتين كبرى من أمتع الرحلات وأوسعها وأشملها فائدة وصغرى موجزة جـدا . وقد نشرت « العرب » مايتعلق ببلادنا منهما ولا تزال توالي نشر ملخص الرحلات .

أما الكتب التي خصصت لوصف المنازل - موضوع الحديث - فإنها على قلتها قد تحفظ لنا بعض النصوص المهمة من مؤلفات قيمة أصبحنا لانعرف عنها شيئاً . ولعل من أهم ما نشير إليه من المؤلفات كتاب العذري الأندلسي الذي كان من مصادر الشريف الإدريسي صاحب « نزهة المشتاق » في اختراق الآفاق » والبكري مؤلف « المسالك والممالك » » و « معجم ما استعجم » وغيرهما من العلماء .

وقبل الحديث عن العذري تحسن الإشارة إلي أن جانباً كبيراً من روافد الثقافة العربية أتى إلينا عن طريق علماء المغرب عامة ، وعلماء الأندلس خاصة ، فلولا هؤلاء لفقدنا جانباً عظيما أصيلا من أسس مقومات الثقافة العربية . وليس من المغالاة القول بأننا بواسطة أولئك العلماء عرفنا الكثير مما لم نعرفه عن طريق غيرهم من العلماء المشارقة ، عن تاريخ بلادنا وعن حياة أهلها ، وعن علماء منها ، حفظوا لنا تراثهم ، بعد أن نقلوا مؤلفاتهم إلى الأندلس واستفادوا منها ، وضمنوها مؤلفاتهم كالهجري والهمداني أعظم عالمين عرفا في الجزيرة ، ودونا كل جوانب المعرفة في عصرهما عنها .

ولئن كان واجب الاعتراف بالفضل لذويه يقضي علينا بأن نستمطر من الله سحب الرحمة والغفران على أجداث أولئك العلماء في ثرى قرطبة

(١) وقع تطبيع (خطأ مطبعي) في المجلة س ٣ ص ٦٤٦ حيث جاء ٧٨٤ مكرراً والصواب ٦٨٤ .

وأشبيلية ومجريط وسرقسطة وطليطلة وغيرها من الحواضر في جميع أنحاء الفردوس المفقود ، فانه يحتم علينا توجيهها تحية من الأعماق إلي حفدة أولئك العلماء وورثة علمهم في المغرب العربي في مختلف أرجائه ، من حفظه ذلك التراث ونقلته ، الذين حملوه وتوارثوه وتَمَوَّه حتى أوصلوه إلينا ممثلا في مؤلفاتهم التي لا تقف عند حد الرحلات التي بزوا بها غيرهم من علماء المشارقة ، بل يشمل جميع أنواع العلوم .

العذري الأندلسي :

ومن علماء الأندلس الذين عنوا بالأبحاث الجغرافية حتى برزوا فيها وتفوقوا أحمد بن عمر بن أنس العذري ، من قبيلة عذرة القضاعية التي كانت تحل عند ظهور الإسلام سواحل الحجاز الشمالية ، فيما بين الوجه وحقل ، وما قرب منهما ،

قدم جده الثامن . . واسمه زغبة بن قطبة العذري الأندلس فاستقر بها وكان له صيت وذكر ، وكذا حفيده عمران بن منيب بن زغبة ، أما أحمد بن عمر بن أنس فقد ولد في سنة ٣٩٣ في بلدة دلاية من قري المرية ، وتلقي العلوم على مشاهير علماء عصره كابن عبد البر وابن حزم وغيرهما ثم رحل — مع أبويه — إلي المشرق في سنة ٤٠٧ فوصل إلي مكة في شهر رمضان سنة ٤٠٨ وجاور بها إلي سنة ٤١٦ . وتلقي العلم عن علمائها وغيرهم من مشاهير العلماء الوافدين عليها من مختلف الأقطار الإسلامية ، وفي « جذوة المقتبس [1] » أنه كتب وهو في مكة قطعة كبيرة من المصنفات والتواريخ وذكر ياقوت في « معجم البلدان [2] » أنه بعد رجوعه إلي الأندلس أخذ عنه مشائخه الذين كان تلقي عنهم العلم قبل رحلته إلي المشرق ، فحدث عنه أبو عمر بن عبد البر في كتاب الصحابة وغيره من تصانيفه ، وكذا أبو محمد ابن حزم كان من شيوخه فسمع منه وحدث عنه بعد عودته من المشرق ، وممن تلقي العلم عنه أبو عبدالله الحميدي ، المحدث المشهور ، وأبو عبيد البكري، صاحب كتاب « المسالك والممالك » و « معجم ما استعجم » وغيرهما .

---

(١) ص ١٢٧ . (٢) رسم (دلاية) .

ومن مؤلفات العذري : (١) كتاب « أعلام النبوة » (٢) كتاب « نظام المرجان في مسالك البلدان » وقد يطلق على هذا الكتاب أسماء أخرى منها : «البستان في غرائب البلدان » و « المسالك إلي جميع الممالك » وكان هذا الكتاب من مصادر الشريف الإدريسي الجغرافي المعروف صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وقد فقد كتاب العذري [١] سوي مقتطفات منه عن الأندلس نشرها الدكتور عبد العزيز الأهواني في مدريد سنة ١٩٦٥ م. وعثرت على مقتطفات أخرى من الكتاب تتعلق بطرق بالحج وغيره ، وهي موضوع حديثي هذا . ونقل ابن رشيد الفهرى الأندلسي في رحلته عن العذري بواسطة ابن حزم في تحديد عقبة كداء في مكة المكرمة [٢] .

وقد توفى العذرى سنة ٤٧٨ فى الأندلس .

مقتطفات من كتاب العـذري :

في مكتبة جامعة الرياض كتاب يقع في عشر ورقات مصور على شريط (ميكروفلم) عنوانه « منازل الحجاز » ولم يذكر فيه اسم مؤلفه . وانما اكتفى بالقول بأنه بخط محمد بن العطار وأثناء تصفحي للورقات العشر رأيت فيها نقولا كثيرة عن كتاب « نظام المرجان في مسالك البلدان » فيها طرافة وامتاع ، ورأيت مؤلف الكتاب يصرح بأن صاحب كتاب « نظام المرجان » كان في بدر سنة ٤١٤ وأن تاريخ كتابه كان فى أول القرن الخامس ، فأثار قوله في نفس الرغبة لقراءة كل تلك النقول وهي :

١ — ذكر المنازل من بغداد إلي مكة — من الصفحة السادسة إلي الثامنة .

٢ — ذكر منازل الحجاز من اليمن — من الصفحة التاسعة إلي الثانية عشرة.

٣ — الطريق من جدة إلي القلزم — ١٢ إلي ١٥ .

والناقل قد يختصر الكلام — كما يفهم من قوله : — في آخر ما نقل عن طريق اليمن : (ثم يسيرون إلي حضرموت وغيرها من بلاد . واقتصرنا

(١) ويقال إن منه نسخة فى المكتبة الخالدية فى القدس .

(٢) مجلة « العرب » س ٥ ص ٥٤١ .

إلي هنا عن إيراد غير ذلك فليراجع المنقول منه) ثم شرع ينقل عن ابن فضل الله العمرى في « مسالك الأبصار » . وقد يضيف زيادة في أوصاف بعض المواضع ، إن لم تكن الإضافة في أصل النسخة التي نقل عنها من كتاب « نظام المرجان » كما في وصف بلدة زبيد بأنها (شديدة الحر في وطاة ، بلدة الملك يشتى بها ويصيف في تعز ، لأنها باردة على جبل كثيرة الفواكه والماء والهواء). ومعروف أن تعز لم تعرف إلا بعد القرن الخامس . الذى هو عصر مؤلف كتاب « نظام المرجان» وتصيف الملك فيها كان في عهد الدولة الرسولية في القرن السابع وما بعده ..

ولكن مما لا شك فيه أن كثيراً من النقول لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إلى كتاب العذري ، وأما الإضافات فانها لقدم مصدرها — والكتاب من مخطوطات القرن التاسع فيما يظهر — لا تخلو من الفائدة .

لقد أعددت تلك النصوص المنسوبة إلي كتاب العذرى للنشر في مجلة « العرب » ولن أطيل بعرضها ، بل اكتفي بنماذج قصيرة منها كما وردت في الكتاب :

١ — (ذكر منازل الحجاز من اليمن : ابتدأ صاحب « نظام المرجان » من مكة وقال : منها طريقان ، طريق نجد ، وهي معتدلة الهواء قليلة الوباء ، رمل وحصا وآبار ومراعي . وحفاير قريبة ، نحو عشرين يوماً لنجران ، ثم يسيرون في المدن والقرى نحو عشرة أيام لقرى صنعاء . والأحسن طريق تهامة ، كثيرة المدن والخير ، والمخاليف والرساتيق المتصلة ، إلا أنها أكثر وباء ، وأحد هواء) . ثم شرع في وصف منازل الطريق . ونكتفي بايراد وصفه لأشهر تلك المنازل بنصه : —

(ا) (مدينة السرين : عظيمة بسوق وجامع على البحر ، بناؤها بالخشب والحشيش ، وكذا الحمامات ، والماء يسخن خارجاعنها وجامعها مبنى بالمدر ، وسورها في البحر ، ولها مرعى ، وزرعهم الذرة والسمسم ، يسقي بماء السماء . قليلة البرد ، وغلالهم قليلة ، وتجلب لها الميرة من الحبشة

وغيرها ، ولباسهم الرداء والإزار ، ومعاملتهم الدراهم المزيفة ، والبلد من عمل مكة)[1] .

(ب) : (مدينة حلي بن يعقوب[2] : لها قرى ودساكر ، ومسجد وجامع وسوق كبير ، بناؤها بالخشب والحشيش ، وماؤهم الآبار والمطر وزرعهم الذرة والشعير ، لباسهم كما تقدم)[3] .

(جـ) (مدينة ضنكان : برية جبلية ، رساتيق وقرى ، وسوق وجامع . وعندهم قرود في أسواقهم ، يحفظون (؟) حوانيتهم إذا غابوا . ولهم واد يخرج منه تبر الذهب ، لباسهم القميص والأردية) .

(د) (عثر : وهي كثيرة الخير ، ولها رساتيق ، بناؤها كما تقـــدم بها حمامات وجامع على البحر ، لباسهم إزاء ورداء ، وسوق عظيم . وزرعهم الذرة والشعير والحنطة)[4] .

٢ - (وأما الطريق من بحر القلزم إلى جدة فيسمى مراسي .

أولها : البوابة[5] تدخل السفن بين شعاب كثيرة فتخرج من مرسي جدة إلى مرسي الحور[6] ومأمون وضيق :

إلى مرسي ذهبان[7] .

إلى باحة[8] .

إلى حصـــار .

إلى بحر العطايف ، كثيرة الحجارة .

---

(١) ص ٩

(٢) ص ٩

(٣) يعني في كلامه على السرين .

(٤) ص ١٠

(٥) الكلمة غير معجمة ، ولهذا يصح أن تقرأ بعدة وجوه .

(٦) لعلها (ابحر) من المراسي القديمة .

(٧) لا يزال معروفاً .

(٨) لم يظهر لي وجه الصواب في هذا الاسم وما بعده .

إلى مرسى القصير .

إلى رابغ محرم الحجاج المصري .

إلى الحور .

ثم إلى شيران ، إلى ذي الخيام ثم إلى مدينة الجار ، ساحل المدينة المنورة ، بينها وبين بدر عشرون ميلا . بها سوق وجامع وآبار كجدة ، تخرج أهلها إذا فتحوا الباب إلى باب النبي ، يستقبلون المدينة ، ويسلمون على النبي صلى الله عليه وسلم [1] .

ثم يسيرون إلى السلحم

إلى العطـــايا .

إلى حمــــان .

إلى شرم القصر .

ثم إلى جزيزه عشقة فى وسط البحر بها صيادون .

ثم لرأس اللوق [2] ، وهي سبعة أطراف خارجة في البحر يمر بها ويدخل مرسى الحموم .

إلى خورشيران .

إلى ذي المجاز [3] .

إلى مرسى الشبعان .

---

(١) وعلق ابن العطار على كلامه على الجار قائلا :

(كذا قال ولعله كان فى زمن صاحب « نظام المرجان » أما الآن فلا وجود لهذه البلدة ، إلا أن يكون بندر الينبع أو الدهنا ، فان تاريخ كتابه فى أول القرن الخامس . قال : أنه سمع سنة ٤١٤ ببدر دويا عظيماً كالهد [؟] مراراً كثيرة فى بعض الأيام ، فسأل عنه فقيل له : إن هذا هدير الجبل الرمل الأبيض العظيم ، الذى ببدر وهو إمارة عندهم لسنة الخصبة الجيدة ، وأمان لوصول السفن لمدينة الجار ، وهو مستفاض عندهم انتهى والجار قد حققنا موضعه فى كتاب « فى شمال غرب الجزيرة » وهو مطبوع .

(٢) لا يزال معروفاً وقد رسم فى الخريطة باسم (رأس اللك) .

(٣) المجاز هذا غريب البواتة على ما حدد السيد على بن وهاس .

إلى جزيرة ابنة سحر [١] .

إلى جزيرتين حضاوضا(؟)بهما عظام الديل ، تمر السفن بينهما إلى مدينة الحوراء ، مسورة بها ثماد وآبار وجامع ، بساحل وادي القرى .

ثم تسلك بين جزيرتين تسمي الحلق .

ثم إلى جزيرة أم الملك .

إلى جزيرة شيبرة [٢] ، وتضيق الشعاب والجزائر .

إلى مضيق زنقة الزريقا .

إلى جزيرة رتعا .

إلى مرسي الوجه ، وعليه في البحر جزيرة مردونة [٣] بها حجر عظيم طريق القلزم ، يأخذون هناك من الركاب البشارة .

ثم إلى مرسي الرس في بلد جهينة [٤] .

ثم إلى مرسي زاعم [٥] .

فإن أردت أن تجوز إلى بحر النعم مرسي ريف مصر ، وإن أردت القلزم فمن زاعم إلى مدينة العويند [٦] ، مسورة صغيرة ، بها آبار وأعراب .

إلى مرسي هواز [٧] .

إلى مرسي بهور [٨] .

إلى مرسي الرحيمات .

---

(١) تسمى الآن جزيرة أم سحر (٢) تسمى الآن شيبار أمام الحنك .

(٣) جزيرة مردونة قبل الوجه – وقد تكون كلمة (وعليه) صوابها (وقبله) .

(٤) لا استبعد أن جملة (مرسى الرس) ليست فى محلها ، وهذا بعد الوجه ، والرس الذى فى بلاد جهينة أحد الجبال القريبة من رضوى – من جبال القبلية – قبل الوجه ولا شك

(٥) مرسى زاعم : لا يزال معروفاً شمال ميناء الوجه غير بعيد .

(٦) العويند : موقعها على ساحل البحر فى مفيض وادى عنتر ، أمام جزيرة العويندية شمال مرسى زاعم .

(٧) هواز شرق جزيرة العويندية وفيه مرسى هواز .

(٨) بهور يدعى بهر الآن ، ويقع شمال جزيرة النعمان وهو واد يصب فى البحر شمال مصب وادى دامة (أدى قديماً) .

إلى جزيرة النعمان [١] .

إلى مرسى ضبا مأمون : به سبع آبار عذبة . وشجر المقل ، وتمر هندى ، وبها أثر قدم انسان في الحجر ، متوسط الكعب والأصابع ، لم أجد من يخبرني عنه .

ثم إلى مرسى التحده [٢]

إلى مرسى الحر [٣] .

إلى مرسى النبك والصلا [٤] .

إلى عينونة [٥] ، ثم تلجج في البحر وتترك أيلة إلى القزم ، تمشي مع القصير تحت جزيرة ابي محمد يسارا .

وإن لججت البحر فالى جزيرة مرقان بها أثر جب وبنيان .

ثم إلى جزيرة أبي محمد ، جبل شامخ بها مرسي ، أول بحر تاران ، عظيم الموج والهيجان لا تجوز فيه إلا بريح طيبة وهدوء الماء إلى أن تبلغ مرسى بني حدان ، وهي ثلاث مراسي شرم والمرخاة وشرم البيوت .

ثم شرم البير ، بها بئر ماؤها يسهل مجالس كثيرة كما يسهل الدواء .

---

(١) جزيرة النعمان : تقع بين مصب وادى الأزلم جنوباً ومصب وادى بهر شمالا جنوب بلدة ظبـــا .

(٢) كذا ولعل الصواب الجبة بالجيم والباء الموحدة وهوما يعرف الآن باسم شرم جبة ، بين رأس معرش (كتب فى الخريطة – مراش ومهارش خطأ) وبين شرم الحر ، أى جنوب المويلح .

(٣) الحر : ويدعى شرم الحر – يقع عند طرف جبل الكبريت (طويل الكبريت) الشمالى المتصل بالبحر .

(٤) النبك هو المويلح الآن (انظر كتاب « المناسك » ص ٦٥١) .
أما الصلا ، وقد تسمى المصلى فيفهم من كلا م صاحب « درر الفوائد المنظمة » أنها الشرمة وهذه بعيدة عن النبك (المويلح) بقرب عينونة مما يدل على أن فى الكلام نقصاً ، صوابه (إلى مرسى النبك إلى الصلا) .

(٥) عينونة : لا تزال معروفة ، فى رأس خور من البحر ممتد عند مدخل خليج العقبة .

ثم إلى رأس القنديلة ، طرف خارج في البحر تقعد عنده السفن ، ينتظرون غلبة الريح الآتي من أيلة ومن القلزم ، فتأتيان متضادتين ، فما قوي منهما تبعوه ، وهنا تري العقبة) . . الخ .

٣ — ومن وصفه لبعض منازل طريق الحج العراقي : — ويلاحظ أن وصف صاحب « المناسك » لمنازل هذا الطريق هو خير وصف وصل إلينا.

(ا) (زبالة : [١] قرية عامرة عظيمة ، بها أسواق وماء كثير) .

(ب) (الثعلبية : مدينة بسور وحمامات وسوق ومسجد ، وجامع ، به ماء برك ، وهي ثلث الطريق) .

(ج) (الأجفر [٢] به عرب وخيام وآبار ، وطين أبيض غسول) .

(د) (فيد [٣] به قناة تزرع ، كثيرة الأهل ، به مسجد جامع ، نصف الطريق ، والبلد لطيء) .

(ه) (سميراء : منزل خصب ، به عرب ، وبرك وآبار) .

(و) (الحاجر [٤] : وهو خصب : ، به حصن كبير لأبي دلف ، وآبار وبرك) .

(ز) :(الربذة [٥] : اعراب وبرك وآبار ، منزل أبي ذر الغفارى رضي الله عنه ، وبها قبره ، ومسجد وجامع) .

(ح) :(بطن نخل [٦] : كثير الخير والأهل والنخل والزرع والماء من القني والآبار قريبة النواع أرضها رضراض ، عمرها مصعب بن الزبير ، ثم منزله أيام الحج) .

---

(١) ص ٦ (٢) ص ٦ (٣) ص ٦ (٤) ص ٧ .

(٥) انظر عن تحديد الربذة « مجلة العرب » السنة العاشرة — الجزء الأول والسنة الحادية عشرة ص ١٦١ .

(٦) هو ما يعرف الآن باسم الحناكية .

أما عن الكتب المؤلفة في وصف منازل الحج — بعد استثناء كتب الرحلات التي أفردت لها بحثاً خاصاً . . فمما وصل إلينا منها : —

١ — كتاب « المناسك » لأبي إسحاق ابراهيم ابن اسحاق الحربي البغدادي (١٩٨-٢٨٥) ويرى بعض الباحثين أنه لتلميذه القاضي وكيع . يعتبر هذا الكتاب — بحق — أوفى الكتب التي وصلت إلينا في تحديد منازل الحج ، وأوسعها تفصيلا وشمولا ، وأكثرها دقة ، وأغزرها فائدة وهو وإن أطلق عليه اسم « المناسك » فانها لم تتجاوز فيه ثماني صفحات من أصله الذي يقع في ٢٣٢ صفحة وقد نشرته « دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر » بفهارسه ومقدمته المتعلقة بترجمة المؤلف وهي في ٢٧٧ صفحة فجاء في ٨٢٢ صفحة [1] .

٢ — كتاب « درر الفرائد المنظمة في اخبار الحج وطريق مكةالمعظمة ».

وهذا الكتاب من أوفى ما ألف في موضوعه ومؤلفه الشيخ محمد بن عبد القادر بن محمد الانصاري الحنبلي الجزيري نسبة إلى جزيرة النيل في مصر [2] وكان والده قد تولى رئاسة ديوان إمارة الحج ، فرتبه ترتيباً حسناً ، وجعل له عوائد مقررة مرسومة ، فصار عمله قانوناً يعتمد عليه — على ما ذكر ابنه ومكث على ذلك سنين طويلة حتى توفي سنة ٩٤٤ هـ فقام ابنه مؤلف كتاب « درر الفوائد » برئاسة الديوان فكان — على ما وصف به نفسه (كالمحبوس على أمر هذا الديوان ، مخاطباً به من جانب السلطنة في سائر مهماته) وطالت مدته في هذا العمل بحيث قاربت خمسين عاماً ، إذ كانت أولى حجاته — مع والده سنة ٩٢٦ وآخرها سنة ٩٧٦ على ما ذكر ابن حميد في « السحب الوابلة » . ولم يسلم الشيخ الجزيري — من جراء عمله

(١) هو الحلقة التاسعة من (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب) وصدر في سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

(٢) وهم مؤلف « ايضاح المكنون ذيل كشف الظنون » فظنه منسوباً إلى الجزيرة الفراتية فقال (العراقي) .

في رئاسة هذا الديوان من ظلم أمراء الحج وعسفهم إذ جلهم – ان لم يكن كلهم – من جفاة الأعاجم من أمراء الأتراك والمصريين وغيرهم .

قال مؤرخ مكة الشيخ قطب الدين الحنفي النهروالي في كتاب « البرق اليماني في الفتح العثماني » في الكلام على الأمير أحمد كوجك ، أحد قواد الجيش التركي في اليمن الذي قتل في حصن بَعْدانَ سنة ٩٧٧ : (وكان أحمد هذا قريباً من قرقوش في أحكامه ، وكان أمير الحج المصرى في سنة ٩٧٦ ، فغضب على مباشر الركب ، المرحوم القاضي زين الدين الجزيري الحنبلي ، وكان فاضلا أديباً لبيباً ، مؤرخاً ، أجاز له علماء مذهبه بالافتاء والتدريس ، ومع ذلك كان شيخاً مسناً وقوراً ، فما استحيا أحمد بيك من شيبته ، وضربه ضرباً مبرحاً ، ثم حطه في الحديد ، ، ومشاه مرحلة كاملة مع زيادة ضعف بدنه وترفهه) انتهى .

ويظهر أن الشيخ لم يتولّ رئاسة الديوان بعد تلك السنة ، فقد توفي بعدها بعام (أي سنة ٩٧٧) على ما ذكر (بروكلمان [1]) .

لقد عاصر الجزيري انشاء الدولة التركية في بلاد العرب ، وأكثر قادتها ورجالها في ذلك العهد لا يعرفون للعرب فضلهم ومنزلتهم ، والجزيري ممن كان يعتز بعروبته ، وقد ألف كتاباً دعاه « خلاصة الذهب في فضل العرب [2] » ولهذا فليس عجيباً أن يعيش بين أولئك الأعاجم غريباً ، يقاسي ضروب الاهانة والظلم في عهد شيخوخته الذي تشتد فيه حاجته إلى الراحة ، والاحترام والاجلال .

ولهذا العالم مؤلفات أخرى تدل على فضله ، ومما وصل إلينا منها كتاب « عمدة الصفوة في حل القهوة » ولن تتضح لنا قيمة هذا الكتاب إلا بمعرفة ما حدث من الاختلاف بين العلماء حول القهوة عند بدء استعمالها في أول

---

(١) ج ٢- ٥٧٧ (الأصل) .

(٢) : « ايضاح المكنون فى ذيل كشف الظنون » ص ٥٥٥ .

القرن العاشر الهجري . وهو اختلاف اشتد حتى كان مثارا لكثير من الفتن في مكة وفي غيرها من المدن الإسلامية حتى قام بعض الأمراء بهدم الأمكنة التي كان الناس يجتمعون الناس فيها لشراب القهوة ، وبتكسير أواني الشرب وباتلاف حبوب البن ، وبمعاقبة من تعاطى شرب القهوة ، فكان هذا الأمر مما شغل الناس في ذلك العهد ، شغلا حمل كثيراً من العلماء إلى التأليف فيه ، ومن أمتع تلك المؤلفات كتاب صاحبنا الجزيري.
ومن مؤلفات الجزيري : « الزجر عن الخمر » و « دفع المضرة عن السهر والسهرة » و « منارة المنازل ، ومناهج المناهل » وصفه صاحب « إيضاح المكنون في ذيل كشف الظنون » بأنه كتاب كبير [1] . ولعله ألفه بعد كتاب « درر الفوائد » فهو لم يشر إليه في هذا الكتاب .

وللجزيري نظم كثير ، ولكنه – كنظم العلماء – أما كتاب « درر الفوائد المنظمة » فقد بدأ الجزيري في تأليفه سنة ٩٦٠ واستمر حتى ٩٧٦ يضيف إليه وينقحه ، بعد أن أخرج نسخة منه سنة ٩٦١ . فانتشرت نسخه بين العلماء ، منقولة من نسخة المؤلف الأولى الموجودة الآن في (مكتبة الأزهر) في القاهرة . ومن تلك النسخ نسخة (مكتبة شيخ الإسلام) فى المدينة . التي نسخ عنها الشيخ محمد حسين نصيف – رحمه الله – نسخة بعث بها إلى الأستاذ محب الدين الخطيب ، ليتولى طبعها بعد أن ساعده على ذلك ، فكان أن رجع الخطيب إلى نسخة (مكتبة الأزهر) مكتفياً بها عن البحث عن نسخ أخرى ، وطبع الكتاب [2] غير متضمن للاضافات التي أضافها المؤلف في خلال بضعة عشر عاماً (من سنة ٩٦١ إلى سنة ٩٧٦) .
ومع أن فضل الناشر الشيخ محمد نصيف – رحمه الله – وأياديه على العلم وأهله مما لا يجهله أحد ، وأن منزلة الأستاذ محب الدين الخطيب في العلم ، وحرصه على أن تخرج منشورات مطبعته على خير صورة ، إلا أن – طبعة كتاب « درر الفوائد » خرجت مشحونة بالأخطاء ، إذ الأصل –

---

(١) ص ٥٥٥ .
(٢) سنة ١٣٨٤ فى المطبعة السلفية بمصر فى ٧١٤ صفحة .

وهو بخط المؤلف فيما يظهر — ليس متقن الخط ، وكثير من الكلمات فيه خالية من الإعجام ، ومن عادة العلماء عدم التأنق في الكتابة ، والتعويل على الفهم أكثر من الاعتماد على صور الكلمات المرسومة .

وبالإضافة إلى ما وقع في هذه المطبوعة من أخطاء فإنها خالية من الفهارس المفصلة .

والأسوأ من كل ذلك نقص المطبوعة . . فبينما نجدها تقف في ذكر إمارة الحاج عند ذكر أمراء الحاج سنة ٩٥٧ [١] نجد نسخة دار الكتب يمتد الكلام فيها إلى سنة ٩٦٦ فى ذكر أمراء الحاج ، بل يصل إلى ذكر حوادث صفر سنة ٩٦٧ وهناك زيادات كثيرة في مواضع أخرى تقارب ربع المخطوطة وقد أوضح المؤلف في آخر مخطوطة الدار استمراره في تنقيح الكتاب وزيادته بعد اكمال جمعه فقال : —

(وكان جمعي له أوقات الفراغ من فكرة يقدح زناد همومها ، ومحنة يتوالى على الخاطر صادم غمومها ، ومدة التأليف والاشتغال عنه بينهما بون وأبعاد ، فهي في التعداد لا تفي بالمراد ، ثم بعد مدة من ايراد جمعه في هذا المؤلف من الأزل شمرت عن ساعد الاجتهاد ونقحت تلك المسودة ورتبتها وزدت عليها ما به إن شاكم الله حصول النفع لمن استزاد ، فجاء بحمد الله وافياً بالمراد ، حسن الاختصار والاقتصاد) انتهى [٢] .

ولا استبعد وجود نسخ أوفى من مخطوطة الدار أيضاً [٣] .

ومهما يكن فالكتاب من أنفس المؤلفات وأوفاها في موضوعه وخاصة ما يتعلق بطريق الحج من القاهرة إلى مكة ، بطريق الساحل ، وفيه معلومات وافية عن القبائل التي تحل منازل ذلك الطريق كالحويطات وبني عطية

---

(١) ص ٣٩٩ ٢٢١ صفحة ٤٣١ - ٤٣٣ من الجزء الأول .

(٢) ص ٤١٢ جـ ٢ نسخة دار الكتب المصرية .

(٣) فى خزانة جامعة القرويين فى فاس مخطوطة تقع فى مجلدين .

وبني عقبة وبلى وجهينة وغيرها. وهي معلومات لا توجد في غيره ، ولهذا فهو من أهم المصادر في دراسة أنساب هذه القبائل .

ولهذا الكتاب مختصر في مكتبة (جامعة ييل) في الولايات المتحدة الأمريكية ، منسوب إلى محمد مدين (؟) بن عبد الرحمن زيد الدين برقم١٢٩٦

٣ ـ منازل الحجـــاز

تأليف أحمد بن ابراهيم السروجي [١] الحنفي (٣٩ - ٧١٠) رسالة موجزة في خزانة تطوان برقم ٣٢٩ في هامش منازل الحجاز » لمحمد بن عبدالقادر الحنفي في الصفحات ٤و٥و٦ بخط دقيق جداً . وفي وصف الطريق من بركة الحاج بمصر إلى الوصول إلى مكة ، وآخر الرسالة : (هكذا ذكره بتمامه من أول ذكر المنازل المصرية هنا في منسكه قاضي القضاه شمس الدين أحمد بن الشيخ برهان الدين ابراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي) .

والسروجي بفتح السين – نسبة إلى سروج من نواحي حران ، وللسروجي هذا اعتراضات على شيخ الإسلام ابن تيمية في علم الكلام ، وقد رد عليه ابن تيمية في مجلدات .

٤ ـ منازل الحجاز (أو الحج) لابن العطار .

جاء في « كشف الظنون [٢] » : (منازل الحج لمحمد بن محمد بن العطار أوله : الحمد لله الذي هدانا سواء الطريق) ولم يزد :

وقال الجزيري في « درر الفوائد المنظمة [٣] : ـ في كلامه على منازل طريق الحج المصري : (وما حررناه ينقص عن تحرير الشيخ محب الدين العطار سبعين ساعة وثلثا ، وتبين أن ما حررنا أضبط) وقال أيضاً : (وقد ضبط هذه المنازل والمناهل بعض المتقدمين وهو الشيخ محب الدين ابن العطار في سنة ٨٦٦ في بعض وريقات مختصرة إلى الغاية) انتهى .

وفي كتاب « هدية العارفين » [٤] : (محمد بن محمد بن أحمد البكرى

---

(١) « الأعلام » ١-٨٤ .

(٢) ج ٢ ص ١٨٢٨ (٣) ص ٤٧٨ و ٤٧٦ (٤) ٢-١٨٦

الوفائي الشافعي المعروف بابن العطار ، فاضل من آثاره « كشف القناع في الأرباع » و « منازل الحج » وأرخ وفاته سنة ٨٣٠ وعنه نقل الأستاذ عمر كحالة في « معجم المؤلفين » .

ولكن يلاحظ أن الجزيري ذكر أنه كان حياً سنة ٨٦٦ . وقال السخاوي في « الضوء اللامع [١] » : إنه مات قريب الثمانين فيما أظن عن بضع وخمسين سنة . وهذا مما يوضح خطأ مؤلف « هدية العارفين » ومن تابعه [٢] .

وذكر السخاوي أن ابن العطار هذا شافعي المذهب ، قاهري الوطن ، وأنه برع في الميقات والفرائض والحساب ، وأخذ عنه غير واحد .

أما مؤلف ابن العطار « كشف القناع » فمنه نسخ مخطوطة في (الظاهرية) وغيرها ، وهو في علم الهيئة ، وأما كتابه عن منازل الحج فلا شك أن الكتاب الذي وصل إلينا باسم « منازل الحجاز » من جمعه ، ولا استبعد أن يكون مسودة ذلك الكتاب ، إذ نجد في هامش الورقة الأخيرة منه نصاً صريحاً بأن محمد بن محمد بن العطار هو الذي جمع نصوص ذلك الكتاب ، وبين ثناياها من الجمل المتعلقة بعلم الهيئة الذي عرف ابن العطار بأنه ممن أتقنه وألف فيه ما يؤيد ذلك وألف فيه كقوله :

(وقد ذكرت في كتاب آخر عروض منازل الحجاز والشام ، مع عروض منازل الحجاز والشام ، مع عرض منازل الحجاز المصرية وانحراف قبلتها) [٣] .

وكقوله : بعد نقل كلام ابن فضل الله العمري في وصف منازل طريق العراق : (اقتصر المؤلف في هذا على أماكن المياه ، وأرجو أن أحصل انحراف قبلة هذه المنازل وعروضها في موضعه) [٤] .

---

(١) ج ٩ ص ٣ .

(٢) كصاحب « معجم المؤلفين » ج ١١ ص ١١ ص ١٧٩ حيث أرخ وفاته في سنة ٨٣٠ هـ و ١٤٢٧ م .

(٣) ص ٥ . (٤) ص ٨ .

وكتاب « منازل الحجاز » توجد مخطوطته في مكتبة (لاله لي ، في اصطنبول) ، وقد صوره (معهد المخطوطات) سنة ١٩٤٩ على الشريط (الميكروفلم) رقم ٨٠٩-٢٠-٣٠ وفي مكتبة جامعة الرياض ، صورة عن هذا الشريط ، ومنها نقلنا ما تقدم من النصوص عن كتاب العذري .

وأكثر ما في كتاب « منازل الحجاز » نصوص منقولة من كتب قديمة ككتاب العذري ، « ومسالك الأبصار » لابن فضل الله العمري ، وكتاب ابراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي الذي ألفه سنة ٦٢٣ أيام السلطان الملك المعظم الأيوبي. فهو يبدأ – بعد البسملة هكذا : (الحمد لله رب العالمين . في ذكر منازل الحجاز على الدرب الشامي نقلته من مجلد ابراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي ، تاريخه سنة ثلاث وعشرين وست مئة . أيام السلطان المعظم من ولد أيوب على سبيل الاختصار مع زيادة لابد منها : من دمشق للمدينة الشريفة وهي ثلاثون منزلة) وبعد سردها ووصف كل منزلة – في خمس صفحات ، يتبعها بذكر منازل العراق ويختمها بقوله : (هذا ما ذكره صاحب « نظام المرجان في مسالك البلدان » ، أما ما ذكره ابن فضل الله العمرى في كتابة « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » على سبيل الاختصار : من بغداد لصرصر مرحلة) ثم يسرد المراحل – في ثلاث صفحات . يتبع ذلك بقوله : (ذكر منازل الحجاز من اليمن : ابتدأ صاحب « نظام المرجان من مكة وقال : منها طريقان) ثم يصف الطريقين في أربع صفحات يذكر بعدها الطريق من جدة إلى بحر القلزم ، وهو مما نقله عن كتاب « نظـــام المرجان » في أكثر من صفحتين . وفي الهامش جملة (انتهى ما لخصته من الكتب) وفى صلب الكتاب : (فصل أردنا أن نذكر الأبردة من القاهرة المحروسة إلى القدس الشريف) في أكثر من ثلاث صفحات ثم (ذكر أبردة الشام : من غزة إلى سدود بريدان) ويستمر حتى يبلغ الشام في أقل من صفحة ، إذ آخر الصفحة خال من الكتابة .

وقد تقدم كلام الجزيري في « درر الفوائد المنظمة » عن ابن العطار وأنه قد قدر السير في طريق الحج المصري، وحدده بالساعات وفي كتاب

« منازل الحجاز » لا نجد لهذا الطريق ذكرا سوى جملة يفهم منها أنه تكلم عليه ، كما أن وصف الجزيري لعمل ابن العطار بأنه في وريقات لا ينطبق على ما نجده في هذا الكتاب الذي لاشك بأن صاحب « درر الفوائد المنظمة» لم يطلع عليه ، إذ فيه من التفصيل عن طرق الحج ما يعوز صاحب « درر الفوائد » وخاصة عن الطرق التي لم يتحدث عنها لقلة المصادر لديه — فيما يظهر .

ولعل الجزيري — اطلع على القسم المتعلق بوصف الطريق المصري من كتاب ابن العطار ، وهو القسم المفقود من النسخة التي وصلت إلينا والتي نرى أنها المسودة الأولى للكتاب .

« البرق السامي في تعداد منازل الحج الشامي » :

تأليف محمد بن علي بن طولون الدمشقي (٨٨٠-٩٥٢ هـ) .

ومخطوطة هذا الكتاب بخط مؤلفه في (التيمورية)[١] المضافة إلى دار الكتب المصرية ، ويقع في ١٤ ورقة بخط دقيق جداً ، وقد ألفه سنة ٩٢٠ هـ .

وقد هيأته للنشر في مجلة « العرب »[٢] .

منـــازل الحجاز :

تأليف محمد بن عبد القادر بن محمد الحنفي .

اطلعت على نسختين من هذا الكتاب احداهما في الخزانة العامة في مدينة (تطوان) في المغرب ورقمها ٣٢٩ تقع في ٢٦ ورقة بخط دقيق جداً . وعنوانها : (منازل الحجاز الشريف) .

والنسخة الثانية في مكتبة الأوقاف في (حلب) مخطوطة سنة ١١٤٣ وتقع في ٦٩ صفحة صغيرة وعنوانها : (هذه منازل الحاج) .

---

(١) رقم ٧٩ مجاميع من ورقة ١٤ إلى الورقة ٢٢٨ .

(٢) جزء جمادى سنة ١٣٩٦ .

وهذا الكتاب من أوفي ما اطلعت عليه في وصف طريق الحج المصري المار بساحل البحر ، من البركة بقرب القاهرة إلى مكة المكرمة .

منـــازل الحج :

في مكتبة عارف حكمة — في المدينة كتاب عنوانه « منازل الحج من الشام إلى مكة رقمه ٢٨٦ ، ولما اطلعت عليه وجدته باللغة التركية ، وقد كتب في طرته بعد اسمه (ترجمة كتاب منازل الحج سنة ٩٧١ لأمير الأمراء ظهير الوزراء ، مصطفى باشا ، المترجم : حسين بن ملا شمس) .

ويقع الكتاب في ١٤٤ صفحة (مقاس ٢٣—١٥ سم) في الصفحة ١٥ سطر بالخط النسخي الجميل ، والصفحات محاطة بجداول مذهبة ، ومع حسن الخط وجمال الصفحات فان أسماء المواضع فيه محرفة تحريفاً شنيعاً .

وليس خاصاً بمواضع طريق الحج الشامي ، بل ذكر طريق مصر وطريق اليمن والطريق بين مكة والمدينة [١] .

طـــريق مكة (كتاب) :

ونشر المستشرق الأستاذ فلوجل في مجلة المستشرقين الألمان (Z,D,G)[٢] رسالة لمحمد بن أحمد السنهوري ، وأصلها في مكتبة جامعة (ليبزج) وأشار فلوجل إلى أنها ألفت في أيام السلطان مراد (٩٨٢—١٠٠٣ ه) وأولها (هذه الأوراق في معرفة طريق مكة : الحمد لله الذي هدانا إلى سواء الطريق ، ومن وتفضل علينا بزيارة بيته العتيف) وجاء في آخرها : (فجملة ساعات السير في حالتي الذهاب والاياب — وهي الطلعة والاياب وهي الرجعة — بالدورة وهي طريق مكة إلى المدينة المشرفة : تسع مئة وإحدى وثمانون ساعة مستوية) .

---

(١) انظر وصفه في كتاب « شمال غرب الجزيرة » ص ١٨٤ وقد أوردت أسماء المنازل مجردة عن الوصف .

(٢) المجلد ١٨ ص ٥٢٣-٥٣٧ .

والرسالة تتحدث عن طريق مصر . وهو يقيس المسافات بالدرج كأن يقول : (من بطن مر إلى سبيل الجوخي ٩٠ درجة) . والساعة ١٥ درجة .

ويظهر أن خط الرسالة غير مستقيم ؛ ولهذا وردت أسماء كثيرة — في المطبوعة — محرفة . وقد يكون الناشر قرأ بعضها قراءة غير صحيحة ، فكتبها كما قرأ ثم نشرها مثل (جبل العميان) ورد (جبل العمجان) وهكذا .

ومن الكتب المتعلقة بوصف منازل الحج كتب معروفة إلى زمن غير بعيد ، ولكنها أصبحت الآن مجهولة وليس من المستبعد العثور على بعضها ومنها :

١ — برهان الاعجاز في منازل الحجاز :

ينقل عنه السيد كبريت في رحلته [1]

٢ — بغية السالك إلى أشرف المسالك :

لمحمد بن أحمد الأندلسي المعروف بالساحلي المالكي (المتوفى سنة ٨١٣هـ) ذكره في « إيضاح المكنون » .

٣ — حقيقة المجاز ، إلى الحجاز .

لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ) العالم المعروف صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » وغيره من المؤلفات .

ذكر الجزيري في « درر الفوائد المنظمة »[2] أن الصفدي حج سنة ٧٥٥هـ وأنه خرج مع الركب الشامي من دمشق في تاسع شوال من تلك السنة .

وقد تأنق الصفدي في كتابة رحلته فاستعمل السجع كثيراً ،

---

(١) ص ١٢-١٥-١٨ .
(٢) ص ٣٥٣ .

ووصف المنازل شعرا ، وقد كانت نسخة من هذه الرحلة بخط مؤلفها في (خزانة الزاوية في درعة) في المغرب الأقصي على ماذكر ابن عبد السلام الدرعي في رحلته الكبرى .

وذكر لي الأستاذ خير الدين بن الزركلي – رحمه الله – أنه اطلع على نسخة منها في إحدى مكتبات الحجاز – ولعلها مكتبة شيخ الاسلام في المدينة – وأنه نقل عنها شعراً فى الخرج – بضم الخاء وإسكان الراء .

كما ذكر لي الأستاذ ابراهيم الكتاني أن وراقا عرض على الخزانة العامة في الرباط أوراقا يظن أنها منها ، وقد لخص صاحب « درر الفوائد المنظمة » مـا يتعلق منها بوصف منازل طريق الحج الشامي .

ومما أورد منها : (ثم إنا أثرنا النياق بسحر ، وكوكب الصبح للشرق قـد نحر ، وعملنا على أن نصبح في تبوك ، وقلنا للدليل : اعمل على ذلك ولو مانعك المتخرمة (؟) أو حاربوك ، وخالف من صدك عن هـذا القصد ولو أنه أبوك ، وأخذ الركب في الاحتفال بحمل السلاح ، وسل السيوف وهز الرماح ، ونشر الأعلام الملونة . وسوق الجيـاد التي هي من الرياح مكونة .

أتينا بالسـلاح إلى تبـوك وذلك عـادة صـارت فسـارت
دخلناهـا بإيمـان صحيـح دياجي الشـرك منـه قـد استنارت
لو أن جماعة الكفار فيها استجاشت نحونا ، لبنا استجارت

ثم قصدنا عين تبوك والجمال من الهزال كالعنكبوت ، وأشباحها كالآل الذي يلوح على بعد في المهامه والمروت ، ولما وقفنا على عينها ، ووفينا العين منها حقَّ دَيْنِـها ، استعبر من تشوق واستكثر من تأني وتأنق ولا أقول تنوق :

أقـول وفي الركـائب من براه الـ
هوى وسـواه حين يراه حـاكى
إذا جـاءت تبوك بنـا المطـايا
(تبين من بـكى ممن تباكى)

ثم إنا فارقنا نخلها الطوال وسرنا عن شماريخها العوال ، بعد ماستعددنا للمفازة العظمى التي ذكرها يهول وخبرها يجوب الآفاق ويجول ، فملأنا القرب والروايا ، والحبايا التي في حنايا الزوايا ، وسرنا على اسم الله والبركة).

٤ — كفاية المحتاج إلى معرفة منازل الحاج :

ذكره صاحب « إيضاح المكنون » وقال : من كتب (أياصوفيا) ولم يزد .

٥ — منارة المنازل ، ومناهج المناهل .

تأليف عبد القادر الجزيري مؤلف « درر الفوائد المنظمة » ذكره في ذيل الكشف [1] وقال : كتاب كبير أوله : (إن أبهى حلل تحاك على منسول النعم) . وتقدم ذكره .

٦ — منازل الحج :

للشيخ عبد الله الاشبيلي ، نقل عنه ابن فهد ، وذكره الطبري في « الأرج المسكى [2] »

٧ — منازل الحرمين :

تأليف ابراهيم حنيف بن مصطفى السروجي القاضي الحنفي (المتوفي سنة ١١٨٩) — وهو باللغة التركية ، ذكره صاحب « إيضاح المكنون » .

٨ — بهجة المنازل :

لمحمد أديب الموقع الروحي أوله : (الحمد لله الذي أمرنا بالحج) كذا جاء في « إيضاح المكنون » [3] في حرف النون ولم يزد

---

(١) إيضاح المكنون ٢ - ٥٥٥ .

(٢) ص ١٩ مخطوطة الشيخ عبد الستار الدهلوى بمكتبة الحرم المكى .

(٣) ٢-٦٩٦ .

الشعر في منــازل الحج :

ولم تكن العاطفة الدينية حافزا خاصا بأولئك العلماء الذين تصدوا للتأليف عن معالم الحج ومنازله ، ووصف طرقه ، بل كانت أيضا مثار قرائح كثير من الشعراء ، ممن وصفوا منازل الحج وصفا وإن لم يكن على درجة من الإثارة تحفز المهتمين بالدراسات الشعرية إلا أن ذلك النوع من الشعر مما ينبغي أن يثير رغبة المعنيين بالدراسات الجغرافية . وقد نشرت مجلة « العرب » نماذج من ذلك الشعر في وصف المنازل [1] ، مما ورد في أبيات مفردة ، أو مقطوعات قصيرة .

أما القصائد والاراجيز الطويلة فمنها :

(١) أرجوزة وهب بن جرير الجهضمي البصري في وصف طريق البصرة إلى مكة ، وتقع في ٢٩٧ بيتا أوردها مولف كتاب « المناسك »[2] .

وهذه الأرجوزة في وصف طريق البصرة تضارع قصيدة الرداعى في وصف طريق صنعاء ، وإن كان الرداعي أكثر تفصيلا لمواضع الطريق ، والجهضمي دقيق الوصف بارعه ، وله أساوب شعري رائع .

(٢) أرجوزة أبي جعفر أحمد بن محمد الضحاك الحماني الســكوني في وصف الطريق من الســكوفة إلى مكة ، في ٢٦ بيتا أوردها في « المناسك»[3]

(٣) أرجوزة الحربي ابراهيم بن اسحاق (١٩٨ ـ ٢٨٥) أو تلميذه

---

(١) السنة الثالثة من ص ٣٠٤ إلى ص ٣٤٤.

(٢) ص ٦٢٢-٦٣٢ .

(٣) ص ٥٦٩ .

القاضي وكيع في وصف الطريق من مكة إلى المدينة ثم إلى الكوفة ، متممة لأرجوزة أحمد بن محمد بن الضحاك الحماني – تقع في ٤٧ بيتاً . ولكنها من رجز العلماء .

(٤) أرجوزة الحج :

لأحمد بن عيسى الرداعي الخولاني – من أهـل القرن الثالث الهجري في وصف الطريق من صنعاء إلى مكة ، ذهابا وإياباً ، وهي أرجوزة فريدة في بابها من حيث دقة وصفها للأماكن قال فيها الهمداني[1] : لا نعلم أحدا وصف من جزيرة العرب مسافة أربعة وعشرين يوما بشعر طبعي سوى أحمد الرداعي) وتقع ٧٣٤ بيتاً ، وقد أوردها الهمداني في آخر صفة جزيرة العرب كاملة وشرح عويص كلماتها

(٥) أرجوزة في وصف الطريق من بغداد إلى مكة فالمدينة في الذهاب والإياب تقع في ١٥١ بيتا – أوردها صاحب « المناسك »[2] غير منسوبة . وهي في تحـديد المواضع مفيدة .

(٦) أرجوزة أحمد بن عمرو :

في تنزيل زبيدة وهي أرجوزة من رقيق الشعر تقع في ٢٨٤ بيتاً تصف منازل زبيدة منذ خرجت من بغداد للحج حتى عادت إليه مارة بالمدينة ، لم يدع مرحلة إلا ذكرها وقـد أوردها صاحب « المناسك »[3] .

(٧) منظومة أبي شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (٥٩٩ - ٦٦٥ هـ) صاحب كتاب « الروضتين » وذيله وهما مطبوعان قال ابن طولون[4] : وقال أبو شامة ، في سنة ٦٢١ – ونظمت في طريقي هذه

---

(١) « صفة جزيرة العرب » ص ٤٠٠ إلى ٤٥٨ – (منشورات اليمامة)

(٢) ص ٥٦٢-٥٦٨ .

(٣) ٥٤٥-٥٦٨ .

(٤) « البرق السامي في منازل الحج الشامي » .

السنة قصيدة ميمية ، ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات وصفت فيها ماأمكن من أماكن الزيارات أولها :

مازلت أشتاق حج البيت والحرم   وأن أزور رسول الله ذي الكرم

وهي طويلة .

(٨) منظومة أبي شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل الدمشقي (٥٩٩-٦٦٥هـ) وهي غير المتقدمة ، فقد نقل عنه ابن طولون – أيضاً – قوله : ثم حججت في السنة بعدها – ٦٢٢ – ونظمت فيها قصيدة همزية ، وصفت فيها أمر الحج والمنازل التبوكية ، أولها :

ياحبذا وطن الحبيب النائي

(٩) منظومة ابن جماعة : وهو محمد بن ابراهيم (٦٣٩ - ٧٣٣) أولها :

دعـــا النوق داعي الشوق حين دعـــاها

فلبت وبلت بالدمـــوع خطـــاها

في ذكر منازل الطريق من مصر إلى مكة . وتقع في ٤٣ بيتاً، أوردها الجزيري في « درر الفوائد »

(١٠) منظومة في مناهل طريق الحجاز :

لبدر الدين الزركشي ، تقع في ٢٩ بيتاً ، أولها :

عليك بجـــد السير عشً (بويبه)

وغـــد بـ (روض الـــكبش) واستقبل القفرا

ملحقة بكتاب منازل الحجاز لمحمد بن عبد القادر الحنفي ، في خزانة تطوان برقم ٣٢٩ :

(١١) دليل المجتاز لأرض الحجاز – أرجوزة منشورة في هذا الجزء من المجلة .

حمـد الجاسر

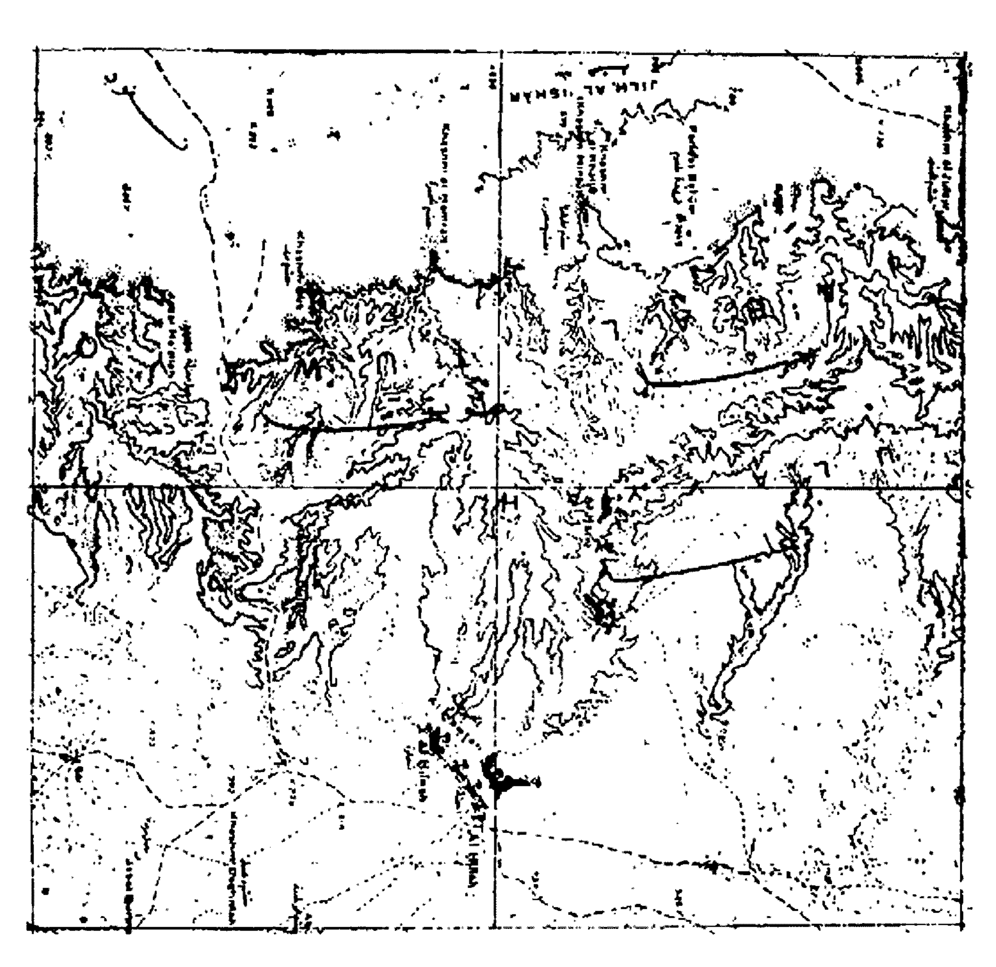
العُلَيَّة والعَلاة

الأولى بضم الأول ، وفتح الثاني ، وتحريك الياء بالفتح مشددة . . هي تصغير عَلْيَة – بفتح العين ، مؤنث عليّ الاسم المعروف .

والثانية : بفتح العين ، بعدها لام ألف ، فتاء مربوطة . . أكبر هضبة في جبل اليمامة وأمنعها وأكثرها أودية وأشدها ارتفاعا . . اتخذها لصوص المنطقة منذ العهد الجاهلي معتصما ، وعولوا عليها ملجأ ، ووجدوا في مغاراتها ومخابئها مستراحا ومعقلا ، درجوا على هذا وتواطأوا عليه حتى زمن قريب قبل أن يضرب الأمن بجرانه ، وتستأصل شأفة البغي على يد الملك عبد العزيز رحمة الله ، وحتى في زمن الملك عبد العزيز كانت مأمن اللصوص ، وهناك نماذج أدركناها كانت شغل السلطات الشاغل ، وما قصة الدُّويخ القحطاني عنا ببعيد . فلقد أعجز الأمن حتى جاء مستسلما في قصة يطول ذكرها . لقد كان (جحدر) لصُّ اليمامة الكبير [1] شغل (الحجاج) الشاغل في عهد بني أمية ، وكانت (عُلَيَّة) تُجنُّه وتؤمنه من سطوة (الحجاج) رغم جبروته وفضاضته . وكأنما هذه الهضبة تسخر من جند الحجاج وأعوانه وتتباهم حينما يهمون بالبحث عن جحدر وإخوته اللصوص في أكنافها ، ولما أعجزتهم القوة لجأوا إلى الحيلة فأغروا بعض اللصوص حينما قبضوا عليهم في غير عُلَيَّة إنهم أتوا بجحدر من عُلية لتأمَّنَنَّ معيشتهم مدى الحياة ، فجاسوا خلالها لصوصا ، والتقوا بجحدر زملاء ، ولما وجدوا منه غِرَّة قيدوه وساقوه إلى الحجاج في قصة طويلة ، وهذا ما أشرت إليه في قصيدة لي عن جبل اليمامة :

إذ كنت لا تحني لحيٍّ قِمَّةً	وتُصِرُّ إلاّ أن تُرى متطاولا
ويؤمُّك الباغون إخوة جحدر	يجدون في تلك الهضاب معاقلا

(١) انظر عنه مجلة « العرب » ص ٧٣-٩٠٢ السنة الحادية عشرة .



جبل علية ويبدو شرقها قسم من الجانب الجنوبي من جبل طُوَيق
(عارض اليمامة)

هذه هي علية تكوين عظيم فارع ممتنع ، وهي وإن كانت داخل سلسلة جبل طويق[1] إلا أنها مفصولة عنه من جهاتها الأربع بفجاج تجعلها تتربع وحدها وتشرف على ماحولها متعالية متأبية ساخرة ، فهي تشرف على سهول الخــرج الغربية . وترى هــذه الهضبة منها كأنها عارض يملأ الأفق ، وتشرف على وادي نساح من الجنوب . وتشرف على وادي نعام والحريق وأسفل الحوطة من الشمال ؛ وتشرف على أودية الجفير ومرقان والمجهولة وحنيظلة من الناحية الغربية ، وعلى هذه الجهات الأربع يسيل منها أودية كبيرة معروفة ، فيسيل منها شرقا على الخرج أودية هي : بلاجين، والعين ، وماوان، وتمير ، وأثيلان، وأبو سحرا، وسويس .

ويسيل من شمالها على وادي نساح شعاب هي السمريات ، وسدحا والجزعي، وكحلة ، والخشبي ، وكحيل ، وقديرات ، والبدع ، ومقبور ، والبرود ، والعقدانية ، والعيينة ، وكتف ، ومرقان والجفير ، والمظيل ، والنجيبي . .

ويلاحظ أن وادي نساح يأخذ وادي الجفير منه غربي علية فيعتبر جزءاً مما سال من علية مغربا يعتبر من وادى الجفير . وما عدا ذلك يسيل على أودية الحريق الغربية .

ويسيل من جنوبها على وادى نعام والحريق الشعاب الآتية : الــكلبة، والزيربة ، ولصاد ، والوجاة ، والشعيب ، ورميثان ، واللحمة ، وبرقة .

وأكثر سيولها وأكبر أوديتها تسيل مشرقة على ماعليه تكوين جبــل اليمامة ، قمته من الناحية الغربية ويأخذ في الانحدار التدريجي نحو الشرق حتى يلامس السهول الشرقية ، وهــكذا الشأن في جبل علية .

وفي نهاية ارتفاع علية من الغرب قف منقاد من شمالها إلى جنوبها يدعى (الريش) ، هو متعلق أوديتها الشرقية فما سال منه شرقاً تتكون منه

---

(١) طويق هو عارض اليمامة قديماً « العرب » .

أودينها الشرقية، وما سال غربا بنحدر على رديفة مستطيلة باستطالة هذا القف المصاقب لها لايتجاوز عرضها في المتوسط أكثر من ثلاثة أكيال ، ويتوسط هذه الرديفة جبيل سامق يشرف على علية كلها ، كما يشرف على هذه المنحدرات العظيمة والشعاب والهضاب المتداخلة العجيبة التي يعتبر منظرها نادرا في المناظر ، لايتصورها ولا يتخيل حقيقتها إلا من شاهدها .

قف ياأيها السائح أو ياأيها المواطن الذي تجهل كثيرا من حقائق وطنك وطبيعته العجيبة ، قف فوق هذا الجبيل واتجه ببصرك غربا وجنوبا ، وانظر وأنعم النظر وصوّب بصرك وصعّده وصف ماترى إن استطعت الوصف وما إخالك مستطيعا ، وهذا ماحاولت أن أشير إليه في وصفي لبعض مناظر جبل اليمامة في قصيدة منها :

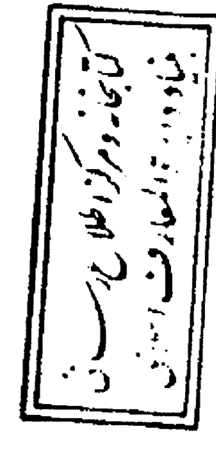
أحبّ فيك طويتق كلّ فارعة	شمّاء في مستجار فرعها عاري
وأعشق الصفحة البيضاء معرضة	مثل السبيكة في تفويف زنّار
والقور واشجها الإبداع واتسقت	مثل العشار وقوفا بين أضآر
الهمتني ياطويق كل شاردة	تضيق عنها ترانيمي وأشعاري
وكنت أبعث ألحاني مولّهة	واليوم حطّمت إلا فيك قيثاري

وإذا استقر بصرك بعد أن تجيله في هذه المناظر فدعه يقف عند هضبة جرداء شماء فارغة ، لونها أحمر يميل إلى السكتة ، هذه تسمى الشّظيّا قف متأملا ، وقل شعرا وإن لم تستطع فقله هاذيا على طريقة خوارج الشعر .

وهذا الجبيل الذي تشاهد من قته هذه المناظر يدعى قرّا شنّة ، أما القرا فمعروف وهو ظهر الشيء وقته ، وأما شنة التي يضاف إليها هذا القرا فلا أعلم ماهي . ولعلها من مبصرات اليمامة اللاتي يضرب المثل بحدة

أبصارهن ، فهي سوف ترى من فوق هذا القرا ما يعجب ويطرب ، وسوف
تداح أمامها المنظر حتى يرجع إليها طرفها خاسئا وهو حسير .

وفي شعاف جبال علية ومساقط تلاعها ومنحدراتها الشاهقة قلاتٌ
عميقة واسعة ،تستوعب كميات كبيرة من المياه ، وتظل تختزنها لمدد كثيرة ،
وقفت على بعضها ، ورأيت زرقة مائها بعد أشهر من مكثه في هذه القلات ،
ورأيت ممرات الحبال على حافاتها الصخرية قد سطت بها ومثلت القول :



اطلب ولا تضجـــر من مطـــلب فآفـــة الطـــالب أن يضجـــرا
ألم ترَ الحبـــل وتكـــراره في الصخرة الصماء قد أثّرا ؟

هذه القلات تردها البادية لسقيا نعمها وغنمها ودوابها ، وتستعذب
ماءها لأنفسها . أعرف من هذه القلات في علية الآتي : أم لصفة ، وأم شقم
والمسيل ، هذه الثلاث في شعب كحلة ، والأخيرة منها يفرغونها بوساطة
الدلاء مع منحدر عال جدا لتتلقفه الماشية تحته وتشرب هنالك . . وهناك
العوجا ، وظلما ،وأم بطيحا ، وهذه الثلاث في شعب كحيل ، أما العقدانية
فقلاتها هي : نغية ، ومغبة ، والركية ، ومحقن ، وأم ثعبة . . أما قلات
الزلق في ماوان فهما : ابنتا مظللة السفلى والعليا ، وقلات دندن وقلات
الصحاف .

قصدت هضبة علية بالزيارة مع رفقة من الإخوة فصعدناها مع طريق
يفترعها من بين شعبَيْ بلاجين ، وأخذنا فيها مع طريق يجعل وادي نساح
يمينه ووادي العين يساره حتى القف أو الريش كما يسمونه ، ومنه انحدرنا
مغربين على الرديفة من تلقاء القعدانية وكنف ، وهنالك تنحدر تلعة
صغيرة من الريش متجهة إلى المنحدر الـــكبير منحدر القلات ، هذه التلعة في
رأسها كهف ، وجهه غرب وهو مستطيل من الشمال إلى الجنوب ، وفيه

كتابات ونقوش زرناها نحن لما حضرنا وقتها، هذا الغار هو غار الإمام تركي ابن عبد الله آل سعود الذى التجأ إلى هضبة علية خوفا من بطش القائد التركي (عبوش أغا) حين نفوذهم المتسلط على نجد ، وفي هذه الهضبة تزوج الإمام تركي من امرأة شامرية ، وولدت له الرجل الكريم جلوي ابن تركي جد السلالة الكريمة ، آل جلّوي ؛ وسمي جلويا لأن والده قد جلا في هذه الهضبة يتحين فرصته المواتية .

ومن غار تركي اتجهنا مع الرديفة – القف يسارنا ، والمنحدر السحيق يميننا حتى وقفنا تحت قرا شنة . وعلى ذكر المنحدر الغربي لجبل علية فقد وقفنا هنا لك ، وشاهدنا هذا المنحدر ، وسمعنا صفير الرياح في هذه الصفحات وهذه الأنفاق وهذه التجاويف .

وبعد تجوال في المنطقة أخذنا الطريق مما يلي أعلى وادي ماوان ، وعلى قرب نفر يميننا ثلاثة ظباء، وأخذت تستعرض عضلاتها في القفز والوثب، بين تلك الصخور الحثة والرتاج الوعرة ، مما يقول للسيارة : قفي مكانك إذا خرجت عن طريقها شبراً . فقلت في نفسي : من أعلم الظباء أن علية مستجار منيع لبني الإنسان فكيف بها؟ وسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هـــدى .

ويسكن مياه علية ومستقراتها الآن قوم من آل شامر يرجعون إلى قبيلة يام ، وقوم من القُرَيْنِيّة يرجعون على حسب تقسيماتهم إلى قبائل شتى ، ولكن الحلف جعل منهم قبيلة واحدة كشأن عادات العرب واصطلاحاتهم .

وفي أودية علية داخل الجبل مياه أثماد وأوشال ، ومناهل معروفة ومخصصة لذويها .

وبحكم قرب علية من حوطة بني تميم فإن لهم عليها دالة ، فهم يفتلون

فلاتها ، ويعضدون شجرها . وينازعون باديتها منافعهم منها . ولا يخلو الجو بينهما من مناوشات كلامية جادة أو هازلة ، فيقولون : .

كُلّ وَبْرٍ مَرَبَّه عُلَيَّهْ   يستوي عنــد روحـــه شريفْ

وذكر ياقوت في معجمه العلية والعلاة فقال : (هما جبلان باليمامة وبالعلية أودية كثيرة ذكرت متفرقة في مواضعها من هذا الـكتاب) . وأردف قائلا : (منها الدخول الذي ذكره امرؤ القيس . قال الحفصي وهما لبني هزان وبني جشم والحارث بن لؤى وأنشد :

أتتك هزانك من نعامهـا   ومن علاتها ومن آكامها

وفي مكان آخر قال : وعلاة : لبني هزان باليمامة على طريق الحاج . وبها المحالي وهي حجارة بيض يحك بعضها ببعض ويكتحل بتلك الحكاكة .

قلت : يبدو أنه التبس الأمر على ياقوت بين العلاة والعالية ، فجمع بين مدلولهما هنا . . فالعالية هي عالية نجد وهي التي ذكر امرؤ القيس فيها بعض الأمكنة ومنها الدخول . أما العلاة فهي في سافلة نجد من اليمامة وهي التي ذكر فيها بقية ماذكر في خبره هذا . وفرق بين العالية والعلاة مثـل الفرق بين الثريا وسهيل ! !

فهي شامية إذا ما استقلّتْ   وسهيل إذا استقل يمـاني

كما وَهَمَ بعض الباحثين حينما قال إن علية هي (عماية) ، وهو قول لا يؤيده الواقع ولا تقاربه الحقيقة .

وقد تعاقبت أقوام على علية فن بني هزان الوائليين إلى بني قشير وجعدة العامريين ، إلى بني مزيد الحنفيين . .

هذه علية قلعة اليمامة الحصينة وطودها الأشم وهامتها المتأبية .

الرياض : عبد الله بن محمد بن خميس

النَّفحُ الفرجيُّ في الفتحِ (الجِتنهجي)

تأليف السيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني المتوفي سنة ١١٧٧ .

هذا الكتاب على غرابة اسمه طريف ، فهو يتعلق بتاريخ حوادث قوية الصلة ببلادنا ، ومؤلفه عالم من مشاهير علماء المدينة ، وأسلوبه أسلوب أدبي هو أسلوب العصر الذى وجد فيه المؤلف .

موضوع الكتاب :

كانت البادية فى العصور الماضية قد عمّها الجهل ، فأصبح أبناؤها في حالة من الفوضى والبعد عن تعاليم الدين الحنيف بحيث استشرى الشر بينهم ، وزاد من ذلك ماابتلوا به من فقر وشظف في العيش ، وانسداد وسائل الرزق أمامهم ، فكثيراً ماأصابهم الجدب وعم بلادهم القحط ، فأهلك أنعامهم وهي وسيلة حياتهم ، فاضطرتهم الفاقة وحملهم الجوع إلى أن ينحرفوا عن سواء السبيل ، بحثا عن الرزق من أية وسيلة كانت . وكثيراً ماكان الفقر سبباً لإهدار جميع القيم الخلقية .

منذ عصور قديمة ابتليت البادية بحكومات تجهل طبائعها وأحوالها كل الجهل . فكانت تسوسها سياسة العنف والشدة ولا تعالج أمراضها الخلقية معالجة من يريد استئصال الداء ليسلم الجسم ، بل بطريقة من يقطع أجزاء الجسم ليخمد حركته .

وهكذا كانت سياسة ولاة الأتراك منذ القرن العاشر الهجري حتى أول قرننا الحالي وسياسة من قبلهم من الحكومات منذ العهد العباسي .

لقد كانت قبائل العرب التي يمر في بلادها الطريق إلى الحج ، بل الطرق كلها وخاصة فيما بين المدينتين الكريمتين ، كانت هذه القبائل ألفت نمطاً من الحياة يقوم على أساس ماتدفعه لها حكومات ذلك العهد مقابل عدم التعدي على الحجاج وحماية ركب والي الحج بحيث أصبح كثير من تلك القبائل يعتبر ما يدفع له المورد الوحيد من موارد رزقه . فألفوا حياة الكسل ، وبسط اليد للاستجداء أو للنهب لا للعمل .

وكان بعض أمراء الحج وولاته يدفعهم الطمع إلى التصرف ببعض ما كان مخصصاً لبعض القبائل مما يسبب الخلاف بين الوالي وبين بعض العرب ، وهناك من الولاة من يرى أن الوسيلة الوحيدة لاستئصال الشر من النفوس استعمال القوة ،ويجهل قول الله عز وجل :(ولو كنت فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حولك) وما درى أنه بعمله هـذا يشعل نار الشر ويثير الفتن ، وهكذا كانت الحالة بين بعض قبائل العرب وبين أمراء الحجاج في كثير من العصور مما حفلت به المؤلفات التاريخية لكتب الرحلات إلى الحج وغيرها .

وهذا الكتاب يصف فيه مؤلفه جانبا من أحوال البادية في أحد تلك العصور .

وقد ألفه باسم أحد ولاة الأتراك في ذلك العهد الذي تولى إمارة الحج سنتي ١١٧١ و١١٧٢ ، ويدعى (جتة جي عبد الله باشا) وكلمة (جتة جي) تركية عربيتها الفارس أو المغوار وقد تنطق (الشتجي) و (الجتجي) وسيمر بالقارئ طرف عن نشأته وقد تولى ولاية دمشق سنة ١١٧١ ثم عزل في شهر جمادى الآخرة سنة ١١٧٣ [1] ثم مات سنة ١١٧٤ [2] بعد أن تولى ولاية ديار بكر فبلغها وهو مريض ، قال صاحب « سلك الدرر » ج ٣ ص ٨١ : (وفي أول سنة من إمرته — على دمشق — أذهب الله على يديه مردة طائفة حرب ، وأفرد ذلك الواقعة بالتأليف السيد جعفر البرزنجي وسماه النفح الفرجي في الفتح الجتجي » ،أما صاحب كتاب « حوادث دمشق » فقال في ذكر حوادث سنة ١١٧٥ [3] : (وبتلك السنة جاء خبر إلى الشام بقتل عبد الله بن باشا الشتجي وضبطت الدولة ماله ونواله ، وراح كأنه ماكان) ولعل رواية صاحب « سلك الدرر » أصح أما سبب عزله

---

(١) ولاة دمشق فى العهد العثمانى للمنجد ص ٨٣ .

(٢) سلك الدرر ٣ ص ٨١ .

(٣) حوادث دمشق اليومية . ص ٢٢١ و ٢٣٤ وتجد طرفاً من أخباره فى هذا الكتاب صفحات ٢١٢ إلى ٢٢٤ .

عن ولاية دمشق فقد ذكر صاحب سلك الدرر أنه لما حج حجته الثانية سنة ١١٧٢ عزل شريف مكة مساعد بن سعيد وأقام أخاه جعفراً مكانه ولكن مساعداً عاد فأزاح أخاه عن الشرافة ووليها وشكا الباشا إلى الدولة فكانت هذه الشكوى أقوى سبب لعزله[١]

ويحسن الوقوف عند خبر عزل مساعد عن شرافة مكة وهل لذلك صلة بحوادث البادية التي ستمر بنا في هذا الكتاب ؟

ليس بين يدينا من النصوص مايدل على هذا ، ولكن من المعروف أن شرفاء مكة كثيراً ما كانوا يغرون البادية بإثارة الفتن ضد رجال الدولة التركية من ولاة وأمراء حج . لأنهم يرون في هؤلاء منافسين لهم ولأنهم يتخذون من الضغط عليهم وسائل لتحقيق رغباتهم عند الدولة . ومثل هذا ماجاء في كتاب « حوادث دمشق اليومية » ص ٢١٩ أن والي الشام أسعد باشا العظم قتل سنة ١١٧١ وصودرت أمواله ، من قبل الدولة ، لأنه لما نقل عن ولاية دمشق أغرى العربان بنهب الحاج ، فلما تحققت الدولة صدق هذا الاتهام صدر الأمر بإعدامه خنقا في الحمام ! !

وسيمر بالقارئ أن عبدالله باشا وعد شيخ قبيلة حرب بإصلاح مابينه وبين شريف مكة ، ولم يرد في الكتاب تفصيل لما بينهما وأخشى أن يكون ذلك من قبيل الإيهام لدى عبد الله باشا وأن شريف مكة أوهمه بذلك لكي يظهر نفسه بمنأى عن حوادث البادية ولعل في تعيين الشريف المذكور شيخاً لقبيلة حرب مكان شيخها المقتول مايدل على هذا فلو لم تكن منقادة له وخاضعة لأوامره لما قبلت منه أن يعين لها شيخا .

ومهما يكن فإن مما لاشك فيه أن ازدواج السلطة بين شريف مكة وبين الوالي أو أمير الحج ، ممن تعينه الدولة التركية وتمنحه من النفوذ والسلطة فوق ماللشريف نفسه ـ هذا الازدواج كثيرا ماسبب الفوضى وأثار الفتن واتخذ منه شرفاء مكة وسائل لإثارة البادية وتحريضها على إيذاء الحجاج

(١) « سلك الدرر » ج ٣ ص ٨١ و « حوادمشق اليومية » ص ٢٢٢

مما نجد أخباره في كثير من المصادر التي بين أيدينا منذ استيلاء الدولة التركية على هذه البلاد في أول القرن العاشر إلى زوالها وهذا مما ينبغي للمؤرخ المنصف أن يلاحظه عندما يريد أن يتعمق في فهم حوادث البادية .

ومن أقرب الأمثلة إلينا ماذكره صاحب «مرآة الحرمين[1]» أن الدولة التركية لما أرادت إنشاء الخط السلكي (الهاتف) سنة ١٣١٩ عينت الفريق صادق باشا العظم للإشراف على ذلك ، وصادق هذا وصفه صاحب «مرآة الحرمين» بالعقل والعلم وأنه يقدر الأمور حق قدرها ويعمل للدولة كل مافيه إصلاحها ، ولكن ذلك لا يعجب الشريف ، بل يريد عاملا إذا أمره أطاع ، وإذا أغرض ساعد ، فتصادم حقه بباطل شريف مكة عون الرفيق ، فوشى به إلى أولي الأمر فعزل ، وكان يحرض العربان على حرق الأعمدة وتقطيع الأسلاك وكتب إلى السلطان بأن العربان قطعوا الأسلاك انتقاماً منه (أي من الشريف) لإخلاصه لسدتكم ، وأنه أرسل إليهم عساكره فأدّبوهم وضربوا على أيديهم فأرسل له السلطان مكافأة على ذلك — وذكرها — وقال : فحرضهم على التخريب ليتوصل إلى هذه المكافأة ، هذا ملخص كلام صاحب « مرآة الحرمين»وأغرب من هذا ماذكر العياشي في رحلته (١٩٢/١) أن حكام مكة يرخون العنان للصوص وقت الحج ، وقد قيل : إنهم يأخذون منهم جعلا على ذلك أيام الموسم ، فإذا أتي إليهم بسارق أدخلوه الحبس على أعين الناس فإذا جنّ الليل أخرجوه . انتهى .

وهنا ملاحظة ينبغي ألاّ تغرب عن بال قارئ هذا الكتاب وهي أن الحوادث التي نسبت فيه إلى البادية ذكرت من مصدر واحد هو مصدر من ألف للتزلف به اليهم . ولهذا لم يذكر فيه سوى ماكان في مصلحتهم ، والمنصف لا يسعه قبول القول من جانب واحد ثم الحكم على أساس ذلك ، بل لابد من سماع قول الجانب الآخر ، حتى يتضح له وجه الحق .

ومهما يكن في هذا الكتاب جوانب أخرى جديرة بالدراسة ، فلن

---

(١) ج ١ ص ٣٨٠ إلى ٣٨٢ .

يقدم منه دارسو الأدب نصوصاً من الشعر والنثر لأناس عاشوا في حقبة من الزمن لم توف حقها بعد من الدراسة والبحث . وفيه وصف للطريق النجدية الواصلة بين المدينتين الكريمتين ، وهو وصف على إيجازه فيه تعريف ببعض مواضع ذلك الطريق لا نجده في غيره ، ثم إن هذا الكتاب أثر من آثار عالم من علماء بلادنا ، يلقي ضوءاً على حياة هذا العالم .

مؤلف الكتاب :

بيت البرزنجي من البيوت العلمية المعروفة في المدينة المنورة منذ أول القرن الحادى عشر إلى عصرنا الحاضر . وممن عرف من علماء هذا البيت (محمد بن عبد الرسول البرزنجي [1])

ومنهم جعفر بن حسن بن عبد الكريم بن محمد المدني الشافعي من مشاهير علماء المدينة وله مؤلفات بعضها مطبوع وبعضها لا يزال مخطوطا

وسرد صاحب « هدية العارفين » ١ /٢٥٥ من أسمائها :

١ ـ البر العاجل ، بإجابة الشيخ محمد غافل .

٢ ـ جالية الكدر بأسماء أصحاب سيد الملائك والبشر .

٣ ـ جالية الكرب ، بأصحاب [2] سيد العجم والعرب في أسماء البدريين والأحديين .

٤ ـ الجنى الداني في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني .

٥ ـ الروض المعطار ، فيما لجدي السيد محمد من الأشعار .

٦ ـ الشقائق الأترجية . في مناقب الأشراف البرزنجية .

٧ ـ الطوالع الأسعدية من المطالع المشرقية .

٨ ـ العرين ، لأسماء الصحابة البدريين .

٩ ـ فتح الرحمن ، على اجوبة السيد رمضان .

---

(١) التعبيد لغير الله لا يجوز ولهذا الشيخ ترجمة مطولة فى كتاب « فوائد الارتحال ونتائج السفر فى أخبار القرن الحادى عشر » وفى غيره من مؤلفات عصره ، ولحفيده جعفر مؤلف عنه جمع فيه شعره .

(٢) « فى هدية العارفين » : (بأسماء) بدل بأصحاب . وما هنا من « سلك الدرر » ٢-٩

١٠ — الفيض اللطيف ، بإجابة نائب الشرع الشريف .

١١ — النفح الفرجي . في فتح جيته جي — في التاريخ .

١٢ — نهوض الليث ، لجواب أبي الغيث .

وله أيضا :

١٣ — قصة المولد النبوي — مطبوعة .

١٤ — قصة المعراج .

ومنها « التقاط الزهر مختصر فوائد الارتحال ونتائج السفر » وهو من مخطوطات التيمورية في دار الكتب المصرية .

ولجعفر هذا ترجمة في « سلك الدر » وفي الأعلام » وفي غيرها .

وقد توفي سنة ١١٧٧ في المدينة المنورة .

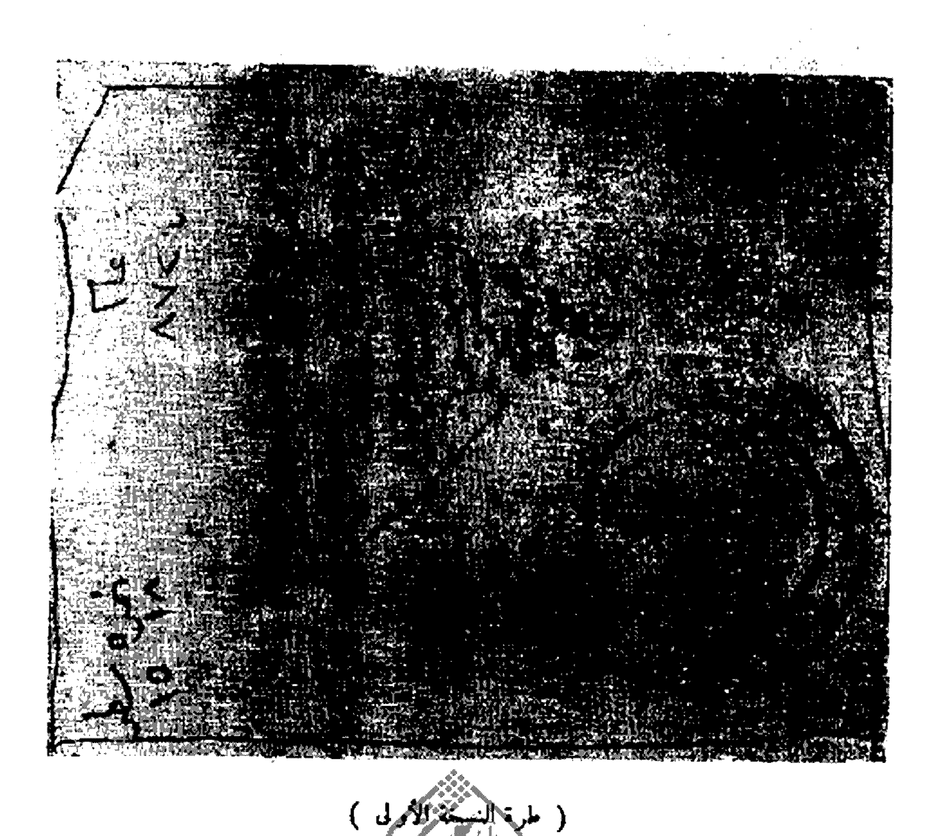
ومن علماء البرزنجيين أيضاً السيد جعفر بن إسماعيل المدني مؤلف كتاب « نزهة الناظرين في مسجد سيد الأولين والآخرين » وقد توفي سنة ١٣١٧ وترجمته في كتاب حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر [١] .

أصل الكتاب:

اطلعت على نسختين منه في دار الكتب الظاهرية في دمشق ، إحداهما رقمها ٥٢٤١ تقع في مجموع (تبدأ من الورقة : ٧١ إلى ٨٧) في ١٧ ورقة . وهذه النسخة خطها جيد، بقلم النسخ الجميل . ولا أستبعد أن تكون النسخة التي قُدّمت لمن ألف فيه الكتاب ، وقد جاء في آخرها بخط غير خط كاتب النسخة مانصّه : (هذه هدية الفاضل الأديب الشيخ محمد الدويكي في صفر الخير سنة ١٢٠١)

وعيب هذه النسخة وقوع خرم في وسطها يقرب من ست ورقات منها بين الورقتين (٧٨) و (٧٩) فالرقم متسلسل ، ولكن الكلام غير متصل . النسخة الأخرى : رقمها في دار الكتب الظاهرية (٨٧٢٤) وتقع في أول مجموع من الورقة الأولى إلى (٣٩) وملحق بها :

(١) ج ١ ص ٤٥٣ إلى ٤٥٢ .



(طرة النسخة الأولى)

١ — من (٣٩ب) إلى (١/٤٠) قصيدة لخضر بن يحي خضر ، في عبد الله باشا جيته جي وحادثة قتل عبد شيخ حرب المذكورة في الكتاب أول القصيدة

إلتق عبد الله باشا جتة جي عيد نحر قائلا : للنصرجي

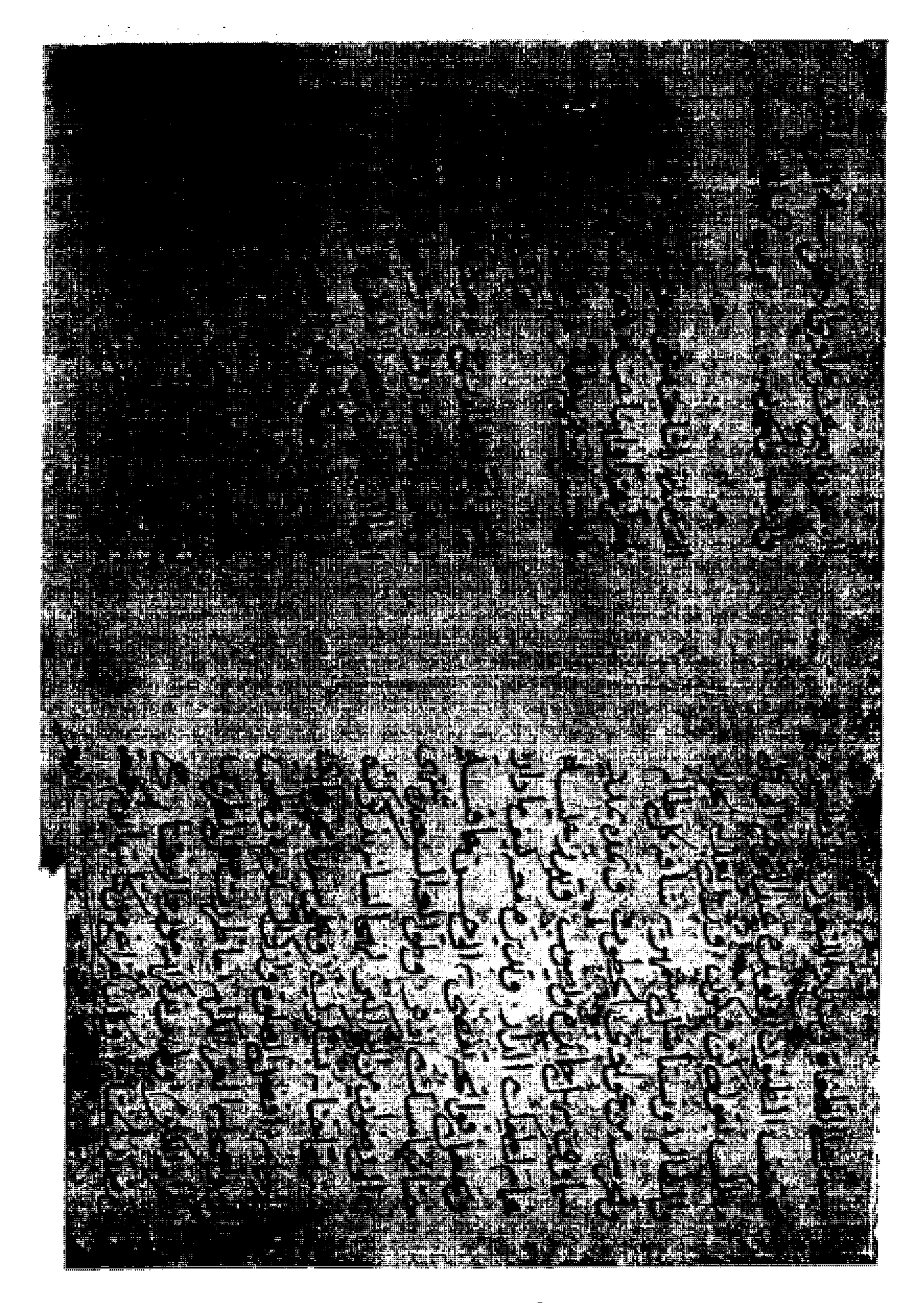
وآخرها :

وارحم الله تربا ضمها (؟) لحد عبد الله باشا جته جي .

٢ — من (١/٤٠) إلى (٤١ ب) قصيدة للسيد يحي بن حسين بن هاشم الـكاتب أولها :

نجم السعادة قد سفر في الأفق بالبشرى ظهر
بقدوم عبد الله باشا الهاشمى الشهم الأغر

وهاتان القصيدتان وإن كانتا في موضوع الكتاب ، إلا أنهما ليستا منه كما يدل على ذلك تاريخ كتابة النسخة وهاهو نصـه (٣٩/ب) : وكان الفراغ من كتابتها يوم الجمعة الأغر رابع عشر جادى الآخر ؟ سنة ١٢٠٤ والحمد لله رب العالمين) .



(آخر النسخة الأولى)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول المفتقر إلى فضل الكريم المنجي . جعفر بن حسن بن عبدالكريم البرزنجي : المنَّةُ لمن دله[1] ذرات الكائنات بمظاهر الأسماء والصفات، والحمد والشكر لكافي المهمات . وكاشف غياهب الكرب المدلهمات والصلاة والسلام على نبي وقفت الألسن دون منطقه العدناني حسرى . وسُرَّ قلب كل سريٍّ إذ سرى في الأغوار والأنجاد ذكره الإسرى ، حين جاء وقد ألقى الباغي في مناخ الضلال بجرانه ،ورفع عقيرته على معالم الباطل وأفنانه . فعقر بمخذم الحق سوارحه السائمة في مرتعه الهشيم المراد ، وأثار بأسهم الصدق بوارحه الموقعة على أطلال الفساد ،نبي جعل الله له وصف العبودية أشرف وصف وصفه به وسماه ، وناهيك بشرف تضمنه (لما قام عبد الله) وعلى آله وأصحابه الذين فازوا بالقدح المعلىّ من اهتزاز الأعطاف بين العواسل السمرو الحراز المحلىّ ، واستأصلوا شافة القطاع ، من كل حضيض ويفاع ، شقاشقه ماجر المجر المطعان على جند الوبال وجيش الردى ، وشقت جيوب بشقايق نعمان الهدى .

أما بعد: فإن مما جرى في سابق العلم المكنون ، أن هذه الدار ستعود من الظهور إلى السكون ، وأخبر البشير النذير ، الناطق عن القوي القدير ، بأن لزوالها قضايا ومقدمات ، ولفنائها أشراطاً وعلامات ، منها أن الاسلام يعود بعد الأهلية غريباً،ويجف غصن نضارته بعد كونه غضاً رطيبا،ويصير المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، ويؤتمن الخاين ويخون الأمين وإن كان بالخير معروفا ، ويغيض أى ينقص الكرام ، ويفيض أي يزيد اللئام ، ويوسد الأمر إلى غير أهله ، ويكرم الرجل اتقاء شره وجهله ، ويوضع

---

(١) التدليه . إذهاب العقل من الهوى يقال : أدله الحب أى حيره وأدهشه .
– صحاح – من هامش الأصل .

الرفيع ويرفع الوضيع ، ويصير أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع أي لئيم بن لئيم ، ويكون أرذل القوم هو المقدم الزعيم ، ويتكلم الرويبضة أي الحقير في مهمات الأمور ، وتظهر المعازف ويكثر شرب الخمور ، ويكذب الصّادق ويصدق الكاذب ، ويقضى بالظن ويتبع الهوى المجاذب ، ويكثر الجهل ويقل العلم ، ولا يوقر الكبير ولا يرحم الصغير ولا يستحي من ذوي الحلم ، وتقطع الأرحام وتسفك الدماء بغير حق ، ويظهر الحسد والبغي والشحناء والشح بما جل ودق ، وتضاع الصلوات ويظهر الرّشا ويتعامل بالربا جهاراً، ويستخفي الصالح بصلاحه كما كان المنافق يُسِرُّ نفاقه إسرارا ، وتكون الأهواء جمة ، ويطيع الرجل زوجته ويعق أباه وأمه ،وتكون همة الخلق بطونهم ودينهم الدرهم والدينار . ويصبح العلم في الأراذل والمداهنة في الأخيار ، وتكثر الأقاويل بين الناس ويضيع العمل ، ويكون المؤمن بينهم أهون من النقد وأذل ، ويلبس بعضهم لبعض جلود الضان على قلوب الذئاب ، أي يتحابون بالألسنة ويتباغضون بالقلوب والألباب ، ويقبلون على جمع الدنيا ويفغر كل لذلك فما ، ويختلون الدين بالدنيا . ويقتلون العلماء ، ويوضع الدين وترفع الدنيا وتعطل الحدود ، وتمات السنة ويفتخر بالآباء والجدود ، ويكثر الكذب ويعظم رب المال ، وتشق المعيشة فلا تدرك بغير معصية ولا تنال ، وتقتل العتْرة النبوية وتطرد عن الأوطان ، ويتطاول الحفاة العراة رعاء الشاء في البنيان ،ويكون الأفضل فيما بين الناس المداهن الذي لا يأمر ولا ينهى ، وتقعد الأعراب على أذناب الأودية فلا يصل إلى البيت الحرام أحد منها ، إلى غير ذلك مما أخبر به السيد الصادق وأشاعه ، وأنذر به من أمارات القيامة وأشراط الساعة ، وقد ظهر جل ذلك بل كله إلى الوجود ، وعم كل موجود في الأغوار والنجود ، وتقلص من الإسلام بُرْده الضافي ، وتكدر ورده الصافي ، وذوت أزاهير رياضه ، وجفت ينابيع حياضه ، وعاد موجود بهجته عدماً وصار الأحرار فيه خدما ، بعد أن كان منيع الذرى ، يستبعد أن يجرى عليه ماجرى ، ومن أفظع ماظهر من وهن الدين وانحطاطه ، ودل على دنو يوم القيامة من أشراطه، تغلب الأعراب في سائر النواحي ، واستيلاؤهم

على المسالك والضواحي ، بحيث استنسرت بغاثهم ، وصحت لهم أضغانهم واستأسد كل منهم في كناسه ، وقام كل أحد في أناسه ، وأمست عقاربهم تدب ، وريحهم العاصفة تهب ، فعاثوا فى الطرقات وفسقوا ، وانتظموا فى سلك الطغيان واتسقوا ، وانتشروا في البلاد ، وانتهبوا الطرائف والتلاد ، وقعدوا على أذناب الأودية ورءوس الفجاج ، وتعرضوا لأذى العمار والحجاج ، يساورونهم مساورة الأراقم ، ويعتورون عليهم بداء من المطالب فاقم ، ولا يرعون لهم عهداً ولا حرمة ، ولا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة ، ولا سيما القبائل الحربية ، فإنهم سقوا الحجاج من الأذى كؤوساً وَبِيَّة ، وقعدوا لهم بين الحرمين في كل مرصد ، واستتبعوا من بغى وطغى وصد ، واستسهلوا من المطالب صعابها ، وتوغلوا مسالكها وشعابها ، ومنعوهم بذلك من الجواز على الميقات ، وألجؤوهم إلى اعتساف الطرقات ، وحاصروا المدينة وسدوا مسالكها ، وصدوا عنها قاصدها وسالكها ، وروعوا طارقها ، وقطعوا مَرافقها ومُرافقها ، وتملكوا مزارعها وحدايقها ، ودمروا بساتينها اليانعة وبواسقها ، فأصبحت محاسنها وقد تلفعت في نقابها ، وتوارت كأراقم في أنقابها ، وآذوا جيران سيد المرسلين ، وضايقوهم في معاشهم فقاسوا منهم قسوة خطب لاتلين ، ومنعوا جفونهم السنات ، وأرعبوا النساء والبنين والبنات ، وشيخهم (عيد) عاث ببدر في فريقه ، عادل عن سنن العدل وطريقه ، يجتري على الله غير مراقب . ويقتطع حب جراياتهم وتكاياهم لاملتفت للعواقب ، بحيث لايتعذر عليه من ذلك مطلب ، ولا تصل السفن بشيء منه إلى ينبع الا علقه منه ناب أو مخلب ، وذلك حين أصبحت يد الهمم في يد الامتهان ، وعطلت ميادين النجدة من الرهان ، وصدئت بواتر أمراء الحاج في أغمادها . وقذيت شعل مشاعلهم برمادها . وأمسوا يتجرعون قطاع الطريق على مضضهم ، ويتغافلون عن غرضهم ، ويطوونهم على بللهم ، وتغضون عن زللهم ، إلى أن كانت سنة إحدى وسبعين فجاءت الطامة ، وصارت الخارصة آمة ،

وتجاسر في ذي الحجة شيخ بني صخر قعدان[1] ، واستدعى من قبائله القاصي والدان ، وعداهم على الجردة فسام[2] رجالها قتلا وخسفا ، وانتسف مافيها من الأحمال والأموال نسفا ، وأصفقت عليه الأعراب عند ذلك وسلكت سبيله ، واجتمع عليه منهم اثنان وعشرون قبيلة ، فترقى أنزله الله وحطه . وقده بسيف الحق وقطه ، وساقهم فجمعوا كيدهم وأتواصفاً ، واندفعوا في محرم نحو تبوك يداً واحدة زحفاً ، ونازلوا الحجاج بها وهم قافلون إلى ديارهم ، وحصروهم بها تسعة عشر يوما لتحصيل درهمهم وديناهم ، وكان أمير الحجاج لما وصل إليها ، وأناخ بها وخيم عليها ، وصلت إليه بها كتب من دمشق الغراء بأن لا يرتحل من المكان الذى هو فيه حتى تأتيه جردة أخرى ، ووافق ذلك منازلة قعدان ، بمن أطاع له من القبائل ودان ، فأقام الأمير بها منتظرا لوعدهم ، ومصغيا لزمجرة رعدهم ، وشائما للمحات برقهم ، ومستدراً لأخلاف ودقهم ، فلم يلح له من ذلك الأفق وميض بارق ، ولم يطرقه من تلك الناحية طارق ، وذلك لاختلاف الأجناد في الإغاثة وعدمها بذلك الناد ، لأن بعضهم أراد الصارخة نجدة وحمية ، وامتنع آخرون إلا أن يأتي أمر من الدولة العلية ، إلى أن آل أمرهم ، إلى فتنة

---

(١) هو قعدان الفايز شيخ بنى صخر . فى تلك الحقبة فى الشام ، ولا تزال المشيخة فى بيت الفايز إلى عهدنا ، وانظر عن بنى صخر هذا الجزء من المجلة .

(٢) قال صاحب كتاب « حوادث دمشق اليومية » فى ذكر حوادث سنة ١١٧٠ مانصه : (فى ٢٧ ذى الحجة وصل خبر إلى الشام بأن موسى باشا ، باشة الجردة – لما وصل إلى القطرانة خرجت عليه العرب شلحوه ، ونهبوا الجردة وكل مافيها ، حتى شلحوه لباسه وخاتمه من أصبعه ، وأنزلوه من تحته ، وركبوا مكانه فى التخت وأخذوا طبوله وأطواخه ومواقعه وكان كبيرهم يقال له قعدان الفايز . ثم تفرقت الجماعة الذين كانوا فى الجردة ، فرجعت منهم أناس إلى الشام ومنهم ناس انقطعوا فى حوران ، ومنهم ناس هربوا إلى غزة وناس إلى القدس وناس إلى معان مع بن موسى باشا لأنها قريبة من الموضع الذى نهبت فيه الجردة وأما الباشا فإنه رجع إلى قرية داعل وأقام بها مدة أيام فأرسلوا له تختا ليحملوه به ، فوجدوه قد مات فحملوه وجاءوا به إلى الشام) .

والجردة هى قافلة تحمل المؤن إلى الحجاج وتلقاهم فى طريق عودتهم إلى دمشق . وانظر مقدمة كتاب « حوادث دمشق اليومية » ص ٥٢ المقدمة .

تأجج بها جمرهم ، فاشتد لأجل ذلك على الحجاج البلا ، وعظم بطول الإقامة الغلا ، ونحروا كثيراً من ظهرهم ، ورأوا من الشدائد مالم يروه في دهرهم . وذاقوا لباس الجوع والخوف وبرد الخريف ، والأعراب من نهب الخردة في خصب وريف ، ولما أخلفت عساكر الشام أمير الحاج ماوعدوه به من نصرهم ، وقطع بأنهم شغلوا بأنفسهم وتخلفوا بعصرهم، استدعى قعدان ليصالحه على شيء من المال ، فوصل إليه ولكنه أعظم المطالب وأبعد الآمال ، وطلب من النقدو البن ماقدره وقيمته أربعون ألف دينار ، فلم يوافقه الأمير إلا على ثلث هذا المقدار ، فاشتد حنق قعدان ومضى ، وشام سيف غروره ونضي، وكان نزول الحجاج بتبوك وإقامتهم بها ، مانعين للأعراب عن اقتحام الخيام وانتهابها . فاحتال بعض الأعراب على الأمير ، وأخبره بأنهم فارقوا الإقامة ورافقوا المسير ، ليسهل نهب الحجيج وهو سائر ، على هاتيك القبائل الباغية والعشائر . فركن أمير الحجاج إلى قوله واعتقده ، وظن صدقه في ذلك وما انتقده ، ورحل من تبوك في تاسع شهر صفر ، مؤملا السلامة والظفر ،وسار إلى قبيل العصر فأحاطت بهم الأعراب من كل جانب. يرمونهم بالرصاص ويحملون عليهم مقانب إثر مقانب، وأذاق كل من الفريقين الآخر ماهو أبشع من العلقم وأمر ، إلى أن اسهارّ الليل وغاب القمر . فأتى الأعراب من خلف القطر وجاسوا خلالها واقتطعوا ماوصلت إليه أيديهم من أحمالها وساقوا جمالها ، وبلغ الأمير ذلك فأمر بالإناخة في تلك العرصة ، ولو سار ثلاث ساعات لبلغ ذات حج وسلم من الغصة ، واشتد بعد الإناخة القتال ، واستطال الصخري الختال ، وصار الحجاج حيارى ، تراهم سكارى وما هم سكارى، أبدانهم راجفة .وقلوبهم واجفة ، وأصواتهم خافتة ، وأبصارهم باهتة ، ووجوههم باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ، وأميرهم مشمر في المدافعة عن ساعد اجتهاده ، نابذ لمألوف وساده ، ودامت قبائل الصخري على اختطافها واختلاسها ، إلى أن برزت الشمس من كناسها ، فأمر الحاج بالرحيل ولسان ،الحال ينادي أن السير مستحيل ، وازدحم الحجاج، وثار القسطل والعجاج، وحمي الوطيس

وأفاض الله عليهم صبرا ، وبقوا في موقفهم إلى الضحوة الكبرى ، ثم نفر جواد الأمير لأصوات المدافع ، وألقاه على الأرض وولى عنه المناصر والمدافع ، وفر العساكر إلى ماستسهلوه من الجهات . لظنهم أن صرعته الحقته بالأموات ، ونهض الأمير سالماً وسار بسرعة ورج ، مع بعض اتباعه إلى قلعة ذات حج ، وهجم عند ذلك الأعراب على الحجاج أفظع الهجوم ، وانقضوا عليهم انقضاض شعل النجوم للرجوم ، وحالوا بينهم وبين قلعة ذات حج ومعان ، وقاتلوهم إلى أن ضعف المعين منهم والمعان ، وخالطوهم من أيمانهم وشمالهم وأمام وورا . وسلبوهم فصاروا عراة بالعرا . وسقوهم بسقيا الأسنة والظبا ، في هاتيك البسائط والربا ، وأبرزوا المخدرات من الخدور ، وكشفوا الحرائر وهتكوا الستور ، واستنزلوا ذوات الحظوظ والبخوت من غرف المحفات والتخوت ، وانتزعوا الأرواح من الأجساد ، وفرقوا بين الأمهات والأولاد ، وأذهلوا الرجل عن أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وصار لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، كأنهم بين أيدى الأعراب سوائم ترتع ، وأموالهم تنهب وتوزع ، وأخذوا منها فوق طاقتهم ، وحملوا منها ماعجزت عنه قوى استطاعتهم ، بحيث صار يسقط منهم في المراحل ، لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأمست الصحارى من الأمتعة والأقمشة ، كأنها أسواق مدهشة . ثم تمزق من بقى من الحجاج أيدى سبا ، هربا وموتا وسبا ، ولجأ من فر الى بعض القرى ، عادمي اللباس والشراب والقرى ، وطارت بذلك الأخبار ، وعم البغي لأقطار ، فقامت على الدين نوادبه ، وبكى لذلك المصاب شاهده وغائبه ، ولما كان لله فى دهره نفحات ، ولبرق اليسر مع العسر وميض ولمحات ، تدارك من الإسلام الذما الباقى ، وتلافى له نفسا بلغت التراقى ، بجلوس سلطان العصر وامامه ، وطلوع بدر محياه مزيلا للجور وقتامه ، حضرة السلطان الأعظم ، والخاقان الأفخم ، وواسطة عقد آل عثمان ، مولانا السلطان مصطفى خان خلد الله ملكه ، وأجرى فى بحار السعادة فلكه ، ومد بسطته ، وثبت وطأته ، فامتطى من أرائك الملك مكاناً علياً ، وَهَمَى على الرغبة وسميا ووليا ، وأقام الحق على أركانه ، ووضع العدل في ميزانه ، وأعلى للإسلام اسمه واحيا

آثاره ورسمه ، وأنار مطلعه وأفقه ، وأعاد بهجته ورونقه ، ووافق طلوع بدره المنير ، وامتطاؤه صهوة ذلك السرير ، وورود الخبر بهذا المصاب الذى جرح القلوب بصاب الأوصاب ، فأزعجه ذلك النبأ العظيم ، وأرقه ذلك الخطب الجسيم ، وأجج منه الأضالع ، وحدر على خديه ديم المدامع ثم سأل صاحب ختامه ووزيره المعتمد عليه في نقضه وإبرامه من اطلع للفضل فجراً ، فنسخ ليل الجهل الاسحم وفاض في التحقيق بحراً ، فاترع بفرائده وطاب الدفاتر وأنعم ، وورد من مناهل البراعة عبابها ، ورشف من مباسم البداعة رضابها ، الصدر الذى ولى الختام فاختال في بنانه ، وأصبح ذكره هجيراً لكل مؤمن وملهج لسانه ، وغدت البلاد فى أيامه عراقاً وامتلأ الوجود بنور محياه بهجة وإشراقاً ، ونفقت فيها أقدار الأعلام ، وتدفقت فيها بحار المعارف والكلام ، حضرة سيدنا ومولانا راغب محمد باشا صدر أعظم حالا ، كساه الله من حلل السعد بُرداً مطالا ، عن رجل يطبُّ هذا الكلم ويسد هذا الثلم ، ثم نثل[1] كنانة وزرائه الكرام ، لينتقى منها سهما يسدده لطريق الحاج وإمارة الشام ، فخرج سهم ملقح الحرب ، ومنتج الطعن والضرب ، الذى صاد الطير تحت أجنحة العقبان ، وأخذ الفريسة من فم الثعبان ، وطار فى الآفاق بالثناء الجميل صيته ، وخضع له من الدهر الأبيُّ ليثه ، وأرهب صوت صولته الجحافل ، وأشاب ذكره الأطفال فى حجور المطافل ، وفاض سجال نواله على قطر الغمام فأخصب ماهلك بالسنين والأيام ، عيبة الشرف الزاهر ، ومعدن الفضل الباهي الباهر ، الملحوظ بالأنظار السلطانية ، والمقدم فى صدور داووينها الجهادية الوزير الأكرم ، والمشير الأفخم ، حضرة سيدنا السيد الشريف جته جي عبد الله باشا زاد الله الوجود به بهجة وانتعاشا ، فسدد إلى دمشق سهمه وسنانه ، ورد إليها طرفه وعنانه ، ووجه إليها جيشه المتزاحم الأفواج ، المتلاطم الأمواج ، وبادر إلى استلامها ، وشفاها من آلامها ، وأخصب لكل من أهلها مرعاه ، وبره على عادته في رعيته ورعاه .

(١) الثلة : الدرع الواسعة ، يقال : قد نثل درعه أى ألقاها عنه ونثلت كنانتى . إذا استخرجت مافيها من النبل قاموس (من هامش الأصل)

ثم سافر إلى الحجاز ، وجعـل على حقيقته المجـاز ، وقتـل أشياخ حرب في ديارها ، وأثلج صدور المؤمنين بهدم منازلهم وتمزيق شعارها ، وشفى الإسلام عندما أشفى ، واقتص من أيام بغيهم واستوفى . وكنت صحبة ركابه الشريف ، ومن الذين أفاض عليهم خلع التكريم والتشريف ، متفيئا ظلال عنايته الوريفة ، من الرحاب النبوية إلى الأباطح الملـكية المنيفة ، وقد كان من كمال لطفه الذي حفّني بخفيـه ، وتمام عطفه الذى خصنى بخفيه . أن ضمنى إلى الأوحد الذى نفحت أزهار كماله ، وصدحت أطيار أفضاله ، مولانا السيد ابراهيم أفندى كاتب سره ، المقرب لديه والمعامل منه بلطيف إحسانه وبره ، فغمرنى بجزيل إحسانه ، وأهطل على من سحايب جوده ، وابل نيسانه ، فخطر لى أن أذكر إيقاعه بهم بضرب من الإجمال ليكون تذكرة لولاة الحجيج فيجانبوا الإغفل والإهمال ، مبتدئاً بذكر شيء من أحواله ومآثره ، ومشاهده الشاهدة بمفاخره .

إذا زان قومـاً بالمناقب واصف	ذكرنا له وصفا يزين المناقبـا
له الشيم الشم الـتي لو تجسمت	لكانت لوجه الدين عينا وحاجبا

وسميت هذا المسطور ، المزرى عرفه بالزهر الممطور « النفح الفرجي في الفتح الجته جي [1] » .

فأقول هو السيد عبد الله بن السيد إبراهيم بن محرم بصيغة اسم المفعول من التفعيل الشريف الحسيني الجرمكي نسبة إلى جرملك بجيم عجمية بين الجيم والشين المعجمة العربيتين مفتوحة فيم مكسورة آخره كاف — مدينة من مدن ديار بكر. أخبرنى أدام الله مجده وسقى بصيب التوفيق غوره ونجده ، أنه ولد عام خمسة عشر بعد المائة والألف ، وربع في رياض الاستفادة وقطعت

---

(١) ذكر الدكتور أحمد عزة عبد الكريم محقق كتاب « حوادث دمشق اليومية » ص ٢١٢ أنه اطلع فى المكتبة العامة فى فينا على مخطوط (رقم ١١٩٦ . MXTI 95) عنوانه «ترويح القلب الشجي فى مآثر عبد الله باشا الجته جى » تأليف رجل كان فى خدمته ، واسمه عمر بن محمد بن إبراهيم الوكيل — ونقل عن هذا الكتاب بعض ما فى كتاب البرزنجى الذى بين أيدينا .

من زهور العلوم أحسن قطف ، واعتني بتميق الرقابة بالقلم ، حتى صار لعمري في الخط المفرد العلم ، فكم من طرس دبج عراصه وأنجم رباه ، وعقد لآلي نظمه فخرت لتألفه الجباه ، إلى شجاعة سار ذكرها في الآفاق ، ووفق الناس فيها جموعاً وآحاداً للوفاق .

ضيغم الـكتب والـكتائب واسأل
عنه تلق الـورى جميعـاً شهـودا

وتواضع وبشـاشة ووقارو أعمال برّ خلصت خلوص النضار ، ونفس أبية مرتاضة ، وعزيمة قوية ناهضة .

يـكاد من صحـة العـزيمة مـا
يفعـل قبـل الفعـال ينفعـل

وسجـايا تنجلي عن الظلمـا ، وندّى ينـادي أيها الرائد سَلْ ما .

يستصغـر الخطـر الـكبير لوفـده
ويظن دجلة ليس تكفي شـاربا

مع تخـل عن معتـاد الولاة من معاملة النفس بالإسعاف والإسعاد ، وتحـل في ماكله وملبسه وشأن نفسه كله بالاقتصار والاقتصاد لا يرفع للامور الدنيوية رأساً ، ولا يولي أعلامها المنشورة إلا طيا ونكسا ، ولا يعير زخرفها البهرج التفاته وطرفا ، ولا يميط عن مخدرات نفايس ذخائرها سجفا، إنما ينافس في المعالي ويسهر في طلابها الليالي ، قدوازن بين الضرتين فرآي أن هجر الدنية منهما أحرى ، ونظر إلى وصف النشأتين ، فركن إلى أعظمها نشوة وأجلهما قدرا ، ولله در المرحوم الصدر الكبرلي الشهيد ، حيث قال في منظوم عقـد له فريد .

أهـون بدار وأهـون بالمتـاع بهـا
ومـا المتـاع بهـا إلا التـآثيم

هل المفاخر إن دقت وإن عظمت
من ذي تعاجيب إلا العلم والحسيم
من ظن دونهما فخراً ففخره
مامتعت في مغانيها الأناعيم

وأما تعظيمه للعلماء . وإكرامه لكل كمي حاز المجد وسما ، وشدته على الفجرة اللئام ، ورقته للضعفاء والأيتام ، فأمرٌ تناطقت به ألسنة العموم والخصوص وتطابقت عليه بينات الأقيسة والنصوص .

فقويٌّ عتا عليه ضعيف وضعيف أتى إليه قوي

لا ينفك مجلسه المنيف عن مباحثات علمية . ومطارحات حسنة أدبية . ومحاضرة تهش لها النفوس وتشرب من جريالها بكوس . وفكاهة تجنح إليها الأفكار . جنوح الطير إلى الأوكار . ويكلف بها الخاطر . كلف المعاطس بالنسيم العاطر

حافظ لكثير من الشواهد . عارف بالمصادر منها والموارد ، ماجرى غالبا كلام بين يديه إلا وجد له شاهد من كلام المتنبي أو غيره لديه .

ولله ساعات قضيتها معه لم يغفلها من سمات عوارف ، ولم يصحها من ظل إيناس وارف . دخلت عليه في سرادقه برابغ مهنيا له بظفره برجال حرب . ومايسر له فيهم من الطعن والضرب ، فانهل هيدب بشره بجود صيب . وأورد قول المتنبي أبي الطيب .

لكل امرئ من دهره مانعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وفيه من اللطافة مالا يخفى ، ومن حسن التورية ماهو أرق من رقراق الظل وأصفى ، لأن الممدوح للمتنبي سيف الدولة الحمدانية والمترجم صان الله مجده سيف الدولة العلية العثمانية . والمشهور بين وزرائها الكرام بتخصيصي هذا الوصف الثاني المرام .

ودعاني أيضاً أدام الله رقيه، بمنزله بغدير سلحة[1] بالطريق الشرقية. وقد ضرب سرادقه على غدير نسج عليه زرد النسيم. وضحك ثغر روضه الوسيم. ومن بالمطارحة على بساط المباسطة والإدلال. ونثر من ذلك عقد درر ولآل. وهصرفنن قول امرىء القيس الرطيب. والمورد فى أول «تلخيص الخطيب»:

غدائره مستشزرات إلى العلى تضل العقاصُ فى مثنىً ومرسل[2]

وقرر أنه جمع غديرة وهي ذؤابة الإنسان وأما غدير الماء فجمعه غدران

وقال مشيرا إلى لوم غُزٍّ مصر الذين اجترحوا عظيم الحوب والأصر.

إذا أنتَ أكرمْتَ الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرَّدا

وقال في بغاة حرب وطغيانهم ومعاملة أمراء الحاج شرارهم بإحسانهم

ووضع الندى في موضع السيف بالعُلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

إلى غير ذلك من فوائد تضوع بهـا مجالسه. ويقتطف أزاهيرها مجالسه، وله مصنفات عجيبة جلا عرائسها على منصات أوضاع غريبة. أوقفني أسنى الله مراقيه، وأسمى مراميه، على كتاب منها وسمه «بأنهار الجنان في ينابيع آيات القرآن» فدلني تألف عقوده الجوهرية وولهني نور كواكبه الدرية ونشقت من أردان أبراد إيراد فيه عرفاً يخجـل أزهار الرياض، وأرجا ينعش القلوب المراض قال: اعتنيت كثيراً بتصنيفه واستعنت بجملة من المواد على ترتيبه وترصيفه، منها «الاتقان» للإمام الحافظ السيوطي عبد الرحمن. وذكر كتباً أخرى لا تحضرني أسماؤها الآن.

ومن تصانيفه رسالة في العروض، تحصيلها لحسنها من الفروض. وأخرى في معراج الصفي الحبيب. سماها لرفعة شأنها «بالكثيب».

وخدم الدولة العلية فكان من أعز رجالها. وأندر كماتها وأبطالها.

---

(١) سيأتي تحديد موقعه وأنه شرق الضريبة (ذات عرق).

(٢) المعروف (تظل المدارى) وهو من معلقة امرئ القيس المشهورة.

وأكرم بطوغين من الألوية السلطانية ، والبنود الشريفة الخاقانية . وبعث لصيانة بعض جهات . كانت قضايا أهلها غير موجهات ، فراع العصاة في آجامها . وأبدلها عن سرعة إقدامها بإحجامها .

ولما ولي أمر الغزاة المرحوم علي باشا عابدي زاده.ونازل مدينة بلغراد في سنة خمسين ونال من فتحها مراده . كان مولانا الوزير هو الذي أنزل أهلها عن صياصيهم . وتمكن من أوداجهم ونواصيهم . وانقض على عسكر النادر في بلاد القرص انقضاض الجارح . وانصبَّ عليهم انصباب الطير على السّارح . وأصيبت من فعله هناك الروافض . بما هو أشد من وقع المحرقات النوافض . وذلك مع الصدر الكبير المرحوم محمد باشا الوزير . إلى غير ذلك من واقعات له مشهورة . ومقامات هي بين الناس مذكورة .

ولما بلغ المرحوم مولانا السلطان الغازي محمود خان . برّد الله مرقده وثراه . وكافأه بما قدمه من الخير وأجراه . أفعال المترجم في العدا . وكيف سقاهم كأس الردى ، كافاه بالطوغ الثالث تكميلا للنظام . وصيره بذلك الإنعام من وزرائه العظام . فرقت أوامره بطون المهارق . وتحكمت بواتره في الطلا والمفارق . لم تتعطل كفه ولابنانه . آونة يراعه وآونة سنانه . وطوقت مواهبه الأعناق . وأغضت الجفون والأحداق. وولى جملة من البلدان التي عظم شأنها . والمدن التي رسخ على قواعد الأحكام بنيانها . منها ديار بكر وأذنة وأرض روم ووان . وكتاهية وسيواس وطرابلس وحلب وداربزان . ووجه فيما بين ذلك لقتال طايفة من الأكراد كان لهم بقرب الناحية الحلبية طراد . فاستدنى قاصيهم . وسهل عاصيهم .

ولمـا اختاره مولانا السلطان المتقدم اسمه الشريف لولاية الشام ، والتفيؤ بظلها الوريف . حسبما أشرت إليه . ونبهت فيما تقدم عليه . نفر بجنوده خفافا وثقالا . وسارهم إلى جلق الفيحاء خيلا ورجالا . وحصل في قطب دارتها . ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها . فألفاها وقد تناولتها يد للبغي خشنا.وأصابتها فتن أرقت عينها الوسنا.من زُرب شرهم قد تشمر ، وضرهم

قد تنمر . فدعاهم بعد ثلاث من وصوله إلى الطاعة . والدخول فيما دخل فيه الجماعة . فأبوا إلا انفارا. ولم يزد الدعاء . قلوبهم إلا خلواً من الطاعة وإقفارا. فقصدهم بخيله فى ميدان مراحهم . وأجال جواد عزمه فى مضمار انشراحهم. فثبتوا في ذلك اليوم في ميدانهم . ولم يشمروا للهرب واسع اردانهم . وزأر عليهم في اليوم الثاني زئير الأسد على النقد . وحل من غزل بغيهم ما انبرم وانعقد. وحمل عليهم حملة صيرتهم فرقاً . وملأهم رعبا وفرقا . ورموا من الخَوَر أسلحتهم وسووا للفرار أجنحتهم. فنهم من اختار فراره وجلاه . ومنهم من وقفت به لحينه رجلاه . ولما أطفأ جمرهم المتسعر وأزال أمرهم المتوعر. وعاق للدمشق رمد عيونها. وأقام لها أود متونها وأزال خلافها وأدرّ عليها من سحايب بره أخلافها خرج متفقداً لأعمالها . وجابيا الخراج من عمالها، ومهّد أطرافها. ووطأ أكنافها . وسهل منها صعاب الأماكن . وأمّن الظواعن والسواكن. وانتزع الكرك من أيدي المتغلبين عليه بسعده. وشحنها بطائفة عظيمة من جنده . وسلّط عرب السَّرْدية . على القبائل الصَّخْرية [1] وأصحبها رجالا من جنده وأميرهم خليل أغا طوبال. فظفروا بهم وسقوهم من البأس كاس وبال ؛ وغنموا منهم خمسة آلاف بعير . ثم جاء بني صخر من قومهم مدد ونفير. واقتتلوا إلى أن حجز بينهم الظلام. وعاد خليل أغا غانماً تخفق عليه من الظفر أعلام. ثم خرج مولانا الوزير إلى الحج الشريف. بعسكر حجفل كثيف. أعدادا يضيق عنهم الفضا . وأنجادا يزهو بهم النفوذ والمضا . ولما وصل إلى معان تعرض له الصخريون طالبين صرتهم في ذلك الفج . فأعرض عنهم تالياً لسان حاله (ولا جدال في الحج) والتوى عن مساورتهم . وانثنى عن مراوحتهم ومباكرتهم .

ثم وافى البلدة الطيبة طابة . وشاهد أنوار معالمها المستطابة . في يوم الثلاثا سادس عشري ذي القعدة الحرام . وتلقاه كبراؤها على عادة أسلافه وأسلافهم الكرام . ودخل في موكبه والناس ينظرون إليه . وهو يسلم عليهم وهم يدعون له ويردون عليه. وقد ملؤا الطريق وانتشروا في جوانبه وأكنافه .

---

(١) بنو صخر من قبيلة طيء ، وتجد فى هذا الجزء من مجلة « العرب » نبذة من أخبارهم

ووقفوا سماطين على أمنافذه وأطرافه . وقابل الكل بالتبجيل والإجلال . وألبس أولى المناصب ملابس عز وجلال. ومنهم الأروع الغطريف . مولانا السيد جعفر بن سعيد مرسلا إليه من حضرة الشريف . أفاض عليه سموراً وخصه بجل التفاته . وجعل إليه كل خطابه وجميع مناجاته . وكذا مولانا السيد يحيى بن أحمد بن مساعد . ألبسه عباءة زركشية تسامى طرزاها وتصاعد .

ولما توجه مولانا الوزير إلى زيارة جده صلى الله عليه وسلم .علّق على الضريح النبوي المكرم. لوحاً محلّىً بخالص النضار . ومكللاً بمثنى حبة من اللؤلؤ الفاخر والياقوت الكبار . قد كتب فيه بخطه السامي [١] من مديح سر المسميات الأسامي :

بلغ العـــلي بكمـــاله	كشف الدجـــا بجماله
حسنت جميـــع خصاله	صـــلّوا عليه وآلــــه

وكتبه عبدالله الوزير الشهير بجته جي .

ووصل أيضاً بالليل متخفياً إلى المسجد النبوي المنير . وتصدق على فقرائه بقدر صالح من الدراهم والدنانير .

ولما تـم لعيد [٢] شيخ حرب أمده . وأراد الله أن تخر عمده . وتنقرض أيامه . وتتقوض عن عراص الوجود خيامه . انتزى على حضرة الشريف وهو موليه . واجتزى بتوليه . وبعث إلى حضرة الوزير بالمدينة ابن عمه المدعو فارس . وأصحبه رسالة مفادها أنه باذل جهده في عمارة طريق الحاج بالحفظ والحماية وحارس . ورغبه في السير إلى مكة على الطريق السلطاني .

---

(١) الـكتابة على القبر الشريف وغيره من القبور وكذا التعليق عليه من الأمور المبتدعة في الدين الحنيف (وكل بدعة ضلالة) .

(٢) يظهر أن عيداً هذا من آل مضيان شيوخ حرب الذين كثر تحرشهم في تلك السنوات ، فني سنة ١١٥٤ كان والي الشام علي باشا بن عبدي باشا ، وهو أمير الحج هذا العام ، فلما أراد الخروج من المدينة إلى مكة أقبلت عليه قبيلة حرب فتصادم معها في العقيق ، وحدث بينه وبينها قتال فيه كثير من الفريقين، ومنهم شيخ حرب ابن مضيان « حوادث دمشق اليومية » ص ٧

واستدني من معتاد صرتهم يانع الجنا الداني . وأعطاه في كتابه على صدق الطاعة عهودا وموثقاً مؤكداً مشهوداً . فقال له مولانا الوزير: إذا كان حال ابن عمك في الطاعة ما ضمنه كتابه . فما باله عند قرب وصولنا يضرب طبله وعزّب أحزابه . فأعلمه أن ذلك منابذة لحضرة الشريف حيث منعهم أن يتفيئوا ظل إحسانه الوريف . وكان سيدنا الشريف قد منعهم مقرر إحسانه. وكف عنهم هاطل سحايب نيسانه . لأنهم قابلوا الإحسان بالإساءة. وأشربوا فى قلوبهم حب البغي وأداموا احتساءه ؛ ولم يقوموا بما وجب عليهم من خدمة الحجاج والعمار . التي هي سبب ذلك الإحسان المقرر لهم والإدرار . غير أن عيدا كان يتظاهر بالطاعة والانقياد . وينسب إلى قومه ما يبدو من قطع الطريق والعناد . حتى إنهم لما ثاروا قبيل ورود مولانا الوزير إلى المدينة بأيام قلائل . يطلبون من سيدنا الشريف المقرر لهم الحال والحائل . كتب إلى حضرة الشريف يتبرأ منهم . ويعلمه بأنهم عاصون لأمره وأنه قد بعد في هذا الأمر عنهم . وأحسن سيدنا الشريف لحسن نيته الظن بقوله هذا واعتقده . وأرسل لملاقاة مولانا الوزير بالمدينة أخاه السابق ذكره وعول عليه في ذلك واعتمده ؛ وسار إلى أن بلغ أثناء الطريق . فبلغه أن شيخ حرب ذبل غصن طاعته الوريق، وأنه قاوم وانتزى . وانتمى للمخالفة واعتزى . ونضى عهد حضرة الشريف وخلعه . وبث من النكث ما حنى عليه أضلعه . وبرا في ذلك وراش . وغلى فى القول وطاش . وفار فورة ظن أنه بها بلغ السماك . وبذّ معها الأفلاك. واستخف قومه فأطاعوه من ابن عم وحليف . وانتشروا في الطرقات مترصدين لرسل حضرة الشريف . وقعد كل منهم بواديه . وبدت من شرهم بواديه وضاق السيد جعفر بن سعيد بذلك ذرعاً . وسلك الطريق الفرعية وترك القوم صرعى . وباين الطريق السلطاني ونوى غاية هجره ، إلا أن يطلع الله بالنصر على عيد بارق فجره . فابرّ الله البار الرحيم قسمه . وأبرز ما كتبه فى الأزل ورسمه . وما كان إلا ريثما أظهر عيد بغيه ودقّ زيره. وأوقد ناره واستدعى نفيره ، حتى ثار له الوزير ثورة الأسد الورد . وامتنع له امتناع صاحب الأبلق الفرد . واقتص منه اقتصاص ابن ذى يزن من الحبشان .

وتركه أخسر صفقة من أبي غبشـــان . وأرداه وقومه بالذي أرادوه . وكادهم بالكيد المتين كما كادوه كما سيأتي إن شاء الله تعالى بسطه . وكيف كان نصيب عيد من الحين وقسطه .

ولما أجاب فارس المقام الوزيري بما تقدم ذكره خلابه السيد جعفر ابن سعيد ونشر له من مطوي أمر حرب ما يجب نشره . وأعلمه بقصتهم وأنه وقت الفرصة بغصتهم.وأشار عليه بأن يقبض على فارس ومن معه من عصاة حرب ويودعهم قلعة المدينة . ويضم إليهم رجالا من مطيعي حرب ويكون الجميع بها رهينة . ويرجى أمر صرتهم إلى أن يحج ويعود إليها . ثم إن نصحوا في الخدمة يدفعها لهم ويكرمهم بالزيادة عليها ،وإنما أشار عليه بذلك تخوفاً من غدرهم . وحذرا من نكثهم الذى اعتادوه ومكرهم . فإنهم طال ما أظهروا لأمراء الحاج أن قدمهم في الطاعة عريق . ثم غدروا بهم إذا ساروا وتوسطوا الطريق.فقال له مولانا الوزير – بعد أن تأمل بفكر صائب ورأى غزير – : أما تأخير صرتهم فأفعله تحرّزاً من معرتهم ، وأما حبسهم الآن فلا أراه . ومن تعرض لى منهم في الطريق فسيقصم الله عراه . فاستحسن السيد المذكور قوله واتفقا عليه ، وفوض الأمر في مستقبل أمرهم إليه ، ودفع المترجم لفارس جواب كتاب عيد ، وسلك فيه طريق الوعد لا الوعيد ، ومحصله : قد أوصل ابن عمك كتابك.وفهمنا خطابه وخطابك فما ذكرته من التزام الطاعة .أنت ومن حولك من ذوي ظاهر وذوي جماعة، فكونوا على ذلك في جميع الأحوال. أكن لكم بالبر والإحسان خير وال. وإن وفيتم بهذا المراد ولزمتموه بترك العناد وإعطاء القياد. فما تعتادونه من الصرة يصل إليك وبحلولنا ببدر يحل بين يديك .

ثم سافر بعد أداء عصر يوم الأربعاء وهو اليوم الثاني من دخوله.وسار على الطريق السلطاني متبرئاً من قوته وحوله ولما أناخ بالجديدة دفع إلى أهلها صرتهم.وأبقاهم على قانونهم وأقرهم.وأخبروه بأن عيداً أبعد في آماله المرمى. وتقدم بمجموعة من بدر إلى الخرما ، مرتدين بأردية العجب والاغترار: قائلين : إنا ثقبنا النار! حنا حماة الدار ! ونزلوا بذلك المعقل الذي لم يعقلوا أنه

لهم يعقل.وزعم عيد أنه ينيخ الحجاج بالحمرا. ويأخذ منهم بغيته من البيضاء والصفرا.والقدر يضحك من ورائه ، ويضكك له بفتح أرائه .

ثم وصل كتاب من عيد أيضاً يطلب ماهو لحرب من الصر وما هو لهم عند سيدنا الشريف من المقرر. ودس النكث في مراسلاته.وظن في ذلك البغي طريق نجاته. فأراد مولانا الوزير إهماله بلا جواب.حيث رآه جانب صوب الصواب .

ولا كتب إلا المشرفية عنـــدنا ولا رسل إلا بالخميس العرمرم

ولـكن شفع لدى جنابه أناس من حرب سائرين تحت ركابه. ورجوه أن يجيبه [1] عما لعله يكون سبب السلامة ويصونه عن موجبات اللوم والندامة فرغب فيهدايته إلى الطريق الأقوم التي خص خيرهاوعم وعمل بإشارة جده صلى الله عليه وسلم في قوله لجده علي رضي الله عنه « لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم» وكتب إليه مضمون الكتاب الأول وزاد فيه :(ونكرمك بالفيّ غرش فليكن منك على قولنا المعول. وإذا وصلنا إلى سوح البيت المنيف نصلح أمرك ونستعطف لك خاطر الشريف فإنهبلغنا أنه متغير الخاطر عليك لأمور وقبائح صدرت منك ونسبت إليك ونخاطبه في تدبيركم والقيام بالدقيق والجليل من أموركم) وأصحبه حامل كتابه وأعلمه أنه منتظر لجوابه ثم رحل في وقت عصر الجمعة ونزل بالهوبجة عند ارتداء الشمس بثوب الاصفرار.وجنح إلى البيات ثم ، ليكون عبوره على الحرما ضحوة النهار . فلما مضى هزيع من الليل ومالت الجنوب واضطجعت وهومت العيون للنوم أو هجعت ، جاءه جواب عيد يبدي في تعنته ويعيد ويطلب ستة آلاف غرش يفرق بها أحزابه ، وألف غرش زعم أن سالفي الوزراء أكرموا بها جنابه فبان لحضرة الوزير مكره وعمهه في طغيانه وسكره وتلا لسان حاله (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) و (عما قليل ليصبحن نادمين) ثم آذن بالرحيل وسار بعد الفجر بقليل وظهر له وهو على

---

(١) من هنا يبتديء خرم النسخة الثانية .

متن جواده إن يكتبه إلى عيد. ويحذره نكث الموقف الأكيد ، وأمر فكتب له بمحمل ما سبق ولكن بلين وتهديد . ومزج للوعد بالوعيد . وحذره شديد بطشه وقوي قهره إن لم يثب من خرماه إلى بدره ، فلما وصل الكتاب عبس وبسر وأدبر واستكبر . وعذل حامله وآلاه خياله وآزره جنده المخذول وجباله ونفخ إبليس في أنفه فكان باحثاً عن حتفه بظلفه .

والشرُّ مثل الليث إن تبرز له   يبرز على عجل وإن تَسْكُن سَكَن

وسار مولانا الوزير في أبهة وجلالة والحجاج يسيرون بسيره ويتفيئون ظلاله ، ويسألون الله تعالى أن يحسن مآله ويبلغه من الظفر بعدوه آماله وهو يتلمظ للطلا والهام وقد تنكب القوس وجعبة السهام وجرد عن الجد لثامه . واطلع للانتقام غمامه . والموت يشع من ألحاظه ويتصور من ألفاظه وحساماً (؟) يعد بعضائه ويتوقد عند انتضائه .

ولما دنا من الحرما تقدم بعساكره المنصورة وعبأها فكانت خيلها ورجلها على سبعة كراديس مقصورة :

من كل أبلج واضح ذي سورة   يمشي إلى الهيجاء مشي غضنفر
يلقي الرّماح بوجهه وبنحـــره   وتُقيم هامته مقـــام المغفر

وملأت تلك السهول والهضاب ، تزأر زئير أســـد غضـــاب ،

وإذا نظرت إلى السهول رأيتهـــا   تحت الجبال فوارساً ونجائبا
وعجاجة ترك الحديد سوادها   زنجـــاً تبسّم اوقذالاً شائبا
فكانما كسي النهـــار بها دُجا   ليل واطلعت الرماح كواكباً
قد عسكرت فيها الرزايا عسكرا   وتكتبت فيهـــا الرجال كتائبا
أسد فرايسها الأسود يقودها   أسد تصير له الأسود ثعالبـــا

وتراءت الفئتان وعج الفريقان أهل الحق بالتكبير والتهليل وذو الزيغ بالعواء والعويل ، وقامت الحرب على ساق وبرز أولوا النجدات والسباق ولسان حالهم يتلو ويستبشرون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

وحمل مولا نا الوزير وكماته الأبطال وخالطوا الأعراب فى هاتيك المتارس والجبال . بكل أجرد مهزول عن الجماح معزول

من فوقه بطل شاكي السلاح له ... بقرنه شغف بالحرب مشغول
من معشرٍ خشن قد قال سيدُهم ... لما تلاقوا مع الأعدا: أ‌َلاصولوا
صالوا بسمرقناةٍ بالدما خُضبت ... كعوبُها تنثني في قدّها طُول
صالوا بقوس سديد النصل ثم شد ... يد النّبل ثم حديد النّصْل بل قولوا
صالوا باسْهُم شهم إن رمى فرما ... ونصله بنياط القلب معقــول
صالوا بمدفع منه حين يطلقه ... راميه في الجو أصواتٌ مهاويل
كأنّه صوت رعد قاصف وله ... كالبرق نارٌ به الإبصار مسمول
كأن حبتــه في النار صاعقةٌ ... بها رصينُ البنّا هدمٌ ومحلول
صالوا ببندقة بارودها حــدقٌ ... بكف ذى الأيد منه الزند مفتول
حبّاتها لقلوب القوم خارقةٌ ... كان أجسامهم منها غرابيــل

ولما رأى الأعراب ما نزل بهم من الأمر الباهر حاصوا حيصة الوحش النافر (كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ومالوا إلى الهرب مسرعين وضاق عليهم الوجوه والمذاهب ولم يكن إلا قدر فواق حتى صارو كأمس الذاهب . وطوّق عيد الحسام طوقاً وذوق الحمام فما استعذبه ذوقا . بعد أن صار من الفشل كأنه في عقال ، قصره عن الوخد والإرقال أخذه الله تعالى بسوء أثره في شريف مكة ووالبها. ومظالم كان يرتكبها من الحجاج وأهل المدينة ويواليها ، وهذه قدرة الله تعالى تستنزل الأعصم من هضابه وتأخذ المغتر بأسبابه ، وحمل رأسه إلى المخيم والعيون ترمقه كأنها سهام ترشقه وكان قد مُرَّ به قبل يومين والجرود تحفه كأنه هدىٌ وهي تزفه.فعجب قومه مما كان بين ورده وصَدَره ونعوذ بالله من سوء قَدَره ، وقتل من أبنائه وإخوته وبني عمه نحو ثمانية رجال كان لهم في العدوان علو ومجال ، وقتل من أقاربه وذويه أضعاف ذلك ، وكذا جماعة من زعماء حرب الذين يصدون الحجاج عن المسالك. وتركوا مضرجين فى تلك البقاع وفي لحومهم ولائم للسباع .

سبعون نَفْساً لعمري منهم هلكوا | في ساعة من نهارٍ ما لها طول
كأنهم جيفا أصحاب أبرهةٍ | كأن عيدَهم العاتي هو الفيل
كأنّ مترسهم وادي محسّرهم | كأن أبطالنا طير أبابيل
كأنّ حبّات رَمْيٍ من بنادقنا | حجارةٌ قذفتها اليوم سجّيلُ
كأن أوصالهم بالتُّرب إذ طُرحت | ومزّقت في الثرى عصفٌ ومأكول
كأنّهم قوم لوط حين صاحَ بهم | وقلب الأرضِ فيهم صاح جبريل
والرأسُ من ميتهم فوق الرماح مشى | والجيدُ من حيّهم في الحبل محمول
كانوا يظنّون أن الدست تمّ لهم | وإن طالبهم بالغرم ممطول
زادت مواعيد إبليسٍ غرورهم | (وما مواعيدها إلا الأباطيل)
يُغرّهم ويُمنّيهم فيهلكُهُم | وإن أعدى العدا عمْري عزازيل
والكيد منه ضعيفٌ والولاء له | عداوة وردى ماضيه تعويل
وإن كيدي متينٌ قول ناصرنا | والضّعفُ بالمتن مبتولٌ ومتبول
قد اصطفى الضيغم الباشا لقتلهمُ | من بعد يأسٍ فعبد الله فاصُول
ليثُ الكماة معينُ الدين حتفُ عدًى | سيف الإله على القطاع مسلول
كأنه خالدٌ في بأسه وندًى | قد صار يُزْري بمعنٍ فهو مرذول
والعون والنصرُ من ربّ السماء له | والعزّ والعمرُ والإحسان مسؤول
فتحٌ عظيمٌ له بين الورى قصص | وسعيه الجدّ مشكورٌ ومقبولٌ
وإنه لأولي الألباب تبصرةٌ | وحجـةٌ لرجال العلم إن سيلوا
وقوةٌ لقلوب المؤمنين إذا | يوماً غزوا لا يكن جبن وتفشيل

واستمر مولانا الوزير ثم ، على ذروة جبل ، يسقّي الأعراب من صاب بأسه عللا بعد نهل ، إلى أن مر ساير الحجيج ولهم بذكر الله على هذا الظفر زجل وعجيج ، ثم انصرف وأعلامه ترقصُ في أكف الرياح والفوارس بين يديه تختال من الارتياح ، وسار إلى قرب العصر فأناخ بقريتين متصلتين قريباً من بدر تعرفان بالبركة والفارعة ، والأعراب قد حلت بهم المثُلاتُ ونزلت بهم القارعة . ونهبت دورُ وأسواقٌ بالخرما والواسطة ، وجدت بهما نخيلٌ للقبائل الحربية القاسطة ، وحمل الجند الوزيري نحو خمسين رأساً من

رءوس الأعراب القتلى ونسخوا آيات مظالم لهم كانت دهوراً تذكر وتتلى واستقر مولانا الوزير بالمنزل المذكور وسعيه الحمد محمود ومشكور. وما كان إلا ريثما اضطجع ليستريح بإحدى القباب الموطدة له بهاتيك الرحاب الفيح، وإذا بطائفة من الأعراب المنهزمين تسوروا قنة جبل هناك وأخذوا يرمون حجّاج المسلمين فنهض الجناب الوزيريّ بقوسه وسهامه ولحقه طوايف من أجناده وخدامه وسقوا من دنا أجله من أولئك الرماة كأس حمامه وعاد محفوفاً بالظفر إلى رحله وخيامه .

ثم صاح صائح قبل سكونه واستقراره بأن الأعراب سدوا عيون ذلك المنزل وسكروا مجاري أنهاره ، فركب بنفسه الكريمة مصرخاً صرختهم ثم رجع وقد كشف غمتهم .

ولمــا مضى هزيعٌ من الليل وجر نسيم الكرى على حدائق الأحداق الذيل،وصلت كتبٌ من أهل بدر وهم قبائل صبح يسألون فيها الأمان والصلح فأجابهم مولانا الوزير إلى ما اقترحوا وأعرض عما اكتسبوه من السيئات واجترحوا .

ثم سافر في وقت الفجر إلى القرية المعروفة ببدر التي أعز الله بها المهاجرين والأنصار ومكث بها جانباً من نهار ، ثم رحل وكان يوماً حره شديد كأن الهواء فيه جمع في مجامع الحديد بحيث صار الناس فيه من كثرة العرق، كأنهم في جوف حمّام أو بحر من مرق ، وأصاب الحجاج بسبب ذلك غمٌ كبير ومات منهم خلقٌ كثير ولم يقف بعد ذلك أحد من الأعراب أمامه ، واختاروا لأنفسهم من بأسه العافية والسلامة ، لأنهم لما بلغهم فعله بشيوخهم مع تمكنهم من العتو ورسوخهم دبّ الفشل في حواشي أحشائهم وسرى الخوف في تضاعيف أعضائهم فجفلوا من قراهم ، وتركوا رحهم وقراهم .

وأخاف أهل البغي حتى إنه لتخافه النطف التي لم تخــلق

آخــر :

وقد وجلت قلوب منه حتى غدت أوجالهــا فيها وجالا

ودام صان الله مجده سائراً بحجاجه . إلى أن نزل بفناء البيت الحرام وفجاجه . وركب إليه سيدنا الشريف في جملته وتلقاه في أعيانه وجلته وقابله بمختلع الزاهر المنيف ، وفيأ كل منهما الآخر ظل إجلاله الوريف ثم ركب مولانا الوزير إلى مخيم الأبطح ونزل بمنزله الأزهر الأفيح . وقضى وحجاجه ما عليهم من المناسك ووقعت بينه وبين سيدنا الشريف ألفة أثلجت كل قلب ناسك ، وأحسن إلى جيران بيت الله الحرام وأدرّ عليهم مدرار نيسان إحسانه ووالى وعلق بيده الشريفة على مقام السيد إبراهيم الخليل لوحاً كتب فيه بخطه الجليل .

إلهٌ مالكٌ مولى الموالي له وصف التكبر والتعالي

وكتب عبدالله الوزير الشهير بجته جي . ودفع صرة عيد المقتول وغيره إلى ابي ثنيان هزاع بن مبارك بن مضيان بعد أن ولاه سيدنا الشريف شيخاً على القبائل الحربية ، وألبسه كل منهما فروة بيضاء سنية .

وعند[1] هذا شاعت بمكة أخبار . بأن بدوى بن عيد لم يقر له بعد قتل أبيه قرار . وأنه استدعى قبائل حرب والحلفا . وثورهم لثأر أشياخهم فثاروا له واتخذوه خلفا ، وأجابوا لمناديه وانحشروا لناديه . وأقبلوا من كل حدب ليقعدوا على رءوس الجبال وأذناب الأودية . ويستولون بزعمهم على الحجاج أو أموالهم إذا مروا بهم قصاصاً أودية . وصار لسان حالهم ينادي على قنن الشواهق والبوادي : إن أمير الحجاج وإن قتل رجالنا . وبدّد كماتنا وأبطالنا . فلا بد لنا من الانتصار . وإثارة الأعوان والأنصار ، وأذى الحجاج شنشنة عرفناها . وعادة فساد ألفناها . ومن أسلافنا اقترفناها . وكم نهبنا من زينتهم ولا قذفناها . وأعطى بعضهم بعضاً على ذلك عهوداً وأيماناً وتوامروا عليه زوراً وبهتاناً وتواعدوا بالنصر وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . وأملاك السماء تقذفهم من كل جانب دحوراً .

وكتب إبراهيم أغا المعمار من المدينة إلى مولانا الوزير بذلك فلم يكترث

---

(١) هنا ينتهي الخرم في النسخة الثانية .

بمجموعهم المأخوذ بنواصيها إلى المهالك. واستخدم رجالا من المغاربة والأتراك زيادة على رجاله. وصمم على الرجوع من الطريق السلطاني مستدراً من نصر الله أخلاف سحاله. راكباً في ذلك متون الجد غير مكترث بخطر. راجياً من الله استيصال ذوي الأشر والبطر. ولسان حاله يقول قولا تدله صهباؤه العقول .

ما همتي إلا مقارعة العـــدا   خلق الزمان وهمتي لم تخلق

وبينما هو أدام الله سعوده. ولا أعدم المسلمين وجوده . على ذلك العزم والتصميم. إذا براكب أزعج الظاعن والمقيم .وفجأهم بخبر أنكى من وخز الإبر. وهو أن الأعراب عزموا على سد العيون وتغويرها .وطمس الآبار والأنهار وتدميرها إلا بعضاً منها يضعون فيه شيئاًمن النباتات السمية ويقتلون بذلك واردة الحجاج بغياً وعدواناً وحمية . فأخذته حينئذ الشفقة على حجاج المسلمين وأشار عليه سيدنا الشريف بأن يأخذ على ذات اليمين . إلى أن يمر عليهم في السنة الثانية . ويستعد لكيدهم الذي أسسوا مبانيه. مفوضاً الأمر إلى رأيه الراجح . وفكره الناجح .فأمعن في ذلك نظره السديد وأجال جواد رأيه في ميادين التسديد. فأشارت لوامعه البرقية .بأن الحزم في السير على الطريق الشرقية. إذ لا دواء للظمإ العام . الذي يشمل الأناسي والأنعام . إلا مجانبة مسالكه ومباينة مهامهه ومهالكه. سيما في وقت المصيف. بقطر الحجاز المنيف. حيث تتوهج حرارة كرضف النيران . وتصير قفاره كسراب الظمان .

وأحزم الناس من لومات من ظمإ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا
يهون بالرأي ما يجري القضاء به   من أخطأ الرأي لا يستذنب القدرا

وأرجأ أمر الأعراب إلى العام الآتي . لينظر في أمر الماء ويكيد بكيده المتين كيدهم العاتي ، راجياً ناصره ومولاه أن يبلغه أمله فيهم ومناه ، وأن يعيد له على ديارهم الكرة ويظفره بهم ثانياً كما ظفره بهم أول مرة ، فإما إنهم يفيئون إلى أمر الله ويرجعون أو يجري من نحورهم دماء كالعيون

ثم سافر على الشرق تهادى به الرواحل. وتهاداه المنازل والمراحل.

وزهور العناية تضاحكه ثغورها البسامة. والديم تسقي يمينه وشماله وأمامه بحيث صار الحجاج ينزلون في كل يوم على ماء زلال ، بل يمرون عليه في كثير من أوقات سيرهم ويتفيئون من عارض المزن وريف الظلال، وكان سفره من زاهر مكة بعد أداء صبح يوم السبت الحادى والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة إحدى وأربعين ومائة وألف ومات في هذا اليوم دواب وأناسيّ ذوو عدد لشدة الحر وقوة الومد.وكان سيره أربع عشرة ساعة ونزل بوادي الليمون وتسميه الحجاج المضيق ومكث فيه بقية ليلة الأحد ويومه وليلة الاثنين .

وأذن بالرحيل في الساعة السابعة من يوم الاثنين وسار ست عشرة ساعة إلى غدير سلْحة بمهملتين مفتوحتين بينهما لام ساكنة عوضاً عن منزل الضريبة بفتح الضاد المعجمة وكسر الراء .

ثم أذن بالرحيل في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء وسار قاصداً بركة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر عبدالله المنصور بالله الخليفة العباسي باني بغداد ، واسمها أمة العزيز وزبيدة لقب لها وتلفعت الشمس فى ذلك اليوم بمطارف الغمام فما ترى ، وبكى السحاب فنضح رذاذه وجه الثرى . ثم نزل قبيل المغرب على الحجاج ودق عظيم وبَرَدٌ صار على وجه الأرض كنثير عقد نظيم.وبركت الإبل وغاصت في الزلق حوافر الدوابّ.فأمر حفظه الله تعالى بالمبيت هناك وكان ذلك عين الصواب لأنه لو دام على سيره لذهب كثير من الحمول والأموال لتكاثف الظلمات وكثرة المياه والأوحال. وصا يحوط الحجيج بنفسه الكريمة ويطب بنظره السديد نفوسهم السقيمة .إلى أن ابتسم ثغر الصباح . وبرق بارق الفجر ولاح.فرحل وسار ووصل إلى البركة المذكورة في الساعة السابعة من يوم الأربعاء ، وهي بركة عظيمة البنيان . قد تهدمت منها لقدمها الأركان بحيث صارت ذات فرج وحفت بها من سائر حول جوانبها الدرج ليبلغ الوراد من الورد والصدر منها المراد وحولها غدران عظيمة وآثار برك قديمة قد لاحت مبانيها ودلت على قوة بانيها

فرحم الله من جدد بنيانها . ورفع معالمها وشاد أركانها . وكانت مدة السير في هذه المرحلة اثنتي عشرة ساعة .

ثم أذن بالرحيل في يومه ذلك وسار اثنتي عشرة ساعة إلى غدير مَسْلح بميم ولام مفتوحين بينهما سين مهملة ساكنة أخره حاء مهملة نزل بها بدل منزل الفريع بضم الفاء وفتح الراء مصغراً .

ثم أذن بالرحيل وسار عشرين ساعة إلى غدران قرب صفينة بالمهملة فالمعجمة والتصغير قرية شيخ مطير سلطان بن غَبْشن بفتح المعجمة وسكون الموحدة .

ثم رحل وسار اثنتي عشرة ساعة إلى السُّوارقية قرية الأشراف بني حسين ونزل قريباً منها وامتار الحجاج شيئاً ما منها .

ثم رحل وسار عشر ساعات إلى غدير الزّبائر بفتح الزاي والموحدة فألف فمثناه تحية آخره راء بدل الحجرية بكسر المهملة وسكون الجيم .
ثم رحل وسار أربع عشرة ساعة إلى غدران خراب [1] بفتح المعجمة والراء آخره موحدة قبلها ألف .

ثم رحل وسار اثنتي عشرة ساعة إلى سد زبيدة ؟

ثم رحل في الساعة الثامنة من يوم الثلاثا وسار ونزل قبيل المغرب بعد انفصاله عن المضيق المسمى بالخنق بفتح المعجمة والنون وبات هناك .

ثم رحل بعد أداء فريضة الصبح وسار ووصل إلى المدينة المشرفة في وقت الظهر من يوم الأربعا ثالث محرم الحرام سنة اثنين وسبعين ومائة وألف.

وكان وصوله إثر يوم همع فيه الغيث وهما واردغت الطرقات بماء السماء وعم الوحل فقصر الدواب عن الوخد والإرقال أى قصر. ولذلك لم يتكامل دخول الحاج إلا في وقت العصر .

---

(١) كذا خراب وقد تكون (غراب) بالغين المعجمة .

وكانت مدة سير هذه المرحلة التي أرتنا دار الحبيب وبقاعه. اثني عشرة ساعة فجملة ساعات سير الحجاج في الطريق الشرقية مئة وثمانية وثلاثون ساعة فلكية .وذلك بالإقامات لأداء الصلوات المعروفة الآنبينهم بالتعويقات. وساعات المراحل المذكورة بضبط رب المساعي المشكورة الباذل نفسه في خدمة حجاج المسلمين والفائز من القرب من حضرة والى الشام الشريف بالعقد الثمين السيد حسن شحاذة كان الله ملجأه وملاذه وأقام مولانا الوزير بالبلد النبوي الأزهر بقية يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة الأغر. سافرا عن المكارم لثامها ومطلعاً للمراحم غمامها . وقتل به من قطاع الطريق خمسة أشخاص وأكثر . وثمار إحسانه لأهل الجوار النبوي تجني وتنثر .

ثم خرج إلى الجرف أوائل يوم السبت سادس محرم الحرام . ورحل منه بعد أداء ظهره ظافراً من الشفاعة الخاصة بالمرام مخدوماً بأيدي الأقدار . محروساً من عوادي الأكدار ممتطياً مطايا السلامة ، ناشراً على مناكب العناية الربانية أعلامه .

ومما قيل من الشعر في إيقاعه بحرب وما فل الله لهم به من غرب. قول المفضال البارع والمقوال الساجع مولانا السيد جعفر بن محمد البيتي باعلوى [1]

بعبـد الله باشا زال همي	وهم المسلمين وكل غمّ
سقى بيد الردى أشياخ حرب	كؤوساً شابها صاباً بسمّ
ولا جزع فنفسٌ عدل نفسٍ	أضيعت عنـدهم ودم بدم
فتسعة رهط منهـم آل بدو	وباقيهم لهم أبنـاء عم
شيوخ قط ما دانوا لحـكم	ولا ابتدعوا سوى جور وظلم
وقد أكلوا الرشا تسعين عاماً	على الحجاج من عرب وعجم
تراها جزية وضعـت عليهم	بغير جناية وبغـير جرم
وكم أمراء قد غصبت عليها	وساقوها على ذل وهضم

(١) أشهر شعراء المدينة فى ذلك العصر ، وله ديوان مخطوط ، وكتاب « مراسم الأدب » مطبوع ولد سنة ١١١٠ وتوفى سنة ١١٨٢

وكم نهب وكم هتك وقتل ... وكم بغي لهم وعظم غشم

تقضت دولة السفهاء عنا ... بأروع صادق العزمات شهم

فهذا أول الفتكات فيهم ... وسيف صيغ من حزم وجزم

أبوا ما يسمعون الحق طوعاً ... فجاءهم الذي يعمي ويصمي

بأسياف له سيقت وبالا ... وسُمْرٍ من رماح الخط صُمّ

وفرسان بخيل النصر تعدو ... تسد الجو من يلق ودُهْم

فبشرانا وبشرى كل أرض ... يحل بها بإخصاب وغُنْم

وغوث للعباد وغيث خير ... ولىٌّ بين أيديه ووَسْمي

ألم تر كيف عاد الأرض عيد ... بوطأته ودام الغيث يهمي

وويل للعُصاة ومن تعدّى ... حدود الله من هصر وكظم

وويل للضلال وما بناه ... ولاة الجور من هدم وردم

هنيئاً سيرة العمرين عادت ... بأحسن سيرة وبعدل حكم

بدولة (مصطفى خان) المرجي ... تسارعت الحياة لكل جسم

وشاع القتل في شيع المعاصي ... وعمّ الويل من نقص وخرم

فقل لهم الدّجاجة تلك ماتت ... ووارث بيضها مناع رِسم

أبىٌّ أن يُراشي قوم عاد ... وأن يغضي على ضيم لطِسْم

أخا العزمات قدّمت الضحايا ... قد استفردت فاذبحهم وسمّ

شكايانا كثير غير هذي ... وأنت بدأت بالأمر الأهم

رماهم ربُّهم بك فافترسهم ... وعاجلهم بسهم الموت وارم

ولا تبقِ أصول البغي تنمو ... وقس هذا على سدر وكرم

ونرجو أن تدوم لنا نصيراً ... وتقضي بيننا مع كل خصم

بلغنا الجهد من جوع وعدم ... حماك الله من جوع وعدم

وسكّن النوائب مزّقتنا ... وبلغت الحزوز بكل عظم

وهذي الانتباهة بعد نوم ... طويل للزمان وطول حلم

رأى الملك الخليفة فيك رأياً ... مصيبا في عظيم النجح جمّ

تمهدها له من باب رُوم ... إلى الأحقاف تمنعها وتحمي

جمعت الفضل من شرف وعلم ... وفزت من العلى بأجل قسم
فأبقى الله دولتكم علينا ... فتوحات لكم وسعود نجم
تكون على كعب الرعية خير ... تداوى حالها من كل سقم

وقول الأوحد الذى سجدت في محاريب الطروس بمدحه الأقلام واهتزت لوعظه المنابر وتولهت الأحلام مولانا الخطيب محمد أفندي الخليفي (١)

أبيَ الله إلا نصر آل محمد ... وخذلان حرب بالنكال المؤبد
ووطأتهم تحت الحوافر كي ترى ... وتظهر عقبي كل عز عمرد
وإيلامهم ظهراً لبطن وقهرهم ... وتنزيلهم من كل حصن ممرّد
فسل طاشة عن حال طيش عقولهم ... وعن مالقوا من شؤم يوم ومرصد
فلم تغن عنهم كثرة ومعاقل ... ولم يحمهم شيء من الهلك فى الغد
وقد أصبحوا والكلب منهم تجره ... كلاب من الرجلين والرأس واليد
أذاقهم كأس الردى وأبادهم ... وعرفهم فتك الحسام المهند
وصيّرهم بالضرب والطعن عبرة ... لمن بعدهم من كل جان ومعتد
وزير الورى رب القرى واسع الثرى ... منيع الذرى راقي السليم المسهد
عظيم السطا عبد الإله أخو الندى ... سهام العدا مروي الحراز المجرّد
وزير ولا مثل لهذا فلا تقس ... به غيره فى العزم أو كفه الندى
وزير أدام الله أيامه لنا ... وخلّدها في خير عز مؤبد
وزير عليه هيبة وجلالة ... وأنوار تشريف ومجد موطد
وزير يرى ترك السؤال جناية ... ويقبل بالبشرى على كل مجتد
وزير حوى عزاً ومجداً وسؤددا ... وماضي عزم فاق كل محدد
بهمته يستسهل الصعب دعة ... ويقطع فيه فدفداً بعد فدفد
فكم قد روى الأبطال عنه وأسندوا ... فياحسن إسناد رووه ومسند
فما هو إلا الغيث يرجي انهماله ... فكم قد همي شبه الجمان المنضد
وما هو إلا كوكب السعد ساطعاً ... ينير الدجى من نوره المتوقد
فيا أيها السامي العزيز ومن له ... صفات حسان قد سمت عن تعدد

(١) مترجم فى « سلك الدرر » ٣-٦٠ ولد سنة ١١٣٣٠ وتوفى سنة ١١٨٢

نهنيك بالنصر العزيز على العدا ... برغم أنوف من عداة وحسّد
تمادوا على ذاك الغرور وما دروا ... بأنك فيهم لست بالمتردد
وانك ذو بطش شديد وهمة ... وعزم وتدبير ومجد مخلد
وأنك منصور مهاب مظفر ... على كل من ناواك في كل معهد
وهذا هناء للبرية شامل ... وهذا سرور عم كل موحد
ودونك يارب الفخار قصيدة ... على عجل وافتك من غير موعد
تجرر أذيال الحياء وترتجي ... قبولا وإقبالا وحسن تعهد
فلا زلت في عيش هنيء ورفعة ... ولا زلت من بين الملا خير أوحد
وذكرك بالإقبال والفضل شائع ... يروح على مر الزمان ويغتدي
ولا زلت منصوب اللواء مملكاً ... تحوطك آيات الكتاب الممجد
مدا الدهر ما صلى وسلم ناسك ... على صاحب الحوض النمير المبرد
كذا الآل والأصحاب ما ارتاح آمل ... وأيقن بالمطلوب في كل مقصد
وما قال مسرور الفؤاد بنصره ... أبى الله إلا نصر آل محمد

وقول ذى الصفا والفتوة حسان أهل بيت النبوة مولانا الشيخ محمد سعيد سفر

أقبل النصر وجيش الفرج ... واستقام الأمر بعد العوج
واستنارت شمسنا بعد الدجى ... واهتدينا بنهار أبلج
منحى الشام وزير أكرم ... أعظم القدر علي الدرج
خير باشواتها أشجعهم ... في الوغا أصدقهم في اللهج
وهو عبدالله باشا من غدا ... حجة في الحق أقوى الحجج
حجّ بالناس وزار المصطفى ... وارتوى من فيض تلك اللجج
كيف لا وهو شريف قد حوى ... نسبة للمصطفى ذي البهج
سار لما زار محروساً وقد ... بلغ المأمول منه المرتجى
فاعتدت حرب على الحجاج في ... موضع بالجمع منهم حرج
فأباد الله خضرا رأيهم ... وغدا عبدهم لم يعج
كان شيخا فيهم رأساً لهم ... فتوارى رأسه في الهمج
صارت الصفراء حمراء دما ... ولكم سالت بها من مهج
هكذا مصرع أهل البغي في ... من مضى في بغيه أو من يجي

إن هـذا ثأر قـوم قتـلوا مـع نصوح الخـير يوم الهويج
ولقـد حزْت وزير الشـام في حجـة أجـراً بأزكى الحجج
عـام غيث جـانا تاريخـه (طـاب عبد الله باشا شتجي)
١١٧٢

وقول الأمجد الـذى أدرك بالعزلة عن الابتـلا مطارفه . وأذعن لهمن غريض القريض تالـده وطارفه . مولانا السيد عـلى الـبرزنجي

سـل الحسـام على العدا من غمده ورقى إلى شم الجبـال بجنـده
فوق الجيـاد الصـافنات عروشها وأذاقهم كأس الـردى بفرنده
ياقتلـة في آل حـرب لم تكن أبداً لعمرك أنبـأت عن جده
دهشت لشـدة بطشه ألبابهـا ولخـوف سطوات المنون وأدّه
في معـسرك الحرما رؤوس شيوخها ملأت بها الغـبرا صوارم أُسده
ذهب الزمان بسعدهـا وبعيـدها وأتاهم خطب الزمـان بصـدّه
ياويلهـا من بعـده ياويلهـا لا عيـد تلق ويلها من بعـده
كنـا نحـذرها المليـك وسيفه قـدماً فقالت : سيفه في غمده
حـتى رأت سيفا أصـاب ذبابه فرقت فأنى لو أصـاب بجـدّه
إن لم تدع عنهـا الضلال وتعتبر بدوي مضيـان البغـاة وسعده
منهـا وآلافا لآله ينيلهـا ضعف الذي قد نالهـا من عبده
ليث الوزارة ضرغم الهيجـاء من شهد الأنام بجـدّه ومجـده
جتجـى عبد الله والمنصور بالنصر الـذى برقت بوارق رعـده
حامي حمى الحجـاج فـوق جواده بالنبـل والعضب الذي في زنده
وكذي الفقـار حسـامه فادعـوه بالـكرار كالمولى علي جـدّه
لم لا وفي الهيجـاء كرّ على العـدا لمـا إلى الحـرما اتتـه لصده
لم يأت وال مثله ياصـاح بـل ماقلدت صيـد الـولاة كعقده
قـرم إذا حمي الوطيـس رأيتـه كغضنفر ألـق يديه لصيـده
حـبر همـام بارع ذو نخـوة برّجواد صـادق في وعـده
شهـم نعـوت الفخر فيه تجمعت وحوى الذي عجز الورى عن عده
لازال بالنصر المـؤيد ظـاهرا من ربه ومظفـر من عنـده

ثم الصلاة على المؤيد بالظبا ... والآل والصحب الليوث ووفده
ما في سماء النصر أشرق بدره ... وتبلجت فيها مطالع سعده

وقول ذي الفكر الصائب والذهن الوقاد مولانا الشيخ محمد سعيد أفندي. حفيد الملا حماد[1] :

الدهر أقسم صادقا ... والحق بالنعمى أجابه
أن الزمان لعسره ... يسران صاح فدع عتابه
واسكن بدار محمد ... متأدبا والزم رحابه
لا تشك من ضيق المعا ... ش فربنا قد سد بابه
وكذا المسيء فلا تخفه ... فسوءه فيها أذابه
لم لا وسلطان البسيطة ... (مصطفى) سهم الإصابة
غوثُ الندا غيثُ الندا ... حتف العدا رب المهابه
قد سار فينا سيرة العم ... رين ما بين الصحابه
فحمى حمى الحرمين بالسيـ ... ف الذى جاف قرابه
أعني جلا الملوين عبد ... الله من قذل الكآبه
تاج الوزارة ركنها ... وحسامها الموري شهابه
ذا البطش في هول الوغا ... والبسط في أهل الإنابه
والحزم في أرائه ... والحزم إن أمر أرابه
ما صارخ يلوي به ... إلا ويكفيه مصابه
ما معضل يثوي به ... إلا أذل له صعابه
أو ماترى الأعراب في ... أطوادها تخشى عقابه
أو مادهى مغناهم ... بخيوله ودحى هضابه
أو ماسقى في معرك الخرما دما حرب حرابه
فكفاه من شر الحوا ... سد ربنا وحمى جنابه
وجزاه خيراً لا نطيق ... حياتنا نحصى حسابه

---

(1) ولد سنة ١١١٨ وتوفى سنة ١١٧٨ « سلك الدور » ٣ - ٦٤

وإليـه من وشـى البـدا نسج بالمعـانى المستطـابه

تـاريخ عـام وفـوده لينـال بالهـادى ثـوابه

وافى يترجـم قـائـلا ياذا الرجا فاسمـع خطـابه

نـمْ إن عبـد الله باشـا الحتجى أمن لطابـه

١١٧٣

وقول أوحد الخطباء الذين صيغت لأخمصهم هام المنابر وحليت بعقود مناقبهم أجياد الدفاتر ، مولانا الخطيب عبد الله المنوفى

قـد شرفت بقـدومك الأوطـان
وتهللت فرحـاً بك الأزمـان

وتبسّـم الدهـر العبـوس وأشرقت
بسنا محيّاكم لنـا الأكـوان

وترنّمت طـرباً حمـامـات الحمى
وحلت بنغمة لحنها الألحـان

وبكى الغمـام على الرياض فأزهرت
منـه الغصـون فيالهـا أفنـان

فرحـاً بنور صبـاحكم هـذا الـذى
قـد لاح منه البشر والبرهـان

للـه من يـوم وافى لنـا
صـدر عظـيم عزّ منـه الشـان

جنتجيُّها المشهـور والأسـد الـذى
أضحت تهـاب لقاءه الشجعـان

من خـوف سطـوته الـتى لو صادمت
جبـلا هـوت بجميعـه القيعـان

فالمـــوت يرعـــد خيفة من بطشـــه
والأســـد في آجامهـــا والجـــان

فهو الـــذى إن جـــرّدت أسيـــافه
خاضت له بدمـــا العـــدا فرسان

فى الحرب إذ قامت على ساق لهـــا
وتأجّجت من حرّهـــا النـــيران

وأقيم من نقع القتام عجـــاجة
وأضـــلّ جيش سعوده العقبـــان

هـــذا هو البحر الذى وافى لنـــا
من فيض فائض فضلـــه طوفـــان

والـــبرّ من مـــدت مـــوائد بره
تسعـــى إلى الوفـــاد مهما كـــانوا

للـــه من ســـام تســـامى قـــدره
وله مـــلائـــكة السما أعـــوان

يلقى العفـــاة بعفـــوه ونوالـــه
ولمن طغى فلسيفه طغيـــان

قـــد جاء فى عيـــد وحرب نقمة ... لـــما بغوا ولعهدهم قـــد خانوا
وتحصنـــوا الحـــرما وظنوا أنهـــا ... متحصـــن تحمـــي بها الأوطان
ورموا على الحجـــاج ظلما واعتدوا ... فأصـــابهم من بغيهم خســـران
فرماهُمُ من فـــوق أنعام لـــه ... بمـــدافع هـــدمت بها الأحصان
لم يشعروا إلا وفـــوق رؤوسهم ... حـــام الحمـــام وسيفـــه الغضبان
وغدت رؤوسهم بقاع بطـــاحها ... منثورة يأوي لهـــا الســـرحـــان
ورحـــاء حرب قد أديرت فيهم ... قامت على ساق لها سيقـــانه

ولسوف تخلو عن قريب دورهم ... ويصيح فيها البوم والغربان
من عاند السلطان ليس يجيره ... مما اجتراه أنسها والجان
فلكيف لا وسهامه وحسامه ... هذا الوزير الفاتك والطعان
السيد السند الشريف الكهف من ... تأوى إليه السادة الأعيان
وكبيرهم وغنيهم وفقيرهم ... فيعمهم من فضله الإحسان
ذو المنهل العذب الذي يروي بما ... قد صح ممّن خلقه القرآن
حاز العلاء بجدّه وبحدّه ... وبعدله فاختصه الرحمن
فهو الذي عشقته أذانٌ لنا ... من قبل أن ترنو له الأعيان
حتّى بدا كالليث فوق جواده ... حفت به الأبطال والشجعان
فرأيت وصفاً بارعاً في نعته ... ونظرت صدراً باله إنسان
وافى لطيبة زائرا خير الورى ... ولمن هم في حبه سكان
فاهنأ بها واشكر لمولاك الذي ... وافاك منه الفضل والغفران
وانظر بعين رضاً لسكان بها ... فهم لجدك في الحمى جيران
لازلت في حفظ الذي عم الورى ... من فضله الإنعام والإحسان
متأبداً متأيداً بالمصطفى ... طه الذي أسرى به المنّان
وبآله والصّحب ما بدرٌ بدا ... فتشعشت من نوره الأكوان
صلّى عليه الله مابرق سرى ... أو جال رعد أو سرت ركبان

وقول الأوحد الذي طاب من منهل مكارمه المورد والمصدر ،

محمود جوربجي حيدر :

ياعصبة كفرت بنعمة ربها ... وبغت على الحجاج والزوار
قد أمهلوا دهراً فزاد فجورهم ... تبّاً لهم من عصبة فجّار
ما زاد من جعل الخديعة مذهبا ... المكر معقود بذيل العار
انظر لعيد كيف حل بمكره ... فانهار في الحرما بجرف هار

جمع الجرود على الحجيج وترسوا ... حتى تردوا في حضيض النار

قطعوا الطريق فكان قطع هباتهم ... منعوا من الأجواخ والدينار

كم عفروا في الترب جبهة محرم ... فغدا رهين مهامه الأخطار

وقتيلهم لو كان راعي شاتهم ... يمسي سرياً نجل عبد الدار

يعطي لهم دية القتيل وصره ... لوليه في كل عام والأمير يداري

وبخيمة الوزراء صولات لهم ... فكأنهم أمنوا من الأقدار

حتى أتاهم ضيغم في جحفل ... آراؤه والعزم سهم ساري

ذو همة تزرى بكل متوج ... ماهمه إلا لأخذ الثار

أسد يقود الأسد وهي عوابس ... لا ينثني عما قضاه الباري

خاض العجاج بهمة علوية ... والموت ماضي الشفرتين يباري

ثارت عزيمة منجديه بصولة ... تركت دماء القوم كالأنهار

وتحصنوا بالطعن في نحر العدى ... عاضت عزائمهم عن الأسوار

ورقى لهم شم الجبال بباتر ... فتحصنوا من بأسه بفرار

من رعبه شكت الديار توحشا ... والغور مقفر الجوانب عار

يامخجل الوزراء بالفتك الذي ... صنت الحجيج به من الأشرار

فالغور غار إلى الجحيم بأهله ... والخيف خاف من الهزبر الضاري

ما عيدهم مافارس ومفوز ... قرت المنايا هامهم بشغار

نثر العدى بسهامه وحسامه ... كهباته بالسّر والأجهار

شكرت أياديه الأنام وعضبه ... والوحش حتى الطير في الأوكار

شيدت مجداً لا خلاك مجددا ... أمنا بوضع السيف في الفجار

حزت الفتوة والمروة عن اب ... والجود طبعاً والوفا بالجار

ضنّ الزمان فليس يولد مثله ... من بعد أو في سالف الأعصار

أنت الشريف بن الشريف الهاشمي ... الطيب الأعراق من أطهار

آل النبي وروح أشباح العلي ونجوم أفلاك الهدى للساري
وتهن في شرف وعز دائم ماهب ريح النصر في الأسحار

وحيث وقف بنا عن الطراد في مضمار ماتهممنا به جواد البيان ، وألقى عصا التسيار في فدافده ظاعن البنان ، فأقول رافعا إلى الله تعالى اكف الابتهال والضراعة ، متوسلا بصاحب(١) المقام المحمود ومالك أزمة الشفاعة : اللهم ياواجب الوجود ، يامن شعاره الفيض والجود أسألك بجاه(١) مصطفاك من العالمين ، ونبيك الذي منحته في قبره إجابة المصلين عليه والمسلمين ،أن تمد من أروقة المجد سرادقها ، وتنشر من ألوية الحمد خوافقها ، على مفارق هذا الهمام الذي انطت به أمر الجمهور ، وجعلته سيفا على الطغاة وسدادا للثغور ، وتظفره بتحقيق الظنون ، وتؤيده عند التوجه إلى كل مطلب بقول كن فيكون ، وتزيل بعدله الجور والمظالم ، وتستأصل بسمهريه شأفة كل ظالم ، وتحرسه من عوادي الخطوب ، وتمده بمدد سماوي ينهل جائده ويصوب ، وتدر عليه غمام لطفك الدار ، وتديره معه كيفما دار ، وتجعل فواتحه تفضي به إلى حسن عاقبة ختامها مسك أذفر . وطوالعه السعيدة تنتهي به إلى رضوان من الله أكبر ، لهجا لسانه بذكرك مبتهجا جنانه بشكرك ، وعلى سيدنا محمد هادي الأنام أفضل وأزكى السلام ، وعلى آله وأصحابه الغر الكرام ، ماطرزت حلل الطروس بطرار الكلام ، وطاب بذكر الله مورد الافتتاح ومصدر الختام .

وكان الفراغ من كتابتها يوم الجمعة الأغر رابع عشر جمادى الآخرة سنة ألف ومئتين وأربعة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) التوسل بذوات الأموات لايجوز شرعاً ، والتوسل المشروع يكون بالأعمال الصالحة والسؤال بجاه الرسول صلى الله عليه وسلم بدعة

بلادُ قَبيلةِ الحَجْرِ وفُروعُها

(كان ممن استجاب لدعوة هذه المجلة للمشاركة في وضع معجم جغرافي شامل لجميع أجزاء بلادنا الأخ الأستاذ عمر غرامة العمروي . فوضع مؤلفا عن بلاد قبيلته الحجر ، وذكر فروعها ومنازلهم في السراة وفي تهامة[1] وقدم مؤلفه هذا لصاحب المجلة ، فأبدى له ملاحظات سار على أساسها حتى أصبح الكتاب معداً للنشر ، وهاهي ذي المقدمة التي وضعها صاحب مجلة « العرب » لذلك الكتاب) .

منذ مايقرب عشر سنوات وأنا ألفت نظر مثقفي بلادنا إلى شدة الحاجة إلى وجود مؤلف جغرافي يتضمن جميع اسماء المدن والقرى ومناهل البادية والمواضع التاريخية المشهورة من أودية وأمكنة مسكونة أو مواضع أثرية ، ولقد استجاب عدد من أبناء هذه البلاد فاتجهوا لتأليف كتب كل عن منطقته مما يبعث الأمل بأن الرجاء قد تحقق وأن القاريء سيجد بين يديه نواة صالحة لتكون أساساً لهذا المعجم الجغرافي الشامل .

فقد كتب الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي عن منطقة جيزان .

وكتب الأستاذ علي بن صالح الزهراني عن بلاد غامد وزهران .

وقد قامت دار اليمامة بنشر كتابيهما .

وقام الأستاذ الشيخ محمد العبودي بكتابة مؤلف عن « بلاد القصيم » أكمله وهو الآن معد للطبع .

وكتب الأستاذ عبد الله بن محمد بن خميس عن « بلاد اليمامة » إمارة

---

(١) نشرت « العرب » فصلا منه عن أشهر أودية الحجر وجبالها في الجزء العاشر من السنة الحادية عشرة

الرياض التي تشمل وسط المنطقة الوسطى من المملـــكة وقد نشرت « العرب » بعض مباحثه . ومثله كتاب الأستاذ سعد بن عبد الله بن جنيدل عن « عالية نجد » وكتاب كاتب هذه المقـــدمة عن شمال المملـــكة .

وهاهو ذا الابن الكريم الأستاذ عمر العمروي يكتب عن قبيلة الحجر بلادها ونسبها مما يدخل ضمن المؤلف الجغرافي .

والحق أن معرفة البلاد وأحوال سكانها لن تكون تامة مالم يتصدّ لتدوينها أناس من أبنائها ممن تأهل للـــكتابة وقديماً قيل : (أهل مكة أدرى بشعابها) والذين كتبوا عن بلادنا قديماً وحديثاً كثيرون ، ومع ماللمتقدمين من فضل السبق وتدوين معلومات تعتبر الأسس القوية بكل مايتعلق ببلادنا من النواحي التاريخية أو الجغرافية أو غيرهما إلا أن جميع الكتابات بحاجة إلى إعادة النظر بالتصحيح والزيادة ومواصلة البحث ، فالعلم يتجدد بتجـــدد الزمن ، والحياة بحاجة إلى أن يتلاءم وصفها بحسب تغيرها ، ولا يتسع المقام لإيراد شواهد مما كتب عن بلادنا فجاء مخالفاً للحقيقة وليس معنى هذا أن كل ما يكتب أبناؤها يكون قائماً على أساس الصحة من جميع الوجوه ، فقدرة الإنسان محدودة ، وصدق الله العظيم حيث يقول : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

ولن نفوت المناسبة عند ذكر القدماء بأن نشير إلى عالم جليل ، سجل جانباً من المعلومات القيمة عن الجزيرة وعن سكانها ومنهم قبيلة الحجر التي كتب عنها الأستاذ العمروي مؤلفه هـــذا .

لقد أورد العالم النسابة أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في كتابيه « الإكليل » و « صفة جزيرة العرب » أسماء كثير من فروع قبيلة الحجر – أوردها استطراداً وهو يتحدث عن بلادهم ومن تلك الفروع على سبيل التمثيل لا الحصر – فهو قد ترك فروعاً كثيرة .

١ – بنو أثلة من بني نصر بن ربيعة بن شهر ، هم رءوس بني نصر ، وهم أصحاب مدينة الجهوة أكبر مدينة في السراة .

٢ – بنو الأسمر من شهر .

٣ – بنو الأصبغ من الحجر أصحاب قرية نضة تلي ببيشة بجانب السراة .

٤ – بنو ثعلبة من بني مالك بن شهر .

٥ – بنو ثور بن شهر – ذكرهم الهمداني في كتاب « الإكليل »[١]

٦ – الحارث بن ربيعة بن شهر بن الحجر وسماهم الهمداني أيضا (بالحارث بن شهر) وذكر أنهم في أعلى وادي تنومة .

٧ – ربيعة بن الحجر .

٨ – بنو عامر بن الحجر ، كذا سماهم الهمداني ولا أستبعد أن يكونوا المعروفين الآن باسم (بني عمرو) .

٩ – بنو عبد من بني عامر من الحجر ، أهل قرية الأشجان .

١٠ – بنو الغمدة[٢] : ذكر الهمداني أن قريتي الباحة والخضراء لبني مالك ابن شهر وبني الغمدة ولكنه لم يذكر إلى من ينسب هؤلاء .

١١ – بنو قاعد من العذمة من بني شهر وورد في المطبوعة (العدمين) ولا شك أنه تحريف .

١٢ – بنو مالك بن شهر .

١٣ – بنو مروان من بني مالك بن شهر .

١٤ – بنو نازلة من بني مالك بن شهر .

١٥ – بنو نصر بن ربيعة بن شهر .

١٦ – بنو يسار – في أسفل تنومة كذا ذكر .

ولقد ذكر العلامة الهمداني في كتاب « صفة جزيرة العرب بلاد قبيلة الحجر ، وعدد كثيراً من مواضعها وذلك في أول القرن الرابع الهجري ، ومع مرور أكثر من ألف عام لا يزال كثير من المواضع التي ذكرها

---

(١) ج ١ ص ٥٦

(٢) لعل الصواب العمرة بالعين المهملة فهم لا يزالون معروفين .

معروفة ، وإن تغير سكانها بسبب اتساع فروع القبيلة وامتزاجها ومن المواضع التي ذكرها :

١ ـ الأشجان : قال الهمداني : الأشجان قرية كبيرة ، ليس في السراة أكبر منها بعد الجهوة ، وساكنها بنو عبد من بني عامر من الحجر .

٢ ـ أيد ـ أو أبد [١] ـ قال الهمداني بعد أن ذكر الجهوة وزنامة العرق : (ثم بعدها أيد ، فيه نبذ من قرى وزروع وأهل أيد جيرة الحجر ، من قريش وخليطي حضر ، من ورائه واد فيه الجيرة القرشيون) .

٣ ـ باحان [٢] : فيه القرى والزرع ، ساكنه بنو مالك وبنو ثعلبة وبنو نازلة من بني مالك بن شهر .

٤ ـ الباحة : من قرى بني مالك بن شهر ، وبني الغمدة ؟ .

٥ ـ بهوان ـ وادي زرع وأعناب ساكنه بنو شهر .

٦ ـ تنومة ـ عدها الهمداني من قرى ربيعة بن الحجر وقال في موضع آخر بعد ذكر سدوان (ثم تنومة واد فيه ستون قرية ، أسفله لبني يسار ، وأعلاه لبلحارث بن شهر) .

٧ ـ الجهوة : قال الهمداني بعد ذكر نحيان والأشجان والحرا : (ووراء ذلك الجهوة مدينة السراة : أكبر من جرش وصاحبها الجابر بن الضحاك الربعي من نصر بن ربيعة بن شهر بن الحجر ، من بني أثلة رءوس بني نصر بن ربيعة بن شهر بن الحجر) .

وقد ذكر الأستاذ عبد الله بن علي بن حميد أن الجهوة درست ، وأن موضعها معروف في بلاد بني لام من بني شهر ، بقرب جبل منعا ، في أعلي تنومة ولكن الأستاذ عمر العمروى مؤلف هذا الكتاب الذى أقدمه

---

(١) وتعرف الآن باسم قرية آل ابدى من جبهة من بنحارث (عمر العمروى)
(٢) يعرف باسم بيحان .

للقراء يقول [1] : (الجهوة قرية تقع إلى الشرق من مدينة النماص على دضعة أكيال وآثارها موجودة ، منها أخدود بطول ٣٠٠ متر ، بحيث عنه رجل معروف عند أهل تلك الجهة) .

٨ ــ الحرا : عده الهمداني بعد ذكر نحيان والأشجان والحرا من بلاد بني عبد بن عامر من الحجر .

٩ ــ حضر [2] .

١٠ ــ حلبا : قال الهمداني : (وحلبا قرية لبني مروان من بني مالك ابن شهر) .

١١ ــ خاط : وقال (خاط واد ساكنه بنو عامر الغورية من الحجر ، وبخاط نخلات) .

١٢ ــ الخضراء : قال الهمداني بعد ذكر أيد : (ثم الباحة والخضراء قريتان لمالك بن شهر وبني الغمرة) .

١٣ ــ ذبوب : لبني الأسمر من شهر .

١٤ ــ رحب : قرية لبني مالك بن شهر في وادي سدوان .

١٥ ــ رنما [3] : واد ذوعيون كثيرة هو من صدور تَرْج .

١٦ ــ الرهوة : رهوة بني قاعد من العذمة [4] ، بلاد بني شهر على رأس من السراة .

١٧ ــ زنامة : قال الهمداني : (ووراء الجهوة زنامة العرق لجابر بن الضحاك قرية فيها زروع) وجابر هذا هو صاحب مدينة الجهوة ، وهو من بني ربيعة بن نصر بن شهر .

---

(١) مجلة العرب س ١٠ ص ٧٤٦.

(٢) وهو من أشهر الأودية ، وسيأتي في الكتاب تحديده .

(٣) في المطبوعة (ريما) الصحيف

(٤) في المطبوعة (العدمين) ولعله تصحيف .

١٨ـ زيد[١] : قال الهمداني : (زيد من الحجر به ساكنة إلى تهامة) .

١٩ ـ ساقين : قال الهمداني : (وادي ساقين إلى تهامة فيه محجة الحجر التهامية ، وساكنه من الحجر جبيهة ، جبيهة الحجر) .

٢٠ ـ سدوان : واد .

٢١ ـ سراة الحجر : قال الهمداني (وبسراة الحجر البرّ والشعير والبلس والعتر واللوبياء واللوز والتفاح والخوخ والكمثرى والإجاص ، والعسل في غربيها والبقر وأهل الصيد ، وشرقيها من نجـد أهل الغنم والإبل ، وخيل للأصابغة[٢] لا غير) .

٢٢ ـ صبح : وادي زرع ، وباطنه بهوان وادي زرع وأعناب ، كذا قال الهمداني .

٢٣ ـ الصحن : مراعي لبني شهر ، نجدُها مايلي بيشة حيث تتبطح هي وخثعم وغوريها شامي ، ويمانيها (عنزي) .

٢٤ ـ عاسرة : ورد الاسم في مطبوعة صفة جزيرة العرب : (وعاشرة العرق) ولـكن الأستاذ عبد الله بن علي بن حميد أخبرني أن عاسرة ـ بالسين المهملة في بلاد بني عمرو وأن العرق قرية في بلاد بني شهر .

٢٥ ـ عبـل : واد فيه الحبـل ، ساكنه بنو مالك بن شهر .

٢٥ ـ العديف[٣] قال الهمداني (العديف عقبة تنصب مياهها إلى خاط . واد ساكنه بنو عامر الغورية) .

٢٧ ـ العـرق : قال الهمداني (وعاسرة والعرق وأيدوحاضر) وقال لي الأستاذ عبد الله بن علي بن حميد : العرق قرية كبيرة في بلاد بني شهر .

---

(١) هو وادى زيد الذى سيأتى ذكره فى أشهر الأودية .

(٢) يقصد بنى الأصيغ من الحجر الذين يسكنون فى أسافل السراة قرب بيشة .

(٣) الصواب العريف بالراء لا بالدال وسيأتى ذكرها فى بنى عمرو تهامة (العمروى) .

٢٨ ــ فرشاط : قال الهمداني (ومن أوديتها الغورية فرشاط ، وأصادره حجرية وأسافله عبيدية من كنانة)

(٢٩) قرب : قال الهمداني :(وقرب واد أهله من الحجر) .

٣٠ ــ مدة : قال الهمداني :(والذي يلي تية من غوائر الحجر مرة ، واد ينصب إلى الــكفيرة) .

٣١ ــ نحيان : قال الهمداني : (نحيان وادٍ مستقبل القبلة فيه التفاح واللوز والثمار ، وصاحبه على بن الحصين العبدى ، من بني عبد بن عامر ، وابن عمه الحصين بن دحيم وهم الحكام على نحيان ، والأشجان والحرا)

٣١ ــ نضة[1] : قال الهمداني (وجوانب بيشة التي تلي السراة ، فيها قرية مما يلي بيشة يقال لها نضة لبني الأصبغ من الحجر) .

٣٣ ــ يمح قال الهمداني : (أقصى حد الحجر ، وأهلها الحارث ابن ربيعة) .

والحقيقة أن كل ماكتبه الهمداني بحاجة إلى الدراسة العميقة وإنني لآمل من الأستاذ العمروي أو من غيره من أبناء قبيلة الحجر من يقوم بذلك .

وينبغى أن نلاحظ أن عالما يفصل بيننا وبينه مايزيد على عشرة قرون قد نجد فى كتاباته من الاختلاف والتغير الشيء الــكثير ومع ذلك فقد أمدنا بمعلومات ينبغي أن نقدرها حق قدرها .

إننا نعتبر النص القصير في وصف بقعة من بلادنا من عالم متقدم نعتبره مغنما ، فالنصوص المتعلقة بتحديد مواضع بلادنا شحيحة ، والمؤلفات عنها نادرة إن لم تكن معدومة ، ولولا مانجده مبعثراً في معجمات الأمكنة مثل « معجم البلدان » و« معجم مااستعجم »و « صفة جزيرة العرب » وأمثالها من المؤلفات ، لولا ذلك لما استطعنا أن نتبين من ملامح بلادنا في عهودها القديمة شيئاً ، فطيب ثرى اولئك العلماء وروح أرواحهم .

---

(١) تسمى الآن المضة بالميم بدل النون (العمروى) .

ولقد شاركت قبيلة الحجر في الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام ، فاستوطن بعض الحجريين خارج الجزيرة ، ومن مشاهير من عرف منهم ممن استوطن مصر .

الصحابي الجليل : علقمة بن جنادة بن عبد الله بن قيس الحجري ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد فتح مصر ، واختط بها خطة ، وخطته في الجيزة وقد ولي البحر في عهد معاوية بن أبي سفيـــان .

الطحاوي : الإمام المحدث الفقيه أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (٢٣٩ / ٣٢١هـ) الذي انتهت إليه رياسة الحنفية في مصر ، وصاحب المؤلفات المعروفة في الفقه والحديث وغيرهما .

الشيخ سعيد بن علي الحجري الفرضي ، له في الفرائض مصنفات .

الشيخ عبد الغني بن سعيد بن علي الحجري الإمام الحافظ المحدث شيخ علماء الحديث في مصر في عهده والنسابة المعروف ، ومن مؤلفاته مشتبه النسبة » و« المؤتلف والمختلف » .

ومن شعراء الحجر الشَّنْفَرى الشاعر الجاهلي المشهور ، صاحب لامية العرب ، وهو من بني سلامان من بني شهر [١] .

وبعد : فإن من حسن حظ مؤلف هذا الكتاب أن قبيلته التي تحدث عنها هي من أعرق قبائل الجزيرة وأصرحها نسباً ، وأنها لا تزال في بلادها التي جاء الإسلام وهي تحلها لم يطرأ عليها تغير إلا مانشأ عن اتساع فروع القبيلة اتساعاً كان من أثره امتداد منازلها حتى انساحت في سهول تهامة . كما نفهم من هذا الكتاب الذي بين أيدينا والذي يعتبر بحق أول كتاب شامل عن هذه القبيلة الكريمة .

ولا يَخْفَى أن كل أمر في أوله قد يعتوره بعض النقص مما يمكن تداركه

---

(١) الأغاني ج ٢١ ص ٩٢ طبعة الساسي .

ولو لم يكن للمؤلف الكريم سوى أنه فتح الباب ومهد الطريق ووضع الأسس لمن جاء بعده .

إن قبيلة الحجر – كغيرها من قبائل الجزيرة – بحاجة إلى أن ندرس جميع أحوالها فندرس انسابها وندرس لهجتها وندرس تاريخها ومثل كل ذلك لايتسع له مؤلف قصد منه أن يكون جزءاً من معجم جغرافي .

إننا نريد أن نعرف الكثير عن ماضي هذه القبيلة كما نعرف حاضرها ونخطئ إذا تصورنا أن سكان بلادنا من مختلف القبائل وليس لهم في الماضي المجيد ما يستحق المعرفة والدراسة بل إذا لم نُعْنَ بهذا الجانب من حياة أمتنا في ماضيها، فإننا نقطع الصلة بين ماضينا ، إذ كل أمة لا ماضي لها لا يكتب لها البقاء لا سيا ونحن نعتز بديننا وبمكارم أخلاقنا وبعاداتنا وتقاليدنا الكريمة .

لقد تصفحت هذا المؤلف . وأوضحت لمؤلفه الفاضل بعض الملاحظات التي تفضل مشكوراً بقبولها بل إنني قرأت الكتاب كاملا واستفدت منه في مقدمتي لكتاب المعجم الجغرافي ولهذا فإنني أرى أن عمل الأستاذ العمروي جدير بالمؤازرة والتشجيع .

وأرجو أن أجد من أبناء بلادنا من يسير على هذا النحو في كتابة كل ما يتعلق بأجزاء بلادنا حول القبائل ومنازلها أو المناطق المختلفة وسكانها حتى تتكامل مواد المعجم الجغرافي وحتى يصبح كل قارئ يستطيع أن يفهم بلادنا فهماً صحيحاً ولن يتم ذلك إلا بأمرين اثنين أحدهما : أن يقوم بالأمر ذوو المقدرة من أبناء البلاد أنفسهم وثانيهما أن يتم هذا بالتعاون بين المثقفين المختصين بمعرفة هذه الجوانب معرفة تامة .

والله سبحانه وتعالى هو الموفق .

١٣٩٧/٥/١٤

الرياض حمد الجاسر

"دليل المجتاز بأرض الحجاز"

تحدثت في مقدمة « البرق السامي »[«العرب » ص ٨٦٩ س١٠] عن بعض من وصفوا طريق الحج من الشام إلى المدينة المنورة ، وممن فاتني ذكره :

١ — وصف طريق الحاج الشامى ، لمرتضي بن علوان ، مخطوط في مكتبة برلين — ضمن مجموع — برقم (6137 WE (11) 1860) ذكره الأستاذ عبد الكريم رافق في كتابه « بلاد الشام ومصر » .

٢ — وصف طريق الحاج الشامى في سنة ١١٥٦ هـ مؤلفه يدعى عثمان مخطوط في مجموعة بمكتبة برلين برقم (6147 PM. (11) 105) .

٣ — ورأيت في (دار الكتب الظاهرية) بدمشق أرجوزة تقع في ١٩٣ بيتاً عنوانها « دليل المجتاز بأرض الحجاز » منسوبة لبدر الدين أبي محمد الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٩ (١٣٧٧ م) على ما في فهرس[١] تلك الدار . ورقم الأرجوزة فيها ٦٩٢٧ .

وقد رأيت نشرها ، لأن فيها ذكراً لمنازل طريق الحج من الشام ، وكثير من تلك المواضع مما لا نجد له تحديداً في المؤلفات التي بين أيدينا ، يضاف إلى هذا أن مؤلفها متقدم زمناً .

وفي الأرجوزة أيضاً وصف للمشاعر المقدسة ، على جانب من الرقة . ومناسبة صدور هـذا الجزء أيام الحج تدعو إلى تحريك الشعور نحو تلك المشاعر الكريمة .

ومما تجدر ملاحظته أن كثيراً من أسماء المواضع الواردة في الأرجوزة لم أهتد إلى وجه الصواب فيها ، فاضطررت لايرادها على علاتها . ولعله

(١) « علم الجغرافيا وملحقاته » ص ٦٠ وضع الأستاذ إبراهيم خوري .

يتيسر لأحد القراء نسخة أجود من النسخة التي اتخذتها أصلا فيتمكن من تصحيح تلك الأسماء وها هو ذا نص الأرجوزة :

دليل المحتاز بأرض الحجاز من نظم شيخنا الإمام العالم بدر الدين أبي محمد الحسن بن الشيخ الإمام المحدث أبي القاسم عمر بن الحسن بن حبيب الشافعي رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن برحمتك إنك على كل شيء قدير

الحمد لله الذي يجازي ... بالخير من سار إلى الحجاز
ويدخل الحجاج يوم الآزفه ... داراً ظلال السعد فيها وارفه
مولى كسى البيت الحرام هيبة ... وأسكن المختار أرض طيبة
صلى عليه الله والملائكه ... ما سار ركب في الدياجي الحالكه
ووعد القصاد نحو بابه ... يسراً يحار الفكر في حسابه
وخص بالخيرات أهل الشام ... والبركات والعطاء النامى
طوبى لوفد الله والرسول ... إذ يبلغون غاية المأمول
تالله لو عاينت ما من الفرح ... يلقونه في الحرمين مطرح
لكنت فارقت جميع الصحب ... وسرت مرتاحاً بغير لب
يوم خروج المحمل السلطانى ... من جلق يوم عظيم الشان
ياحسنه من محمل محمل ... كأنه الشمس ببرج الحمل
يظهر من (؟) من الورى ... وكل شخص قد غدا مستبشرا
لا سيا من كان شوقاً قد عزم ... على الرحيل معهم إلى الحرم
يا سعد من وافقهم في السفر ... وسار يبغي قبر خير البشر
وواصل الكعبة ذات الحسن ... وطاف منها حول كل ركن
وشاهد الأماكن المشرفه ... ووقف الوقفة يوم عرفه
أول ما يستفتحون الكسوه ... أرضاً برباها تزول القسوه
وبعدها يأتون خان خطاب ... كم عيش سار في حماه قد طاب

والصنمين بعد ذاك نزلوا	منزلة فيها السرور يقبل
جدوا السرى فوصلوا إلى زرع	بليدة فى ربعها الخير اجتمع
من بعدها دير قديم يعرف	بابن خليق عنده توقفوا
جاءوا إلى بصرى وهم فى تبصره	وعاينوا بركتها المشتهره
ثم أتوا في سيرهم للمسطبه	ونزلوا من بعدها في الخربه
ساروا مجدين لأرض الزرقا	وغير فعل الخير ليس يبقى
يا ملتات عنهم من أحزان	إذ يمموا البشر صنع سمنان
تقدموا ونزلوا في زيزا	وشكروا المهيمن العزيزا
وادي النسور بعد ذاك جاءوا	بلغهم رب العلى ما شاءوا
يا حسن ما وافوا إلى السواقه	والسعد قد مد لهم رواقه
ثم استقلوا السير للقطرانى	والعز والإقبال منهم دان
بعد قليل ينزلون الحجون	أنالهم ربهم ما يرجون
ان لها بين الجبال عقبه	طويلة شامخة مستصعبه
منزلهم منه بعدها على الكرك	لا خوف يلقون بها ولا درك
لله واديها الخصيب الفايح	وماؤه العذب الفرات السارح
مروا وساروا فأتوا إلى الحسا	والله معهم في الصباح والمسا
زال الشقا عنهم مع الكدر	إذ قدموا وادي الحسام في السحر
حثوا المطى للسرى فيمموا	عنيزة وفي ذراها خيموا
كم حل من بشر على إنسان	مذ فار ماء العرب للجرداني
من بعدها كان المحط في معان	وطالب الخير من الله معان
بها أقاموا لقضا الأشغال	وحمدوا الله على الافضال
زاد اشتياق الصب للأحبه	حين دنا الركب من المربه
واستقبلوا عقبة الصوان	بالأمن والتأييد والأمان
ونزلوا بضرع في رهج	وبعدها جاءوا لذات حج
حمادة إلى حماها انقلبوا	وهي إلى وهيبة تنتسب
ثم إلى تبوك ذات الماء	والنخل والظلال والأفياء

وأيقنــوا هنــاك بالمفازه ... وكل سار أخذ احــترازه
واتكلوا على العــزيز العالى ... في ســاير الأمور والأحوال
جاؤا الطليحات بلا تأخير ... تلك التي تعزى إلى سرور
منزلهم يا من سمــا بخــيره ... وادي الأخيضر نجــاه بيره
ثم انثنوا من بعــده للصــاني ... وسلمــوا الأمر إلى الرحمن
ساروا فأموا في المسير الأسده ... في نعم زايدة مجــددة
كم مقلة في برك المعظم ... سايلها بين الورى لم يرحم
يا ما يلاقون بأرض المنصف ... من ظميا أحواله لا يختفى
والسير سوق الحر فيه نافقه ... وأعين الرمل عليها دافقــه
في ثمد الروم أناخوا الإبلا ... وسألــوا الله الفــالا (؟)
هناك يلقون الحصا الغزيرا ... المشرق المستملح المنــيرا
قراير التين عليهــا نزلــوا ... والله معهم حيث ما تنقلوا
بمبرك النــاقة ياما نظــروا ... من العجايب التي لا تحصر
سبحان من يحرسهم من الغير ... وعنهم يدفع وعثــاء السفر
جاءوا سُحَيْراً نحو بير الحجر ... وأوردوا المطيَّ عند الفجر
وشــكروا رب البرايا والعــلا ... وأدلجوا حتى دنوا من العُلّا
ذات النخيل والعيون الدافقه ... والثمرات والجبــال الشاهقه
بهــا أراحوا الإبل المجــدّه ... وأودعوا الزاد لأجــل الرده
ثم يسيرون لمدن صالح ... وكل قلب للمسير جانح
ونظــروا آثار قوم بادوا ... وخلفوا وراءهم ما شادوا
جل الذى أهلكهم إذ كفروا ... برسله وكذبوا وفجــروا
وافوا إلى حفاير الزمرد ... والله خــير حافظ ومسعد
وتمموا إلى حمــا مطــارين ... حمى يفوح منه مسك دارين
ثم أتوا شعب النعام في نعم ... وشمــل سعدهم هنالك انتظم
قبر ابن جندح عليه وفــدوا ... وشــكروا وعظموا ومجدوا
منزلهم من بعده هَدِيَّه ... هداهم الله نايلى (؟) الأمنيــه

كم من جبال قطعوا عظام حتى أتوا ليلا إلى العظامي
والأبرقين منزل أنيق فيه يبين الصاحب الشقيق
من بعده يأتون وادي تيد وقاهم الرحمن كل كيد
تقدموا فنزلوا وادي القرى لما حدا الحادي وجدوا في السري
كم سلكوا من مهمه وجبل وسبسب حتى أتوا سد علي
هنالك هزوا اليعملات هزه ونزلوا على عيون حمزه
زاروا بها ضريحه والمسجدا وبعده زاروا قبور الشهدا
تباشروا بالقرب والقدوم على النبي ناشر العلوم
محمد المخصوص بالشفاعه ذي الجاه والحرمة يوم الساعه
من ثم تبدو لهم الأعلام وتكثر الصلاة والسلام
أعلام وادي طيبة المفضل بسيد الناس وخير الرسل
ثم يسير الركب في سكينه وينزلون خارج المدينه
ويدخلون الحرم الشريفا المنبر المرتفع المنيفا
ويقصدون الروضة الكريمه ويحلون الحجرة العظيمه
حجرة رب الحوض في المآل وصاحب الأنوار والجلال
كم واله متيم في بابها معفر خديه في أعتابها
وكم محب فاز بالمحبوب وظفرت يداه بالمطلوب
لله ما أحلى لييلات مضت وطيب أوقات بقربها انقضت
والله لو سرنا على الأحداق إلى حماها ذي الفخار الراقي
ثم سقينا البيد والسباسبا من الدموع ما قضينا الواجبا
زاروا البقيع البقعة الأنيسه كم قد حوت من درر نفيسه
لله أقوام بتلك الأرض هم أسعد الناس بيوم العرض
وطلعوا من بعده إلى قبا وقد غفت عنهم عيون الرقبا
صلوا بها في المسجد الممجد عند مقام المصطفى محمد
بير أريس شربوا من مائها وسرحوا الأبصار في فنائها
أماكن أنوارها تلوح والمسك من أرجاها يفوح

إذا تقضى وقت الاجتمــاع ‏ أتوا رسول الله للوداع
ويخرجــون طالبين مكة ‏ والسعد فيهم قد أدار سلكه
يفــارقون بلدة المختــار ‏ ويقطعون البر للأبيــار
هناك يسرعون في الإحرام ‏ لأنه ميقات أهل الشام
وادي العقيق موضع فيه يرى ‏ نجم السعود والنجــاح نيرا
نحو الفريشات اثبتوا وحطوا ‏ وقلم البشر لهم يخـط
وادي بني سالم بالســلامه ‏ جاءوه والتسديد والــكرامه
عنه سروا وفارقوا جبــاله ‏ ونزلوا بمـنزل الغـزاله
ثم بعـــده وافوا إلى صبار ‏ وفاز كل شاكر صبّار
ثم أتوا بالرحب وادي الصفرا ‏ سبحان من فيه الميــاه أجرى
وأجــرا الخير في فنائه ‏ وأكثر النبــات في أرجائه
لله ما أحسنه من وادي ‏ يروي برياه فؤاد الصادي
سروا وحثوا العيس نحو بدر ‏ وفي سراهم كل خير يسري
يا حسن ما يأتون قاع البزوه ‏ بجمعهم كأنهم في غزوه
ويخرجون منه باستبشــار ‏ لأنه يتعب قلب الســاري
حطوا الرحال عن ظهورالإبل ‏ لما أتوا ودان خير منزل
جدوا الرحيل نحو أرض رابغ ‏ في عــزة ونعم ســوابغ
يا حبــذا الكليتين مــنزله ‏ آيات سعدهم عليهــا منزله
ثم إلى عقبة السويق ‏ يأتون بالإقبــال والتوفيق
إلى خليص مخلصين قدموا ‏ مــنزلة خيراتهــا تزدحم
لمــا ترأأوا سبل المــدرج ‏ قالوا : أيا حادي الركاب عرج
وبعده دنوا من المحاطب ‏ وكل شخص في الوصول راغب
واستقبلوا من بعد ذاك المنحنا ‏ لله من واديه الرحيب ذى السنا
جاءوا أبو عروة بالــكرامه ‏ وشـــكروا الله على السلامه
واستبشروا بالقرب والتداني ‏ من بيت رب العرش والإحسان
تقــدموا ونزلوا بالأبطح ‏ وأي صـــدر ثم لم ينشرح
وافوا إلى مكة فى خشوع ‏ بأعين تـــرفض بالدموع

ودخلوا المسجد أجمعينا ... وهم بحمد الله معلنينا
وشاهدوا الكعبة وهي تنجلي ... في وسطه ما بين تلك الحلل
أول ما يبتدئون بالحجر ... يقبلونه امتثالا للخبر
واستلموا من بعده اليماني ... وابتهلوا في ساير الأركان
ووقفوا داعين تحت الميزاب ... وسألوا الله كثيراً بالباب
طافوا ببيت الله أسبوعاً لذا ... ومسك أفراحهم تبدى الشذا
مقام ابراهيم صلوا خلفه ... وكم لهم في بابه من وقفه
وبعد ذاك خرجوا إلى الصفا ... وعيشهم من بعد تكدير صفا
وصعدوا عليه ثم نزلوا ... سعياً وفيما بين ذاك أرملوا
حتّى على المروة حطوا الأرجلا ... وفعلوا ذلك سبعاً كملا
ودخلوا إلى فناء زمزم ... وشربوا من مائها المكرم
وسائر الأماكن المعظمه ... داروا وزاروا وهم في تكرمه
أجلل بها يا صاح من مواضع ... كم ساجد فيها وكم من راكع
هذا تراه خايفاً وداعياً ... وذا تراه طايفاً وساعيا
وذا تراه شاكراً لربه ... وذا تراى مستغفراً لذنبه
والناس في بشر وفي أفراح ... وفي سعادات وفي انشراح
يشاهدون الكعبة المدبجة ... قد حصلوا على علو الدرجة
وكيف لا وهم ضيوف الباري ... جيرانه أعظم به من جار
في الأمن واليمن أقاموا والهنا ... وصعدوا بأسرهم إلى مِنَى
باتوا بها في ليلة مشهوده ... مشهورة مشكورة محموده
وفارقوا ربوعها المعطرة ... ورحلوا فنزلوا بنمره
بها أقاموا لزوال الشمس ... ما بين بشر ظاهر وأنس
مسجد إبراهيم فيه صلوا ... وسمعوا الخطيب ثم ولوا
من بعدها يأتون أرض عرفات ... مأوى السرور ومحل البركات
أرضاً بها يعفى عن الذنوب ... ويتجلى عالم الغيوب
للصفح والسماح والغفران ... والصبر والرحمة والرضوان
وينظر العباد شعثاً غبرا ... منتظرين فضله والأجرا
قد رفعوا الأصوات بالدعاء ... والحمد والتّهليل والثناء

ما بين راج واكدٍ ملبّ وبين مشغول الحشا واللب
حينئذ يغفـــر جل وعـــلا لمن بأرض عرفات نزلا
جميع ما من الذنوب أسلفا وما جنا من الخطا واقــترفا
سبحانه من ملك منــان يقابل المسيء بالإحســان
ووقفـــوا هناك للمغيب ونفـــروا فى موكب عجيب
قد ظفروا بالعز والإسعاد وبلغوا القصـــد مع المراد
يا حبذا من موقف جليـــل موقف خير الرسل ذى التفضيل
لو عاينت عيناك ذاك الموقفـــا لم يك عنـــه أبدا مخلفـــا
ثم أتوا من بعد أرض عرفه وضربوا الخيـــام بالمزدلفه
أحيوا هناك الليل بالأذكار وأخـــذوا منها حصى الجمار
الصبح صلوا في حماها السامى ووقفوا بالمشعـــر الحـــرام
وذكـــروا الله به امتثـــالا لأمـــره سبحـــانه تعـــالى
وأقبلوا من بعده على منى بربعها نالوا المـــراد والمنـــا
لله عيـــد في حماها عيـــدوا وطيب أوقات عليهـــا وفدوا
أهلا به ومرحباً من عيـــد وافاهم في طالع سعيد
حدوا الشفار والضحايا نحروا وحلقوا رءوسهم وقصـــروا
ودخلوا من بعد ذا في العقبه وقد رموا جمرتها المنتصبـــة
ولبســـوا المخيـــط واستقلوا لأنهم من الحـــرام حلـــوا
ثم أفاضوا أجمعين للحـــرم طافوا وكل منهم الركن استلم
ورجعـــوا إلى منى أقامـــوا للرمى لاعداهم ماراموا
بالخيف ياما شاهدوا من ملح وقطعوا من لذة وفـــرح
أيا ليـــالى الخيف ما أحـــلاك تـــرى تعود تجتلى حـــلاك
من بعدها جاوا بسعد وافر ونزلوا تجـــاه بير الزاهـــر

والمساجد(؟) أتوا وأحرموا بعمرة لأجلها قد قدموا
وافوا إلى مكة محرمينا طافوا ببيت الله أجمعينا
ثم سعوا يا صاح سعى العمره ممتثلين أمر رب القدرة
وللوداع بعده تطوفوا وما عليهم لمليكهم وفوا
وخرجوا في حرق وفى ألم لا يشتهون أن يفارقوا الحرم
أدمعهم من العيون تقطر ومن على حكم البعاد يصبر
وفارقوا مكة فى أحزان وطلبوا الأهل مع الأوطان
أراهم ربهم الديارا وبين أيديهم طوى القفارا
وبعد حمد كاتب السلامه رازقنا فى الظعن والإقامه
مسير العباد في البلاد وحامل العافي بأدنى زاد
هو الذى بفضله أرانا مناسكاً لنيله هدانا
ومن ضيوف بيته الحرام صيرنا وزاد فى الإنعام
وفى مواقف الرجاء أوقفنا وقدرها وفضلها عرفنا
وزادنا بالسعي والطواف مراتباً جميلة الأوصاف
وجعل الشام لنا مقرا وأعين الجود علينا أجرا
عليه فيما نبتغيه نعتمد إليه فى كل الأمور نستند
نحمده حمداً كثيراً نشكره نتوب من زلاتنا نستغفره
ثم نصلى ساير الأوقات على الرسول صاحب الآيات
محمد وآله الأطهار وصحبه والعترة الأبرار

تمت بعون الله وحسن توفيقه
والحمد لله رب العالمين وصلى الله
على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين

بنو صخر : من طيء

.. إلى من يرجع بنو صخر فى نسبهم ؟ فقد رأيت في بعض الكتب أنهم من جذام من قحطان .

الرياض – لافي بن حسين

العـرب :

ينبغي ملاحظة أمور عديدة عند البحث في الأنساب . منها :

(ا) أن الاسم الواحد قد يطلق على عدد من القبائل والفروع مثل أسد فهو يطلق على قبيلة عظيمة ، أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وكانت تحل نجداً مجاورة لطيء من الجنوب ولغطفان من الشرق ، ويطلق اسم أسد على جذم كبير من ربيعة ، أسد بن ربيعة بن نزار كما يطلق على فروع قبائل كثيرة مختلفة النسب .

(ب) أن إطلاق الاسم على عدد من القبائل والفروع كثيراً ما يوقع في الخطإ في ذكر نسب بعضها ، بل قد يسبب التداخل في الأنساب وإلى هذا أشار الهمداني في « صفة جزيرة العرب[1] » حيث قال – في الكلام على بني جعدة من حمير : (وبنو جعدة هؤلاء فيما يقال إلى بعض بطون رُعَين . وهم اليوم يقولون إنهم من جعدة بن كعب ، ولا تعرف هذه البطون فى بطون جعدة بن كعب) ثم ذكر فروع جعدة بن كعب وقال : (وكذلك سبيل كل قبيلة من البادية تضاهى باسمها اسم قبيلة أشهر منها فإنها تكاد أن تتحصل نحوها ، وتنسب إليها ، رأينا ذلك كثيراً) انتهى .

(جـ) أن المتتبع لتنقل القبائل العربية فى جزيرتهم ، ثم لانتقالهم منها

---

(۱) صفحة ۱۸۰ من (منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) .

قبل أن نجد أن قبيلة بأسرها أو فروعاً منها اتجهت من خارج الجزيرة من الشام — مثلا — إلى داخل الجزيرة ، بل العكس ، بحيث أن القبائل تتبع في هجراتها وتموجاتها في الجزيرة اتجاهاً يوشك أن يكون واحداً ، وهو السير من الجنوب الغربي نحو الشمال أو من الغرب نحو الشرق .

مما تقدم يمكن إدراك خطإ القول بأن بني صخر الذين تنسب إليهم أسر معروفة في نجد وفي شمال الحجاز — من قبيلة جذام التي كانت تسكن الشام .

ومنشأ هذا الخطأ هو ما نقل عن الحمدانى من أن بني صخر بطن من جذام القحطانية ، مساكنهم ببلاد الكرك من الشام ، وهم الدعجيون ، والعطويون ، والصوتيون ، وهم أحلاف آل فضل من عرب الشام ، ومنهم جماعة بمصر .

وقول الحمداني هذا نقله ابن فضل الله العمري في « مسالك الأبصار » ثم نقله بعده القلقشندي في « نهاية الأرب » والسويدي في « سبائك الذهب ».

والواقع أن الحمداني لم يكن محققاً ولا خبيراً بأنساب سكان الجزيرة ، وإنما كان مدير ضيافة (مهمتدارا) [1] لدى أحد سلاطين مصر في عهد المماليك ، وكان يدون أسماء من يفد على ذلك السلطان من أمراء العرب ويذكر أسماء قبائلهم ، ووقعت أخطاء كثيرة فيما نقل عنه . نجدها في « نهاية الأرب » وفي « سبائك الذهب » .

ويظهر أن منشأ الخطإ في نسبة بني صخر إلى جذام أنهم فى عهد الحمداني كانوا ينزلون منازل كانت قديماً من بلاد جذام ، في أطراف شمال الحجاز إلى بلاد الشام (الأردن الآن) .

ويضاف إلى هذا أن اسم صخر قد يكون يطلق قديماً على فرع من فروع

---

(١) ترجمه ابن حجر فى « الدرر الكامنة » وله مؤلف مخطوط فى (دار الكتب المصرية ، فى أحد فروع اللغة العربية (البديع) .

جذام ، كما كان يطلق على غيره ، إذ بنو صخر أيضاً بطن من نهد من مذحج منازلهم قرب وادي تثليث [1] ، جنوب الجزيرة . وهناك بنو صخر أو صخرة — بطن من الأوس من الأنصار ، على ما ذكر في « نهاية الأرب »

ولكنّ أشهر من عرف ببني صخر هم الطائيون الذين كانوا قبل ظهور الإسلام يعيشون مع قومهم بني طيّىء في بلاد الجبلين وما حولهما . ثم باتساع فروع القبيلة توسعت في البلاد وانساحت نحو الشمال فيما بين تيماء وخيبر والشام — كما في « نهاية الأرب » وتجد الهمداني في « صفة جزيرة العرب [2] » يذكر أن (من الحجر إلى تيماء في دهناء ثلاث مراحل بطان ، يسكن ما بين ذلك من طيّىء بنو صخر ، وإخوتها بنو عمرو بطن من بحتر) .

ويذكر المقريزيّ فى كتاب « السلوك » [3] فى حوادث سنة ٦٦٦ أن بني صخر وبني لأم وعنزة من عرب الحجاز التزموا لسلطان مصر بالزكاة ، فبعث معهم من يقبضها ، وذلك حين استقلّ الزكاة الواردة من المدينة .

وياقوت الحموي في « معجم البلدان » يقول — وهو في الغالب ينقل عن قائل تقدمه عصره : (العُرَدة — بالضّم — ماءٌ عِدٌ ، من مياه بني صخر من طيّىء وهو بين العُلا وتيماء وجفر عَنَزة ، في أرضٍ ذات رَمْل وجبال مقطعة) .

والعردة هذه لا تزال معروفة شرق العُلا وغرب تيماء ، وهي الآن من مناهل عنزة ، وصلة بني صخر بقبيلة عنزة قديمة ؛ فقد تجاورت القبيلتان ، ثم انزاحت بنو صخر نحو الشمال وبقيت فروع من قبيلة عنزة في أماكنها القديمة.

وفي القرن الثامن الهجرى نجد بني صخر مسيطرين على طريق الحج

---

(١) « صفة جزيرة العرب » ص ٢٥٣

(٢) ص ٢٧٤ .

(٣) ج ١ ص ٥٦٢

الشامي في نواحي العلا ، كما في قول ابن أبي حجلة [1] (٧٧٦/٧٢٥) :

بأرضٍ بها آثار ناقةِ صالحٍ (بنو صخر) السراق شرُّ قبيلِ
لئن عُوقِب الماضون في عقر ناقةٍ فكم عقروا من ناقةٍ وفصيلِ

وقد امتدت سيطرتهم على هذا الطريق إلى القرن الثاني عشر الهجري ، ففي سنة ١١٥٥ قاموا بنقل حجاج الشام . ثم قاموا بحوادث مُخلة بالأمن ، فنهبوا الحجاج — كما أوضح ذلك صاحب كتاب « حوادث دمشق اليومية » وكما جاء في كتاب « النفح الفرجي » — المنشور في هذا الجزء ، كان شيخهم في هذا العهد قعدان الفايز .

ويظهر أن الرئاسة بقيت في هذا البيت إلى عهدنا إذ شيخهم منذ عهد غير بعيد مثقال باشا الفايز .

نكتفي بما تقدم من نصوص المتقدمين المتعلقة ببني صخر وأنهم من قبيلة طيّىء وإخوتهم بنو عمرو الذين كان يضاف إليهم الجوف فيقال جوف بني عمرو .

وتحسن الإشارة إلى أن من بني صخر هؤلاء بيوت في نجد ، ومنهم في الرّس آل زُهَير ، ومن آل زهير هؤلاء : الضُّويّان — بالضاد المعجمة — والصويّان — بالصاد المهملة — والدُّغَيم ، والجاسر — المعرفون بالحربش [2] والعُمير والروضان . وغيرهم .

وفي بلدة العُلا أسرٌ تنتسب إلى بني صخر أيضاً [3] ولقد رأيت في أحد أحد المؤلفات الحديثة لعالم جليل في ترجمة الشيخ إبراهيم بن ضويان نسبة بني صخر إلى جذام ، اعتماداً على قول صاحب « نهاية الأرب » فيما نقل عن الحمداني . وقد تقدمت الإشارة إلى خطأ هذا القول .

---

(١) هو أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني . سكن دمشق ومات في القاهرة . ومن مؤلفاته كتاب « منطق الطير » ومنه هذا الشعر على ماذكر صاحب « درر الفوائد المنظمة » ص ٤٦١ .

(٢) اسم الحربش طارئ لعائلتهم فخذا من بني عبد الله من مطير يدعى الحربش .

(٣) أنظر فاتحة الجزء الثالث من السنة الثانية عشرة من العرب .

في رحاب الحرمين
من خلال كتب الرحلات إلى الحج

(١٣)

الرحلة الناصرية :

تعتبر هذه الرحلة – بعد رحلة العياشي ورحلة ابن عبد السلام الدرعي المطولة – من أوفى الرحلات إلى الحج وأمتعها . وقد اعتمد فيها مؤلفها ابن ناصر على رحلة شيخه أبي سالم العياشي الذي وصفه بأنه شيخ الرحالين وقد ضمنها رحلته الرابعة إلى الحج ، وجمع فيها بين الرحلتين قبلها [١] .

وتقع في جزين صفحاتهما ٢٤٢+٢٠٠ = ٤٤٢

طبعت طبعة حجرية في مدينة فاس في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢٠هـ

ويحوي القسم الأول منها :

١ – ترجمة المؤلف في ٣ صفحات	من ١ إلى ..
٢ – وصف الطريق من المغرب إلى القاهرة	٤/١١٨
٣ – في القاهرة	١١٨/١٤٧
٤ – وصف الطريق من القاهرة إلى مكة	١٤٧/١٨٧
٥ – في مكة المكرمة	١٨٨/٢٤٥
٦ – فهرس هذا القسم	٢٤٦/٢٤٨

ويحوى القسم الثانى من الرحلة

١ – وصف الطريق من مكة إلى المدينة	٢/٨
٢ – في المدينة الكريمة	٨/١٠٤
٣ – في الطريق إلى القاهرة	١٠٤/١١٠
٤ – في وصف القاهرة والإسكندرية	١١٠/١٢١
٥ – وصف الطريق من الإسكندرية إلى الزاوية	١٢١/٢٠٠

(١) « فهرس المخطوطات العربية فى خزانة الرباط » القسم الثانى الجزء الثانى ص ٢٣٣ .

زمن الرحلة ومراحلها :

خرج ابن ناصر من الزاوية الناصرية فى درعة فى المغرب الأقصى يوم الخميس ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢١ . وسار حتّى بلغ طرابلس الغرب

ورحل من طرابلس يوم الجمعة ٢٧ شعبان (٣ اكتوبر) فبلغ القاهرة يوم الثلاثاء ٢١ شوال (١٣ ديسمبر) وخرج منها يوم الثلاثاء ٢٨ شوال [١]

ووصل إلى مكة يوم الخميس سادس ذي الحجة (٢٧ يناير) وغادرها إلى المدينة يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة [٢] وبلغ المدينة يوم الاثنين ثاني المحرم فاتح سنة ١١٢١ [٣]

وجاء في المطبوعة أنه خرج من المدينة يوم ١٦ المحرم ، ولكنه ورد فيها [٤] أنه ارتحل من ينبع يوم الخميس ثاني عشر المحرم (ثانى مارس وسادس جباه [٥]) فقد تكون كلمة (١٦) صوابها بدون عشر ، كما سبق توجيه هذا .

وعاد إلى القاهرة يوم الاثنين سابع صفر (٢٧ مارس) وأقام بها إلى ١٤ ربيع الأول (٥) .

ووصل إلى الزاوية في خامس رمضان (٨ أكتوبر) [٦]

ترجمة المؤلف :

هو أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، والناصريون أسرةعلمية مشهورة ، وهم أصحاب الزاوية المشهورة في بلدة درعة ، والّتي كانت إلى عهد قريب من مراكز العلم في بلاد المغرب .

---

(١) ج ١ ص ١٤٧ .
(٢) ج ١ ص ١٨٨ وج ٢ ص ٢
(٣) ج ٢ ص ٨
(٤) ج ٢ ص ١٠٥ .
(٥) ج ٢ ص ١١٠
(٦) ج ٢ ص ١٩٩ .

وقد ولد الدرعي في ١٨ رمضان سنة ١٠٥٧ هـ (١٧ أكتوبر ١٦٤٧ م) وتوفي في ١٩ ربيع الأول سنة ١١٢٩ (٣ مارس سنة ١٧١٧ م) . وجاء في مقدمة الرحلة أنه توفي في ١٣ ربيع الأول سنة ١١٢٨ .

مؤلفاته :

أشهرها « الرحلة الناصرية »[١] ويوجد في الخزانة العامة في الرباط نسخة مخطوطة سنة ١٣٠٦ بعنوان « رحلة إلى بيت الله الحرام » في ٢٤٠ ورقة[٢] ، وأخرى أقدم منها خطاً مكتوبة سنة ١١٣٨ في ١٣٤ ورقة في المجموع رقم ٢٣٤٣ .

وفي الخزانة العامة في الرباط : « سلسلة من أخذ عنهم ابن ناصر » في ورقتين عمن تلقى عنهم التَّصَوُّف[٣] . ويلاحظ أن علماء الزاوية على وجه الإجمال متصوفون ، ولكن كثيراً منهم ينزع إلى السير على نهج المحدثين ، ويعنى بكتب الحديث ، ويخطِّىءُ كثيراً من المنحرفين من المتصوفة . كما يلاحظ هذا في الرحلة العياشية وغيرها كهذه الرحلة ورحلة ابن عبد السلام الكبرى . بل يلحظ فيها أيضاً محاولة التثبت والتحقق في ذكر الآثار المعروفة في المدينتين الكريمتين مكة والمدينة . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره العياشي عن المكان المعروف بالمولد في مكة ، وأن القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم وُلد فيه غير مقطوع بصحته — وسيأتي كلامه في موضعه — وهذه الرحلة تعتبر متممة للرحلة العياشية التي اعتمدها المؤلف أصلا له ، ونقل عنها كثيراً وهذا ما دعا إلى تلخيص ما يتعلق بالحجاز منها ، لا سيما وأن بعض ما ورد في رحلة العياشي موجود فيها ، ولم ينشر فيما نشر من تلك الرحلة[٤] .

---

(١) له تراجم فى مقدمة رحلته (الرحلة الناصرية المطبوعة) وفى كتاب « مؤ . خى الشرفاء » ص ١٩١ - ١٩٢ وفى « فهرس الفهارس » ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) رقم ٢٣٤٢

(٣) فى المجموع رقم ٢٢٩٥

(٤) أنظر ملخص الرحلة العياشية فى الجزءين الماضيين من هذه السنة من « العرب »

أما القول بأن « الرحلة الناصرية » مطبوعة فإنه لا يقلل من الحاجة إلى نشر ملخصها ، فقد مضى زمن طويل على نشرها حتى أصبحت في حكم النادر ، ثم إنها طبعت بحروف مغربية جميلة ، ولكن قلّ من بين القراء في غير بلاد المغرب من يجيد قراءة الكتابة المغربية

وها هو ذا ملخصها :

من القاهرة إلى مكة

درب الحجاز :

ارتحلنا يوم الثلاثاء (٢٨ شوال سنة ١١٢١) ونزلنا المسبط (؟) خارج باب النصر . . . والطريق كلها من مصر إلى البركة كأنها سوق واحد من كثرة الذاهب والجائى ، وكثرة الباعة لأنواع الطعام على الطرقات (وبات الركب هناك في حر شديد ، يتملأون من رؤية النيل وشرب مائه ،ويتمتعون بشميم عراره وطيب غذائه وقد مزجوا حلاوة مابه يتمتعون بمرارة ماله من شدائد الدرب يتوقعون ، وباتوا يشدّون الرواحل وينيخونها ، ويشدون عليها أقتابها ويرخونها ، ويرتبون الأمتعة في الغرائر ، وقد شقت منهم خوف هجوم الرحيل المرائر ، وتلك الليلة عند الحجاج إحدى الليالى المشهورة ، وبالقصر وعدم انشراح الصدر مذكورة ، كأن الدرب أمامهم عدوّ لا يرحم أو بحر لا يقتحم ، يترقبون مزاولته عند الصباح ، ومبادرته بالكفاح ، وإنه لكذلك لولا ألطاف الله الخفية فيما هنالك)[1] فودع الناس أصحابهم ، وفارقوا أحبابهم ، ووطنوا أنفسهم على مقاساة درب الحجاز ، وما يبديه من إذلال وإعجاز ، إذ فيه تضيق الأخلاق ، وينحلّ وثاق الأنفاق ، ويتسلط الحمّال والعكّام على الحجّاج ، ويذلون لهما كما ذل أهل الكوفة للحجاج ، ولله در القائل وهو العلامة الصلاح الصفدى :

درب الحجاز مشقة لكن إذا الـ
جمّال هان تسهلت أهـــوالُه

(١) في العياشية : (يشيلون) بدل (يشدون) : ومابين القوسين فيها .

أصبحت فى تصريف جمالى على
ما يشتهى ، فكأننى جَمّاله
قد كان تَخفّ على فؤادي لو غدا
من فوق ظهرى بالسوا أحماله
ويكون طوعي في الذي اختاره
لكن قسا ، وتضاعفت أثقالُه

وقال أيضاً فى المعنى :

درب الحجاز مبارك لكنه
يحتاج صبراً زائد الإجْمالى
وغبونه شتى ولا مثل الذي
أصبحت ألقاه من الجمّال

وقال أيضاً في المعنى :

غدا سفر الحجاز كما تراه لأخلاق الرجال يُرَى محكّا
فكم من صاحب أمسى عدواً به وصحيح ود قد تشكى
كما أن المقوم ، فى اعوجاج
وحين تقيمه بيديك دُكّا[1]

بركة الحاج :

وبركة الحاج بركة واسعة مدّ البصر، يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات، تنصب الأسواق الحافلة بشطّها والقهاوي المزخرفات، والفساطيط المونقة، ويخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج، والتفرج هناك والتنزّه في بساتين ومقاهي على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة، وفي جانبها الغربي قرى متعددة في إحداها مسجد سيدي إبراهيم المتبولى حسبما ذكره الشيخ الشعراني في «الطبقات»[2] .

---

(١) الرحلة الناصرية ج ١ ص ١٤٧ و ١٤٨

(١) العياشية ١-١٥٧ والرحلة الناصرية ١-١٤٩

عجرود :

ظعنا يوم الخميس «أول القعدة» ونزلنا غربي عجرود ، ثم منه في يوم الجمعة (٢٢ دجنبر) عجلنا الرحلة ووجدنا مع طلوع الشمس رجلين من الركب المصري ميتين من البرد فواريناهما ومررنا على واد به ماء طيب بآبار قريبة القعر ؛ يحفر الإنسان بيده فينبع الماء قريباً بحيث تتناول الدابة منه بفيها من غير معالجة ، واخبرني بعض من كثر ترداده في هذا الطريق أن هذا الموضع محدود (؟) به الماء ولو في الصيف هذه الأزمنة وهذه السنة زاد الماء فيها كثيراً من كثرة الأمطار ونداوة الأرض ، ونزلنا هناك حتى أوردنا دوابّنا واستقى من الماء من أراده وهو عن يمين الذاهب لعجرود ، فسرنا ومررنا كذلك على واد به قيعان (؟) من ماء يسيل سيلا تاماً من المطر بإزاء عجرود فقلت لأعرابي حجازي : هذا الماء طيب !. فقال مجيبا : نعم زيّ الشهد . وبلغنا عجروداً ضحاء ، حتى أوردت الإبل وقضى الناس حاجتهم من مائه (وماؤه يضرب به المثل في القبح واشتهر بذلك مع مايضاهيه كثيراً في مياه الدرب ، إلا أنه لما كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاقّ الطريق مع اعتياد الناس قبل ذلك لمياه النيل ووجود فضلة منه لايكادون يسيغون منه جرعة إلا وهمّت من بطونهم بالرجعة .

وفي هذا المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء يترك الناس فيهما ما استثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع وكثيراً ماتعطب المثون من الإبل في هاتين المرحلتين لجد السير وثقل الأحمال إذا لم يخفف منها شيء .

والإبل قد ألفت الراحة بمصر ويغلب عليها السمن ، وكثير من الناس لايشفقون عليها فيحملونها فوق طاقتها ، ولايرخون عليها في المشي لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر فكل واحد [1] يريد أن يتقدم ، وقد لطف الله بنا فنتأخر عن الركب ونكون في أخرياته فنسير على مهل بإبلنا وينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض ، فكان لنا وللناس في ذلك خير كثير . فلم نر مارأى الناس من المشاق وموت الإبل .

---

(١) في العياشية : أحد

وفي آخر الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة تسقي دائماً بالبقر ويخرج الماء من البندر إلى برك ثلاثة خارجات ، ثنتان صغيرتان والثالثة كبيرة ، وبهما عسكر لايفارقهما أبداً وكذلك غيره من البنادر ، في كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه ، ولهم جراية من بيت المال على ذلك ؛ ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر في الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها) [1]

ومن هنا يعدل عن طريق الحاج ذات المصانع ذات اليمين للنابعة (والمصانع سوارى مبنية في سبخة لايظهر فيها أثر الطريق ، وكذا في الرمل القريب منها ، فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدل بها على الطريق ، وجعلوا في رؤوس الأبنية حجراً مستطيلا خارجاً لناحية الطريق يستدل بها الماشية ليلا ؛ وربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح ليلا لبعد مابينها ، وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل أو أكثر حتى انتهوا بها إلى رأس وادي الرمل ؛ إلا أنها الآن انهار منها بعض ، ولم يبق منها إلا النقض في محالها ، وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري والمغربي دائماً إلا في أوان الحر وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن طريق المصانع)[1] وهو واد كبير ذو رمل ، به أحساء كثيرة تزيد على المائة ، بل أينما حفرت مقدار قامة أو أقل وجدت ماء حلواً بارداً فى غاية الحلاوة كأنه ماء النيل ، وربما يتوهم أنه أحسن منه ثم فى مدينة السويس [2] .

وادى الرمل — وادى الخروبة (٣) :

لما قضى الناس من هذا البندر — عجرود — الأوطار وعانقوا التسيار ؛ وجدوا السبخة لكثرة ماتوالى عليها من الأمطار بركة واحدة فعدلوا ذات اليسار ونزلنا بعــد ماتوغلنا فى الرمل (مغيربان ، في أفيح بسيط وأوسع

---

(١) بين القوسين فى العياشية ١ - ١٥٩

(٢) « الرحلة الناصرية » ج١ - ١٤٩ - ١٥٠

(٣) الناصرية ١٥٥

مكان)[1] في مكان أفيح بسيط ثم ارتحلنا منه يوم السبت وبلغنا وادي الرمل قبل الظهر ووجدنا به غدرانا من الماء ، وأدركنا التونسي هنالك وسرنا حتى خلفناه ، فارحنا ركبنا ونزلنا لصلاة الظهر .

ثم سرنا حتى نزلنا بغربي وادي السدرة والخروبة ، والسرقة في تلك الليلة من كل ناحية من الركب أعجوبة ... فأخذوا بغلة لسيدي أحمد بن أطاع الله (؟) وضايقوهم عليها ففروا عنها وأخذها حاجها . وسمي الوادي بشجرة كبيرة من الخروب ومن السدر في أصل الوادي .

في التيـــه :

ثم ارتحلنا رابع ذي القعدة (٢٥ دجنبر) وسرنا مع الوادي — وادي الخروبة — برهة ومررنا على العقبة المشرفة على التيه وقت الضحى وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها سويت حتى صارت طريقاً لاحبا ، ومنها ينزل إلى أرض التيه وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة ، قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر وقد تتلف فيه أنفس كثيرة من العطش قال أبوسالم: وقد وقع لنا من ذلك في سنة تسع وخمسين ارتحل الناس من عجرود ظهراً ولم يمروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذى لايتجرعه الظمآن ولايكاد يسيغه ، فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر وقل الماء فى اليوم الثالث ومات بعض الإبل وجعل الناس يعصرون مافى بطون الإبل من الفرث ويشربونه وفي ذلك قلت :

ولم أنس بالتيـــه يوماً به تفـــانى الحجـــيج صدى وولوها
وإن يستغيثوا يغـــاثوا بما ء عجرود كالمهل يشوى الوجوها[2]

قلت : وكذا يشتد أمره في الشتاء لأن أرضه عرا ، ولاحطب فيها ، فقد تتلف به النفوس من البرد ، وأما عامنا هذا فسلكناه في أطيب هواء

---

(١) مابين المربعين من رحلة الورثيلانى وصرح بأنه نقلها من كلام أبيه ناصر .

(٢) العياشية ج ١ - ١٦٣

لاحر ولا قرّ ولامخافة ، ووجدنا به اصفرار غدران من الماء في أخاديدها ، كفى الله به شر العطش فتوسطنا التيه فنزلنا بعيد المغرب والتيه كما في خطط المقريزي [1]

وقال في وصف التيه حينما عاد :

ثم منه – النخيل – بعد صلاة الصبح ، ونزلنا كراع التيه مغربا .

ثم منه ونزلنا قرب السبخة كذلك .

ثم منه وقطعنا السبخة صُبْحاً ، وكنا توقعنا مكابدة مشقتها، فسهلها الله ، ولم نر فيها بأسا .

وبلغنا عجروداً قبل الظهر ، فسقينا واستقينا ، وبيع به الفول نصفان واربعة فلوس للربعى ، والشعير نصفان ، والبيض تسع بنصف .

ووجدنا هنالك السيد الشريف (؟) كان يزعم أنه من أولاد مولانا وسيدنا ابن مشيش ، يأوي إلى أصحابنا المغاربة وأتى لملاقاتهم وأطعمنا دجاجا– تقبل الله منه .

وجمعنا بين الظهر والعصر فسرنا ونزلنا غربى نخلة أبي زيد ثم منه ونزلنا غربي الأزيار .

ثم منه وتلقانا الناس أهل مصر والمغاربة وأمراء الأجناد والأتراك ، خرجوا لملاقاة الركب فنصبوا الأخبية ، وبنوا الخيام في سائر الطرقات ، وملأوا المحال بالأسواق من البركة إلى مصر .

وكابد الناس مع المكّاسين بالعادة المشقة قطعها الله من عادة أضرّت بالمسلمين ، والله تعالى يجازى الشربي (؟) خيراً كان يحول بينهم وبين المكّاسين ، فالله يحول بينه وبين كل شر وضر [2]

---

(١) « الناصرية » ج ١ - ١٥٥

(٢) « الناصرية » ج ٢ - ١١٠

النخيــل :

ثم ظعنّا منه يوم الاثنين وغلسنا الرحلة . وانفرد عن الركب رجل من أهل توات مع ولده وعبده بعدما حملوا على جملهم ، ولقوا جماعة من المتلصصة فأخذوا الجمل وماعليه وهو كل مايملك وذلك مقدار ٨٠٠ مثقال تبْراً بعد ماشجُّوه فخر صريعا.. وأتينا بندر النُّخَيْل قرب الزوال وتسابق الناس لسَقْي الجمال والبغال ، وصادفنا فيه بقية من السوق به بعض الفواكه الشامية أتى بها أهل غزة مثل الزبيب الفاخر الحلو ونحو ذلك ، وذلك عادتهم أبداً يتعرضون للركب هنا ذهاباً وإياباً بالكثير من الزبيب وأنواع الفواكه الشامية ، وهناك بندر حصين فيه بئر ماء عذبة كثيرة لاتنزح أبداً ، يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن وهي ثلاث مثل التي بعجرود إلا أن هذه أكبر وقد وجدنا الماء فيه فاضلا عن الركب المصرى وأخذ الناس منه حاجتهم ، وهو من المواضع الذى يصعب فيه الماء ، إذ ليس فيه إلا بئرٌ واحدة ، فإذا شرب المصري مافي البرك وقعت الزحمة على البئر فلا يصل الناس إلى الرى إلا بعد تعب شديد .

واتفقت الأركاب المغربية على عدم البيات فيه . فسرنا ونزلنا بعيد المغرب (وقل في ركبنا الفلاحون فضبط أمر الركب بعض ضبط) .

وقال في وصف النخيل لما عاد من الحج :

ثم منه — شرق بئر العلائي — ومررنا ببئر العلائي ضحى ، ونزلنا النخيل قبل الاصفرار ، ووجدنا به الملاق . وبيع الفول بثلاثة أنصاف للربعي ، والشعير — والله أعلم — بنصفين وكل شيء كثير [١] .

بئر الصعاليك — بئر البارود :

ثم قوضنا الأخبية من منزلنا الذي جاوزنا النخيل إليه في بَرْد شديد تخال الأيدى منه رميت بالشلل ، والأرجل نظمت بالسلا والأسل قال الشاعر :

رحلنــا العيش نمشي في هواء   له برد على الغــادي يشقّ
فـــا فى الركب إلا من تراه   له حنك بسورته [٢] يدق

(١) الناصرية ج ٢ - ١١٠   (٢) لعل الصواب (بسرته)

ولم يزل الهواء والبرد ... إلى أن حان وقت العصر ... فصلينا صلاته ببئر الصعاليك ، وتسمى ببئر البارود، وهي بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن في أصل واد ، وبجانب البئر أثر بناء وبركتين ، إلا أنه لاعمارة عليه ، وماؤها بارد إلا أنه قبيح لايكاد الشارب يسيغه فتقدمنا ونزلنا بعد المغرب .

سطح العقبة :

ثم طعنا من العقبة ضحاء يوم الاثنين (٣٠ المحرم ٢٠ مارس) وسار الركب وتأخرنا في انتظار بغلة لابن عمنا حسين بن أحمد مع بغلة سيدي أحمد العقبي ، بعثاهما للسقي وأخذهما بعض الأتراك الذي جاء مع الملاقية في حق له زعم أنه التزمه له الفاسيون في هذا البندر ، أربعين مثقالا ذهبا ، حتى أتانا صعيرا (؟) قرب الاستواء وذكر أن أمير الركب نائم ، وتعذر لقيه (؟) الآن إلى أن يقوم من نومه للصلاة ليتزجر آخذ البغال ، وتخلف لذلك حامل رايته الحاج أحمد التواتي وأعطى بغلته لابن عمنا ، وتخلف معه العقبي وسرنا مجدين ، لنلحق بالركب ، وطلع الناس ومعهم نوع تفريط لم يأخذوا حذرهم ، ولا أنزلوا الرماة في الأماكن المخوفة كعادتهم ، ولما بلغوا المكان المسمى بدار الحفيان (؟) وهو المكان الذى قتل فيه ابن أخي العباس — رحمه الله — والناس في غرتهم لم يزالوا كل أين حل (؟) وتركوا المراحل مع سواقها وسوامها (؟) وتجاوز الركب التونسي وأوائل الفاسي وليس أمامه رماة . ولا تأهبوا لعدوهم إذ تعرض الحرامية المتلصصة لطائفة منهم وأخذوا إبلا بأحمالها وترامو مع من وجد مع الإبل على غرتهم ، ومات من المتلصصة ثلاثة — فيما زعموا — وواحد من الحجاج ، وجرح ثلاثة ، وسلم الله الركب كله ، وللكبيطى (؟) والقشرى من هذه الإبل المأخوذة خمسمائة مثقال ذهبا وحوائج ، وواحد لابن كيوان ، وواحد للغنبرى شاش ونصف حمل صالح الفيلالي للحلوى ومئتان مثقالا ذهب — ونصف حمل لآخر ، ونصف حمل للحجاج عبد القادر الأبار وأخويه عليه سلعة هند وحمل للسيد

صالح الفيلالي التزكزوتي ، ونحو مائة شقة لابن أبي زيان أمانة عنده ، وحملان للحاج مسعود الأبار أحدهما عليه الماء والآخر بلا شيء .

ونزلنا بعد العصر سطح العقبة

واستهل هلال صفر ليلة الثلاثاء [1]

وقال في ذكر سطح العقبة أيضاً .

العقبـــة :

وبتنا بسطح العقبة ، ثم ظعنا بكرة يوم الخميس (٨ ذي القعدة ٢٩ دجنبر) وما تعالى النهار حتى وافينا عقبة أيلة وخبرها قد روع القلوب ، ونوع المهابة لأمرها ، فما من الركب إلا من هو من لباس الصبر مسلوب فحصل هناك من الزحمة ما تقطعت له القلوب رحمة وتصادمت الحاف وانكسرت وبرزت أنياب النوق وتكشرت ، فما كان بأسرع من خمود أمرها . وركود حرها وجرها ، وهي عقبة كؤود ، صعبة الهبوط والصعود ، إلا أن الطريق بها منحوتة ، قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة ، وبنيت حافتها ببناء متقن .

ولما كان المحل معروفاً بتلصص الأعراب وحرابتهم تهيأ الناس وأخذوا حذرهم ، وأبرزوا أسلحتهم ، وعبوا تعبئتهم خوفاً من أعدائهم ، فإن الغالب لابد أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته . وتقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب ، وتأخرت طائفة ، وكفى الله المؤمنين القتال ، فلم نر بها سارقاً ولا غائراً ، ولا عاتياً ولا غادراً ، فانفرجت هذه الشدة ، وخلص الناس من تلك الضغطة ، وخرجوا من ضيق القبض وجلسوا على بسط البسطة ، ونزل الناس بها سالمين قال الشاعر :

كم قد فككنا رقبهْ   لما اقتحمنا العقبهْ
وكم لنا من أمنية (؟)   في حجنا مرتقبهْ

---

(١) الناصرية ٢ - ١٠٩

وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة تكثر فيها المخاوف والمتالف فيرى البحر من بعيد فيظن أنه قريب ، ووصلنا البندر ظهراً ، ولم يبلغ الحاج إلى قرب العصر ، ووجدنا المصري مخيماً وأرسل إلينا أمير الحاج إمامه وأبلغنا سلامه ، واسمه إبراهيم أبو شنب .

وأقمنا بها الخميس والجمعة،[1] (وفيه(؟) حصن حصين في قرية على شاطىء البحر في سفح الجبل ، وبها آبار كثيرة ، وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه الأعراب بالإبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدواب ، ووجدنا الفول فيها رخيصاً أرخص ممن اكترى عليه من مصر ، وأوقد المصرى بالليل نيراناً كثيرة ، وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء ، ولها منظر عجيب ، وأسلوب غريب ، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء فتراها في الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان أحمر ، ثم يسمع لها صوت ، ثم تخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك اتبعتها بأخرى ، وخروجهن فيما ترى من نار زرقاء كأنها من نار الكبريت تشتعل اشتعالا قوياً فتطلع بها تلك الشهب. ولا نعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب والرامى بها وبالمدافع عادة المصرى في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل) .

وقال شيخنا أبو سالم : وقد سألنا وبحثنا عن القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقى من رسومها شيء ؟ فذكر المفسرون أنها أيلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها ، وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي ، وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب أن هناك وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء إلا أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر والعلم عند الله تبارك وتعالى)[2] .

قلت : وفي «الخطط» للمقريزي[3] أن أيلة مدينة في شاطىء البحر الملح

---

(١) يقصد البندر — ومابين القوسين من العياشية ١ - ١٦٧

(٢) مابين القوسين من « العياشية » ١ - ١٦٧ (٣) ج ١ ص ٢٩٨

سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم (ع س) وقد كانت مدينة جليلة القدر وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس وكانت من مملكة الروم في الزمن الفائت ، وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كانت مسلحته يأخذون المكس وبين أيلة والقدس ستة مراحل . والطور الذى كلم الله عليه موسى (ع.م) على يوم وليلة من أيلة ، وكانت فى الإسلام منزلا لبني أمية ، وأكثرهم موالى عثمان بن عفان (ض) كانوا سقاة الحاج . وكان بها علم وأدب ومتاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزرع . قال : وكان بأيلة مساجد عديدة ، وبها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بُرْد للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه إليهم أماناً وكانوا يخرجونه ، رداء عدنياً ملفوفاً في الثياب قد أبرزوا منه قدر شبر فقط . ويقال إن أيلة هي القرية التي ذكرها الله في كتابه حيث قال : (واسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) واختلف في تميزها فقال ابن عباس وعكرمة والسدى — رضي الله عنهم : هي أيلة . وعن ابن عباس أيضاً : مدينة بين أيلة والطور . وعن الزهرى : أنها طبرية . وقال قتادة وزيد بن أسلم : هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة[1] . قال : وسئل الحسين بن الفضيل : هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزافاً ؟ قال : نعم في قصة أيلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعاً . ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . انتهى المراد منه ببعض تصرف .

ولما التقينا بالمصري في العقبة أخبرونا عن حالهم مع البرد ، وأنه قتل منهم واحداً واثنين ليلة العقبة ، وقرب عجرود ما ينيف على خمسين نفساً وذكروا أن الإنسان يكون في حمل الخشب فيوجد ميتاً بالبرد وعلى الدابة كذلك وحدثنا بعض حجاج القدس ، التقوا مع المصري في سطح العقبة أنهم لاقوا من البرد والثلج والمطر ما يفضى منه العجب ، مكثوا يومين ما أقدوا ناراً ولا قدروا عليه ولا أكلوا من كثرة المطر ، وأخبرني واحد منهم أنه عليه عدة لباس من الأقبية والقميص وجوفة فوق ذالك وبات من أول الليل إلى آخره واقفاً ورجلاه داخلتان في الطين إلى ركبتيه . والمطر

(١) فى « الخطط » (يقال لها معناه) كذا ولعلها (مقنا) .

يصب عليه حتى أفضى إلى لحمه ، وعاينوا من ذالك الموت الأحمر ، ونحن والحمد لله سلمنا من ذالك كله [1] .

وزرنا بها – حجة تسع – قبر الشيخ إبراهيم اللقاني في مقبرة هنالك محوط عليه بأحجار ، على يسار الذاهب إلى منزل الركب ، أوقفنا عليه مغربي ساكن ببندر العقبة نيفاً وعشرين سنة [2] .

وقال عن العقبة أيضاً في عودته من الحج :

ثم ارتحلنا منه – حفائر النخيل – (يوم السبت ٢٨ المحرم ١٨ مارس) ونزلنا العقبة قبل الزوال ونزل الركب عند الزوال ، وتعرض اللصوص لمرحول بعض التونسيين فيه نحو من عشرة من الإبل وضربوهم ببنادق وفر من كان مع المرحول ، وأخذوه ودخلوا به الشعبة ، وكان وراءهم ولد شيخ الركب الحوانى الشيخ صعيرا (؟) في أول الركب لأن ركبنا يتأخر عن ركب التونسيين ويتبعهم – مع بعض الرماة ، ورموهم ببنادق وفرّ اللصوص آخذين ما على الإبل ودخلوا به الشعبة ، وردوا الإبل إلا واحداً ذهبوا به . وعلى بعض الإبل حمل من خشب زعم صاحبه أنهم أخذوا منه سبعة آلاف فضة ، وأخذوا فى هودج ستمائة ريال ووجدنا ملاقية عظيمة من مصر وغزة بكثرة الفول والدقيق والشعير والزبيب والجبن ، والأعراب بالغنم والسمن والعلف للدواب وسعر الفول به ثلاثة أنصاف للربعى إلى نصفين ، والشعير أربعة ، والدقيق الجيد ستة ، وأقمنا به الأحد [3] .

وقال عن حفائر النخيل – ويظهر أن المراد به ما يعرف باسم حقل :

(ثم ظعنا منه – شرف بني عطية – ونزلنا عصراً بحفائر النخيل ، أحساء كثيرة في وسط حدائق النخل ، تحت ظهر الحمار ، على ساحل البحر وبتنا به في أرغد عيش وأمرأ شراب [4])

(١) « الناصرية » ج ٢ ص ١٥٩ - ١٩٢
(٢) « الناصرية » ح ١ - ١٦٢
(٣) « الناصرية » ٢ - ١٠٩
(٤) الناصرية ٢ - ١٠٨

ظهر الحمار / شرف بني عطية :

ثم ارتحلنا من العقبة - صبح السبت - (وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل إثر جمل ، كأنه متن الصراط إلا أنه غير مستقيم ، وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد إذايتهم ، وتعظم نكايتهم) لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة ، ولكن ذالك في الرجوع أكثر .

ووصلنا ظهر الحمار بعد الظهر ، ووجدنا أخريات المصري ، ووقفنا حتى غاب عنا وسار ، وصلينا العصر (وهو بسيط من أرض أحرش مرتفع ، يطلع إليه من مسلكين لا يخلو من صعوبة ، وتحته على ساحل البحر أحساء كثيرة في وسط حدائق النخل ، وقلما يخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب ، لاسيما في وقت جذاذ النخيل ، ويكون فيها ذالك الوقت رطب جيد وماء هذا المحل كله عذب طيب .

قال شيخنا أبو سالم في رحلته : ويسمى ذلك المحل في زماننا هـذا حفائر النخل..)[1] وخلفنا البحر يميناً فسرنا ونزلنا بعيد المغرب في فسحة من الأرض بين جبلين .

أم العظام :

ثم ارتحلنا منه يوم الأحد الأول من ينير حادي عشر ذي القعدة وبلغنا عُش الغراب قبل الظهر وجاوزنا دار المصري بشرف بني عطية بموضع يقال له أم العظام وهناك أرجام كالشعاب عن يمين الذاهب ذكر العبدري في رحلته أن ذلك قبر السفاف ، والسفاف رجل كان يقطع الطريق على الحاج هناك في غابر الزمان ، وقصته مشهورة في رحلة العبدري .

ومن وراء الجبل الذي عن يسار الذاهب بلد واسع فيه ماء جار وأرض مخصبة . وربما عطش الركب في ذالك المحل فيأتي العرب بماء فيبيعونه .

ونزلنا قبيل مغيب الشفق .

---

(١) مابين قوسين في العياشية ١ - ١٦٨

وبنو عطية هم عرب هذه البلدة . وقال الإمام أبو سالم : (ويقال لهذا المكان – يعني الشرف – عش الغراب. غريبة : تزعم العرب أن الإبل تنفر فى هذا المكان ، ويقولون : إنها تسمع صوت سقب ناقة صالح ، وأنه في ذالك المكان[1] ، وأن هناك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمه، فالإبل إذا وصلت إلى ذالك المكان تسمع صوت العشار فتنفر . ولا أدري من أين لهم ذالك وهو بعيد ، إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة وهم قوم صالح عليه السلام)[2] .

وقال الناصري في عودته من الحج – وسمى الموضع أبا العظام : –

أبو العظام :

ثم منه – مغاير شعيب – ونزلنا شرف بني عطية غربي دار المصري مغرباً ، بموضع يسمى أبالعظام ، ووجدنا بدار المصرى أعراباً ومعهم الحشيش والغنم واللبن والسمن[3] .

مغاير شعيب / عيون الأقصاب :

ثم منه – شرف بني عطية – يوم الاثنين وصلينا العصر بالمكان المسمى بمغاير سيدنا شعيب (ع.م) في حش (؟) ملتف ملنا إليه لأجل الحرم (؟) الذي معنا وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبابن فيها نخل ، وماؤها طيب حلو خفيف نابع ، وعادة أعراب مَدْين أن تسوق الأركابب هنالك بأحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه وتنخفض أسعار ذالك كله ، وبينها وبين مدين مسيرة نصف يوم وهي بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة ، وسكانها أعراب أهل بادية وكانت قبل ذالك مدينة ، ويذكر أن أثر البناء باقٍ فيها إلى الآن . قال شيخنا أبو سالم: (وعلى يسار منزل

---

(١) فى « العياشية » : (الجبل)

(٢) العياشية ١ - ١٦٩ » والناصرية » ١-١٦٣

(٣) الناصريه ٢ - ١٠٨

الركب خارج المضيق مغارة يقال : إن فيها كان شعيب عليه السلام يؤوي نغنمه وبإزائها بئر كبيرة معطلة وبجانبها بركة ، ويقال : إن هنالك كانت البئر التي سقى منها موسى (ع.م) غنم شعيب (ع.م) وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل ، صنوان وغير صنوان وعريش كثير في الوادي ، وهو محل مخافة قلما يخلو من لصوص الأعراب)[1] قلت : ولمدين أخبار وآثار ذكر المقريزى منها نبذة ولما صلينا العصر بالمغارة تجاوزنا (ونزلنا عيوب الأقصاب بعد العصر وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس ، وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث ، قلما يخلو ذالك المحل من أعراب نزول به ، فيكثر الخوف ويعظم ضررهم ،لاسيما مع نزول الليل) فيأخذ الناس حذرهم ، فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادي مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء ، ويكتفوا فتأتي الرماة لمنازلهم (وعلى شفير الوادي عند منزل الركب مسجد مبني بالحجارة المنحوتة ، ومنبر بإزائه)[2] .

وقال الناصري في ذكر مغاير شعيب عند عودته من الحج :

ثم منه — عيون الأقصاب — بعد طلوع القمر الخامس والعشرين من المحرم (١٥ مارس) ، وسار الركب ، وتأخرنا لقرب الصلاة فلما صلينا سرنا بالركب (؟) ونزلنا مغاير شعيب قبل الاصفرار ، وأتانا رجل ومعه زيف (؟) فيه قليل عنب أسود ، وطرحه بإزائي ، نحو عرجونين — والله أعلم — وقلت له : أنت من مدين ؟ قال : نعم . وذكر أن العنب يطعم بمدين مرتين في العام وأكلت ذالك العنب ، ووجدته عنباً جديداً ، كأن فيه قليل ملوحة وهو طيب حلو ، وأكلت العنب الجديد في نصف مارس (وذكر أبو سالم أنهم لما نزلوا هنا أتاهم العرب بأحمال كثيرة من العنب الأسود وهو في غاية الحلاوة ، وبرمان كثير ، وبيع العنب أولاً بدرهمين للرطل ، ثم صار بعد ذالك بدرهم ونصف للرطل منه)[2] . .

---

(١) مابين القوسين من العياشية ١-١٦٩

(٢) : « الناصرية » ١٦٣ - ١٦٤ و « العياشية ١ - ١٦٩

(٣) الناصرية ج ٢ - ١٠٨ ومابين الأقواس من العياشية ١ - ١٦٩

وقال الناصري في الكلام على عيون الأقصاب – وهي المعروفة بعيون القصب حين عاد من الحج :

ثم ظعنا يوم الثلاثاء (٢٤ من المحرم ١٤ مارس) – من المويلح – ونزلنا عين الأقصاب طفلا وبتنا به . وأتى السارق ليلا إلى خباء الحاج عبد الرحمن بن الحسن الطرافي ، وفتحوا حملا من أحماله فيه الكتان ، وجعلوا يأخذون منه ، ورجلاه على الحمل نائماً ، فتحرك الحمل لأخذهم منه فهبّ من نومه وصاح ، وخرج السارق آخذاً بثوبه نحواً من عشرين شقة ، ومرّ ، وتبعوه وعثر وسقط وألقى الكتان وفرّ ناجياً بنفسه [١] .

المويلح :

ثم ارتحلنا منه – عيون القصب – يوم الأربعاء (١٤ ذي القعدة ، ٤ يناير) وخرجنا على البحر ولم نزل نسايره إلى بندر المويلح ونزلناه قبل الغروب . ونزل أول الركب عصراً ، وبنينا الأبنية والأخبية بإزاء البحر بحيث تقرب الأمواج من الأستار . وماء هذا البندر كثير حلو (فيه آبار كثيرة ، وبساتين حسنة ونخل . وهنالك حصن كبير فيه عسكر وأمير ، وتخزن فيه الميرة والفول كثيراً وعلى بابه سوق كبير يوجد فيها غالب المحتاج ، وفيه مقاثي كثيرة من دلاع وبطيخ وغير ذالك وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من سويس والقادمة من جدة ومن القصير) والحجاز عامنا هذا كثير فيه المطر جداً ، وقال يوم مضى ولا نجد فيه غدران المطر . وما شربت قط بعد فراغ ماء النيل إلا ماء المطر – أعني فيما مضى ونرجو أن يكون فيما بقي كذالك وأقنا بالمويلح الخميس والجمعة ، ورحل المصري سحر ليلة الجمعة لأجل السبخة التي أمامه أراد أن يتعداها نهاراً .

وخزّنا بالقلعة من الزاد ما يبلغنا إلى العقبة ، ومن العقبة كذالك إلى

---

(١) « الناصرية » ج ٢ - ١٠٨

(٢) « الناصرية » ١٦٢ مابين القوسين من العياشية ١ - ١٧٠

مصر ، ووجدنا هنالك رجلا من سكان زاوية الفتح ، طلع معنا عام تسعة وانقطع هناك وتزوج وولد له ، يسمونه الحاج أحمد المغربي ، وله وجه ومعرفة بالناس ، وعنده أودعت ما أودعت وأتانا بقربتين من ماء المطر – جزاه الله خيراً [1]

وقال في ذكر المويلح عند عودته من الحج :

ثم منه – بعد صلاة الصبح (السبت ٢١ المحرم ١٦ مارس) ونزلنا بندر المويلح بعد الظهر ، ونزل آخر الركب قرب العصر وبتنا به ليلة الأحد والسراق يطوفون بالركب ويتواثبون عليه من كل ناحية ، وحين الصباح أخبروا أن واحداً منهم مات ، وأنهم خرجوا بجماعة وتفرقوا في نواحي الركب ولما اجتمعوا فقدوا واحداً منهم ، وسألوا عنه فوجدوه ميتاً صادفته رصاصة وآخر بجروح .

وتوفي هنا صاحبنا الأخ سيدي إبراهيم بن عبد الرحمن الأستاذ لم (؟) لا يخفى (؟) فى سيدى محمد التواتي بين ظهري الأحد – رحمه الله – ودفن به ، وأقمنا الأحد والاثنين [2] .

دار السلطان :

ثم بعد صلاة صبح يوم الأحد (١٧ ذي القعدة ٧ ينير) شددنا للترحال المحامل والمراكب وأصبحنا بالسبخة ، ونزلنا الموضع المسمى بدار أم السلطان قبل الغروب ، وبه آبار عذبة المياه تستلذها الأفواه ، على أنه سخن ولكنه سريع الانفعال للهواء وهي محرقة ، وأحلى ما بالدرب من الماء ، ومثلها ماء النبط . أخبرني بعض كبراء أعراب هذه النواحى أن الأمير إبراهيم الفكاري (؟) هو الذى تسبب فيها ، وأنه طلع للحج وبعث إلى أخيه بمصر وقال له : إن الماء الطيب بهذا المنزل إن مت فاحفره [3] . وأكد عليه فى ذالك

---

(١) « الناصرية » ج ١ - ١٦٦ - ١٦٧

(٢) الناصرية ٢ - ١٠٨

(٣) الناصرية ج ١ : ١٦٧

ومات بمكة لما حج ، وحفر أخوه آباراً ، ولها نحو من عشرين سنة والمحل قبل لا ماء به انتهى .

وقال عن دار السلطان في العودة — وسماها دارام السلطان .

ثم ظعنا — من الأزلم — بعد صلاة الصبح يوم الجمعة — ٢٠ المحرم ١٠ مارس — وصلينا الظهر إزاء البحر قرب ضريح سيدي مرزوق الكفافي وسرنا ونزلنا آبار دار أم السلطان عصراً وماؤها طيب زلال ، وبتنا وسُرِق للفقيه سيدي عمر العيني بهذه الدار ثلاثة عشر شقة من الكتان ، وذاك ما على ملكه — والله يخلف له — نام ودخل السارق الخباء وأخذها وهذا السيد من أجل أحبتنا [1].

الأزلم :

ثم منه — دار أم السلطان — قبيل الفجر ذهبت الركاب ، وتربصنا لجماعة حتى صلينا الصبح ، مررنا بالمضيق المعروف بشقّ العجوز ، وسايرنا البحر المالح ، عن يسارنا جبال سَلْمى وكفافة ، ومررنا ضحى بقبر سيدي مرزوق الكفافي على ساحل البحر عليه أعواد قد علم بها عليه والناس يتبركون به ، وطلعت الشمس فارتفعت حارّة ، ونزلنا بندر الأزلم قبيل الاصفرار ، ووجدنا به شرذمة من الأعراب يبيعون الحشيش والغنم ، وبه ثلاثة آبار كبيرة محكمة البناء ، وماؤها غزير إلا أنه زعاق يصلح للإبل ، ولضرورية الناس من غسل ونحوه ، ولا يسيغه إلا المضطرون قال الشيخ أبو سالم[2] : (وعلى يسار البندر بعيداً عن الآبار حسي محفور في الأرض ليس بمطويّ ماؤه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل ، ولا يعرفه الكثير من الناس ، وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه ، وبقربه من المويلح ومن الوجه ، وهما أتم منفعة منه ، فليس فيه كبير فائدة ، وقد انهدّ

(١) « الناصرية » ج ٢ - ١٠٧
(٢) « العياشية » ١ - ١٧٣

ما في داخله من البيوت ، وتثلم بعض سوره ، والخلاء أقرب إليه من العمارة :

إذا لم يكنَّ فيكنَّ ظل ولا جنيّ
فأبعـــدكنّ الله من شجرات[1]

اصطبل عنتر :

ثم ارتحلنا من الأزلم يوم الاثنين وسرنا بين جبلين في مضايق وعقاب صغار إلى أن وصلنا اصطبل عنتر بعيد المغرب (وفيه ثلاثة آبار، وماؤها حلو ، ، إلا أنه ضيق [2] انزحته الدلاء بسرعة ، وبات الناس يتبرّضونه تبرُّضاً) فمنهم من رجع بما يكفيه لشربه، ومنهم ذو قربة وقربتين، ومنهم من رجع منه بخُفّيّ حنين ، وأما الإبل فلا تكاد تطمع فيه [3] .

الوجـه :

ثم منه — اصطبل عنتر — يوم الثلاثاء سحراً ، ومررنا بوادي الأراك وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريب منه . وفيه كثير شجر الأراك الأخضر الناعم فتجاوزناه إلى مضايق بين فدافد من جبال ذات حضور (؟) وصعود إلى أن وصلنا البندر الوجه عصرا وبواديه أدينا فريضته ، وتقدمنا قرب البندر في انتظار أصحابنا ، وفيه حصن حصين في جرف واد كبير يخرج بين جبلين (والناس يتهيبون النزول في أصل الوادي إذا كان الوقت وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي وكذالك يفعلون (؟) وفي الوادي عدة آبار بعضها حسن — بمهملتين وبعضها بمعجمتين والتي فوق البندر أحسن من التي تحته وداخل البندر بئر تسنى بالبقر وتصب في ثلاث برك خارج البندر أظن حائط احداها من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه وهي أوسطها ، واثنتان من بناء مملوكه الأمير غطاس [4] عام تولى إمرة الحاج بعد مولاه ، والبرك الثلاثة ملاصقة لسور البندر .

---

(١) الناصرية . . ج ١ ١٦٧ ومابين القوسين من « العياشية » ١ - ١٧٣ .

(٢) في « العياشية » ١ - ١٧٣ : (صنين) وما بين القوسين منها .

(٣) الناصرية ج ١ ١٦٨ (٤) في العياشية : غيطاس

قال أبو سالم : وفي أعلى الوادي بين جبلين ماء يسمى الزعفران وماؤه طيب إلا أنه قليل ، فإذا كثر الزحام على الآبار . طلع إليه أهل النجدة والجرأة من الناس وربما هجمت عليهم العرب هنالك فيقع بينهم قتـــال إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون واستقى الناس ما احتاجوا إليه وأرووا إبلهم وبالغوا في حمل الماء) وتعاهدوا أسقيتهم وأوثقوا أوكيتها ولم يألوا ما ملؤوا من الأوعية . وباتوا ليلتهم في الآبار إذ نزحت وكابد الناس في ذالك مشقة فادحة لأنهم استقبلوا المياه القبيحة والمسافة العويصة التي ليس في الدرب أصعب منها لتوالى المياه القبيحة فيها . وبُعْد العمارة ، ووخم هوائها وسوء أخلاق عربها قال أبو سالم : وهذا البندر آكَدُ البنادر للخزن لأن الركب في الإياب قد يسبق الملاقي الذي من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعضها الأوقات)[1] وفي حجتنا عام تسعة تجاوزناه لقلة مائه ونزلنا قرب العشاء بعد مجاوزته بأميال ، إذ لم نجد به شيئاً من المنال

وقال في ذكر الوجه حينما عاد :

(ثم بعد صلاة الصبح ظعنا — من بعد أكره — ونزلنا الوجه قبل العصر ، ووجدنا به أهل مصر أتوا لملاقاة الركب بالفول والدقيق ، وغير ذلك مما يحتاج إليه من الطعام ، وبعث لنا معهم الحاج محمد الشربيني حملين طعاماً ، وحمل ونصف من دقيق ، ونصف حمل من كسكسوا (؟) تقبل الله منه . وهذه الملاقاة التي وجدناها هنا من أعظم الملاقي وأولها ، زعموا أن بها زهاء ثلاثة آلاف بعير ، وبيع الفول بها خمس فضة للربعي (؟) إلى أربعة ، و الشعير ستة ، والدقيق ثمان[2] .

وبعث لنا مع أهل الملاقاة الأخ الحاج العبد الله (؟) ابن طلحة الدرعي اليوسي ثلاثة حقوق حلوا والحاج أحمد الأبار حُقاً والحاج أحمد المنجور حُقاً من كعك مختلط بسكر ، والحاج على التطواني آخر مملوءاً فانيداً

(١) مابين القوسين من « المباشية » ١ - ١٧٤

(٢) « الناصرية ٧ : ٢ - ١٠٧

ويعدي يوسف أبو السعادات المصري حقاً مملوءاً طعاماً مختلطاً بسكر ، وبطة مملوءة خليعاً) .

أكره / بين الدركين :

ثم ارتحلنا من الوجه إسفار يوم الأربعاء (٢١ ذي القعدة) ونزلنا غربي الأكره بين العشائين ، وفي هذه المسافة لما توجهنا عام تسعة هبت على الناس ريح السموم ، من نضيج اليحموم ، واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس ، وضاعت الحيل وعدم الإيناس . واشتد العطش على الرجال والأجمال ، كل شرب ولا يغني شربه ، بل يتزايد بمناولته الماء كربه ، لا يبين القدح والسقاء عن فيه إلا تزايدت حرارة العطش له ، فبركت الإبل وفرّت لظلال الأشجار وتدخل رءوسها في أدنى ظل يبدو لها ، وإذا بركت لا تكاد تقوم ولو قطعت إرباً إرباً ، واشتدت الحال ، وبلغت القلوب الحناجر ، وكلحت الوجوه واغبّرت الغرر وتغيرت واسود بيضها وتنكرت ، فترى الرجل لا بأس به فإذا به يُخشى عليه الفوت ، فإذا أوتي بالماء سبقه إليه الموت . وهلك من الناس كثير ، ومن الإبل أكثر ، وترك الناس بضائعهم وأحمالهم مشحونة بأزوادهم وما به قوامهم فتاهت في الفلوات ، وذهبوا بأنفسهم في طلب النجاة ، يوم يذكر الموقف والعرض ، وضاقت الدنيا على سعتها في الطول والعرض ، يود الإنسان لو يجد السبيل إلى باطن الأرض ، الناس فيه حيارى ، وتراهم سكارى وما هم بسكارى ، مات من المغاربة زهاء الستين بالشرب والعطش من نساء وصبيان ، ورجال وولدان هذا ما رأينا عياناً . على أن الناس تفرقوا لطلب الظلال شذر مذر ، وللتبرد بالأفياه شغر بغر (؟) ومررنا بامرأة مصرية فلاحية وقد بركت أجمالها رافعة أكفها إلى السماء تتضرع وتقول : يا رسول الله اشتد الأمر . وتكرره ، وتركناها ، مكره أخاك لا بطل ، ولم ندر ما فعل الله بها .

ثم منه وبلغنا الأكرة ضحى ، وهو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة ويذكر أن سيله من سيل المدينة المشرفة ، وماؤه قبيح جداً إلا أنه

يكون عقب سيل فيحسن ، وفيه أحساء كثيرة وأشجار ملتفة ووجدنا ماء جل آباره جيداً لقرب عهده بسيل ، وسقى الناس منه وأخذوا من مائه ما ليس لهم عنه بدّ ، وسقوا إبلهم وتجاوزوه قبل الظهر وباتوا غربي بين الدركين [1]

وقال في ذكر اكره وهو يتحدث عن أودية المدينة :

(ثم تفضي — سيول المدينة — إلى البحر عند جبل يقال له أراك ثم تدفع في البحر من ثلاثة أمكنة . يقال لها اليعبوب والنبجة وخفيف . انتهى قال السيد السمهودي — وذكرنا في الأصل ما في كلام المطرى من المخالفة لما ذكر ، وأن مصبه في البحر من ناحية الكرى في طريق المصرى . قلت : وهو الوادي المسمى اليوم بالأكره على ألسنة الحجاج شرقي الوجه بينه وبين الوجه مرحلة)[2] .

وقال حينما عاد من الحج :

(ثم ظعنا — من بين الدركين — وبلغنا الأكره بعدالزوال واستقى الماء من أراده، ووجدنا الوادي سال، وأراد الناس سقي إبلهم، ومُنِعُوا منعهم أمير الركب الحاج محمد صعبرا (؟) وقال : إنه لا يليق بنا الجلوس هنا ، الأعراب المتلصصة كثيرون هنا . ولقد صدق وأحسن فيما رأى ، وقد رموا أول الركب التونسي ببنادق يطلبون إرهابهم فيفتكون بهم ، وصبروا لهم وثبتوا ، وما نالوا منهم شيئاً ، فمن أسرع سقي إبله، ومن أبطأ تركها بلا سقي، وتجاوز الناس بعد أخذ حاجتهم من الماء في قربهم من أحساء حفروها وتجاوزوا ونزلوا قرب العشاء)[3] .

وقال في العودة من الحجاز بعد ذكر الحوراء :

---

(١) « الناصرية » ١ - ١٧٠

(٢) « الناصرية » ج ٢ ص ٧٥

(٣) : « الناصرية » ٢ - ١٠٦ !

ثم منها — الحوراء قرب الفجر — يوم الأحد ٥ مارس — صلينا الظهر بين الدركين ، وكان من قدر الله أن ضلّ لنا عبدٌ لابن أخي محمد بن محمد الصغير اسمه سالم في هذه المرحلة لما مررنا ذاهبين ، فلما رجعنا وجدناه هنا ، وزعم أنه نام واستيقظ فإذا بالركب ذهب ، وفات وأتاه المشغرة من الأعراب المتلصصة وراء الركب فأخذوه وعزلوه عن عدته ولباسه وتنازعوا عليه حتى تجاروا ، وسألوه عن سيده فأخبرهم أنه لنا ، وضمّه إليه الغالب من المتنازعين وآواه إليه وله زوجتان ، وأرادت إحداهما بيعه ، ومنعته الأخرى من البيع وقالت : بل نمسكه حتى يرجع ربه ونسلمه له . وساوموه له (؟) ، بخمسة من الإبل وامتنعت المذكورة من بيعه ، وفعلت معه خيراً كثيراً فلما وردنا عليهم بهذا الموضع أتت به ، وأعطيت لها خمسة مثاقيل ذهبا ، ومثقالا آخر لرجل زعم أنه أحسن إليه) (١)

الحوراء :

ثم ارتحلنا منه وبلغنا بين الدركين مع طلوع الشمس ، وهو منزل الحاج المصرى وسمي بذالك لأنه بين دار أعراب مصر وأعراب الحجاز ، وما بعده من عمل الحجاز وفي درك عربه ، وجدنا الأعراب هنالك تبيع ماء المطر واشترينا منهم أربع قرب بتسع عشرة فضة .

وسرنا ولما تعالى النهار رأينا نجعاً من الأعراب بإزاء البحر ، راحلا بالإبل والبقر والغنم .

ولما بلغنا العقبة السوداء وهي عقبة صغيرة في حرّة سوداء ذات أشجار وأحجار ، ويقال : إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها ، وتباين الجبال ما سواها ، ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود ، ويتقوى الحرّ ، وتلقّتْ تلك الأعراب الركب بكثرة السمن واللبن والخرفان للبيع ، ولم نر من ذلك نحن شيئاً .

---

(١) « الناصرية » : ٢ - ١٠٦

وهذه المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحرّ وهي أرض سهلة مطمئنة ، ليس فيها جبال إلا ما يترآى عن شمال المار بها والبحر يترآى عن يمينه ، وفيها غياض من شجر الطلح وهي من أنواع الكلإ التي ترعى الإبل كثيراً ، إلا أنها لا تترك للرعي ، فإن المحل مخوف ، تغير فيه أعراب بلي وجهينة وغيرهما ، فسرنا محاذين للبحر إلى أن نزلنا الحوراء بعد المغرب وتفرق الناس في مياهها ، وهي حفائر على ساحل البحر ، يحيط بها ديس كثير ، وفيه ملوحة قليلة ، والقريب العهد بالحفر أجود من غيره ، وكلما طال في القرب خبث ، والاكثار منه يورث إسهالا مفرطاً كماء أكره [1] والأزلم وعجرود .

وأخذوا أهبتهم راقين على تلال واديها وآكامها وروابها ، لكون المحل محل الغارات ، فلما أخذ الناس حاجتهم من الماء ارتفعوا عن الحفائر ، وباتوا ، ومن أمثال الحاج : لا رجال إلا رجال الحورا ، ولا جمال إلا جمال الدّورا . ويعنون بالدورا الرجعة ، يعني لا يُعدّ صابراً من الرجال إلا من صبر في حال الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف [1] .

وقال عن الحوراء في عودته من الحج : —

وظعنا قبيل السحر بمنزلة (؟) — من النبط — وتبع الركب متلصصة الأعراب وراءه ، يطلبون الغرة ، وأخذ الناس حذرهم منهم فتأهبوا ، ولما وقف الركب لصلاة الصبح ركب الحاج أحمد بن محمد الأبار على بغلته فأتاه لص مستغفلا فطعنه من الركب فضربه وأسكره وأخذ مدفعه ، وفرّ للجبل هارباً ، ونزلنا الحوراء قرب المغرب وأعراب هذه البلاد الحجازية من عسفان إلى ينبوع بلاد حرب ، ومن الينبوع إلى أكره بلاد جهينة ، ومن أكره إلى ظبة — بالظاء المشالة والباء الموحدة والهاء واد دون المويلح بلاد بَلِيّ ومنه إلى مصر بلاد الحويطات ومغازة(؟) والأعلوين وبني عقبة ، وماء الحوراء من أقبح مياه الحجاز [2] .

(١ ، ١) « الناصرية » : ١ - ١٧٠ - ١٧١

(٢) « الناصرية » ٢ - ١٠٦

العقيق / النبط / وادي النار / الخضيرة :

ولما صلينا الصبح ظعنا – من الحوراء – فطلعنا مع واديها الكثير الأشجار من أراك وغيره إلى أن ارتفعنا فعدلنا يميناً إلى الوادي المسمى على ألسنة الحجاج وادي العقيق . قال شيخنا أبو سالم[1] : ولا مناسبة بين الاسم والمسمى ، وتسميته بوادي الغي(*)[؟] أنسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة ، فإنهم من أجرأ الناس على ذالك ولم نبت تلك الليلة إلا بقرب النبط ، فنزلنا غربيه بعيد المغرب .

ثم ارتحلنا منه يوم الأحد (٢٥ ذي القعدة) وجئنا إلى وادي النبط بعيد طلوع الشمس وفيه آبار أربعة محكمة البناء بالحجر المنحوت وماؤها عذب حلو غزير في الغالب . قال أبو سالم : وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته ، فإذا حمل الوادي ولو مرة في السنة غزر ماؤه سائر السنة ، وبهذه السنة توالت الأمطار بالحجاز خصوصاً من الأكره إلى هنا فقد صبّ فيه المطر الكثير ، وتبت فيه الربيع .

ونزل الناس بهذا الوادي إلى أن سقوا واستقوا ووجدوا به الماء الكثير. فساروا .

ووصلنا وادي النار ، ولما صلينا العصر وجدنا غديراً من ماء المطر في تلعة ، بسفح جبل ، وأوردنا دوابّنا ، وملأنا أدواتنا .

(وهذا الوادي قد وافق[2] فيه الاسم المسمى ، قلّما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه ، بحرّ أو عطش أو تلصص ، وهو واد كبير ضيق ما بين جبلين لاسعة فيه بين النبط إلى الخضيرة ، فإذا متع النهـار واشتد الحر حجبت الجبال عنه الهواء البحري فينعكس غربياً وشرقياً ،

---

(١) « الناصرية » ١٧١-١٧٢

(*) « العياشية » ١ - ١٧٧ (المقنوف) .

(٢) « العياشية » ١ - ١٧٧ : (وافق) وما بين القوسين منها

صاعداً مع الوادي أو منبطاً ، فيصير سموماً محرقاً ، ولا ماء هنالك إلى الينبوع من النبط ، فربما أتلف الناس فيه العطش المهلك، وربما أحدث سميّة في الأبدان بقبح الهواء مع حرارته فتموت المئون من الإبل ، بل الآلاف من الخلق في أسرع مدة ، فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت) قال الشيخ أبو سالم :(ووقع ذالك في الإياب كثيراً ، وفي الركب المصري أكثر) .

ونزلنا مغيب الشفق قبيل الخضيرة – وهو محل نزول المصري [1] .

وقال عن النبط في العودة :

نزلنا منهل النبط (١٢/١/١١٢١ هـ ثاني مارس) في هواء لا حرّ ولا قرّ ، بين الظهرين وآوينا فيه دون الآبار بموضع إيواتنا بالتشريف (؟) في ظل جبل ، ووجدنا به رجلا كبيراً لما أتينا بذلك المحل في ذهابنا زعم أن اسمه عودة ابن يكون (؟) الجهني ، واشترينا منه حشيشاً لدوابنا ولما رجعنا قافلين فرح بنا وهش وبش ، وأتانا بخروف وصحفة من سمن ، وأبيت قبوله إلا بالثمن ، وامتنع ، ودفعت له ريالين مكافأة له ، وأتانا بقربة جيدة من صنيع عرب الحجاز لتبريد الماء وسألت غيره عن مقدار ثمنها وأعطيته أضعافه [2] وانحزنا لمخيم الركب وبتنا به [2] .

الوعرات السبع / ينبع / الدهنا :

وظعنا قبل الفجر وجئنا الخضيرة وصلينا الصبح ، وقطعنا الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحاج بسبع وعرات ، وخرجنا إلى متسع من الأرض .

وبلغنا ينبوع النخل غروب الشمس ، ولما قربنا مضيق ينبوع تأخر كثير الصعاليك فخرج عليهم المحاربون ، وجردوا صعلوكاً فصاحوا ورجع إليهم بعض الحجاج فهربوا ، وجلسوا تحت أحجار ، ورموهم ببناديق ،

---

(١) « الناصرية » ١ - ١٧٢

(٢ ، ٢) « الناصرية » ج ٢ ص ١٠٥

ورماهم الحجاج وكفى الله شرهم ، واستبشر الناس بقدوم الينبوع لأنها أول بلاد الحجاز العامرة ، وفيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية ، وذكروا أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام .

والقرية التي ينزل بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر وليس بعدها إلا ينبوع البحر الذي هو المرسى ، وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل الحاج للتسوق وتعمرها سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان . ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير .

وهناك وجدنا خبر مكة والمدينة — زادهما الله تشريفاً وتعظيماً — ووجدنا أيضاً أخبار سائر الحجاز . وتعرفنا رخصها من غلائها وخصبها من جدبها .

ومن هناك تجلب الميرة للمدينة المشرفة ، لأن السفن الجالبة للطعام من مصر ماكان منها للمدينة يرسى بينبوع البحر ، وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة ، فإذا وصل الطعام إلى الينبوع حمل منه إلى المدينة ، تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة ، ويتداركون الطريق من هناك إلى المدينة .

قال شيخنا أبو سالم [1] (وأكبر جبال تلك البلاد جبل رَضْوَى ، وهو المشرف على بلاد الينبوع ، وليس هو الجبل الصغير الذى هو بجانب الينبوع بل هو الجبل الكبير المشرف عليه ، وإلى هذه البلاد كانت غزوة العُشَيْرة من غزواته صلى الله عليه وسلم ومسجد القرية الآن هو مسجد العُشيرة المعدود في المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم قال السيد السمهودي

(١) « العياشية » ١ - ١٧٨

ما نصه : ومسجد العشيرة معروف ببطن الينبوع ، وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري . ولابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد ينبوع بعين بولا .

قلت :وعنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم انتهى) وقد دخلت هذا المسجد، وقيلنا فيه حتى صلينا الظهر والعصر ، وتوضأنا من هذه العين وعليها نخيل ملتفة ناعمة ووجدنا بها العام (؟) ييس ماء العين ، وانهدم بعض سقف المسجد ، وذبلت النخل .

(وفي الينبوع مزارة على تل مرتفع لأبي الحسن النفاتي[١] وقبر الحسن المثلث فوق القرية لم يوصل إليه لبعده وذعارة أعراب البلد ، يزار من بعيد بالنية .

وبهذا البلد توطن[٢] طائفة من الأشراف ، ومنهم شرفاء بلدنا ، القاطنون بسجلماسة) .

أقمنا بالينبوع يوم الثلاثاء ، (٢٧ ذي القعدة ١٦ يناير) إلى قرب العصر قدر ما هيء المحتاج ونزلنا بعيد المغرب قرب الدهناء[٣] .

وقال عن العشيرة في عودته من الحج (نزلنا بمسجد العُشيرة فإذا بعينها يابسة — وذبلت النخيل التي عليها . وقيلنا بالمسجد حتى صلينا الظهر ، وسرنا إلى خيامنا بمحل نزول الركب[٤] .

الشقائق / دار الوقدة / بدر :

ثم منه — منزل الدهنا — يوم الأربعاء ، وجاوزنا الشقائق ودار الوقدة وحان وقت العصر وملنا ذات اليسار غربي الجبل من الرمل المشرف على

---

(١) كذا في « العياشية » ١٢٠ - ١٧٨ مابين القوسين .

(٢) في العياشية : موطن

(٣) « الناصرية » : ١ - ١٧٢ - ١٧٥

(٤) الناصرية ج ٢ ص ١٠٥

بدر ، وصلينا ، وصلى محارمنا ، وتجاوزنا ونزلنا بدراً بعيد المغرب ،ويسمى هذا بدر الوقدة يعني المكان ، لأنهم يقدون (؟) فيه الشمع الكثير ، يستصحبه الناس معهم من مصر لذالك ويبيعونه في الركب . ويجعلونه على قتاب الجمال بالليل ، فترى الركب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم .

قال الشيخ أبو سالم [1] : (وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا نيراناً كثيرة فنحن نتشبه بهم ، وتلك غفلة منهم وخطأ من وجهين أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النيران الكثيرة إنما كان في غزوة الفتح بمر الظهران كما هو معروف في كتب السير ، وأما بدر فلم يقل فيها أحد ذالك . وثانيهما أنه لو سلّم أن ذالك وقع فيها فقد كان ذالك لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم . وحيث لا عَدوّ فلا معنى له . ولا شك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار بالأماكن التي أعز الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن مالم يؤد ذالك إلى محظور مثل اعتقاد أن الوقود سنة متّبعة ، بل ربما ظنّ بعضهم أنها من أفعال الحج ، فلتعظّم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وإعلان بشكر. وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون :لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن كان عنده ؟ ظانين أن ذالك من مناسك حجهم وشعائره . وكم مثلها من بدعة محرمة يرى الناس أنها من أعظم القربات ، نسأل الله تعالى أن يثبتنا على سنة النبي صلى الله عليه وسلم المستقيمة التي لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) .

ثم لما صلينا وانعطفنا للطريق ، وتوسطنا بين الجبلين حبل الرمل الكثير المشرف على بدر يُسْرى الطريق ، والجبل الآحمر الأخضر يُمْناه ، فإذا بالناس يهرعون يتجشمون الصعود لجبل الرمل أفواجاً ، رجاء أن يسمعوا ما يؤثر هناك من صوت الطبل ، وزعم كثيرون من الحجاج أنهم يسمعونه هنالك .

---

(١) « العياشية » ١ - ١٨١

تتمة: (ذكر الإمام ابن مرزوق فى شرحه على « البردة » ما نصه : ومن الآيات الباقية ببدر ما كنت أسمعه عن غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذالك الموضع يسمعون كهيئة طبل مُلُوك الوقت ، ويرون أن ذالك لنصر أهل الإيمان ، قال : وربما أنكرت ذالك ، وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب (؟) فيه حوافر الدواب ، وكان يقال لى : إنه دَهْسٌ رمل غير صلب وغالب ما يسير هنالك الإبل وأخفافها لا تصوت فى الأرض الصلبة فكيف بالرمل ؟ قال : ولما من الله تعالى بالوصول إلى ذالك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي وبيدي عود طويل من شجر السعدان المسمى بأم غيلان ، وقد نسيت ذالك الخبر الذى كنت أسمع ، فما راعنى وأنا أسير في الهاجرة إلا واحد من عبيد الأعراب الجمالين الذين كانوا معنا يقولون[1](؟) : أتسمعون الطبل ؟ فأخذتنى لما سمعت كلامه قشعريرة بينة ، وتذكرت ما كنت أخبر به . وكان في الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبل وأنا دهش مما أصابنى من الفرح أو من الهيبة أو ما الله أعلم به . فشككت وقلت : لعل الريح سكنت في هذا العود الذي في يدي فوجدت مثل هذا الصوت ، وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة . فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض أو وثبت قائماً وفعلت جميع ذالك فسمعت صوت البطل سماعاً محققاً ، وصوتاً لا أشك أنه صوت طبل وذالك من ناحية اليمن ونحن سائرون إلى مكة المشرفة . ثم نزلنا ببدر فظللت أسمع ذالك الصوت يومى أجمع ، المرة بعد المرة قال : ولقد أخبرت أن ذالك الصوت لا يسمعه جميع الناس ، وقال الإمام المرجانى : وضربت طبلخانة النصر ببدر ، فهى تضرب إلى يوم القيامة اهـ . نقله عنه السمهودي في تاريخيه الكبير والصغير .

قال شيخنا أبو سالم : وقد كثر كلام الناس فى هذه المسألة وإذ ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس

---

(١) فى العياشية : (يقول : تسمعون)

يسمعونه دون بعض ، وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقي البال لذالك فلم أسمع شيئاً أتحققه ، وفي هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق ، فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخراً وراءنا وتحققنا ذالك بجلوسنا حتّى قربنا ، وكثير من الناس ممن لم يحقق ذالك زعم أنه الطبلخانة المذكورة ، وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا أبا بكر السجستاني رضي الله عنه فقال لي : كنت حريصاً على تحقيق ذالك وقد مررت بالبندر نحو من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئاً أتحققه والعلم عند الله . قلت : وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من ينبوع ويقولون : إن وادي النـــار اسمه وادي النور لأجل رؤيتهـــا منه ، فحرّف الناس التسمية وقد ألقيت البال لذالك فكلمـــا قالوا إنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق في بلاد بعيدة . وتحققنا ذالك بظهورها مرّات كثيرة من غير ناحية المدينة وتارة في ناحيتها ، ويتصل خفقانه حتّى يقرب إلينا فيتحقق أنه بروق ، أو تظهر إمارات أخر تحقق ذالك مثل رؤية غيم متراكم وصوت رعد ، وأرض الحجاز معروفة بكثرة الرعد والبرق وكثير من الحجاج يصممون على أنها أنوار ، ولو ظهرت الإمارات ولو كان من غير ناحية المدينة ، وقد سألت أيضاً شيخنا أبا بكر السجستاني (ض) عن هذا فقال لي : كنت أتأمل ذالك كثيراً فلم أر شيئاً مما يزعمه الحجاج إلا البرق . نعم قال لنا (ض) : الذي لا يمترى فيه أن نور النبي صلى الله عليه وسلم وإن كانت جميع الأنوار من نوره — ما عايناه مراراً ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة في الحرم الشريف ، فإنا نجلس أحياناً نهاراً حتّى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار فيغشى الحرم الشريف كله . فيراه الناس . قلت : ولعل هذا الذي ذكره شيخنا (ض) خاصّ به أيضاً وبأمثاله ممن تنورت بصائرهم فاستنارت بنورها أبصارهم فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذالك والله يختص برحمته من يشاء .

وفي آخر المضيق الذي بين الجبل والرمل عريش إلى الآن يزعم الناس

أنه موضع العريش الذي بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، وأن ذالك موضع الوقعة . وليس به) [1] .

ونزلنا بدراً بعيد المغرب ، وهي قرية حسنة ذات نخل وماء عذب ، فيه بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ، ومادتها من عين هناك ، وعلى ذالك البلد أنوار تلوح ، ورياح النصر تغدو وتروح ، يشرح فيها الصدر والقلب ، ويتجلى فيه بصفات الجمال لكل مسلم القرب . .

وقد ظهرت على أهل البلد بركة الرسول صلى الله عليه وسلم معلنين بذالك فأسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد ، وأهلها محفوظون آمنون ، مطمئنون ، مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم .

وكان نزولنا خارج البلد غربيه ، وزرنا قبور الشهداء ، وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم .

قال الإمام أبو سالم : (وبالقرب منهم قبور للسادة الأشراف الردينية من أهل اليمن ، نزل أسلافهم بهذا البلد ، ولهم أتباع في طريق القوم ومجلس ذكر ، وكبيرهم اليوم السيد أبو الغيث) .

وزرنا أيضاً المسجد المسمى بمسجد الغمامة وهو موضع العريش يوم الوقعة ببدر كما نص عليه غير واحد ، وانشرحت صدورنا بذالك .

وجدنا به المصري ونزل علينا الشامي سحراً ، وأخذ المصري ساعتئذ في الرحيل .

وظعنا نحن بعد صلاة العصر ، ومررنا على قبور الشهداء وموضع العريش مع الأخ سيدى محمد الأخصاصي وجدناه هنالك ينتظرنا إذ هو مجاور بطيبة المشرفة [2] .

---

(١) مابين القوسين من « العياشية » ١ - ١٨١

(٢) « الناصرية » ص ١٧٥ - ١٧٩

وقبور الشهداء أسفل الوادي من جهة البزوة ، وليس بالموضع الذى تزعمه القوم ، تحت الكثيب على طريق القادم من مصر .

قاع البزوة / مستورة :

قاع البزوة : سرنا من بدر إلى أن نزلنا بقاع البزوة بعيد المغرب ، وهو قاع صفصف ومهمه نفنف ، لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً ولا تجد فيه إلا السماء سمتاً ولله در القائل :

قد سلكنا القــاع المديد الذي
أضحى مضــافاً بين البقاع لبزوة
فهو قاع لا نبت فيــه تراه
عين سار وكم لنــا فيه سروة

فأعاننا الله على قطع مسافته ، فسرنا وبلغنا أول سبيل وقلنا مستظلين بظله الظليل حتى وصلنا وبتنا غربي مستورة حيث تراءت لنا بخلوة مشهورة ، وهي قرية وبها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت ، إلا أن الرمل قد غلب عليها ، وحولها عمارة قليلة ، وبها قبر يزار ، عليه بناء ، واسم صاحبه الشيخ يحيي ، قالوا إنه شريف من أهل اليمن .

رابغ / الجحفة / مهيعة / قديد :

ثم ارتحلنا من مستورة ، فجد بنا السير حتى وصلنا وقت الظهر رابغ ،ووجدنا بها الأركاب المصري والشامي قد خيموا ، فإذا الشاميون على الرحيل قد صمموا ، فارتحلوا ، ووجدنا واديه قريب العهد بالسيلان ، وجلسنا للصلاة في خلل النخيل والفسلان ، وجاء ركبنا ، فأخذ الناس منازلهم فالتحقنا بأصحابنا .

(ورابغ قرية فيها نخيل وآبار كثيرة في واد يأتي إليه السيل من بعيد . وتزرع فيه مقاثي كثيرة ، ودخن وذرة ، وهو من أخصب أودية الحجاز ،

---

(١) « الناصرية » ١٨٠

ثم اشتغل الناس بالإغتسال والتنظيف وشراء النعال ، توجد هناك معدة للمحرمين ، إلا أنها غالباً غالية)[1] ولما حان للشمس الأفول، شمر الركب المصري الذيول ، وفي غد تهيأنا للإحرام ، وأخرنا الإحرام ، فارتحلنا ضحى الأحد إلى أن وازينا مَهْيعة ، وتراءت أبنية الجحفة .

وسرنا وجاوزنا الرمال التي تتيه فيها بعض الأحيان الأركاب ، وأخذنا بطن هرشا [2] ونزلنا بعيد المغرب شرقي السبيل وغربي قديد ، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان ، وفيها قهاوي وفواكه تباع ولا ماء فيها إلا ما يسقى من بعيد [3] .

المشلل / خليص / الكديد :

ثم ارتحلنا ، ومررنا وقد متع النهار بالمشلل ويسمى اليوم بعقبة السكر ، قال الإمام أبو سالم : (وأكثر الناس خصوصاً المصرية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هنا ويأثرون في ذلك أثراً لا أصل له ، يزعمون أن رمل ذلك المحل قد انقلب للصحابة سكراً ، وهي عقبة في جبل صغير ، فيها رمل يتعب الإبل)[4] مع كثرة التلاحي وشدة التلاحم وإفراط التزاحم، وعدم التعاطف والتراحم وفيها قيل :

كم جمـل منتصب للشقا ... ما جرّه الجمّال إلا انكسر
وكان في الركب يرى مبتدا ... فما له من بعد هذا خبر ؟!

وقد سُوّي البناء في جانبها ، والتقطت أحجارها ، وبني مسجد صغير بأحد جانبيها ، وبينها وبين خليص نحو من ثلاثة أميال ، وذكر السيد السمهودي أن هنالك بالمشلل مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم على يسار الذاهب ، ولعله هو هذا المبنى هنالك اليوم .

فبلغنا الكديد قبيل الظهر ، ونزلنا في قبة عظيمة بإزاء بركة عظيمة

---

(١) مابين القوسين في « العياشية » ١ - ١٨٥

(٢) هرشا : ليست هنابل هي قبل رابغ وهي ثنية في طرف حرة ولا تزال معروفة قرب الأبواء الخريبة ، ولا يمر بها طريق الساحل .

(٣) الناصرية جـ ١ ص ١٨٨ - ١٨٢ وما بين القوسين في « العياشية » ١ - ١٨٦

(٤) العياشية ١ - ١٨٦

تحت القرية وفي خليص هذا عين تجرى ، وأبنية وقهاوي ، وسوق حافلة ، وقد سيق الماء في قنوات محكمات ، في العين ، تفجر عنها وتبرز في مواضع للسقي وللوضوء ، إلى أن خرج الماء إلى البركة المذكورة ، وكانت عميقة ، يغرق فيها من لا يحسن العوم ، ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد ، وجل زرعهم الدخن ، ويكثرون من المقاثي ، وماء هذه العين أحلى وأعذب ، إلا أنه سخن. وتمنا هنيئة ريثما يحين وقت الصلاة ، فتوضأنا وصلينا الظهر ، وتلاحق الركب ، وسقى الناس واستقوا ، وركعنا بمسجد هنالك فوق البركة ينسب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد تهدم وامتلأ أوساخاً وصار إصطبلا للدواب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . لقد ضعف الدين ، وقلت الرغبة في الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الأولين والآخرين ، وصلى فيه وكان من حقه أن يُذَهَّب ويفَضَّض ، وقد أشرت بذلك لأمير الحاج المصري ووعد بإصلاحه . والله يوفقنا وإياه .

وسرنا في غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل وغيره ، وفي خلالها مزارع للمقاثي والدخن وغير ذلك ، ونزلنا بين العشاءين في بسيط بين أشجار برية من السيال وغيرها [1].

عسفان / برقة / وادي العميان / مر الظهران :

ثم منه قبيل الفجر ومررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عسفان إسفاراً ، والطريق منها مبنية ، ملتقطة أحجارها كعقبة السكر ، إلا أن هذه أطول منها وأسهل ، وبأحد جانبيها مسجد ، فلما خرجنا من العقبة ، وصلنا عسفان ضحى ، وفيها سوق وآبار من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها ، وماؤها حلو غاية ، شربنا منه تبركاً ، واستفاض ذلك على ألسنة العوام ولم أقف عليه في شيء من التواريخ التي بأيدينا والله أعلم بحقيقته ، وبه مسجد ، ولا أدري ما أصله ، فسرنا وقطعنا تلك المفاوز كلها ، من أرض تسمى ببرقة ، وهي أرض طيبة ذات مزارع ،

---

(١) الناصرية ١٨٢ - ١٨٣

ووادى العميان إلى أن أنخنا بمرّ الظهران بين العشاءين ، ويسمى وادي فاطمة ، ووادى الشريف ، ووجدنا به الشامي والمصري خيما ، وبفور نزولنا رحل الشامي وتبعه المصري : (وهو واد كبير ، فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجرى ، وأعظمها القرية التي ينزل بها الحاج ، وفيها سوق وعين كبيرة ، وبساتين مرونقة ، والقلوب بالنظر لنضارتها من الأحزان محلوة مع ما غمرها من السرور بقرب الديار ومشاهدة الآثار) ففرح الناس ، وتزايد الإيناس ، وأعبق عليهم بأرجه الأريج وعرفه المتكاثر البهيج ، شجر الكادي بإشراف استنشاق . الحاضر والبادي ، فغمر عبيقة كل نادى ، ولما بلغنا عام تسعة هذا الوادي ، قلنا بعريش هنالك ، وجرى ذكر الكادي بالنادي ، وسألنا عنه صاحب العريش ، وأخبر أن شجره كشجر النخل ، وبعث من أتانا بشيء من أوراقه ، وإذا فيها رائحة طيبة . جداً وأوراقه عريضة ، وأنواره وميضة ، فسبحان من يخص من شاء بما شاء [1].

سرف / التنعيم / الزاهر / طوى / كدا :

رحلنا — من الوادى — آخر الليل سحراً ، وبلغنا سرف ضحًى ،وبه قبة أم المؤمنين ميمونة (ض) توفيت بهذا الوادي ... وعلى قبرها بناء ومسجد فزرناها . . . وركعنا في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم وتجاوزنا ذي المسالك إلى أن جئنا التنعيم وقد متع النهار (حيث المسجد المنسوب لعائشة (ض) بني في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن (ض) بأمر النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، ومن ذالك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها وهو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة ، تسمية للشيء باسم ما يقع فيه) فنمنا هنالك واسترحنا . . وقمنا وتوضأنا ، وفي مصلاه صلى الله عليه وسلم ركعنا : فسرنا وتجاوزنا المكان المسمى بالزاهر (ويسمى جنان مكة ، وبه آبار ، وبه قبر يذكر أنه قبر الصحابي الشهير عبدالله ابن عمر (ض)

---

(١) « الناصرية » : ١ - ١٨٣ - ١٨٤

قال الإمام أبو سالم : (فقد صح أنه مات بمكة بعد الحج ، فقيل إنه دفن خارجها بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه ، فمن قائل: إنه بهذا الوادي ، ومن قائل: إنه بالوادي الذي بطرف المحصب ، وهو الذى شهره كثير من الناس ، إلا إنه ليس هناك قبر ينسب إليه . قال : وقد زرناه بهذا المكان بحسن النية ، وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة ، اقتداء بمن قال : إن هذا هو ذو طوى الذى بات فيه النبي صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه . واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه ، والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا ، وليس بينه وبين مكة واد آخر ، وهو الوادي الذي وراء قعيقعان وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج ، فاعلى هذا الوادي هو ذو طوى وأسفله هو الشبيكة)[1] هـ .

ونزلنا ذا طوى ظهر الأربعاء خامس ذي الحجة الخامس والعشرين من ينير ، وبتنا به . . فلما صلينا الصبح اغتسلنا . . وارتحلنا ودخلنا من باب المعلى وهو الثنية العليا التي دخل منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي المسماة بكدا — بالفتح — وقد بالغت الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة ، ومع ذالك ففيها صعوبة ، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون[2]

إلى هنا انتهى ما أردنا تلخيصه من وصف الطريق من القاهرة إلى مكة من « الرحلة الناصرية » ومما جاء فيها مما يتعلق بذلك الطريق ذكر الأعراب الذين كانوا مسيطرين على منازله ومناهله ، وقد ذكرهم الناصري فقال :

وأعراب هذه البلاد الحجازية :

١ — من عسفان إلى ينبوع بلاد حرب .

٢ — ومن الينبوع إلى أكره بلاد جهينة .

---

(١) العياشية ١-١٨٨

(٢) « الناصرية » : ١ - ١٨٦ - ١٨٧

٣ – ومن أكره إلى ظبة – بالظاء المشالة والباء الموحدة والهاء واد دون المويلح – بلاد بلي .

٤ – ومن ظبة إلى مصر بلاد الحويطات ومغازة (؟) والأعلوين وبنى عقبة)[١] .

في مكة المكرمة وذكر آثارها

كان أول ما بدأ به أداء مناسك العمرة من طواف وسعي ثم قال : (فلما قضينا الوطر من السعي نزلنا بدار الشيخ محمد بن سليمان ، اكتريناها من ورثته بتسعين أحمر ، وفيها ثلاثة مساكن، نزلنا مع حرمي بالمنزل الأعلى وجعلنا أثاثنا وحوائجنا في الوسط ، ونزل أولادنا وأصحابنا بالأسفل ، وكل مسكن منها يشاهد منه البيت الشريف)[٢] .

من اجتمع به من العلماء في مكة :

وصلينا الجمعة بمكة – وخطب الخطيب خطبة السابع وهو ولد الشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية ، ووالده هذا رأيته والتقيت به من باب منزلنا بالمسجد الحرام ، وأخبرني أنه جارنا هو وولده الخطيب المذكور ، وآخر أصغر منه ، وسألته عن بعض شراح الهمزية وقال إنه عنده ابن حجر ، وقلت له : أردت أن أنظر فيه الشيخ مرزوق الكفافي ، وبعث ولده وأتى به وأوقفني أيضاً على الثالث والأول من البرقاوى (؟) على البخاري ، وأخبرني أن الثاني كان عند الشيخ عبدالله بن سالم البصري ، ورأيته ، وأكثر نقله عن الكرماني والزركشي وهو حاشية .

والشيخ عبدالله هذا التقيت معه بالمسجد الحرام يوم دخولنا ، هو والشيخ محمد النخيلي (؟) وخرج بنا ووقف معنا في كراء المنزل . . وذهبنا لداره أيضاً يوم الجمعة ، ووجدناه في بيت كتبه ، والكتب محدقة به

---

(١) الرحلة الناصرية ج ٢ ص ١٠٦

(٢) « الناصرية » ١ - ١٥٩

يميناً وشمالا ووراء وقداماً ورأيت عنده مسند الإمام أحمد في ثلاث مجلدات كبار ، وأخبرني أنه كتب نسخة من اليونانية*(؟) وشرع في شرح البخارى وبلغ فيه الحج . وزعم طلبة مكة أنه فاق أهل الحرمين فى الحديث وغيره من سائر العلوم . وهو شافعي المذهب ، وأجازنا سائر مفرداته ومروياته ومسموعاته . وسألناه عن قول العباس (ض): إلا الإذخر لقَيْننا وبيوتنا . فزعم أن القينّ يسعر بعروقه ناره لإفراط حرارة ناره ، وذكر بعض أصحابنا أنه تخلط به الطين كالتبن فيبني القين تنوّره . والله أعلم بحقيقة ذلك)[1]

(واجتمعت هناك — أى بمنى يوم الصعود — بالشيخ محمد أكرم ابن الشيخ عبد الرحمن مفتى الهند ، وهو رجل عالم له تآليف على رجال البخاري ، واختصر البخاري في مجلد ، حذف الأسانيد والمكرر ، وهو ضرير ، كبير السن ، به مرض ، ملازم بيته . ويوم النحر قدمنا من منى للإفاضة ولما رجعنا إلى منى التقينا محفة وبها رجل كبير مستلقٍ ، ولما لحق بنا الأخ الشقيق الصالح سيدى محمد الأخصاصي أخبرني أنه هو ، وأخبرني ولده محمد أنه شرح نخبة ابن حجر في عشرين كراسة وله تأليف على الرد على الروافض ، وهو رجل صالح محقق فيما ذكر . وسألنا عن المسافة بيننا وبين الهند فقال : أربعون يوماً في البحر وأربعة أشهر أو ستة في البر ، وأن بلده هو السند ، وبينه وبين الهند ثلاثون يوماً)[2] .

وها هي ذي أسماء أشهر من اجتمع بهم من العلماء بمكة ، وقد أطال الثناء على كثير منهم :

١ — أحمد النخلي الشافعي .

٢ — عبدالله بن سالم البصري الشافعي وقد أجازه وأورد إجازته ص٢٠٩

٤ — محمد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه عبد المنعم وعبد المحسن .

---

* يقصد اليونينية نسخة الشيخ اليونينى من صحيح البخارى .

(١) « الناصرية » ١ : ١٨٩ - ١٩٠

(٢) « الناصرية » ١ - ١٩٢

٥ ـ عبد القادر بن أبي بكر الحنفي المفتي .

٦ ـ محمد أكرم الهندي .

٧ ـ مصطفى بن فتح الله المكي الشافعي وله تأليف على التاريخ ذكر فيه علماء الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه [١]

وقال عنه : (أطلعني على سفر منه فيه المحمدين فقط ، ولم يكمل إلى الآن وله رحلة إلى اليمن ولقي الوالد وأخذ عنه وجعل له ترجمة) .

٨ ـ محمد بن عبد الباقي الإسكندري المالكي .

٩ ـ إدريس بن أحمد الصعدي من صعدة اليمن .

١٠ ـ عبد الرحمن السندي والد محمد أكرم الهندي

١١ ـ عبد الكريم الهندي .

١٢ ـ الحسن العجيمي التقى به سنة ١١٩٦

١٣ ـ الحسين الحنفي المكي .

١٤ ـ علي اليمني } وهما من أصحاب والده
١٥ ـ عبدالله اليمني .

١٦ ـ محمد بن سليمان الرداني (؟) أطال الثناء عليه وقال : (هذا من أصحاب الوالد وممن أخذ عنه وهو حكيم الإسلام ، وأطال الكلام عنه [٢] .

مولد النبي صلى الله عليه وسلم :

ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها .

منها الدار التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقد اتخذت الآن مسجداً ومزارة عظيمة . . (هذا على ما أعلم مما وقع من الاختلاف في كتب السير في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأبواء ، وعلى القول أنه

(١) هو كتاب « فوائد الارتحال ونتائج السفر » وصفته في مجلة « العرب » س ٨ ص ٧٤٨ .
(٢) من ص ٢٢٢ إلى ٢٣٣ من الجزء الأول .

بمكة فقيل بالشعب وقيل بالمحصب ، إلى غير ذالك من الأقوال ، ولا أدري من أين أخذ الناس تعين هذا المحل بالخصوص . اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار ولده أوجده صلى الله عليه وسلم فيرجح القول بأنه فى مكة بقضيّة عادية وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده ، وإن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله ، والعجيب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع وقالوا : إنه موضع ولادته صلى الله عليه وسلم قال شيخنا أبو سالم : ويبعد عندي كل البعد تعين ذالك من طريق صحيح أو ضعيف . لما تقدم من الخلاف في كونه بمكة أو غيرها ، وعلى القول بأنه فيها في أي شعابها ؟ وعلى القول بتعيين هذا الشعب في أي الدور ؟ وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار ، وانقطاع الآثار . والولادة وقعت في زمن الجاهلية ، وليس هناك من يعتنى بحفظ الأمكنة ، لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذالك . وبعد مجيء الإسلام فقد عُلِم من حال الصحابة ضعف اعتنائهم بتقييد الأماكن التى لم يتعلق بها عمل شرعي ، لصرفهم اعتناءهم (ض) إلى ما هو أعلى ، من حفظ الشريعة والذب عنها باللسان والسنان ، وكان ذالك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام من مساجده صلى الله عليه وسلم وموضع غزواته ومدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذالك في المشاهد الحفيلة فما بالك بما وقع في الجاهلية ؟ لا سيما ما لا يكاد يحضره أحد كمولد عليّ ومولد عمر ومولد فاطمة — رضي الله عنهم — فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون : هذا مولد فلان وهذا مولد فلان وذالك في البعد أبعد من تعين مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات في ليلة مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم[1] فقد يتنبه بعض الناس لذالك بسبب ما ظهر من الآيات ، وإن كانوا أهل جاهلية ، وأما مولد غيره ممن

---

(١) « الناصرية » ٢٠٣

ولد في ذالك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الوقعة بتنبهه أو أحد من أهل بيته [1]) .

من الأماكن التي تزار بمكة المكرمة :

١ ــ دار الأرقم وهي مسجد قرب الصفا .

٢ ــ موضع بسوق مكة بسمى المودع (؟) يقال إن فيه ودع النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة في حجة الوداع لما أراد الخروج إلى المدينة وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة . وليس في أسواق مكة محل تظهر منه أستار الكعبة إلا هذا فيقف الناس فيه للدعاء وقريب من هذا المكان رباط ينسب للشيخ عبدالقادر الجيلاني ، يسكنه الفقراء وله أوقاف وبه قبور تزار لا أتحقق أصحابها .

٣ ــ مسجد الجن بأعلى مكة .

٤ ــ شعب أبي طالب .

٤ ــ جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها والمسجد والبيت ، وفيه مغارة يقال إن بها قبر آدم ، والحجاج يشترون رؤوس الغنم المشوية ويصعدون إليه ويأكلونها فيه ، ويزعمون أن من فعل ذالك أمن من وجع الأسنان والرأس .

٥ ــ قبة على الجبل الذى على يسار الذاهب إلى الشبيكة ، يقال إن فيه مولد عمر (ض) .

٦ ــ محل في الجبل المشرف على المحصّب على يمين الذاهب إلى منى ، يزعم أهل مكة أن به قبر عبدالله بن عمر (ض) فيخرجون إليه في إحدى ليالي ذي القعدة ــ اظنها الثالثة عشرة ــ رجالا ونساء وكباراً وصغاراً ، فيبيتون هنالك عامة ليلتهم [2] .

---

(١) « الناصرية » : ١ - ٢٠٣ وكل مابين القوسين من « العياشية » ١-٢٢٥

(٢) « الناصرية » ١ - ٢٢٣

منى وآثاره :

وقال في وصف الخروج إلى منى : (ومررنا بمسجد العقبة ودخلناه وصلينا فيه) .

وكان نزولنا بمنى شرقي مسجد الخيف قريباً من بابه الشرقي ، وصلينا بمسجد الخيف الظهر وكذالك العصر خارج القبة التي تواتر أنها موضع خيمة مولانا علي كرم الله وجهه ونزل بإزائنا الشيخ عبد القادر بن أبي بكر مفتي الحنفية وأتاني مع ولدين صغيرين له وسألته عن البناء القائم في مسجد الخيف ، ونمرة وأخبر أنه بناه قايت باى [1].

وكان نزولنا — بعد الإفاضة — إزاء ثبير ، قرب الغار الذى أنزلت فيه (والمراسلات) على النبي صلى الله عليه وسلم وخبره مذكور في الصحيح ، وقد بني على بابه محوطة شبه مسجد صغير ، والناس يقصدونه للصلاة والدعاء ، وهو في أصل جبل ثبير ، بينه وبين مسجد الخيف رمية حجر . وكان نزولنا بهذا المحل إيثاراً للقرب من هذا المكان ، وقرب المسجد ، مع كونه أوسع وأنظف وأستر ، وأمكن للإنسان في حاجته ، والناس يتحامون من القرب من الجبل تقية من أذى السراق ، فيستجير بعضهم من بعض (؟) ويفرون إلى الدخول في غمار الناس ، ولا يبالون بما نالهم فى ذلك من وطء الأقدام وتقطيع الحبال ، وتعقب الأرجاء (؟) واستنشاق الريح الكريهة ، ونحن استسهلنا أمر السرقة في جانب هذه المضار)[2] .

ولما كانت الليلة الثانية من ليالى منى بالغ أهل مصر وأهل الشام في إيقاد المصابيح ، واتخاذ المصانع منها ، وصور الأشجار والأخبية ، وإكثار الرمي بالبنادق والمدافع والمحارق المرتفعة في الجو ، وفي ذلك نزهة للأبصار وتسلية للأفكار) [3] .

---

(١) « الناصرية » ١ - ١٩١ - ١٩٢

(٢) « الناصرية » : ١ - ١٩٨

(٣) الناصرية ١ - ٢٠٠

مسجد الخيف :

وهذا المسجد يسمى مسجد علي، قيل إن علي بن أبي طالب (ض) أول من بناه، وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (ض) في حجة الوداع. قال الإمام أبو سالم[1] (وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله ٤٠٠ قدم وعرضه ٣٤٠ وبوسط المسجد قبة مثمنة، كل ثمن منها ٢٤ قدماً من خارجها، ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاطه صلى الله عليه وسلم وصحن هذا المسجد كبير، ، إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف ومن سائر الجوانب غير مسقف[2]..

مسجد العقبـة :

وملنا إلى مسجد الكبش فزرناه، ثم بعده (مسجد العقبة أتيناه، وهو المكان الذى بايع فيه الأنصار (ض) بيعة العقبة، فهو من المساجد المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى[3].

فسرنا فجئنا المحصب، فنزلنا بازاء مسجد عائشة)[4].

الحجاز سنة ١١١٩ :

قال الناصري في وصف الحجاز :

(والحجاز هذا العام أنعم الله عليه بالرخاء وكثرة المطر والربيع، في كل مرحلة ترى الجمالين يحملون أحمالا من أم ركبة (؟) لعلف دوابهم

---

(١) « الناصرية » ١ - ٢٠٠

(٢) العياشية : ١ - ٢٠٤

(٣) « العياشية » ١ - ١٩٧ و ١٩٨

(٤) « الناصرية » ٦ - ٢٠١

وكاد درب الحجاز يشبه برقة في كثرة الربيع من الصليان والنصي وغيرهما من أنواعه ، ترى بعض الأمكنة كأنها مستنبتة ، وكالبساتين ربيعاً .

وأخبرني بعض أحبتنا من أهل مصر : انه له عشر حجج ما رأى مثل هذا الرخاء في الحجاز .

وأما الحرمان الشريفان ففيهما من الرخاء ما يبهر ، فالفول بطيبة المشرفة بيع اثنا عشر ربعياً بدينار ، والشعير إحدى عشر والدقيق اثنا عشر .

وبمكة – أعزها الله – بيع ستة عشر وخمسة عشر إلى ثلاثة عشر بدينار ، والشعير اثنا عشر والدقيق تسعة ونصف ، وبعرفة عشرون ربيعا شعيراً بدينار [1]) .

الخروج من مكة :

ذكر أنه في يوم الأحد ٢٣ ذي الحجة أخذ المغاربة في الرحيل وهم أول الأركاب خروجاً من مكة . لا يخرج قبلهم إلا بعض قفول أهل المدينة قال : (فنزلنا منزل الحاج بباب الشبيكة .. آثرنا الخروج من الثنية السفلى التي بأسفل مكة ، المسماة اليوم بالشبيكة اقتداء به صلى الله عليه وسلم إذ منها خرج في حجته على أن ابن رشيد ذكر في رحلته عن بعض الأئمة أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضاً مروي عن الحافظ أبي محمد بن حزم ... ثم أورد كلامه ، وأعقبه بكلام طويل لأبى سالم يرد به على ابن حزم ، وهو كلام نفيس [2]

وادي فاطمة :

قال : (ثم ارتحلنا من مر الظهران المسمى بوادي الشريف الموسوم الآن على ألسنة العوام بوادى فاطمة)[3] .

---

(١) الناصرية ٢ - ١٠٧

(٢) « الناصرية » : ٢ - ص ٢و ٤

(٣) « الناصرية » ٢ - ٤

الجـديدة :

قال ابن ناصر : (ثم ارتحلنا منه – يعني بدراً – يوم السبت – ٢٩ ذى الحجة ٨ فبراير ، وجئنا الجديدة بُعيد العصر وبات الناس بها لخزن أموالهم وأحمالهم وما يفضل من زاد وعلف إلى أن يرجعوا من المدينة ، وتلك عادة الركب المغربي والمصري ، بل غالب المصري يبعثون أموالهم من بدر إلى الينبوع مع الأعراب والفلاحين الذين لا غرض لهم فى الزيارة بل لا قصد لهم إلا في الكراء ، وبها بركة عظيمة تعين الناس في سقى إبلهم وملء قربهم ، بناها أمير الركب الشامي، لأن ماء القرية التي ينزل بها الحاج قد يغور في وقت القيظ فيرجع الناس إلى البركة ، على أنه ليس في بلاد الحجاز مكان أشد حراً من هذه الخيوف – فيما علمنا – وبهذه القرية مسجد جامع ، ببناء متقن ، تجري العين من تحته ، من بناء الأمير رضوان – رحمه الله – وكم له في طريق الحج من مآثر ومعالم تدل على علو همته [١]) .

وقال عن الجديدة – حينما عاد من المدينة – :

(وسرنا يوم الأحد من قرب الروحاء ومررنا بمسجد الغزالة ضحى . . . وسرنا حتى نزلنا الجديدة ظهراً وأخذ الناس أمتعتهم التي اختزنوها بها ووقعت فتنة بين أهل تونس وحرب وتراموا بالأحجار والبنادق ، ومال الناس بينهم ووقى الله شرها [٢]) .

النازية / عرق الظبية / الروحاء :

ثم ظعنا – يعني من الجديدة – و قلنا في النازية ، ووجدنا بها سبيلا فيه ماء ، وجئنا مسجد الغزالة – وهو من الأمكنة التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وهو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية ، ثم سرنا صاعدين

---

(١) « الناصرية » ٢ - ٤

(٢) الناصرية ج ٢ ص ١٠٤

مع الوادي حتى أتينا الروحاء وقت الظهيرة ، وتفرق الناس بأشجارها يستظلون ولوقت صلاة العصر ينتظرون ، ووجدنا بئرها يابساً ، لا ماء به وحوله بركة معطلة ، وبازائها مسجد وثيق البناء صحيح ، وصلينا به الظهر ، ولو قيض الله لذالك الموضع من يعمره لكانت فيه إعانة للحجاج . . وقد ذكر السمهودي قريباً من البئر مسجداً من مساجده صلى الله عليه وسلم ولا أدري هل هو المبني الآن أو غيره ؛ ثم سرنا وصلينا العصر بملل بعد ما ما تجاوزنا السيالة ومررنا على شرف الروحاء ، وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء ، وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قوم قتلوا هناك ظلمـــاً ، وذكر السمهودي مسجداً من مســـاجده صلى الله عليه وسلم بشرف الروحاء . قال أبو سالم : وهناك مكان محوط بحجارة شبه مسجد ، يزوره الناس ، وأظنه هو ، وفي شرف الروحاء ، آثار آبار معطلة ، وبنيان داثر ، وقد كانت هناك في القديم قرية ، ولم يبق الآن بها شيء من ذالك وأخبرنا أن وراء الجبل بلد خال فيه آبار وبعض نخيل ، وأظنه السقيا)[1] .

في المدينة المنورة :

قال : (وكان دخولنا المدينة المشرفة بين ظهري الاثنين ثاني المحرم ، فاتح ١١٢١) ثم ذكر دخوله المسجد وزيارته القبور المطهرة وقال : (ثم ذهبنا إلى منزلنا بإزاء ديار العشرة ، اكتريناه بعشرين ريالا ونصف ، وستة مثاقيل أني طرة ، وهو لصهر بلدينا الحاج إبراهيم بن عبدالملك ، سيدي أحمد بن موسى المرعشي ، ووالده هو شيخ الفراشين بالحرم الشريف ولم يزل هو وإخوته إبراهيم وخليل ومصطفى وحسن ومحمد وأبو بكر ، وسيدي أحمد هذا كان لا يفارقنا أيام إقامتنا ويسعى في قضاء مشارينا ، وكذا بلدينا الحاج إبراهيم)[2] .

---

(١) « الناصرية » ج٢ ٤ - ٥ . والسقياليست هذا الموضع بل بعيدة عنه وتعرف الآن باسم أم البرك جمع بركة ، والطريق الذي جاء منه ابن ناصر لايمر بها .

(٢) ج ٢ ص ٨-٩

ذكر المشاهد في طيبة :

قال : بأنه تتبع الأماكن المشهورة وأنه خرج معه الأخ أبو عبدالله محمد الأخصاصي وأنه استصحب معه رقعة كتب فيها المشاهد والمزارات إذ له بذالك جميل الاعتناء ثم تحدث عن :

١ ــ البقيع ومما ذكر فيه من المقابر .

٢ ــ جبــــل أحد .

٣ ــ المساجد في المدينة .

٤ ــ الآبار في المدينة .

وقد أطال في كل ذلك [1] .

من العلماء الذين اجتمع بهم في المدينة :

١ ــ أحمد الأنصاري .

٢ ــ عبد الرحيم الأنصاري صنو أحمد .

٣ ــ عبدالكريم الخليفتي العباسي وأورد له قصيدة .

٤ ــ طاهر بن الشيخ إبراهيم الكردي .

٥ ــ إبراهيم البري الخطيب بالمسجد النبوي والإمام .

٦ ــ صالح بن أحمد المطري إمام مسجد قبا وأورد له أبياتاً ورسالة ركيكتين .

٧ ــ أحمد بن عبد الرحمن الشريف السجلماسي وأثنى عليه كثيراً وقال : (اكترى لنا منزلا قرب الحرم الشريف ليس بينهما إلا زقاق عند المئذنة السليمانية) .

٨ ــ محمد الهميسي .

---

(١) من ص ١٠ إلى ٤٢ ج ٢

٩ ـ أحمد زاد في ابن عم قاضي صالح .

١٠ ـ أحمد الفلاني .

١١ ـ الملا إبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري ثم الشمراني وأثنى عليه وذكر أن الشيخ أبا سالم ترجمه فأجاد في ترجمته .

١٢ ـ إسماعيل (؟) خطيب الحرم ، وقد أجازه .

من عادات أهل المدنية :

قال الناصري عن المساجد التي حول سلع (وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرج في أيام كثيرة ، ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة ، فيبيتون بها في لهو وطرب ، وهو يوم النصف من شعبان .

قال شيخنا أبو سالم [١] : وقد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملوءاً نساء ، ولم نتمكن من الدخول إليه ، وهنّ يطبخن فيه أنواع الأطعمة . ونساء المدينة لهنُ عوائد مذمومة في الخروج إلى التنزه والتفرج في البساتين والأماكن المنفسحة ، ويسمون ذلك القائلة (؟) فيقولون نقيل اليوم في الموضع الفلاني . وخروج الرجال لذالك أكثر ، فتكلف المرأة زوجها من النفقة مالا قدرة له عليه) [٢] .

ثم ذكر كثيراً من عادات أهل المدينة نقلها عن العياشي ، وتقدم ذكرها ومما لم يذكر هناك منها :

قال الناصرى وقوله هذا في « العياشية»[٣] من عاداتهم في الشراء من

---

(١) « العياشية » : ١ - ٢٥١

(٢) الناصرية » ج ٢ ص ٢٣

(٣) العياشية ١ ، ٣

الأعراب الذين يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشترى منهم قوم من الأعراب والساكنين بالمدينة وأطرافها ، ولهم اسم يختصون به كالبرغازين عندنا بالمغرب ، فيدخلونه الأسواق ، ويشتري منهم أهل المدينة ، وهـــذا من تلقى السلع المنهيّ عنه ولـكنهم قد ألقوا ذالك واستمرت عليه عادتهم ، وألف ذالك القادمون أيضاً ، (وان امرءاً من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتريه به البرغازون ، فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك ، ويركنون إليهم ، ويميلون لقولهم ، ويعرفون كيفية المساومة معهم ، ولا يعتاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل ، وغيرهم ليس بتلك المثابة ، فلا يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طباعهم ، فاستسهل الناس الشراء من البرغازين بربح قليل وزيادة على ما اشتروا به من الأعراب) [١] » واغتفروا التلقي لذالك اللهم إلا أن يكون الموضع الذي يحطون فيه ما يأتون به من اللبن وغيره معلوماً عندهم لذالك ولا يقصدون سواه ، ولا يتعدون لغيره لبيع ما يأتون به ، من سوق أو حانوت أو دكان ، فيكون ذالك كالسوق لسلعهم . فلا تنهّي إذاً إذ لا تلقي حينئذ لكون السلع بلغ بها سوقها ، ومحل بيعها وابتياعها [٢]

الناصرى فى المدينة :

كانت إقامتنا بقية يوم دخولنا الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وذلك خمسة أيام . وتوجهت سادس عشر [٣] المحرم ، فصلينا العصر عند السبيل الذي بالحرة ونزلنا بذى الحليفة [٤]

---

(١) ما بين القوسين فى العياشية ١ - ٣٠٠

(٢) الناصرية ١ ص ٦٠ ج ٢

(٣) لعل الصواب : (سادس المحرم) فقد دخلها يوم الاثنين ثانى المحرم كما تقدم فأقام خمسة أيام .

(٤) الناصرية ج ٢ ص ١٠١ و١٠٣

من المدينة إلى ينبــع :

ثم ذكر مسيره حتى بلغ الجديدة وتقدم كلامه عنها وقال بعد ذلك :

ثم سرنا — من الجديدة بعد صلاة الظهر — ونزلنا مغرباً وبتنا .

ثم ظعنا ومررنا صبحاً بمسجد بازائه سيل ماء . وقد ذكروا أن عنـــد هذا المسجد قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم بدر وسرنا ورجعنا ذات اليمين قبيل الصفراء حيث ينصرف الطريق يميناً إلى ينبوع ، فلنا إليه سالـكين تلك الطريق وزرنا قبر عبيدة بن الحارث عند المنصرف سيد شهداء بدر ، وأحد المبارزين في ذالك اليوم . على قول من قال : إنه دفن هناك . وقيل دفن بالصفراء وسرنا مع شعاب متوعرة — وهذه الطريق هي التي سلك النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم لغزوة بدر ، وحين رجع سلك طريق الصفراء — إلى قريب من الظهر فوصلنا البئر التي بوسط الدهناء ، ووجدنا البركة المعمولة بإزائها فارغة ، ونزلنا هناك مستظلين ببناء على سفح الجبل إلى أن حان وقت الظهر .

وسقى الماء واستقى من أراده ، فصلينا الظهر ، فسرنا وتسوق الأعراب في الركب بالحشيش والدلاع وهذه البئر ماؤها عذب فرات بارد .

ولما خرجنا المضيق (؟) خرج الحراميون من الأعراب على أخريات الركب ورموهم فوق الجبل ببنادق وكفى الله شرهم .. وجرحوا جملين وسلمهما الله فبرءا ونزلنا مغرباً ؟

ثم ظعنا يوم الثلاثاء فأتينا ينبوع قبيل الظهر ونزلنا بمسجد العشيرة [1] .

---

(١) « الناصرية » ج ٢ ص ١٠٥

شعر في الرس

.. من القائل :

على الرسّ من أهل القصيم سلامى　　فإن رُباها بغيتي ومرامى
فإن رُباها نصب عينيّ غدوة　　وإن نمت وافتني بطيف منامي

الرياض : محمد الحسين

ذكر فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله البسام في كتابه « علماء نجد خلال ستة قرون » في ترجمة الشيخ قرناس بن عبد الرحمن بن قرناس أنها للأستاذ السيد محمود شكري الألوسي قالهما في أبيات قالها لما زار الرس ثم أقام في بريدة للسعي في الصلح بين الملك عبد العزيز وبين الأمير عبد العزيز بن رشيد . وذكر الشيخ ابن بسام أنه قال أيضاً :

هي الرسُ ماأحلى لديّ من الرَّسُ　　بها كل ماأبغى وما تشتهي نفسي
ولو أنّ ميْتاً في (بُريْدة) جاءه　　من الرَّسّ من يدعوه قام من الرمس

— وفي البيت الأخير مبالغة .

ابو على الهجرى

أورد البغدادى في كتاب « شرح شواهد المغني » :

(١)

أمرتك الخير فافعل ماأمرت به　　فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(... وأنشد البيت سيبويه لعمرو بن معدى كرب . وذكر الهجري في نوادره أنه لأعشى طرود واسمه إياس بن عامر . وقيل : إنه لعباس ابن مرداس) . انتهى كلام ابن خلف [١] .

(٢)

للنمر بن تولب :

تأبدّ من أطلال عمرة مأسل　　فقد أقفرت منها شراء ويذبل

(١) « شرح شواهد المغنى » نسخة مصورة اللوح ٥٠٦ .

(... ومأسل : موضع في ديار بني ضبة وإليه تنسب دارة مأسل — كذا في معجم مااستعجم لأبي عبيد البكرى . وقال الهجري : مأسل : قرية ونخيل) [١] .

ذات الحاج

كانت الدوائر الرسمية فى الحدود الشمالية تتخذ ذات الحاج مركزاً لها إلى عهد قريب ، ثم انتقلت إلى حالة عمار . وقد جرى كلام حول ضبط كلمة (الحاج) هل الجيم مشددة أم لا . ونسب أحد الإخوان إليكم أنكم تقولون أن الاسم الصحيح ذات الحاج بتخفيف الجيم . وأن الحاج اسم نبات . كذا نسب إليكم مع أن المعروف عند أهل هذه الجهة أنها لوقوعها بطريق حجاج الشام سميت بهذا الإسم ، وبعضهم يسميها ذات الحج . أرجو إيضاح رأيكم . وشكراً .

تبوك : سعد المحمد الناصر

العـــرب : ما نسب إلى رئيس تحرير هذه المجلة صحيح ، فالاسم قديماً كان بتخفيف الجيم ، والحاج نبات وصفه علماء النبات فى كتبهم ، ويظهر أنه كان ينبت فى هذا الموضع . وكانت التسمية قبل أن يصبح طريق الحاج الشامى موجوداً . ثم لما وجد هذا الطريق غير الاسم ، فشددت الجيم ، وحذفت الألف فقيل : ذات الحاج ، وذات الحج ، وذات حج . وإليك ما جاء فى « المعجم الجغرافى للبلاد العربية [٢] السعودية » — قسم شمال المملكة — الذى صدر حديثاً — عن هذا الموضع .

ذات الحاج :

الحاج — بتخفيف الحاء نوع من النبات ولعل الموضع كان ينبته وقال جميل — [٣] بعد أن ذكر الحجر والجنينة — :

---

(١) اللوح ٤٦٥

(٢) الحلقة التاسعة عشرة من (نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخيـة عن جزيرة العرب) دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .

(٣) ديوانه : ٤٩ — ١٧٨ .

وليلة بتنا (ذات حاج) ذكرتكم هدوا وقد نام الخليُّ المصحح
ويوم (معان) قال لي فعصيته أفق عن بثين – الكاشح المتنصح

وقال :

بدت بدوة لما استقلت حمولها
ببثنة بين الجرف والحاج والنخل

وسماها في « درر الفوائد المنظمة » [1] : ذات الحج قال في وصف الطريق : ثم يرحل إلى ذات الحج وهي جفار عذب سائغ مستطاب فيرد ماءه . وللصلاح الصفدي :

سلكن الفج نقصد ذات حج بطرق للهداية مستقلة
فآثار المطي بها بدور وآثار الجياد بها أهلة

انتهى :

ولا شك أن هذه التسمية حدثت بعد أن أصبح طريق الحج من الشام يمر بها . وأن الاسم الأول هو الصحيح .

ووصف الخياري [2] في رحلته الموضع ، وقد مر به عام ثمانين وألف (١٠٨٠ م هـ)فقال : (وفي المنزل المذكور قلعة واهية البناء ، يشتمل باطنها على (أوضات [3]) متعددة ، وعين ماء عذب ، ينزل إليه بدرج يسير ، وخارج القلعة بركة كبيرة حولها نخيلات طويلات لا تثمر يسمونها بالتركية (عاصي خرمة) وأمام باب القلعة عين ماء عذبة يقال إنها أعذب من القديمة ، وأن حدوثها قريب من الخمسة أعوام ، وبها آبار موروده ، والحاصل أنها بلدة قيحاء) .

وقال النابلسي [4] – عن ذات حج – : (وهناك قلعة كبيرة واسعة وبها بركة من الماء كبيرة . . . وقلنا في ذلك المنزل .

أتينـا ذات حـج بنفس ذات حـج
وذلك بعـد حـج وعـج ثـم ثـج
فيـا لك منزلا قد نزلناه نرجي

(١) ص ٤٥٦ .
(٢) تحفة الأدباء ٧٧
(٣) أوضات . حجر والكلمة تركية
(٤) الرحلة الكبرى ص ١٧٣ مخطوطة فينا .

به الـــركب الملاقى لنا فى كل فــج
فـلم نـظفـر بـغـيـر التـأمل ، والـترجى

واستقى الناس من ذلك الماء الكثير . وحملوا الماء لأن بعد ذلك ثلاث منازل لا ماء فيها إلى قلعة معان . انتهى .

ووصفها السنوسى التونسى سنة ١٣٠٠ فقال : (وجدنا قلعة فيها عين جارية يجرى ماؤها إلى بركة بناها السلطان سليمان ، وحول تلك القلعة نخيل ذكر ، لا ثمر له ، وبتلك الأرض حـجـر الـمسن الأبيض) . انتهى .

وذات الحاج : واد فيه منهل ، فأصبح قرية ، وكانت من منازل الحج الشامى قديماً ، ثم صارت من محطات السكة الحديدية ، وكانت أول مكان مأهول يصله المسافرون من الحدود الأردنية إلى تبوك ، ولهذا بدأت تنتعش وأنشىء فيها منازل قليلة لموظفى الجوازات وغيرهم غير أن مـراكز موظفى الدولة نـقـلت إلى حالة عمار الواقعة شمالها ، فأصبحت ذات الحاج لا أهمية لها وهى واقعة فى واد ينحدر من حسمى جهة الشرق ، داخلة فى طرف سلسلة جبـــال حسمى بقرب الدرجة ١َ/٢٩° طولا و ١٠َ/٣٦° عرضاً .

ومما تقدم تتضح صحة ما أشار إليه السائل الكريم من أن الجيم فى اسم (ذات الحاج) مخففة فى أول الأمر ، وبعد أن أصبح طريق حجـّاج الشام يمرُّ بهذا الموضع اكتسب اسماً جديداً فشددت جيمه حينا ، وحذفت الألف حينا آخر (ذات حج) مع أن الأصل هو الاسم الأول .

* — الارتسامات اللطاف :

من أمتع كتب الرحلات وأجلها فائدة عن بلادنا في عصرنا الحاضر كتاب « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » وهو الرحلة الحجازية لأمير البيان شكيب أرسلان فى سنة ١٣٤٨ . وقد نشر الكتاب منذ نحو خمسة وأربعين عاماً بحيث أصبحت نسخه نادرة إن لم تكن مفقودة ، فقامت مكتبة المعارف فى الطائف لصديقنا الأستاذ الجليل محمد سعيد حسن كمال بإعادة طبعه بعد أن تولى الأستاذ عبد الرزاق بن محمد سعيد كمال تصحيحه والتعليق عليه ، فأضاف إلى أبحاثه — ولاسيما مايتعلق منها بالطائف — إضافات ممتعة ، اقتبسها من كتاب والده الأستاذ محمد سعيد « الطائف : جغرافيته تاريخه ، أنساب قبائله » وغيره من الكتب مما لم يطلع عليه المؤلف فازداد الكتاب بذلك إمتاعاً ، وازدادت مباحثه اتساعاً . وقدم المحقق الفاضل الكتاب بكلمة ضافية عن مؤلفه الأمير شكيب ، أتبعها بمقدمه الكتاب في طبعته الأولى التي كتبها الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا . فبلغت صفحاته ٣٥٧ و طباعته حسنة [١] .

---

(١) ومع ذلك فقد وقع فى الكتاب تحريف فى بعض أسماء المواضع والأعلام ، ونشأ هذا عن كون المؤلف — رحمه الله — ينقل عن بعض المصادر الافرنجية ، وكنت نبهت إلى ذلك فى كلمة لى نشرت بعد صدور طبعته الأولى بزمن قصير .

* — كتاب التعازي والمراثي :

المُبَرِّد محمد بن يزيد الثمالي (٢١٠ — ٢٨٥هـ) من أئمة الأدب القدامى ، ذو مؤلفات معروفة ، أشهرها « الكامل » ومنها كتاب « التعازي والمراثي » وعنوانه يدلّ على موضوعه . وقد قام بتحقيقه الأستاذ محمد الديباجي ، المحاضر في (كلية الآداب في جامعة محمد الخامس) في الرباط .

وتولّى نشره (مجمع اللغة العربية بدمشق) فجاء في ٤٠ + ٤٣٥ = ٤٧٥ صفحة منها مقدمة ضافية عن المبرد وعن الكتاب في أربعين صفحة وفهارس وافية في نحو عشرين صفحة . وحسبك بمطبوعات المجمع جودة وصحة وحسن إخراج .

* — الأنوار ومحاسن الأشعار :

مؤلف هذا الكتاب علي بن محمد بن المطهر الشمشاطي ، من أهل القرن الرابع الهجري ، والكتاب من المجاميع الأدبية الحاوية لكثير من الأخبار والأشعار ، ويظهر أن ماوصل إلينا من الكتاب ماهو إلا قطعة منه ، كما يفهم من أول النسخة المطبوعة : (باب في السيوف والرماح وجميع السلاح) ثم : (باب في اختيار قطعة من أيام العرب) عدّ منها ثلاثين يوما ، من ص ٨٥ إلى ٢٦٠ وبعده : (باب في الخيل وصفاتها ، وأنسابها وشياتها) إلى ص ٣٥٢ ثم : (باب في البر ، والإبل والظعن ، والبحر والمراكب والسفن) إلى ص ٤٠٢ حيث ينتهي هذا القسم المطبوع . وهناك قسم آخر مُعدّ للطبع [1]

---

(١) هذا عن المطبوعة الكويتية ، وقد طبع الكتاب أخيراً في بغداد كاملا .

وقد قام بتحقيق هذا القسم الدكتور السيد محمد يوسف أستاذ اللغة العربية في جامعة كراتشي في (باكستان) ومن تلاميذ العلامة الجليل الشيخ عبد العزيز الميمني ، وراجعه الأستاذ عبد الستار أحمد فرّاج ، ونشرته (وزارة الإعلام ، في الكويت) فكان الحلقة التاسعة عشرة ، من حلقات سلسلة كتب التّراث التي نشرتها الوزارة فجاء في ٤٠٦ من الصفحات ، وصدر هذا العام (١٣٩٧ - ١٩٧٧ م) وطباعة الكتاب من حيث الورق والحروف ممتازة ، والتحقيق حسن ، بذل في سبيله من الجهد مابرز أثره في كل صفحة من الصفحات .

* ـ كتاب الملمع :

وهذا من كتب التّراث التي لم يسبق نشرها ، قام (مجمع اللغة العربية بدمشق) بطبعه بتحقيق الأستاذة الفاضلة وجيهة أحمد السطل ، وقالت في المقدمة : (حُبِّبَ إليّ أن أشارك في شرف العمل على تحقيق تراثنا الأدبي اللغوي ، فاخترت مخطوطاً في اللغة ومفرداتها وهو كتاب « الملمّع في اللغة » لمؤلفه الحسين بن علي النّمَري [1] (٣٨٥هـ) وهو بمثابة معجم صغير لألفاظ الألوان في اللغة) .

وقد جاء هذا الكتاب في ١٢٨ صفحة عدا المقدمة الواقعة في نحو ٢٤ صفحة ، وأثر المحققة الفاضلة بارزٌ في كل صفحة ،وجهدها لاينكره إلا من يجهل العناء الذى يلاقيه محققو المخطوطات النادرة . وقد صدر سنة ١٣٩٦ (١٩٧٦) .

---

(١) أشارت مجلة العرب السنة التاسعة ص ٢٦٦ فى ترجمة أبي محمد الأسود الغندجاني إلى النمرى هذا لأن الأسود ألف كتاباً دعاه « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله الحسين بن على النمرى مما فسره من أبيات — أى من حماسة أبي تمام » .

* ـ كتاب « أدب القضاء » :

يعنى (مجمع اللغة العربية بدمشق) ابنشر آثار علماء الشام ، ومن آخر ماشر كتاب أدب القضاء واسمه « الدرر المنظومات ، في الأقضية ، والحكومات » لإبراهيم بن عبد الله بن أبي الدم الشافعي ، الحموي المتوفي سنة ٦٤٢ .

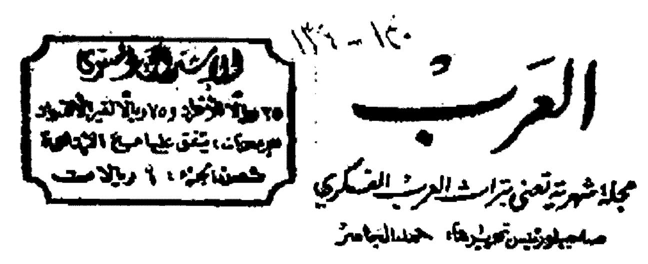
وقد حققه الدكتور محمد مصطفى الزحيلي في كلية الشريعة من جامعة دمشق فجاء في مجلد ضخم بلغت صفحاته ٧٥٧ صفحة، وموضوع الكتاب فقهيٌ ، أكثر منه أدبياً . وصدر في سنة ١٣٩٥ (١٩٧٥م) .

* ـ ديوان طرفة بن العبد بشرح الشنتمرى :

يقول المحققان اللذان قاما بنشر « ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنْتمري » في المقدمة : (قد يعترض معترض فيقول : لِمَ الإقدام على طبع ديوان طرفة وقد طبع مستقلا ، وفي مجاميع ، مرّات ومرّات ؛ ونُشر له أكثر من شرح واحد ، للأعلم ولغيره ؟ !

نقول : إن كنا نقدم للقراء طبعة جديدة من ديوان طرفة فإنما نبتغي نشر شرح الأعلم الشنّتمري له ، ذلك الشرح الثمين الذى يعتبر كنزا من كنوز التراث العربي ، ولم يصدر من هذا الشرح سوى مطبوعتي برلين وسلكسون .. وفضلا عن ذلك فإن الطبعتين المذكورتين غير متيسرتين).

والواقع أن جهد المحققين الفاضلين دريّة الخطيب ولطفي الصقّال في عمل هذا الشرح جهد عظيم ، تجسّم في مجلد بلغت صفحاته ٣٨٦ شروحاً وإضافات وفهارس ، بالإضافة إلى المقدمة التى وقعت في ٢٢ صفحة مطبوعاً سنة ١٣٩٥ (١٩٧٥م) ويضاف إلى هذا مااتصفت به منشورات (مجمع اللغة العربية بدمشق) من جودة وحسن إخراج .



ج٧و٨ س ١٢ محرم وصفر ١٣٩٨هـ ــ ك٢شباط (يناير/فبراير١٩٧٨م)

في المعجمات البلدانية

عُني العرب القدامى عنايةً خاصة بالبلدان فكانوا من أوائل من كتب في (الجغرافية الوصفية) كما يُصطلح عليها الآن . لقد صنفوا مصنفات كبيرة مفيدة ، فقدموا للدارسين الباحثين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي مادة ذات فائدة عظيمة . ولا أريد أن أعرض لتلك المعجمات بل دوائر المعارف التي اضطلع بكل منها عالم انصرف إلى العلم فقدم ما قدم . وكانت تلك المطولات بعضاً مما عني به فلان وفلان . لقد صنف ياقوت في موضوعات عدة كانت مادة البلدان إحداها ، ومثله الجُلّة من العلماء الذين عرفنا مصنفاتهم البلدانية .

غير أني رأيت كثيراً من هذه المصنفات مادة لغوية وأن أصحابها من المعنيين باللغة وإعادة المعجمية . ثم إنهم إلى جانب هذا الاختصاص اللغوي أدباء معنيون بتاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وما خلفوا من مصنفات شعراً أو نثراً .

أريد أن أقول : إن جمهرة من هؤلاء لم تكن الثقافة البلدانية بل قل الجغرافية إلا شيئاً من لوازم تلك الاختصاصات اللغوية والأدبية . ولا أريد أن يشمل رأيي هذا سائر أصحاب البلدان ذلك أن طائفة منهم (جغرافيون)

على نحو ما يفهم من (الجغرافيا) في عصرنا هذا ، فقد جاسوا خلال الديار ، وعاشروا أهلها ، وفطنوا إلى كثير من عاداتهم وأخلاقهم ونحليهم ، ثم وصفوا البلاد وصفاً طبيعياً ، فسجلوا صفات الأرض ، وما يعترضها من سهل وجبل وصحراء ورمال ، وما يضطرب فيها من حيوان وأناسي ، وما ينبت فيها من نبت أو شجر . فأى جغرافية في عصرنا هذا تبتعد عن هذه المواد ؟

غير أني أشير إلى النفر الآخر الذي حملت عليه هذه المواد ، وهو مشغول بمادة لغوية وأدبية .

ويستطيع الباحث أن يدرج معجمات اللغة في عداد مصادر البلدان ، فأنت تجد أن مجد الدين الفيروزابادى صاحب « القاموس المحيط » قد جعل من مواد معجمه طائفة ضخمة من المواضع والمدن والقرى والبلدان ، ولا تعدم أن تجد فيه شيئاً يتصل بالجبال والأنهار والعيون .

وأنت تستطيع أن تجد مثل هذا في سائر المعجمات اللغوية كـ «الجمهرة » و « اللسان » و « التاج » وغيرها .

ولا يفوت الباحث في تاريخ الجغرافيا عند العرب أن يطلع على مواد « المخصص » لابن سيده الأندلسي ، فقد أدرج في معجمه أشياء كثيرة تتصل بالجغرافيا الطبيعية . إنك واجد في « المخصص » فصولا عرض فيها ابن سيده للأرض وأصنافها وخصائص كل صنف . فإذا كانت الأرض مما يتوفر أغلبها على الرمال كانت كيت وكيت وإن لها فى العربية ألفاظاً عدة هي كذا وكذا ، وإذا كانت صلصالاً خالصاً كانت كيت وكيت ، وإذا كانت بين هذا وذاك كان لها مكان في اللغة .

ولم يكتف بهذا فكان يشير إلى أن هذا الصنف من الأرض يصلح لأصناف معينة من الزرع والشجر . وأنت واجد في هذه الدائرة العلمية مادة تتصل بالجبال وأصنافها ودرجاتها ، وبالصحارى وما يضطرب

فيها من وحش وطير وهوام ، وبالبحار وعالمها الواسع الفسيح ، وبالأنهار والعيون والآبار وسائر ما اشتملت عليه الأرض .

هذه المواد الجغرافية التي تجاوزت مادة البلدان مما حفل به « المخصص » وهو كتاب لغة . وقد يتجاوز هذا القدر من المعلومات إلى شيء آخر من المعلومات التي هي شركة بين علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم (الجغرافيا) . إنه عُني بالصخور والأحجار وأصنافها وما تحمله من معادن نفيسة وخسيسة كما يقولون .

لقد أغفل الباحثون في الجغرافية وغيرها في عصرنا هذا السفر النفيس فلم يقربوه ، ولم يتخذوا منه مصدراً للمادة الجغرافية التاريخية ولا سيّما حين يعرضون لتاريخ الفكر الجغرافيّ وتطوره عند العرب .

ولكني أرجع إلى الطائفة الأولى من البلدانيين فأشير إلى أنهم افتقروا إلى كثير من التدقيق والضبط . ألا ترى أنهم أدرجوا في تلك المطولات مادّةً غفلاً من أية فائدة واكتفوا بأنها (موضع) كذا ؟ ! إن طائفة من هذه المواضع مما التمسوه في الشعر كأنهم وجدوا أن (موضع كذا) قد ورد في شعر ذي الرّمّة فقالوا : (موضع) واستشهدوا بالبيت الذي ورد فيه ومثل هذا كثير .

ثم إن طائفة منهم قد كررت ما أثبته من سبقهم من المتقدمين فلم يعرّفوا الموضع أو المدينة أو المكان . وهذا ربما جرّ إلى أن الخطأ الذي وقع المتقدمون فيه قد أثبته من خلفهم من المصنفين . ولعلهم أشاروا إلى مدن وقرى عفّى عليها الزمان ولم يبق لها وجود ، ومثل هذا كثير .

وإذا عرفنا أن هذه الأعمال الجبارة قد قام بكل منها مصنف واحد

فلم يشاركه أحد في العمل ،أدركنا أن السهو والخطأ والوهم لابد أن يَعْرِضَ ، ويكون له مكان في هذه المطولات الكبيرة .

لقد حفزني إلى أن أكتب هذه النبذة الموجزة في (المعجمات البلدانية) ما قرأته في الجزء (١) و (٢) من مجلة العرب لسنة ١٩٧٧ في إشارة لأحد قرائها الأفاضل بعنوان (حول مقدمة المعجم الجغرافي) .

وصاحب هذه الإشارة محمد بن ابراهيم اليوسف صاحب (مؤسسة المُسْتَوِي لبيع وصناعة الخيام) في الرياض. تكلم فيها عن (أبو عُشَر) الذي جاء في المعجم في ص ٥٦٤ وهو وادٍ فيه هجرة لقبيلة مُطَيْر بالمُسْتَوِي ، في القصيم . وقد صحح الكاتب هذه المادة فقال : والصحيح غير هذا وهو كيت وكيت . . .

وتكلم على موضع أمّ بَقَرٍ وأمّ سُدَيْرَة ، وقد صحح فيهما ما جاء بحقهما في « المعجم » .

أقول : حدث هذا في هذا العصر ، عصر السرعة والتدوين والضبط والإتقان وتوفر ما يعين على إحراز الصدق والأمانة . فكيف يتأتى لنا أن نُحْرِز الفوائد العلمية في مصادرنا القديمة ؟ ! إننا ندرك كيف صنفت تلك المصادر وجمعت واعتمد فيها على رواة من هنا وهناك فكانت لنا هذه النتائج التي نعتمد عليها ، ونحلها محلا كبيراً في دراساتنا مع إجلالنا لأصحابها وأنهم الغُرُّ الميامين في تاريخ هذه الأمة الكريمة .

أقول أيضاً : ألَمْ يَحِن الوقت إلى أن ينهض لإنجاز المعجمات في عصرنا جماعة من أهل الاختصاص ولا ينفرد بذلك رجل ، وإن كان من أهل الفضل ؟ ولست أريد أن أنال من صاحب المعجم — معاذ الله — ولكني أقول إن منهج العلماء في الأمم التي سبقتنا في النهوض هو الذي ألمحت إليه .

بغداد — كلية الآداب

الدكتور ابراهيم السامرائي

من جبال القصيم

القنان الموشم

بضم الميم الأولى فواو مفتوحة فشين مشـــددة مفتوحة أيضاً فميم ثانية في آخره . على صيغة اسم المفعول من وشمه يعني جعل فيه وشماً وهو العلامات الملونة على الجلد في الأصل .

وهو جبل بل سلسلة جبال سود ، وفيها هضاب حمر ، وأخرى تميل إلى الحمرة مع غلبة السواد عليها ، وأخرى تتألف الواحدة منها من اللونين الأسود والأحمر ، واقع في الشمال الغربي من القصيم ، ولبعض جباله برقة مشهورة .

يمتد من (بُقَيْعا اصيبع) جنوباً حتى ينتهي شمالا (بأم العراد) قرب جبل حبشي أما في جهة الغرب فإن آخره هو (مطيوي الموشم) وفي الشرق منه يقع وادي الفويلق ثم الجرثمي (جُرْثم قديماً) والرديهة والغيمار وكل ذكرناه في موضعه من هذا المعجم .

ويمكن أن يقسم الموشم إلى ثلاثة أقسام من حيث اللون فوسطه هضاب تميل إلى الحمرة وشرقيه سلسلة جبال سوداء ، وشماليه جبال سوداء أيضاً وفي بعضها تلوين في حجارتها . وتلوّن حجارته هو السبب في كونه سمي الموشم تشبيهاً له بجلد الإنسان الذي فيه وشوم .

أخذته العامة لأن لون صخوره ليس واحداً .

وهو من أكبر الجبال في تلك المنطقة إذ يمتد من الشمال إلى الجنوب حوالي مسيرة يوم للإبل . وفيه مراتع جيدة كان أمير الفوّارة ابن نحيت يحميها لخيل المجاهدين من (الاخوان) في الزمن السابق ، وتقع بلدة الفوارة منه جهة الجنوب .

واسمه القديم هو (القنان) ذلك الجبل الذي تردد ذكره في نصوص

كثيرة تكلمت على مواضع هذه المنطقة ما بين نثر وشعر . وهذه هي الأدلة على ذلك ، ونظراً إلى أن القنان جبل عظيم ، وصفه الأقدمون بأنه مضب ، ووصفت أطرافه بالشماريخ وهو واقع في منطقــة ذكر القدماء الأماكن الصغيرة بها وهي منطقة ديار بني أسد بل نَصَّ لُغدة على أنه في اصطمة بلاد بني أسد أي في وسطها كما سيأتي فلا يعقل أن يغفل المتأخرون اسمه إغفالا ، وإذن لابد من أن يكونوا قد أسموه باسم آخر . فما هو ذلك الاسم ؟ .

لا يمكننا أن نعرفه إلا إذا نقلنا كلام المتقدمين عن القنان ثم طبقنا أوصافه على الجبل الذي تنطبق عليه . وهذا ما فعلته حتى وصلت إلى رأي جزمت به وأنه هو الجبل الذي يسمى الآن : (الموشّم) . . .

قال الإمام لغدة الأصبهاني بعد أن عدد جبالا يمكنك أن تراها إذا أشرفت رامة — أي علوت عليها — (وتنظر من رامة (القنان) وهو أبعدها وهو جبل في إصطمة بلاد بني أسد . وفيه يقول نهشل بن حَرِّيّ :

ضمن (القنـان) لفقعس سوءاتها إن (القنان) لفقعس لمعمر [1]

والجبال التي ذكر أنها ترى من رامة وأن القنان هو أبعدها هي: خزاز، والأنعمان ومتالع . وأبانان وقطن . وساق . وهي جبال كلها باقية بأسمائها القديمة ما عدا الأنعمين ومتالع فقد تغير اسم الأنعمين — بالتثنية — إلى اسم . . القشيمين — بالتثنية أيضاً . وتغير اسم (متالع) فأصبح يسمى (أمّ سُنون). . كما شرحت ذلك في موضعه .

وكل هذه الجبال تقع في المنطقة التي يمكن أن يراها من يعلو رأس (رامة) التي هي معروفة مشهورة باقية باسمها القديم .

والواقع أن (الموشم) هو أبعدها عن رامة ، وهو واقع في وسط

---

(١) « بلاد العرب » ص ٣٨٨ ، ومعمر : ملجأ .

بلاد بني أسد القديمة ، وكان لبني فقعس منهم . ويستطيع الرجل العادي البصر أن يرى الموشم من ظهر رامة إذا كان الجو صافياً .

وقال الإمام الهجرى : (حبشي : جبل أسود إلى جنبه القنان ، أسود أيضاً [1]) أقول : حبشي لا يزال معروفاً باسمه القديم ، والذي بجانبه إلى جهة الجنوب والجنوب الشرقي هو الجبل الذي يسمى الآن (الموشم) . فدلك ذلك على أن (الموشم) هو القنان في القديم .

وقال ياقوت : (القنان ، بالفتح وآخره نون ، : علم مرتجل ، قال أبو عبيدة السكوني : إذا خرجت من حبشي : جبل يمنة عن سميراء سرت عقبة ، ثم وقعت في (القنان) وهو جبل فيه ماء يدعى العسيلة ، وهو لبني أسد) .

أقول وهذا هو الواقع بالنسبة للموشم فإنك إذا جزت جبل حبشي الذي لم يتغير اسمه وهو بالفعل جهة اليمين من عن قرية سميراء التي لم يتغير اسمها ، ذلك بالنسبة لمن يكون قادماً من الحجاز أو يسير على طريق الحاج عائداً إلى الكوفة فإنك تصل إلى عقبة على هيئة مكان مرتفع ثم بعد المرتفع تجد منخفضاً بعده جبل الموشم الذى هو القنان قديماً تماماً كما وصف أبو عبيد الله السكوني رحمه الله جبل القنان به .

وقال ياقوت : (جرثم : ماء لبني أسد ببني القنان وترمس) . أقول جرثم يسمى الآن (الجرثمي) كما تقدم في حرف الميم وهو واقع فعلاً بين الترمس الذى لم يتغير اسمه وبين الموشم . فدلك هذا على أن الموشم هو القنان قديماً . ويؤكد ذلك ما ذكر أبو سعيد السيرافي من أن جرثم من مياه بني أسد ثم بني فعقس [2] ، أي أنه والقنان القريب منه كلاهما لبني فقعس من بني أسد .

---

(١) «أبو على الهجرى وأبحاثه في تحديد المواضع» ص ٢٣٠ .

(٢) البكرى : رسم جرثم .

وقال البكري : بلاد بني أسد : الجلس والقنان ، وأبان الأبيض . وأبان الأسود إلى الرمة [1] .

فقرن ذكر القنان بذكر أبانين ، وهما ما هما في الشهرة والكبر مما يدلك على عظمه وقربه منهما وهذا هو الواقع بالنسبة إلى (الموشم) . إلا أنَّ كلمة (الجلس) . فيه محرفة عن — (الحبس) — وهو أحد جبال بني أسد المشهورة التي تغيرت أسماؤها فأصبح يسمى الآن (سمار بقسيعا) وموقعه قريب من موقع الموشم .

والدليل على أن الكلمة محرفة هو أن الجلس : اسم من أسماء نجد ، وليس اسم جبل في بلاد بني أسد فلم يرد ذكره في الجبال وإضافة إلى أن الحبس جبل مشهور عند القدماء في تلك المنطقة ورد ذكره في نصوص كثيرة مابين شعرية ونثرية . وبدليل أن العبارة نفسها أوردها ياقوت نقلا عن الأصمعي صحيحة أي بلفظ (الحبس) لا الجلس [2] .

ثم قال البكري : إلى الرمة : ويريد وادي الرمة المشهور الذي يقع مجراه بين جبلي أبان إلى جهة الجنوب من الموشم .

وقد ورد في شعر زهير بن أبي سُلمى مايدل دلالة قطعية على أن القنان هو الموشم . حيث ذكر ظعائن — وهي النساء ، في الهوادج تحملن من أعلى جرثم (الجرثمي الآن) وهو معروف الموقع فبكرت بسحرة عامدات للرَّسّ الذي يقع إلى الجنوب الغربي من جرثم ومن يذهب إلى الرَّسّ منه فإنه يجعل الموشم عن يمينه كما يعرفه كل من عرف الجرثمي والرَّس اللذين لايزالان معروفين قال زهير [3] .

تبصر خليليْ هل ترى من ظعائنٍ ... تَتَحمَّلن بالعلياء من فوق جُرثم
بكَرْنَ بُكوراً واستحرن بسَحرة ... فهن ووادي الرَّسِّ كاليد للفم

---

(1) معجم ما استعجم ج ١ ص ١٣ (المقدمة)
(2) معجم البلدة : وسم .. الحبس ..
(3) ديوانه ص ٩ — ١١

جعلن (القنان) عن يمين وحزنه وكم بالقنان من محل و محرم

قال أبو أحمد العسكري في تفسير البيت الأخير: يظنه من لايعلم من الإحلال في الحج والإحرام ، وإنما أراد من له عهد أو ذمة ، أو جوار له حرمة من أن يعاب عليه ، فهذا محرم، أي لم يحل من نفسه شيئاً يوقع لديه . يقول : كل من يحل غزوه ولايحل [1]

أقول : على أية حالة فسر البيت فإنه يدل على أن في القنان سكاناً كثيرين فى زمن زهير .

وهذا بعض ماجاء من الشعر في القنان :

قال لبيد [2] :

كأن قتودي فوق جأب مطرد يُفيزُ نحوصاً بالبراعيم حائلا [3]
رعاها مصاب المزن حتى تصيفاً نعاف القنان ساكناً فألاجاولا [4]

فقرن ذكره بذكر البراعيم التي قال عنها لغدة : إنها أعلام صغيرة قريبة من أبان الأسود [5] ومعروف أن أبان الأسود هو الشمالي من (أبانين) ولاتبعد البراعيم عن الموشم إلا بمسافة تقارب ٤٥ كيلا .

وقال الشماخ [6] :

تربع أكناف (القنان) فصارة فأيل فالماوان فهو زهوم

فقرن ذكره بذكر (صارة) التي هي ليست بعيدة من الموشم والتي كانت مشهورة في القديم ولا تزال مشهورة باسمها القديم

---

(١) شرح مايقع فيه التصحيف ص ٢٦٧ .

(٢) ديوانه ص ١١٣ — ١١٤ والشرح منه

(٣) الجأب : حمار الوحش الغليظ ، ومطرد : متتابع السير . يفزأى يثير والنحوص : الأتان الحائلة . والبراعيم : أعلام صغار قرب أبان والحائل : التي لم تحمل .

(٤) مصاب المزن : مسقط الغيث والنعاف ماانحدر من السفوح .

(٥) بلاد العرب ص ٦٧ .

(٦) البكرى ، أيل ، وانظر تخريج البيت وروايته فى ديوان الشماخ ص ٢٩٩ .

وقرن زهير ذكره بذكر عدة أماكن في تلك المنطقة هي ثادق (ثادج). ورقد الذى ينطبق وصفه على الرحا .. وذكر القنان بواديه وهضبه ومداخله مما يدل على سعته كما هو « الحال » بالنسبة للموشم قال :

فهضب فرقد فالطويّ فثادق　　　فوادي القنان هضبه فمداخله [1]

وقال تميم بن أبَيّ بن مُقْبِل [2] :

سلكن القنان بأيمانها　　　وساقًا وعرفة ساقِ شمالا

فقرن ذكره بذكر ساق الذي يسمى الآن (ساق الجواء) وهو يقع إلى الشرق من الموشم وبعرفة ساق التي تسمى الآن (شرفة ساق) ومن يسير عائداً إلى بلاد بني العجلان من بني عامر وهم رهط الشاعر ، ويكون متجهاً إلى جهة الجنوب الغربي أو الجنوب فإنه يجعل الموشم الذي هو القنان بيمينه ، وساقاً وعرفة ساق بشماله تماماً كما قال الشاعر.

وقال أوس بن حجر من أبيات تقدم ذكرها في رسم (أبان) :

تشوبُ عليهم من أبانٍ وشُرمةٍ　　　وتركب من أهل القنان وتفزع

فقرن ذكره بأن المشهور وبشرمة وهو جبل لايزال محتفظاً بأسمه القديم ويقع إلى الشرق من قرية (سَميْراء) في الجهة الشمالية من القنان (الموشم حالياً) .

وقال زيد الخيل الطائيّ رضي الله عنه [3] :

وأحللتكم من لبْن داراً وخيمة　　　وكنتم بأطراف القنان بمرتع
فخرتم بأشياخ أصيبوا بخنعة　　　وتنسون شباباً (أتيـمُوا) بضلفع

فذكر أطراف القنان مما يدل على عظمه ، وقرن ذكره بذكر ضلفع (الضلفعة) الآن وتقع إلى الشرق الجنوبي من الموشم .

---

(١) شرح ديوان زهير .
(٢) راجع رسم : ساق : والبكرى : السوبا .
(٣) راجع رسم الضلفعة .

كما ذكر زهير بن أبي سُلمَى القنان وقرن ذكره بذكر صارة التي تقع إلى الشرق منه كما سبق في حرف الصاد [1]

تربَّع صارةً حتى إذا ما
فَنَي الدُّحلانُ عنه والإضاءُ

ترفَّع لِلْقنان [2] وكلّ فجٍّ
طباهُ الرّعي منه والخلاءُ

ويروى : تقيّظ بالقنان .

ومعلوم أن الموشم أعلى من صارة وإذن نرى أن الصواب تَرفَّع للقنان .

وقال أيضاً [3] :

فبهضبٌ فرقد فالطَّويُّ فثادقٌ
فوادي (القنان) حَزْنُه فمداخِلُهْ

فقرن ذكره بهضب الذي يسمى الآن الهضوب إلى الشمال من الترمس [4] ورَقْد الذي هو جبل الرّحا الآن. وثادق ، الذي هو (ثادج) الآن . وهذه كلها يمكن قرنها بجبل الموشم لأنها في المنطقة نفسها .

وقال زهير أيضاً [5] :

دَعها وسلِّ الهمَّ عنكَ بجسرةٍ
تنجو نجاء الأخدري المفرد [6]

---

(١) ديوانه ص ٦٥ - ٦٦ وتقدم شرحها في رسم (صارة) .

(٢) هذه رواية الأعلم الشنتمرى كما فى حاشية الديوان أما فى الأصل فهو (تربع بالقنان) .

(٣) ديوانه ص ١٢٧ .

(٤) لم نفرده برسم خاص له لأنه تابع للمنطقة التابعة لحائل وانظر (هضب الوراق) فى قسم « شمال المملكة » من « المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية » .

(٥) ديوانه ص ٢٧٠ .

(٦) الجسرة : الناقة السبطة الطويلة . والاخدر : حمار وحشى ، نسبة إلى أخدر وهو فرس ... فيما يقال ... من الحمر ، فنسله معروف ، والمفرد : الفرد . أى : أنه وحده .

كمُصلصِل يَعْدو على بَيدانة
حقباءَ من حُمر (القنان) مشرد

قال شارحه الإمام ثعلب رحمه الله : يعني كمير مصوّت وهو المصلصل، وبيدانة يعني أتاناً وحشية . وحقباء في موضع الحقيبة منها بياض [1]

والقنان : جبل لبني أسد ، ومُشرَّد : مُطرَّد .

وقال [2] :

لسَلْمَى بشرقي (القنان) منازل ورسم بصحراء اللُّبَيَّيْن حائل

وكما ذكر زهير بن ابي سَلمى القنان (الموشم) ذكره ابنه كعب بن زهير في أكثر من قصيدة من شعره ولا غرو إذا عرفت أن منازلها كانت في بلاد غطفان في مبهل الذي هو الحلاني الآن كما تقدم وفي الحاجر الذي لايزال معروفاً وكلاهما لايبعدان عن الموشم بأكثر من ٧٠ كيلاً .
إلى جهة الغرب .

قال كعب بن زهير : [3] :

جعلن القنان بإبط الشمال
وساق العُناب[4] جعلن اليمينا
وبَصْبَصْنَ بين أداني الغضا
وبين عُنيزة شأواً بطينا

فذكر حمراً وحشية يقودها حمار لم يكن من ثادق (ثادج) يحتسين الماء وأنهن جعلن القنان (الموشم) إلى الشمال منهن ، وساق العناب الذي هو (الأصبعة) كما سبق في هذا الرسم إلى اليمين ، ثم انصرفن بين أداني

(١) الحقباء : هذه الكلمة لاتزال مستعملة لهذا المعنى فى العامية النجدية .
(٢) ص ٢٩٢ وشرحناه فى رسم « البيد » من معجمنا هذا .
(٣) ديوانه ص ١٠٢ وتقدم شرحها فى رسم (ثادج) .
(٤) فى الأصل فى الديوان (وماء العناب) وقد أثبتنا رواية البكرى لأننا نعتقد أنها هى الصحيحة .

الغضا وبين عنيزة شأواً أي شوطاً بعيداً في ذلك في منطقة خبوب بريدة الغربية إذ ذلك كان منابت الغضا في القديم .

وقال أيضا : في حمار وحشي [1] :

يرتعي بالقنان يقرو أريضاً
فانتحى آتناً جدائد نورا [2]

ثم قال أبياتاً في وصفه ، ثم بين كيف وصل إلى القنان :

جعل السَّعد والقنان يمينا
والمرورات شامةً وحفيرا [3]

وهذه الأماكن التي هي السعد والمروراة وحفير في أعلى عالية نجد .

ثم بيَّن أنه فعل ذلك [4] :

عامداً للقنان ينضو رياضاً
وطِراداً منَ الذِّنابِ ودورا [5]

ونعتقد أن كلمة القنان في البيت الذي قبله والذي قرن فيه بالسعد محرفة إذ كيف يجعل السعد والقنان يمينه ثم ينضو رياضاً أي يجوزها عامداً للقنان .

ويهمنا أنه ذكر موضعاً معروفاً لنا الآن باسمه وهو المروراة وبينه وبين القنان حوالى ثلاثة أيام للإبل وأن حمار الوحش القوي الذي ذكره أخذ يجوز رياضاً ومياهاً ودوراً من دارات الرمل وهو عامد للقنان : أي قاصد له ، حتى وصله .

---

(١) ديوانه ص ١٧١ .

(٢) يقرو : يتبع . والآتن : جمع أتان . والجدائد اللواتي لا لبن لهن ، والنور : النوافر .

(٣) السعد : ماء على طريق المدينة ، ومروراة : جبـل لا يزال معروفاً باسمه بمنطقة إمارة المدينة في أقصى الحدود الشرقية لها . وشامة أي عن شماله .

(٤) ديوانه ص ١٨١ .

(٥) ينضو رياضاً يجوزها . والطراد : مياه لم يدر ماواحدها . وروى الأصمعي : وصماداً وواحد الصماد : صمد وهو المكان الغليظ لا يبلغ أن يكون جبـلا .

وقال كعب أيضاً [1] :

ألـمَّا عـلى ربـع بـذاتِ المذاهـرِ
مُـقيـمٍ كـأخـلاف الـعـبـاءة داثـر [2]

تُراوِحـه الأرواحُ قـد سـار أهـلـه
ومـا هـو عـن حـي الـقـنـان بـسـائـر

وذكر طفيل الغنويُّ (القنان) وقرن ذكره بذكر صارة الّتي لاتزال معروفة بل ذكر عبارة تكاد تقطع بأن المراد بالقنان هو الجبل الذي يسمى الآن الموشم قال [3] :

فـلـمّا بـدا حـزم الـقـنـانِ وصـارةٌ
ووازن مـن شـرقـيّ سَـلـمـى بـمـنـكـبِ

أنـخـنـا فـسـمـنّاهـا الـنـطـاف فـشـاربٌ
قـلـيـلا ، وآب صـدّ عـن كـل مَشرب

فذكر إلى جانب قرن القنان بصارة (سلمى) التي لاتبعد كثيراً عن الاقمين إلى جهة الشمال والتي هي أحد جبلي طيء .

ويدلُّ على ذلك أن الأصبهاني ذكر أن طفيلا أوقع بطيىء في معركة حدثت بين شرقي سلمى والقنان [4] .

وأورد له أبو أحمد العسكريُّ بيتاً ذكر فيه القنان ، وذكر فيه اعتذاره عن فراره ، ولعل لذلك علاقة بالموقعة التي ذكرها الأصبهاني .

---

(١) ديوانه ص ١٨٥ .

(٢) ذات المزاهر هي موضع غير معروف لنا شبه الرسم بأخلاق العباءة أي قديمها .

(٣) ديوانه ص ٢٨ .

(٤) كذا الأصل حزم « وفي رواية الأخفش « هضب » ولعله الصحيح لأن الهضب هو الذي يبدو على البعد وليس الحزم ، وهكذا أنشده الهمداني « هضب » صفة جزيرة العرب » ص ٢٢٠ طبع (دار اليمامة) .

قال طفيل [١] :

وإن يكُ عاراً بالقنان أتيته

فراري فإن الجيش قد فرّ أجمع

وهذا شاعر أسدي مشهور بولايته على بني أسد في آخر القرن الثاني الهجري قرن القنان بصارة أيضا مما يدل على أنه الموشم .. بل ذكر خراطيم القنان والموشم جبل ذو خراطيم كما هو معروف وهذا الشاعر هو محمد بن عبد الملك الأسدي [٢] :

وهل تبدون لى بين عرفة صارة

وبين خراطيم القنان حُدُوجٌ

شعر عامى :

وقال شاعر عامى بدوي ملغزاً في اسم محبوبته (نورة) وذكر الموشم .

من اسمه اليا بان قنديله

نلزم به الصوم ونصلي [٣]

صوب (الموشم) مداهيله

مشكور وهذا وطن خلي [٤]

وقال الشاعر ابن غازى الشمريّ [٥] :

أمس الضحى عدَّيت رأس المنيف

وأصبحت من رقي الرجوم تعبلني

أخيل مظهورَ الحبيّب يهيف

بأيسر قطن بين الموشم وابان

---

(١) الأغاني ح ١٥ ص ٢٥٢ (دار الكتب) .

(٢) « شرح مايقع فيه التصحيف » ص ٣٠ .

(٣) ياقوت عرفة صارة .

(٤) عرفة صارة تسمى الآن عرفة صارة وتقدم ذكرها .

(٥) اليا : إلى . أى : إذا بان قنديله لزمنا أن نصوم ونصلى الفجر أى النور .

(٦) مداهيله : المكان الذى يتردد إليه ويقيم فيه .

(٧) تقدم شرحها فى رسم قطن .

وهم :

قال الشيخ محمد بن بُليهد رحمه الله وهو يتكلم على أماكن في الجوا : الموشم باقٍ بهذا الاسم إلى اليوم واسمه في الجاهلية (موشوم) قال عبدالله بن الصِّمَّة :

أُسقي الأجارع من نجدٍ فخُص به
سعدٌ فبطنُ بليات فموشوم

وقال جرير :

وابني شريك شريكِ اللُّؤْم إذ نزلا
بالجزع أسفل من أطواءِ موشوم

ياقبَّح الله عبداً من بني لجإ
يأوى إلى نسوة رضع مداريم [1]

أقول : الموشم واقع في بلاد بني أسد ولم نجد نصاً على أنه كان لهم موضع باسم موشوم أما النصان الشعريان فاولهما لعبد الله بن الصمة وهو في موضع آخر اسمه موشوم ليس له علاقة بالقصيم نقله ياقوت عن الحفصي فقال : قال الحفصي : موشوم : جبل وعنده قرية وهو لبني سحيم قال عبد الله بن الصمة – ثم ذكر البيت – وبنو سحيم من بني حنيفة . ومساكن بني حنيفة كانت في العارض، إلى جانب أن الذي أورده هو الحفصي وهو ألف كتابه في مواضع اليمامة وأين اليمامة من الموشم في غرب القصيم الشمالي ؟ !

وأما النص الشعرى الثانى فهو فى موضع آخر ذكر ذلك ياقوت عن السكوني قال ياقوت : موشوم : اسم المفعول من الوشم ، وهي العلامة : والشيء موشوم وهو اسم ماء لبني العنبر بالفقي قاله السكوني في قول جرير ثم أورد البيتين .

أقول : بنو العنبر من بني تميم وبلادهم في سدير والفقي في سدير كما هو معروف قديماً وحديثاً فأين ذلك من الموشم في غرب القصيم ؟

الرياض

محمد بن ناصر العبودي

---

(١) صحيح الأخبار ج ١ ص ٢٩ .

الخيل في حياة زيد الخيل

يابني الصيداء ردوا فرسي
إنما يفعل هذا بالذليل
عودوا مهري الذي عودته
دلج الليل ، وإيطاء القتيل
واستباء الزق من حاناته
شائل الرجلين معضوباً يميل ..

أورد الأصفهاني ، هذه الأبيات الرائعة الجميلة ، المنسابة ، صوتا من أصواته ، أو أغنية من أغانيه السائرة ، في كتابه الفريد « الأغاني » ثم قال كعادته : (الشعر لزيد الخيل الطائي والغناء لمخرز ..) [1] إلخ ..

ثم انطلق بعد ذلك يتحدث عن زيد الخيل ، ويعرفه .. ويذكر طرفا من أخباره وأشعاره ..

وإذا أخذنا نتأمل هذه الأبيات الجميلة التي أخذت طريقها إلى مجالس الغناء ، ودارت على لهوات الفنانين من مغنيات ومغنيين ، وانسابت مع الألحان والمعازف ــ لم نجدها كالعادة تتحدث عن جمال امرأة ، أو تتغزل في مفاتنها .. ولكننا وجدنا محورها فرسًا .. مجرد مهر .. ولكن يبدو أن هذا المهر عزيز جدا على صاحبه . رفيع المكانة لديه . لم لا ؟ وهو من خيل زيد الخيل بل زيد الخير . وزيد الخيل شديد العناية بالخيل ، كبير الشغف بها ، لا يفتأ يلهج بذكرها ، ويدللها ويعنى بها أيما عناية .. ولا أدل على ذلك من أبياته هذه .. فهو يقول لنا فيها : إن مهره هذا ليس مهرا عاديا .. فقد رباه تربية خاصة . ودربه تدريبا معينا .. فهو يركض في الليل ، ويدلج ساريا في الليالي المعتمة . لا يبالي بما يصادفه في سبيل ذلك من وعورة درب .. أو عوائق طريق . يصعد الجبال ، ويهبط الوهاد ..

(١) وغريب من البكري أن ينسبها لعمرو بن معدي كرب « معجم مااستعجم » رسم (الحلوى) .

بل لقد اعتاد على شيء أكثر دلالة على الجرأة والإقدام ، لقد تدرب على أن يطأ القتلى ليقضي فيهم على الأنفاس الأخيرة ، إنه حصان محارب جبار ..

ومع كل ذلك فهو أيضا مهر طروب ، أو أنه يشارك صاحبه أيضا ساعات لهوه هو وضيوفه .

وواضح أن هذه الأبيات لزيد الخير إنما قالها في جاهليته ، ماضيا فيها على ما ألِفَتِ الجاهلية من حياة فيها من حرب ، وفيها من لهو وقصف ..

إذن وما دام زيد بن مهلهل ، شديد الولع بالخيل ، يُدَرِّبُها تدريبا خاصا ، ويستكثر منها ، ويدللها ، ويعني بها هذه العناية التي ذكر طرفا منها في أبياته السالفة ، فلا غرو أن يطلق عليه لقب زيد الخيل ، ذلك اللقب الذي ظلّ يحمله حتّى اختار الرسول صلى الله عليه وسلم حين وفادته عليه ، ضمن وفد طيء أن يُلَقِّبُهُ بزيد الخير ، بدلا من زيد الخيل .. لأن الخير أكثر شمولا ، ولأن في صفات زيد رضي الله عنه ما يجعله زيداً في أشياء كثيرة ، ازداد منها وتزوّد ، جماعها الخير ..

يحدثنا صاحب « الأغاني » أنه « إنما سمي زيد الخيل لكثرة خيله ، وأنه لم يكن لأحد من قومه ولا لكثير من العرب إلا الفرس والفرسان ، وأنه كانت له خيل كثيرة [1] .

على أننا يجب أن لا نأخذ ما حدثنا به الأصفهاني عن علة إطلاق هذا اللقب على شاعرنا قضية مسلمة ، ذلك لأنه كان هناك من العرب أيضا من كان يملك العديد من الخيل ، فلم تقترن أسماؤهم بالخيل ..

إنني أعتقد أن كثرة عدد الخيل ليست وحدها السبب في إطلاق هذا اللقب عليه ، وقد تكون أحد الأسباب ، ولكني أعزو اللقب إلى هذا الشغف بالخيل عند زيد ، وهذه العناية الكبيرة بتربيتها وتدريبها وتدليلها ، والتغني بها ، هذه الأسباب مجتمعة هي التي أهلت زيد الخيل لهذا اللقب ..

---

(١) الأغاني : ترجمة زيد الخيل .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا زيد الخيل نفسه يحدثنا أن حصانه الأثير لديه لا يقل منزلة عنده عن ولده ، ابنه البكر (مكنف) ، إنه يصرح بذلك تصريحاً حينما يذكر « المطال » أحد خيله الحبيبة :

أقَرِّبُ مَرْبطَ (المَطَّال) إنّي ... أرَى حَرْبًا سَتَلْقَحُ عنْ حِيَالِ
أُسَوِّيه بِمكْنَفَ إذْ شَتَوْنَا ... وَأوثِرُهِ عَلَى جُلِّ العِيَالِ [1]

وهو عندما يحدثنا عن مساواته بين حصانه وبين مكنَف لا يقتصر على المساواة في الأيام العادية ، بل هي مساواة في الليالي العصبية ، ليالي الشتاء القارسة ، حينما يكون الأهل والولد في حاجة إلى رعاية خاصة ، فيها الدفء . وفيها الغذاء الجيد . . وفيها العناية الخاصة . .

ومن هذين البيتين نعرف أن (المطال) هو أحد أفراس زيد الخير . فهل كانت له أفراس أخرى مسماة ؟

يقول لنا أبو الفرج الأصفهاني [2] : (وكانت له خيل كثيرة منها المسماة المعروفة التي ذكرها في شعره وهي ستة وهي : المطال ، والكُميت ، والوَرْدُ ، وكامل ، ودَوُول ولاحق) . .

وفي الوَرْدِ يقول :

أبَتْ عَادَةٌ لِلْوَرْدِ أن يَكْرَهَ القَنَا
وَحَاجَةُ نَفْسِي في نُمَيْرٍ وَعَامِرِ [3]

وفي دَوُول يقول :

فأقْسِمُ لا يُفَارِقُني دَوُولَ
أجُولُ بِهِ إذَا كَثُرَ الضِّرَابُ [4]

---

(١) ص ٧٩ ديوان زيد الخيل . ومكنف على وزن محسن .

(٢) « الأغاني (ترجمة زيد الخيل) .

(٣) و (٤) « الأغاني » ترجمة زيد الخيل . وبعد أن أورد أبو الفرج شواهده على ذكر المطال والورد ، ودوول ، قال : هذا ما حضرني من تسمية خيله في شعره ، وقد ذكرها . » ومعنى هذا النص أنه قد سمى خيله المسماة أي الستة كلها في شعره .. ولكن النصوص بين أيدينا، والتي جمعها ديوانه صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي ليس فيها أكثر من ذلك .

وفيما عدا ما ذكره أبو الفرج نجد أيضاً ذكر فرسه (كامل) في قوله :

وما زلت أرميهم بثغرة كامل .

وهو شطر ذكره صاحب (لسان العرب) [1] .

ويفخر زيد الخيل ، بأفراسه ، وبأصالتها وبأنها معروفة الأنساب ، كان يقول مخاطباً أيضاً بني الصَّيْدَاء ، وهم بطن من بني أسد :

بِتْنَا نُزَجِّي نَحْوَهُمْ ضُمَّراً
مَعْـرُوفَةَ الأنْسَابِ مِنْ مَنْسِر

وما دمنا قد عدنا إلى بني الصيداء ، الذين ورد ذكرهم في هذا الحديث فلنعرج على قصة مهره الذي حازته بنو الصيداء ، فقال زيد أبياته تلك يوصيهم به خيرا . .

القصة كما يرويها أبو الفرج الأصفهاني في كتاب « الأغاني » أن فرسا من خيل زيد ظلع (عرج) في بعض غزواته لبني أسد ، فلم يستطع اللحاق بالخيل ، فأخذته بنو الصيداء فصلح عندهم ؛ وقيل أنه خلفه في بعض أحياء العرب ظالعاً يستقل ، فأغارت عليهم بنو أسد فأخذوا الفرس فيما استاقوه لهم . .

على أنه لا ينبغي أن أهمل هنا تعليقاً ساخراً قاله أحد بني أسد على بيت زيد الخير :

عَوِّدُوهُ كَالَّـذِي عَوَّدْتُهُ دَلَجَ اللَّيْلِ وَإِيطَاءَ القَتِيلِ

---

(١) مادة (كمل) وقد جاء في ديوانه صنعة الدكتور القيسي هـذا الشطر مرويا هـكذا :

فما زلت أرميهم بغرة وجهه
وبالسيف حتى كـل تحتي وبلـدا

وقد أشار إلى شطر « اللسان » .

فقد أنشد أضبط بن الملوّح هذا الشعر ، حبيب بن خالد بن نضلة الفقعسي – وهو أسدي – فضحك ثم قال : قولوا له : إننا عودناه ما عودته ، دفعناه إلى أول من يلقانا ثم هربنا ! !

ولا غرو أن يصدر هذا التعليق الساخر من أحد بني أسد ، الذين كانت لزيد فيهم وقائع . .

* * *

وبعد ، فيحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند أسماء خيل زيد الخير . . أعني عند هذه الأسماء التي عرفنا ، لعلنا نستشف دلالات معينة ، تفيدنا ولو بعض الفائدة . .

إننا نرى بين هذه الأسماء ما هو متداول يكثر إطلاقه على الخيل فهنا – مثلا – فرسان من أفراس زيد يحملان اسمين من هذه الأسماء فهذا (الكميت) من الأسماء الشائعة ، وهو يطلق للصفة ؛ فإن الكُمْتَة لون بين السواد والحمرة . . ويستوي في الصفة المذكر والمؤنث ، وقالوا : إن الفرق بين الكميت والأشقر في الخيل هو في العرف والذنب ، فإن كانا أحمرين فالفرس أشقر ، وإن كانا أسودين فهو كُمَيت ، وتعتقد العرب أن الكميت من الخيل هو أقواها ، وأشدها حوافر [1] .

وأغلب الظن أن زيد الخير إنما أطلق اسم الكميت على فرسه هذا لأنه كان بين السواد والحمرة ، وبالتالي فهو فرس شديد قوي ، جدير بأن يقتنيه زيد الخيل . .

---

(1) لسان العرب ، مادة كمت ، وفيه : أن الكميت فرس الحجب بن شيبان .

أما (الورد) ، فهو أيضاً ، من الأسماء الشائعة التي تطلق الصفة أيضاً ، ويراد بها اللون فهو ليس كميتاً وليس أشقر ، ولكنه لون بين ذلك[1] .

أما (لاحق) فإن هذا الاسم يحمل دلالته بوضوح ، فقد يراد به السابق الذي يلحق غيره ، فيدركه ، وقد يراد به لاحق الأيطل ، أي الضامر فإن الخيل اللاحقة هي الضامرة ، ولا شك أن زيد الخير كان معتنياً كل العناية بتضمير خيله ، وبحسن تدريبها .

و(لاحق) ، أيضاً اسم فرس معروف من خيل العرب ، يعتبر جداً ، تماماً كما يقال عن الأعوجي ، نسبة إلى أعوج . هذا النابغة يصف أفراساً يمتدحها :

فِيهِمْ بَناتُ الأعْوَجيِّ ولاحِقٍ   وُرْقًا مَرَاكِلُها مِنَ المِضْمارِ[2]

ومن هذا نعلم أن هذا الفرس ، كان ضامراً سباقاً ، له من المؤهلات ما يلحقه بخيل زيد الخيل .

ومن أفراس زيد الخير : دوول . . والواو الأولى هنا مسهلة عن الهمزة ، فهو دؤول . والدألان : مَشْيَةٌ شبيهة بالختل ، ومشي المثقل ، أي إن الخطو في هذه المشية متقارب ، كأن الفرس فيها مثقل بحمل[3] .

---

(١) « لسان العرب » مادة كت وورد . وجاء فيه أن الورد فرس حمزة بن عبد المطلب .

(٢) « لسان العرب » مادة لحق ، وفيه أن لاحقا اسم فرس كان لمعاوية بن أبي سفيان.

(٣) « لسان العرب » مادة دأل. وفي بعض المصادر يأتي اسم ذوول بالذال المعجمة كما في (حلية الفرسان)] ص ١٠٩ طبعة دار المعارف وهو فيما أعتقد تصحيف . وكذلك ورد في سمط اللآلي طبعة لجنة التأليف . ولكن محقق الكتاب الأستاذ عبد العزيز الميمني ، أشار إلى الأصل الوارد في « الأغاني »] وهو بالدال لا بالذال . إلا أنه قال : إنه لم ير أحدا ضبط الاسم ولا ذكره أصحاب كتب الخيل في الخيل ، ولم ير في المعاجم شيئا يفيد ذلك ولو رجع إلى مادة دأل في اللسان لوجد ما ذكرته .

ويبدو أن هذا الفرس من أفراس زيد الخيل كان فارهاً ، شديد الاحتمال ، جلداً ، ولهذا يقسم أن لايفارقه إذا كثر الضراب :

فأقْسِمُ لاَ يُفَارِقُنِي دَوُولُ أجُولُ بِهِ إذا كَثُرَ الضِّرَابُ

أما المطَّال ، فيطلق هذا الاسم على الفرس إذا أخرج عرقه شيئاً بعد شيء ، والفرس يهطلها الركض أي يخرج عرقها[1] . .

ولعل زيد الخيل قد أطلق هذا الاسم على فرسه لكثرة تهطال عرقه من الركض .

أما كامل وهذا اسم سادس أفراسه المسماة فالدلالة هنا واضحة أيضاً ، إذ يبدو أن هذا الفرس اجتمعت فيه الخصال الجيدة جميعها ، وزيد الخيل كان شديد الاعتزاز به فهو يقول :

وما زلت أرميهم بغرة كامل [2]

* * *

وفي شعر زيد الخير ، تمَدُّحٌ وفخر بأصالة خيله ، ونسبتها إلى جدود أصيلة ، مثله أعوج ، الذي تنسب إليه الخيل الجياد ، وذلك مثل قوله :

جَلَبْنا الخَيْلَ مِن أجإٍ وسلْمَى تَخُبُّ نَزَائِعاً خَبَبَ الذِّئَابِ
جَلَبْنَا كُلَّ طِرْفٍ أعْوَجِيٍّ وَسَلْهَبَةٍ كَخافِيَةِ العُقَابِ [3]

الطائف : ٦ – ١٠ – ١٣٩٧

عبد العزيز الرفاعي

---

(1) « لسان العرب » مادة هطل ، وفيه أن المطال : فرس زيد الخيل واستشهد بقوله

أقرب مربط المطال إني أرى حربا تلقح عن حيال

(٢) « لسان العرب » مادة كمل ، وفيه أن كاملاً اسم فرس سابق لبني أمرئ القيس أو لامرئ القيس وكامل أيضا فرس زيد الخيل ، وفرس زيد الفوارس الضبي وفرس الرقاد ابن المنذر الضبي .

(٣) ص ٨١٤ « الكامل » للمبرد وص ٣٥ من « الديوان » . وفي رواية الديوان عوابسا بدلا عن نزائعا . وأعوج حصان قديم أو فرس كانت لغني . وسلهبة بمعنى طويلة .

رمال اليمامة

تنبتُ في أرض اليمامة رمال متفرقة تُطرِّزُ أرضها ، وتتخلل وهادها ونجادها ، وتلون نباتاتها وتشكل مرعاها ، وتختزن ثراها ما يتساقط عليه من الأمطار ، فيبقى جوفه نديا ، ونباته رويًّا . . وهو مظهر من مظاهر الخصب وديمومة المراعي . .

فأما شرق اليمامة فتمتد (الدَّهْناءُ) بمحاذاته من الجنوب حيث تنطلق من الربع الخالي وحيث أقصى اليمامة من ركنها الجنوبي الشرقي ، وتأخذ مشملة حتى نهاية اليمامة في زاويتها الشمالية الشرقية ، فتقف اليمامة هنالك وتذهب الدهناء إلى حيث وصفناها في باب الدال من هذا المعجم ، وتحاذي الدهناء من اليمامة (الأفلاج) ومستقرات أوديته : الجدول ، والبياض ، وهريسان ، ثم (الخرج) ومنخرقات أوديته ورياضه ، ثم (العَرَمَة) ومدافع أوديتها ورياضها ، ثم جمجمة (أمُّ الجماجم) إلى (السَّيَّارِيَّات) وهي حبل يأخذ من الدهناء مغربا حتى يلتقي برمال (الثُّوَيْرَات) التي أيضاً تشكل حداً طبيعياً فاصلا لشمال اليمامة حتى شرق القصيم وصحراء (المُسْتَوِي) وينطلق من رمال الثويرات ذراعان من الرمال آخذتان في الجنوب نحو قلب اليمامة ، أما إحداهما فذراع جذماء وهو ما يسمى برمال (الضُّوَيحي) شرق (الزُّلْفِيْ) جاعلة روضة (السَّبَلَة) يمينها آخذة مع ظهر جبل (مُجزَّل) حتى مشارف (سمار وديعان) وهناك تقف . .

أما الذراع الثانية فذراع رحبة سبطة ، تنطلق من رمال (الثُّوَيْرات) مجنبة ، وهي (حَبْلُ الرَّغام) قديماً ، و (عُرَيْقُ البلدان) الآن ، وتذهب إلى قلب اليمامة حيث تقف عند نهاية إقليم (الوَشْم) جنوباً أمام طرف جبل

---

* هذا البحث من كتاب « اليمامة » أحد أجزاء « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » .

(عُرَيض) الشمالي ، وهنالك يسمى : (طُرَيْف الحَبْل) ، وهي تشق منطقة الوشم من الشمال إلى الجنوب ، وبها أعلام ومسميات سوف نتعرض لها في مكانها من هذا المعجم إن شاء الله . .

وحول طرف (عُرَيْق البُلْدان) من الجنوب شرقيه تقوم رمال تمتد من الشمال إلى الجنوب ، هي ما يسمى بـ (نفود رَغْبَة).. (نفود) صغيرة لايتجاوز طولها عشرة أكيال في عرض خمسة ، شرقها روضة (أم الشقوق)، وغربيها (الفقير) و (روضة آل كثير) ، وشماليها قُفُّ (أَعَيْوِج) ، وجنوبيها (سَحَقُ رَغْبة) . .

أما (كُثَيب الغُيَيْنَة) ، أو ما يسمى بـ (عُرَيق بنبان) ، أو ما يسمى بـ (نفود المعزيلة) . . فهذا أيضاً يمتد من الشمال إلى الجنوب بما تبلغ مسافته قريباً من ثمانين كيلا في عرض يتراوح بين الكيل الواحد وخمسة الأكيال ، حيث يستدق جنوباً وينبسط شمالا ، وطرفه الشمالي ينفرش ويرقّ عند غربي (رياض الخسف) الخفس الآن ، وتنبسط وعساؤه حتى تصل إلى منحرف وادي (دقلة) أمام (الخفس) ، وطرفه هذا يسمى : (خشم الرشمة) . .

أما طرفه الجنوبي فيقف أمام طريق خُرَيْص حينما يعبر منطقة (السُّلَيّ) ، ويسمى : (المعزيلة) ، وسمي بهذا الاسم لأن هذا الطرف ينفصل عن الكثيب بفاصل يجعله كأنه منعزل عنه ، ولذا سمي بالمعزيلة ، وطرف هذا الكثيب الآن من الجنوب زحف عليه عمران مدينة الرياض . . فما أدري أيهما سوف يطغى على الآخر ، ولكل نبإٍ مستقر . .

وهناك رُمَيلة متداخلة تستند على أبارق جنوبيها ، يقال لها : (الزُّوَيْليات) جنوب الرياض ، بينها وبين الخرج ، لاسمها نصيب من واقعها فكأنها من بُعد بُسُطٌ ذهبية تجلل رؤوس هذه الآكام (زويليات) (تصغير زوالي) ، وهي البسط العجمية ، هذه يراها سالك طريق الخرج على يمينه حينما يحاذي مغارة (هيت) . .

***

ويقابلها جنوباً بين أسفل (وادي نساح) و عفجة (وادي حنيفة) تحت (الحائر) رمل يجلل تلك الجبال والوهاد حتى مشارف (الخرج) ، وفي هذا الرمل (دارة الحجيرة) بين (نساح) ووادي حنيفة .

رملة المغسل : وتسمى الآن (الضويحي) (غير ضويحي مجزل) ، وهو رمل ممتد من الشمال إلى الجنوب في طول ما يقرب من ثلاثين كيلا وعرض خمسة أكيال في المتوسط ، وهو يلتب بجبل (الدام) من الغرب ، مواجهاً لصفحته وواقعاً بين خضراء الخرج (الدلم) و (زميقة) و (المحمدي) و (نعجان) ، واقع بينها وبين (الدام) وطرفه الشمالي يتلاشى أمام (نعجان) تقريباً ، وطرفه الجنوبي يقف أمام (خفس دغرة) .

ويقول عنه الهمداني في « صفة جزيرة العرب » : (ثم أسفل من ذلك القرى من اليمامة الضبيعة والملحا والخرج ، وهو في قنع الرمل ، والقنع مفضى القاع ، والرملة ، فالرملة في أصل الدام وهي تسمى رملة المغسل ، وبين الدام وبين الرملة اللوى وهي سكة بين القف والرمل ، وفي اللوى ماء يقال له : السويدية في مدفع وادي المغسل ، وهو واد يجري من قطمان ومن جوجان ومن الشعنة بسفل الجبانة جبانة الخرج) انتهى .

قلت : وقد طغت هذه الرمال ، وأخفت بعض هذه المعالم ، لأن هذه الرملة مائرة متطاوسة لوقوعها بين صفحة جبل الدام وبين القرى والمزارع ، فهي منخرق رياح الشمال والجنوب . .

كثيب الدحي : هذا الرمل يقع جنوب اليمامة غربها مواجهاً لصفحة جبل طريق من الغرب منطقة مابين فج (وادي برك) إلى فج (الكواكب) ، وبين صفحة الجبل وبين الرمل مستقرات وسيول الجبل الغربية وتسمى : (الساقية) ، أما هذا الرمل فطرفه الشمالي يقف أمام فوهة (وادي برك) ، ويمتد له أجارع ودكادك تحول بين السيول التي كانت تنحدر مع برك قديماً وهي سيول (الريب) و (الركا) و (العتمق) ، وغيرها من السيول

في تلك المنطقة وجعلت تستقر في سبخة هنالك منداحة فسيحة ، حاولت مع رفقة لي قطعها بالسيارة في الصيف حيث لا ماء ، ولما أمعنّا بها قليلا ساخت بها عجلات السيارة وبعد لأْيٍ عدْنا أدراجنا . .

يأخذ هذا الرمل في الامتداد جنوباً حتى يقبل على فَجٍّ (الكواكب) أسفل (وادي الدواسر) قبل دخوله الفج ، وهناك يقف . . وفيه فواصل واسعة قبل طرفه الجنوبي بقليل . . ويبلغ طوله نحوا من مائة كيل في عرض عشرة أكيال في المتوسط . .

حبل وادي الدواسر : عندما يقف حبل (الدّحِي) حيث وصفنا يقوم غربيه حبل آخر ، يمتد من الشرق إلى الغرب ، تنبسط نخيل ومزارع وقرى وادي الدواسر تحته من الجنوب ، وتظل ملازمة له وملازماً لها حيث ينتهي وتنتهي بما أقدر مساحته بخمسين كيلا طولا في عرض لا يتجاوز كيلين في المتوسط للرمل فقط ، ويحاذي طرفه الغربي من الجنوب وعساء يقوم بها بعض الأنقية ، وألوية الرمل كانت عقدة الطريق المؤدي إلى منطقة الجنوب الغربي ومصدر مضايقة السفر حيث هي بالمرصاد لكل سيارة تجتازها حتى عبرها الطريق المعبد وقال لها قرّي فقرت . . وأنا ممن شكا منها وذاق حرارتها ومرارتها . .

قُنَيْفِذَة : ويسمى (نفود الغُزَيْز) . . رمل ممتد من الشمال إلى الجنوب بما أقدر طوله بمئة وعشرين كيلا في عرض عشرين كيلا في المتوسط ، طرفه الشمالي متعلق بصفراء (الوشم) غرب شمال (مراة) ، ويأخذ نحو الجنوب حتى يتجاوز فوهة (وادي نَسَاح) ، وهناك ينشعب منه لسان يلج فوهة (وادي نساح)، ويُمْعن حتى يقبل على هضاب (العيطّاش) ، ويسمى هذا : (اللُّسَيِّن) تصغير اللسان ، كما ينشعب منه أجارع وأبارق تتجلل القُفّ الواقع جنوب (المزاحميّة) من بطن (قَرْقَرَى) ، لم تلبث حتى تكون حبالا من الرمل المتراكم المتداخل تشكل شبه نصف دائرة على (روضة المُحطّية) ، وتمعن داخلة (وادى الأوسط) (مِلْك

قديماً) حتى تفعمه وتسد منافذه إلا القليل ، وتطغى على جباله الشمالية وما حوله لتكون أبارق يشاهدها سالك الطريق بعد (أدبراب) يساره . . وقد اقتحمه طريق الحجاز الجديد مما يلي (الغُطْغُط) شرقاً ليخرج على مَنْهل (تِبْرَاك) غرباً حيث منطقة (الجلْه) . .

الملحـــاء : قلنا إن طرف رمل (قُنيفذة) الشمالي يقف متجللا صفراء الوشم ، ومع كونه يقف إلا أن هناك أبارق وجُرَعاً تمتد منه مشملة ، ولكنها لا تلبث حتى تكون رمالا منقادة متراكمة هي ما يسمي بـ (نفود الملحا) تَلُبُّ بصفراء (الوشم) من الغرب ، وبصحراء (المُسْتَوِي) من الشرق ، وتذهب مستطيلة مشملة حتى تقف بحذاء (الخُوَيْشَّات) من شمال المُسْتَوِي . .

السـرُّ : حبل مستطيل من الشمال إلى الجنوب ، يبدأ من مشارف (القصيم) الجنوبية ، ويذهب مجنبا حتى جانب (الجلـه) الجنوبي بما أقدر مسافته بمئتي كيل طولا في خمسة وعشرين كيلا عرضاً ، ويعتبر هذا الرمل الحد الغربي ، لمَّا سوف أدرسه من (اليمامة) لأن أخي الأستاذ (سعد بن جُنيدل) معنيٌّ بدراسة عالية نجد وهضبته الوسطى ، وله فيه دراسات وله به خبرة لأنه نشأ وعاش هنالك ، فأحببَّ أن أقاسمه دراسة منطقة نجد وإن كنت قد بذلت جهوداً وأوقاتاً وبحوثاً وتحقيقات في المنطقة التي عُنيَ بها ، ولكن هكذا كان ، فعسى كل واحد منا يوفق لأداء مهمته التي اضطلع بها من منطقته وإنها لكثيرة وكبيرة . .

نعود إلى بقية الحديث عن رمال السرِّ ، فحينما يقف في جنوب الجلْه يعود — بعد فاصل واسع — فيقوم مرة أخرى وبعضهم يقول : إنه امتداد له ، وبعضهم يقول : إنه قطعة من الرمل . . هكذا وجدت بمفردها تذهب هذه القطعة بمحاذاة نفوذ (قُنَيْفِذَة) بينهما منطقة (الجلْه) حتى عقفان متناوحان أمام فوهة (نسَاح) من الشرق ، وأمام (سَيْح الدبُّول)

من الغرب ، وبعضهم يسمى هذه القطعة (نفوذ الخبراء) ماء هنالك يسمى به هذا الرمل . .

نفَيدُ السُّلَيْم : رمل يشقه طريق الجنوب قبيل بلدة (حوطة بني تميم) بعد المنسف ، يشرف على السَّوط من الناحية الشرقية ، ويذهب مجنباً تاركاً قُفَّ (الحوطة) و (بني شعاراً) يساره ، حتى يوشك أن يلامس شعاب (بني نُعيم) التي تسيل في وادي (العقيمي) . .

لا أجد بعد ما ذكرنا رملا في (اليمامة) ، معتبراً ما عدا قطعاً صغيرة لا يؤبه لها مثل قطعة تقع في فوهة (بِرْك) بين (البكرة) وبين (الهيرة) ، وما عدا قطعاً متفرقة في أسفل (العَتْك) الأعلى ، وبينه وبين مدفع سيل (البير) وما حول ذلك من جُرَع وأبارق حول (حِسْي دَقْلَة) وبُرَق (الحاتلة) ، وكذلك رُميلة صغيرة في أسفل (وادي دَعَكْنَة) عند التقائه (بوادي حنيفة) أمام (عُرَيض) و (البواقر) . .

بقي أن نشير إلى أن (الربع الخالي) حينما تنطلق منه (الدهناء) شرق الأفلاج جنوبها يأخذ مغرباً محتوياً جنوب اليمامة بما مسافته نحو من ثلاثمائة كيل حتى يلتقي بجبل اليمامة فيغمره هنالك . . وإذن فاليمامة مربعة بالرمال من جميع جهاتها حسبما وصفنا ، فمن الجهات الجنوبية والشرقية والشمالية مغلقة بالرمال ، وأما الجهة الغربية فرمالها ذات فواصل و (خلول) . .

وسوف نأتي على هذه المسميات في أبوابها من هذا المعجم إن شاء الله .

عبد الله بن خميس

قصيدة البحر النُّعامي :
في الشُّهُور الحِمْيَرِيَّة

أستاذنا العلامة البحاثة صاحب مجلة العرب الغراء الشيخ حمد الجاسر حياكم الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إليكم هذه الدرة الثمينة والجوهرة اليتيمة من تراثنا القديم الخالد الذى يمثل جانباً كبيراً من حضارتنا العريقة نتحف بها قراء مجلتكم السيارة ذائعة الصيت .

ألا وهي قصيدة العلامة النُّعامي المتضمنة للأشهر الحميرية التي كانت مستعملة في سالف الأيام أيام سبأ وحمير ، مقارناً لها ما يقابلها من الأشهر الرومية ، وإن وضع هذه الأشهر الإثني عشر شهراً بهذا الإبداع دلالة واضحة على عراقة تمدن اليمن وأصالته وأنه ضرب بسهم وافر في الحضارة الإنسانية البحتة كما سن قوانين حضارية مثلى لم تكن معروفة من ذي قبل لا سيما بعد ما أميط اللثام عن محددات تلك الحضارة بما كشفه المستشرقون ولا يزال الكثير رابضاً تحت الأنقاض ينتظر اليوم الذي ليس ببعيد إن شاء الله للتنقيب عن ذلك لتسفر النتائج المرجوة عن أشياء جديدة .

ويلاحظ أن ذكاء العقل اليمني ودقة نظرته توخى أن تكون الشهور موسمية أى شمسية لتتلاءم وطبيعة اليمن وأجوائه الزراعية .

ويبدو أن استعمال هذه الشهور كان شائعاً إلى عصر النعامي على أن الهمداني لسان اليمن لم يذكر من هذه الشهور في كتبه التى بين أيدينا غير ذي الدياو : كانون الآخر ، في الجزء الثامن ، وذو الخراف : آب في الجزء الثاني ، وذكرها الملك الأفضل العباس بن الملك المجاهد الرسولي

في ضمن مؤلفه المجموع بخط يده الذي لا يزال مخطوطاً . كما أن بعض الشهور لا تزال متداولة بين الناس إلى هذه الغاية إلا أنهم لا يفهمون أنها من الأشهر الحميريّة كما أنهم يحذفون لفظ (ذي) فينطقون (ذي علان) علان وذي الصراب الصراب وذي القياظ ــ القياظ وذي المبكر ــ المبكر.

والبحر النعامي صاحب القصيدة من أولئك الأفذاد الذين أكلهم التاريخ أوعقّه أهله وذووه ونسجت عليه عناكب النسيان ولم يظهر على مسرح التاريخ إلا في هذه اللحظة الذي قدر له أن يظهر في القرن العشرين وعلى يد أحد أبناء اليمن البررة فلم أطلع له على ترجمة مما قد اطلعت عليه من تراثنا المتناثر الذي هو الآخر أصيب بالعقم ولم يحفل به أبناؤه ولكن اسم البحر النعامي ، أو بالحري لقبه يشير إشارة جلية إنما لقب بهذا اللقب إلا لتبحره بالعلوم والآداب والفنون حتى غلب على اسمه العلم ، وقصيدته هذه ترمز إلى سعة اطلاعه لغة وأدباً وحكمة فهو يذكر فيها الكروم : الأعناب يذكر معها ما يتناسب لكل شهر من الأغذية والأشربة والملابس فهو قد أضاف إلى بحره آية لامعة في الطب والحكمة كما أن في ديباجة القصيدة ما يشير إلى أن النعامي أصيب بالجذام وأنه داوى نفسه إلى أن قطع شأفته وبرأ منه وقام سوياً . والمعروف أن الجذام من الأدواء المستعصية علاجها غاية ما وصلوا إليه توقيفه عند حده وعدم انتشاره ، ونسب النعامي ينتهى إلى القيل ذي نعامة من آل ذي يزن الذين لهم بقية في قريتهم التي تنسب إليهم قرية (بيت نعامة) في ظاهر جبل عيبان جبل صنعاء الغربي وقد نزل صنعاء وسكنها .

أما تحديد عصره فيغلب عليه الظن أنه من أعيان القرن السادس الهجري والخامس كما تدل عليه تلك المخطوطة القديمة التي عثرنا عليها وهما مخطوطتا شرح الدامغة . وقد أضيفت القصيدة هذه وقصيدة نشوان ابن سعيد الحميري .

الأمر جدّ ، وهو غير مزّاح   فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

وقصيدة الكميت بن زيد الأسدي النونية التي رد عليها الهمداني بالدامغة .

وجاء في آخر أقدم النسختين بعد شرح قصيدة الكميت : وقصيدة رائية لمحمد بن الحسن الكلاعي تقع في ٣١٢ بيتاً يجيب بها الفضل بن تاردح (؟) الرومي أضيفت تلك القصائد إلى كتاب «شرح الدامغة الذي نشرناه هذه الأيام. ما نصه : (تمت القصيدة وهي ثلاث مئة واثنا عشر بيتاً ، وذلك في يوم النصف من شهر جماد الأول (؟) من شهور سنة ثلاث وعشرين وست مئة ، بقرية مَسْلت من ظاهر بلد همدان بحمد الله ومنه ... والقصيدة في هذه النسخة ناقصة .

وجاء في آخر النسخة الثانية بعد قول الكميت — من قصيدته وهي مشروحة أيضاً : —

كَبَيْتِ العنكبوت وجدت بيتاً يمد على قضاعة أجمعينا

نسب قضاعة إلى قلة العدد ، كما قال الطرمّاح بن حكيم الطائي في هجو بني تميم :

ولو أنّ أمّ العنكبوت بنّت لهم مظلّتها يوم اللقاء أظلّتِ

تمت القصيدة الكميتية بحمد الله ومنه .

قال في نسخة الأصل : وكتبها الحسن بن يعقوب [1] — : قرأتها على أبي رياش أحمد بن أبي هاشم القيسي [2] .

والحمد لله وحده وصلاته على محمد وآله وسلامه .

وكان الفراغ من نساخته يوم الجمعة الثاني من شهر المحرم ، أول شهور سنة ست وعشرين وست مئة سنة ، بخط الفقير إلى رحمة ربه علي بن بريد بن أحمد بن علي أحمد بن عبد السلام بن أبي يحيي .. لخزانة الفقيه الأجل الأوحد العالم العامل الورع الزاهد تقي الدين أحمد بن موسي بن سعيد النجاري أدام الله سعادته).

وها هي القصيدة ، مع بعض إيضاحات استلزم الحال ذلك ،

القاهرة: في ١٤-١٢-١٣٩٧ (٢٥-١١-١٩٧٧)

محمد بن علي الأكوع

---

(١) هو الهمداني المشهور لسان اليمن وصاحب المؤلفات المعروفة .

(٢) ابن أبي رياش ولد في الخضرمة في اليمامة ، وهو لغوي أديب مترجم في «إنباه الرواة» ومعجم الأدباء» وغيرها .

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله وحده وقال البحر النعاميُّ من آل ذي نُعامة ، وهو حميري من سكن صنعاء يذكر الشهور ويذكر فيها الكروم ومايصلح لفصول السنة من الأغذية ويروي أنه داوى نفسه من الجذام ثلاث مرات لحسن معرفته بالطب .

أقامت كرومك في شهر آبِ من الماء يفهق مثل الجوابي
فيا حبَّذا طيبها في الخريف إذا قهقهت في أعالي الهضاب
يعاقيب تحسب أوجالها مع الصبح فيه تيوس نُبابي

يَعاقيب جمع يعقوب ، وأوجالها ذكورها ، من بأبأ التيس .

ويا حبذا هي في ذي معون إذا الصيف ساعدها بانسكاب
بنضح الدواجن بعد السيول فأبصرت فيها كوشي الزرابي
وفي غيرها من كروم السواد إلى حد حرفة تحت الذباب[1]

موضع في بلاد همدان ويريد بالسواد : سواد الخشب .

من اللوز والورد والأقحوان ومن كل زوج من النبت رابي
فلا طيب أطيب من ريح ورد إذا بات يعلوه طل الضباب
وأصبح يأرج بين الكروم كريح القرنفل بين السخاب[2]
فلا شيء أبهج منه إذا ما تداعت له الطير بين الشعاب
تداعت بوارع صفر البطون وغنَّت أياطف حمر الرقاب

البورع : معروف ، وهو الطائر الذي يقال إن ترجمة صوته : إرضى في الدنيا بقوت ، وعلى الدنيا الدمار[3]

وصاحت جوالب جوف فناحت بطول الترنم بعد اكتئاب[4]

الجوالب من « ذوات » الطوق وهي معنى قول أبي نواس :

وغنت الطير بعد عجمتها .

ومنها أيارد تحكي الصنوج بأصواتها الباهيات العجـاب
وخضر العدارج بين الغصون تراطن فيها كريح غضـاب
إذا ما ترنّمْن من فوقهن نفخن الحواصل مثل الكياب
وخوفهن بلحـظ العيـون وطول المنـاقر والانتصاب
إذا ما أتيت تزور البلاد طربت لأصواتهن الطـراب
فلا تبرزن لكلب الشتاء فكلب الشتاء أضر الكلاب
تراهن ينظرن أطواق حمر حسان ليسلبنها باغتصـاب
حسدن الأباطف حسن الغناء فصارَ بهنّ أشدّ الضراب
فلمـا تخوفن منهن طرن إلى كل غصن من الطلح نابي
يغردن فيـه لألاّ فهنّ وأفراخهـن فهيّجن ما بي
وذكرني ما مضى من شبابي وأنا أدّكارك بعـد الخضاب
كأن تجاوب أصـواتهن حكين المزامير في ذي الخشاب

١ — تشرين الأول : وهو ذو الصراب .

فدع ذا وقل في شهور بداه ـا لحمير والروم أهل الكتاب
إذا استقبل الناس وجه الربيع وقابلت تشرين في ذي الصّراب
في ذي الصّراب فكن طالباً للمس نسائك لا للقحاب
لمـا تستحل ولا تطلـبن حراماً فتُجزى بسوء العقاب
وأكثر من القيءِ بعد الجماع وكل من كرائك أكل الغراب
بخـلّ الدنان ودع ما حلا وما كان من صالح في تباب
وفيـه زكام وما للزكـام كماءِ الحميم ولا للقحـاب

٢ — تشرين الآخر : وهو ذو المهلة

وتشرين ذو المهلة الحمـيري كصاحبه لا تكن ذا ارتياب
سميّـان حـدهما واحـد سوى ليلة نقصت في الحساب
ولبس العمائم فيه شفاء لدائهما فالثم بالنقـاب

٣ ـ كانون الأول : وهو ذو الآل

وكانون ذو الآل يتلوهما … ببرد يَقُدّ خوافي العُقاب
إذا الليل أودى بطول النهار … ورأيت النهار سريع الذهاب

٤ ـ كانون الآخر : وهو ذو الدباو

وكانون من بعده ذو الدباو … فدارهما بالكسا والجباب
وبالدهن والتفهما بالجماع … وقوّ الجماع بنهش الكباب
وأكثر من الثوم فى السيكباج [٥] … وضع فيهما من فروع الشذاب
ومن كل ما يصلح الحر فيه … فكله هنيئاً بضرس وناب
فتلك شهور تثير القتير … تهيّج سُمّا كسمّ الحباب [٦]
إذا هاج بالمرء شلّت يداه … وأزبد مما به كالمصاب

٥ ـ شُباط : ذو الحلة [٧]

وذو الحلة الفحل منها شُباط … وفيه إذا جاء نبذ الخابي
ويعتار ذو الزرع فيه الطعام … إذا المحل أودى بما في العباب
وفيه لعمرك تُسقى الكروم … وترفع من بعد طول الخراب
هنالك تضرى ذئاب البلاد … فتلهو الكلاب بسؤر الذئاب
وتنحل فيه المواشي كما … يُحِل القلائص طول الهباب
ورفع الأحشة أعناقها … إذا لبدت فى صدور العقاب
وتهجيرها بعد إدلاجها … إلى كعبة جعلت للمتاب
لكل امرئٍ مّحيتْ لم يزل … إليها له قدم فى الركاب
شباط كذلك يزرى بها … إلى أن تؤوب ، وقبل الإياب
وذر في شباط وكل ما حلا … مع الأطلاء وكن ذا ارتغاب
تحلّ السمان وتبري العظام … وتطوى البطون كطي الكتاب
فلا تمتنع فيه من مأكل … سوى الملح أو حامض من شراب
ولا تترك الطيب تشتمّه … ولا الدأب واترك لزوم الوثاب

٦ — أذار : ذو معون

لِلَّـذْعِ المشارطِ في ذي معون ... وقطع العروق لحدّ الشباب
إذا وازن الليل وزن النهار ... فميزان ساعته لا يحابي
فكل فيه من سمكات الصيود ... من البحر أو من عيون عذاب
وشرب العقاقير فاصبر لها ... فإن لأذار تخبأ الخوابي

٧ — نيسان : ذو الثابة

ونيسان ذو الثابة المرتجا ... فنعم المرجأ لما في الروابي
إذا أنزل الله ربّ العباد ... على العرق في الترب ماء الرباب
وأصبحت ترمق فوق الكروم ... عوالي َسرْع [8] كمثل القباب
فأكرم بنيسان من زائر ... إذا ما تكنفنا بانصباب
وإن اعتبته ليالي العجوز ... تدلت عناقيده كالمزابي

الميزْبا : الأديم الذي يعلق فيه الطفل [9]

فمنها نفاد جرين الزبيب ... ويجمعها كالجبال الخوابي

٨ — أيار : ذو المبكر

وأيار ذو المبكر الفحل فيه ... ودُبّاو وأشباهه كالضباب
فدع كل مُخ وأكل الرؤوس ... فإنهما مثل سُمّ ، وصاب [10]
وفيه هواجر فيها سَمُوم ... ووَهْجٌ من القيظ جارى السراب

٩ — حزيران : ذو القياظ

وأقصر إذا ما أتى ذو القياظ ... وهمّت هواجرها بالتهاب
عن الشمس فيه وشرب الحليب ... ونهش اللحوم وأكل الشّراب [11]
حزيران فيه تثور المرار ... كما ثار قِدْرٌ بسمنٍ مذاب
فاطف المرار بماء قراح ... على الرِّيق فيه وكن ذا اجتناب

---

(٨) السرع : ماتما من الغصون .

للمس النساء وشرب الدواء ... إلى منتهى الشمس عند الإياب
إذا ما انتهى فيه طول النهار ... فنمت الليالي كنوم الذئاب

١٠ ــ تموز : ذو مذران

وأعدد لتموز ذي مَذَران ... من الطعم أبردَه والشرابِ
وألقِ الجبابَ ولا تلبسَنْ ... لتموز إلا أرقَّ الثياب
ودع فوق رأسك من حرّه ... بنفسا[1] ودع عنك دهن الملاب[(١٢)]
ومثل الغوالي فدعها تدم ... في تركها أسُ علم عُجاب
كل القرع والمالح العقَّ فيه ... ورطبِ الثمار كذى الانتهابِ
ولا تأكل السمن فيه ولا ... سميناً وكن منهما ذا اهتياب
ودافع نساءك في وقته ... إذا جئن في زينة الاعتراب

الاعتراب : المباضعة ؛ يقال تعاربت المعزا وتعارب التيس : طلب ذلك.

كما يدفع المرءُ عنه الغريم ... بلين الكلام وحسن الجواب
وجالس حكيما تزد حكمة ... ويلهك عن كل خَوْدٍ كعاب
فإنك إن لم تصبهن فيه ... وماطلتهن بطول الغياب
تجنبت سقماً طويل العلاج ... وأثبت علما بترك التصابي
فعلم الطبيب اللبيب الأريب ... كعلم الحكيم الذي لا يحابي
وتموز ذو اللب فيه حزين ... وذو الجهل من نفسه في عذاب

١١ ــ آب : ذو الخراف

وفي ذي الخراف فلا تعدُما ... فعلت بتموز في كل باب
فآب كتموز في حرّه ... فكن فيهما صابراً ذا احتساب
وغادِ العناقيد في بردها ... مع الصبح فيه غدو الغراب
ففيه لعمري تطيب الكروم ... ويجلو السما ثَمَّ صوت السحاب
كل الثوم باللحم والسمن فيه ... وباللبن المخض غير المرّاب

---

(١) كذا ولعله يقصد (ادهن رأسك بالبنفسج) .

نداوي سوادا من المرتين ... إذا آبَ آبٌ فكُلّه بآب
ففيه تهيج بأصحابها ... وتعلق بيوستها في الرضاب
وتبدو بهم عندها غُبْرَةٌ ... ولون قبيح كلون التراب (١)
فلا خير فيه لذى مرة ... توقد في الجوف مثل الشهاب
من الحرّ صفراء فاعرفهما ... بلى ثمن من حجاب (٢)

١٢ ـ أيلول : ذو علاّن

ويأتيك أيلول من بعده ... بأيام علاّن من بعد آب
إذا اعتدل الليل مثل النهار ... رأى فيه فضلا كفضل الخضاب
جديدان يقتسمان الشهور ... مطاعان فيه لرب مجاب
وفيه علاج من المرتين ... وما يُتّقّى من دم أو لعاب
دع البقل فيه وخذ بالذي ... مضى قبله من قواف صعاب
صعاب القوافي وإنشادها ... يليق بأفواه أهل الصواب
نَعَتُّ الشهور لأني سبقت ... إليهن سبق جياد عراب
سبقتهم إذا كبا جريهم ... ومثلي إذا ماجرى غير كاب
ألم أرم في نصل لم يكن ... رمى مثله أحد من صحاب
أصابَ المقرطس نزعى بسبع ... واتبعته بثلاث صباب
فأحمد ربي إله السماء ... على ما حباني به للصواب
حباني بحب وصي النبي ... وما لامريءٍ مثل باريه حابي (٣)
بطيب الولادة أحببته ... وباب السعادة والاحتساب
وخبث الولادة تبدى العيوب ... كما يظهر الحرق مافى الجراب

---

(١) إلى هنا ينتهى مافى النسخة الأولى .

(٢) كذا ولعله (بلا ثمن من نصيح محابي) .

(٣) القول بأن عليا وصي النبي لم يثبت لدى علماء السنة بنص صحيح « المعرب » .

احبب عليّاً كحب النبي		على رغم ذي الشك و الارتياب[1]
وأبغض أعداءه الناكثين		كبغض البنان لوجه الإياب[2]
لأنّ عليّاً له جوهر		سما في الهدى فهو لب اللباب
يزيّنه حسبٌ فاخر		وصدق وبرٌ لذي الانتساب
كعود النضار إذا قسته		إلى الناس كانوا كلبّ الغراب

الغراب : شجرة [2] (...) يعمل منه خلايا النحل

فإن عليّاً أقام الصلاة		وآتى الزكاة بصدق المثاب
وفرق « فيه » بين جد وهزل		ببعد له منهما واقتراب
فأصبحت عند عداة الوصيّ		بحبّي له غرضا للسبّاب[3]
لأنّي أُوَاليه ما غرّدت		مطوقة في فروع النوابي
وما عقل العصم في سامك		من السرّ أو في اعالى ذباب[4]
ولعنة ربي على المبغضين		عليّاً ولقّوا شديد العقاب

---

(١) لو قال (لحب النبى) لأصاب إذ حب النبي صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون فوق حب كل أحد من الخلق كما فى الحديث « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » ولولا أن أمانة العلم توجب إيراد القصيدة كاملة لتركنا الأبيات الأخيرة ، وأيضا فهى تلقى ضوءاً على حياة الشاعر ،فتوضح أنه شيعى فلعه مترجم فى أحد مؤلفات علماء الشيعة الزيدية « العرب » .

(٢) كلمة غيروا اضحة .

(٣) تقدمت الإشارة إلى عدم صحة الوصية « العرب » .

(٤) سامك موضعان أحدهما جنوب صنعا بمسافة نصف مرحلة وهو جبل صغير فيه قرية على طريق صنعا وذمار وسامك أيضا جبل كبير شرق شمال صنعاء فى بلاد خولان العالية وهو المراد هنا والسر هو سر ابن الروية المشهور يحتفظ باسمه إلى يوم الناس هذا وهو شمال صنعاء وذباب بالفتح : جبل كبير يمتد أعلا السر المذكور وذباب : بضم أوله موضع فى باب المندب . على البحر الأحمر من بلاد بنى مجيد الحميريين .

وهذه بعض معانى كلمات هذه القصيدة :

(١) حرفة : بالحاء والراء المهملتين ثم فاء وهاء بلدة من أرحب وجرفة : بالجيم وباقي الحروف كالأول بلدة أيضا هنالك والخشب بالخاء والشين المعجمتين آخره ياء موحدة كلها تحمل هذا الاسم لهذه الغاية وكلها في بلد همدان شمال صنعاء .

(٢) السخاب : قلادة من سك وقرنفل ومحلب بلا جوهر .

(٣) البوارع والبورع جمع بورعة : بفتح الباء الموحدة : عصافير كحجم الكف الصغير وفي أعلا رأسه مجموعة شعر ويقال له قنبرة وقُبّرة وجماعه قنابر قال طرفة بن العبد

يـــالك مـــن قـــبرة بمعمـــر خلا لك الجوّ فبيضي واصفري

كما يقال لها قُرَيْنع ويقال أنها تنادي كل صباح : سماك ياربي سماك لو ما قرينع للسماء ! ويضرب للرجل كثير الدعوى وليس عليه طائل فيقال لولا قرينع للسما كما توصف البوارع بضعف العقل وخفته ويضرب بذلك المثل للرجل خفيف العقل فيقال : عقل بورعي .

(٤) الجوالب والجولب : جمع جولبة : طائر معروف فى اليمن أغبر اللون وأصغر من الحمام،وله زجل وترنُّم عند منبلج الصباح وفى عشه الذي يتخذه فى الأشجار ويسقط من عشه يلتقط الحبّ وغيره ويوجد فى مصر والعراق وغيرهما فى الشوارع صباحاً لوجود الأشجار .

(٥) السكباج : هو طبخ اللحم بالثوم والخل .

(٦) الحباب بالضم : الحيّة .

(٧) الحِلّة : بكسر الحاء المهملة ومن الأمثال اليمنية قولهم : حيث ما حِلّة الصيف حليب أي أنه يبتدي فصل الصيف فإذا جاء فيه مطر في محل من الحلات ذهبت إلى ذلك المحل مع مواشيك وأغنامك فحلّ فيها .

(٨) السرع هو ما نما وامتدّ من الأغصان لغة دارجة إلى هذا اليوم .

(٩) المزابي : جمع مِزْبا ويقال مزبوء وهو المهد للأطفال وله صنعة خاصة ولا تزال الكلمة عندنا مستعملة في اليمن وفي بادية نجد .

(١٠) الصاب : نوع من السموم أو الشجر المرّ .

(١١) الثراب جمع ثرب اسم جنس وهو الدمم والشحم لغة جارية إلى يوم الناس هذا .

(١٢) الملاب : نوع من الطيب .

بلدة مزعل

(وهذا بحث مكمل للكلام على العرض – المنشور في « العرب » س١٢ ص ٣ وص ٣٦ من كتاب « عالية نجد » أحد أجزاء « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ») .

مِزْعِل : بميم مكسورة وزاي معجمة ساكنة ثم عين مهملة مكسورة وآخره لام ، من قولهم زعل يزعل إذا غضب : وهو اسم بلدة تقع في عِرْض شمّام غرب بلدة القويعية تبعد عنها مسافة تسعة اكيال ، واقعة في بَرَاح من الأرض يمر من جانبها الشمالي مجري وادي القويعية ، الذي ينحدر من المرتفعات الواقعة غرباً منها ثم ينحدر شرقاً ، ماراً بقرية القويبع ثم قرية الجفارة ثم بلدة مزعل ثم بلدة القويعية .

وقد تأسست هذه البلدة في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، أسستها أسرة العَرافا – واحدهم عَريفي – من الجبور من قبيلة بني خالد ، كان جد هذه الأسرة من أهل الجشة في الأحساء[1] ، انتقل منها وسكن في روضة سُدَيْر ، وكان اسمه حمد بن حمدان الجفيف الجبرى – كما حدثني بذلك عبد العزيز ابن محمد العريفي – وهو ذو عناية بتاريخ هذه الأسرة واطلاع عليه .

أنه بعد أن سكن روضة سُدَيْر – وكان ذلك في أيام إمارة رُميزان ابن غشّام التميمي عليها في منتصف القرن الحادي عشر الهجري زوّجَ أختاً له أميرَها رميزان ، ثم انتقل إلى بلدة شقراء في الوشم وتزوّجَ فيها امرأة من آل جمّاز من بني زيد ، فولدت له ولداً سماه جمازاً ، وتوفي حمد في شقراء وبقي ابنه في شقراء وخلف له عقارا ، وشبّ ابنه جماز بين أخواله ، وكان له أخ من أمه كان يلقب الضُعَيِّف – تصغير ضعيف – عرف بهذا اللقب

---

(١) وقد حدثنا أحدهم أن لهم أقارب الآن في تلك القرية يدعون (آل دعيج) بضم الدال ، وهم غير آل دعيج أهل مرأة « العرب » .

واشتهر به ، وهو من قبيلة بني زيد ، فكان يذهب هو وأخوه إلى الشعراء ويزرعان فيها ، ثم يعودان إلى شقراء ، ومن شقراء انتقلا إلى القويعية واستقرّا فيها ، وكانت القويعية وماحولها لقبيلة السُّهول ، وبعد تكاثر بني زيد ونموهم فيها استخلصوها بالشراء من قبيلة السهول ، بقي جماز بن حمد الجبري في القويعية ونمت فيها ذريته وقويت روابط المصاهرة بينهم وبين بني زيد ، حتى أصبح ابنه ناصر من أعيان البلدة وذوى الرئاسة فيها ، وقد رأس وفد القويعية إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — قال ابن بشر في « عنوان المجد » في حوادث سنة ١١٦٩ هـ وفيها وفد أهل القويعية على الشيخ محمد وبايعوه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، ورؤساء هذا الوفد ناصر بن جماز العريني وسعود بن حمد وناصر

وذكر ابن غنام مثلما ذكره بن بشر في تاريخه[1] .

وكان ناصر بن جماز يلقب بالعريني ومن ثم أصبح هذا اللقب عاماً لهـذه الأسرة .

بقيت هذه الأسرة في القويعية تشارك سكانها من بني زيد في نوائبها وإصلاح أمورها ، وكان الأكثرون منهم أهل ثراء وملكوا أملاكا في أعلى وادي القويعية وعمروها بالنخيل والمزارع ، فملك منهم محمد الأحيمر (أم أريطي[2]) في أعلى القويعية وملك عبد الله بن خلف (الجزع الشمالي من الخرنقع) وملك إخوته أملاك مزعل ، وأرادوا الانتقال إلى أملاكهم والاستقرار فيها ، وإقامة بلدة خاصة لهم في أملاكهم في مزعل ، وكان رئيسهم يومئذ عبد الله بن صقر العريني فلم يرض أهل القويعية من بني زيد ذلك الانتقال ، وحاولوا أن يحولوا بينهم وبين إقامة بلدة خاصة بهم ، غير أنهم صمموا على عملهم وبنوا بلدة مزعل وسكنوها ، وسمّوها بهذا الاسم لأنهم عمروها رغم معارضة بني زيد لهم في ذلك ، ولكنهم من ناحية أخرى قد

(١) روضة الأفكار ٢-٥٠ .

(٢) تصغير أرطى ، والعامة يقلبون الهمزة إذا كانت مضمومة واواً فيقولون (أم وريطي) .

احتفظوا بعلاقتهم ببني زيد سكان القويعية بأن تحملوا عنهم خمس ضريبة الجهاد وغيرها من النوائب التي تعتري البلد .

وفي عام ١٣٣٣ هـ مرّ الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ببلدة مَزْعل فعرضوا عليه شأنهم فأقرهم عليه وعين فيهم أميراً منهم وهو ناصر بن زريب العريفي ، وقد صاهر الملك عبد العزيز رحمه الله في هذه الأسرة ثلاث مرات ، المرة الأولى أثناء مروره ببلدة مزعل عام ١٣٣٣ هـ تزوّج زّجنوا ابنة سيف بن ناصر العريفي ، والمرة الثانية أثناء مروره ببلدة مزعل سنة ١٣٣٧ هـ تزوج فيها ابنة سعد بن ابراهيم العريفي ، أما المرة الثالثة فإنه تزوج فيها نورة ابنة خلف بن برهيم العريفي ، في بلدة الشعراء — كما مرّ ذلك في ذكر الشُعراء .

وما زالت هذه البلدة معمورة نامية ، حتى مرّ بها المغفور له الملك عبد العزيز عام ١٣٣٣ هـ ، ومنذ ذلك العهد وهي مستقلة في شؤونها الخاصة ، مرتبطة بقضاء وإدارة القويعية ، وفي هذا العهد أخذت بنصيب من النهضة العمرانية والاجتماعية التي شملت مدن المملكة وقراها فيما عمرانها ، وافتتحت فيها مدرسة ابتدائية للبنين ومدرسة ابتدائية للبنات ومدرسة متوسطة للبنين ، وفيها مكتبة عامة ، وفيه يقول الشاعر الشعبيُّ عبد الله اللّوح :

تَهَنّي بادبار العرض جاك الوابل المدْرارْ
وطنّا (داورْد) والشّعْرا ومزْعل والقُويعيّة

ويقول الشاعر الشعبي هويشل بن عبد الله :

يا الله طلبتك على الشقرا بهمّال
تَصَبّهْ بتَبّوجْ الظّلامْ ويشْعلْ إشْعالهْ
الى تهشّم ومنه شعيْبنا سال
يتْمرْ على مزْعل بالوبل وجبالهْ

ومن أهل بلدة مزعل : ناصر بن جماز العريفي الذى وفد على الدّرعية رئيساً لوفد القويعية كما تقدم ذلك .

ومنهم محمد بن سعود بن صقر بن ناصر العريني ، ولد في بلدة مزعل عام ١٢٩٠ هـ ، قرأ القرآن وحفظه في بلدته في سن مبكرة ، ودرس على قاضي القويعية عبد الله بن سليمان السياري ، ودرس في الرياض على الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف والشيخ حمد بن فارس ، وفي عام ١٣٣٢ هـ انتقل إلى هجرة الغطغط مرشداً دينيا ، ثم تنقل في عدد من الهجر غيرها ، وكان يرافق بعض الجيوش التي يبعثها المغفور له الملك عبد العزيز مرشداً وإماما للصلاة ، وفي آخر حياته عاد إلى بلدته مزعل وأقام بها آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر واعظاً ومرشداً حتى توفي فيها عام ١٣٥٩ هـ رحمه الله .

ومن أهل هذه البلدة الشاعر الشعبي هُوَيشل بن عبد الله بن هويشل ، وهو حربي من بني علي بالولاء ، كان أبوه شاعراً مقلا ، سكن هذه البلاد وكان أسود اللون ، وكان يعمل حائكاً ، وولد ابنه هويشل في بلدة مزعل عام ١٣٢٣ هـ وقال الشعر وهو شاب حديث السن ، وأجاد في شعره في فنون مختلفة ، فقال شعرا جيدا في انتصارات الملك عبد العزيز في فتح الأحساء وفتح الحجاز ، ووقعة تربة وغيرها ، وله قصائد في الملك عبد العزيز في مناسبات مختلفة ، وله في الغزل باع طويلة ، وقد اشتهر بشعره الساخر الهزلي لأنه ميزه من بين سائر الشعراء ، وله خيال واسع في شعره وتشبيهات دقيقة جيدة.

كان الشاعر هويشل معروفاً بعفافه وقناعته وكثرة صلاته ، وكان قارئاً للقرآن ، عاش فقيراً متعففاً يعمل أجيراً في حفر الآبار وفي الزراعة وغيرها ، وملامح حياته تبدو واضحة في شعره وتوفي في شهر ذي الحجة عام ١٣٧٦ هـ وقد جمعت ما تيسر لي جمعه من شعره ، وشرحت ما يحتاج إلى شرح من أبياته ، وهيأته للطبع ، ومن شعره هذه القصيدة بعث بها إلى صديق له رداً على قصيدة بعث بها إليه من مدينة الرياض :

يا راكبٍ اللّي كِنْ شَوْحهْ إلى غارْ
شوح الفهد في وَسْطِ ريمٍ يلوفهْ
أشقر مرفّع كِن خِفّه قفا الطّارْ
ومقدار بَوْع بركته عن دفوفه

اسبق من اللي ذار من داخن ثارْ
صيد جفل واستَتبعتْ له خشوفه
لا هَوب لا جودي ولا هوب خوّار
من نسل هجن كاملاتٍ وصوفه
يسبق هبوب الريح عجل إلى غار
خطر عضاده تمصع من كتوفه
أذنيه أحليها كوافير جبّار
نابي السنام منيلات قحوفه
يمسي إلى قفّط من العرض نشّار
في دار أبو تركي محنى سيوفه
يلفي سعد بردود وعلوم وأخبار
وعقب السلام الذرب واكله خروفه
قل له ترى (مبهل) زهيَ فيه نوّار
والخلف في مبهل تزبّر خلوفه
وقل له من العارض إلى العرض ويسارْ
عشب زهي يزداد زوفه ونوفه
وقبلك محمد والصحابه والأنصارْ
كل حزم قاسي الحجرْ فوق جوفه

ومن أهل بلدة مزعل الشاعر الشعبي إبرهيم بن سعد العريفي ، ولد في بلدته مزعل عام ١٣٣٧ هـ نشأ في بلدته وزاول قول الشعر مبكراً والتحق بخدمة الحكومة في إمارة المدينة المنورة ، ورافق جون فلبي في رحلته في شمال الحجاز ، وارتحل إلى كثير من البلدان ، وله ديوان شعر مخطوط ، وقد أذيع بعض شعره من إذاعة المملكة العربية السعودية . وهو من الشعراء المكثرين وله نفس طويل في شعره ، وقد عاد إلى بلده واستقر فيها ، ويعمل في عهده هذا مسؤولا في بريد بلده .

سعد بن جنيدل

— ١٥ —

رحلة المنالي الزبادي (١) :

ومن علماء المغرب الذين دونوا رحلاتهم إلى الحج الشيخ عبد المجيد ابن علي المنالي(٢) الزبادي الحسني الإدريسي المتوفي سنة ١١٦٣ هـ (١٦٥٠م) وهو من علماء المالكية من أهل فاس .

له أخ دعاه الفقيه العلامة الشريف أحمد بن علي المنالي الحسني ، جاور بالحرمين ، ونقل عنه كلاماً عن الحرم المكي ، وعن آداب الدخول في الروضة المشرفة .

والمنالي عالم له مؤلفات منها :

١ — « بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام » قال مترجموه عنه : ضمنه فوائد كثيرة .

٢ — كتاب في العروض .

٣ — « إفادة المرتاد ، في التعريف بالشيخ ابن عباد » وهو محمد (فتحا) ابن ابراهيم بن عباد النفزي ، يقع في كراستين في مكتبة الأستاذ عبد السلام ابن سودة مؤلف كتاب « دليل المغرب » .

٤ — ترجمة محمد بن علي مرزوق العياشي الرحماني المتوفي سنة ١١٤٩

---

(١) مترجم في « دليل مؤرخي المغرب » وكتاب « الأعلام » ٤ — ٢٩٢ .

(٢) نسبة إلى منالة من قرى السوس .

(٣) ص ١٤٢ — رحلته مخطوطة خزانة الرباط في المغرب .

٥ — فهرست نحو الـكراسة فى مكتبة الأستاذ محمد ابراهيم الـكتاني.

٦ — « شراب الصفا » بالتوسل إلى أهـل الاصطفاء » .

وللمنالي شعر منه قصيدة دعاها « إتحاف المسكين الناسك ، لبيان المراحل والمناسك » ضمنها رحلته[1] وله قصيدة يتشوق فيها إلى مغاني الحجاز ، مطلعها[2] :

سلامٌ على نجـد ومن حـلَّ فى نجـد
سـلامُ مُحِب زائدِ الشوق والوجـد

والمنالي صوفي تطغى عليه العاطفة في بعض المواقف ، ولـكن يجب أن لايكون هـذا حائلا دون الاستفادة من علمه :

ولست بمستبقٍ أخـًا لاتكمه على شعثٍ ، أى الرِّجال المُهذب؟

وقد حج سنة ١١٤٨[3]

توجه من القاهرة في ٢٦ شوال (١٢ نوبنبر)

ووصل مكة ٦ ذي الحجة (١٦ دجنبر) من المدينة وعاد إلى المدينة في ٢٦ ذي الحجة فدخلها خامس المحرم سنة ١١٤٩ . وسافر منها في ثامن المحرم .

وقد عوّل — في وصف مشاهداته — وفي كثير مما دونه على رحلة العياشي[4] .

وسألخص من رحلته مايتعلق بوصف الطريق من القاهرة . إلى مكة ، من وصف آثار المدينتين الـكريمتين ، ومشاعر الحج . محافظاً على كلامه

---

(١) ص ٢٠٣ مخطوطة الرباط .

(٢) ص ١٩٧-٢٠٠ كما أوردها محمد بن عبد السلام الدرعي فى رحلته الـكبرى — وهى مخطوطة .

(٣) ذكر بعض مترجميه أنه حج سنة ١١٥٨-١١٥٩ ولـكنه ذكر أنه دخـل المدينة سنة (١١٤٩) .

(٤) نشر ملخصها فى « العرب » ص ١٢ ص ج ١ و ٢

بنصه ، مع حذف مالا فائدة من ذكره . ورحلته لاتزال مخطوطة ، مع أنها من أوسع الرحلات إلى الحج ، وأوفاها ، وتعتبر متممة لرحلتي العياشي والدرعي ، وابن ناصر .

الطريق من بركة القاهرة إلى مكة
قال في وصف
سير الركب الفاسي والمغربي والمصري ما نصه

سير ركب الحج :

والركب الفاسي في هذه السنين مع الركب المصري يسير ، وإلى نظره يصير ، فينزل بنزوله ، ويرحل برحيله . . وأما الركب المغربي الذي يأتي من الجزائر ونواحيها ، فبعد رحيلنا من البركة نزلها ، وهكذا شأنه كلما فارقنا داراً وصلها ، يرحل عند الفجر ، وينزل في الثلث الأول من الليل ، وربما زاد أو نقص ، وكل ذلك مع السير المديد ، والعناء الشديد ،

وأما الركب المصري لم يزل من البركة يرحل قبل الفجر بساعة أو ساعتين ، وينزل بعد العشاء بساعة أو ساعتين حتى نزلنا بندر العقبة فصرنا نرحل عند الزوال ، وننزل عند الفجر أو الشروق على حسب ما اقتضاه الحال) .

البنادر في الطريق وقال :

(وفي الحصنين — في عجرود — عسكر لايفارقهما أبداً وكذلك غيره من البنادر ، وفي كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه ، ولهم جراية من بيت المال على ذلك .

وشأن هذه البنادر أن يخزن فيها الطعام على الدوام ليجده الراكب في الذهاب والإياب ، ويترك الناس فيها مااستثقلوه من الأزودة والأطعمة

إلى الرجوع ، ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر لما قدر أحد على سلوك هذه الطريق لكثرة مخاوفها ، وقلة مرافقها . ولكن الله يسّر لعباده ، للسلوك إلى أعز بلاده) .

عجرود :

وبتنا بالدار الحمراء ، في أرض صحراء قفراء ، ثم ارتحلنا ونزلنا عجرود ، طيب مائه مفقود ، وطعم الملح فيه موجود ، وهو حصنان متقاربان ، مبنيان بأوثق بناء ، وفي أحدهما بئر كبيرة ، تسني دائما بالبقر ، ويخرج الماء من البندر إلى ثلاث برك خارجه ، وفي الحصنين المذكورين عسكر لايفارقهما أبدا ، وكذلك غيره من البنادر في كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا فيه .

طريق المصانع :

(فبتنا بهذا المورد — عجرود — وقلنا ومن الليلة الثانية ارتحلنا فسلكنا طريق المصانع والمصانع سواري مبنية في سبخة ، لايظهر فيها أثر الطريق ، فجعلوا تلك الأعلام دليلا عليها ، وجعلوا في رءوس الأبنية حجراً طويلا خارجا إلى ناحية الطريق ، ليستدل به الماشي ليلا ، وربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح بليل ، وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل ، حتى انتهوا بها إلى رأس وادي الرمل وتسمى هذه الأعلام اليوم النواطير [1] ، وهي جمع ناطور [1] ، والناطور [1] في اللغة هو الحارس ، فكأنها تحرس الماشي من التلف (؟) عن الطريق ، فكأنها تقول بلسان حالها : الطريق أمام ، فلاتمل يمينا ولا شمالا عن الأعلام ، وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري دائما وكذا المغربي ، إلا في أوان الحرّ وخوف العطش فيعدلون عنها إلى النابعة ، التي هي للماء العذب والهواء الركب جامعة . فلما قطعنا مسافة النواطير ، ودخلنا وادي الرمل بخير المقادير ، بتنا . . . وتسمى هذه الدار على ألسنة الناس اليوم رءوس النواطير وفيها أهل هلال ذي القعدة) .

---

(١) كذا وفوق الظاء نقطة .

وادي التيـــه :

ثم ارتحلنا — من رءوس النواظر — قرب الفجر ، وسرنا في الوادي جُلَّ يومنا ، ومررنا آخر النهار بالعقبة المشرفة على التيه ، وقد كانت فيها صعوبة فَسُوِّيَتْ ، وبُنيتْ بناءً متقنا ، حتى صارت طريقاً لاحبا . ودخلنا أرض التيه ، وسرنا إلى العشـــاء ، ونزلنـــا بوادي التيه ، الذي ماله في الوحشة من شبيه ، كثرتْ فيه الطرق وامتدَّتْ ، وتشابهت مسالـــكه وماحُدِّدَتْ ، تيهاء هياء (؟) بعيدة عن الماء ، يعطب فيها الظماءُ من الظماء ، (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء) وقد قال في ذلك شيخ شيوخنا أبو سالم :

ولمْ أنسَ بالتيه يومـــاً به تفانى الحجيج صـــدّى وَوُلُوهـــا
وإن يستغيثوا يغاثوا بماء عجرود كالمُهْل يشوى الوجوها

فبتنا به إلى السحر) .

بنــدر النخيل :

(فسرنا يومنا في أرض التيه إلى الأصيل ، فنزلنا ببندر النخيـــل ، سالمين مما أصاب بني إسرائيل ، وهو قلعة حصينة ، فيها بئر نفيسة ثمينة ، ماؤها عذب بارد ... لا تنزح أبداً ، يسقى منها بالبقر إلى بِرَكٍ خارج الحصن ، وهي ثلاث مثل التي في عجرود ، إلاَّ أن هذه أعظم منها ، وتقام إلى جانب الحصن سوق كبيرة خيراتُها نامية ، وفيها من الفواكه الشامية مثل الزبيب واللوز ، والتفاح والموز ، والسفرجل والرمان ، وغير ذلك من الألوان ، فبتنا ليلتين) .

بئر الصعاليك :

(ومن آخر الليلة الثانية ارتحلنا حتى إذا كنَّا ببئر الصعاليك نزلنا وتسمى أيضا بئر البارود ، وهي بئر كبيرة طويلة ، مطوية بحجر ، وبناء متقن ، في أصل واد ، وبجانب البئر أثر بناء وبركتين ، إلا أنه لاعمارة عليه ، وماؤه بارد إلاَّ أنه قبيح ، لا يكاد الشارب يسيغه) .

عرقوب البغلة :

ثم ارتحلنا – من بئر الصعاليك – ومررنا آخر يومنا بموضع يقال له عرقوب البغلة ، وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها قد سُوِّيَتْ وبنيتْ ، واتُّخِذَ على جانب الطريق مسجد صغير غير مسقف . قال أبو سالم : وذلكَ من عمل الأمير رضوان المتولي لإمارة الحاج أزماناً طويلة قريبة من الثلاثين ، وتوفي سنة ست وستين ، أو قريباً منه ، وكانت له آثار حسنة في طريق الحجاز ، من قطع الأشجار ، وإزالة الأحجار من الطرقات . وحفر بعض الآبار ، وتجديد بعض البرك فجزاه الله خيرا ، فلقد كانت له همة عالية في تخليد المآثر ، فكم بالغ في الثناء عليه كل لسان ، وأطلق بالدعاء له كل إنسان .

وإنَّما المرءُ حديثٌ بعدَهُ فكُنْ حديثًا حسَنًا لِمَنْ وَعَى

وفي وقت العشاء نزلنا سطح العقبة وبتنا)

العقبة :

(ثم ارتحلنا – من سطح العقبة – قرب الفجر ، فلما بين الصبح أنيخت الركاب حين وصول أولها إلى أول العقاب ، فصلى الناس الصبح ، وجعلت الإبل تسلك فيها شيئاً فشيئاً على مهل وكثرة وجل ، ومنذ صليت الصبح ترجلت ، وأتيت عند طلوع الشمس إلى المرقبة ، وشرعت نزول العقبة ، فما صليت الظهر ، حتى وصلت إلى البحر ، بعدما جلست فى الطريق مرتين ، جلستين طويلتين ، وأتيت الدار قبل العصر فصليت هنالك العصر والمغرب والعشاء ، وحينئذ وصلت جمالنا ، فانظر ماأصعب هذه العقبة ، وكيف لا وهى عقبة أيلَةَ التى قديماً قيل فيها :

بطريق أيلةَ أجبُلٌ وَعِقابُ
لا يَرتَجي فيها النجاةَ عِقابُ
فكأنما الماشى عليها مُذنِبٌ
وكأنما تلك العقاب عقاب

وقد قيـــل فيها أوفي مثلها :

سلكنا عقـــاباً في طريق كـــأنهـــا
صَيَـــاصِي دُيُوك أوْ أكفُ عُقَـــابِ
وماذاك إلاَّ أن ذنبي أحَـــاط بي
فـــكان عقـــابي في سلوك عقـــابِ

على أنها اليوم قد نُحِتَتْ وسُوِّيَتْ ، وحافتها المحفوفة ببناء متقن قد بُنِيَتْ ، ومع ذلك لاتسلك إلا برهبة ، ومع صعوبتها فيها الخوفُ الشديد من الأعراب (أن يقعدوا على المضيق فما يقدر أحـــد على الذهاب أو الإياب فلـــذاك ترى الجنـــد والعسكر يبكرون فيتقدمون إلى مضايقها فيعسكرون وقد سلمنا ولله الحمد من أعرابها . . . وبتنا ليلتنا عنـــد بندر العقبة ، وهو حصن حصين في قرية على شاطئ البحر في فسح جبل ، وبها آبار كثيرة ، مياهها عذبة غزيرة ، وفيها أيضا نخيل كثيرة ، وتقام فيها سوق كبيرة ، يحضرها أهـــل غزة بأنواع الفواكه والنِّعم ، والأعراب بالسمن والعســـل والنَّعم ، أقمنا هنالك الغـــدَ وليلته جمعـــاء ، وبعد الغد إلى الزوال) .

ظهر الحمار ـ حفاير النخل :

(وعند الزوال يكون الارتحال فارتحلنا من هنالك ـ بندر العقبة ـ في أضيق المسالك ، بين البحر والجبل ، لا يمرُّ فيه إلا جمـــلٌ إثر جمـــل ، فمررنا آخر النهار ، بموضع يقال له ظهر الحمـــار ، وهي (؟) بسيط من الأرض أحرش مرتفع ، يطلع إليه من مسلكين لا يخلُوَان من صعوبة ؛ وتحته على ساحل البحر أحساء كثيرة في وسط حدائق نخل ، وماء ذلك المحل كله طيب ، ويقال لهـــا حفائر النخل ، ولم ننزل بهذا المحل بل تعدَّيناه حتى زاحم وقتُ المغرب ، فأناخوا الركب كله من غير حَطٍّ ، فصلى الناس المغرب وتعشَّوْا وأثاروه إلى أن تمكن وقت العشاء غاية التمكن ، فأوقفوا الركب حتى صلى الناسُ العشاء ، وساروا حتى قرب الفجر ، فوصلنا إلى موضع يقال له عُشُّ الغراب ، ويقال له أيضا شرفات بني عطية وبنو عطية

هم عرب هذه البـلاد كلها في هـذا الوقت ، فانحـدرنا منه إلى فسيح يقال له أبو العظام ، ونزلنا هالك ، وأقمنا به إلى الزوال ، وما زال هكذا شأننا في سير الليل .

مغاير شعيب — مدين :

ثم ارتحلنا من هنالك ، أبي العظام — منحدرين مع الوادي لا نفارقه إلى أن نزلنا مع طلوع الشمس المكان المسمى مغاير شعيب عليه‌السلام وهي أحساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل وماؤها طيب عذب خفيف نافع ، وبين هـذا الموضع وبين مدين مسيرة نصف يوم ، وهي بلدة على ساحل البحر ، كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة ، وسكانها الآن أعراب أهل بادية ، وكانت قبـل ذلك مدينة فخربت ،ويذكر أن أثر البناء باقٍ بها إلى الآن ، ومَدْيَنَ الذي سميت به أحد بني وابل (؟) بن جذام ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لوفدجذام : « مَرحَبًا بقوم شعيب وأصهار موسى ، ولن تقوم الساعة حتى يتزوج فيكم المسيح ويولد له » .

وعلى يسار منزلنا خارج المضيق مغارة يقال : إن فيها كان شعيب عليه السلام يأوى بغنمه ، وبإزائها بئر كبيرة معطلة ، وبجانبها بركة ، ويقال : إنَّ هنالك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غَنَمَ شعيب عليه السلام. وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخـل ، وعريش كثير ، وفيه جداول الماء الغزير ، وفي هـذا المحل يقول الشاعر :

قـد وصلنـا إلى مغـار شعيب
فـرأينـا الميـاه كالأنهـارِ
فاستقينـا من مـائه واشتفينـا
وظـفرنا بغـاية الأوطـار
وذكرنـا بغـاره غـار ثَوْرٍ
مُذْ حَـوَى للصديق والمختـار

خــير من أنزل الإلــه عليه
(ثاني اثنين إذ هُمَـا في الغــار)

فأقنا هنــالك إلى الــزوال) .

عيون القصب :

ثم ارتحلنا[1] — من مغاير شعيب — وبعيون القصب من آخر الليل نزلنا، وهو ماء جارٍ في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب والديس ، وفيه يقول القائل :

قد وصلنا لعيــون القصب   واستراح القلب بعــد النصب
فجلسنــا في صفــاء حولها   وظفرنا عنــدهــا بالأرب
وتشوقنــا لشــادٍ مطرب   يتَغنّى بعيــون القصب

المويلح :

(ثم ارتحلنا — من عيون القصب — مسايرين البحر إلى بندر المويلح ،وفي الثلث الأخير من الليل وصلناه ، وهو حصن كبير ، فيه عسكرٌ وأمير ، يخزن فيها الميرة ، وعلى بابه سوق كبيرة ، فيها غالب المحتاج والفواكه الكثيرة ، وهنالك بساتين حسنة ، ومقاثي مستحسنة ، ونخــل كثير ، وآبار كثيرة ماؤها عذب غزير ، ومَرْسَى عجيبة تنزل بها السفنُ القادمة من سُويس وجدّة ومن القُصير ، فأصبحنا هنالك مقيمين ، ومن كل مكروه بحمد الله آمنين ، فظللنا وبتنا ، ومن الغد أقنا إلى الزوال ، وآن الارتحــال) .

دار أم السلطان — شق العجوز :

فارتحلنا — من المويلح — ومررنا بالموضع المسمى بدارِ أُمّ السلطان ، وبعضهم يقول : دار السلطان ، والعامة تقول اليوم : بيار السلطان ، وتجاوزناه سالــكين في المضيق المسمى بشقّ العجوز حتى أتينا موضعاً بين البحر وجبــال سَلْمَى وكفافة ، ونزلنا) .

---

(١) أي من بعــد الزوال — كما يفهم من الــكلام على ظهر الحمار .

وقال في وصف طريق عودته :

(ثم الأزلم ثم الكفافة ، ويقال الدار اليوم بيار السلطان ثم المويلح ويسمى مابين ينبع والمويلح بالعشارية لأنها عشرة مراحل لاإقامة فيها دون المعتادة ، وهي نصف يوم بلا زيادة ، لأنها في هذه الأعوام لابندر فيهـا) .

قبر الكفافي — الأزلم :

(ثم ارتحلنا من هناك مارّين بقبر سيدى مرزوق الكفافي على ساحل البحر ، مُعلمٌ عليه بأعواد ، والناس يتبركون به ، وفي ذلك قيـل :

إنَّ وادى سَلمَى بَهِيٌّ بَهِجٌ
حيث فيـه قَـبرُ الولي المُسَمّى

(... ثم أورد بيتين بعده وأبياتا أخرى من نظمه[1] فلم نزل سائرين حتى نزلنا نصف الليل ببندر الأزلمَ وقد ثرم بعضُ سوره وتثلّم ، وانهدّ مافي داخله من البيوت وتهدّم ، وهنالك ثلاث آبار محكمة البنـاء ، غزيرة المـاء ، إلاَّ أنه بين زعاق وأجاج ، لايتجرعه إلا المضطر المحتاج ، فيفتقر منه إلى العلاج ، وعن يسار البندر على بُعْد من الآبار حِسيٌّ محفور في الأرض غير مَطْوِيٍّ ليس بمائه بأسٌ ، إلاَّ أنه قليل ، ولا يعرفه الكثير من الناس)

اصطبل عنتر :

ثم ارتحلنا — من الأزلم — وبين جبلين مَرّرنا ، وفي مضايق وعقاب صغار سرْنا ، إلى أن أتينا المـكان المسمى اصطبل عنتر فنزلنا ، وعنـد السحر وصلنا ، وفيه ثلاث آبار محكمة البناء ، عذبة الماء ، غير أنه ضنين ليس له إلى الوارد حنين ، وفي شأن هـذا المنزل يقول الشاعر :

---

(١) حذفناها لتضمنهما معنى لايسوغ شرعا . وماذكر من التبرك ووضع الأعواد من الخرافات التي لاتجوز للمسلم .

إنْ جئْت للإصْطَبْل لا تغفل به عند النزول
واحذر منَ العَرَبِ التي بجبَاله أبداً تصُول
واعلم فدينُكَ أن [1] صَعْب ولكني أقول
قد سُمي الإصطَبلُ منْ عُرْبٍ به شبه الخيُول

الوجه :

ثم ارتحلنا – من الإصطبل – مارين بوادي الاراك ، متجاوزينه إلى مضايق ذات اشتباك واشتراك ، بين هضاب وجبال ، وفدافد وتلال ، حتى أتينا بندر الوجه عند الفجر ، فنزلناه .. وفيه حصن حصين في جرف واد كبير ، يخرج من بين جبلين ، والناس يهابون النزول في أصل الوادي إذا كان وقت السيول ، فيرتفعون إلى أعاليه ، وفي الوادي عدّةُ آبار بعضها حسن ، وبعضها ذو أسن ، والتي فوق البندر أحسن من التي تحته ، وداخل البندر بئر تُسْنَى بالبقر ، وتُصَبُّ في ثلاث بِرَك خارج البندر ، لصْق حائطه ، والناس يحملون من هذا المحل ماءً كثيراً ، لما استقبلهم من المسافات العويصة ذات المياه البشعة والبعد عن العمارة ، وفي هذا البندر – كغيره – عسكر وأمير ، وهو آخر البنادر التي في طريق الدرب ، وليس بعده عمارة إلى الينبع الذي هو أول عمارة ببلاد الحجاز على طريق الحاج ، ويخزن في هذا البندر مايحتاجون في الإياب من طعام وعلف دواب – وهو آكَدُ موضع للخزن ، لأن الركب في الرجوع قد يصل إلى هذا المحل قبل وصول الممتارين للطعام من مصر إليه ، فيغلو الفول والطعام غاية تعجز عنه الأثمان في بعض الأوقات .. هذا ماكان عليه الحال قبل هذا الزمان بأعوام ، أما اليوم فمنذ سنين صار عمدة الحاج على بندر العقبة ، والمويلح وعلى ينبع ، وأماما بين المويلح وينبع فلاعمدة لهم عليه في طعام ولا علف ، سوى الماء عند الحاجة إليه ، وجُلُّهُ قبيح ، فلا ينزلون في هذه المفازة كلها إلاالنزول

---

(١) كذا ولعله (أن ذا) ليستقيم الوزن .

المعتاد ، الذي لا يحصل بدونه المراد ، ويُسَمّونها اليوم العشارية لأنها عشرة مراحل متوالية لا إقامة فيها) .

أكره :

(ثم ارتحلنا – من الوجه – آمنين مما تكره ، فمازلنا سائرين حتى نزلنا أكره ، وهي أرض لاترتاح لها النفوس ، ولا ينفكُّ طارقها عن العبوس ، ماؤها شين زعاق ، مُرُّ المذاق ، يفضي إلى الإطلاق ، ووجع المراقّ ، وإن كان عقب سَيْلٍ حَسُنَ ، والمحفور منه في يومه أحسن من القديم . وفي « القاموس » : الأُكرة – بالضم – لغة في الكُرَة ، والحُفْرة يجتمع فيها الماء فيغرف صافيًا . فلعلّ الموضع سمي بذلك لأنّ فيه حُفَرُ ماءٍ ، ويحتمل أن يكون منقولاً من مضارع كره) .

بين الدركين :

(فما لبثنا أن رحلنا – من أكره – وبين الدركين نزلنا ، وإنما سمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر ، وأعراب الحجاز ، فإن مابعده من عمل الحجاز وفي درك أعرابه ، ولاماءَ بهذا المكان أصلاً وبه أعراب تَشْهُرُ على المتأخر نصْلاً ، فارتحلنا منه سالمين من كل داءٍ ، ونزلنا على العقبة السوداء ، ويقال إنها أول أرض الحجاز . ولا يبعد ذلك لشواهد حِسيَّةٍ هنالك) .

الحـوراء :

(فمازلنا – من العقبة السوداء – محاذين للبحر إلى أن نزلنا الحوراء ... وهي ذات حفائر على ساحل البحر ، يحيط بها ديس كثير كالقلائد للنحر ، وفي مياهها ملوحة تقلُّ وتكثر ، وحَفْرُها يسهل ولا يعسر ، وأجودها القريب العهد بالحفر ، وكل ما طال منه ولو في القرب فهو أبو دَفْر ، والإكثار منه يورث إسهالاً مُفْرطاً ، كماء (أكره) و (الأزلم) و (عجرود) فهو ماء مورود غير مودود ...[1] قال الشاعر :

---

(١) هنا فصل طويل عن المياه من الناحية الطبية .

جئنا إلى الحوراء وهي مَحَطَّةٌ فيها الاراك[1] نَزَاهَةٌ الرائي
نادَيْتُ خِلاً : قِفْ بها متأملاً وانظر لِرَمْلٍ مُغْمَرٍ بالماءِ
واغنم زماناً مُقْبِلاً بسعوده فيه اجتماعُ الشَّمْلِ بالحوراءِ

ومن أمثال الحجاج : لا رجال الارجال الحوراء ، ولاجمال إلا جمال الدوراء المعنى : أن الرجال الحقيقيين هم الذين يأخذون بالحزم في هذه الأرض فلا يغترّون ، فيقطعونها وهم من نهب أعرابها سالمون ، لأنهم من أجرأ الأعراب على السرقة ، وهذا بالنسبة إلى الحجاز ، فإن المثل فيه ضُرِب ، وأما في غيره فما رأينا أجرأ على النهب ، ولا أضَرَّ على الركب من عرب بالمغرب في طريق الحاج ، في أرض يقال لها وادي سيدنا خالد .

ويعنون بالدوراء : الدورة – أي الرجعة – أي لا يُعَدُّ من الجمال إلاَّ الذي صَبَرَ في حال الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر ، ومحلٌّ قلة العلف).

العقيق – وادى النبط :

(ثم ارتحلنا من الحوراء عند الزوال ، مارّينَ في واديها الكثير الأراك والظلال ، حتى إذا ارتفعنا فيه عدلنا يميناً إلى الوادي المسمَّى على ألسنة الحجاج بوادي (العقيق) .

قال في « القاموس» : العَقيقُ – كأميرٍ – خَرَزٌ ، – إلى أن عطف عليه قوله –: والوادي ، الجمع أعقَّةٌ ، وكلُّ مسيل شقَّهُ ماء السيل ، وموضع بالمدينة ، وباليمامة ، وبالطائف ، وبتهامة ، وبنجد ، وستة مواضع أخر – انتهى المراد منه – فسرنا معه حتى أتينا وادي النبط ، فحلّ فيه الحطُّ ، وفيه آبارٌ أربع محكمة البناء بالحجر المنحوت ، وماؤها عذبٌ غزير في الغالب ، وغزارة مياه أودية الدرب إنما تكون بحسب كثرة المطر وقلته ، فإذا حمل الوادي ولو مرّةً في السنة غَزُرَ الماءُ سائر السنة ، وبالجملة ففي هذا الوادي

(١) فى الأصل (الارك) .

من الأثل ظلٌ ظليل ، ومن الماء مايشفي العليلَ ، ويُطفي الغليل ، وفيه يقول الشاعر :

وفي أكرة والتي بعـدها   مرارةُ ماء تزيدُ القساوهْ
فجئنا إلى نبْطَ نشكو الظمـا   فأنعَشَنا ماؤُها والطلاوه
ولما صَبرنا على غيرهـا   فأعقَبَنا صَبْرُنا بالحلاوةْ

وصرف أكره للضرورة ، سواء كان بالهاء أو بالتاء ، فالأول ما نعُه وَزنُ الفعل ، والثاني ما نعُهُ العَلَمِيَّةُ والتأنيث ، وصرف غير المصروف سائغ في الشعر اتفاقاً ، ومَنعَ (نَبْطاً) من الصرف للضرورة ، وذلك أيضا سائغ في الشعر ، على خلاف فيه ، ولعله أوّلهُ بالبقعة ، فأوجب ذلك منعه ، وفي «القاموس» : نَبَط الماءُ يَنبُط ويَنبِط نبطاً ونبوطاً نَبَع ، والبئر استخرج ماءَها .ونَبْطٌ واد بناحية المدينة قرب الحوراء التي بها معدن البرام . وفيه أيضا : والبُرْمَةُ بالضم قِدْرٌ من حجارة ج : بُرْمٌ بالضم وكَصُرَدٍ وجبالٍ ، وكُمنبر : صانعها أو من يقتلع حجارتَها من الجبال) .

الطراطير — الخضرا :

(ثم ارتحلنا — من الحوراء — سائرين في الأباطح بين الطراطير ، والطراطير جبالٌ سودٌ فويق الجبال ، ثم في واد بين التلال ، حتى نزلنا الخضرا — بالتكبير — ويقال : الخضيرا بالتصغير) .

السبع وعرات — وادى النار :

(ثم ارتحلنا — من الخضرا — في صعودات وحدورات ، تسمى السبع وعرات وهي قور معترضة في الطريق ، نصعد إلى أعلاها ثم ننحدر إلى أسفلها فنمشي في طريق مستوية ، ثم تعرض قارة أخرى كذلك إلى سَبْع ، والقارة الجبل الصغير ، وجمعه قور — بالضم — فهي وعرات كبيرة ، أصعبها الأولى والأخيرة . ومن نبط إلى ينبع مفازة كبيرة كثيرة الحر والرمال والأوعار ، عديمة الماء ، فسميت بذلك وادي النار ، فهو كثير الأخطار ، لايخلو في الغالب عن الأكدار ، ثم بعد الوعرات خرجنا إلى الفضاء) .

ينبع :

فلما كادت الشمس تطلع ، وصلنا أرض ينبع ، وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب ، وآخرها في الإياب ، فأنخنا ببندره الركاب ، وضربنا بفنائه القباب. وفي «القاموس» وينبُع – كينْصُرُ – حصن له عيون ونخيل وزروع بطريق حاج مصر ، وهو عن يمين رَضْوَى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر . وقد ذكر أهل السير أن النبي صلى الله عليه وسلم وصل إليها في إحدى غزواته وذكر السيد السمهودي أن مسجد القرية التي ينزلها الحاج من المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم ونزول هذه القرية من العمر (؟) في طريق الحاج إذ يوجد فيها جميع المحتاج ، ويخزن فيها في الذهاب ، مايحتاج إليه في الإياب ، ولم أدخل هذه القرية لما صار فيها اليوم من الخطر ، مع جهلي إذ ذاك بأنّ بها شيئاً من الأثر ، فأقمنا هنالك يومنا وليلتنا حتى قضينا فيها الوطر) .

السقائف – الدهنا – بدر :

(وحين صلينا العصر أخذنا في السفر – من ينبع – ولما مضى وَهْنٌ من الليل أنخنا للراحة في السقائف الفسيحة الساحة ، فلما تهوَّر الليل أثرنا الرحال ، ومررنا بالدهنا ذات الرمال ، والآكام والتلال فلما بين الصبح لذي عينين أتينا الأبرقين فصلينا الصبح ومررنا بينهما ، وهما جبلان شامخَانِ ، أحدهما عن اليمين من صخور سود وجلامد ، والآخر عن اليسار من رمل رطب متراكم متزايد ، راقٍ في الجو صاعد ، وما بينهما قريب كأوسط السكك غير متباعد ، فتجاوزناهما حتى أتينا بَدْراً فنزلنا ، بعد طلوع الشمس وصلنا ، وهنالك قرية حسنة ، ذات نخيل مستحسنة ، وماؤها عذب زلال نمير ، وفيها بركة كبيرة ، تكفي الأرْكاب كلّها ولو جاؤوا الجمّ الغفير ، ومادّتها من عين هنالك ماؤها غزير ، وكان نزولنا في فسيح خارج البلد ، بحيث صار الجبل النصرين(؟) بمرآى منا ، وقبور الشهداء قريبة غير بعيدة عنا ، وعلى ذلك البلد حلاوة ، وسر وطلاوة ، وانشرحنا فيها الصدور ، وحلها والحمد لله أي نور (؟) وكيف لا وهي

البقعة التي نصر الله فيها الدين ، وخذل المعتدين ، وأعزّ الإسلام ، وأهان عبدة الأصنام — ثم أطال الكلام وأورد أشعاراً له وقال : وهذا أول موضع تمنيت أن يكون فيه معي جميع الأحباب ، عسى أن نفوز بالرضا من رب الأرباب ، فقلتُ في ذلك :

نزلنا ببدرٍ والسرور مُصاحبٌ وأذكرني أهلي وناسي وصاحبي
تمنيت أن لو شاركوني بمنزل به نصر الرحمن خير المواكب

— ثم أورد أشعاراً[1] وذكر أنه نظم قصيدة ثمانينية سنة١١٤٢ أورد بعض أبياتها وقال — فأقمنا يومنا في سرور وفرح ، وحبور لا يبقى معه ترح ، وبعد صلاة العصر جلست مع الإخوان فقرأنا بعض القصائد في المديح النبوي ، منها المذكورة في « رحلة البلوي » التي مطلعها :

الله أكبر حبـــذا الإكبار لاح الهدى ، وبدت لنا أنوار

. . . وكان من ذلك آخر « الهمزية » للبوصيري (ض) المشتمل على ذكر مراحل الحجاز ، . . . ثم بعدها شربنا طبيخ السكر ، وهو كما يذكر عادةُ الحاج في ذلك المحضر ، وبتنا بليلةٍ بالشموع والمصابيح كثيرة الأنوار ، هائلة بالمحارق والمدافع الكبار ، تسمى ليلة الوقدة ، لها بين الخاص والعام أيُّ اشتهار ، فإذا لحقهم[2] هنالك الركب الشامي كان ذلك غاية الأمور الحسنة ، والعجائب المستحسنة ، ولم يدركهم في هذه السنة ، وانقضى ذلك كأنه سِنة) .

قاع البزوا — سبيل محسن :

ثم ارتحلنا من الغد — من بدر — مارّين بالبزوا . . فتركنا السبيل الأول وراءنا ، وأتينا السبيل الثاني فكان ماءنا ، وهو المشهور بسبيل محسن والعامة تسمى هذه الدار قاع البزوا ، وربما أفردوا البزوا عن القاع ، والقاع البزوا ،

---

(١) لم أر مايدعو لإيرادها لما فيها من المبالغة .

(٢) لعل في الكلام نقصا . ويلاحظ أن ماذكر من إيقاد الشموع وشرب طبيخ السكر ونحو ذلك من الأمور التي حدثت (وكل محدثة بدعة) .

ووجهه أن هذه الأرض في هذه المرحلة كلها تسمى بزوا ، لما فيها من الضيق والإحديداب وعدم الاستواء ، وهذا الطرف منها لمـّا اطمأنّ واتسع وسهل وما ارتفع سمي بالقاع ، لأجل الاتساع ، وأضيف إلى البزوى (؟) لأنه بعضها أو مجاورها بلا نزاع ، وفي « القاموس » : والقاع أرض سهلة مطمئنّة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، وغالب الأرض من هذا المحل إلى قدّيد كذلك ، وأفسحه وأسهله رابغ ، فإنك لا تكاد ترى فيه جبلا) .

رابغ :

(ثم ارتحلنا — من قاع البزوا — فسرنا إلى السحر ونزلنا رابغ ... وميقات أهل مصر والشام كما كان قبل هذا الزمن بكثير من الأعوام هو الجحفة — بجيم مضمومةفحاءمهملة ساكنةفهاءتأنيث — قرية جامعة على اثنين وثمانين ميلا من مكة ، وكانت تسمّى مَهْيعة ، فنزلها بنو عبيل ، وهم إخوة عادٍ ، وكان أخرجهم العماليق من يثرب ، فجاءهمالسيل الجُحّاف فاجتحفهم فسميت الجحفة ، ولما هاجر الصحابة إلى المدينة ، وجدوها كثيرة الحمّى فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « اللهم انقل حُمّاها إلى الجحفة » فكان إذا مرَّ الطائرُ بها سقط ، ومازالت من زمانه صلى الله عليه وسلم ميقاتاً لأهل الشام ومصر إلى أن تعذر ذلكولست أدري الآن ما سبب تعذره ، فصار الناس يحرمون اليوم من رابغ ، والفقيه منهم يحافظ على استحضار النيّة ومتابعة التلبية حتى يقابل الجحفة .

ورابغ وادٍ متسع بين الحرمين الشريفين ، قرب البحر ، يأتي إليه السيل من بعيد وتزرع فيه مغل (؟) كثيرة ودخن وذرة ، وهو من أخصب أودية الحجاز ، ولذلك سمي رابغاً من قولهم : ربغ القومُ في النعيم ، إذا أقاموا ، أو من قولهم : عيش رابغ ، أي ناعم ، أو من قولهم : ربيع رابغ ، أي مخصب ، وفيه قرية فيها نخيل وآبار ، وهناك بركة كبيرة مبنية هناك مملوءة يستعين الناس بها على السقي وغيره من مقتضياتهم ، وقد أغنانا الله عن جميع ذلك ، فجداول ماء وجدنا هنالكتجرى من بقايا سيل قريب

العهد ، فاستعملنا خصال الفطرة واغتسلنا ولبسنا الإزار والرداء والنعلين ، وهناك تباع النعال للإحرام .

فلما زالت الشمس صلينا الظهر . . . ثم ركبت ناقتي فلما انبعثت بي أهللت بالحج مفردا . . . وجعلت أجدد التلبية . . وقد قال الشاعر :

تَجَرَّدَتَ لما أن وصلت لرابغ ولبَّيْتُ للمولى ، كما حَصَّلَ الندا
وقلتُ: إلهي عندك الفوز بالغنى وإني فقير قد أتيتُ مُجَـــردا

وقلت في المعنى :

وفي (رابغ)ركب الحجيج تجردا لِيَسْأَلَ مولاه الأمان ، من الردى
خضوعاً أذِلاً ، سائلين إلاههم بفيض عليهم أبْحُرَ الْجُودِ والنَّدَى

قديد ـــ هرشا [1]

فسرنا ـــ من رابغ ـــ حتى صلينا العشاء ، في بطن هَرْشَا، وتمادينا في السير طوراً وَحَيًّا (؟) وطوراً رُوَيْداً ، حتى نزلنا الفجر قُديداً ، وهي قرية غالب أبنيتها حيشان ، وفيها فواكه ، ولا ماء بها إلا ما يستقى من بعيد، وأرضها ذات مزارع كثيرة ومقاثي، إلا أنَّ زراعتها إنما هي إذا جاء السيل، وأكثر المقاثي في بلاد الحجاز إنما تزرع على ماء المطر ، في الأماكن التي يستنقع بها الماء .

عقبة السكر ـــ خليص :

(ثم ارتحلنا ـــ من قديد ـــ فررنا في الطريق بعقبة السويق ، وتسمى اليوم عقبة الشُكر [2] ، ووجه كل من التشبيهين ظاهر لا ينكر، وهي رمال تتعب فيها الجمال وتعيي الرجال ، شاقة في جبل صغير من سود الجلامد والصخور ، وينزل منها إلى أرض مخصبة صلبة حرشا . . . فبلغنا قرب

---

(١) المعروف أن هرشا لاتقع بين رابغ وبين قديد ، فهي طرف من الحرة يقع بين رابغ وبين الأبواء (الخريبة الآن) ومثل هـذا الخطأ ورد في رحلات كثير من المغاربة .

(٢) كذا بإهمال الشين خطأ .

الغروب إلى خليص ، فبركت الإبل ونزل الناس ، وهنالك حصن يحصل به الايناس ، وأبنية وقهاوي ، ودلاّع يصلح للتداوي ، ويسمونه الحبحب ، وهو أحلى دلاع يوجد وأطيب ، ولا ينقطع الدلاع من الحجاز صيفاً ولا شتاء إلا سنة الجدب والعام الأشهب ، وماء هذه الأرض عذب زلال غزير سلسال ، يأتي من عين هناك ، في قنوات محكمة تفجر في مواضع للسقي والوضوء إلى أن يخرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية مديرة الأقطار (؟) بعيدة القرار ، ويخرج منها إلى مزارع وأوطار) .

مدرج عثمان ــ عسفان :

(وتناول الناس العشاء . . وللسير على النزول آثروا ، حتى أتوا على ثنية سهلة مسوّاة مبنية ، ولعلها مدرج عثمان ، فلما تجاوزناها نزلنا صباحاً قرية عسفان ، وفيها سوق وآبار متعددة ، من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها ، ، وفي « القاموس » . . وعسفان كعثمان موضع على مرحلتين من مكة ، والحجاج تارة يجعلونه في مرحلتين ، وتارة في مرحلة ، ونحن جعلناه في مرحلة) .

وادى الشريف (وادى فاطمة) :

(ثم ارتحلنا من عسفان ، ثم مررنا بوادي العميان ، سمي بذلك لأن الفقراء يتعرضون فيه للركبان ، بقصد الصدقة والإحسان ثم جئنا الوادي معولين على الجدّ في السير والتمادي ، وهو يسمى وادي الشريف ، ويعرف الآن بوادي فاطمة ، وقديماً بطن مرٌ ومرٌ الظهران ، وهو وادٍ كبير على مرحلة من مكة ، فيه قرى متعددة ، وعيون متدفقة ، وبساتين مونقة ، ومزارع بهيجة ، وأزاهر أريجة ، وفيه يقول الشاعر :

يا حبذا وادٍ فسيح الفضا ... أريجه قد عطر النادي
كم فيه من فاغية قد زكت ... وفيه زهر الفلّ والكادي
وكم ثمارٍ وزروع به ... والماء فيه ينعش الصادي
قلت لخلي حين شاهدته ... ولاح لي نور السنا البادي
هل دار ليلى قد تدانت لنا ؟ ... فقال لي : إنك بالوادي

سرف – التنعيم – طوى :

(وسرنا عامة ليلنا .. وآخر السحر مررنا بِسَرِف – على وزن كتِف – موضع به قبر أم المؤمنين ميمونة توفيت بهذا الوادي سنة ٥١ وقيل ٦٣ وقيل ٦٦ وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبدالله بن شداد وهم بنو اخواتها ، وعبدالله الخولاني ، وكان يتيماً ، في حجرها ، وذلك بالموضع الذى ابتنى بها النبي صلى الله عليه وسلم وكان تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بمكة وهو مُحْرِم ، في عمرة القضيّة ، وبنى بها بِسرف في رجوعه ، فكان من غريب الاتفاق أن توفيت (رضي الله عنها) بهذا الموضع ودفنت فيه ، وعلى قبرها بناء ومسجد قد تهدمت جوانبه . . .

وعند الإسفار مررنا بالتنعيم ، حيث الإحرام بالعمرة في هذا الزمان لا في القديم .

ثم مررنا بِجنان مكة[1] (؟) وبه آبار وأشجار ، وهو المسمى بالزاهر ، وهل هو ذو طوى ، أو موضع أمام هذا ، خلاف ظاهر وفي « القاموس » : وذو طُوَى مثلث الطاء وينوّن – موضع قرب مكة ، والطّوى – كغنَى – بئر بها . فتجاوزناه إلى أسفل الثنية العليا التي يدخل منها الحاج ، فنزلت عن ناقتي ، وأفرغت الماء في الصطل من قربتي ، وتنحّيت عن يمين الطريق ، واستترت عن أعين الفريق ، فاستدبرت الجبل واستقبلت السكة واغتسلت غسلا خفيفاً كما هو سنة المحرم لدخول مكة . وهذا الموضع هو ذو طوى أو قريب منه جداً عند من قال : إن أعلى هذا الوادي هو ذو طوى ، وأسفله الشبيكة) .

ثنيــة كداء :

(ثم صعدت الثنية على رجلي . وهذه هي الثنية العليا التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تسمى كَدَاء بِوزن سَمَاء ، وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد

(١) كلمة (جنان) غير واضحة .

لأزقة ، ومع ذلك ففيها صعوبة ، ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون – بفتح الحاء المهملة وضم الجيم وآخره نون – وهي إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض ، كما ورد في الأحاديث)

في مكة المكرمة :

ثم ذكر وصوله إلى مكة وقيامه بأداء مناسك العمرة مما لا داعي لإيراده .

منزل الزبادي في مكة :

(لقيت الرفقة قد عينوا داراً للكراء فحططنا بها الأثقال ، وكانت متصلة بحومة الشاميين [1] الموالية لباب زيادة أحد أبواب الحرم) .

وتحدث عن الآثار بمكة المكرمة حديثاً لا يتجاوز ما ذكره من سبقه من الرحالين كالعياشي ، ومما ذكر منها : –

١– دار أبي بكر [2] :

خرجت يوماً مع بعض الإخوان بقصد المشاهد فدخلت دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه فصليت في محرابها .

٢ – الحجر – ثم خرجت فررت بأثر في حجر في جدار يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد عليه بمرفقه فأثر فيه فتمسحت به لأجل هذه النسبة ، وإن كنت لم أقف له في الأخبار على أثر .

٣ – ثم مررت بحجر آخر مبني في جدار ، مكتوب عليه أنه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا شيء لم يختص به هذا الحجر فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لما استقبلني جبريل (عليه السلام) بالرسالة ، جعلتُ لا أمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله » إلى أن قال : وفي حديث جابر بن سمرة

---

(١) هي ماعرفت فيما بعد بمحلة (الشامية) وقد أدخل أكثرها في الحرم الشريف .

(٢) جل هذه الآثار إن لم يكن كلها لاتقوم على أساس تاريخي صحيح .

عنه عليه الصلاة والسلام : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على » ففيه تخصيص لحجر مخصوص، غير أنه لم يرد تعيينه في خبر منصوص . . ووقفت على كلام للرازى في تفسيره قال فيه : وفي «صحيح مسلم» : « إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبْعَثَ » فينبغي النظر في تعيين الحجر ، فنقول : لم يرد بتعيينه خبر ، لكن لا يبعد أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم عينه لبعض الناس في بعض قدماته لمكة ، ولم ينقل ذلك لأنه كان في آخر أمره صلى الله عليه وسلم بعد ما صار هذا الأمر عندهم لا غرابة فيه وزهدوا في نقل مثله اشتغالا في نقل ما ينفعهم وينفع الأمة من فروع الشريعة . . . ثم قيّض الله للناس من عرفهم بهذا الحجر ممن كانت له به معرفة حين رأى الناس يسألون عن هذه الآثار ، فكان له من ذلك الوقت اشتهار [١] .

٤ – (ثم جئنا دار خديجة رضي الله عنها وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكن معها فيها ، وفيها مولد فاطمة رضي الله عنها وفيها البيت الذي كان يجلس فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصحابة) .

٥ – شعب بني هاشم :

(ثم أتينا شعب بني هاشم الذي فيه دورهم ، وفيه حوصروا لما عادت قريش النبي صلى الله عليه وسلم فأتينا دار عبدالله بن عبدالمطلب ، وصارت اليوم مزاراً كأحد المساجد ، وفيها موضع عليه قبة صغيرة مكللة بالكسى الرفيعة ، يقال إنها مولد النبي صلى الله عليه وسلم ووسطه موضع منخفض شيئاً ما ، كأنه صنع كذلك ، بياناً للمحل نفسه ، والناس يقصدون وسط الموضع للتبرك ، فيكثرون من لمسه ومسحه ، حتى أثرت فيه الأيدي ، وهنالك بإزاء هذه القبة منبر كبير ينصب يوم مولده صلى الله عليه وسلم وتذكر فيه معجزاته وما ظهر في زمن ولادته من العجائب وغير ذلك مما يتعلق بمدحه والثناء عليه ، وعملهم ذلك يكون صبيحة اليوم الثاني

---

(١) هذا تعليل غريب ، فلو كان في ذلك فضل ، وكان من الأمور الدينية لكان السابقون الأولون أسبق الناس وأحرصهم على معرفته .

عشر من ربيع الأول ، وهو مما يؤيد قول ابن إسحاق وغيره أنه صلى الله عليه وسلم ولد ثانى عشر من ربيع الأول واختار أكثر أهل الحديث أنه ولد لثمان خلون من ربيع الأول . . .

٦ – (وخرجت إلى دار مولانا علي ابن أبي طالب فزرتها) .

٧ – الحجون :

ثم ذهبت إلى الحجون وهو اسم لجبل من جبال مكة ، بالمعلاة في سفحه مقبرتها ، ويطلق الحجون اليوم على المقبرة – كالمعلاة أيضاً – فزرنا أهلها عموماً إذ لا يعرف منهم على التعيين إلا النادر الذى لا حكم له ، ولم أذكر الآن من المعينين إلا أم المؤمنين ، خديجة في قبة بهيجة ، معها ولدها القاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض إخوته ، يزورها الناس من باب القبة ولا يدخل القبة إلا من كان هاشمياً هكذا عادتهم ، ولست أدرى ما سبب ذلك ، فدخلنا القبة لحصول هذه النسبة – ولله الحمد – وأدخلت معي بعض الهاشميين المحبين ، قائلا في نفسي : « سلمانُ منَّا أهل البيت »[1] .

٨ – المدعى :

(ثم أتينا المدعى وهو موضع يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف فيه ويدعو لأهل الحجون فوقفنا هنالك ودعونا لهم) .

٩ – رسم المسجد الحرام :

قد رسم أخي وشقيقي الشريف العالم سيدي أحمد بن علي في كناشة حين كان مجاوراً هنالك سنة مثالاً للبيت صورته وهي هذه[2] .

غير أني لم أحسن وضع ذلك كما أحسنه ، ولم أُتقن تسطيره كما أتقنه ، فمال بشكله إلى التربيع ، ومِلْتُ به إلى التطويل وما تبيَّنت لذلك حتى فرغت من رسمه ، فمن شاء نقلها فليجعلها متسعة إلى نحو حدّ الكتابة التى فوقها لتميل بذلك إلى التربيع ، والأمر في هذا سهل ، فإن المراد منه إعانة من لم يره على تكييفه بذهنه) .

صفة البيت العتيق : ثم نقل صفة الكعبة المشرفة عن الرحلة العياشية .

---

(١) أزيلت ولله الحمد القباب ، كما الت الخرافات والبدع ، وطهر الله منها هذه البلدة الطاهرة .

(٢) الصورة في الصفحة بعد هذه .



٥٤٩

من اجتمع بهم فى مكة من العلماء :

١ ـ الفقيه الزاهد أبوزيد عبدالرحمن الشنقيطي السوسي المستوطن بمكة.
٢ ـ الفقيه بلقاسم بن أحمد المغربي بن الجزائري . . . المجاور .
٣ ـ نظر بن العريف بن محمد بن علي بن العريف العباسي السوداني .
٤ ـ أبو العباس أحمد بن . . المراكشي المغربي العيساوي الطريقة .
٥ ـ محمد بن الطيب الصميلي نزيل الحرمين ـ اجتمع به فى منى .
٦ ـ عبدالله مُدْهر الباعلوي الحضرمي ثم المكي . » » » » »

منى ومشاعر الحج المقدسة :

وذكر أداءه مناسك الحج ، ووصف مشاعره المقدسة ، فمما قال :

فى منى :

فنزلنا في منى وكان نزولنا عند مسجد الخيف فصلينا المغرب وتعشينا وارتحلنا إلى عرفات بارتحال الركاب كلها ، إلا الشريف والجزيري ـ فيما قالوا والله أعلم ـ وبهذا جرت العادة منذ سنين ، فأتينا عرفات وصلينا العشاء هنالك) .

وادى محسر :

ومررنا مرملين ببطن مُحَسِّر ، وأوله من القرن المشرف من الجبل الذي على يسار الذاهب إلى منى ، ثم يخرج منه سائراً إلى منى ، سالكاً للطريق الوسطى التي تخرج إلى العقبة ، وليس من المزدلفة ولا من منى ، وهو مسيل ماء بينهما .

إحدى ليالى التشريق بمنى :

ووصف إحدى ليالى التشريق فى منى ، فقال ما نصه : فبتنا وكانت ليلة من أعاجيب الدنيا أولها من صنع الخالق على يد الخلائق من كثرة المدافع والمحارق ، التي تعلو الشوامخ الشواهق ، وكثرة المصابيح البديعة الصنع ، المختلفة الوضع ، من أشكال الأشجار ، والسباع والأطيار ، وأنواع الشبابيك

والخواتم والدوائر والأوفاق ، وقد شغل ذلك أذهان الركاب والرفاق ، فلما مضى من الليل نحو الثلث على تلك الحال ، انقلب الأمر واستحال ، إذ حضر رعدٌ هائل وبرق على الأبصار حائل ، كاد الناس يصعقون من هوله ، فبقي ذلك مدة يعجز عن وصفها الواصف ، وأتى الله بريح عاصف ، أكفأت الكثير من البيوت والمنازل فبينا الناس في شغل شاغل ، وتعب هائل ، أتت السماء بمطر وابل ، شديد الوقع متصل سائل ، فبنفس ما انقطع ، بدا الفجر وسطع ، وانكشف ما بالجو وانقشع ، وذهب ما حلّ بالناس وارتفع ، وجلسنا حتى أضحى النهار ، فتحسسنا الأخبار فإذا هو قد وقع في الخلق موت كثير من الآدميين والجمال والخيل والبغال والحمير ، وضاع للناس ماضاع ، وفسد ما فسد ، . . وشرع الناس في الارتحال وارتحلنا لارتحال الركاب كلها متعجلة) .

التحصيب (النزول فى المحصب) :

وارتحلنا لارتحال الركاب كلها متعجلة فلما كنا عند مسجد البيعة صلينا الظهر وانصرفنا إلى مكة ، ولم يتهيأ لنا التحصيب ، وهو النوم بالمحصب – وهو الشعب الذى مخرجه إلى الأبطح – ساعة من الليل ، وقيل : المحصب موضع رمي الجمار بمنى ، وليلة الحصبة – بالفتح – التي بعد أيام التشريق) .

وادي نعمان : وقال عن هذا الوادى الواقع بقرب عرفات :

قال الجوهري في « صحاحه » : نعمان وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات ثم أنشد :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بطن نَعمان أن مشتْ ... به زينب في نسوةٍ عَطِراتِ

قال : والنون من نعمان مفتوحة . قلت : وهو بين جبلين يقال لهما جبلا نعمان ، أحدهما عرفات والآخر غيره ، أضيفا إليه لكونه بينهما وليس يقال لواحد منهما نعمان فيما علمنا من أصول كلام العرب ، وإنما يقال : جبل نعمان وجبلا نعمان أو جبال نعمان بالإضافة في جميع

ذلك . ومن كلام العرب في هذا المعنى قول امرأة نجدية تزوجها رجل تهامي وحملها إلى تهامة ، فأصابها حرُّها . فقالت له : ما فعلت رِيحٌ كانت تأتينا بنجد — تعني الصبا — فقال : حال بيننا وبينها هذان الجبلان فقالت :

أيا جبلَيْ نعمان باللهَ خلِّيا نسيمَ الصَّبا يخلُص إليَّ نسيمُها
أجد بردَها أو تشفِ مني حرارةً على كبدٍ لم يبق إلا صميمُها
فإنَّ الصَّبا ريحٌ متى تنفَّستْ على كبدٍ محزونٍ تسلَّت [1] همومها

ويسمى أيضاً نعمان الأراك لكثرة الأراك فيه [2] ولذلك قال شاعرهم

تخيرت من نعمان عود أراكة لهند ولكن من يبلغُهُ هندا

وفي ذلك يقول أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه التجيبي النسب السرقسطي الدار يتغزّل :

أسُكَّان نعمان الأراك تيقّنوا بأنكُم في ربْعِ قلبي سُكَّان
ودومُوا على حفظِ الوِداد فطالما بُلينا بأقوامٍ إذا شحَطوا خانوا
سلوا النَّجم عنّي إذ تناءَتْ ديارُهم هل اكتحلت لي فيه بالنوم أجفان؟
وهل جرَّدتْ أسيافَ برقِ سمائكُم فكان لها إلاَّ جفوني أجفان ؟ ؟

كذا وجدت (النجم) وصوابه عندي (الليل) ، كما لا يخفى ، ولعله من تصحيف الكتاب ، وللعرب أماكن تسمى نعمان أشار لها في « القاموس » . . .

المزدلفــة :

المزدلفة . . . وتسمى جمعاً قال الله تعالى (فوسَطْن به جمعاً) وفي « القاموس » عطفاً على معاني الجمع — : وبلا لام المزدلفة . ويوم جمع يوم عرفة ، وأيام جمع أيام منى ، والمشعر الحرام وتكسر ميمه — بالمزدلفة — وعليه بناءٌ اليوم ، ووهم من ظنه جُبيْلا ، وفي « الرحلة العياشية » نقله عن « رحلة ابن رشيد » ما نصه : ومنها : قال أبو عمر بن الصلاح : ويرقى

---

(١) لعــل الصواب (تجلت) .

(٢) كان هذا قديما أما الآن فقــد مررت به في ٢٨ رمضان ١٢٩٧ فلم أر فيه سوى شجر الحوطل .

على قُزح وهو جبيل صغير إن أمكنه ، وإلا وقف عنده وتحته قال : وقد استبدل الناس بالوقوف على الموضع الذي ذكرناه الوقوف على بناء مستحدث في وسط المزدلفة ولا تتأتىّ بذلك هذه السنة والله المستعان ولم يتعقبه ابن رشيد ولا أبو سالم ، وإنها لغفلة من أبي سالم ، إذ « القاموس » — فيما أظن — من أهم كتبه) .

من مكة إلى المدينة :

وذكر ارتحاله من مكة المكرمة إلى المدينة — ووصف المراحل وصفاً موجزاً ، لم أرَ فيه أكثر مما ذكر من تقدمه من الرحالين . ومما قال :

قبر عبد الرحيم البرعي :

(ثم ارتحلنا من بدر مارّين بالصفراء بعد العشاء فزرنا سيدي عبدالرحيم البرعي من غير أن نقف على قبره لأن السير والليل مانعان من ذلك وهو . . صاحب الديوان المشهور في مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم أقف على تاريخ وفاته ، وقد ذكر الشيخ أبو سالم في رحلته أنه اجتمع ببعض تلامذته) .

الجـــديدة :

(واستمر بنا السير — من بدر — حتى طلع النهار فنزلنا الُجَدَيـّدَة ، وهي قرية في مضيق بين جبلين ، فيها مسجد جامع وخزن الناس فيها أموالهم وأحمالهم وما يفضل من زادٍ وعلف إلى أن يرجعوا من المدينة) .

مضمن الغزالة :

(ثم ارتحلنا — من الجديدة — ومررنا بموضع يقـــال له مضمن الغزالة ، وعنده مسجد يقال له مسجد الغزالة ، وهو من المساجد التي صلىّ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

شرف الروحاء (قبور الشهداء) :

(واستمر بنا المسير — من الجديدة — إلى أن نزلنا شرف الروحاء ، المعروف الآن بقبور الشهداء ، وفي « القاموس » : والروحاء موضع بين الحرمين على ٣٠ أو ٤٠ ميلاً من المدينة . وقال : شرف الروحاء من المدينة

على ٣٦ ميلا كما في مسلم ، أو ٣٤ ، ولا مخالفة بين النصين كما لا يخفى ، إذا الشرف مكان مخصوص من الروحاء) .

المعرس :

(ثم ارتحلنا — من شرف الروحاء — وسرنا إلى آخر الليل ، وأنخنا للراحة والحذر [1] حتى بدا الفجر وظهر ، فصلينا وأثرنا ولعل المكان الذي منه انجررنا هو المعرس الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعريس فيه ، وهي البطحة المباركة المشتملة على ذي الحليفة الذى هو ميقات أهل المدينة ، وهو ماء لبني جشم [2] على ستة أميال من المدينة . فسرنا نحث الركاب حتى طلع النهار ونحن صاعدون فى إحدى الحرار وهي الحرة الغربية ، فأشرفنا منها على مناظر بهية) . . .

فى المدينة الكريمة :

تحدث الرحالة الزبادى عن آثار المدينة حديثا اعتمد في جله على ماجاء في « رحلة العياشى » التي نشرت « العرب » ملخصها وملخص « الرحلة الناصرية» التي تعتبر متممة لها . ولهذا تركنا كثيراً مما تحدث بهعن تلك الآثار .

المسجد النبوى — قال عنه :

طول المسجد النبوى ١٩٠ خطوة ، وسعته ١٢٦ خطوة ، وعدد سواريه ١٩٠ وعلى رأس محرابه حجر مربع أصفر قدر شبر في شبر ، صافى البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفي أعلى داخله مسمار فيه شبه حق صغير ، لا يعرف من أي شيء هو ، ويزعمون أنه كأس كسرى. والمؤذن الراتب في المسجد أحد أولاد بلال ، كذا وجدت بخط بعضهم منقولا عن ابن جبير .

الحجرة الشريفة — ومما تحدث به عنها :

(في كتاب « الكراسة » للشيخ محمد بن عبد الرحمن الوزروالى المعروف ببلاده بابن الفقير رحمه الله ما نصه : الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة ليست كما ذكرها عروة ولا غيره بعده ، لأنها احترقت ثم

---

(١) كذا ولعله (الحذر) . (٢) هذا غير صحيح فنازل بني جشم بعيدة من هذا .

أنشئت ، ثم احترقت ثم أنشئت ثم جددت في عام واحد وثمانمائة ، وقد حمل الحريق عنها سيدي محمد الحطاب مع رجلين آخرين ، اختاره أهل دولة وقتهم ؛ وقد أخبرني بهذا ولده سيدي محمد بركات مفتي المسلمين ببلد الله الأمين الآن ، وأخبره والده بأن القبور الشريفة ليس عليها علامة سوى ارتفاع الأرض ، ثم بنيت عليها قبة صغيرة ، كقباب صلحائنا في هذا الزمان ، ليست بمثلثة ولا مربعة ولا مخمسة ، مطموسة البنيان من أسفل ومن فوق ، ولم يبق بها عدا طاقة بأعلاها ، يخرج منها النور كهذه[1] ثم على القبة المذكورة قبة أخرى أعظم منها لكنها إلى التخميس أقرب وهي ثلاث طبقات ، الطبقة الأولى تلي الأساس ، والأساس منشأ بحجارة سود ، ملبس بالرخام الأبيض ، غير الرخامة التي فيها المسمار الفضي ، فإنها حمراء جداً ، والطبقة الثانية من الآجر ، والطبقة الثالثة من العود ، وفيها تربط الكسوة ، وليست بمطمسة كما هي الأولى ، ثم على القبتين قبة شامخة تعلو الصومعة أو تقرب منها ، ، وهي مربعة على أركان أربعة ، وسوارٍ عشرٍ ، غير الروضة الصغيرة ، أرضها مفروشة بالرخام ، غير الموضع الذي يذكر أنه يدفن فيه عيسى عليه السلام في في السهوة ، وهو معروف عند الخدام ، ومن شاهد ذلك ، ولها أربعة أبواب : باب التوبة ، وهو في قبلة المسجد في شباك النحاس ، تفتح عند نزول الشدائد ليس إلا . وباب الوقود تفتح ليلة لوقود المصابيح ، وباب فاطمة كذلك يدخل منها بالشمع ، وبالمبخرات كل ليلة ، وفي ليلة الجمعة لكشف الصندوق المواجه لرأسه عليه الصلاة والسلام ، ورشه بماء الورد ، وغيره من الطيب ، وفي صبيحتها لكنس الحجرة . وباب التهجد : تارة بتارة ، وفي يوم الجمعة تتحلل الأبواب كلها بحلل الحرير) .

من عادات أهل المدينة — ومما ذكر من عاداتهم :

(وفي ليلة الإثنين [الثامن من المحرم] بتنا في المسجد وبات الناس به حلقاً حلقاً يمدحون النبي صلى الله عليه وسلم ويصلون عليه كل على حسب عرف بلادهم ، ويسمون ذلك مولد النبي صلى الله عليه وسلم ويسمون

---

(١) هنا صورة تجدها آخر الكلام .

تلك الليلة ليلة الوداع ، وكانت حلقة المغاربة من أصحابنا هي التي تلي رأس الحجرة النبوية، وتلك عادتهم ، كما أن عادة رؤساء مصر أن يحلقوا بالصحن ، ويكثروا هنالك من إيقاد الشموع والندّ والتجمير بالعود ورشّ ماء الورد والزهر وغير ذلك من أنواع الطيب ، وغيرهم من الطوائف يحلقون مع حيطان المسجد وزواياه ، ولم يفهم لطائفة منهم كلاماً ، وأما أصحابنا فإنهم يقرأون البردة والهمزية ونحوهما من القصائد المديحية النبوية بنغم عذبة تسمع مبانيها ، وتفهم معانيها ، ومع ذلك لم أجلس لهم ولا لغيرهم لما في ذلك من رفع الصوت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فخشيت أن يكون ذلك سوء أدب فجلست بين الحجرة والجدار الشمالي) .

من علماء المدينة الذين اجتمع بهم :

الشيخ محمد حياة السندي – وذكر أنه أجازه في الكتب الستة وغيرها من مروياته وفي كتب شيخه أبي الحسن السندى . . وشيخه أبو الحسن أخذ على الشيخ عبد الله بن سالم البصري المكي .

من المدينة إلى القاهرة : ثم وصف طريق عودته من الحج إلى بلاده ماراً بالقاهرة ، ومما اقتطفته من ذلك الوصف :

الدهنا – قال :

(ثم ارتحلنا من الجديدة تاركين طريق الصفراء سالكين طريق الدهناء[1] ، فسرنا يميناً . . حتى كانت بالدهناء الدار ، ثم نزلنا بعدها ينبع) .

الكفافة (بيار السلطان) :

(ثم الأزلم ثم الكفافة ، ويقال للدار اليوم بيار السلطان) .

المويلح :

(ولما وصلنا المويلح وجدنا القوافل جاءت من مصر بالميرة للحجاج ، ومعهم هدايا للحجاج الذين لهم معارف بمصر وأقارب وأهل مشتملة على أنواع الحلوات . . . وقد بتنا هنالك ليلتين في أرغد عيش وأنعم بال) .

---

(١) الدهناء هذه كانت قرية بين ينبع وبدر قرب واسط والعذيبة وقد خربت بعد حرب جرت على أهلها ذكرها الجزيرى في «درر الفوائد المنظمة» وابن إياس في «بدائع الزهور» وغيرهما .

ويحسن – وقد لخصنا رحلة الشيخ المنالي الفاسي الزبادي أن نورد ما جاء في قصيدته التي أشرنا إليها في المقدمة والتي دعاها « إتحاف المسكين الناسك ، ببيان المراحل والمناسك » وختم بها رحلته وقال عنها :

رأيت أن أذكر هنا قصيدة لي جامعة لمراحل الحجاز ، من البركة إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة ، وبيان حال كل منزلة من الماء وعدمه ، وقبحه وطيبه، وغير ذلك، مشتملة على مناسك الحج والعمرة على الترتيب ، وعلى المشاهد والآثار والأعلام على التقريب ، مختومة بزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فضل مكة وطيبة وغير ذلك من المواطن) .

وتقع القصيدة في ١٣٠ بيتاً ، وقد أوردها كاملة ابن عبد السلام الدرعي في رحلته المطولة . ومنها نقلنا ما نقص منها مما صورناه من رحلة صاحبها الزبادي من نسخة (خزانة الرباط) .

البركة :

في (بركة) بركت بنا الأكوارُ　　لما رمتنا للفلا الأمصار

الحمراء – عجرود :

وتدانت (الحمراء) قفراً بعدها　　(عجرود) فيه الماء لا يُختار

النواطر – وادى الرمل :

إن (النواطر) إن قطفْتَ جميعها　　فأنزل (بوادي الرمل) لا ينهار

وادى التيه :

وانزل بـ(وادي التيه) واحذر سُبْلَهُ　　وأَوَارَهُ فيه الدليل يحار

النخيل – بئر الصعاليك :

وابرد غليلاً في (النُّخَيْلِ) ببَنْدر　　(بير الصعالك) بعد ذاك وجار

سطح العقبة :

وانزل بسَطْح واستعدَّ لبرده　　فالضرُّ يدنيه لنا الإجـــار

ايــلة :

وإذا سلكت عقاب (أيلة) سالماً　　وأتيت بندرها فثَمَّ فزار[1] (؟)

(١) كذا ولعل الصواب (مزار) إذ هناك قبر يزار ، ورد ذكره في بعض الرحلات .

ظهر الحمار – الشرفة :

(ظهر الحمار) اقطعه لا تنزل به — وشرافة لبني عطيّة دار

مدين – مغار شعيب :

وبواد مدين في مغار شعيبهم — حط الرحال فاؤها خرخار

عيون القصب :

وإذا العيون رأيتها لا تعدها — ما للعيون من العيون نفار

المويلح :

إن (المويلح) بندر فانزل به — تجتبى إليه فواكه وثمار

الكفافة :

ثم الكفافة ، بعده ووليّها — (مرزوق) اللذ حوله التيّار

الأزلم – الاصطبل :

ولتأت (أزلم) مرماء ولتجيء — (اصطبل عنتر) خانه الإدرار

الوجه :

و (الوجه) لولا الماء زال بهاؤه — فانزل وذمّك عنده الآبار

اكره :

وانزل بـ (أكره) لاترد من مائه — إلا إذا حلت به الأمطار

الدركين :

ثم انزل (الدركين) للعربين في — قفر وكن حذراً فثم يغار

الحوراء :

وارشف من (الحوراء) ثغراً أشنباً — غضا فما قد طال فهو مرار

النبط – الخضيرا :

و(النّبط) فيه الماء عذب سائغ — إن الخضيرا ، حسنها اخضرار

ينبع النخل :

وبـ(ينبع النخل) انزلن تلق المنا — من كل ما تحتاجه الأسفار

إن ابتداء عمارة لحجازنا — من (ينبع) حيث الرّبى والغار

حيث اللوى حيث النقا حيث الحمى — والمنحنى حيث المياه غزار

السقيفة ــ بدر :

أما (السقيفة) ما حططنا رحلنا فيها إلى (بدر) يحقّ بدار
دارٌ بها انتصر الرسول على العدا وجنود أملاك السما أنصارُ

البزوا ــ رابغ :

جيءٌ قاع (بزوا) انزله قفراً وانزلنْ
من بعد (رابغ) ماؤه مهدار
فيه تجرّدْ واغتسل واركع به
فإذا ركبت فلبِّ يا عمّارُ

قــديد ــ خليص :

وانزل (قُديداً) وارحلنْ من قفرهِ ورِدن (خُلَيْصاً) ليس فيها دارُ

عسفــان :

(عُسفانُ) فانزله ورِدْ منْ بئره فهي الشفاء لمن به أضرارُ[1]

بطن مر (وادى فاطمة) :

و(ببطن مَرٍّ) وهو (وادي فاطم) فامرر فنه تُشاهد الأنوار

قبر ميمونة ــ التنعيم ــ الزاهر :

زُرْ أمَّنا ميمونةَ ثم التَّجيءْ[2] لمساجد (التنعيم) فهي تُزار
ثم لتجىء[2] لجنان مكة (زاهراً) يُدعى ، وفيه بدَتْ لنا الأزهار

وذكر المشاعر ومناسك الحج ، والسفر من مكة إلى المدينة وقال بعد ذلك :

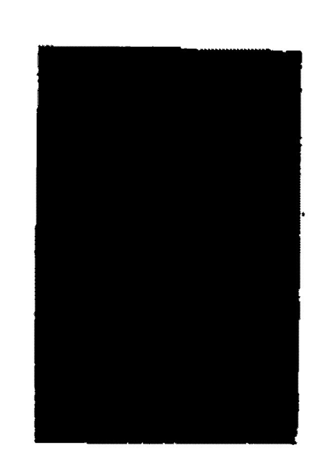
مفــرح :

هــذا (مُفرِّحُ) للقلــوب مفرح
وأمامه (البيدا) لهـا أشعـارُ

---

(١) هذا على القول بأن (بئر التفلة) من آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا يؤيده نص صحيح .

(٢) فعل أمر من جاء ، لا من التجأ « العرب » .



من أبطال العرب المعاصرين

عبد الكريم الخطابي

مفاجأة في بور سعيد :

(عبد الكريم) بطل عربي ظل اسمه وشجاعته وقيادته أبناء قومه ومحاربته لأسبانيا ثم لها ولفرنسا مجتمعتين من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٢٦ الشغل الشاغل لوكالات الأنباء والصحافة العالمية واستمر الأمر كذلك زمناً طويلا ، حتى وجد نفسه مضطراً بحكم نفاد السلاح والذخيرة وتفشي الأمراض بين أهل (الريف) موطنه شمالي المغرب إلى الاستسلام لفرنسا لإنقاذ من تبقى من قومه ، خاصة النساء والأطفال ، من براثن موت محقق أو قل إبادة تامة .

وعبد الكريم أو بالأحرى محمد بن عبد الكريم ينتمي إلى أسرة عربية هاجرت قبل قرون من بلدة (ينبع) في الحجاز ويمتد نسبها إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا فإنه أصبح يعرف أيضاً باسم عبد الكريم الخطابي .

حصل عبد الكريم الأب على مكانة مرموقة بين أفراد قبيلته (بني ورياغل) أكبر قبائل منطقة (الريف) وأشدها بأساً باعتباره (قاضياً) أو (فقيهاً) في أمور الدين الإسلامي الحنيف الذي يشكل الأساس في حياة أبناء الريف ، وهم جميعاً من المسلمين ، وسرعان ما تحولت مكانة عبد الكريم إلى زعامة سياسية للمنطقة التي تقطنها القبيلة .

في مليلة :

عام ١٨٨٢ رزق عبد الكريم بابن أطلق عليه اسم محمد وذلك في بلدة (أجدير) المطلة على خليج (الحسيمة) في البحر الأبيض المتوسط ، وبعد أن نال تعليمه في بلدة مليلة توجه إلى جامعة القيروان الشهيرة في فاس حيث درس القرآن الكريم.وتعلم الرّمي بالبندقية والفروسية . عاد محمد إلى مليلة حيث عمل معلماً في إحدى المدارس الوطنية الخاصة بالأهالي حيث كانت منطقة مليلة خاضعة للسيطرة الأسبانية ، وفي غضون ذلك شارك والده في قمع تمرد (بوحمارة) في خريف عام ١٩٠٨ مما زاد من هيبة العائلة . وبعد ثلاث سنوات عين محمد رئيساً للقضاة في المنطقة كلها واستقر في مليلة .

وفي عام ١٨٩٢ كان عبد الكريم قد رزق بمولود آخر سماه محمداً أيضاً . ولغرض التمييز بينه وبين شقيقه الكبير صار يعرف باسم (سي محمد) أي (سيّد محمد) وقد تلقى الأخير تعليمه في مليلة ثم توجه إلى العاصمة الأسبانية مدريد حيث درس علم التعدين . ولم تلبث الأمور أن تطورت بشكل سريع ومباغت ، ذلك أن أسبانيا توصلت إلى اتفاق مع فرنسا يسمح لها بأن تبسط سيطرتها على (الريف) بأسره ، مقابل إطلاق يد فرنسا في (مراكش) أو باقي أرجاء المغرب ، وبالفعل شرع الأسبان في إعداد أنفسهم للزحف من مليلة باتجاه الغرب إلى قلب الرّيف الذي لم يرضخ أبناؤه الجبليون الأباة ، وهم الذين لا يخلو بيت أحدهم من سلاح — لأحد من الغزاة مما جعل الاصطدام مع أسبانيا أمراً لا مفرّ منه .

الحــرب :

وعلى الرغم من التحذيرات التي وجهها عبد الكريم للأسبان ، إلا أن هؤلاء بما لديهم من قوة هائلة وتفوّق في كل شيء ، تصوروا أن الغزو المرتقب سيكون مجرد نزهة ، وهكذا بدأت المناوشات في أوائل عام ١٩٢٠ ، فقرر عبد الكريم دعوة ولديه من مليلة ومدريد لقيادة المعارك إلى جانبه ، ولم يلبث الأب أن توفى بعد أسابيع ، ويقال : إن ذلك تمّ نتيجة دس السم له . ومن الطبيعي أن تنتقل القيادة إلى محمد الكبير فعهد إلى شقيقه (سي محمد) بأن يكون مساعداً له ثم انصرف إلى دعوة كل قبائل الريف للانضمام إلى

قواته للوقوف في وجه الأسبان الذين زحفوا من مليلة بجيش لا يقل عن عشرين ألف رجل ، يقودهم الجنرال (سلفستر) ، فاستجابت معظم القبائل لنداء محمد بن عبد الكريم ، الذي أصبح يعرف على مر الأيام باسم « عبدالكريم » أو (كريم) أي أنه أخذ اسم أبيه .

وفي يوليو ١٩٢٠ انقض رجال عبد الكريم على الجيش الأسباني الزاحف في موقع (أنوال) فتمكنوا من إلحاق هزيمة مروعة به ، أسفرت عن إبادة معظم أفراده وجميع قادتهم وفي مقدمتهم (سلفستر) الذى لم يعثر على جثته على الإطلاق واستولى الريفيون على عشرين ألف بندقية ومائتي مدفع سريع وبضعة ملايين من الطلقات ،وآلات طبية ومؤن تزيد على حاجتهم، وبعد هذه المعركة ظل العالم يركز اهتمامه البالغ على ما يجرى في الريف ، ويتابع التطورات يوماً بيوم .

تنظيم داخلي :

وبعد أن رد الريفيون هذا الخطر ، انصرفوا إلى تنظيم أمورهم الداخلية ، ولما كان الريف معزولاً عن باقى أرجاء المغرب الخاضعة للحماية الفرنسية وأن السلطان فى (الرباط) قد فقد حريته ؛ فقد ارتآى عبد الكريم أنه لابد من إقامة حكومة اختير نفسه لرئاستها وعين (سي محمد) وأبرز أعوانه في مناصب مختلفة . وتأسست (جمعية وطنية) من رجال القبائل وأهل القرى والقادة ، وجرى الاهتمام بتقوية الجيش وتنظيمه على أسس عصرية ، ووضع ميثاق قومى .

وقد جرت محاولات عديدة للتوصل إلى تفاهم مع الأسبان على أساس عدم التدخل فى شؤون الريف الداخلية ولكن دون جدوى ، لذا استمرت المعارك والوقعات الضارية من منطقة مليلة شرقاً حتى (الجبالة) المتصلة بالمحيط الأطلسي غرباً ، مع أن (الريفيين) لم يخسروا معركة واحدة بل انتقلوا من نصر إلى آخر ولم تفلح أسبانيا مطلقاً في دخول الريف إلا بعدأن تحالفت مع فرنسا التي دخلت الحرب عام ١٩٢٦ يقود جيوشها (المرشال بيتان) بطل الحرب العالمية الأولى الذي استطاع الوقوف في وجه الألمان في موقعة (فردان) الشهيرة .

وبدت النهاية واضحة ، إذ تحولت المسألة إلى إبادة ، فكيف يمكن للريف الفقير المعزول أن يقف في وجه دولتين من أقوى الدول الأوروبية ؟ ! ومع ذلك واصل عبد الكريم الحرب وخاض عدة معارك ضد جيوش فرنسا وأسبانيا إلى أن أخذت الأمراض بالتفشي بين الناس ، ونفدت الذخائر والأقوات ولم يعد أمامه سوى الاستسلام لإحدى الدولتين ، فاختار فرنسا التي وعدت باعتباره أسير حرب عكس أسبانيا المصممة على الثأر والانتقام خاصة لما حصل في (أنوال) .

وفي أواخر مايو ١٩٢٦ ألقى عبد الكريم سلاحه أمام قوات فرنسا فَنُقِل مع شقيقه (سي محمد) وعدد من أعوانهما مع نسائهم وأطفالهم إلى سفينة فرنسية في ميناء (الدار البيضاء) ومنها إلى جزيرة (ريونيون) على بعد ١٢ ألف كيل عن المغرب في المحيط الهندي !

حيـــاة فلاح :

في « ريونيون » : وُضِع المنفيون في بيت كبير تحيط به مزرعة فصار « عبد الكريم » ومن معه يمضون وقتهم في العمل فيها ، وبمرور الأيام أخذوا يشعرون في ذلك المكان البعيد بالغربة والوحشة والحنين إلى الوطن والأصدقاء والأنصار ، ولم تترك الحركة الوطنية في المغرب طريقاً إلا سلكته للإفراج عن الأسد الأسير وأعوانه .

وفي سنة ١٩٣٦ كتب أمير البيان شكيب أرسلان عدة مقالات في صحف الشرق والغرب ، وفي العام التالي بذل (الحزب الوطني) جهوداً لهذا الغرض منها حملة واسعة في سائر صحف المغرب وكادت هذه أن تؤدي إلى النتيجة المرجوة إذ قرر بعض الشيوخ الفرنسيين عرض الموضوع على لجنة الشؤون الخارجية في مجلسهم ، لكن وزارة الخارجية رأت أن الأوان لم يَحِنْ بسبب استمرار بعض قبائل المغرب في الانتقاض ضد الاحتلال .

أما « عبد الكريم » فقد طالب حاكم الجزيرة مراراً وتكراراً بإطلاقه .

وفي ١٤ يونيو ١٩٣٤ كتب إلى « دومبرغ » رئيس الوزارة الفرنسية طالباً منه أن يبحث موضوع نقله إلى فرنسا أو الجزائر أو المغرب بيد أن الطلب قوبل بالرفض . وفي ٦ نوفمبر ١٩٣٨ وجه عبد الكريم رسالة أخرى إلى حاكم الجزيرة قال فيها : (منذ اثنتى عشرة سنة ونحن مبعدون عن وطننا محرمون الوعد الذى قطعناه على أنفسنا .. واليوم وقد أثقل المنفى صدورنا ، وقد أقبل فيما يخصنيْ هذا المصير ، ولكن منذ اثنتى عشرة سنة كبر أبنائى فأصبح سنهم ست عشرة وسبع عشرة سنة ، أما البنات فقد أصبح سنهن مابين خمس عشرة وثمانى عشرة سنة .

إن جزيرة (ريونيون) لا مستقبل فيها لهؤلاء الشباب ، فيجب البحث عن عمل للأولاد كما يجب الاهتمام بزواج البنات . أما الأولاد فأريد أن أوجههم إلى المهنة العسكرية وأن أجعل منهم ضباطاً . أما البنات فلا يمكن أن يفكرن في إنشاء بيت إلا إذا رجعن إلى المغرب ، ولا يمكن لهن في هذه الجزيرة أن يتزوجن ، وذلك بسبب المنفى وبسبب تقاليدنا وديننا) . وكادت هذه الرسالة أن تنهي عذاب نفي عبد الكريم لولا اقتراب نذر اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن حدثت اندفع كل شيء لا علاقة له بها إلى الظل ومن ذلك قضية نزلاء (ريونيون) .

إلى فرنسا :

ويعد تحرر فرنسا من الاحتلال الألمانى عام ١٩٤٤ وقيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، ازداد نشاط المعنيين بقضية تحرير أقطار المغرب العربي ، وكذلك الزعماء المغاربة والتونسيين والجزائريين المقيمين في القاهرة ، بشأن إطلاق عبد الكريم وارتفعت الأصوات من كل صوب بهذا الصدد ، مما كان له أثر في تغيير موقف فرنسا من هذه القضية كما أن اشتداد ساعد الحركة الوطنية في مختلف أقطار المغرب قد لعب دوراً في هذا الاتجاه .

وفي شهر مارس ١٩٤٧ ، أعلنت الحكومة الفرنسية أنها ستقوم بنقل عبد الكريم ومن معه من جزيرة (ريونيون) للإقامة في فرنسا في بيت مناسب على

مقربة من إحدى الكليات ليستطيع أبناؤه متابعة دروسهم تحقيقاً لرغبته ، على أن يكون البيت المذكور بعيداً عن الحدود مع أسبانيا التي أبدت معارضتها لهذه الخطوة . وفي مايو ١٩٤٧ كانت الباخرة البنامية (كاتومبا) تعبر قناة السويس حاملة البطل الأسير وأسرته ، وكان قائدها يونانياً مثل سائر ضباطها وكان عدد الفرنسيين تسعة عشر شخصاً بينهم طبيب . سبق لعبد الكريم أن نزل في عدن واحتفى به إخوانه العرب هناك أجمل احتفال وبعثوا بناءً على طلبه برقيات إلى قادة أحزاب استقلال أقطار المغرب العربية وسائر المعنيين بهذه القضية ، ومنها برقية موجهة إلى (علال الفاسي) رئيس حزب الاستقلال الذي خرج تواً من السجن في مستعمرة (الجابون) بعد عشر سنوات من حياة العذاب ، فاجتمع الفاسي بأعضاء الحزب وأعضاء حزب الاستقلال الموجودين في القاهرة وأخبرهم بما ورد في البرقية عن نزول عبد الكريم في عدن وموعد مغادرته لها والموانيء التي سيمر بها وموعد وصول الباخرة إلى السويس وبورسعيد .

مفاجاة :

وبينما كانت الباخرة تقترب من (بور سعيد) توجه إليها كل من علال الفاسي والحبيب بورقيبة وعبد الخالق الطريسي ووفد من مكتب المغرب العربي للسلام على البطل القادم وقد صعد معهم إلى ظهر الباخرة ممثلو السلطات المصرية والأحزاب السياسية وكثير من الصحفيين ووجهاء المدينة . وهنا حدثت مفاجأة ، فقد تنحى (سي محمد) مع علال الفاسي جانباً وأخبره برغبة أخيه في البقاء بمصر ، وكان عبد الكريم بعد ذلك قد نزل إلى البر فتوجه في الحال إلى مكتب محافظ الميناء حيث تلقى رسالة من الملك فاروق بمناسبة مروره بالمياه المصرية ، وعندئذ أعرب لممثل الملك المصري في المدينة عن التجائه إلى مصر ، تخلصاً من استمرار الأسر الفرنسي ، وليتمكن من تعليم أولاده باللغة العربية ، فوعده المحافظ بتبليغ طلبه للملك وللحكومة ، وبعد أن تجول هو وأفراد أسرته في بورسعيد عادوا جميعاً للباخرة حيث أمضوا ليلتهم بانتظار الصباح .

وفي الساعة العاشرة من ٢ يونيو ١٩٤٧ نزل عبد الكريم إلى اليابسة وتوجه

إلى المحافظة فأبلغه المحافظ باسم الملك فاروق قبول لجوءه إلى مصر وان يعتبر نفسه وأفراد أسرته ضيوفاً على الملك ، ولم يكد يحل مساء ذلك اليوم حتى كانت سيارات ملكية تنهب الأرض نحو القاهرة وهي تقل الأسد الطليق مع أسرته ، وبذلك اختتم فصل من أشد الفصول إيلاماً في المغرب بل العرب كلهم .

متابعة الجهاد :

كان وصول عبد الكريم في فترة اقتنع خلالها بعض زعماء أقطار المغرب العربي أن الحوار مع المستعمرين لم يعد يجدي نفعاً بعد أن أغلق هؤلاء الباب ، وقبل إطلاق الزعيم المغربي كان مؤتمر المغرب العربي الذي انعقد في القاهرة قد اتخذ جملة مقررات منها : (تكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق العمل لكفاح مشترك) ، فلما حل عبد الكريم في مصر اتجهت إليه الأنظار لتحقيق هذه التوصية ، وبالفعل فإنه لم يَأْلُ جُهْداً ، في العمل على توحيد الصفوف وتنسيق الخطط في الداخل والخارج ، وبعد مداولات ومناقشات برزت (لجنة تحرير المغرب العربي) إلى الوجود وتكون مكتب موقت لها برئاسة عبد الكريم ، على أن يكون (سي محمد) وكيلاً له والحبيب بورقيبة أميناً عاماً .

وفي ٥ يناير وزع البطل العربي وثيقة التحرير على رجال الصحافة العربية والأجنبية وهي طويلة جداً نقتطف منها ما يلي : (وقد كانت الفترة التي قطعناها في الدعوة للائتلاف خيراً وبركة على البلاد فاتفقت مع الرؤساء ومندوبي الأحـزاب الذين خابرتهم على تكوين – لجنة تحرير المغرب العربي – من سائر الأحزاب الاستقلالية في كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادىء الميثاق التالي :

(أ) المغرب العربي بالإسلام كان ، وللإسلام عاش ، وعلى الإسلام سيسير في حياته المستقبلة .

(ب) المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة ؛ وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبيعي ولازم .

(ج) الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة (تونس والجزائر ومراكش) .

(د) لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال .

(ه) لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر .

(و) لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال .

(ز) للأحزاب الأعضاء في (لجنة تحرير المغرب العربي) أن تدخل في مخابرات مع ممثلي الحكومة الفرنسية والأسبانية على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولاً بأول .

(ح) حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية ...) .

وهكذا تسلم عبد الكريم الراية إلى أن نام ، قرير العين ، في مثواه الأخير بالقاهرة في فبراير ١٩٦٣ بعد أن نالت أقطار المغرب العربي استقلالها وانضمت إلى ركب العرب قوة جديدة وسنداً وفياً .

أما أبناؤه وبناته وسائر أبناء الأسرة فقد عادوا إلى المغرب المستقل حيث وضعوا أنفسهم في خدمته في الميادين التي اختارها لهم [1] .

محمود شبيب

---

(١) ملخص من كتاب « عبد الكريم الخطابي ... محارب حير دولتين أوربيتين » تأليف الكاتب ويؤمل صدوره في بيروت قريباً .

ابن السيد البطليوسي الأندلسي

- ١ -

إن الأدب العربي الأندلسي لباب ذهبيّ من تاريخ الآداب العربية ، كما أن دور المسلمين الأندلسيين في نهضة الحضارة الأوروبية لصفحة خالدة ناصعة على جبين التاريخ البشري . وكذلك فإن آثار العلماء الأندلسيين الفطاحل لتضاهي آثار العلماء المسلمين في الشرق العربي الإسلامي ، وهي جديرة بكل عناية واهتمام ، كما أنها تستحق كل إعجاب وتقدير .

وقد كان من بين هؤلاء العلماء الفطاحل الأندلسيين الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ، الذي نشأ وترعرع في عصر ملوك الطوائف الذي يبدأ بموت المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٩٣ هـ وينتهي بالقبض على المعتمد ابن عبّاد الإشبيلي في سنة ٤٨٤ هـ حيث ينتقل الحكم في الأندلس إلى المرابطين .

مولده :

ولد الفقيه الأجلّ الحافظ ، النحوي ، الأديب ، اللغوي ، أبو محمد عبدالله بن محمد بن الحسن ابن السيد البطليوسي [1] في سنة ٤٤٤هـ . وعاش سبعة وسبعين عاما أو يزيد قليلا من حياته ، واختلف بين بَطَلْيوس ، وطُلَيْطلة ، والسهلة ، وسَرَقُسْطَة ، وبَلَنْسِيَة ، وبها كانت وفاته سنة ٥٢١ هـ [2] . وعاصر ملوك الطوائف ، واتصل ببعضهم ، وشاهد

(١) ضبطه السيوطي ٢-٥٥ وعنه في « هدية العارفين » ١-٤٥٤ بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة والدال من أسماء الذئب ، والبطليوسي نسبة مدينة بطليوس ، عاصمة بني الأفطس من ملوك الطوائف ، وضبطه ياقوت في « معجم البلدان » بفتحتين وسكون اللام وياء مضمومة وسين مهملة ومثله السيوطي ٢-٥٥ وضبطه في «أزهار الرياض» ٣-١٠٢ بفتح الباء وسكون الواو .

(٢) « الصلة » ص ٢٨٧ «وأزهار الرياض » ٣-١٠٢ والسيوطي ٢-٥٥ وابن خلكان ١-٢٨٧ و« الشذرات » ٣-٦٥ واليافعي ٣-٢٢٧ والقمي ١-٣١٣ ، و«معجم البلدان» و« هدية العارفين ١-٤٥٤ و«الكشف» ص ١٤١١ و«غاية النهاية في طبقات القراء» : ١٨٧٣ و« الأعلام » ٤-٢٦٨ و « تكملة بروكلمان » ١-٧٥٨ .

عصر المرابطين إلا أنه شغل عنهم بالتأليف والتدريس ، قانعا بهما ، غير راغب خدمة القصور ، زاهدا في مجالسها واجتماعاتها .

حيـــاته :

وحياته تنقسم إلى أربعة أطوار متميّزة وهي :

الطور الأول :

من أطوار حياته ، ونعني به عهد الطفولة ، والحداثة والنشأة ، والتربية في حجر أبويه ، وبين أعضاء أسرته . وهذا الدور من حياته لا يزال سرّا غامضا ، لم تتناوله كتب التراجم والتاريخ ، ولم يجله الباحثون ، لأننا لانعرف شيئا عن أسرته وطفولته ، أكثر من أن له أخاً هو أبو الحسن علي بن محمد ابن السِّيْد ، شقيقه الأكبر ، وشيخه في الأدب والنحو ، وأن أصله من شلب ، التي كان منها ذو الوزارتين الكاتب الشاعر ابن عمار ، وابن بدرون[1] شارح قصيدة ابن عبدون ، التي بكى بها بني الأفطس ، ملوك بطلبوس ، كما صرح به في «المغرب» ، و «نفح الطيب» : فقد قال المقري نقلا عن «الذخيرة» لابن بسام — : ومنها (من شلب) نحويُّ زمانه ، وعلامته ، أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي ، فإن شلبا بيضته ، ومنها كانت حركته ونهضته [2] .

وقد جاء في «المغرب» مانصه : أبو محمد عبد الله بن السيد البطلبوسي ، أحد من تفخر به جزيرة الأندلس من علماء العربية ، وهو من شلب ، ولازم مدينة بطليوس ، فعرف بالبطلبوسي ، وقال الفتح : « وشلب بيضته ، ومنها كانت حركة أبيه ونهضته ، وفيها كان قرارهم ومنها نَمَّ آسهم وعرارهم ، ونسب إلى بطلبوس لمولده بها [3] .

---

(١) هو عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي وقد سمى شرحه لقصيدة ابن عبدون « كمامة الزهر وصدفة الدرر » التكملة ص ٦٢٠ و « نفح الطيب » ١١٣,١ .

(٢) « نفح الطيب » ١١٣,١ ولفظه في « أزهار الرياض » ١٠٥,٣ (حركة أبيه أو نهضته) .

(٣) « المغرب في حلى المغرب » ٣٨٥,١ و « أزهار الرياض » ١٠٥,٣ .

الطور الثاني :

وهو عهد الطلب ، والدراسة ، والتحصيل في معاهد الأندلس ، ومراكزها العلمية والأدبية ، وهذا الطور أيضا غير واضح ، وليس لدينا معلومات مفصلة عن هذه المرحلة الهامة من مراحل حياته ، وإنما نجد في الكتب بعض الإشارات الخفية المبهمة ، التي لا تعطينا صورة واضحة جلية عن هذا الدور من حياة ابن السيد . وكذلك فإن مؤلفاته التي وصلت إلينا — مطبوعها ومخطوطها — لا تشير إلى ذلك إلا قليلا نادرا .

وأغلب الظن أنه بدأ حياة الطلب ، والدراسة والتحصيل في مدينة بطليوس ، التي كانت في ذلك الوقت ، مركزا هاما من المراكز الثقافية في الأندلس ، وكانت تضاهي عواصم ملوك الطوائف الأخرى ، من قرطبة، وطليطلة ، وأشبيلية، وسرقسطة، من ناحية الحضارة ، والتمدن، والنشاط الثقافي ، والعلمي ، والأدبي ، ولم لا ؟ ! فقد كان ملكها في ذلك الوقت هو أبو بكر محمد بن عبد الله المظفر (من ٤٣٧ إلى٤٦٠ هـ) الذي كان أديب ملوك عصره غير مدافع ، ولا منازع ، والذي ألف موسوعة كبيرة وسماها بـ « المظفري» . وهو الملك الذي كان قد بلغ إعجابه بالمعري والمتنبي إلى أن قال : من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت[1]

في هذه البيئة الأدبية ، بدأ ابن السيد دراساته ، كطالب ناشئ ذكي فكان يختلف إلى علماء بطليوس ، ويتردد إلى مدارسهم ، ويحضر حلقاتهم ، ويستفيد من معارفهم ، وفضلهم ،منهم أخوه أبو الحسن علي بن السيد، وعاصم

---

(١) « أعمال الأعلام » ص ١٨٤ وكان ابنه المتوكل أيضا من الملوك العلماء والأدباء الفرسان وكان له قدم راسخة في صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة (المعجب ص ١٢٨) وكان يستدعي الشعراء والأدباء إلى دار ملكه ويحنو وينفق عليهم وهو الذى يقول لأبي طالب بن غانم الوزير الأديب :

انهض أبا غانم إلينا ... واسقط سقوط الندى علينا
فنحن عقد من غير وسطى ... مالم تكن حاضرا لدينا

(المغرب ١ - ٣٦٥) .

بن ايوب ، وعلي بن احمد بن حمدون البطليوسيّون وغيرهم ، من أعلام العلم والأدب ، فأخذ عنهم اللغة ، والأدب ، وشعر القدماء . ولعله أخذ عن أخيه « سقط الزند » وغيره من دواوين شعر المعري ، لأن أخاه أبا الحسن ، كان قد أخذ «سقط الزند» عن عبدالدائم القيرواني وكان يرويه عنه في بطلبوس [1]

على كل حال ، فإن ابن السيد كان قد غُذّي بشعر المعري ، وهو صغير ، وسمعه من شيوخ بطليوس ، وأعجب به ، ورغب فيه وحفظه ، لأننا نراه يسرع إلى طُليطلة ، وهو حديث السن ، ولم يتجاوز الثانية عشر من عمره ، ليزور شيخا من شيوخ المشرق ، وعلما من أعلامها ، كان رأى أبا العلاء المعريّ ، وأخذ عنه شعره ، واستجازه روايته ، فأجازله ، وذلك الشيخ العلم هو أبو الفضل البغدادى ، رسول الخليفة العباسى ، إلى المعز ابن باديس ، ورسول المعري الأدبي ، إلى أهل المغرب كافة ، الذي دخل الأندلس ، واستقر أخيرا بطنيطلة ، وملكها إذ ذاك هو المأمون يحي ابن ذي النون ، ذلك الملك الذي عرفه التاريخ كمأوى للعلماء ، والأدباء ، وملاذهم ، وقبلة للشعراء والكتاب ، وولي نعمتهم ومعطيهم [2] .

ثم إن ابن السيد لم يزل ينتقل في عواصم الأندلس ، ومراكزها ، فتارة في قرطبة ، وأشبيلية ، وأخرى بلنسية وسرقسطة ، وأخذ عن أبي سعيد الوراق ، وعبد الدائم القيرواني ، وأبي علي الغساني ، رئيس المحدثين بقرطبة في زمانه ، وكبار العلماء المسندين بها ، وسنذكرهم في فصل مستقل ، إن شاء الله في شيوخ ابن السيد وأساتيذه .

الطور الثالث :

وهو عهد الرجولة ، والاتصال بالملوك ، والأمراء ، والأعيان ، والوجهاء ، في عصره ، فإن ابن السيد في هذا الطور من أطوار حياته لم يزل ينتقل من بلاط إلى آخر ، ومن عاصمة إلى أخرى ، ويحضر مجالس

---

(١) ابن خير ص ٤١٢ .

(٢) « معالم الإيمان » لابن الدباغ ٣-٢٤١ و « نفح الطيب » ٢-٧٧ .

الملوك ومادبهم ، طوال هذه المدة « فحلب الدهر أشطرَه وتلا حروفه ، وأسطره ، وخدم الرياسات ، وعلم طرق السياسات ، ونفق وكسد ، ووقف ، وتوسَّد[1] .

فمن اتصل به من الملوك ، القادر بالله يحي بن إسماعيل بن يحي ابن ذي النون ، صاحب طليطلة ، وأبو مروان عبد الملك ابن رزين ، صاحب السهلة ، والمستعين بالله أحمد بن سليمان ابن هود ، ملك سرقسطة ، وأمراء بني عبدالعزيز ، أصحاب بلنسية . وكذلك فإنه كان قد عرف كثيرا من الأعيان ، والوجهاء ، والوزراء والكتاب ، وأصحاب الرتب من أمثال ذي الوزارتين أبي عيسى ابن لبون[2] ، وذي الوزارتين أبي محمد بن الفرج[3] . والوزير الكاتب ، أبي محمد بن سفيان[4] ، والوزير أبي بكر بن عبد العزيز[5] والأستاذ أبي الحسن بن الأخضر[6] ، والأستاذ أبي محمد ابن جوشن[7] ، وأبي الحسن راشد بن عريب[8] ، وابن أبي الخصال[9] . وله في بعضهم المدائح والمراثي ، كما أن له بعض الرسائل ، والمكاتبات ، والأشعار ، التي كان يبعث بها في شتى المناسبات ، وفي الأغراض المختلفة المتنوعة[10] .

والظاهر من الأسباب التي جعلته يميل إلى حيـاة القصور ، وخدمة الملوك ، ما شاهده بطليطلة ، عند المأمون يحي ابن ذي النون ، من تقدير

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٠٦ .

(٢) أزهار الرياض ٣-١٢٠ وترجمة ابن لبون في القلائد ص ١٠٢ و ٢٠٨ والمغرب ٢ - ٢٧٦ .

(٣) القلائد ص ٢٠٧ وأزهار الرياض ٣-١٤٥ .

(٤) أزهار الرياض ٣-١٤٢ والقلائد ص ٢٠٦ .

(٥) أزهار الرياض ٣-١٢٥ – ١٢٧ وترجمة الوزير في القـلائد ص ١٧٠ .

(٦) أزهار الرياض ٣-١٤١ والقلائد ص ٢٠٥ .

(٧) أزهار الرياض ٣-١٣٩ .

(٨) أزهار الرياض ٣-١٣٢ .

(٩) أزهار الرياض ٣-١٣٣ وترجمته في القلائد ص ١٨٢ .

(١٠) والتفاصيل في القلائد ص ٢٠٢ وأزهار الرياض ٣-١٠٢ ونفح الطيب ١-٤٢٥ .

العلماء ، والأدباء ، وحفاوتهم ، وإكرامهم ، وإجزال العطايا والصلات لهم ، وإجراء الأموال عليهم ، وعزّهم ، ومكانتهم في نفوس الخاصة والعامـــة .

وليس لدينا ما يؤكد لنا عن صلته بالمأمون ، وحظه من حاشيته ، وهل كانت له شركة في مجالس الطرب والأنس التي كان يقيمها في قصره ، الذي كان شاده بطليطلة ، والذي بالغ الشعراء والخطباء ، والمؤرخون في وصفه أم لا ؟ لأن المصدر المفصل عن حياة ابن السيد هو الفتح بن خاقان ، وبيانه مختلف فيما ألفه ، وقوله يناقض بعضه بعضا ، فإنه يقول في « القلائد » إن ابن السيد حضر مع المأمون بن ذى النون في مجلس الناعورة بالمنية ، وبه أخذ المقري في « نفح الطيب »[1] وقال في رسالته ، التي خصصها لابن السيد[2] : إنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون في مجلس الناعورة بطليطلة ، فقال قصيدته الدالية ، يصف بها حال المجلس ومطلعها (من المنسرح) :

يامَنْظرًا إنْ رَمَقْتُ بَهْجتَهُ   أذكَرَني حُسْنَ جَنَّةَ الْخُلْدِ

فالرجل يختلف بيانه ، وكلامه يناقض بعضه بعضا ، كما ترى :

ونرجح أن هذا لم يكن مع المأمون ، وإنما كان مع حفيده القادر ، لأن ابن السيد لم يقل بيتا واحدا في مدح المأمون فيما بلغنا من شعره ، مع أنه قد مدح القادر [3] ، والملوك الآخرين ، الذين اتصل بهم ، وحضر مجالسهم ، ومآدبهم ، كابن رزين ، وابن هود ، وبني عبد العزيز ، فلو كانت له صلة بالمأمون ، وشركة في مجالسه ، وحظٌ من حاشيته وعطاياه، لقال فيه شعرا ، ولخلد ذكراه ، ثم إن ابن السيد ، لم يكن قد بلغ درجة من العمر ، والشهرة ، التي تؤهل الإنسان أن يكون سمير الملك ، وأكيله وشريبه ، وخاصة إذا كان في بلاطه عدد ضخم من الأعلام ، والفحول ، فإن من الصعب أن

---

(١) « القلائد » ص ٢٠٢ . « ونفح الطيب» ١-٤ و«أزهار الرياض» ٣-١٢٨ .

(٢) « أزهار الرياض » ٣-١٠٧ .

(٣) أزهار الرياض ٣-١٢٥ .

يحظى شاب ناشيءُ من حاشية الملك بشيء ، وعنده قطاحل الأدب والشعر .
إلا أنه اتصل بالأميرين يحي بن إسماعيل بن يحي المأمون ، وعبد الرحمن بن عبيدالله ابن ذي النون ، فمدحهما ، وحضر مجالس الأنس والطرب لهما[1] .

وكانت لابن السيد صلة ببني عبد العزيز ، أصحاب بلنسية ، فإنه قد رثى[2] الوزير الأجل ، أبا عبد الملك ابن عبد العزيز ، وأشاد بذكر الوزير ، أبي بكر ابن عبد العزيز الذي كان المأمون قد استخلفه ، على بلنسية بعد أن أسقط ملكها ، وأدمجها إلى مملكته طليطلة ، وذلك سنة ٤٥٧هـ[3] . وأغلب الظن أن صلته ببني عبد العزيز في حياة المأمون ، هي التي أخرته عن مجالسه ومدحه له . وقال ابن السيد في قصيدته التي رثى بها أبا عبد الملك وأشاد بذكر الوزير أبي بكر والتي مطلعها[4] (الطويل) :

فؤادي قريح قد جفاه اصطباره
ودمعي أبت إلا انسكاباً غزاره

ويعزي بني عبد العزيز قائلا :

عزاءً بني عبد العزيز وإن خلا
من المجد مغناه وهد مناره
ففيكم لهذا الصدع آس وجابر
وإن كان صعباً أسوه وانجباره
لكم شرف أرسى قواعد بيته
أبو بكر الساري إليكم نجاره
أجل وزير عطر الأرض ذكره
وأخجل زهر النيرات فخاره
فلو كان للعلياء جيد ومعصم
لأصبح منكم عقده وسواره

(١) أزهار الرياض ٣-١٠٧ و ١١٧ .
(٢) أزهار الرياض ٣-١٢٥ .
(٣) ابن عذاري ٣-٢٦٦ .
(٤) أزهار الرياض ٣-١٢٥ – ١٢٧ .

ولما مات المأمون سنة ٤٦٧ هـ ، وخلفه حفيده يحي القادر بالله ، كان لابن السيد فيه أمل ورجاء ، وكان يتوقع منه خيراً ، وكان يطمع في إحسانه إليه ، فمدحه وقال فيه قصيدة مطلعها [1] : (الطويل) :

ضَمَانٌ على عَيْنَيك أنِّيَ هائمُ
تَصُدُّ ، وقلبي حول وصلك حائمُ

وفيها يقول :

وما أنتَ إلا آية الله في الورى
وحكمته إن قال بالعلم عالِم
لقد بخَسُوك الحقَّ جهلاً وأخطأت
بما رجَمَت فيك الظنونُ الرواجمُ
كما بخسوا يحيَ بْنَ ذي النون حقَّهُ
فقالوا : ابن سُعْدَى في النَّوال وحاتمُ

وفيها يقول :

لنا بارقٌ من بِشْرِهِ ليس خُلَّبًا
إذا شامَهُ يوما من الناس شائم
عليه من المأمون يحيَى مَشَابهٌ
تُرَى ، ولإسماعيل فيه مَيَاسمُ

إلى أن يقول له :

وأورثك المأمونُ صارِمَهُ الذي
به لم تزَلْ تُفْرَى الطُّلَى ، والْجَمَاجم
فَصَمِّم ولا تُحْجِم فإنك صارم
حُسَامٌ ، ومنه في يد الله قائم

إلا أن هذا الملك الجديد الشاب ، قد ساءت سيرته وفسدت أخلاقه ، فأساء إلى النبهاء والزعماء ، من أمثال ابن الحديدي ، عونهم ، ومدبر ملكهم ،

---

(١) «أزهار الرياض» .

حتى قتلته طائفة مفسدة من أهل طليطلة فى القصر الملكي ، وأفسد حال طليطلة وأهلها ، فثاروا عليه[1] . فزهد فيه الفقيه الأجل ، فتركه ، وسار متوجها إلى السهلة ، وعليها أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن رزين ، الملقب بحسام الدولة ، وكان عند وصوله إليه قد رفعه أرفع محَلّ ، وأنزله منزلة أهل العقد والحل ، واطلعه في شمائه ، وأقطعه ماشاء من نعمائه ، وأورده أصفى مناهل مائه ، وأحضره مع خواصه وندمائه ، وكانت دولته موقف البيان ، ومقذف الأعيان ، ومُخصب جمار الآمال ، وأعذب موارد الإجمال ، لولا سطواته الباطشة ، ونكباته البارية لسهام الرزء الرائشة ، فقلما سلم منها مفاد الأموال ، ولا أحمد عقبا معه صاحب ولا وال ، فأحمد هو أول أمره معه ، واستحسن مذهبه في جانبه ومنزعه ، ولم يدر أن بعد ذلك الشهْد شرب علقم ، وأن السم تحت لسان ذلك الأرقم ، فقال رحمه الله يمدحه[2] (الطويل) :

عسَى عطفُهُ ممن جفاني يُعيدُها ... فتُقْضَى لُباناتي ويَدْنو بَعيدُها

وقصيدته هذه من عيون الشعر الأندلسي ، وفيها يقول :

إذا أنكحوا من فِضّة الماء تِبرَها ... أتى اللؤلؤُ المكنونُ وهو وليدها

كما أنكحوا البدر استقامت سعودُهُ ... هُذَيْلاً من الشمس استقامت سعودها

فجاءا بعبد المَلْكِ للملك كوكبا ... ليحمي سماء المجد ممن يكيدها

ومى جُنّة الأعداء لمّا سموا لها ... بشُهب القنا حتى استشاط مَريدها

* * *

فتًى أحرز العليا وحاز مدَى الندى ... فما إن له من رتْبة يستَزيدها

---

(1) ابن عذار ٣-١٠٤ – ٢٠٦ ، وأعمال الأعلام ص ١٧٩ .

(2) أزهار الرياض ٣-١٢٣ .

سرى بارق من بشره غير خلسب
إلى أرض آمالي فأورق عودها
وبوّأني من مجْده في مكانة
سعود النجوم الزاهرات صعيدُها
فيأيها المولى الذي أنا عبده
وقدمًا رجا طول الموالى عبيدها
أصخ نحو حُرّ الشعر من عبد أنعم
بدائعه مازال منك يفيدها
قواف تروق السامعين كأنما
تُحلّى سجاياك الحسان قصيدُها

إلا أن هذه السعادة لم تدم، ولم يلبث أن فسد مابينهما وكادت سهام الرزء الراشقة لابن رزين تصيب عبد أنعمه ابن السيد ، وكاد أن يعتقل في (شنت مرية) كما اعتقل أخوه أبو الحسن قبله في (قلعة رباح) إلا أن الأقدار ساعدته واستطاع أن يتخلص من ابن رزين ، ويفر منه فرار السرور من الحزين[1]. وكان ذلك عام سبعين وأربعمائة كما صرح به ابن السيد نفسه في مقدمة « المثلث » حيث قال : (وذهب عني في نكبة للسلطان جرت علي ، وانتهب معظم ما كان بيدي) .

ولا نعرف شيئا عن حياة ابن السيد التي قضاها بين فراره من ابن رزين ودخوله سرقسطة في أيام المستعين ابن هود [2] . فإذا عرفنا أن نكبة السلطان التي جرت عليه ، كانت في السبعين وأربعمائة ، وعرفنا كذلك أن المستعين تبوأ عرش سرقسطة في سنة ٤٧٨[3] ، فمعنى ذلك أن بين فراره من السهلة ودخوله سرقسطة ثمانية أعوام ، وهو فراغ كبير لا تملأه كتب التراجم والتاريخ ، كما أنه لم يشر إلى ذلك في مؤلفاته التي وصلت إلينا .

---

(١) أزهار الرياض ٣ - ١٢١ .
(٢) نفس المرجع .
(٣) « أعمال الأعلام » ص ١٧٢ .

وقد كانت سرقسطة عندما دخلها ابن السيد : (هي جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف ، ملك نمير البشاشة ، كثير المشاشة ، وملك بهج الفناء ، أرج الأرجاء ، يروق المجتلي ، ويفوق النجم المعتلي ، وخضرة منسابة الماء ، منجابة السماء ، يبسم زهرها وينساب نهرها ، وتتفتح خمائلها ، وتتضوّع صباها وشمائلها ، والحوادث لا تعترضها ، والكوارث لا تقرّضها ، ونازلها من عرس إلى موسم ، وآملها متصل بالأماني ومتسم ، فنزل منها في مثل الْخَوَرْنق ، والسَّدير ، وتصرف فيها بين روضة وغدير ، فلم يخف على المستعين احتلاله ، ولم تخف لديه خلاله ، فذكره معلمـــا به ومعرفا ، وأحضره مُنَوِّها له ، ومشرّفا [1] . وقد مدح المستعين وأشاد بذكره ، فمن ذلك قصيدته التي مطلعها [2] : (الطويل) :

هُمُ سَلَبُوني حُسْنُ صَبْرِيَ إذْ بَانُوا
بِأقْمَارِ أطْوَاقٍ مَطَالِعُهَا بَـــانُ

ولعله كان على شيء من سوء الحال عندما وصل إليه ، كما يبدو ذلك من قوله في القصيدة نفسها :

تَنَكَّرَتِ الدُّنيا لنا [3] بَعْدَ بُعْدِكُمْ
وَحَفَّتْ بنا من مُعْضِلِ الْخَطْبِ ألْوَانُ

أناخَتْ بنا في أرض (شَنْتَ مَرِيَّة)
هواجِسُ ظَنٍّ خانَ والظَّنُّ خَوَّانُ

وَشِمْنَا بُروقا للمواعيد أتْعَبَتْ
نَواظِرَنَا دَهْرًا ، وَلَمْ يَهْمِ هَتَّانُ

فَسِرْنَا ، وما نَلْوِي عَلَى مُتَعَذِّرٍ
إذا وطَنٌ أقْصاكَ ، آوَتْكَ أوْطَـــانُ

---

(1) « أزهار الرياض » ٣-١٢١ .

(2) نفس المرجع .

(3) ليست (لنا) في الأصل ، ولا يستقيم الوزن بدونها أو بمثلها . « المعرب

من حياته ، وهو عهد الكهولة ، والشيخوخة ، وعهد التأليف ، والتدريس . فكان ابن السيد قد قطع صلته بملوك الطوائف ، ــ أو قل قطع الله دابرهم وجمع الأمة تحت راية يوسف بن تاشفين ــ وأعيان الحكومة ، وأصحاب الرياسة ، وعكف على المطالعة ، والقراءة ، والتأليف ، وجلس للتدريس ، ولاقراء اللغة والنحو ببلنسية ، فأقبل إليه الطلاب من كل ناحية وصوب ، يأخذون عنه النحو واللغة ويقتبسون من فضله ، ومعارفه ، ثم ينصرفون عنه ، وينتشرون في نواحي البلاد ، فيعلمون ويدرسون ، ليبثّوا معارفه ، وينقلوها إلى الأجيال القادمة .

ونراه لا يذهب إلى شلب بيضته ، ومسقط رأسه ، ولا إلى بطليوس ، مدرسته الأولى ، التي بدأ بها حياة الدراسة ، والتحصيل ، وإنما يختار له مدينة بلنسية فينزل بها . ولعل إعراضه وانصرافه عن هاتين المدينتين كان لما قد أصابهمــا من التخلف ، وسوء الحال والخراب ، بسبب الحروب والفتن ، التي قامت في وجه مملكة بلطيوس ، وإماراتها ، تارة على أيدي ملوك أشبيلية من بني عبّاد ، وأخرى على أيدي قواد المرابطين ، وحكامهم ، مما كان قد عطل موكب الحضارة ، وأفسد النشاط العلميّ والأدبي ، بتلك البقاع من الأندلس في ذلك الوقت .

ولاتحدثنا التراجم ــبالصراحة متى تحول ابن السيد عن خدمة الملوك ، وقطع صلته بحياة القصور ، وأغلب الظن أن ذلك كان بعد وفاة المستعين سنة ٥٠١ هـ[١] .

فإذا صح أنه فارق سرقسطة بعــد وفاة المستعين ، وولى وجهه شطر بلنسية ، فنزلها ، واستقر بها مكانه ، فمعنى ذلك أن هــذه المدة كانت طويلة جــداً ، تمتد إلى عشرين سنة كما أنها كانت هامة جــداً ، وذلك

---

(١) أعمال الأعلام ص ١٧٤ .

لأنّ تلك الحقبة هي ألمع أوقات حياته ، وأكثرها فائدة ، وأكبرها نفعا . لأنها تمثل لنـا طوراً خصبا من حياته الأدبية والعلمية ، التي نصب نفسه في خلالها لإقراء النحو وفيها ألف تواليفه الـكثيرة [1] .

أما الأسباب التي جعلته ينصرف عن حياة القصور ، ويتحول عن خدمة الملوك والأمراء ، ويقطع صلته بالأعيان والرؤساء ، فأظهرها وأكبرها أربعة : أولها : أنه جرّب ملوك الطوائف واختبرهم ، فلم ير فيهم خيرا ولا صلاحا . وشاهد أخلاقهم السيئة ، وطغيانهم على الرعية ، وجورهم على الضعفاء الأبرياء ، فأبغضهم ونفر عنهم . وثانيها : ماواجهه من نكبة خطرة على يد ابن رزين التي ذهبت بمعظم مافي يديه ، وفرمنه فرار الموت أو القتل . وثالثها : الهزات العنيفة التي أُصيبتْ بها الأندلس ، تركت أثرا بعيدا في قلوب أهلها ، من إشاعة القلق والخوف ، والتوجس من المستقبل : والتي تزعزع بها بنيان الحضارة ، وأصيب المسلمون بالمكاره والآلام ، التي تقشعر الجلود عند ذكرها ، وتضطرب الأوصال عند سماعها ، وتتبادر الدموع عند بيانها . ورابعها : نهاية ملوك الطوائف المشجعين للأدب والشعر ، وحلول المرابطين محلهم ، الذين لم تكن لهم أية عناية بالآدب والأدباء ، والشعر والشعراء ، ولقد قال الفتح ابن خاقان وأجاد حيث قال : (إن ابن السيد لما رأى الأحوال واختلالها ، والأقوال واعتلالها ، وتلك الشموس قد هوت ، ونجوم الآمال قد خوت ، أضرب عن سواه ، ونكب عن نجواه ، واغترب بلوعة ابن رزين وجواه ، ونصب نفسه ، لإقراء علوم النحو وتقنّع بتغيم جوّه بعد الصحو [2]) .

وفاته :

وقد أجمعت المصادر التاريخية [3] على أن أبا محمد ابن السيد البطليوسي

---

(١) مقدمة الانتصار . (٢) القلائد ص ٢٠٢ .

(٣) الصلة ص ٢٨٧ ، وابن خلـكان ١-٢٨٧ ، وأزهار الرياض ٣-١٠٢ ، والسيوطي ٢-٥٦ ، ومعجم البلدان ١-٤٤٧ والقمي ١-١٣ ، ٣ والشذرات ٣-٦٠ ، واليافعي ٣-٢٢٨ ، وغاية النهاية ت ١٨٧٣ ، والـكشف ص ١٤١١ ، وهدية العارفين ١-٤٥٥ ، وبروكلمان في تكملته ١-٧٥٨ ، والأعـلام ٤-٢٦٨ .

توفي في منتصف رجب الفرد ، من سنة أحد وعشرين وخمسمائة من الهجرة النبوية ببلنسية ، رحمه الله رحمة واسعة ».

ملامح من شخصية الرجل

١ ـ لوعات الحب والغرام :

إنك قد رأيت فيما سبق من صورة مجملة عن حياة ابن السيد التي إن لم تكن شاقة ، فقد كانت مضطربة ، وخاصة في أطوارها الثلاثة الأولى ، التي لم يزل يتنقل في خلالها من عاصمة إلى أخرى ، ويتصل بملوك الطوائف ، مرة بهذا ، وأخرى بذلك . أما حياته الخاصة فلا نعرف عنها إلا بعض الإشارات الخفية . ويبدو لنا أن الرجل كان قد ابتلي بالحب ، وذاق طعمه ، وأحسّ حرارته ، وعالج آلامه ، فعبّر عن ذلك في شعره .. وهذا الشعر لا يصدر إلا من قلب مُذابٍ حبّاً وعطفاً وحناناً[1] (الطويل) :

خليليّ هلْ تُقضَى لُبانَةُ هائمٍ ؟ ... أمِ الوَجْدُ والتَّبْرِيحُ ضَرْبَةُ لازِمِ

فإنِّي بما ألْقَى مِنَ الوَجْدِ مُغْرَمٌ ... كَسالٍ ، وقلْبي بائحٌ مِثْلُ كاتِمِ

ولي عبَراتٌ يستَهلُّ غَمامُها ... بخَدّي ، إذا لاحَتْ بُروقُ المَبَاسِمِ

كَفَى حزَناً أنّي أذُوبُ صَبابَةً ... وأشْكُو الّذي ألْقَى إلى غيْرِ راحمِ

وأرْتَعُ مِنْ خَدّيْهِ في جَنَّةِ المُنَى ... ويُصْلي فُؤادِي مِنْ هَواهُ بِجاحمِ

تقَضّى الصِّبا ، واللَّهوُ ، إلاّ حُشاشةً ... تُجَدِّدُ لي عَهْدَ الصِّبا المُتَقادِمِ

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٣٠ .

وهو القائل [1] : (الطويل) :

أمَا إنّه لولا الدموعُ الهوامعُ
لمَا بانَ منّي ما تجنّ الأضالعُ

وكم هتكتْ سترَ الهوى أعيُنُ المها
وهاجتْ ليَ الشوقَ الديارُ البلاقعُ

خليليّ ما لي كلّما لاحَ بارقٌ
تلظّى الحشا ، وارفضّ مني المدامعُ

هل الأفقُ في جنبيّ بالبرقِ لامعُ؟!
أم المزنُ في جفنيّ بالودقِ هامعُ ؟!

ففي القلبِ من نارِ الشجونِ مصائفٌ
وفي الخدِّ من ماءِ الشؤونِ مرابعُ

وما هاجَ هذا الشوقَ إلاّ مهفهفٌ
هو البدرُ أو بدرُ الدجى منهُ طالعُ

إذا غابَ يومًا فالقلوبُ مغاربٌ
وإنْ لاحَ يومًا فالجيوبُ مطالعُ

يضرّجُ خدّيهِ الحياءُ كأنّما
بخدّيهِ من فتكِ الجفونِ وقائعُ

إلا أننا لا نعرف أيّ الجآذر [2] أخذت بلبه ، ومن كان قد ابتلي حبًا ، وفي أي مكان وزمان كان ذلك ؟ ونخشى أن يكون هذا الحب هو (الحب الأفلاطوني) [3] .

---

(١) نفس المرجع ١ ص ١١١

(٢) التي يقول لها ابن السيد .

نفسي الفداء لجؤذر حلو اللمى ... مستحسن بصدوده أضناني
في فيه سمطا جوهر يروي الظما ... لو علني ببروده ، أحياني

نفح الطيب ٢-٣٨٤ .

(٣) اضطررنا لاعتبارات لاتخفى إلى حذف مايتصل بهذا الموضوع ومن أحب التوسع فليرجع إلى السيوطي ٢-٥٥ — ٥٦ ونفح الطيب ٢-١٩٥ و ٢١٠-٢١٦ وأزهار الرياض ٣-١٠٢ و ١٢٩ فقد نقل الكاتب الكريم منها نصوصا تلقي أضواء على حياة ابن السيد العاطفية « العرب » .

٢ ـ النحوي اللغوي :

كثيراً ما تذكره المصادر بلقب النحوي[1] ، وهذا مما لا شك فيه ، فقد كان ابن السيد البطليوسي رحمه الله إماماً من أئمة النحو واللغة ، وعلماً من أعلام الأدب ، لا في المغرب فحسب ، بل في المشرق أيضاً . وقد تناول بعض أمهات النحو شرحاً . ونقداً ، فمن ذلك كتاب « الجمل » للزجاجي . وشرح أبياته ، وحل لغاته ، ونسبها إلى قائليها ، ووصل بكل بيت منها ما يتصل به ، وأخرج شرحه هذا باسم « كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل » وكان قبل ذلك قد نبه على أغلاطه وأخطائه ، وأصلح من خلله ، وفساده ، وسماه « إصلاح الخلل الواقع في الجمل » .

وله كتاب في « المثلث » قد أتى فيه بالعجائب ، ودلّ على اطلاع عظيم له في هذا الموضوع ، وقد فاق فيه قطرباً من ناحية الصواب وكثرة المواد . .

وحقّاً سماه المَقّري[2] : (إمام نحاة الأندلس نَحَوي زمانه وعلامته). وقد ادعى أبو الوليد الشقندي في رسالته ، التي خاطب بها ابن المعلم الطنجى أن ابن السيد البطلبوسي لا مثال له في الشرق ونصّ كلامه : (وهل لكم في النحو مثل أبي محمد ابن السيد وتصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ومثل أبي على الشلوبيني[3] . وقد يكون في هذا القول شيء من المبالغة والغلو ، إلا أنه لا يخلو من الحقيقة الواقعية ، فإن الخدمات التي قام بها ابن السيد في ميدان النحو واللغة ، لا يمكن إنكارها أو تجاهلها ، وتصانيفه شاهدة على ذلك مؤيدة له .

٣ ـ الكاتب الأديب :

وكان ابن السيد كاتباً بليغاً أديباً بارعاً ، وقد وصل إلينا كثير من

---

(١) نفح الطيب ١-١١٣ وابن خلكان ١-٢٨٧ والشذرات ٣-٦٥ واليافعي ٣-٢٢٨ وهدية العارفين ١-٤٥٤ وكذلك في بداية الخطبة لأكثر مؤلفاته .

(٢) نفح الطيب ١-١١٣ و ٢-٦٦٩ .

(٣) نفس المرجع ٢-١٣٠ .

رسائله ، وكتبه ، مما يعطينا صورة كاملة عن نثره ، مما كتبه في شتى المناسبات والموضوعات .

ونثره ينقسم إلى قسمين : قسم علمي ، وهو ما نجده في تآليفه العلمية . والأدبية والدينية . وهذا النوع من النثر ليس فيه تسجيع ولا تقفية ، إلا ما جاء عفواً ، وفي سهولة ويسر ، كما نرى في « الاقتضاب » و « شرح سقط الزند» و«الانتصار» وكتاب«الحدائق» في المطالب العالية الفلسفية العويصة ، و« الطرر على الكامل » وغيرها من مؤلفاته . وقسم أدبي فني ، ونعني به لغة الرسائل والتوقيعات والرقعات ، التي بعث بها إلى إخوانه وأصدقائه من الوزراء ، والكتاب والأدباء والشعراء ، واحتفظ ببعضها كتب التراجم والتاريخ كـ« قلائد العقيان » للفتح ابن خاقان ، و«أزهار الرياض» للمقري ، و« نفح الطيب » له . وهذا النوع من النثر يلتزم ابن السيد فيه السجع والقافية ، وينحو فيه نحو ابن العميد وغيره من الكتاب المترسلين من هذا القبيل في المشرق والمغرب . إلا أنه لا يتكلف السجع ، ولا يكلف نفسه بالصنعة ، وإنما نراه يميل دائماً إلى القصد في الغلو والتنسيق . ويأتي بجمل مسجعة متناسقة في أغراض مختلفة متساوقة ، يجد فيها القارئ لذة ، وحلاوة ، وروعة ، وجمالا ، من اختيار الألفاظ ، وحسن التأليف ، والتركيب . وهذا النوع من نثره لا يختلف كثيراً عن شعره من ناحية المحاسن اللفظية والمعنوية ، كالاستعارة والتشبيه والتضمين والتلميح ، وغير ذلك من أنواع الصناعات والبدائع ، فكأن ابن السيد يقول شعراً في قالب نثري . وكذلك فإن له قدرة عجيبة في الاستشهاد ببيت الشعر ، وإنشاده في المناسبات : فهو يستعمله في أكثر الأحيان في كلامه ، ويطبقه ، وينصبه فيه كأنه صنع لهذا الغرض ، وكأن الشاعر قاله على طلب من ابن السيد لغرضه هذا أو ذاك .

نماذج من نثره :

١ ــ كتب رقعة ، يصف بها « قلائد العقيان في محاسن الأعيان » من تصانيف الفتح ابن خاقان ، وهذا نصه : ــ تأملت ، فسح الله لسيدي ، ووالى في أمد بقائه ، كتابه الذي شرع في إنشائه ، فرأيت كتاباً سينجد ويغور ،

ويبلغ حيث لا تبلغ البدور ، وتبين به الذرى والمناسم ، وتغتدى له غرر في أوجه ومواسم ، فقد أسجد الله الكلام لكلامك ، وجعل النيرات طوع أقلامك ، فأنت تهتدي بنجومها ، وترمي برجومها ، فالنثرة من نثرك ، والشعرى من شعرك ، والبلغاء لك معترفون ، وبين يديك متصرفون ، وليس يباريك مبار ، ولا يجاريك إلى الغاية مجار ، إلا وقف حسيرا ، وسبقت ودُعيَ أخيراً ، وتقدمت — لاعدمت — شفوفاً ، ولابرح مكانك بالآمال محفوفاً ، بعزة الله)[1] .

٢ — وكتب إلى الأستاذ أبي الحسن بن الأخضر رحمه الله :

(يا سيدي الأعلى ، وعمادي الأسنى ، وحسنة الزمان الحسنى ، الذي جل قدره ، وسار مسير الشمس ذكره ، ومن أطال الله بقاءه ، بفضل يعلي مناره ، وعلم يحيي آثاره ، نحن — أعزك الله — نتدانى إخلاصا ، وإن كنا نتناءى أشخاصا ، ويجمعنا الأدب ، وإن فرقنا النسب ، فالأشكال أقارب ، والآداب مناسب ، وليس يضر تنائي الأشباح ، إذا تقاربت الأرواح ، وما مثلنا في هذا الانتظام ، إلا كما قال أبو تمام — رحمه الله : (الطويل)

نسيبيَ في رأيي وعلمي ومَذْهَبي
وإنْ باعدَتْنا في الأصُولِ المناسب

ولو لم يكن لمآثرك ذاكر ، ولا لمفاخرك ناشر ، إلا ذو الوزارتين أبو فلان أبقاه الله لقام لك مقام سحبان وائل ، وأغناك عن قول كل قائل ، فإنه يمد في مضمار ذكرك باعاً رحيبا ، ويقوم بفخرك في كل ناد خطيبا ، حتى تنثني إليه الأحداق ، وتلوى نحوه الأعناق ، فكيف وما يقول إلا بالذي علمت سعد[2] ، وما تقرر في النفوس من قبل ومن بعد ، فذكرك قد أنجد وأغار ، ولم يسر فلك حيث سار ، وإن ليل جهل أطلعت فيه فجر تبصيرك ،

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٢٩ والقلائد ص ٢٠٣ .

(٢) من شعر الحطيئة : وماقلت إلا بالذى علمت سعد من قصيدته التى مطلعها .
ألا طرقتنا بعدما هجعت هند وقد سرن خمسا واتلاب بنا نجد

لجدير بأن يصير نهارا ، وإن نبع فكر قدحته بتذكيرك لجدير أن يعود مرخا وعفارا ، فهنيئا لك الفضل الذي أنت فيه راسخ القدم ، شامخ العلم ، منشور اللواء ، مشهور الذكاء ، مليت الآداب عمرك ، ولا عدمت الألباب ذكرك ، ورقيت من المراتب أعلاها ، ولقيت من المآرب أقصاها ، بفضل الله [1] .

٤ ـ الشاعر المقلق :

كان أبو محمد ابن السيد البطليوسي ، من الشعراء المعدودين ، المذكورين وهو من شعراء « الذخيرة » و « الخريدة » و « معجم السلفي » [2] . وله شعر يجمع بين سلامة التفكير ، وسلاسة التعبير ، ومعالجة كثير من مسائل الحياة ، ومشاكل البيئة ، والاجتماع وخوالج النفس ، وعواطفها ، ووصف الطبيعة ، ومظاهرها . وقد احتفظت ببعضه كتب التراجم والتاريخ ، كـ « نفح الطيب » للمقّري ، و « أزهار الرياض » له ، و « قلائد العقيان في محاسن الأعيان » للفتح ابن خاقان ، « والمغرب في حُلى المغرب » وغيرها من المصادر التاريخية .

ويمتاز شعره بسلاسة اللفظ واختياره ، وسهولة المعاني وابتكارها . وقد ضمنه من الحكم والأمثال ، والافكار الفلسفية العميقة ، والخيالات الجميلة البديعة ، مع نوادر التشبيه ، وروائع الاستعارة .

وعلى شعره طابع واضح من أثر المعرّي والمتنبي وأبي تمام وغيرهم من شعراء العصر العباسي ، من هذا الجيل ، الذين تأثر بهم شعراءُ الأندلس أكثر ما تأثروا به من شعراء العرب في الشرق .

وتراه في بعض الأحيان ، يكلف نفسه بلزوم ما لا يلزم كصاحبه أبي العلاء المعرّي [3] . وليس ذلك بدعا منه ، فإنه قد تصدى لشرح « سقط الزند » ، وديوان المتنبي ، كما أنه عني بدراسة شعرهما وشعر أبي تمام ،

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٤١ – ١٤٢ والقلائد ٢٠٥ .

(٢) المغرب في حلى المغرب ١-٣٨٥ .

(٣) القلائد ص ٢٠٤ .

وغيرهم من فحول القدماء . إلا أنه لا يحاكيهم ، ولا يحتذيهم إلى حد بعيد ، ليصبح (معرّي الغرب) ، أو غير ذلك ، كما حاول ابن هانيء الأندلسي في محاكاة المشارقة ، واحتذائهم وتقليدهم ، وخاصة المتنبيء منهم ، حتّى حاز لنفسه لقب (متنبيء الغرب) وإنّما كان ابن السيد يشعر لنفسه ، ويعبر عن نزوات حسه ، ولم يكن يكلف نفسه في ذلك أكثر من اللازم والضرورة .

وإننا نجد في شعر ابن السيد أجود ما خصت به الطبيعةُ أهْلَ الأندلس من وصف المناظر ، وشرح العواطف ، وسمو الخيال ، وصفاء الديباجة ؛ ونراه أحيانا تأتلق نفسه الفياضة ، وينشرح صدره الرحيب ، فتتفتح مشاعره الذكية لجمال الطبيعة ، ورونقها ، ولذات الحياة ومتعتها ، وعجائب الكون وغرائبه ، فيصف الخيل والليل ، وقصور الترف ومجالس الطرب والأنس لملوك الطوائف . التي كان يدعى إليها ويحضرها ، ويتمتع بها .

وأما الأغراض الشعرية عند ابن السيد ، فإنها لا تختلف عن شعر شعراء الأندلس في وقته . فقد تناول في شعره من المدح والرثاء والوصف ، والحكم ، والأمثال ، والغزل والنسيب ، والإخوانيات ، ونوع آخر من شعره ، يمكن لنا أن نسمّيه (الشعر الديني) وهو ماقاله في التوحيد ، والزهد ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومكة المكرمة شرفها الله .

وقد مدح ابن السيد من ملوك الطوائف القادر بالله ابن ذي النون(١) ، والأمير الظافر عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذي النون(٢) ، والمستعين بالله ابن هود(٣) ، وابن رزين صاحب السهلة(٤) ، كما أنه مدح من الأعيان ، ذا الوزارتين أبا عيسى ابن لبون(٥) ، وذا الوزارتين أبا محمد ابن الفرج(٦) .

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٣٥ .

(٢) أزهار الرياض ٣-١٣٥ .

(٣) نفس المرجع ٣-١١٧ والقلائد ص ٢٠٨ وابن خلكان ١-٢٨٧ .

(٤) أزهار الرياض ٣-١٢٣ .

(٥) أزهار االرياض ٣-١٢٠ .

(٦) أزهار الرياض ٣-١٤٥ والقلائد ص ٢٠٧ .

وقد رثى الوزير الأجل أبا عبد الملك عبد العزيز البلنسي [1] ، وله شعر في المكاتبات والرسائل ، بعث بها إلى إخوانه وأصدقائه ، في شتى المناسبات ، منهم أبو الحسن راشد بن عريب [2] ، وذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال [3] ، والأستاذ أبو محمد بن جوشن [4] .

نماذج من شعره :

قال يصف مجلس القادر بالله ابن ذي النون من مجالس أُنسه وطربه [5] (المنسرح) :

يَا مَنْظرًا إنْ رَمقْتُ بَهجَتَهُ
أذكَرَنيَ حُسْنَ جنَّـهِ الخُلْدِ

تُرْبَةُ مِسْكٍ وَجَـوُّ عَنبَرَة
وغَيْمُ نَـدٍّ وَطَشُّ مَاوَرْدِ

وَالماءُ كَاللاَّزَوَرْدِ قَدْ نظَمتْ
فِيهِ اللآلِيُ فَوَاغِرَ الأسْدِ

كأنَّمَا جَائِلُ الحُبَابِ بهِ
يَلْعَبُ في حَافَتيْهِ بالنَّرْدِ

تَرَاهُ يَزْهو إذا يَحلُّ بِهِ
القادر زَهْوَ الكَعَابِ بِالعِقْدِ

وقال يصف فرسا للظافر عبد الرحمن بن ذي النون [6] : (الطويل) :

---

(1) أزهار الرياض ٣-١٢٥

(2) نفس المرجع ص ١١٣

(3) نفس المرجع ص ١٣٣ وتعريف القدماء بالمعرى ص ٤٤٥ وهو وزير يوسف ابن تاشفين توفي سنة ٥٤٠ ﻫ .

(4) نفس المرجع ص ١٣٩ والقلائد ص : ٢٠٣ .

(5) أزهار الرياض ٣-١٠٧

(6) أزهار الرياض ٣-١٠٨

وَأدْهَمَ مِنْ آلِ الوجيهِ وَلاحقٍ
لَهُ اللَّيْلُ لَوْنٌ، والصَّباحُ حُجولُ

تَحَيَّرَ ماءُ الحُسْنِ فَوْقَ أديمِهِ
فَلَوْلا التِهابُ الخَصْرِ ظَلَّ يَسيلُ

كَأنَّ هِلالَ الفِطْرِ لاحَ بوَجْهِهِ
فَأعْيُنُنا شَوْقاً إلَيْهِ تَميلُ

كَأنَّ الرِّياحَ العاصِفاتِ تُقِلُّهُ
إذا ابْتَلَّ مِنْهُ مِحْزَمٌ وتَليلُ

وله في وصف طول الليل[1] : (الطويل) :

تَرَى لَيْلَنا شابَتْ نَواصيهِ كِبْرَةً
كَما شِبْتُ، أمْ في الجَوِّ رَوْضُ بَهارِ ؟

كَأنَّ اللَّيالي السَّبْعَ في الأُفْقِ جُمِّعَتْ
وَلا فَصْلَ فيما بَيْنَها بِنَهارِ

وقال يرثي الوزير الأجل أبا عبد الملك بن عبد العزيز[2] : (الطويل) :

فُؤادِيَ قَريحٌ قَدْ جَفاهُ اصْطِبارُهُ
وَدَمْعي أبَتْ إلا انْسِكاباً غِزارُهُ

يُسِرُّ الفَتَى بالعَيْشِ وَهْوَ مُبيدُهُ
وَيَغْتَرُّ بالدُّنْيا وما هِيَ دارُهُ

وَفي عِبَرِ الأيَّامِ للمَرْءِ واعِظٌ
إذا صَحَّ فيها فِكْرُهُ واعْتِبارُهُ

فَلا تَحْسَبَنَّ غافِلَ الدَّهْرِ صامِتاً
فَأفْصَحُ شَيْءٍ لَيْلُهُ ونَهارُهُ

---

(1) أزهار الرياض ٣-١٢٧ .
(2) أزهار الرياض ٣-١٢٥ .

أصِخْ لِمُناجاةِ الزَّمانِ فإنّه
سَيُغْنيكَ عَنْ جَهْرِ المَقالِ سِراره

أدارَ عَلَى الماضِينَ كَأساً فكُلُّهم
أبيحَتْ مَغانيه وأقْوَتْ دِيارُهُ

وغالَتْ : أبا عَبْدَ المَليكِ صُروفُه
وقَدْ كانَ دَهْراً لا يُباحُ ذِمارُهُ

فأصْبَحَ مَجفُوّاً وقَدْ كانَ واصلاً
وأمْسَى قَصِيّاً وهو دانٍ مَزارُهُ

ولَمْ أنسَ إذْ أوْدَى الحِمامُ بنَفْسه
فلَمْ يَبْقَ إلاّ فِعْلُهُ وادّكارُهُ

خوى المجد من مروان وانْهَدَّ طَوْدُهُ
وجَدَّ بجدِّ المَكْرُماتِ عِثارُهُ

وما خِلْتُ أنَّ الصُّبْحَ يُشْرِقُ بَعْدَهُ
لعَيْنٍ وأنَّ الرَّوْضَ يَبْقَى اخْضِرارُهُ

فيا طَوْدَ عِزٍّ زَلْزَلَ الأرْضَ هَدُّهُ
ويَدْرُ عُلاً راعَ الأنامَ انْكِدارُهُ

هَنيئاً لِلَحْدٍ ضَمَّ شِلْوَكَ أنْ غَدا
عَميدَ النَّدَى والمَجْدِ فيه قَرارُهُ

ولَمْ أرَ دُرّاً قَطُّ أصْدافُهُ الثَّرى
ولا بَدْرَ تَمٍّ في التُّرابِ مَغارُهُ

وله في الغزل[1] : (الطويل) :

أيا قَمَراً في وَجْنَتَيْهِ نَعيمُ
وبَيْنَ ضُلوعي مِنْ هَواهُ جَحيمُ

إلى كَمْ أقاسي مِنْكَ رَوْعاً وقَسْوَةً
وصَرْماً وسُقْماً إنَّ ذا لعَظيمُ

---

(١) نفس المرجع ص ١٣٥

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

وَفيكِ يَمينُ اللهِ يَلثُمُها الـوَرَى
كمَا يَلثُمُ اليُمنَى مِنَ المَلكِ لاَثِمِ
وَفيكِ لإبرَاهِيمَ إذْ وَطيءِ الثَّرَى
ضُحَى (؟) قَدمٍ بُرهَانُهَا مُتقَادِمُ

وله رحمه الله في الزهد من لزوم مالا يلزم [1] : (الطويل) :

أمَرتَ إلَهي بِالمكَارِمِ كلِّهَا
وَلَمْ تَرْضَهَا إلاّ وَأنتَ لهَا أهلُ
فقُلْتَ : اصفَحُوا عمَّنْ أسَاءَ إلَيكُمُ
وَعُودُوا بِحلمٍ مِنكُمُ إنْ بَدا جَهلُ
فَهَلْ لجهُولٍ خافَ صَعبَ [2] ذنُوبِهِ
لَديكَ أمَانٌ مِنكَ ، أوْ جانبٌ سَهلُ ؟

ومن قوله في الزهد والتوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى [3] : (الطويل) :

إلَهي إنِّي شَاكِرٌ لكَ حَامِدٌ
وَإنِّي لسَاعٍ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدُ
وَأنَّكَ مَهمَا زلَّتِ النَّعلُ بِالفَتَى
عَلَى العَائِدِ التَّوَّابِ بِالعَفوِ عائِدُ
تبَاعَدتَ مجدًا وَادَّنيتَ تعطُّفًا
وَحلمًا فَأنتَ المدَّني المتبَاعِدُ
ومالى على شيء سواك معوّل
إذَا دَهمَتني المُعضِلاتُ الشَّدائِدُ

---

(١) أزهار الرياض ٣-١٤٠ والقلائد ص ٢٠٤ .

(٢) لعل صعب تصحيف (حوب) : « الحرب » .

(٣) أزهار الرياض ٣-١١٦ والقلائد ص

أغَيْرَكَ أدْعُو لي إلَهاً وَخالِقاً
وَقَدْ أوْضَحَ البُرْهانُ أنكَ واحِد ؟!
وَكَيْفَ يَضِلُّ القَصْدُ ذُو العِلْمِ والنُّهَى
وَنَهْجُ الهُدَى مَنْ كانَ نَحْوَكَ قاصِدُ
وَهَلْ يُوجَدُ المَعْلولُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ
إذا صَحَّ فِكْرٌ أوْ رَأى الرُّشْدَ راشِد ؟؟
وَفي كُلِّ مَعْبُودٍ سِواكَ دَلائِلُ
مِنَ الصُّنْعِ تُنْبي أنَّهُ لَكَ عابِدُ
وَكُلُّ وُجُودٍ عَنْ وُجُودِكَ كائِنٌ
فَواجِدُ أصْنافَ الوَرَى لَكَ واجِدُ
وَكَمْ لَكَ في خَلْقِ الوَرَى مِن دَلائِلُ
يَراها الفَتَى في نَفْسِهِ وَيُشاهِدُ

وهو القائل[1] ؛ (الطويل) :

أخُو العِلْمِ حَيٌّ خالِدٌ بَعْدَ مَوْتِهِ
وَأوْصالُهُ تَحْتَ التُّرابِ رَمِيمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهْوَ ماشٍ عَلَى الثَّرَى
يُظَنُّ مِنَ الأحْياءِ وَهْوَ عَدِيمُ

(للبحث صلة)

الدكتور ظهور أحمد أظهر
رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بنجاب

---

(١) الصلة ص ٢٨٧ وابن خلكان ١-٢٨٧ والسيوطي ٢-٥٥ – ٥٦ ونفح الطيب ٢-١٥٢ وأزهار الرياض ٣-١٠٣ والكنى والألقاب للقمي ١-٣١٢ .

التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب

ومصادر دراسته

الفترة الممتدة من عام ١٤١٥ إلى عام ١٥١٧ من أهم الفترات فى تاريخ شبه جزيرة العرب فقد أحاطت بها عواصف هوجاء وتعرضت لتهديدات خطيرة كان من الممكن أن تغير وجه التاريخ الإسلامي فى مطلع العصر الحديث .

فقد ضعفت دولة المماليك الجراكسة ، وتمركزت مظاهر هذا الضعف في عهد السلطان الغوري . وكانت دولة المماليك تبسط سيطرتها على البحر الأحمر وتحمي الحرمين وتدافع عن ذمار المسلمين ، وتتمركز في جدة وتتخذها قاعدة بحرية وبرية ، وكان ضعفها معناه اقتحام البحر الأحمر من بابه الجنوبي .

وكانت القوة الناشئة — قوة الأتراك العثمانيين — توجه جهدها كله إلى الأناضول وشبه جزيرة البلقان ، ثم بدأت تتجه إلى الشرق الإسلامى متحدية النفوذ الصفوي في إيران ، ومناوشة النظام المملوكي عند أطراف الشام ، توطئة للاندفاع نحو مصر ، وتقويض هذا النظام من أساسه ، وترك باب البحر الأحمر مفتوحاً على مصراعيه ، يتدفق منه أي تيار غريب ، قبل أن تتمكن هذه الدولة العثمانية من وراثة نفوذ مصر في هذا الجانب الحيوي من عالم الإسلام ، وكانت جزيرة العرب تمر بفترة انقسام خطيرة وتفتيت للقوى السياسية فيها ، تلك القوى التي كانت من الممكن أن تسهم في حماية البلاد ودفع الخطر عنها .

فقد كان الطاهريون فى اليمن أشد مايكونون إنشغالا بالتصدي للطامعين

(*) من أبحاث الندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة .

في العرش خصوصاً في عهد الظافر عامر اخر سلاطين بني طاهر ، كما ازدادت ثورات القبائل ، وتزايدت مطامع القوى الزيدية . حتى أن حب البقاء دفع بعض سلاطين هذه الدولة المتهاوية إلى محالفة أعداء العرب المسلمين استمساكاً لما بقي من رمقهم . وقد اتسم موقف هؤلاء الطاهريين الأواخر بالعداء السافر للبحرية المصرية التي كانت تخوض معركة البقاء مع الخطر البرتغالي .

خلال هذه الفترة التي أشرت إليها ظهر البرتغاليون ، وأفلحوا في الدوران حول رأس الرجاء الصالح ، ودخلوا مياه المحيط الهندي ، وهددوا مراكز تجارة التوابل ، وامتدت أطماعهم إلى الخليج العربي وسواحل بلاد العرب الجنوبية ، وتطاولوا إلى اقتحام البحر الأحمر وتهديد ثغر عدن ، والتشوف إلى الشمال بتهديد ميناء جدة ، حتى إذا أزاحوا النفوذ الإسلامي من هذا البحر أمكنهم أن يعبثوا بمقدسات الإسلام وتراثه الغالي في مهبط الوحي .

وهذه فترة إذن حافلة بالأحداث الجسام التي وقعت فيها ، وهي أشد ماتكون غموضاً رغم أهميتها القصوى . وهي في حاجة إلى مزيد من البحث ، اعتماداً على الدفين من مصادر تاريخ اليمن في هذه الفترة التي لازالت مخطوطة لم تنشر .

لهذا آثرت أن اختار جانباً واحداً من هذه الأحداث العاصفة وهو التهديد البرتغالي لبلاد العرب فأعرض له عرضاً سريعاً ، منبهاً الأذهان إلى ضرورة دراسته من جديد ، دراسة واعية متأنية في ضوء المصادر العربية المخطوطة ، ومشيراً إلى مصادر الدراسة هذه وأهميتها ، والمعلومات الجديدة التي يمكن أن تستنبط منها رغم أن تلميذي الدكتور محمد عبد العال أحمد علي والدكتور عبد العظيم حامد خطاب قد مسّا الموضوع مسّاً رفيقاً ، لأن الأول في الرسالة التي حصل بها على درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٧٦ تعرض لتاريخ اليمن في العهدين الرسولي والطاهري ، في حين حصل الثاني

على الدكتوراه عام ١٩٧٥ ، وفصل القول من عصر قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية في مصر والشام .

عرض سريع لمراحل التهديد البرتغـالي اعتماداً على أوثق المصـادر العـربية :

استئثار البندقية بتجارة البحر الأبيض ومصر والشرق الأدنى بالاتفاق مع النظام المملوكي في مصر دفع جنوة إلى أن تلتمس طريقاً آخر مهما كلفها من ثمن ، خصوصاً بعد أن ثارت الحرب بينهما وطردت جنوة من ساحل سوريا واستمر الصراع بينهما في القرن الرابع عشر حتى عقد صلح تورينو عام ١٣٨١ .

فكانت جنوة أولى من حاول الطواف حول ساحل إفريقية في سنة ١٢٩١ ، إذ أبحر أوجولينودي فيفالدو Ugalino di Vivaldo من أهل جنوة بسفينتين ، غير أنهما غرقتا قبالة الساحل الإفريقي ، وقد واصل أهل جنوة جهدهم في اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربي لإفريقية في مواجهة جزر كناريا .

لكنه في نهاية القرن الخامس عشر فقدت جنوة سيادتها بعد أن استولى عليها شارل الثامن ملك فرنسا في سنة ١٤٩٤ .

وقد تبنت البرتغال نفس الفكرة التي راودت أحلام الصليبيين طوال العصور الوسطى ، وأحلام أهل جنوة وهي إعداد أسطول مسيحي في المحيط الهندي لوقف التجارة مع مصر عن طريق عدن .

وقد حدث ذلك في عهد هنري الملاح (١٣٩٩ — ١٤٦٠ م) وقد بارك البابوات هذا الاتجاه ، فجعل البابا مارتن الثاني (١٤١٧ — ١٤٣١) البلاد المكتشفة منحة دائمة للتاج البرتغالي ، كما أرسل البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧ — ١٤٥٥ رسالة إلى هنري الملاح يحثه فيها على الاتصال بالمماليك المسيحية في الشرق لمحاربة المسلمين .

ثم تمكنت البرتغال في عهد ملكها خوان الأول من الاستيلاء على ميناء سبتة في سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ وأقطعها لابنه الأمير هنري الملاح .

وقد استخدم البرتغاليون كل ميراث العرب من العلم من معرفة بالمرشدات الملاحية والخرائط البحرية بفضل ماكان لهم من نشاط ملاحي في المحيط الهندي وجزر الملايو وبحار الصين ، فضلاً عن البوصلة والاسطرلاب ، وأفادوا من كتابات الإدريسي وابن بطوطة وغيرهم .

وسعيا وراء الحصول على الخبرة العربية بأيّ ثمن استخدموا التجار اليهود الذين لجأوا إلى البرتغال وكانوا على معرفة باللغة العربية ، وتظاهروا بالإسلام وتوافدوا على مصر وكان على رأسهم القونسو دى بايفا : Al Fonso Paiva وبيرودى كوفيلهام Perode Covilham وقد أبحروا من السويس إلى عدن ثم الهند ، ثم اتجهوا مرة أخرى إلى هرمز وزيلع ، وقد حصلوا على خرائط عربية عن المحيط الهندي والتيارات البحرية والرياح الموسمية ، ثم وضعوا ذلك كله في يد البرتغاليين المتشوقين إلى الشرق .

وقد سلك البرتغاليون مراحل عدة تحقيقاً لأهدافهم نوجزها فيما يلي :

تمكن بارثليميودياز من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧ ، لكنه قطع الرحلة بسبب تمرد البحارة . وفي هذه الفترة استفاد البرتغاليون من الملاحين العرب ومالديهم من معرفة بالمحيط الهندي ، خصوصاً الملاح العربي أحمد بن ماجد (الشبلي[1] : السناء الباهر ٨,٧) ويصف النهروالي في كتابة «البرق اليماني» الدوران حول إفريقية بقوله : (إن وصولهم إليها بعد عدة محاولات كان الفشل فيها من نصيبهم ، غير أنهم استعانوا ببحار عربي يقال له أحمد بن ماجد أرشدهم إلى الطريق الصحيح للهند ، بأن أمير البحر البرتغالي آسكره ثم سأله عن طريق البحر فقال لهم : لاتقربوا الساحل وأوغلوا في البحر فإن الأمواج لاتأتي لكم) .

ثم تمكن فاسكودا جاما في سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧ في عهد ملك البرتغال دوم مانويل (٩٠١/٩٢٨ــ٤٩٥ / ١٥٢١) من الوصول إلى موزمبيق ثم أبحر

---

(١) كذا والصواب : الشـلي ، وكتابه « السنا الباهر » لا يزال مخطوطاً « المرب » .

إلى ممباساو مالندي ، ثم اتجه شرقاً مع الرياح الموسمية فوصل بعد ثلاثة وعشرين يوماً إلى قاليقوط [١] . ثم كانت حملة بدور الفاريز كابرال الذي أفلح في إقامة مركز برتغالي في قاليقوط [١] ٩٠٧ / ١٥٠١ .

التهديد البرتغالى لبلاد العـــرب :

وضح هذا التهديد سافراً عندما جاء كابرال إلى أمير قليقوت [١] برسالة يحرم فيها على العرب الإقامة داخل حدود مملكته ، ويعرض عليه شراء مايبيعه للعرب بثمن أفضل (زين الدين : « تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين » – لشبونه ١٨٩٨ ص ٣٧)

ثم أسفر البرتغاليون عن وجههم تماماً فى عام ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ حين أغرق الأسطول البرتغالي في ميناء قاليقوت سفن التجار المصريين ، ومنها سفينة تابعة للسلطان الغوري كانت على وشك الإبحار إلى جدة ، وكانت محملة بالتوابل ، وترتب على ذلك قلة البضائع الهندية الواصلة إلى مصر والشام ، حتى أن سفن البندقية لم تستطع أن تحمل في العام التالى ٩٠٨ / ١٥٠٢ من موانئ مصر والشام سوى نصف القدر الذي تعودت أن تحمله من قبل .

ثم غدت الأطماع البرتغالية أشدّ ضراوة عندما ولي فاسكودا جاما نائباً للملك وحاكما لكلوه في شرق إفريقيا ، فقد بدأت المواجهة الصريحة بين البرتغاليين على سواحل الهند . وكان عليه امتثالا لأمر حكومته أن يغلق البحر الأحمر والخليج العربي لمنع وصول تجارة الشرق إلى مصر ، وضمان ألاّ تصـــل السفن المصرية إلى الهند حتى تتمكن البحرية البرتغالية من إحكام قبضتها على تجارة الهند .

وفي سنة ٩١٠/ ١٥٠٤ تعرض أسطول المماليك لهزيمة قاسية ، وأعقب ذلك مهاجمة جاما هرمز واستيلاؤه على سبع سفن عربية وقتل من بها ، وترك بعض سفنه بالقرب من باب المندب لإغلاق البحر الأحمر ، ومنع وصول السفن إليه أو خروجها منه ، كما ترك بعض السفن أيضاً عند جزر

---

(١) كذا بصورتين وبعضهم يكتبها بالكاف (كاليكوت) .

كوريا موريا للقيام بأعمال القرصنة ثم مضى التخطيط البرتغالى خطوات أبعد عندما تولى فرانسيسكودا الميدا منصب نائب الملك في الهند سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥ وصدرت له الأوامر بأن يتم استكشاف الساحل الهندي وأن يوطد الإدارة البرتغالية في كلوة ، وأن يحكم السيطرة على المحيط الهندي ، وأن يحول دون تسرب تجارة التوابل إلى البحر الأحمر . وقد أبحر من البرتغال فى ٢٣ مارس ١٥٠٥ على رأس أسطول عظيم واصطحب معه عدداً من الجنويين والبنادقة والألمان ، وكان ماجلان بين ضباطه .

وفي طريقه إلى الهند عمل على تدعيم القواعد البرتغالية في شرق إفريقية فأنشأ في أغسطس ١٥٠٥ قلعتين في ممباسا وحرص ملك البرتغال على شد أزر دالميدا فعززه بحملة بحرية أخرى أبحرت من البرتغال في إبريل ١٥٠٦ ومن ثم أخذ دالميدا يقطع الطريق على السفن العربية ، وأجبر السفن التي تعبر المحيط الهندي على ضرورة الحصول على تصريح بالمرور في هذه المياه ، وفرضوا الرسوم العالية وصادروا كل سفينة لاتحمل هذا التصريح ، وبذلك تمت السيادة البرتغالية في المحيط الهندي وأضحت التجارة الهندية مورداً رئيسياً للدولة .

ولم يقتصروا على احتكار التجارة إنما عملوا على غزو المسلمين في أعالي البحار ودخلت سفنهم إلى البحر الأحمر والخليج العربي دون انتظار للرياح الموسمية لأن السفن البرتغالية كانت أكثر استعداداً لعبور المحيط والتوغل في المياه البعيدة .

بل اضطر تجار عدن إلى شراء مايلزمهم من متاجر شرقية منهم ، وباتت الأمور وكأنما قد استقرت لهم في شواطئ الهند وعلى المداخل العربية (زين الدين : « تحفة المجاهدين » ص ٤٠) .

وقد استولى داكونها سنة ١٥٠٦ على جزيرة سقطرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من عدن والتي تتحكم في الطريق البحري المؤدي إلى البحر الأحمر ، واتخذت الجزيرة قاعدة لشن الغارات البحرية على سواحل حضرموت وعمان وهرمز .

محاولة البوكيرك الاستيلاء على عدن والسيطرة على البحر الأحمر :

ثم وقع النزاع بين السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري وبين القوى البحرية المصرية التي أرست في جزيرة كمران ، ومأعقب ذلك من تدخل الحملة المصرية في شؤون اليمن وانصرافها عن المضي في تحقيق مابذلته مصر من جهود لحماية الهند والبحار العربية من التدخل البرتغالي ، ومانتهى إليه الأمر من مهاجمة مدينة زبيد والاستيلاء عليها ونهبها واستيلائها على المدن الساحلية ، وامتلأت بلاد اليمن بالفتن والمذابح (الديبع : « بغية المستفيد » ورقة ٥٥ أ ـ ٥٥ ب) .

وكان البرتغاليون يرقبون باهتمام هذا الصراع بين القوى الإسلامية ، فلما رفع الحصار المصري عن عدن وعاد الأسطول المصرى إلى جدة قام البرتغاليون في سنة ٩٢٣ / ١٥٠٧ بمظاهرة بحرية فحشدوا ستة وثلاثين مركباً بقيادة الأدميرال لوبو سواريز دى البرجاريا Lopo Soares de albergoria وبعثوا بها إلى عدن فلما وصلت عدن أعلن البرتغاليون مساعدتهم لشعب عدن ضد المصريين ، بل أقدم الأمير مرجان الظافرى على الاحتفاء بمقدم العدو وأجابهم إلى ماطلبوه من ربابنة عرب للمشاركة في غزو جدة . واقترب الأسطول من جدة لكنهم وجدوا الأسطول المصري في الميناء ، فعادوا من حيث أتوا على أن البرتغاليين خشية رد الفعل المصري لم يحققوا أهدافهم العدوانية وأخلت حملة سواريز جزيرة كمران بعد أن خربت ميناء زيلع .

رد الفعل المصرى فى مواجهة الخطر البرتغالى :

أدرك جميع الذين تعرضوا لهذا العدوان مكانة مصر التي صدت العدوان الصليبي وسيطر أسطولها على البحر الأحمر كله شرقه وغربه من ميناء جدة إلى عدن ، بل حتى باضع وزيلع وسواكن ، فقد كان العثمانيون في مرحلة

الاتجاه إلى الشرق وكانت الدولة الصفوية مشغولة بنزاعها العقيدي ، ولم تكن تملك أسطولا في الخليج يدفع القوى الأجنبية .

ومنذ أن فطن أمير قاليقوت إلى أطماع كابرال اتجه إلى السلطان الغوري طلباً للمساعدة ، وقد أشار ابن إياس والنهروالى إلى ماقام به ملوك الهند من إرسال الرسل إلى السلطان الغوري لإغاثة المسلمين من عبث البرتغاليين ، ونهبهم أموال الناس (ابن إياس ٤ / ١٩٨) ، إذ بالغوا فى إيذاء المسلمين والاستهزاء بهم ، ويشير زين الدين في « تحفة المجاهدين » إلى أن البرتغاليين امتهنوا المصاحف وداسوها بأقدامهم وأحرقوها وحاولوا تنصير بعض المسلمين ، وإغرائهم بالمال والنساء وقتلوا الحجاج ، أو باعوهم عبيداً نساء وأطفالا ، ولم يأنفوا من قتل العلماء .

وتوالت كتب ملوك الهند في ربيع الأول ٩١٦هـ / ١٥١٠ ، كما وصلت كتب من السلطان عامر بن عبد الوهاب صاحب اليمن بطلب إمداده بالآلات والمدافع للوقوف فى وجه البرتغاليين ، وقد أرسل الغوري الطواشي بشير (ابن إياس جـ ٤ — ١٨٢) إلى سلاطين الهند وملوكها في كجرات وقاليقوت لتجميع القوى .

ولم يكن اهتمام المماليك بهذا العدوان الخطير تحدوه نزعة إسلامية فحسب أو مجرد رغبة في الجهاد دفاعاً عن تجارة الهند الدافقة إلى البحر الأحمر ، وماكانت تحصل عليه الدولة المملوكية من أرباح طائلة من تجارة التوابل ، وقد فرض السلاطين في الدولة المملوكية الضرائب على التجارة الآسيوية المارة في أراضي الدولة ، بل فرضوا نظاماً احتكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوربيين في الإسكندرية ودمياط بسعر يفوق أربعين مرة ثمنها المستورد .

ووضح الخطر في عام ٩٠٧ / ١٥٠١ ، حين أغرق الأسطول البرتغالي بعض سفن التجار المصريين ومن بينها سفينة تابعة للسلطان الغوري ، كانت على وشك الإبحار لجدة وكانت محملة بالبهار ، ثم تمادى العدوان البرتغالي

إلى أن بلغ ماذكرناه من إغلاق البحر الأحمر في وجه تجار الهند بل تهديد بلاد العرب نفسها (زين الدين : « تحفة المجاهدين » ص ٤) .

مظاهر الاستعداد المملوكي لخوض المعركة :

حرص المماليك على صد أي عدوان قد يتعرض له ميناء جدة ، فقرروا بناء استحكامات عسكرية في المدينة لحمايتها من الهجوم ، ووضعت قوات مملوكية في ميناء ينبع حتى لاتدهمه قوات معادية .

وقد اجتهد الأمير المملوكي في تحصين المدينة ، فهدم كثيراً من بيوت الناس ، مما يقارب موضع السور لوضع الأساس ، واستخدام عامة الناس في البناء ليتم إنجازه بسرعة ، وضيق على البنائين ، والحجارين ، وتم بناء السور والأبراج في أقل من عام . وكان لهذا السور الحصين بوابتان في الجهة الشرقية وله ستة أبراج ، وتم ذلك في ذي الحجة سنة ٩١٢ / ١٥٠٧ (انظر الوصف في مجلة B.S.O.A.S مجلد ٢١ ج ٢ صفحات ٢٥٥—٢٧٦— مخطوط « حسن القرى في أودية أم القرى » الورقة ٩ أ ، ٩ ب) .

وبذل السلطان الغوري جهداً كبيراً في الحصول على الأخشاب اللازمة والخبرة الفنية الكافية في شؤون الملاحة ، وحصل من البندقية على كميات من الأخشاب ، وقامت (ترسانة) السويس والروضة وبولاق والجزيرة الوسطى بإعداد السفن .

ولما تم إعداد الأسطول وعين السلطان الغوري الأمير حسين الكردي قائدا للحملة وخرجت تلك الحملة في سنة ٩١١ / ١٥٠٥ واشترك فيها عدد كبير من المماليك السلطانية وعدد من أولاد الناس (أبناء المماليك) الذين يجيدون استخدام الأسلحة النارية كما انضم إلى هذه الحملة عدد من المغاربة الذين لهم خبرة في القتال البحري واستخدام المدافع .

واتجهت هذه الحملة المكونة من خمسين سفينة إلى ميناء جدة (ابن إياس : « بدائع الزهور » ج ٤ ص ٩٦ — النهروالى : « البرق اليماني » ص ١٠ —

يحي بن الحسين : « غاية الأماني في أخبار القطر اليماني » ج ۲ ص ٦٣١ ، مرعي حماد : « نزهة الناظرين » ص ١٦١ ، ولم يبحر الأمير حسن الكردي من جدة إلا بعد استعداداته العسكرية وقد استعان بالأموال التي تم تحصيلها من جدة من رسوم تجارية لتقوية الحملة وإمدادها بالأموال اللازمة .

وفي شهر ذي الحجة سنة ٩١٢ / ١٥٠٧ ، أقلع الأسطول المملوكي متجهاً إلى عدن فوصلها في ٩١٣ / ١٥٠٧ (يحي بن الحسين : « أنباء الزمن » ص١٣ ، « الديبع : بغيةالمستفيد» ٤٣ ب ، « تاريخ ثغر عدن » ج ١ ص ٨٥) .

ثم خرجت الحملة في يناير سنة ١٥٠٨ إلى الهند وأرسى الأسطول عند ساحل كجرات واتحدت أساطيل المسلمين بزعامة الأمير حسين الكردي ، وباغت الأسطول البرتغالي قرب شول ، وقد أفاض مؤرخو اليمن في تفاصيل الحملة المصرية ، ودارت معركة شول في ربيع الثاني ٩١٤ / يوليو ١٥٠٩ ودمر الأسطول البرتغالي وكان يقوده لورنزودا الميدا ، وانتصر الأسطول المتحالف نصراً بيناً ، ويفيض ابن إياس في وصف الغنائم الكبيرة التي حصل عليها في معركة ديو ٩١٤ / ١٥٠٩ ، ويفيض زين الدين في « تحفة المجاهدين » ص ٤١ في تفاصيل هذه المعركة ويذكر أن الأسطول البرتغالي قام بمفاجأة الأسطول المصري من الخلف وحدثت معركة بحرية انتصر فيها البرتغاليون وقتلوا الكثيرين من بحارة حسن الكردي .

ويشتم زين الدين « تحفة المجاهدين » ص ٤١ ، رائحة الخيانة التي أدت إلى هذا المصير إذ تم اتصال سري بين البرتغاليين وبين مالك إياس نائب ديو ، بدليل أن البرتغاليين لم يعرضوا لسفنه بسوء ، بل ركزوا الهجوم على السفن المصرية ، ومما يؤكد خيانة مالك إياس حاكم ديو أنه سلم للبرتغاليين ، كل الذين كان الأمير حسن الكردي قد قبض عليهم وحبسهم من البرتغاليين كما أرسل للأسطول البرتغالي المؤن والذخائر حتى لقد هرب أمير البحر المصري من ديو لاجئاً لدى سلطان كجرات خشية أن يسلمه أمير ديو للبرتغاليين . وقد أصابت هذه الهزيمة المقاومة المملوكية والإسلامية في

الصميم واستشرى الخطر البرتغالي بعد نصرهم في ديو على النحو الذي بيناه .

لكن هذه الهزيمة لم تثن عزيمة الغوري عن إعادة الكرة مرة أخرى ، وشرع في إنشاء أسطول جديد ، مزود بالوسائل التي تمكنه من الإبحار لمسافات بعيدة .

وأشار ابن إياس « بدائع الزهور » ج ٤ — ٢١٢ إلى ماقام به السلطان الغوري من استعراض ما تم تجهيزه من سفن في صفر ٩١٧ / إبريل ١٥١١ ، كما بالغ المماليك في تحصين جدة أكثر من ذي قبل فتم بناء البرج السابع من أبراج تحصينات السور الواقع في جهة البحر ، بل رحل الأمير حسن إلى الهند يستنصر ملوكها للقيام بجهد مشترك لإيقاف العدو عند حده .

بل استنجد الغوري بالسلطان بايزيد العثماني وناشده المعاونة في إعداد ماتحتاجه مصر من سفن ، وفي شوال سنة ٩١٦ / ١٥١١ وصلت عدة سفن عثمانية تحمل الأخشاب والحديد والبارود والبنادق والمكاحل والمجاديف والسهام والحبال والمراسي (ابن إياس ج ٤ — ٢٠١) .

وخرجت الحملة متتابعة إلى قاعدة جدة في سنة ٩٢١ / ١٥١٥ ، وتجمعت القوة البحرية كلها في جدة ، وظلت بها طوال شهر رمضان ، ثم أبحرت بعد عيد الفطر في ١١ شوال ٩٢١ / ١٨ نوفمبر ١٥١٥ بقيادة الأمير حسن الكردي يساعده الأمير سليمان العثماني إلى عدن وبلغت جزيرة كمران في ١٧ ذي القعدة من نفس السنة .

وكانت الظروف كلها مهيأة لأن تجد الحملة كافة التسهيلات في كل الموانئ الإسلامية التي تمر بها .

لكن الحملة انصرفت عن غرضها الأساسي ، وانتهى الأمر إلى صراع مرير بين الجراكسة وبين السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب ، وكان ذلك وصمة عار في تاريخ ذلك الصراع التاريخي العنيف ، والتساؤل الذي يحتاج

إلى إجابة مقنعة بل إلى إعادة بحث واستقصاء هو : هل كانت هذه الكارثة بسبب سوء تصرف قامت به القوات البحرية المصرية في جزيرة كمران وكان الغوري قد أوصى بضرورة ملاطفة أهل اليمن والتودد لهم أم بسبب سوء ظن أو سوء تصرف من جانب المسئولين في اليمن ؟ هل ثمة خيانة أو تآمر ؟

ويبدو مما كتبه يحي بن الحسين : « أنباء أبناء الزمن » ص ١١٢ ، والدَّيبع : « بغية المستفيد » ٤٣ ب ، و« قرة العيون » ص ١٤٨ . وبامخرمه : « تاريخ ثغر عدن » ج ١ / ١١٧ ، أن تعليمات السلطان الغوري إلى قواد البحرية كانت تقضي بالمحافظة على مشاعر الناس والاستئذان عند الدخول إلى الموانئ وشراء مايلزم من الطعام والمؤن .

على كل حال استناداً إلى أوثق المصادر يمكن أن نبرز الاتجاهات الآتية :

١ ـ أن خلافا قد وقع بين الأمير حسن الكردي والريس سلمان العثماني ، وقد أدّى هذا إلى انقسام في الأسطول فتوجه سلمان إلى زيلع ، ومنها إلى جدة في حين عاد الكردي إلى جدة ماراً بالموانئ اليمنية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر (بامخرمه : « قلادة النحر » ج ٣ / ١٢٠٢)

وعلى هذا النحو لم يمكن الأسطول المصري مواصلة التقدم إلى الهند لتنفيذ المهمة الأساسية التي خصص لها .

ووضح هذا الموقف الخياني للريس سلمان العثماني عندما استولى العثمانيون على مصر ، وقضوا على دولة الجراكسة ، فانفرد سلمان بقيادة الأسطول المرابط في جدة ، بعد أن نفذ أوامر السلطان سليم بالقبض على الأمير حسن الكردي ، وإغراقه في البحر الأحمر أمام جدة (النهروالى « الأعلام » ص ١٢٨ ـ « البرق اليماني » ص ٢٦ ـ ٢٧ ـ الطبرى « إتحاف فضلاء الزمن » ص ٥٨ ب ، ٥٩ أ) .

٢ ـ الموقف الخياني للسلطان اليمني في عدن وزبيد ، فقد امتنع السلطان عامر الثاني عن الوفاء بعهده للغوري بتقديم المساعدات إلى الأسطول ورفض

أن يتخذ الأسطول المصري قواعد له في اليمن ، واحتجازه السفن الواردة بالمؤن ومنعها من الوصول إلى الأسطول المصري في كمران .

وهذا الموقف دفع قادة الأسطول إلى تحقيق مايريدون عن طريق القوة . وأدى ذلك إلى توجيه جزء من القوات المعدة أساساً لمحاربة البرتغاليين للقيام بالسيطرة على بعض الموانئ اليمنية ، ثم تطورت الأمور إلى غزو لليمن لضرب الطاهريين الذين تسببوا في عرقلة الأسطول المصري عن مواصلة القيام بمهمته الأولى .

ولايخفى أن عدن بموقعها الاستراتيجي نقطة ارتكاز لتأمين الأسطول المصري في المحيط الهندي ، ولم يكن في إمكان قادة الأسطول التوجه إلى الهند دون السيطرة عليها .

٣ – الاتصال بالبرتغاليين والتواطؤ معهم ، إما خوفاً أو خيانة ، خصوصاً تلك الاتصالات المشبوهة بين الأمير مرجان حاكم عدن ، وسواريز قائد الأسطول البرتغالي الأمر الذي دفع الأسطول إلى الوصول إلى سقطرة عام ١٥١٧ وبدأت المحادثات مع الأمير مرجان الذي رحب بالبرتغاليين ، وقدم لهم الضيافة العظيمة ، وطلبوا ربابنة يسيرون بهم إلى جدة فأجابهم إلى طلبهم ، بل لم يتردد في تلبية جميع مطالبهم حتى لقد عرض عليهم مفتاح المدينة .

وقد غادر سواريز عدن وعبر بأسطوله في ١٧ مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل إلى مشارف جدة مع حلول فصل الربيع ، حين تهب الرياح الشمالية ، ولم يستطع الوصول بسبب شدة الرياح وفشل البرتغاليون للمرة الثانية من دخول جدة .

ومن الجدير بالذكر أن هذه الحملة البرتغالية أقلعت إلى جدة في وقت يدعو للريبة . بل وفقاً لتخطيط قد يكون مدبرا لاستغلال ظروف مواتية ، فقد كان العثمانيون قد استولوا على مصر ، وقضوا على دولة الجراكسة لولا

أن الأسطول المصري كان رابضاً في جدة بقيادة الريس سلمان العثماني ، وكان الجراكسة قد أتموا استحكامات المدينة لتحقق للعلو ماأراد .

انظر : يحي بن الحسين : « غاية الأماني » ص ٦٥٨
زبارة : « أئمة اليمن » ج ١ ص ٣٩١
النهروالي : « الأعلام » ص ١٢٨
الطبري : « إتحاف فضلاء الزمن » ص ٥٨ ب ٩١ . أ
باخرمه : « قلادة النحر » ج ٣ ص ١٢٠

هكذا أسدل الستار على الحقبة التي أشرت إليها باختفاء الجراكسة واستيلاء العثمانيين على مصر ، ثم اليمن ، وتفتت القوى المسيطرة على اليمن وتناحرها ، وإخفاق مشروعات البرتغاليين في البحر الأحمر وتغير موازين القوي في أوروبا بعد فتوحات العثمانيين وانتصارهم على الصفويين ، وإعادة فتح الطريق الدولي المفضي إلى الشرق الأقصى ، واتجاه الأسبان إلى العالم الجديد ، واستهلال العصر الحديث في أوربا .

مصادر دراسة هـذه الحقبـة :

المصادر التي يعتمد عليها في دراسة هذه الحقبة الهامة من تاريخ شبه جزيرة العرب قسمان :

١ ـ ماكتبه المؤرخون في الحجاز واليمن .

٢ ـ ماكتبه المؤرخون في مصر والشام .

١ ـ ما كتبه المؤرخون فى الحجاز واليمن :

أغلب هذه المصادر لم تزل مخطوطة لم تطبع بعد ، وهي تتحدث عن أحوال اليمن في هذه الفترة ، وانقسام السلطة في البلاد بين الإمام الزيدي في صنعاء ومخاليفها ، وبين السلطان الطاهري في زبيد وعدن ولحج وأبين ورداع ، فضلا عن سلطات أخرى في كوكبان والشرف والظواهر وصعدة .

وقد فصلت هذه المصادر موضوع العلاقات بين السلطة في اليمن وبين الجراكسة في مصر ، وعلى الخصوص في فترة العدوان البرتغالي ، وقد تعاونت هذه القوى أول الأمر مع البحرية المملوكية ، وبذلك تمكنت مصر من إنفاذ الحملة البحرية التي انتصرت في شول عند شواطئ مليبار في الهند .

ثم عرضت هذه المصادر بالتفصيل أيضاً للحملة الأخيرة التي اصطدمت بالسلطان الطاهري ، وفصلت القول فيا تم من معارك على أرض اليمن ، وما كان لذلك كله من أثر في إشعال الحرب بين القوات المملوكية وقوات السلطان الطاهري ، وعنيت بوجه خاص بأخبار عساكر الجراكسة عندما سقطت مصر والشام في أيدى العثمانيين . ثم هي تعطينا تفاصيل هامة عن أسباب التورط الجركسي في حرب اليمن التي شغلت الدولة المملوكية عن مدافعة الخطر البرتغالي ، الذي ظل جاثما على المداخل البحرية العربية . كما أن هذه الحملة أفقدت اليمن الثقة في حلفائه المسلمين ، وتصور أهلها أن خطرهم لايقل عن خطر البرتغاليين ، واندفعوا في فترة هذا الصراع إلى تأييد القوى البرتغالية في حربها ضد المسلمين .

وبينت هذه المصادر كيف أن الفتح العثماني لمصر كان له أسوأ الأثر على جهود مصر لصد العدوان البرتغالي ، وماترتب على ذلك كله من عزل الحملة المملوكية عن مصر فضاعت مكاسبها وتعرض قادتها وجنودها للفناء .

وقد دفعت مصر ثمن هذا الإخلاص في الجهاد ، فقد حرم الغوري في (مرج دابق) من الجند ، الأمر الذي كان كفيلا بأن يحقق التوازن في هذه المعركة الفاصلة ، وكيف أن الجراكسة احتضروا وهم يشهرون سيف الجهاد .

من هذه المصادر :

١ - إدريس عماد الدين بن الحسن القرشي (ت . ٨٧٢هـ / ١٤٦٧)

« نزهة الأفكار وروضة الأخبار في ذكر من قام باليمن الميمون من الملوك الكبار والدعاة الأخيار » — جزءان — مخطوط بمكتبة أحد علماء حراز باليمن .

٢ — الأهدل — أبو عبد الرحمن الحسين بن عبد الرحمن بن محمد الحسني (ت . ٨٨٥ / ١٦٤٠) « تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن » .
مصور بالميكروفيلم — معهد المخطوطات العربية رقم ٣٠٨٢٠ .

٣ — الجزيرى زين الدين عبد القادر بن محمد الحنبلي)

(ت ٩٩١ / ١٥٥٤) « دور الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة »[1] . مخطوط بدار الكتب رقم ٠٣٧ م

٤ — الجنداري : صفي الدين أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧ / ١٩١٨) « الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولى التبريز » . مخطوط بمكتبة الجامع الكبير في صنعاء .

٥ — ابن حاتم — بدر الدين محمد « السمط » المغالى الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن » — مخطوط بالمتحف البريطاني[2] رقم ٢٧٥٤١ — إضافات .

٦ — الخزرجي — أبو الحسن علي بن الحسين ت ٨١٢ / ١٤٠٩) « العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك » مخطوط ببلدية الإسكندرية رقم ٢٦٥ . أ . ب .

٧ — « العقد الفاخر الحسن في طبقات علماء اليمن » مصور بالميكروفيلم بالجامعة العربية رقم ٣٣٦ .

٨ — ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داودبن علي — سنة ١٠١٠ « الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية » .

(١) قد طبع ، وانظر عنه مجلة « العرب » س ١٢ صفحة ٣٣١ وما بعدها .
(٢) طبع أيضاً .

مكتبة راغب باشا استانبول – نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٤٢١ ، وأخرى ميكروفيلم بالجامعة العربية رقم ٩٢٣ تاريخ .

٩ – ابن الديبع ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن علي الشيباني الشافعي (ت ٩٤٤ / ١٥٣٧) « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٠٧ تاريخ .

١٠ – « الفضل المزيد على بغية المستفيد » مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٧ تاريخ .

١١ – « قرة العيون في أخبار اليمن الميمون » مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٥٥ تاريخ[1]

١٢ – الرسولي ، السلطان الملك الأشرف إسماعيل ابن الأفضل عباس (ت ٨٠٣٠ / ١٤٠٠) « فاكهة الزمن ، ومفاكهة أولي الآداب والفنن في أخبار مَنْ مَلَكَ اليمن » مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ تاريخ تيمور

١٣ – الرسولي ، السلطان الملك الأفضل عباس ابن المجاهد علي بن داود (ت . ٧٧٨ / ١٣٧٦) : « العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية » مخطوط دار الكتب رقم ٣٥١ تاريخ .

١٤ – « نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون » مخطوط دار الكتب رقم ٣٥١ تاريخ .

١٥ – الرشيدي أحمد : « حُسْن الصفا والابتهاج بذكر من وُلِّيَ إمارة الحاج » مخطوط بدار الكتب رقم ٥٨٧ تاريخ .

١٦ – الشبلي[2] اليمني – جمال الدين محمد بن أبي بكر الحسني (ت . ١٠٩٣ / ١٦٨٢) « السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر » مخطوط دار الكتب رقم ٢٠٣٣ تاريخ .

١٧ – الشرفي ، أحمد بن محمد بن صلاح (ت . ١٠٥٥ / ١٦٤٥)

---

(١) طبع بمصر سنة ١٣٩٧ – ١٩٧٧ م بتحقيق الأستاذ الشيخ محمد بن علي الأكوع .
(٢) هو الشلي .

اللآلى المعنية (؟) في أخبار أئمة الزيدية « ٣ أجزاء مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء برقم ١٠٧ / ٩

١٨ — الطبري محمد بن علي بن فضل (ت ق . ١٢ هـ) « إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن » ميكروفيلم بالجامعة العربية ٣٤٤٣ .

١٩ — الطبري علي بن محي الدين — عبد القادر (ت . ١٠٧٠/١٦٦٠) كتاب « الأرج المسكي في التاريخ المكي » مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٠٥ وتاريخ تيمور .

٢٠ — العامري ، أبو زكريا يحي بن أبي بكر الحرضي (ت . ٨٩٣/ ١٤٨٨) « غربال الزمان في وفيات الأعيان » مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

٢١ — ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي القرشي (ت . ٧٤٣ / ١٣٤٢) « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » — [1] مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٩٧٧ عربي .

٢٢ — العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت . ١١١١ / ١٦٩٩) « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي — ٥ أجزاء — مخطوط [2] بدار الكتب رقم ٥٦٦٤ تاريخ .

٢٣ — عيسى بن لطف الله بن المطهر (١٠٤٨ / ١٦٣٨ « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح « مخطوط بدار الكتب رقم ١١ تاريخ . م) .

٢٤ — القاسي : تقي الدين أبي الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسنى (ت . ٨٣٢ / ١٤٢٩) « تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام » مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٨١٣ . ج .

---

(١) طبع فى مصر قبل بضع سنوات .

(٢) طبع فى مصر قبل بضع سنوات .

٢٥ – ابن فهد ، عمر بن محمد نجم الدين (ت . ٨٨٥) « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » المكتبة التيمورية رقم ٢٢٥٤ تاريخ .

٢٦ – ابن فهد ، عبد العزيز بن عمر بن محمد أبو الخير (ت . ٩٢٠ هـ) « بلوغ القرى لذيل إتحاف الورى » .

٢٧ – ابن القاسم صارم الدين إبراهيم بن القاسم ابن المؤيد (النصف الأول من القرن ١٢ هـ) « طبقات العلماء الزيدية » مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء .

٢٨ – الكبسي ، محمد بدر إسماعيل بن محمد بن يحيي (ت . ١٣٠٨ / ١٨٩٠) « اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية » مخطوط دار الكتب المصرية ٤١٦٣ تاريخ .

٢٩ – باغرمة ، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت . ٩٤٧ / ١٥٤٠) « قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر » ٣ أجزاء – مخطوط يني جامع بالإستانة رقم ٨٨ مصور بدار الكتب برقم ١٦٧تاريخ .

٣٠ – « تاريخ ثغر عدن » – المكتبة التيمورية ٢٢٦٠ . تاريخ .

٣١ – ابن مظفر محمد بن أحمد بن يحيي (ت . ٩٢٥ / ١٥١٩) « كتاب الترجمان المفتح لثمرات كمائم البستان » مخطوط بمكتبة القاضي حسين بن أحمد السياغي من علماء صنعاء .

٣٢ – ابن المطهر عيسى بن لطف الله شرف الدين (ت . ١٠٤٨ هـ) «روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح» المكتبة التيمورية ٧٣٢ تاريخ[١] .

٣٣ – يحيي بن الحسين بن القاسم بن محمد (ت . ١١٠٥ / ١٦٩٣) « أنباء الزمن في تاريخ اليمن » مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٧ تاريخ .

---

(١) تقدم برقم (٢٣) ولكن هذه مخطوطة ثانية .

٣٤ ــ محمد عبد العال أحمد علي « اليمن فيما بين نهاية الدولة الأيوبية والفتح العثماني » رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامى ١٩٧٦ (لم تنشر) .

٢ ــ ما كتبه المؤرخون فى مصر :

سوف نعنى بالمصادر التي ماتزال مخطوطة ولم تنشر بعد ، والتي أوضحت مابذله السلطان الغوري في سبيل استقرار الحكم في عهده بعد فترة من القلق والتي أبرزت الأحداث التي أدت إلى المواجهة البرتغالية من ناحية والمواجهة مع الدولة العثمانية .

ولابد من أن ننوه بالمؤرخ المصرى ابن إياس الذي عني بتدوين أحداث مصر وسرد أخبارها في عصر قايتباي والغوري وطومان باي ، وصور في صدق وإخلاص مابذله الغوري في الدفاع عن البلاد ، وأبرز الاستعدادات الهائلة التي قام بها ذلك السلطان في مواجهة الخطر البرتغالي ، والدفاع عن الحرمين الشريفين ، والحفاظ على السيادة المصرية فى البحر الأحمر .

لكن هناك كتب أخرى مخطوطة نذكر منها مايلى :

١ ــ ابن حجر : أحمد العسقلاني (ت . ٨٥٢) « إنباء الغمر بأنباء العمر » دار الكتب المصرية ٢٤٧٦ تاريخ .

٢ ــ الخالدي ، محمد بن لطف الله بن عبد الله العمري بهاء الدين (ت . ٩٢٧) « المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء » جامعة القاهرة ٢٤٠٤٥

٣ ــ أبو السرور البكري ، محمد بن محمد الصديقي (ت . ٢١٠٦٠) « الروضة الزهية في أخبار مصر والقاهرة المعزية » المكتبة التيمورية ٢٤٠٧ تاريخ .

٤ ــ « الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة » المكتبة التيمورية رقم ٢١١٢ تاريخ .

٥ ــ محمد بن محمد بن أبي السرور (ت . ١٠٨٧) « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » دار الكتب المصرية ١٩٢٦ تاريخ .

٦ — « الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة » دار الكتب رقم ٥٢٧٧ تاريخ .

٧ — الشماع ، عمر بن أحمد بن علي الحلبي الشافعي زين الدين أبو جعفر (ت . ٩٣٦) « عيون الأخبار فيما حدث لجامعه من الأسفار » دار الكتب ١٦٣٦ تاريخ .

٨ — السعدي ، محمد البرلسي (من علماء القرن ١١) « بلوغ الأرب برفع الطلب » مكتبة عارف حكمت رقم ٨١ تاريخ .

٩ — ابن طولون ، محمد بن علي الصالحي الدمشقي (ت . ٩٥٣) « ذخائر العصر بتراجم نبلاء العصر » المكتبة التيمورية ١٤٢٢ تاريخ .

١٠ — ابن الطولوني : حسن بن حسين بن أحمد الحنفي (ت . ٩٠٩) « النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية » دار الكتب رقم ١٢٨ تاريخ .

١١ — العصامي ، عبد الملك بن حسين بن عبد الله الشافعي المكي (ت . ١١١١) « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » دار الكتب رقم ٥٣ تاريخ[1] .

١٢ — الغزي — نجم الدين محمد بن رضي الدين (ت . ١٠٦١) « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة »[2] المكتبة التيمورية ١٤١٩ تاريخ .

١٣ — مرعي بن يوسف ، ابن أبي بكر بن أحمد المقدسي الحنبلي زين الدين (ت . ١٠٣٣) « نزهة الناظرين في تاريخ من وَلِيَ مصر من الخلفاء والسلاطين » دار الكتب المصرية ٢٠٧٦ تاريخ .

١٤ — عبد العظيم حامد خطاب : « قانصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية » دكتوراه في التاريخ الإسلامي ١٩٧٥ (لم تنشر)

دكتور حسنين أحمد محمود

---

(١) تقدم ذكره (٢) مطبوع في بيروت منذ أكثر من عشر سنوات .

صاحة وعماية

في عدد رمضان وشوال ١٣٩٦ هـ قرأنا بحثاً شيقاً للأستاذ سعد الجنيدل عن عماية ، وصاحة . وقد انتهى الأستاذ إلى أن عماية أو عمايتين هما جبلا الحصاة (حصاة العليان ، وحصاة آل حُويّل) .

أما « صاحة » فقال في تعليقه على أبيات القتّال الكلابي :

« ذكر القتال في شعره عماية مقرونة بصاحة ، وصاحة هضبة قريبة منها ، لاتزال معروفة بهذا الاسم ، كثيراً ماتذكر في الشعر مع عماية ، وذكر قول امرئ القيس :

من الدّيار غشيتها بسحام فعمايتين فهضب ذي أقدام
فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر تمشي النّعاج بها مع الآرام

ويلاحظ في هذين البيتين أن الشاعر أورد صاحة بلفظ التثنية وقد أشار الباحث الكريم إلى صاحة واحدة . فأين الأخرى ؟ !

يبدو أن صاحة الثانية هي ما يُسمّى اليوم بـ « صُوحة » و « صُوحة » هضبة حمراء متاخمة لـ « صاحة » من الجنوب ويُطلق على الاثنتين عند أهل تلك المنطقة « صاحة وصُوحة » أبدلوا ألف الثانية واواً للتمييز بينها على مايظهر .

وقد جزم بذلك الشيخ محمد بن بليهد - رحمه الله - في كتابه « صحيح الأخبار » - الجزء الأول ص ٩٧ قال :

(أمّا صاحتان فهما هضبتان حمراوان ، يقال لأحدهما صاحة والثانية « صُوحة » وهما بهذا الاسم إلى يومنا هذا ، وهما اللّتان عناهما امرؤ القيس) .

وقال : (ويحفّ بصاحة وادي الرّكاء من ضفته اليمانية فإذا انقطع جبل

السّوادة فهي في طرفه الجنوبي ، وأما صوحة فهي متاخمة لها من جنوب » .

هذا وقد أشار البكري إلى أنهما هضبتان ، وذلك فيما رواه عن يعقوب قال أبو زياد الكلابي :

صاحة : هضبتان عظيمتان لهما زيادات وأطراف كثيرة ، وهي من عماية تلي مغرب الشمس بينهما فرسخ وأنشد للبعيث :

سلافة إسفنطٍ بماءِ غمامة   تضمّنها من صاحتين وقيع

في ١٣٩٧/٦/١٢   محمد بن عبد العزيز الحسين

العرب : شكراً للأخ الكريم . وهاهو نصّ ما كتبه الأستاذ الشيخ سعد بن جنيدل عن صاحتين في كتابه « عالية نجد » أحد أجزاء « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » :

صاحة : أوله صاد مهملة مفتوحة ثم ألف ، بعدها حاء مهملة مفتوحة ثم هاء ، وكثيراً ماتذكر مثناة فيقال : صاحتان ، تثنية صاحة ، وهما هضبتان حمراوان ، كبيرتان متقاربتان ، تقعان في جبال السّوادة ، في ضفّة وادي الركا الجنوبية ، وهما : جنوبية وشمالية ، ويميزون بينهما ، فيقولون للجنوبية منهما : صاحة العير ، والبعض يقولون : صاحة الجنوبية وصاحة الشمالية ، والجنوبية منهما أكبر من الشمالية ، وفيها ماء ، وهما واقعتان في بلاد قحطان حيث تلتقي ببلاد الدواسر في هذا العهد . أما قديماً فإنهما واقعتان في بلاد قشير أو عُقيل .

وصاحتان لهما شهرة في الشعر العربي وفي المعاجم القديمة .

قال أبو علي الهجريّ : وسألت الخفاجيّ عن صاحة ، وهو جبل عظيم أحمر ، فقال : هو بين القمرّى — مقصور — وبين دبيل العارض ولاديل غيره ، بلد .

وحدثني شيخ من خفاجة قال : صاحة جبل أحمر ، علم من الأعلام ، بين القمرى ودبيل العارض [1] .

قلت : تحديده لصاحة صائب ، فهي واقعة بين وادي القمرى وبين نفود دبيل – الدّحى في هذا العهد – ووادي القمرى لايزال معروفا باسمه، وصاحة كذلك . .

وقال البكريُّ : صاحة بالحاء المهملة ، جبل أحمر بين الركاء والدخول قال عبيد :

لمن الدّيار بصاحة فحروسِ ؟ دَرَسَت من الإقواءِ أيَّ دروسِ

وقال سلامة :

لأسماء إذ تَهوى وصالك إنهـا كذي جُدّة من وَحْش صاحة مُرْشِقِ

وقال يعقوب عن أبي زياد الكلابي : صاحة هضبتان عظيمتان لهما زيادات وأطراف ، كثيرة ، وهي من عماية تلي مغرب الشمس ، بينهما فرسخ ، وأنشد للبعيث :

سُلافةَ إسفنْطٍ بماءِ غمامةٍ تضَمَّنها من صاحتينِ وَقيعُ

يعني الهضبتين . وقال لبيد :

وحَطّ وحُوَّش صَاحةَ من ذُراها كأنَّ وُعُولَها رُمْكُ الجمال

قلت : فيما ذكره البكري قال : صاحة بين الركا والدخول ، والواقع أنها ليست بين الركا والدخول ، فالدخول ، واقعة غرباً منها ، بعيدة منها .

وفيما ذكره عن يعقوب عن أبي زياد ، قال : وهي من عماية تلي مغرب الشمس ، والواقع خلاف ذلك ، فهي من عماية تلي مطلع الشمس .

وقال ياقوت : صاحة اسم جبل أحمر بالركاء والدخول .

---

(١) « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » ص ٣٣١ .

وقال نصر : صاحة هضاب حمر لباهلة بقرب عقيق المدينة ، وهي أحد أوديتها الثلاثة ، قال بشر ابن أبي خازم :

ليالي تستبيك بذي غروبٍ كأنَّ رضابَه وهْناً مُدامُ
وأبلجَ مشرق الخدّين فخمٍ يُسَنّ على مراغمه القسامُ
تعرّضُ جابةِ المدرى خذول بصَاحةَ في أسرّتها السَّلامُ
وصاحبُها غضيض الطرف أحوى يضوع فؤادها منه بغامُ

قلت : ذكر ياقوت أن صاحة جبل بالركاء والدخول . فقوله في الركاء صحيح ، أما ذكر الدخول فإنه غير صائب .

وقال عن نصر : صاحة هضاب حمر لباهلة بقرب عقيق المدينة ، وهذا التحديد بعيد عن الواقع ، إذ صاحتان لاتزالان معروفتين في عالية نجد ، وليستا في ناحية المدينة . ونقل السيوطي عن ابن السكيت : صاحتان جبلان والأرمضان واديان[1] .

والواقع أن صاحتين قريبتان من الأرْمَضَين ، والأرمضان لايزالان معروفين ، (انظر رسم الأرمض) .

وقال محمد بن بليهد : أما صاحتان فهما هضبتان حمراوان ، يقال لإحداهما صاحة ، وللثانية صوحة ، وهما بهذا الاسم إلى يومنا هذا ، ويحف بصاحة وادي الركا من ضفته اليمانية فإذا انقطع جبل السوادة فهي في طرفه الجنوبي ، مما يلي مطلع الشمس ، وتقع من ماء الأرمض المعروف في بطن الركا في جهته الجنوبية الشرقية بينها أقل من مسافة ثلث يوم ، وهي من طرف السوادة كذلك ، وأما صوحة فهي متاخمة لها من جنوب[2]

قلت : ذكر أن إحدى صاحتين تسمّى صوحة ، بقلب الألف واوا ، ولم أسمع من يقول ذلك من أهل تلك الناحية ، وقال : إن ماء الأرمض

---

(١) « المزهر » ٢-١٧٨ .

(٢) صحيح الأخبار ١-٩٧

في بطن الركا ، والواقع أنه لايقع في بطن الركا ، بل هو في وادٍ يسمى الأرمض ، ينحدر من جبال موزّر ، في ناحية السوادة ، وينتهي سيله في الركا .

ويقول ابن مقبل في صاحة :

شَبُوب كأنَّ قَرا ظَهْرِهِ	مِنَ الزَّيْتِ بَعْدَ دِهانٍ دُهُنْ
مَرابعُه الحُمْر منْ صاحَةٍ	ومُصْطافُه في الوُعُول الحُزُنْ

وقال لبيد بن ربيعة :

فأيُّ أوانٍ لاتجئني مَنيَّتي	بقَصْد من المعروف لاأتَعَجَّب
فَلستُ بركن من أبان وصاحة	ولا الخالداتِ من سُواج وغرّب

وقال أيضاً :

فحادَ رَهْواً إلى مَداخل فالصُّد	رَةَ أمْسَتْ نِعاجُه عُصَبا
فحدَّر العُصمَ من عَماية للسَّ	هْلِ وقَضَّى بصاحةَ الأرَبا
فالماءُ يجلو متونَهنَّ كما	يجلو التَّلاميذ لؤلؤاً قَشِباً
لاقى البديُّ الكلابُ فاعتلجا	موج أتيبهما لمن غلبا
فدَعْدَعا سُرَّةَ الركاه كما	دَعدع ساقي الأعاجمِ الغَرَبا

وقال امرؤ القيس :

لِمَنْ الدّيار غشيتُها بسُحامِ	فعَمايتين فهضْبِ ذي إقْدامِ
فصَفَا الأطيْطِ فصاحتَيْنِ فغاضر	تمشي النِّعاجُ بها مع الآرامِ

هذه المواضع التي ذكرها امرؤ القيس في هذين البيتين كلها في بلاد بني عامر ، وبعضها غير بعيد عن بعض .

وقال منيخيس أحد بني المشنّج اللبيني :

وأن تونسي بطنَ الدّبيل وحائلٍ ويبدو لنا من رُكنِ صاحة حاركِ

الدبيل : بين العارض والريب [1]

وقال الهجريّ : أنشدني شيخ بضرية غنويٌّ ، لعبادة بن مجيب ابن المضرحي بن المصّار بن كعب بن عبد بن أبي بكر بن كلاب ، وهو القتّال المتعز بعماية ــ أي المختبيء .

وأرسل مروانٌ إليَّ رسالةً	لآتيَه ، إني إذَنْ لمُضَلّلُ
وما بيَ عصيانٌ ولابعد مَزْحَلٍ	ولكنّي عن سجن مروان أزْحَلُ
وفي صاحة العنقاء أو في عمايةٍ	أو الأدَمَى من رهبة الموت موئل
ولي صاحبٌ في الغار حدّثك صاحب	أبو الجون ، إلاّ أنه لم يُعَلّلِ
إذا ماالتقينا كان أُنسُ حديثنا	صماتٌ وطرق كالمعابل أطحل
كلانا عدوٌّ لو يرى في عدوه	مهزّاً وكلٌّ بالعَداوة مجمل
تضمّنت الأروى لنا بشوائنا	كلاناله منها سديفٌ مرعبلُ
ومشربنا قلتٌ بأرض مضلّةٍ	شريعتها لأيّنا جاء أوّلُ
فأغلبُه في صنعة الزاد إنّني	أُميط الأذى عنه ومَا إن يهلّلُ

أراد إنني أسمي على الذبيحة ، وهو لايسمي [2] .

الأباتر والسبتاء

دفعني إلى الكتابة إليكم تقديم الشكر لكم على ماتقومون به من جهود عظيمة في سبيل خدمة الحركة العلمية والأدبية في بلادنا وذلك يتمثل في مؤلفاتكم وفي مجلة « العرب » ، فجزاكم الله خير الجزاء .

وقد قرأت في مجلة « العرب » عن اعتزامكم إصدار معجم جغرافي يضم قرى البلاد وهجرها ومناهلها وطلبتم من القراء موافاتكم بملاحظاتهم حول مانيشر في المجلة من مفردات هذا المعجم وأعلامه .

---

(١) « أبو علي » الهجري ٢٢٩ (٢) نفس المصدر ص ٢٤٣-٢٤٤ .

آمل أن أوافيكم بما عندي حول هذا الموضوع . وقرأت في الجزء الخامس والسادس من السنة الحادية عشرة – ١٣٩٦هـ أن المستشرق (موزل) يرى أن عرق الأبيتر الواقع شمال الأجفر هو الأباتر الذي قال عنه البكري : الأباتر موضع من ديار بني أسد قبيل فلج قال أبو محمد الفقعسي [1]

رَعَتْ بذي السَّبْتاء والأباتِرِ حيثُ علا صَوْبُ السَّحاب الماطرِ

والصواب أنَّ الأباتر المذكورة في هذا البيت هي كثبان الرمل المعروفة غربي صفراء الوشم ، شرقي نفود السِّرّ ، شمالها غراب ، وطرفها الجنوبيُّ يقف قبيل تقاطعه مع طريق شقراء إلى الدَّوادمي المعبّد .

والدليل على ذلك ذكر « السَّبْتاء » معها في البيت المذكور .

والسبتاء من أرض المروّت لاتزال معروفة بهذا الاسم إلى اليوم عند أهل تلك الناحية .

والسبتاء المذكورة محيطة بالأباتر من الغرب مباشرة تفصل بينها وبين نفود السر وفي جنوبي السبتاء عند الطرف الجنوبي الغربي للأباتر تقع آبار السُّليع .

وهذا ويلاحظ أن الطريق القديم المتجه من قرى الوشم الشرقية والشمالية إلى بلاد السر ينحدر من صفراء الوشم مغرباً تاركاً أبرق الوعري على يمينه والوعري وادي أشيقر الجنوبي .

وبعد أن يجتاز الطريق أرض الفرغ يلج البتراء مع خل فيها يدعى خل العشر ثم يقطع السبتاء فنفود السر حيث يفضي الطريق إلى قصور ابن سكران وبلدة ساجر .

ومما يدل على أن البتراء المذكورة هي الأباتر قديماً قول الراعي :

تركنا رجال العُنْظُوان تَنُوبُهُمْ
ضِباعُ خُفافٍ من وراء الأباتر

(١) : « معجم ما استعجم » رسم أباتر .

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

١ — سنة ٧١٣ قال صاحب « المختصر في أحوال البشر » في حوادث سنة ٧١٣ : (فيها اجتمع جماعة من بني لام من عرب الحجاز ، وقصدوا قطع الطريق على سوقة الركب الذين يلاقونهم من البلاد ، إلى تبوك ، عند عود الحاج وساروا إلى ذات حج ، والتقوا مع السوقة ، فقتل من السوقية تقدير عشرين نفساً وأكثر ، ثم انتصروا على بني لام وهزموهم ، وأخذوا منهم تقدير ثمانين هجيناً ، وعادت بنو لام بخفي حنين) . انتهى .

٢ — سنة ٨٣٨ — ذكر ابن إياس في «بدائع الزهور»[1] في حوادث ذي الحجة منها أن مبشر الحاج حضر مسلوب الثياب وقد عراه بنو لام في الوجه ، وأخذوا ما معه من الكتب وغيرها .

٣ — وفي سنة ٨٩٧ — لما صعد الركب الأول إلى سطح العقبة خرج عليهم بنو لام ونهبوهم[2]

٤ — وفي سنة ٩٠٠[3] لما رجع ركب الحج الشامي خرج عليه بنو لام فاحتاطوا عليه عن آخره وسبوا الحريم ونهبوا الأموال وأسروا أمير الركب فانزعج السلطان لهذا الخبر .

٥ — وفي سنة ٩٠٧ لما وصل ركب الحج المويلح عائداً خرج عليهم عربان من بني لام وبني عطية وبني عقبة ، ووقفوا للحجاج ، وأرادوا أن ينهبوهم ، فوقع الصلح بينهم على أن يأخذوا على كل جمل ديناراً[4]

٦ — وذكر ابن إياس في « بدائع الزهور » في حوادث سنة ٩١٢ — مانصه : (وفي ذي القعدة وردت الأخبار أن العسكر المتوجه إلى يحيى بن سبع قد انتصر عليه نصرة ثانية ، وكان من ملخص أخبار هذه النصرة أن العسكر لما تواقع مع يحيى بن سبع وانكسر أولا توجه إلى طائفة من

---

(١) ج ٢ ص ١٦٣

(٢) « درر الفوائد المنظمة » ص ٣٤٤ (٣) « بدائع الزهور » ٣-٣٠٦ .

(٤) « درر الفوائد » ٣٥٢ .

العربان يقال لهم عَنَزَة ، وهم من بني لام فالتجأ إليهم ، واستمر مقيما في مكان بالقرب من ينبع[1] – ثم ذكر بقية الخبر .

٧ – ذكر الجزيرى أن العسكر المعين لخفارة الحجاج وحراستهم استجد سنة ٩٢٧ بعد واقعة سلامة بن فواز المعروف بجغيمان ، من عرب بني لام المفارجة .

٨ – وذكر في حوادث سنة٩٢٦[2] أن سلامة هذا تعرض للحجاج في نحو عشرة آلاف نفس في وادي سماوة بالقرب من الأزلم ، فأصيب ابن عمه برصاصة فانهزم ، فمن تلك السنة عينت البلكات من العسكر الركبان .

ومن تلك السنة عينت السلطنة لسلامة بن فواز كل سنة ألف دينار راتباً له ولأولاده من بعده ليكف عن الركب المصري ودربه ، وليكون من حراسه وحزبه ، وضمنه فيما يأتي منه صهره الشيخ عمرو بن عامر بن داود أمير بني عقبة ، وجعله وكيلا عنه في ذلك ، ثم صارت لأولاده من بعده خلفاً عنه ، وعمرو بن عامر على ضمانته وتناوله المعلوم) .

٩ – وقال الجزيري : (وبالقرب من العـقيـّق أول المضيق من الطلعة من يسار الركب محرس إلى حسمى وخرج منه بنو لام على الركب في سنة ٩٣٠ في ولاية الأمير جانم الحمزاوي ، ولم تظفر منه بطائل[3] .

١٠ – وذكر الجزيري في «درر الفوائد المنظمة»[4] في حوادث سنة ٩٥٢ أن الركب حين نزل الأزلم في الذهاب ، انقطع منه بحدرة دامة بعض جمال من الربايع التي تتأخر عادة عن الركب ، فصادفهم مرور خيل بني

---

(١) « بلاد ينبع » ص ٦١ وعنزة ليسوا من بني لام .

(٢) «درر الفوائد المنظمة» ص ١٣٩ (٢) منه ص ٣٦٦ .

(٣) « درر الفوائد المنظمة » ص ٥٢٧

(٤) ص ٣٨٥ .

لام صحبة شيخ من شيوخ بدناتهم ، يسمى دويعر في نحو السبعين فرساً على ماقيل ، فاستاق الجمال بأحمالها وكانت نحو العشرين أو دونها ، فلما علم أمير الحاج حصل عنده رعب شديد ، وكنت حاضراً عنده ، فثبته ، وكان في المجلس عامر بن عمرو بن داود شيخ بني عقبة ، وهو ملتزم بما يأتي من بني لام ، فأشرت عليه بالقبض على المذكور وولده ، وفعلنا ذلك ، ثم أطلقنا عمرا لإحضار الجمال والأحمال ، فتوجه وأحضر غالبها ، وما ادعوا ضياعه غرمه الأمير آيدين[1] لجماعة التجار بالقاهرة بعد شكاوي إلى داود باشا بلخاش ، إلى الغاية) .

١١ ـ وقال أيضاً في « درر الفوائد المنظمة »[2] في ذكر المحارس التي تكون طريقاً للمفسدين وقطّاع الطريق ، وأن على أمير الحاج حراسة ركب الحجاج فيها بالتهيء بما يلزم من فرسان وأسلحة . قال: (واعلم أن محارس بني لام بالدرب المصري متعددة :

فنها في دوار حقل ، واد يطلع إلى حسما .

وعند عش الغراب محرس إلى حسما . وبوادى عفال عند قبر السفاف بالشرفة إلى حسما وبالقرب منها أيضاً يرنب وسد ر بمعشى الشرمة محرس وبالنبك المسمى بالمويلح محرس .

وبالقرب من دار السلطان محرس يدعى الخريطة يرد إلى حسما .

وبالقرب من حدرة دامة محرس .

وبالقرب من سماوة والدخاخين محرس .

وبالصفحة من وراء اصطبل عنتر محرس .

وبالوجه محرس .

وبالقرب من أكرا محل يدعى الوفدية محرس .

---

(١) هو أمير الحاج آيدين بن عبدالله الرومي تكلم عنه الجزيري وذكر أنه أمير الحج سنة ٩٥٢ وهجاه بشعر .

(٢) ص ١٠٤

وباكرا عروس .

وبأول مضيق العقيق عروس .

١٢ – وقال الجزيري[1] في الكلام على (المويلح) : (والمرتبات على هذا المحل أكبر معلوم من سائر الأدراك فإن عمرو بن عامر بن داود خالص مقبوضه فى كل سنة لنفسه وأولاد عمه من الفضة السليمانية تسعة عشر ألف نصف فضة وأربعمائة وخمسة وثمانون نصفاً .

ومايقبضه عادة بطريق الوكالة لصهورته أولاد سلامة بن فواز عرف بجغيمان – شيخ عربان بني لام المفارجة إنعاماً عليهم من غير درك في كل سنة ألف دينار – إلى أن قال : – ذكر عربان بني لام :

المفارجة : وهم طوائف عديدة منهم آل سليم – وهم آل بيت العمر – وآل محمود ، وآل سالم .

آل قني : منهم آل فواز وآل حسن وآل عياض القاطنين بحسما .

آل صقر : منهم آل دغمان وآل شبهان وآل طليحة آل فيين (؟) : منهم آل سهيل وآل زيان وآل حماد وآل مسعود وآل واصل وآل واجد .

العـــرافاء

أشار الأخ الأستاذ سعد بن جنيدل في حديثه عن (مزعل) في هذا الجزء – إلى سكانه الأكرمين العرافاء – واحدهم عريفي ، وقد كنت دونت في مذكراتي كلمة عنهم ، رأيت المناسبة تدعو إلى نشرها .

في منتصف شهر شعبان سنة ١٣٩٧ قابلت في مدينة برشلونة ، في

---

(١) « درر الفوائد المنظمة » ص ٥١٤

فندق مور مار (Murmar) أخوين كريمين من العرافا هما ناصر ابن محمد بن بشر العريفي ، وسعد بن عبد الله بن راجح العريفي ، فجرى الحديث عن أسرتهما فكان مما حدثني به ناصر وسعد يسمع : أن جد الأسرة كان من أهل قرية الجشة في الأحساء ، وأقرب من لهم آل دعيج في تلك القرية الآن ، وبينهم وبين أسرة العرافا مواصلة .

وكان جدهم يُدْعى حمد الجفيف ، وفي شقراء مكان يدعى الجفيفية نسبة إليه ، وهو الذى قدم من الجشة .

وذكر الشيخ محمد بن عبد القادر في « تاريخ الأحساء »[١] : أن من سكان قرية الجشة آل دعيج وآل مسلم ، ينتمون إلى الجبور المعروفين من بني خالد .

والأسرة العريفية أفخاذ ، جُلهم في بلدة مزعل وهم – على ماحدثني الأخ ناصر بن محمد العريفي :

١ – آل ناصر .

٢ – آل خلف ، وفي الشعراء بعضهم .

٣ – آل محمد .

٤ – آل سعد .

ومن العرافاء – أيضاً – آل جماز في حريملاء كلهم .

وفي مدينة حائل أناس ينتسبون إليهم ، غير أنهم لتساهلهم في المصاهرة إلى من لا يمت بنسبه إلى قبيلة معروفة، أصبحت الأسرة لاتقبل انتسابهم إليها .

---

(١) ج ١ ص ٤٠ – طبع مطابع الرياض .

وجاء في مجلة « العرب » س ٥ ص ٥٧٨ : (العرافا — واحدهم عريفي — يسكنون قصر مزعل قرب القويعية وهم من السيايرة من آل جناح) .

وقد عقب على هذا الأخ سعد بن عبد العزيز العريفي في « العرب » ص ٧٩٣ من السنة التاسعة ، فذكر :

١ — أن من العرافاء من يسكن جزالاء والقويع .

٢ — أن آل خلف الذين في الشعراء من العرافاء .

٣ — وقال : (القول بأن العرافا من السيايرة من آل جناح غير صحيح ، فإنهم ينتسبون إلى الدعوم من الجبور . ولايربط بين العرافا والسيايرة وآل جناح سوى أنهم من الجبور .

بنــو خالد

كتب الأخ ماجد أحمد صبيح ، صاحب (مؤسسة صبيح للتجارة) في جدة يستوضح عن قبيلة بني خالد ، ويقول بأن ماورد في كتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة كان موجزاً ، وأن سبب اهتمامه بهذه القبيلة لأن نسبه يرجع إليها .

العــرب :

لقد نشرنا بحثاً مطولا عن هذه القبيلة في الجزء السادس من السنة الخامسة (جزء ذي الحجة سنة ١٣٩٠ هـ) من صفحة ٥٧٨ إلى ٥٨٥ .

ويمكن للسائل الكريم الاطلاع على ذلك البحث .



[سيصدر قريباً القسم الثاني من (شمال المملكة) من « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » ونقدم للقراء بعض مواده ، لكي نتلقى من ملاحظاتهم ما نأمل ، ولكي نستدرك ما يحتاج إلى استدراك] .

خَبْتٌ : الخبت لغة : المتسع من بطون الأرض ، وهو علم لمواضع منها خبت كلب ، الذي قال فيه الأخنس بن شهاب التغلبي :

وكلبٌ لها خَبْتٌ فرملةُ عالجٍ إلى الحَرَّةِ الرَّجْلاءِ حَيْثُ تُحارِبُ

وأورد الهجريُّ لعبد العزيز بن زُرارة يذكر سفره من نجد إلى الشام ، ويظهر أنه سلك الطريق الشرقي المارّ ببلاد الجوف :

وإنّ الذي يرجو إيابي وقد أتتْ ركابي على خَبْتٍ لَغَيْرُ حليمِ

وقرن الأخطل خبتاً بِعَرْعَرَ فقال يصف سحاباً :

فما زال يسقي بَطْنَ خبتٍ وعَرْعَرٍ وأرْضَهُمَا حتى اطْمأنَّ جسيمُهَا

— جسيمها ما ارتفع من ضواحيها وبدواتها : —

وعَمَّهما بالماءِ حتى تواضعت رؤوس المِتانِ سهلُهَا وحُزُومُها

بِمُرْتَجِز داني الرَّبَابِ كأنَّه عَلَى ذاتِ مِلْحٍ مُقْسِمٌ لايَرُومُها

وفي شعر امرىء القيس :

سَمَا لك شوقٌ بعدَ ما كان أقصرَا

وحلَّتْ سُلَيْمى بَطْنَ خَبْتٍ فَعَرْعَرَا

وفي « معجم البلدان » : (خبت : ماءٌ لكلب) . وزاد صاحب « تاج العروس » : بالشام .

وقال البكري – فيما نقل عن ابن الكلبي – : ونزلت كلب ومن حالفهم بِخَبْتِ دُومَةَ إلى ناحية بلاد طَيِّءٍ ، إلى طريق تيما .

وقال : قال الطوسي : تعشَارُ أرْضٌ لكلب وأنشد للنابغة :

وبنو جَذِيمَةَ حَيُّ صِدْقٍ سادَةٌ   غلبوا على خَبْتٍ إلى تِعْشَار

قيل : إن بني جـذيمة من بني أسد ، وقيل : من كلب وأورد للطرمَّاح :

إلى وادي القُرَى فرِمال خَبْتٍ   فأمواه الدَّنا فِلَوى جُفَافِ

وقال : ويدلُّكَ أنها في ديار كلب قول بُرْجِ بن مُسْهِر :

ونعم الحيُّ كَلْبٌ غير أنـَّا   لقينا في جوارهم هَنَاتِ
فإنَّ الغَدْرَ قد أمسى وأضحى   مقيماً بين خَبْتَ إلى مساة

فهذه ديار كلب ، المساة موضع هناك . وخبت دومة : مكان آخر .

يظهر مما تقدم :

١ – أن اسم خبت يطلق على منخفض الجوف ، أي غوطة الجوف ، فوادي عرعر يقع مجاوراً له من الشرق ، كما أن قُرَيَّات الملح (ذات ملح) متصلة به من الشمال ورملة عالج (النفود الكبير) من الجنوب .

٢ – تفريق أبي حاتم – فيما نقل البكري – بين خبت الذى من بلاد كلب وخبت دُوَمة غير واضح ، فخبت دومة من منازل كلب ، وهـذا مما لا شك فيه فلماذا لا يكون الموضع واحداً ؟ أما قول ياقوت بأنه ماءٌ لكلب ، فالاسم يطلق على الموضع وعلى ما فيه من ماءٍ أو جبل أو وادٍ أو غيره ، وهذا كثير في كلام المتقدمين .

٣ – قول الأنبارى في « شرح المفضليات » : خبت من منازل كلب من نحو هِيتْ . فيه توسعٌ ، فهيت هذه في العراق بقرب الفرات ، وهي

بعيدة عن خبت دومة ، إلا إذا قصدطريق الاتجاه إليها، إذ هيت في طرف البادية مما يلي العراق ، ومنها يكون الاتجاه إلى مختلف نواحي البادية .

٤ — والقول بأنه في الشام فيه تجوز ، لأن كثيراً من بلاد كلب تقع في الشام وحوله . وكان المتقدمون يعدون الجوف وما هو شمال النفود من الشام ، وقد أشرنا إلى هذا في مقدمة الكتاب .

الْخَبْرَ — بفتح أوله وتسكين ثانيه وآخره راء — : قال في « معجم البلدان » : الخبر موضع على ستة أميال من مسجد سعد بن أبي وقاص ، فيها بركة للخلفاء وبركة لأم جعفر ، وبئران رشاؤهما خمسون ذراعاً ، وهما قليلتا الماء عذبتان ، وفيهما قصور على طريق الحجاج . وقال : وبين المُغيثة والقرعاء : الزُّبَيْدية ومسجدُ سعد والخبراء . انتهى . وأرى الخبراء هنا الخبر ، إذ لم يورد اسم الخبراء في هذه الجهة . والخبر على ما يفهم من كلام ياقوت ينطبق على موضع بركة الطلحات الآن . (انظر هذا الاسم) .

الْخَبْرَاءُ : في « المناسك » — بعد ذكر اليَنسوعة :

ثم مَضَتْ فجازَتِ الْخَبْرَاءَ :

تخالها نعامةً رَبْداءَ	تَهْوِي إلى أدحيها عِشاءَ
ثم مَضَتْ تهوِي إلى مِيلِ الأمَلْ	على طريقٍ ذي مَنارٍ مُتَّصِلْ
لما رأتْ كَثِيبَهُ قَدْ أشْرَفَا	كالنِّيقِ كادتْ نَاقَتي أنْ تصْدِفا

— ثم ذكر السُّمَيْنَةَ —

وحدد الأستاذ العبودي الخبراء هذه — اعتماداً على ما حدثه به الأمير متعب بن شَلَاح بن حمَّاد الحربيُّ أمير ضِيدة — فقال : هي روضة كبيرة يحدها جنوباً نفود (رمال) وشمالاً جال — مرتفع من الأرض الصلبة . وينبت فيها السدر ، وتسمى الآن (أم عُشَر) وهي في وادي الأجْرَدِيّ ، ويفيض فيها شعيب السُّهَيْل من الشمال .

الْخَبْوَ – بفتح الخاء وإسكان الموحدة وآخره واو – : موضع يقع في الجنوب الغربيّ من بلدة تيماءَ على بعد عشرين كيلا ، فيه نقوش وكتابات قديمة .

خُبَّةُ – بضم الخاءِ وفتح الموحدة مشددة – في « معجم ما استعجم » وقال آخرون : خُبَّة من أرض طيءٍ وأنشدوا قول النَّمِرِ بن تَوْلَبَ :

زَبَنَتْكَ أركانُ العَدُوِّ فأصبحتْ أجَأ وخُبَّةَ مِنْ قرارِ ديارِهَا

وانظر (جُبَّة) .

والخِبَّةُ بكسر الخاءِ وتشديد الباء الموحدة – ويقال : – خِبَّة متالع : والخبة المكان المنخفض في وسط الرمل ، ويطلق هذا الاسم على قرية تقع بقرب جبل مُتالع شرقه في غرب حايل ، على مسافة ٩٤ كيلا وهي من قرى شَمَّر (وانظر موقق) .

والخِبَّةُ الجديدة : اسم ماءٍ في تلك الجهة أيضاً .

الْخَبيزاتُ : نقل صاحب « لسان العرب » عن ابن الأعرابي قوله : الخبيزات : خبراوات بصلعاء ماويَّة ، وهو ماءٌ لبني العنبر ، قال : وإنما سمين خبيزات لأنهن انخبزن في الأرض ، أي انخفضن واطمأنن فيها .

انتهى .

وصلعاءُ ماويّة غرب الحَفَر بميل نحو الشمال غير بعيدة عنه .

خُتال : (انظر اختَال) حرف الألف .

الْخَدُّ – بفتح الخاءِ بعدها دال مهملة مشددة – : وادٍ يقع جنوب لَوْقَةَ ويُفضي إليها ، يمر بين قارة أم القتبان ، وماء الروض .

الْخُرُّ : – بضم الخاءِ وتشديد الراءِ – : يظهر أن الخُرَّ اسم يطلق على المجرى ، ولهذا كثر إطلاقه على كثير من مجارى السيول عند أهل الشمال ،

ثم استعير لمجرى فضلات الطعام من الحيوان وقال ياقوت : وأصل الخر الموصل الذى تلقي فيه الحنطة بيدك فى الرّحى – يقصد فيها – وفي «القاموس» والخُرُّ ما خدَّهُ السيل من الأرض أى شقه وحفره .

وقال نصر : الخُرُّ – بضم الخاء المعجمة وتشديد الراءِ – ماء بالشام لكلب . يقرب من عاشم ، ماءٌ آخر لهم . ومثل هذا في «معجم البلدان» وزاد : قال ابن العداء الأجداريُّ ثم الكلبيُّ :

وقد يكون لنا بالخُرِّ مُرتَبَعٌ والرَّوْضِ حيثُ تَنَاهى مَرْتَعُ البَقَرِ

وفيه أيضاً : روضة الخُرِّ : بضم الخاءِ وتشديد الراءِ – : في ديار كلب قال – ابن العدّاءِ الأجداريُّ ثم الكلبيُّ :

روضة الخُرِّ لنَا مُرتَبَـعٌ نَرْتَعِى فيها ونَروِى النَّعَمَـا

وأورد البكريُّ للنابغة الجعديّ :

لَبِثَ قَيْساً كُلُّهَا قَدْ قطعتْ مُسْحُلاناً فحَصِيـداً فتُبَلْ
فالأشَاقيَّ فأعلى حامِـرٍ فلوَى الخُرِّ فأطرَافَ الرِّجَلْ
جاعلين الشَّامَ حَماً لهُـمُ ولَئِنْ هَمُّوا لَنِعْمَ المُنْتَقَلْ
مَوْتُهُ أجرٌ ومَحياهُ غِنىً وإليه عنْ أذاةٍ مُعتَـزِلْ

وخلاصة ما تقدم فى تحديد الخُرِّ :

١ – أنأصل الكلمة يقصد بها مجرى السَّيْل – كالوادي والتلعة والشعيب .

٢ – أنه يقع في بلاد كلب ، وبلاد هؤلاءِ شمال الجزيرة متصلة بالشام .

٣ – والقول بأنه ماءٌ لا يتنافى مع كونه وادياً ، فالأودية تكثر فيها الميـاه غالباً .

٤ – أنه يقرب حَصِيد وتُبَل وحامر . كما فى شعر النابغة الجعدي ، وتلك المواضع معروفة . والأوصاف المتقدمة كلها تنطبق على وادي الخُرّ الكبير الذي لا يزال معروفاً .

وهو وادٍ يقع على الطريق بين الجوف وبين الدَّوَيْد ، وهو من

فحول الأودية ، تنحدر فروعه من آكام تقع شمال اللّبّة وتوازى الدغم شمال النفود ، من الرمثيات ، جنوب السادة ، ثم من المرتفعات التي تقع شمال السادة وغرب الهبكة والهُبَيْكَة ، وتتجه صوب الشمال حيث تلتقي بها سيول غرب الحزول ، وسيول الهبكةوالهبيكة ، ثم تلتقي هذه السيول بالفروع المنحدرة من جهة الغرب ، من جبـال تقع شمال اللّبّة الأرض الواقعة شمال النفود ، تدعى الرَّعن ، ومن اللّبّة أيضاً ، فمن فروعه وادي خرْ شخَيْبر ، يأتي من غرب اللّبّة حتى يلتقي بوادي أبا الرواث الذى هو من أقوى روافد الخُرّ ، ويفصل هذا بين اللبة وبين جبال الرَّعَن ، ووادي الحلَمة من شرق اللبة فإذا اجتمعت هذه الفروع دُعيَ الوادى وادي العبْد ، وهو وادى الخُرّ .

ويتجه وادى الخر نحو الشمال الشرقيّ مارًّا بالدُوَيْد (القلبان) بين الحزول والصحير ، ثم يمر بالدويد البلدة ، فأنابيب النفط حتى يبلغ صحراء الصَّحن ، على مقربة من منهل المعانية بقرب الحدود ، (يقع الخُرُّ من أعلى فروعه إلى المعانيَّة بين خطي الطول ٠٠–٤١° و٠٠– ٤٣° وخطي العرض ٥–٢٩° و ٠٠–٣١° تقريباً) .

ويستمر وادي الحر في اتجاهه فيجتاز صحراء الصَّحن متجها صوب الشمال الشرقيّ حتى يبلغ منخفضات وادي الفرات (والقسم الواقع منه في الحدود العراقية بين خطى الطول٠٠ – ٤٣°و ٠٠ – ٤٤° وخطى العرض ٢٠ – ٢٩° – و١٠ – ٣٢° تقريباً) .

ومن أشهر مناهل وادي الحر من الشمال إلى الجنوب : اللصف والجميمة والعاشورية في القسم العراقي ، والمعانية على الحدود .

خُرْ مَسْعُود : وادٍ ينحدر من اللّبّة متجهاً شمالا حتى يفيض في إنبط ، جنوب صنَّار .

خُرْ شُخَيْبر : وادٍ ينحدر من اللّبة– الأرض المرتفعة الواقعة شرق النفود شماله ، في الجنوب الشرقي من واحة الجوف – ويفيض في وادي أبا الرُّواث .

الخَرّارُ : قال البكريّ : قيل : موضع بخيبر وقال عيسى بن دينار : إنه عين بخيبر ، ويؤيد ذلك ما رواه ابن وهب — وساق السند إلى أبي أمامة ابن سهل : أن سهلاً قام يغتسل يوم خيبر حين هزم الله العدو وساق الخبر .

الخرانق : قال في « معجم البلدان » كأنه جمع خِرْنق وهو الأنثى من الثعالب —: الخرانق بين المَلاَ وأجا ، جلد من الأرض انتهى . والمعروف أن الخرنق الأنثى من الأرانب ما دامت صغيرة . والملا سيأتي تحديده — وهو شرق أجا ، ويفيض فيه وادي السُّبْعان ، فكأن اسم الخرانق يطلق على الأرض الصلبة الواقعة غَرْبَ الملا .

الخَربُ : قال في « المناسك » : ومن قصة الرقم إلى الخرب وميں ، فالخرب موضع فيه بئر كبيرة غليظة الماء في بطن الوادي على ظهر الطريق .

ثم ذكر بعده الرقم مما يدل على أنه شرق الرقم بمسافة قصيرة .

وفي « معجم البلدان » خرب موضع بين فيد وجبل السعد على طريق يسلك إلى المدينة . انتهى وليس فيه زيادة فائدة .

الخَربة : عدها صاحب « بلاد العرب » من مياه بني الكذّاب من بني غنم بن دودان من أسد ، وقال : إنها فوق الغرقدة .

ويفهم من كلامه أنها بجهة وادي ارمام (الخلة حديثاً) وفي « المناسك » (وارمام وادي . مجمع أودية في الطريق ، تقطعت (؟) في موضعين في الأول منها عن يمين الطريق بئر عادية يقال لها الطلوب ، وقباب خربة ، وفي الموضع الآخر على أقل من ميل من البريد بيوت للأعراب قليلة عن يسار الطريق ، وبئر على نحو من دعوة ماؤها غليظ ، يقال لها الخربة . انتهى . قال هذا في وصف الطريق من فيد إلى المدينة مع الطريق القديم المار بالأخرجة وغمر مرزوق والعنابة وحسى بطن الرمة .

الخَرْبَة — ينطقونها بضم الخاء — بئر تقع شرق بئر جَيْدَة ، من موارد بادية الوجه ، تقع شرقه .

مكتبة العرب

* — شرح القصيدة الدامغـة :

وممّا نشر حديثاً من كتب التراث كتاب «الدامغة» قصيدة الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المتوفي سنة ٣٥٠ تقريباً ، التي أجاب بها الكميت بن زيـد الأسدي ، بتفسيرها ومعانيها ، وهي قصيدة نونية في مفاخر قحطان ، وفي شرحها مباحث أدبيـة وتاريخية ولغوية لاتوجد في غيرها من الكتب ، وقد قام بتحقيقها مؤرخ اليمن العـالم الجليل القاضي محمد بن علي الأكوع الحوالي وجاء الكتاب في ٦١٣ من الصفحات .

* — الجزء الأول من كتاب الاكليل :

وصدرت الطبعة الثانية للجزء الأول من كتاب « الإكليل » الذي صدرت طبعته الأولى منذ بضع عشرة عاماً فتحدثت مجلة « العرب » عن تلك الطبعة[1] وأشارت إلى بعض هفوات يسيرة وقعت فيها فما كان من محققه العالم الجليل القاضي محمد بن علي الأكوع إلا أن سارع في الأخذ بتلك الاستدراكات وتدارك تلك الهفوات وأعاد نشر الكتاب .

وقد قامت الجمهورية العراقية بطبعه على نفقتها في سلسلة كتب التراث التي تقوم بنشرها ،وقد جاءت هذه الطبعة في نحو ٥٤٠ صفحة طباعةجيدة .

والحق أن جهد الأستاذ الجليل القاضي الأكوع في نشر التراث اليمني عظيم ، وأن عمله في تحقيق مانشر عمل العالم الواسع الاطلاع .

* — ذكــريات :

الأستاذ أحمد علي أسد الله ذو أسلوب في الكتابة يستهوي القارئ فيدفعه إلى الاسترسال في القراءة بلذة وارتياح ، وهذا ماوجدت في كتابه « ذكريات» وهو من منشورات (النادي الأدبي في الطائف) في العام الماضي ، طباعة (مطابع الزايدي) هناك . ومع أنه يقع في ١٩٤ من الصفحات فإنني لم أضعه

---

(١) س ١ ص ١٧٩ و ٢٦٠ و ٣٧٥ و ٤٦٣ .

من يدي حتى ألمت بجل ماحواه ، وأكملت قراءة كثير من موضوعاته ، وأكثرها يدور حول ذكريات المؤلف ومشاهداته منذ عام ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) حتى عام ١٣٨٠هـ (١٩٦٠ م) حيث نشأ في مكة المكرمة ، وفيها أكمل دراسته في (المعهد السعودى) سنة ١٣٤٩ ثم اشتغل في التعليم في مدارس مكة ثم في مدرسة الأمراء في الرياض وقام برحلات إلى المدينة وإلى المنطقة الشرقية . وإلى العراق وإلى القاهرة وإلى أمكنة خارج الرياض في البرمع الملك عبد العزيز رحمه الله — بحكم عمله في مدرسة الأمراء.

*** — كتاب التقفية :**

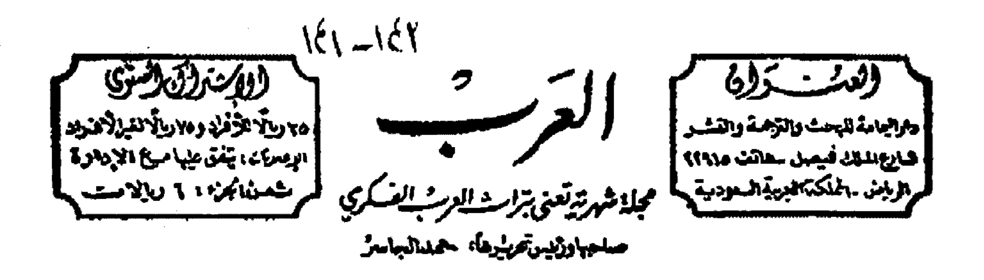
كنت تحدثت عن كتاب « التقفية » لليمان بن أبي اليمان البندنيجي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ووصفت نسخته المخطوطة[1] ، وأشرت إلى أنه سبق الجوهري إلى طريقة ترتيب الكلمات على القوافي ، فكتب إلى أستاذ جليل من العراق يطلب مني إعارته نسختي المصورة ليتولى تحقيق الكتاب ونشره ، فبعثتها إليه ، وما أشد سروري حين وقع نظري في هذه الأيام — شهر شوال سنة ١٣٩٧ — على الكتاب مطبوعا في مجلد بلغت صفحاته ٨٠٠ محققاً تحقيقاً في غاية الجودة من حيث إرجاع كل مادة إلى أصل من أصول كتب اللغة مع الدقة في الضبط ، ووضع الفهارس الوافية . والمحقق الجليل هو الدكتور خليل إبراهيم العطية من جامعة البصرة . والكتاب مطبوع سنة ١٩٧٦ في سلسلة (إحياء التراث) من منشورات وزارة الأوقاف العراقية .

*** — مع ابن جبير في رحلته :**

وهذا مؤلف حديث للأستاذ عبد القدوس الأنصارى ، تناول فيه بالدراسة الشاملة « رحلة ابن جبير » مترجما مؤلفها ، ومطيلا الوقوف عند مواضع منها تتصل بالمدينتين الكريمتين مكة والمدينة ، ومواضع أخرى ورد ذكرها في الرحلة ، في أربعة وعشرين فصلا ، وقد رجع إلى ٤٤ مصدراً — على ماجاء في آخر هذا الكتاب الواقع في ٣٨٠ صفحة بفهارس مفصلة ، وطباعة حسنة ، في (المطبعة العربية الحديثة) في القاهرة ، وتاريخ الطباعة ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

---

(١) مجلة « العرب » السنة الأولى ص ٥٧٧ و ١١٥٦ .


١٤٢ ـ ١٤١

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها: حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
٢٥ ريالا للأفراد و ٧٥ ريالا لغير الأفراد
الرسميات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء ٦ ريالات

العنوان
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل ـ هاتف ٢٩٩١٥
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

ج٩و١٠ س١٢ ـ الربيعان ١٣٩٨ ـ آذار/نيسان (مارس/أبريل ١٩٧٨)

السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة

يتلهف الباحث في التاريخ إلى أن يعرف شيئاً عن حالة بلاد نجد العلمية قبل قيام الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، بدعوته إلى تصحيح العقيدة الإسلامية ونبذ الخرافات والبدع ، وإلى إحياء الشريعة والرجوع بها إلى منابعها الصافية كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ـ يتلهف الباحث إلى معرفة شيء من الحياة العلمية قبل ذلك ولكنه لا يجد ما يشفي غليله .

ولعل الكتاب الوحيد الذي خصص لتراجم علماء الحنابلة ، وأهل نجد كلهم حنابلة قبل ظهور الشيخ إلا ما ندر ـ هو كتاب « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » تأليف محمد بن عبدالله بن حُمَيد الحنبلي النجدي .

وكان المظنون أن هذا الكتاب يحوي معلومات ذات قيمة من الناحية العلمية ولهذا طالما تشوق الباحثون إلى الاطلاع عليه .

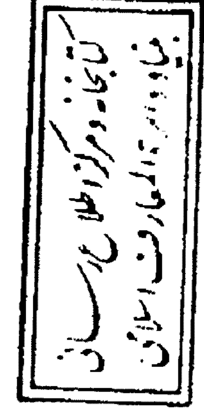
وقد اقتنيت نسخة منه فطالعتها واستخلصت منها تراجم علماء نجد ، فظهر لي :

أولا ـ أن تراجم النجديين الذين سبقوا عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ـ فيه قليلة . وأنه لم يكن شاملا ، بل فاته عدد من العلماء .

ثانياً ـ أن المؤلف أهمل تراجم كثير من مشاهير علماء نجد من آل الشيخ ومن غيرهم من عصر الشيخ وبعده ، بدافع الهوى والتعصب .

ثالثاً ـ أنه أشاد بأناس ينتمون إلى العلم وحاول الرفع من أقدارهم لكونهم ممن عادى الدعوة السلفية .

ليس غريباً أن يخالفك المرء في الرأي، ولكن الغريب حقاً أن يتعصب لرأيه المخالف تعصباً يدفعه إلى العناد والمجادلة بالباطل ، بل إلى أن ينسب إليك من الآراء ما أنت منه بريء زوراً وبهتاناً ، وهذا ما ظهر لي أثناء تصفحي لكتاب « السحب الوابلة » .



وكما أشرت سابقاً فالكتاب يعتبر وحيداً في موضوعه ، ومن لم يطالعه قد يتوهم أن فيه أشياء ذات قيمة علمية جديرة بأن يعيرها الباحث اهتماماً .

ولقد علمت بأن بعض علمائنا حاولوا نشر هذا الكتاب والتعليق على ما فيه ، فتهيبوا ذلك ، لما فيه من النيل من الدعوة الإصلاحية ، ووصف دعاتها بما هم منه براء ، ولهذا رأيت أن أنشر جميع التراجم النجدية الموجودة فيه بعد أن أقدم لمؤلفه بترجمة وجيزة .

والغاية من ذلك :

أولا ـ أن يكون المرء على بصيرة من أمر هذا الكتاب ومؤلفه .

ثانياً ـ أن تكون هذه التراجم على قلتها مصدراً لمن يريد أن يعرف شيئاً عن حالة من ترجم فيها من العلماء .

ترجمة المؤلف :

هو الشيخ محمد بن عبدالله بن علي بن عثمان بن حُمَيد الحنبلي النجدي[1] ترجمه تلميذه الشيخ صالح بن عبدالله بن ابراهيم آل بسام ، في ذيل إحدى

---

(١) أورد الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه « علماء نجد في خلال ستة قرون » بعد ابن حميد : (ابن غانم من آل أبو غنام من ذرية مسرور بن زهري بن جراح الثوري) .

مخطوطات كتابه « السحب الوابلة » فقال ما ملخصه : إنه ولد في بلدة عُنَيْزة أمّ قرى[1] القصيم سنة ١٢٣٦ كما يؤخذ من ترجمته لشيخه الشيخ عبدالله أبا بطين . ولكن الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن بن بسام ذكر في كتابه « علماء نجد في خلال ستة قرون » أنه ولد سنة ١٢٣٢ ، وأضاف الشيخ عبدالله : كان عمه عثمان بن حميد وجده لأمه عبدالله بن منصور آل تركي[2] من أهل العلم والعبادة ، فنشأ في بيئة علمية فقرأ على العلماء حتى أدرك طرفاً من العلم ، ثم تعاطى الفلاحة في بستان يدعى (الأربع) قرب عُنَيْزة إلا أنه لم يوفق في الفلاحة .

وقد نسبه الشيخ ابراهيم بن ضُويان (١٢٧٥/١٣٥٣ هـ) في طرة كتابه « رفع النقاب عن تراجم الأصحاب » نسبه إلى العُرَيْمض فقال : في سرد أسماء من ألفوا في تراجم الحنابلة : (ومحمد بن حميد العريمضي) فعلق الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن آل بسام على هذه الكلمة في نسخة دار الكتب[3] المصرية ما نصه : (نسبة إلى خَبّ العُرَيْمض إحدى قرى القصيم ، وكان كثير من عشيرة محمد بن حميد في هذه القرية) . انتهى .

ويذكر الشيخ صالح بن عبدالله آل بسام أن ممن قرأ عليهم ابن حميد الشيخ عبدالله أبا بطين قرأ عليه في الفقه وفي التوحيد ، وأنه سافر إلى مكة فطلب بها العلم على علمائها وعلى الشيخ محمد الهديبي الزبيري .

ومن أشهر مشائخه عبدالجبار البصريّ قرأ عليه في مكة سنة ١٢٦٠ وفي

---

(١) كذا قال ابن بسام وفي « السحب الوابلة » : (أم قرى القصيم بل جميع نجد) ص ٢١ من المخطوطة الآتي وصفها . وذكر ابن حميد أن مسجده ومسجد آله في هذه البلدة يدعى مسجد الجوز .

(٢) قال في « السحب » ص ٢٤٣ : (بنو خالد منهم أمراء الأحساء آل حميد . وأهل القرية المسماة بالجناح شمال عنيزة ، وآل جناح في الأصل اسم لفخذ من بني خالد سميت البلدة باسمهم ، وأخوال الفقير كاتب هذه الأحرف منهم) ، وذكر جده ابن ترك هذا في كتاب « السحب » ص ٨٤

(٣) رقم ٧٣٦٩ ح .

المدينة سنة ١٢٦٣ . وأخذ عن الشيخ أحمد بن عثمان بن جامع حين حج سنة ١٢٥٧[١] .

وقام برحلات إلى اليمن والشام ومصر والعراق ونابلس ، واجتمع بالعلماء وأخذ عنهم وخاصة علماء الحنابلة .

وقال الشطي في مختصر « طبقات الحنابلة »[٢] نقلا عن عمه الشيخ مراد مؤلف « طبقات الحنابلة » قال عن ابن حميد : دخل دمشق[٣] ونزل في دارنا أياماً واجتمع بجلة من أعيان دمشق وعلمائها ، وصار بينه وبين سيدي[٤] الوالد الشيخ محمد والعم مفتي الحنابلة الشيخ أحمد[٥] ألفة أكيدة ومحبة شديدة ، وأثنيا عليه ، وذكرا له همما عالية . وقال الشيخ الشطي أيضاً : كان ذا علم وسيع ، وفهم رفيع ، بالغاً أعلى مراتب التقوى ، مرجعاً لأرباب العلم والفتوى ، كثير المحبة والاعتناء بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته ، له القدم الراسخ في العلوم العقلية والنقلية ، دار البلاد ودخل دمشق — إلى آخر ما أثنى به عليه — وذكر أنه أخذ عن السيد محمد السنوسي وروى عنه حديث الأولية ، ولازمه سنين عديدة ، وأنه أخذ علوم الآلات عن العلامة محمود الألوسي ، مفتي بغداد والشيخ ابراهيم السقّا الأزهري .

وذكر الشيخ صالح بن عبدالله آل بسام أنه تولى منصب الإفتاء وإمامة المقام الحنبلي في مكة في حدود سنة ١٢٨٠ ولكن الشيخ عبدالله البسام يحدد ذلك بسنة ١٢٦٤[٦] ونقل عن الشيخ عبد الستار الدهلوي أنه كان نديماً لأمراء مكة لا سيما الشريف عبدالله بن عون .

---

(١) وقد ترجم كل مشائخه الذين تقدم ذكرهم وممن نقل عنه في كتابه الشيخ علي كمال الطائي — ذكره عرضاً ص ٣١ (٢) ص ١٦١ (٣) ذكر في «السحب» ص ١١٤ : أنه رحل إلى دمشق سنة ١٢٨١ فرآى في مدرسة شيخ الإسلام أبي عمر الكثير من كتب ابن عروة التي وقفها منها شرحه للمسند في ١٢٠ مجلدا .

(٤) ولد سنة ١٢٤٨ وتوفي سنة ١٣٠٧ وله مؤلفات منها « مختصر طبقات الحنابلة » .

(٥) ولد سنة ١٢٥١ وتوفي سنة ١٣١٦ وترجمه الشطي ص ١٧٥ .

(٦) ولكن ابن حميد نفسه ذكر أنه تولى الإفتاء بعد محمد بن يحيى بن ظهيرة المتوفى سنة ١٢٧١ — ذكر هذا في ترجمة سيف العتيق ص ١٩ .

وفي كتاب « السحب الوابلة » إشارة إلى أنه كانت له صلة بالشريف عون . فقد قال في ترجمة عبدالله بن زيد الجراعي ما نصه : — كان قاضي القضاة[1] صدر الدين المناوي الشافعي — كانت بضاعته في العربية مزجاة فجاءه يوماً قاضي القضاة الركراكي فتذاكرا وكان الكراكي[2] كثير الدهاء ، وبينهما في الباطن شيء ، فكان مما قاله ابن المناوي : ما زلت أسمع أن الباء لا تدخل على الفعل المضارع حتى وجدت لدخولها شاهداً من كلام العرب وهو قول الخنساء في أخيها صخر :

وما بِيَكُون مثل أخي ولكن　　　أُعَزِّي النَّفْسَ عنه بالتَّأسي

وأنشده بتقديم الباء على الياء . فقال له الكراكي : والله حسن ياسيدي كثّر الله فوائدكم ! ودخل عليه جماعة من القضاة وطلبة العلم فقال الكراكي : يا سيدي قاضي القضاة ! لا بأس بذكر تلك الفائدة للسادة المخاديم ، وقصد بذلك افتضاحه ، فذكر المناوى المسألة وأنشد البيت فأطرق القوم . فقال الكراكي : يا سيدي قاضي القضاة : لعله وما يبكون من البكاء فتصحف عليكم ، فخجل من ذلك خجلا شديداً وحفظت عنه .

أقول : حكيت هذه الحكاية يوماً للشريف عون أمير مكة بن المرحوم الشريف محمد بن عون ، وكان له تعلُّقٌ بعلم النحو ، فلما أتممت الحكاية دخل عليه شيخ يَدَّعي معرفة النحو ، فغمزني الشريف ، وسأل الشخص هذا السؤال فقال : لعله قول مثل : والله ما لَيْلِيْ بِنام صاحِبُه .

فضحكنا منه وخجل . انتهى .

وقال الشيخ عبدالله البسام — في ترجمته[2] : (إن المترجم تبع الدولة

---

(١) لا يجوز التعبير بكلمة (قاضى القضاة) ، كما ذكر ذلك الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى كتاب التوحيد ، ولكنا اضطررنا إلى ذكرها محافظة على الأمانة العلمية من عدم تغيير النص الوارد .

(٢) كتاب « علماء نجد خلال ستة قرون ص ٤٤ ـ ٤٥ جـ ٢

العثمانية التي حاربت العقيدة السلفية ، وبحكم وجود المترجم بعد النكبة التي أصابت الدعوة السلفية في بلادها ، وبحكم قراءته خارج نجد على علماء نذروا أنفسهم لمحاربة هذه الدعوة ، فإن هذه المؤثرات طبعته بطابعها ، وجعلت منه خَصْماً لها ، وحليفا لأعدائها ، فإنه في مؤلفه « السحب الوابلة » قد ضرب صفحا عن الترجمة لأنصار الدعوة ، بل لم يكتف بهذا القدر ، حتى تناولهم بالتجهيل والتضليل ، وقد رد على شيخه الشيخ عبدالله أبا بطين في تأويل أبيات الغُلُوّ الموجودة في قصيدة « البردة » وأيَّد داود بن جرجيس إلا أن العلامة الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله انتصر للشيخ عبدالله ودحّض شُبَه ابن حُميد برسالة مطبوعة سماها « المحجة ، في الرد على اللجة » انتهى .

ويضاف إلى ما تقدم أن ابن حميد كان على صلة قوية بأمراء مكة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وبأناس آخرين من أعداء الدعوة كآل الشطيّ بدمشق وببعض أصحاب الطرق الصوفية كالسنوسيّ وغيره ، ولهذا نراه وهو يرثي شيخه عبد الجبار البصريّ يرى من تعداد مفاخره قوله :

ويكيه عند النقشبنديْ طريقة يقوم بها في الناس يهدي ويستهدي

ولو كان ما ذكر الشطيُّ عن ابن حميد من أنه كان كثير المحبة لشيخ الإسلام ابن تيمية لو كان صحيحاً لما تنكب طريقته في توحيد العبادة ، وفي محاربة الطرق الصوفية .

والطريقة النقشبندية يظهر أنها تسربت إلى داخل الجزيرة ، إلى بلاد نجد ، فالشيخ ابن بسام يذكر في مقدمة كتابه « علماء نجد خلال ستة قرون » أن عثمان ابن مَزْيد من علماء عُنَيْزَة ينسب نفسه إلى هذه الطريقة فيقول: النقشبنديُّ. وقد انتشرت تلك الطريقة أول ما انتشرت في منطقة الأحساء ، وكان من أكبر معتنقيها حسين بن أحمد الدوسري الشافعي البصري ثم المكي ، المتوفى سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) ومن مروجي تلك الطريقة عثمان بن سند

البصري صاحب كتاب « أصفى الموارد في سلسال الإمام خالد ، وهو النقشبندي» وقد ألفه سنة ١٢٤٣ واختصر الكتاب أبو بكر الملاّ الاحسائي (١١٩٨ — ١٢٧٠ هـ) وسمى مختصره « النشر الورديّ ، بأخبار مولانا الشيخ خالد النقشبندي الكردي » .

وبالإجمال فإن ابن حميد بعدائه للدعوة السلفية لا يصح التعويل على كلامه في كل ما يتعلق بتلك الدعوة وأهلها . والرجل قدِم على ما قدّم ، ولا يستطيع أحد الحكم عليه لأن الأعمال بالخواتيم ، ولأن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولا تعرف خاتمته . والمقصود التنبيه على كلامه لئلا يغترّ به جاهل أو مغترّ .

مؤلفاته :

١ — « السحب الوابلة » ويأتي الكلام عنه ، وهو خير كتبه .

٢ — تحرير حاشية ابن فيروز على كتاب « المنتهى » في الفقه ذكره في كتاب « السحب الوابلة » .

٣ — وجمع ابن حميد حواشي الحلوتي على كتاب « الإقناع » وشرحه .

وجاء في مجلة العرب [١] ما نصه : ولابن حميد مؤلف آخر هو « النعت الأكمل ، في تراجم أصحاب الإمام أحمدبن‌حنبل » وهذا خطأ منشأه الاعتماد على بعض المؤلفين المتأخرين [٢] . فهذا الاسم يطلق على كتابين أحدهما ألفه الغَزّيّ الدمشقي وهو من مصادر ابن حميد في «السحب » وسيأتي الكلام عليه ، والثاني ألفه الشيخ عبدالله بن علي بن محمد بن حُمَيد المتوفي سنة ١٣٤٦ ، وعبدالله هذا هو حفيد صاحب « السحب » وقد جعل كتاب « النعت الأكمل » ذيلا لكتاب جده « السحب الوابلة » . والشيخ عبدالله تولى الإفتاء في مكة وهو من العلماء ، وله منسك دعاه « تحفة الناسك لأداء المناسك » مطبوع

---

(١) س ٥ ص ٨٨٥

(٢) فقد عدد في « الأعلام » (ج ٧ ص ١٢١) من مؤلفاته .وقال (ذكره في السحب الوابلة) وذكر من مؤلفاته : « ملخص بغية الوعاة » ولعله لحفيده .

بمطبعة الترقي الماجدية بمكة المكرمة لصاحبها الشيخ محمد ماجد الكردى مع مجموع من رسائل بعض علماء مكة .

وفاة ابن حميـــد :

وذكر الشيخ صالح بن عبد الله البسام أن شيخه ابن حميـــد توفى في الطائف يوم الأحد ١٢ شعبان سنة ١٢٩٠ ، ودفن بجوار مسجد عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، وقد رثاه تلميذه المذكور بقصيدة مطلعها :

الناس تبكي على الأطلال والدِّمَن   وكُلُّ صبٍّ على الأحباب ذو شجن

كتاب السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة :

ذكر المؤلف فى المقدمة أنه ابتدأ من حيث وقف ابن رجب في طبقاته سنة ٧٥١ لأن طبقات العُلَيمي وهي ذيل على طبقات ابن رجب من سنة ٧٥٠ إلى سنة ٩٢٠ هذه الطبقات قليلة الوجود وغير مستقصية للتراجم إلى عصره، وذكر من مصادره : « الدرر الكامنة » لابن حجر ، و «الضوء اللامع» للسخاوي ، « وذيل الضوء » لجار الله بن فهد المكي ، « وإنباء الغمر » لابن حجر ، وسلك الدرر للمرادي ، و«المورد الأنسي» في مناقب النابلسي ، للغزى ، وقليل من « الريحانة » للخفاجي، و«تذكرة الشيخ ابراهيم بن يوسف المهتار » المكي عشر مجلدات بخطه ، « وعنوان النصر في أبناء العصر » للصفدي قليل من مجلدين منه ، و« حسن المحاضرة » للسيوطي ، وطبقات العليمي ، «والأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل » للعليمي ، و« سكردان الأخبار » لابن طولون بخطه ، « ومعجم نجم الدين عمر بن فهد » المكي بخطه — « وشذرات الذهب » لابن عماد الحنبلي ، و « خلاصة الأثر » لمحمد أمين الدمشقي الحنبلي — كذا قال —

وذكر من مصادره أيضاً « النعت الأكمل » قال في ترجمة محمد بن عبدالله بن فيروز : (وكتب إليه علامة الشام الغزيُّ قصيدة يطلب منه أن يُرسل إليه تراجم مشايخه ومشايخهم وأقرانه وتلاميذه ليثبتهم في كتابه « النعت الأكمل » فأرسل إليه جُزءاً ضمنه ما طلب ، ورأيته في شبيبتى ، ثم لما

احتجت إلى نقل منه في هذا جحده مالكه ، فتوسلت إليه بكل طريق فلم ينجح فيه ، وأصر على الجحود والانكار) وقال في السحب أيضاً [1] (قال كمال الدين محمد بن محمد الغزي في كتابه « المورد الأنسي » : وقد ترجمته في كتاب « النعت الأكمل » بتراجم أصحاب الإمام أحمد بن حنبل » انتهى ـ أقول : لم أظفر مع شدة التفحص خصوصاً في بلده دمشق وعسى الله أن يوجدني إياه بمنه وكرمه) وقد أشار في « السحب الوابلة » إلى أنه نقل عن كتاب النعت الأكمل » في تراجم سيف بن أحمد العتيقي ، وصالح بن سيف العتيقي ، وسيف بن عزاز ، وعبدالله بن محمد بن فيروز .

أما كتاب « النعت الأكمل » هذا فقد اطلع عليه الشطي ونقل عنه في كتاب « مختصر طبقات الحنابلة » وقال في وصفه : (الطبقات التي سماها « النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل » ورتبها على ثلاثة عشر طبقة لخمس وعشرين سنة من أول القرن العاشر ، وقد رأيت الطبقات والتذكرة في مكاتب آل المترجم بخط يده، فإذا في الطبقات نقص لم يقدر له اكماله) وقال الشطي أيضاً : (كنا اطلعنا على نسخة المؤلف بخط يده وتمتعنا بها زمناً فوجدناها مخرومة بنقص طبقتين من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٥٠ فاستدركناه بما وجدناه في تاريخ المرادي مختصراً ، وأعظم من هذا ترك المؤلف خلال التراجم بياضاً لم يكتب فيه شيئاً ما بين سطر وصحيفة ، يريد الرجوع إليه ، كما وصل في كتابه إلى (أبي شعر وشعير) فأدركته المنية قبل بلوغ الأمنية ، ثم إن المؤلف كان مشربه في كتابه الإطناب في كثير من المواضع ، والتمدح في بعض الرجال وغير ذلك ، ولذلك فقد عنينا بتهذيب هذه الزوائد كي يشاكل الكتاب نوعاً ما كتاب العليمي الكاتب المجيد ويكون له روح عصرية) [2] انتهى .

والغريب أن الشطي وقد اطلع على كتاب الغزي الذي ذكر ابن حميد أن فيه تراجم لعلماء نجديين لا نجد الشطي ذكر منهم سوى نفرٍ قليل .

---

(١) ص ٤٩

(٢) مختصر طبقات الحنابلة ص ١٤٣

مخطوطة السحب الوابلة :

يوجد من كتاب السحب الوابلة مخطوطات اطلعت على نسخة واحدة منها مصورة في معهد المخطوطات جاء في آخرها ما ملخصه : (أنهاه نقلا فى المسودة التالية (؟) جامعه محمد بن عبدالله بن حميد مفتي الحنابلة في مكة ، بعد صلاة العصر ١٢ جمادى الآخرة من شهور سنة ١٢٨٨ بخلوتي بمدرسة الوزير المرحوم محمد باشا[١] في جانب باب الزيادة) وبعد هذا : (تمّ نسخ هذا الكتاب عن نسخة المؤلف بخطه على يد كاتبها محمد بن اسماعيل الميمني المعروف بالشيناوي ، برسم الشيخ محمد عارف خوقير المكي الحنبلي الكتبي ، وافق الفراغ يوم الاثنين ١٥ رجب ١٣٠٩) .

وخط النسخة رديء وفيها بياض فى بعض المواضع تركها المؤلف[٢] .

عملى فى كتاب السحب الوابلة :

بعد أن رأيت موقف المؤلف من الدعوة الإصلاحية التي عادت على الأمة بأنفع الثمـــار ، وقفت متردداً : هل أهمل هذا الكتاب مع اتساع شهرته ، لكيلا يكون فى الحديث عنه ما يدعو إلى ترويجه ؟ أم أعمل حياله ما أراه كاشفاً لحقيقة ما فيه ، فأوفّر للباحثين ذلك ، وأنبّه من يجهل أمره لئلا يقع فى مزالق أوهامه؟! فرأيت هذا خير الأمرين ، لأن إهمال شأن هذا الكتاب لا يجدى نفعاً ، فقد عرف ، وأصبح مصدراً من مصادر تاريخ هذه البلاد .. رجع إليه الأستاذ الزركليُّ رحمه الله في «الاعلام» وهو أوسع كتاب في التراجم ورجع إليه غيره ، ثم إنّ الدعوة الاصلاحية قد ظهرت حقيقتها

---

(١) كانت هذه المدرسة تعرف برباط الحنابلة ، وليس رباطاً خاصاً بهم ولكن يظهر أنها اكتسبت هذا الاسم لكون مفتى الحنابلة ينزل فى أحد حجرها ، وقد شاهدت فى أحد حجرها — وكان يسكنها الشيخ سليمان الشبل — مجموعة من الكتب بين مخطوط ومطبوع زمن بينها شرح الاقناع بخط الشيخ عبد الله بن عضيب . وكانت تلك الكتب لابن حميد مفتى الحنابلة . وقد هدمت المدرسة أخيراً ، وأدخل مكانها فى الحرم الشريف .

(٢) ينظر عن ترجمة ابن حميد : « الأعلام » ٧ — ١٢١ — وبروكلمان ٢ — ٨١٢ وفهرس « الفهارس ١ — ٣٩٢ » .

حتى أصبحت كالشمس في رابعة النهار، فحق على أعدائها قول الله عز وجل «(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ ، واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ)» ولهذا لاضير في نشر هذا الكتاب ، وإبداء آراء مؤلفه لمعرفة منزلته من العلم ، ولإبطال الباطل منها . بل إن هذا من الأمور المتعيّنة على العلماء ، وكما قال الإمام أبو عبد الرحمن السلمي : أهل السنة يكتبون ما لهم وما عليهم ، وأهل البدعة لا يكتبون إلا ما لهم — أو ما هذا معناه — أي أنهم لضعف حججهم لا يذكرون أدلّة خصومهم لكيلا يتضح بطلان آرائهم ، بخلاف أهل الحقّ فإنه لا يضيرهم إيراد أدلة خصومهم ، لأنّ تلك الأدلة تنادي على نفسها بالبطلان .

لهذا رأيت نشر جميع التراجم التي أوردها للحنابلة النجديين ، مما اطلعت عليه في النسخة التي وقعت في يدي ، بل أضفت إلى تلك التراجم[1] ماأورده ابن حميد عن بعض مشائخه من غير أهل نجد ، من أهل الزبير — وسكان تلك البلدة انتقل أكثرهم من نجد — وما أضفته من هذا القبيل قليل ، وأردت أن أقدم للقارئ كل ما أتى به ابن حُمَيْد في كتابه مما لم ينقله في تراجم غير النجديين ، من كتب أكثرها معروف ، فكل ما يتعلق بتراجم علماء نجد في هذا الكتاب قدمته للقارئ .

وكنت أردت أن أضرب صفحاً عن تراجم العلماء المعاصرين لقيام الإمام محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — بنشر الدعوة السلفية ، وتراجم من جاء بعده ، توَقّياً لما أشرت إليه ، ولأن ابن حميد أهمل العلماء الذين آزروا الدعوة وقاموا بنشرها ، ومن ذكر منهم كالشيخ (أبا بطين)

---

(١) وعدد التراجم كلها ٥٠ ترجمة .

نسب إليه ما هو منه بريء – ولكنني رأيت أن أقدم للقارىء كل التراجم ، لتتضح له حقيقة هذا الكتاب ومؤلفه . .

وقد اطلعت على مؤلف حديث للأستاذ الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن البسام – رئيس محكمة التميز بمكة المكرمة – دعاه « علماء نجد خلال ستة قرون » وقد نقل فيه بعض تراجم الحنابلة عن « السحب الوابلة » كما ترجم مؤلف هذا الكتاب ، ورأيت في كتاب الشيخ عبد الله تراجم كثيرة قبل عهد الإمام المجدد الشيخ محمد ، في تلك العصور التي كان يكتنفها الظلام ، لم ترد في كتاب « السحب الوابلة » فقد اطلع الشيخ عبدالله على مصادر كثيرة لم يطلع عليها ابن حميد [1] ، فأحببت أن أضع أمام القارىء جميع ما أمكن معرفته من حالة بلاد نجد العلمية قبل عهد الإمام الشيخ محمد ، ممثلة تلك الحالة في تراجم من عرف من علمائها في عهدنا ، فأضفت إلى ماذكر ابن حميد ملخّصاً عن تراجم من لم يترجمهم ، من كتاب الشيخ عبد الله البسام .

كما ذيلت بعض التراجم بإضافات من كتاب الشيخ عبدالله ، ومن كتاب « مختصر طبقات الحنابلة » للشطي ، بحيث نقلت ما فيه مما يتعلق بعلماء نجد .

وبالاجمال ، فقد أوردت جميع تراجم النجديين الواردة في « السحب الوابلة » وهي لُبُّ هذا الكتاب بالنسبة للمعنيين بدراسة تاريخ هذه البلاد .

حمــد الجاسر

---

(١) جاء في مقدمة كتاب الشيخ عبد الله البسام : (الفضل الأول لله تعالى على تيسيره ، ثم لعمي الشيخ سليمان بن صالح البسام ، الذي أطلعني على مجاميع وأوراق تعب في جمعها وكتابتها المؤرخ الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى ، الذي أوقف عمره على جمع هذه الفوائد في التاريخ والأنساب ، كما يعود الفضل لأسلافي وأهلي الأقدمين ، الذين حرصوا على تدوين هذه المعلومات حتى وصلت إلينا) . إنتهى .

العلماء النجديون فى « السحب الوابلة »

١ ــ ابراهيم بن أحمد بن يوسف النجدى (١)

كان من تلامذة الشيخ محمد بن فيروز ، وأظن والده ، ثم ارتحل إلى بلد الزبير وغيره ، [..] (٢) ثم الدمشقي الفقيه النبيه الفاضل المحقق قطب دمشق مدة سنتين إلى أن توفى بها قبل سنة ١١٧٩ ولم ينقطع عن التدريس والاستفادة إلى قرب وفاته وأخذ عنه جمع من الفضلاء ، وكتب على مسائل عديدة وأجاب بأجوبة مفيدة رحمه الله ».

---

(١) ترجمه الشطى فى « مختصر طبقات الحنابلة » — ص ١٣٦ — ترجمة أوفى من هذه هذا نصها : (الشيخ إبراهيم النجدى : إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن أبى يوسف النجدى الأصل والشهرة ، الأشيقرى — نسبة إلى بلدة من بلاد نجد ، نزيل دمشق ، الشيخ الفاضل الفقيه الفرضى المحصل ، الليب الناسك المتقشف ، بقية السلف الصالح . برهان الدين .

ولد فى منتصف جمادى الآخرة سنة ست وأربعين ومائة وألف ، وقرأ القرآن على محمد بن أحمد بن سيف وأحمد بن سليمان النجديين وأخذ بعد ذلك فى طلب العلم فقرأ فى مبادئ الفقه على خاله الشيخ عثمان بن عبد الله ، وحج من بلادهم ثلاث مرات ، وفى المرة الأخيرة قدم دمشق صحبة الركب الشامي فدخلها فى صفر سنة ١١٨١ واستقام بها لطلب العلم ، فأخذ الفقه وأصوله عن شيخنا الشهاب أحمد بن عبد الله البعلى ، والشيخ محمد بن مصطفى اللبدى ، وأخذ العربية عن شيخنا القطب عمر بن عبد الجليل البغدادى ، وحضر فى الصحيحين على شيخنا الشهاب أحمد بن عبد الله العطار فى الجامع الأموى بين العشاءين ، وأخذ الفرائض عن الشيخ الكردى ، وحضر دروس شيخنا المحقق على أفندى الطاغستانى .

ونبل قدره وعلى ذكره ، ودرس فى الجامع المعمور العمرى بعد وفاة شيوخنا ، وأقبلت عليه الحنابلة ، وانتفعوا به ، وصار مرجعاً فى مسائل المذهب ودقائقه .

وكان فقيراً صابراً ، عليه سيما العلم والعمل والتقوى ، وكان متقللا من الدنيا ، معرضا عن زخارفها ، لا يتردد إلى أحد من أبنائها ، مثابراً على صلاة الجماعة فى الجامع الأموى ، مصون اللسان عن اللغو .

وبالجملة فهو آخر فقهاء الحنابلة موتا بدمشق . ولم يزل على هذه الحالة حتى توفى فى مطعونا شهيداً ، طعن ليلة الأربعاء ١٦ شوال سنة خمس أو ست ومئتين ، وتوفى بعيد عصر اليوم المذكور وهو فى غاية من اليقظة ، وصلى عليه فى مسجد الشيخ عبد الله المكلانى بمحلة القيمرية ، ودفن قبيل الغروب فى الجبانة الرسلانية ، تجاه السور الدمشقى . وكثر الأسف عليه ، رحمه الله تعالى) إنتهى.

فابن حميد أرخ وفاته قبل سنة ١١٧٩ والشطى سنة ٥ أو ١٢٠٦ ولكن الشيخ عبد الله البسام فى كتابه « علماء نجد خلال ستة قرون » جعلها سنة ١٢٠٦ .

(٢) هنا نقص ولعله : (النجدى) .

٢ ـ ابراهيم بن سليمان بن على بن مشرف التميمى النجدى[1]

الفقيه النبيه التقي الصالح ، ولد في بلدة العيينة تصغير عين ، وقرأ على والده[2] علامة الديار النجدية مؤلف المنسك المشهور[3] وقرأ على خيرة من علماء نجد وتوجهت همته إلى الفقه ، وانصرف إليه بالكلية فحصل واستفاد وأفاد ، وكتب من كتب الفقه شيئاً كثيراً بيده وخطه حسن مضبوط .

٣ ـ ابراهيم بن عبد الله بن ابراهيم بن سيف

الوائلي[4] نسباً النجدي أصلا المدني مولداً ومنشأ ووفاة، العلامة الفهامة، المحقق المدقق ولد في المدينة المنورة ونشأ بها وقرأ على علمائها والواردين إليها من علماء الأقاليم ، فبرع في الفقه والفرائض والحساب ، وشارك في جميع الفنون ، انتهت إليه رئاسة المذهب في الحجاز سيما علم الفرائض ، فإنه لا يجارى ولا يبارى إليه لأن فيه الغاية وعنده في النهاية ، فكان يرحل إليه لأجله ويرسل إليه كل عويص فيُنْعِم بحله ، وصنف كتابه «العذب الفائض[5] بشرح ألفيه الفرائض» جمع فيه جمعاً بديعاً ، وحوى المذاهب الأربعة تأصيلا وتفريعاً وأحصى علوم الحساب جميعاً فاشتهر في الآفاق وتعجب منه جملة الحذاق ، وحصل على استحسانه الاجماع والوفاق من

---

(١) هو عم الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله .

(٢) نقل الشيخ عبد الله البسام عن المنقور : (ولد سنة ١٠٧٠ ، وعلق على هذا قائلا : (وبهذا تعرف وهم ابن حميد فى « السحب الوابلة » وابن بشر فى « عنوان المجد » حين قالا إنه أخذ عن والده فإن عمره يكون حين وفاة والده تسع سنين وليست هذه السن سن طالب العلم المستفيد) ثم ذكر أنه ولد فى العيينة . وقد ولى القضاء فى أشيقر ونقل عن تاريخ الشيخ محمد بن عباد أنه توفى سنة ١١٤١ وأنه خلف ابنه الشيخ عبد الرحمن المتوفى سنة ١٢٠٦ .

(٣) قد طبع هذا المنسك .

(٤) ليس وائلياً بل من شمر من طيء من فخذ يدعى آل ميبار من عبدة ثم من شمر ، كما أوضح ذلك ابن لعبون فى تاريخه .

(٥) طبع هذا الكتاب مرتين .

أهل المذاهب على الاطلاق ، فقرأ عليه جمع جم وتناسخته الأفاضل وسارت به الركبان وصار مرجع أهل هذا الشأن ، إلى هذا الأوان [1] وتوفى المترجم في طيبة الطيبة سنة تسع وثمانين ومائة وألف ودفن في البقيع .

وخلف أولاداً نجباء وذريته إلى الآن فى المدينة المنورة ومنهم طلبة علم ولهم وظيفة أذان بالمسجد النبوي ويعرفون ببني الفرضي نسبة إليه رحمه الله تعالى .

ووالده من أفاضل الفقهاء قرأ علمائها ، ثم ارتحل إلى الشام فقرأ على علامتها وشيخ الحنابلة بها أبي المواهب ، وسكن في المدينة المنورة إلى أن مات وأخذ عنه جمع منهم الشيخ صالح بن عبدالله الصائغ العُنيزي كما ذكره في إجازته لأحمد ابن شبانة انتهى .

٤ ـ ابراهيم بن ناصر بن جديد الزبيرى

ولد سنة [ ] [2] ونشأ نشأة حسنة فقرأ القرآن وحفظه ، وحفظ « مختصر المقنع » وألفية الآداب وغيرهما ، وقرأ على مشايخ بلده ، ثم ارتحل إلى الشام للتلقي عن علمائها ، فسكن فى المدرسة المرادية أربع عشرة سنة ، وأكبَّ على الطلب والاشتغال ، وأكثر حضوره على شيخ المذهب العلامة الورع الزاهد ، الفقيه الأصولى الشيخ أحمد البعلي مؤلف « الروض الندي » وشارح « مختصر التحرير » الأصولي ، فأخذ عنه التفسير والقراءات والحديث والفقه والنحو والأصلين وغيرها ثم أجازه هو وغالب علماء دمشق المحروسة من أهل المذاهب منهم الشيخ مصطفى بن الشيخ محمد النابلسي الحنبلي ،

---

(١) قال صاحب « تحفة الأصحاب فيما للمدنيين من الأنساب » : (إبراهيم فاق والده فى هذا العلم وصار لا نظير له فى المدينة ، بل فى الدنيا كلها . وكانت ترد إليه الأسئلة بكثرة من الأقاليم ، فيجيب عليها بلا كلفة) .

(٢) بياض فى الأصل .

والعلامة الحافظ أحمد بن عبيد الشهير بالعطار الشافعي كما رأيت إجازاتهم له بخط رفيقه في الطلب العلامة فرضي زمانه الشيخ محمد بن سلّوم وبعد أن قضى وطره من الشام قدم الأحساء للأخذ عن علامتها العلم المفرد الشيخ محمد بن فيروز فقرأ عليه في فنون عديدة واستجازه فأجازه سنة ١١٩٥ ثم رجع إلى بلده الزبير فتلقاه أهلها خاصتهم وعامتهم بالإكرام التام ، والتبجيل والاحترام ، وصار إليه المرجع ، في أمور الدين ، وطلبوا منه أن يتولى القضاء فأبى ، فلم يزالوا به حتى ولي بغير معلوم ولا خدم ، وصار خطيب الجامع ، وواعظه الذي تذرف منه المدامع ، ومدرس الفقه ومفتيه ، ومسدي المعروف ومؤتيه ، وكان في الفقه ماهراً ، وفي الزهد والتقى باهراً متواضعاً جداًسخياً طلق الكف ولو بالدَّين ، لا يدَّخر شيئاً قلّ أوجلّ وعلى كثرة ما يأتيه كان يحتاج لكثرة ما عوّدَ الفقراء والطلبة والواردين من الإحسان وكان يباشر خدمة بيته وأضيافه بنفسه .

أخبرني شيخنا التقي النقيُّ الشيخ محمد الهُدَيْبيُّ وكان من أخص تلامذته — أنه إذا أتاه زائر قام بنفسه وأخرج له تمر من قَوْصَرَة كانت عنده بيده .

قال ولما عزمت على الرحلة إلى الحرمين قال لي : تسافر عن أحبابك وتشتاق إليهم ويشتاقون إليك ؟ ! فأقم. فأبيت ، فلما رآني مُصَمِّماً بكى وقال: ياليتني شعرة في جسدك ! ! فوادعته ودعا لي بدعوات أرجو بركتها .

وأخبرني من لا يعتمد أنه دخل عليه شخص في هيئة بدوي فتلطف به الشيخ واحتفل به إلى الغاية ، فلما خرج ذاكرنا الشيخ في حقه كالمنكرين لفعله هذا مع بدوي فقال : هذا من رفقائنا في الطلب على شيخنا الشيخ محمد بن فيروز ، وكان هذا يحفظ « صحيح البخاري » وهو من أمراء الأحساء آل حُميد ، فلما هربوا من سعود ، هرب معهم ، وسكن معهم البادية كذا أخبر والله أعلم .

وكان لا يخالط الناس إلا لضرورة أو كالضرورة ، قبل أن يُرى

إلا تالياً أو مدرساً أو مذاكراً أو يحكي حكايات الصالحين ، أو أحوال رحلته في الطلب لتنشيط هم الطلبة .

ومما شاع من حلمه أن بعض أهل نجد هجاه وكفره ، وأطلق لسانه بالقول الشنيع فيه ، لكونه أنكر على ابن عبد الوهاب والهاجي موافق له ، فاتفق أن الهاجي تصعلك وافتقر ونسي ماجرى ، فسافر إلى بلد الزبير ، والشيخ المترجم إذ ذاك عينها الباصرة ، وكلمته مقبولة عند البادية والحاضرة فعندما سمع بوصول الهاجي أرسل إليه بكسوة ودراهم ، وقال : هذه بمقابلة هديتك التي أهديت إلينا تلك السنة . وأرسل إلى الأمير أن لا يتعرض له أحد بسوء .

وكان رحمه الله كثير التدريس خصوصاً في الفقه لا يضجر ولا يمل ، حسن الوعظ والتذكير ، كلامه (له) وقع في القلوب لحسن قصده ، وصدق نيته وورعه وزهده وتقاه ، يعلوه هيبة ونور ، نفع الله به أهل بلده بل جميع تلك البلدان ، ورغبهم ، وحثهم على العلم فسارعوا للأخذ عنه ونجب منهم خلقاً كبيراً [1] خصوصاً في الفقه وتنافسوا في تحصيل كتب المذهب ، وتغالوا في أثمانها وفي استنساخها ، وصار للعلم سوق قائم ، وزهت البلد ، وصار يرحل إليها لأخذ مذهب الإمام أحمد ، وبنى بعض الموفقين مدرسة للطلبة الوافدين ، وأنفق عليها جميع ما يملكه ، فصارت مأوى المستفيدين ، وكان السبب في ذلك كله الشيخ المترجم ، وكان يقوم للطلبة بكفاتهم كأنهم عائلته ، وكان له جاه عظيم عند الحكام والأمراء ، مع عدم محبته لهم ومبالاته بهم ، وكانت العلماء من أهل المذاهب تعظمه وتثني عليه ، منهم لسان الزمان ، ونابغة الأوان امام البلاغة والبراعة ، وختام ذوي الفصاحة الذي لا يراع له يراعة ، الشيخ عثمان بن سند البصري المالكي فقد نقل للشيخ المترجم نسخة من منظومته في أصول الفقه بخطه البديع ، وكتب في آخرها ما صورته : (الحمد لله رسمت هذه

---

(١) كذا والصواب (خلق كثير) .

المنظومة في خدمة مولانا الفاضل النبيل ، والجهبذ الكامل الجليل الشيخ ابراهيم بن ناصر بن جديد ، أدام الله بقاءه ، ووالى عليه نعماءه ، ونشر في الملإ الأعلى ثناءه ونظم به لآلىء الفوائد ، وقيد به من الفضل الأوابد ، وجعله واسطة عقد الكرام الأماجد ، وصلى الله على محمد وآله الكرام وصحبه العظام) . انتهى ومن خطه نقلت .

توفي المترجم ثالث عشر شعبان سنة اثنتين ومئتين وألف ، ودفن قريباً من ضريح سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه .

٥ ــ أحمد بن حسن بن رشيد الاحسائي الشهير بالحنبلي

ولد في الاحساء سنة (١) ورباه الشيخ محمد بن فيروز تربية بدنية وعلمية ، فأقرأه في أنواع العلوم النقلية والعقلية فبرع في الكل ، لما له من وفور الذكاء والفهم ، وشدة الحرص والاجتهاد ، ففاق رفقاءه ، حتى أن منهم من تتلمذ له بإشارة شيخهم .

ولما قويت حركة سعود وخاف أهل الاحساء أن يدهمهم ، وعزم شيخه المذكور على الإنتقال إلى البصرة استأذنه هو في المجاورة في الحرمين الشريفين فأذن له ، وأجازه بإجازة منظومة ، وأوصاه بوصايا منها قوله :

إحذرْ تُصَبْ بعارض من محق أهل العارض

فكانت هذه مكاشفة من الشيخ ، فان المذكور لما حل ساحة طيبة وأكرمه أهلها غاية الإكرام ، وتتلمذ له جمع منهم في المنقول والمعقول ، وتزوج بنت علامتها الشيخ مصطفى الرحمتي الانصاري الأيوبي الحنفي ، محشي « الدرر » وصار للمترجم صيت بالغ ، وشهرة تامة ، وصار يكاتب السلطان عبد الحميد ووزراءه ، ويستنجدهم في ذب سعود عن الحرمين

---

(١) بياض في الأصل وقال الشيخ عبد الله بن بسام (عام ١١٥٥ تقريباً) وزاد في نسب الشيخ بعد رشيد (بن عفالق العفالق القحطاني) .

الشرفين ، وكاتب علماء الروم والشام في ذلك الأمر المهم ، وقام فيه وقعد ، فلم ينجدوا ، ولا ظهر فيهم مبالاة في هذا الأمر المهم ،والخطب المدلهم، وصاروا كما قيـــل : **الطفل يلعب ، والعصفور فى الألم**

وآخر الأمر أن علماء الشام لما رأوا عدم الإغاثة من الدولة أرسلوا للمذكور دراهم (؟) وقالوا : أيسنا من إنجاد الدولة ، فتجهز بهذه إلينا ، فلم يمكنه ذلك ، واستسلم – كغيره – لتيّار الأقدار ، فهجم سعود على المدينة المنورة ، وأرعب الخاصّ والعام ، فما أمكن الشيخ إلا المصانعة معهم والمداراة لهم ، والمداهنة خوفاً منهم ، ورجاء نفع الناس عندهم بجاهه ، فأقرأ كتبهم ، وقام معهم ، فبجلّوه ، ورأسُوه ، لاحتياجهم الشديد إلى مثله ، لتقدمه في العلوم ، ومعرفته بمذهب السلف ، وأقوال الأئمة ، وإتقانه فقه مذهب الإمام أحمد ، الذي هم ينتسبون إليه ، في ظاهر دعواهم ، تستراً ، وإلاّ فهم يدعون الاجتهاد ، ولا يقلدون إماماً ، ولسَعة عقل المشار إليه ، وسداد تدبيره ، وكفايته بمناظرة مخالفيهم ، وفقدان مثله في جميع من تبعهم . فصار له جاه عند سعود كبير ، وأمر أمير المدينة من جهته أن لا يصدر ولا يُورد إلا عن رأيه وبإشارته ، يعزل ويُولي ، فصال بذلك ولكنه كان يذبُّ عن الناس خصوصاً أهل المدينة بغاية جهده ، ونفع بذلك خلقاً .

وكان يقول : الله يعلم أن هذا جل مقصدى من مداخلتهم . فلما انقضت مدّتهم وهربوا هرب معهم ، وتَرَدَّد بينهم وبين الوزير ابراهيم باشا ابن محمد على باشا فى الصلح فما تمّ . ولامه ابراهيم في الخروج معهم عن المدينة المنورة ، فاعتذر بأعذار واهية ، فعرض عليه أن يرده إلى المدينة ، كالمجبر في الظاهر وهو طيب النفس في الباطن ، وإن نسب إلى الغدر

بإمساك الرسول فأبى وقال : لا أفارقهم إلا أن غلبوا ، فأغضب الباشا ذلك ، ولما أخذ بلادهم أمسكه وعذّبه أنواع العذاب ، فيقال : إن الباشا رأى رؤيا من جهته أزعجته ، فكفّ عنه العذاب ، وكان أبوه سمع بذالك فما استحسنه لكونه منسوباً من مجاوري المدينة ، وصِهْراً لهم ، ولما تحقق عنده في السابق من إنكاره أمرهم ، واستنجاد الدولة عليهم ، ولشهرته في العلم والعقل . فأرسل يطلبه ، فوصل إليه في مصر ، وأكرمه ، ورتب له رواتب جزيلة ، وأعطاه جواري حساناً . وجمع بينه وبين علماء مصر ، فتناظروا فثبت ثباتاً عظيماً ، وعزّ في عين الباشا ، وعرف العلماء فضله وأثنوا عليه ، فجعله الباشا شيخ المذهب الحنبلي ، وهو عبارة عن المفتي . وأمره أن يقرىء بعض أولاده ومماليكه في القلعة وفي بيته ، ويدرس في الأزهر ، ويحضر عنده جمْعٌ ، وانفرد بمذهب الإمام أحمد ، فصار يُرْحل إليه للأخذ عنه ويرسل إليه من الأماكن للفتوى ولطلب الإجازة . وكان نقش خاتمه هذا البيت : [٢]

أنا حنبليٌّ ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

توفي وقد ناهز الثمانين أو جاوزها ، وهو متمتع بحواسه ما عدا ثقلا قليلا في سمعه سنة ١٢٥٧ في مصر ودفن بها .

---

(١) قال ابن بشر في « عنوان المجد » : (أمر الباشا فعزر بالضرب والعذاب وقلعوا جميع أسنانه .

(٢) هنا رسم دائرة في وسطها (أحمد) ويحيط به البيت المذكور .

أحمـــد بن ذهلان

لم يترجمه ابن حميد في «السحب» ولكن الشطي ترجمه في «مختصر طبقات الحنابلة» ص ١٢٥ — نقلا عن كتاب الغزّي ، وهو من مصادر ابن حميد — انظر المقدمة — قال الشطي : (الشيخ أحمد بن ذهلان النجدي : أحمد بن ذهلان بن عبد الله بن محمد بن ذهلان النجدي المقرني ، المتصل النسب بسيدنا خالد بن الوليد — رضي الله عنه — الشيخ الفاضل العالم الفقيه النخبة العمدة ، مفتي البلاد النجدية ، والديار الإحسائية ، أبو العباس شهاب الدين .

ولد في بلدة مُقْرِن [١] ونشأ في حجر والده ، وتلا عليه القرآن العظيم ، وأخذ عنه الفقه وغيره ، وأخذ أيضاً عن عالم البلاد النجدية [٢] ابن سُحَيْم النجدي ، وبرع وفضل وصارت فيه البركة التامة في الفقه ، وولي قضاء نجد وإفتاءها ، وسار في ذلك سيراً حسناً ، ولم يزل على طريقته المثلى حتّى توفي وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة وألف ودفن هناك .

قال المؤلف الغزي : كذا أملاه علينا ولده صاحبنا الشيخ عبد العزيز من لفظه بدمشق رحمه الله تعالى) . انتهى .

وأضاف الشيخ ابن بسام أن آل ذهلان من آل سحوب من زعب من بني سليم :

وقال : (نشأ في بيت علم فجده الشيخ عبدالله علامة نجد ، وعمّ أبيه عبد الرحمن بن ذهلان من العلماء ، وأبوه ذهلان منهم ، وكلهم من علماء بلده) . انتهى .

---

(١) مقرن : شملها اسم الرياض .

(٢) في كتاب « علماء نجد في خلال ستة قرون » : (أخذ عن عبد الله بن أحمد بن سحيم) إنتهى . ولا أدري كيف وصف بأنه عالم البلاد النجدية .

٦ ـ أحمد بن عثمان بن جامع [١]

قاضي البحرين ثم بلد سيدنا الزبير قرأ على أبيه وغيره ، وأظنه أدرك شيخ أبيه الشيخ محمد بن فيروز لما نزل البصرة وحضر درسه ، وتولى قضاء البحرين بعد أبيه فباشرها مدة طويلة بالعفة والديانة والصيانة ، فوقعت بين أمرائها فتن ، فرحل عنها إلى بلده الزبير ، وتولى قضاءها إلى أن مات سنة ٢٨٥ وتولى القضاء بعده أكبر أولاده وأسدُّهم الشيخ محمد ، فلم يتم سنة وتوفاه الله تعالى وكان المذكور قد حج سنة ٢٥٧ فاجتمعت به في مكة المشرفة وسألته واستفدت منه ، وأجازني ومعه ولداه الشيخ محمد هذا وعبدالله وكان رجلا صالحاً ساكناً وقوراً وأظنه قارب التسعين.

٧ ـ أحمد بن محمد بن حسن الشهير بالقصير

ـ بضم القاف ، وفتح الصاد المهملة ، وكسر الياء المشدّدة ، بصيغة التصغير ـ النجدي . الأشيقري ـ نسبه إلى أشيقر بضم الهمزة من قرى الوشم [٢] .

---

(١) أورد الشيخ عبد الله بن بسام نسبه : (أحمد بن عثمان بن عبد الله بن جمعة بن جامع بن عبيد بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي ، قدم جدهم جامع من المدينة وسكن القصب ثم انتقل إلى جلاجل فولد فيها ابنه جمعة ثم ارتحل جمعة إلى الشام لطلب العلم فصار عالماً) وذكر أن آل جامع أبناء عم آل شريدة في بريدة . وذكر أن المترجم ولد سنة ١١٩٤ في بلدة الزبارة وإنه قرأ على ابيه الشيخ عثمان . وقال الشيخ ابن بسام إنه توفي في العشرين من ربيع الثاني سنة ١٢٨٥ هـ .

(٢) هذا ما أورد ابن حميد ، في النسخة التي نقلت عنها وفي نسخة بتنة ولكن الشيخ عبد الله بن بسام نقل عن ابن حميد أنه قال في طبقاته (وكتب بخطه الحسن النير المضبوط كثيراً من كتب الفقه وغيره وأفتى وكتب على المسائل كتابة حسنة ، ودرس في بلده وانتفع به خلق) إنتهى .

وذكر الشيخ ابن بسام أنه ولد في أشيقر مقر عشيرته الوهبة ونقل عن ابن بشر :
(في سنة ١١٠٧ ظهر سعد بن زيد الشريف إلى نجد ونزل بلدة أشيقر وحاصر أهلها وطلب أن يخرج إليه الشيخ حسن بن عبد الله أبا حسين ومحمد بن أحمد القصير فخرجا إليه فحبسهما وكان ذلك في رمضان فأفتى الشيخ الفقيه أحمد القصير بالفطر في رمضان ، ويحصدون زروعهم) .

وسرد أسماء مشايخه وتلاميذه .

وذكر أنه توفي في بلده سنة ١١٢٤ هـ .

٨ ـ أحمد بن محمد التميمي النجدي الشهير بالمنقور[1]

قرأ على العلامة الشيخ عبدالله بن ذَهْلان وغيره من علماء نجد ، واجتهد مع الورع والديانة والقناعة ، والصبر على الفقر والعيال ، وكان يتعيش من الزراعة ويقاسي فيها مع حرصه على الدروس في غير قريته شدائد ، ومهر في الفقه فقط مهارة تامة ، وصنف تصانيف حسنة منها بل أعظمها مجموعه الفقهي المشهور بالقيد (؟) الجامع لغرائب الفوائد ، والنقولات الجليلة من الكتب العربية (؟) ، ومنها مناسك الحج وغيرهما وله جوابات عن مسائل فقهية مسددة وكتب (كتباً) كثيرة وخطه رديء توفى سنة ١١٢٥

٩ ــ أحمد بن يحيى بن عطوة بن زيد التميمى النجدى[2] مولدا ومسكنا

ولد في بلدة العُيَيْنة ــ تصغير عين ــ ونشأ بها ، فقرأ على قضاتها ، ثم رحل إلى دمشق لطلب العلم ، فأقام فيها مدة وقرأ على أجلاء مشايخها منهم العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبدالله العسكري شيخ الشيخ موسى الحجّاوى وتخرج به وانتفع ، وقرأ على غيره كالجمال يوسف بن عبد الهادي العليمي المرداوي وتفقه ومهر في الفقه ، فأجازه مشايخه وأثنوا عليه ، فرجع

---

(١) ساق الشيخ عبد الله البسام ــ نسبه عن خط يده : (حمد بن محمد بن أحمد بن حمد بن محمد المنقور) .

وعد من أشهر مشايخه عبد الله بن ذهلا ن الذى رحل إليه فى الرياض (مقرن) خمس رحلا ت على ما ذكرها فى تاريخه وأنه ولى قضاء بلدته الحوطة حتّى مات .

ومن مؤلفاته : المجموع ــ المعروف باسم مجموع المنقور ــ طبع . ونبذة تاريخية طبعت . ومنسك لطيف على ما ذكر الشيخ ابن بسام .

(٢) وزاد الشيخ عبد الله البسام : (منْ آل رحمة فخذ كبير من النواصر الذين هم من بنى الحارث المسمى الحبط ــ من بنى عمرو من تميم) .

وذكر أنه فى دمشق نزل فى مدرسة الشيخ أبي عمر فى الصالحية وكانت حافلة بالعلماء والكتب النادرة ، وأنه وقف بعض كتبه فيها ولا تزال بقية كتبها فى (دار الكتب الظاهرية) .

وعد من مؤلفاته : التحفة فى الفقه ، والروضة فى الفقه ، ودرر البيان ومنسك فى الحج ، وله فتاوى وتحريرات نقل كثيراً منها المنقور فى مجموعه .

إلى بلده موفور النصيب من العلم والدين والورع ، فصار الرجوع إليه في قُطْرِ نَجْدٍ والمشار إليه في مذهب الإمام أحمد ، وانتفع به خلق كثير من أهل نجد ، تفقهوا عليه ، وألف مؤلفات عديدة منها « الروض » ومنها « التحفة » ومنها « درر الفوائد وعقيان القلائد » وله تحقيقات نفيسة وتدقيقات لطيفة ، وتوفي ليلة الثلاثاء ثالث رمضان المبارك سنة ٩٤٨ ودفن بمقبرة الشهداء من الصحابة في الجبيلة – بضم الجيم – من قرى العيينة من أرض اليمامة ضجيعاً للشهيد الجليل زيد بن الخطاب رضي الله عنه (١) .

وقال الشيخ عثمان بن قائد في إجازته للشيخ محمد الحبتي (؟) بعد ذكر إسناده إليه : عن العارف بالله تعالى ذي الكرامات الظاهرة والآيات الباهرة الذي فتح الله به مقفلات القلوب وكشف به معضلات الكروب (٢) .

---

(١) كان كثير من العامة قد فتنوا بهذا القبر ، يفعلون عنده من المنكرات التي من أعظمها الشرك بالله كدعاء صاحبه ، وكان الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله – إذا رأى مايفعلون يقول : بصوت مسموع : (الله خير من زيد) . ثم لما بدأ رحمه الله بنشر الدعوة وآزره أمير العيينة وتلك الجهات الأمير عثمان بن معمر كان أول مابدأ به هدم مابني فوق القبر من قبة ، وتسويته وماحوله بالأرض . وكانت تلك القبور تقع في الجنوب من قرية الجبيلة . وأذكر أني مررت بتلك الجهة متوجهاً إلى الرياض مع رفقة على إبل ، فنزلنا على مقربة من المقبرة ، فشاهدت السيل قد جرف قسما منها بحيث كان بعض ما في اللحود بارزاً . ولاأستبعد أن يكون أتى عليها كلها ، فقد كانت الجهة الشمالية من الوادي معمورة ، ذات حبوس ، فمندما يقوى سيل الوادي يشتد جرفه للجانب الجنوبي .

(٢) وممن لم يترجمهم ابن حميد في النسخة التي اطلعت عليها من « السحب الوابلة » وقد ترجمهم الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه « علماء نجد » ومنه لخصت تراجمهم :

١ – إبراهيم بن الشيخ محمد بن عبد الله بن الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل ..

ولد في أشيقر وتعلم على علمائها ومنهم والده تلميذ الشيخ سليمان بن علي وولي قضاء القراين فأخذ عنه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الحصين وتوفي سنة ١١٨٥ .

٢ – إبراهيم بن الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل .

ولد في أشيقر وفيها نشأ وتعلم ، وتولى قضاءها ، ونسخ كثيراً من الكتب . وتوفي سنة ١١٠٨ هـ .

٣ – أبو نمي بن عبد الله بن راجح بن أبي نمي . .

ولد في العودة وفيها نشأ ، وتلقى العلم على سليمان بن علي بن مشرف و محمد بن أحمد بن إسماعيل . =

* * * * * * * * * * * * * *

= ورحل إلى مصر ، فأخذ عن علمائها ومنهم مرعى بن يوسف العالم الحنبلي مؤلف « الغاية » و « دليل الطالب » وغيرهما وهو من علماء القرن الحادي عشر .

٤ – أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي حميدان .

ولد في أول القرن العاشر وأخذ عن علماء نجد ومنهم حسن بن علي بن بسام والعلامة أحمد بن زيد بن عطوة .

سافر إلى دمشق وتلقى عن علمائها ومنهم موسى الحجاوي مؤلف « الاقناع » .

وقد أوقف كتاب الفروع والإنصاف والزركشي (؟) على الحنابلة في الصالحية بدمشق ، ثم عاد إلى نجد . وهو من علماء القرن العاشر .

٥ – أحمد بن حسن بن أحمد بن سلطان القصير الوهيبي .

ولد في أشيقر وتلقى العلم على الشيخ سليمان بن علي وعبد الله بن محمد بن ذهلان وغيرهما ، وله تلاميذ كثيرون .

توفي في أشيقر سنة ١١٢٤ .

٦ - أحمد بن عثمان بن عثمان بن محمد بن علي بن عثمان بن عبدالله بن بسام بن منيف بن عساكر - الوهيبي - الملقب بالحصيني. بالحصيني.

ولد في أشيقر وبها نشأ وتعلم على علمائها كالشيخ أحمد بن محمد القصير والفقيه حسن بن عبد الله أبا حسين والشيخ محمد بن عبد الله بن إسماعيل وجد واجتهد حتى صار عالم بلده في زمانه . وتوفي سنة ١١٣٩

٧ – أحمد بن محمد بن رخيخ – بكسر الخاء المعجمة بعدها مثناة تحتية فخاء معجمة أيضا .

ولد في مقرن – وتعلم على مشايخ نجد ، وصار من فقهاء العارض .

وانتقل إلى المدينة ، ودرس في الحرم النبوي ، وهو من أهل القرن الحادي عشر .

٨ – أحمد بن محمد بن عبد الله بن بسام بن عساكر الوهيبي .

ولد في أشيقر ودرس على علمائها كالشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل وتولى قضاء القصب ثم ملهم ثم العيينة ، وله فتاوى فقهية ونبذة في تاريخ نجد . ، توفي سنة ١٠٤٠

٩ – أحمد بن محمد بن مشرف الوهيبي . ، ولد في أشيقر وقرأ على علمائها .

ثم رحل إلى دمشق وأخذ عن الشيخ موسى الحجاوي مصنف « الاقناع » وغيره .

ثم رجع وأخذ عن الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة الناصري ، وتلقى العلم عنه مشاهير علماء نجد كالشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل وسليمان بن علي بن مشرف وغيرهما ، وتوفي سنة ١٠١٢

١٠ – أحمد بن ناصر بن محمد بن عبد القادر بن مشرف .

تولى قضاء الرياض ، وتوفي سنة ١٠٤٩ .

وجاء في ترجمة جده (محمد بن عبد القادر بن راشد بن بريد ابن مشرف)

١١ – أحمد بن محمد بن ناصر بن محمد بن عبد القادر بن راشد بن مشرف (كأنه هو أحمد بن ناصر) . =

١٠ ـ حجى [١]

ـ بكسر الحاء المهملة فجيم مشدودة كالنسبة إلى الحج ـ ابن مَزْيد ـ بفتح المثناة ـ ابن حُمَيْدان ـ بضم الحاء المهملة وفتح الميم وإسكان التحية ـ قال الشيخ محمد بن فيروز : قدم علينا من فارس فقرأ على الوالد كثيراً ثم اشتغل على الفقير ، فكان فقهياً فرضياً ، ولما سكن أهلُ الزّبارة من قطر فيها ، طلبوا منه أن يكون لهم إماماً وخطيباً ومعلماً ، فأذِنْتُ له في ذلك وكان لهم كذلك إلى أن توفاه الله فيها سنة ١١٩٢ .

١١ ـ حسن بن عبد الله النجدى الأشيقرى

ـ بضم الهمزة وفتح الشين المعجمة وكسر القاف ـ نسبة إلى أشيقر تصغير أشقر قرية بالوشم من نجد ، ويعرف بـ (باحسين) [٢] قرأ على مشايخ نجد ، ومن ورد إليها وحج ، وأخذ عن علماء مكة والواردين إليها .

= ولد فى أشيقر فى بيت علم ، تولى قضاء مقرن .

من تلاميذه الشيخ عبد الله بن ذهلان ، توفى فى مقرن سنة ١٠٤٩

١٢ ـ إسماعيل بن رميح العريني ، ولد فى العارض .

ومن مشائخه محمد بن مانع بن شبرمة الوهيبى ؛ وأخذ عنه عبد الله أبا بطين وغيره .

توفى فى حدود سنة ٩٧٠

١٣ ـ بدر بن محمد بن بدر الوهيبى ، ولد فى أشيقر ، وفيها نشأ وتعلم .

ومن مشائخه عبد القادر بن بريد بن مشرف وأحمد بن فيروز وسلطان بن إدريس بن مفاسس توفى سنة ٩٩٨

(١) قال ابن بسام : (الظاهر أنه نجدى الأصل ، وأنه من هذه القبائل النجدية التى سكنت أطراف بلاد إيران مما يلى العراق) ولم يزد على ماذكر هنا .

(٢) أورد الشيخ عبد الله بن بسام نسبه : (حسن بن عبد الله بن حسن بن على بن أحمد أبا حسين الوهيبى وآل أبا حسين بيت علم وهم من آل محمد أحد فخذى الوهبة فهم ذرية محمد بن محمد بن علوى بن وهيب والوهبة من بنى حنظلة من تميم .

وذكر أنه ولد فى أشيقر ـ وأورد خبر حبسه من قبل الشريف سعد بن زيد وقد تقدم فى ترجمة الشيخ القصير ونقل عن ابن بشر الثناء عليه وعن إبراهيم بن صالح بن عيسى أنه توفى فى عشرين رمضان سنة ١١٢٣ ، وأنه خلف عثمان ولعثمان ابنان عبد المحسن وحسن .

واجاز له جمع وكان ماهراً في الفقه والفرائض ، مشاركاً في غيرها ، وكتب كثيراً من الكتب الجليلة بخطه الحسن المتقن المضبوط ، وحصل كتباً كثيرة نفيسة في كل فن على كل كتاب منها بخطه تهميش وتصحيح وإلحاق فوائد ، وتنبيهات ، مما يدل على أنه طالعها جميعها مطالعة تأمل وتفهم ، ودرس في بلده سنين عديدة وصار مرجعاً في الفقه بتلك الجهات توفى سنة . . .[1] في بلده أشيقر .

١٢ — حميدان بن تركى

— بضم أولها — ابن حميدان بن تركي الخالدي نسباً ، قال في «سبائك الذهب» إنهم ينتسبون إلى خالد بن الوليد وقد انقطع نسله ولكنهم من بني مخزوم ويكفيهم ذلك شرفاً . ولد المذكور في عنيزة سنة ١١٣٠ — ظناً — ولزم الشيخ عبدالله بن أحمد بن عُضَيْب فقرأ عليه شيئاً كثيراً ، ومهر في الفقه حتى كان عين تلامذة شيخه ، وحصل كتباً نفيسة أكثرها شراء من تركة شيخه المذكور ، ومن تركة أخيه منصور بن تركي ، فقد كان حسن الخط كتب كتباً جليلة مع ما اشتراه ، ثم تصدى المترجم للتدريس والإفتاء فصادف هيجان سعود وصولته فآذوه وكفروه ، وبغوا له الغوايل ،

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) أصل قول صاحب « سبائك الذهب » ورد فى كتب النسب القديمة فى الكلام على بنى خالد الموجودين بجهات حمص من بلاد الشام ، حيث توفى خالد بن الوليد رضى الله عنه ، لا فى بنى خالد الذين منهم المترجم المنتشرين فى بلاد نجد والأحساء فهاؤلاء لا صلة لهم بمن ذكر صاحب « السبائك » ومن تقدمه . بل هم من قبائل مختلفة أكثرهم من بنى عقيل بن عامر من هوازن ، كما قال الشيخ أحمد بن مشرف الأحسائى :

ولا تنس جمع (الخالدى) فإنهم   قبائل شتى من عقيل بن عامر

وقد انطلى ما جاء فى « سبائك الذهب » حتى على بعض العلماء كالشيخ عبد العزيز الملجى من الملجان من بنى خالد — فانتسب فى إحدى أراجيزه إلى قريش .

وانظر عن قبيلة بنى خالد مجلة « العرب » س ٥ ص ٥٧٨/٥٨٥

وقد أورد الشيخ عبد الله البسام نسبه هكذا (حميدان بن تركى بن حميدان بن تركى على بن مانع بن نغامش .

فهاجر بأهله وعياله إلى المدينة المنورة ، فأحبه أهلها خاصهم وعامهم ، واعتقدوه وعظموه لما هو عليه من الديانة والصيانة والورع والصلاح ،حتى أني رأيت في مكتوب من الشيخ عبد السلام الهوى (؟) إلى حفيده الشيخ عبد الوهاب قال فيه عبد الوهاب (؟) الشيخ الصالح محمد بن شيخ الإسلام الشيخ حميدان ، وقرأ عليه حنابلتها وانتفعوا به وله أجوبة في الفقه عديدة ، ومباحث فيه سديدة ، ووقف كتبه جميعها وهي كثيرة مشتملة على غرائب وسمعت بعض أهل المدينة يحكي عن أسلافه :له كرامات منها أنه لما مرض قال ذات يوم لولده محمد ادع لي الغسالين أوصيهم . فقال: ياوالدي أنت طيب ، ولا عندك بأس إن شاء الله تعالى ، وكان طيباً ليس فيه مرض يمنع من حركة ، فلم يمكن إلا امتثال أمره ، فدعاهم وأتوا عنده فأوصاهم بالستر والتنظيف وكذا وكذا وأمر لهم بتمر فأكلوه ، وقال : الأمر قَرُبَ ، فقال ولده محمد ولم أر فيه شيئاً مما يقرب من الخطر ، فأشرت إلى الغسالين وأخرجتهم ، فرجعت إلى والدي فإذا هو قد استقبل القبلة وتمدد وتشهد ، وخرجت روحه فدعوت الغسالين وجهزناه ودفناه في البقيع سنة ١٢٠٣

وولده محمد المذكور رجل صالح متعبد متورع إلا أنه في الفهم قاصر ، ولكنه أنجب ابنه العجيب الشأن،الباهر في هذا الزمان ، الشيخ عبد الوهاب، فإن فيه من الذكاء والفطنة والفهم والسداد والبحث والحرص ، مايتعجب منه حتى فاق وانفرد في عصره في شبيبته وصار مدرس عُنَيزة ومفتيها ، والمرجع إليه في الفقه فيها ، وضم إلى كتب جدّه غيرها ونفع الله به نفعاً عظيما لما أعطاه الله من حسن التقرير والفهم ، ولما هو عليه من العبادة والصلاح والورع ، ولما غلبه من النور والهيبة .

وجده لأمه عالم عصره الشيخ عبد الله بن أحمد بن إسماعيل من أقران جده وشريكه في القراءة، فأتى محبوك الطريقين ، كريم الجدين ، سافر إلى بغداد لما نجم تركي بن سعود في نجد ، وأراد إعادة دعوتهم فتوفي

فيها سنة ١٢٣٧ ورئيتْ له منامات حسنة مبشرة رحمه الله وهذه أغنت عن ترجمة له مفردة [1] .

١٣ — سليمان بن على بن مشرف [2]

بفتح الشين المشددة ، علامة الديار النجدية ولد في بلد العُيَيْنَة [3] تصغير عيْن — ونشأ بها ، وقرأ على علمائها ولازم منهم أجلهم الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل ، فقرأ عليه التفسير والحديث ، وأصول الدين ، والفقه والفرائض ، وغير ذلك فمهر في ذلك كله ، سيا الفقه ، فإنه كان فيه آية ، وبرع ودرس وأفتى ، وقُصِد بالأسئلة من البلدان ، فكتب عليها

---

(١) وممن لم يترجمهم ابن حميد ، وترجمهم الشيخ عبد الله البسام .

١ — حسن بن على بن عبد الله بن بسام بن منيف بن عساكر الوهيبى ولد فى أشيقر ونشأفيها وتلقى العلم عن علمائها وعن بعض الوافدين عليها كالشيخ معين الدين محمد بن صفى الدين عبد الرحمن الحسينى مؤلف « جامع البيان » فى التفسير .

وكتب كتبا كثيرة بخطه الفائق المضبوط .

توفى سنة ٩٤٥ .

٢ — خميس بن سليمان الوهيبى .

ولد فى أشيقر وتلقى العلم على علمائها وكانت له صلة بالشيخ مرعى بن يوسف .

توفى فى أشيقر فى القرن الحادى عشر .

٣ — زامل بن سلطان بن زامل الخطيب اليزيدى الحنفى .

ولد فى بلدة مقرن ونشأ بها .

ثم رحل إلى الشام وتلقى العلم على الشيخ موسى الحجاوى شيخ المذهب الحنبلى ومؤلف كتاب « الإقناع » .

ثم إلى مصر فأخذ عن ابن النجار الفتوحى وبرع فى الفقه .

وعاد إلى نجد فكان مقصد الطلاب .

توفى فى القرن العاشر .

(١) هو جد الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان وهو سليمان بن على بن محمدبن احمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف — وباقى النسب معروف .

(٢) ذكر الشيخ عبد الله بن بسام أنه ولد فى بلدته وبلدة عشيرته أشيقر وخطأ ماذكر ابن حميد هنا وما ذكر الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف فى تعليقه على « عنوان المجد » أنه ولد فى روضة سدير .

كتابات سديدة ، وتأهل للتصنيف حتى قيل : إنه هم بشرح « المنتهى »[1] فقدم عليه بعض الطلبة بشرح الشيخ منصور عليه فأعرض عما عزم عليه وقال : كفانا الشيخ هذا المهم . ويقال : إنه طالعه بتأمل فقال : وجدته موافقاً لما أردت أن أكتب ما عدا ثلاثة مواضع أو نحوها وصنف « المنسك » المشهور به وعليه اعتماد الحنابلة في المناسك ، ولا أعلم له غيره ، وكان سديد الفتاوي والتحريرات ، له فتاوي لو جمعت لجاءت في مجلد ضخم ، لكنها لاتوجد مجموعة ويا ليتها جمعت فإنها عظيمة النفع ، عزيزة الجمع ، وتتلمذ له خلق كثير تخرجوا به ، وانتفعوا عليه ، من أجلهم الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن أحمد المتقدم بن إسماعيل وقد ينسب كلاهما إلى جده الأعلى فيقال : محمد بن إسماعيل فيشتبه الجد بالحفيد ، وكلاهما أفتى بفتاوي مشهورة مسددة ، لكنها قليلة وهي تدل على مهارتهما في الفقه ، وسعة إطلاعهما وتحقيقهما ، ولكوني لم أقف على حقائق أحوالهما لم أفردهما بترجمة ككثير من علماء نجد وبغداد والشام ومصر وبلد سيدنا الزبير رضي الله عنه ، ومهما وقفت عليه إن شاء الله (؟) لتم فائدته .

توفي المترجم يوم (...)[2] سنة ١٠٧٩ وخلف أولادا فضلاء منهم عبد الوهاب الآتي والد محمد صاحب الدعوة المشهورة ومنهم إبراهيم القاضي وغيرهما[2] .

---

(١) قال ابن بسام : (وقد شرح الإقناع فلما حج سنة ١٠٤٩ وجد الشيخ منصور البهوتي حاجاً فأطلعه على شرحه فتأمله الشيخ سليمان ثم قال : وجدته مطابقا لما عندي إلا في مواضع يسيرة وأتلف شرحه .

(٢) كذا بياض في الأصل ، ونقل الشيخ ابن بسام تاريخ وفاته عن « عنوان المجد » وانها سنة تسع وسبعين وألف ، وعقب ذلك قائلا : ووفاته في بلدة العيينة .

قال الشيخ عبد الله البسام (خلف ثلاثة أبناء علماء الشيخ عبد الوهاب والشيخ ابراهيم ، والشيخ أحمد ، وخلف بنات إحداهن تزوجها الشيخ عبد الله بن فيروز فهي والدة العالم المشهور محمد بن فيروز فيكون الشيخ محمد بن عبد الوهاب حفيد الشيخ سليمان بن علي ، والشيخ محمد بن فيروز سبطه ، كما أن الشيخ سليمان بن علي تزوج ابنة عبد الوهاب بن فيروز جد والد الشيخ محمد بن فيروز المشهور ، وجاءت منه بابنه أحمد بن سليمان الذي صار تلميذ خاله الشيخ عبد الله بن فيروز فصار بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وبين الشيخ محمد بن فيروز آصرة القرابة في النسب وآصرة القرابة بالصهر ، ولكن فرقت بينهما العقيدة التي وفق للسلامة أحدهما دون الآخر نسأل الله الرحمة الواسعة للمحسن والعفو للمسيء) انتهى .

١٤ ـ سيف بن محمد بن عزاز

بفتح المهملة والزاى المشددة وآخره زاى ـ النجدى ، عالم فاضل شهير الذكر ، أخذ عن علماء نجد منهم الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله ، فمهر في الفقه وأخذ عنه جماعة منهم الشيخ محمد بن فيروز ، جد الشيخ محمد المشهور قال في اجازته لكمال الدين الغَزّى :

وعن أبيه ووالدي قد أخذا ومن كل باطل قد نبذا [١]
أى عبيد وهاب الجزيل خاله فأكبه عمن جد فى إجلاله
سيف بن عزّاز التقي الزاهد وذاك جدٌ أب أمٍّ والدي

١٥ ـ سيف بن أحمد العتيقى

بفتح العين المهملة وكسر المثناة التحتية فقاف فياء نسبة .

قال الشيخ محمد بن فيروز فيما كتبه للكمال الغَزّيّ مفتي دمشق بطلبه : إنه فقيه صالح ، حافظ لكتاب الله تعالى لايفتر عن تلاوته ، معرض عن الدنيا ، باذلا لها ، سخيّ النفس وقد جمع ماردًّ به على غيه العارض فبلغ سفر اضخما [٢] توفى سنة ١١٨٩ [٣] وهو ابن ثلاث وثمانين سنة رحمه الله تعالى ، وصلى عليه الفقير ، وتولى تلقينه ، ودفن عند والدي ، رحمه الله تعالى .

---

(١) كذا فى الأصل والبيت غير مستقيم وكذا الذى بعده .

(٢) قال الشيخ عبد الله البسام : (المترجم من اعداء الدعوة السلفية ، وهذا المجموع لا يعرف له وجود إلا بالذكر وعند التصارع فإن البقاء للصالح من الأعمال ، فقد ذهب هو ومجموعه ، وبقى صاحب الدعوة حيا فى ذكره الحسن وخلفه الصالح .

وللمترجم ابنان عالمان صالح ومحمد ولهما ترجمتان فى هذا الكتاب الذى خصص لعلماء الحنابلة النجديين) .

ثم نقل عن ابراهيم بن صالح بن عيسى (وقد انقطع عقبه بعد احفادهم إلا أن عشيرتهم لاتزال فى بلدة حرمة وآخر من علمنا من علمائهم الشيخ محمد بن ابراهيم العتيق المتوفى فى حرمة حرمة فى ١٣١٥-٧-٧) .

(٣) فى الأحساء .

١٦ ـ سيف بن (. . .) [١] العتيقي

لعله من ذرية المذكور قبله أو أقاربه فقد كان قريباً من زمننا وله شهرة بالفضل والخير والصلاح ، وقف كتباً نفائس منها على شيخنا المرحوم الشيخ عبد الجبار جملة ، فيها « الفروع » بخط المنقى [٢] ، وتصحيحه وتهميشه ، وقد تفضل بها على شيخنا في حياته ، كما هي عادته رحمه الله تعالى وقد سمعت الثناء على المترجم من جملة مشايخ منهم شيخنا المذكور ، ومنهم سلفي في إفتاء الحنابلة الشيخ محمد بن يحيي بن فائز بن ظهيرة القرشي المخزومي المتوفي سنة ١٢٧١ وقد ناف على المائة وهو رجل مبارك متعبد ، قليل العلم به ، وكان تولى الإفتاء في شبيبته بعد وفاة والده ، فصار يكتب له الفعاوي الشيخ يوشع الحنبلي من بيت سنبل ، ثم شيخنا الشيخ محمد الهديبي ثم الحقير ، واستمر في وظيفته نحو ثمانين سنة ، ولم أعلم صاحب منصب ديني ولادنيوي مكث هذه المدة ... ان في سدير مدرسة من أوقاف سيف المذكور أو الذي قبله ووقف عليها كتباً جمة ونخلا تصرف غلته للطلبة ولا أدري متى توفي رحمه الله تعالى [٣] .

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) لعله (المنقح) .

(٣) ومن كتاب « علماء نجد » للشيخ ابن بسام ، ممن لم يترجموا هنا – بتلخيص –

١ – سليمان بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن زامل من آل جراح من بنى ثور .

ولد فى عنيزة وتلقى العلم على الشيخ عبد الله بن عضيب .

تولى الإفتاء والقضاء فى عنيزة .

توفى عام (١١١٦) .

٢ – سليمان بن محمد بن شمس العريفى .

ولد فى العارض، وتلقى العلم عن علماء ، منهم الشيخ حسين بن عثمان بن زيد الحنبلي ثم الشافعى . من علماء القرن العاشر .

١٧ ــ صالح بن سيف بن أحمد العتيقي أبو أحمد [١]

قال الشيخ محمد بن فيروز فيما كتب إلى الكمال الغزّي: بعثه معي والده حين مررت بهم قافلا من الحج ، فكان معدوداً كأحد أولادي واشتغل في العلوم حتى بلغ مرامه ، وكان له نصيب وافر من العلوم ، فقهًا ، وفرائض وعربية وغير ذلك من دقائق العلوم وله شعر حسن ، وهو متولي قراءة الحديث في مدرستي ، والمدرس في المدرسة الأخرى مولده ١٩ ب[٢] سنة ١١٦٣ انتهى .

قلت : ولا أدري متى توفي رحمه الله تعالى وإنما رثى شيخه [الذي] توفي سنة ١٢١٦ [٣]

١٨ ــ صالح بن محمد بن عبد الله الصايغ النجدي [٤]

ولد في عنيزة ، ونشأ بها ، وقرأ على علامتها الشيخ عبد الله بن أحمد بن عُضَيب ، ومهر في الفقه ، وأفتى ودرّس ، وأجاب عن مسائل عديدة بأجوبة سديدة ، ورأيت له جواباً على قصيدة العلامة السيد محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني في مدح محمد بن عبد الوهاب رد عليه فيها أوله :

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام فى ترجمته : (ولد فى بلدة حرمة وأخذ عن علماء سدير ومنهم والده الشيخ سيف ثم انتقل إلى بلدة الزبارة عند التاجر أحد بن حسن بن رزق ، وحين انتقل أحد إلى قردلان انتقل معه ثم انتقل إلى الأحساء وأخذ من علمائه واشهرهم محمد بن فيروز ، ثم انتقل معه إلى البصرة قرب استيلاء الجيوش السعودية على الأحساء ، وكان المترجم زميلا فى الدراسة الشيخ محمد بن سلوم وصديقا له وهو أحد الذين قرضوا شرحه الكبير على « البرهانية » فى الفرائض بقصيدة .. وله محاجاة والغاز على المسائل الفقهية تقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب بن فيروز .

(٢) أى رجب .

(٣) ذكر الشيخ ابن بسام أنه توفى فى الزبير ليلة الثلاثاء آخر صفر سنة ١٢٢٣ ودفن فى مقبرة الزبير بن العوام رضى الله عنه .

(٤) ذكر الشيخ عبد الله البسام أنه تولى قضاء عنيزة وأن من مشائخه عبد الله بن ابراهيم بن سيف والد مؤلف « العذب الفائض » . وذكر أنه من معارضى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته السلفية . وأشار إلى رده على الأمير الصنعانى .

سلام من الرحمن أحلى من الشهد   وأطيب عَرْفاً من شذى المسك والورد
إلى معشر الإخوان أهل محبتي   وأهل ودادي نِعْمَ ذلك من ود

إلى آخرها .

وأخبرني من رآه أنه أدركه مكفوف البصر قال : فلا أدري هل هو من صغره أم عرض له في كبره .

توفي في بلدة عنيزة أم قرى القصيم بل جميع نجد سنة ١١٨٤ وهي بلد جامع هذه التراجم ، ونقلت من خط بعض أصحابنا أنه كان قاضياً فيها[١] .

١٩ ـــ عبد الجبار بن على البصرى [٢]

الشيخ الصالح العالم العامل ، والمرشد الكامل ، القانت العابد ، الورع الزاهد ، الناسك الراكع الساجد ، شيخ الطريقة ، وأستاذ الحقيقة ، ولد في جنوبى البصرة فى حدود سنة ١٢٠٥ ونشأ عامياً فقيراً كان هو وأبوه يعملان في بستان للشيخ العالم التقى إبراهيم بن جديد السابق ، فصار المترجم يأتي للشيخ ببعض ثمار البستان ، وقد بلغ أو كاد، فرغبه الشيخ إبراهيم في قراءة القرآن ، وطلب العلم ، وأن يكون عنده ، ويقوم بكفايته ، فأرسل إلى والده بذلك ففرح ، وجلس المترجم عند الشيخ المذكور ، في بلد سيدنا الزبير ، وشرع يقرأ القرآن ، ففتح عليه في أسرع وقت حتى ختم ، وقرأه بالتجويد ، ثم شرع في طلب العلم ، فقرأ على الشيخ المذكور في الفقه والفرائض ، والعربية ، مع حضور دروسه العامة في التفسير والحديث والوعظ ، وعكف على التعلم ليلا ونهاراً لايشتغل بغيره ، ولا يجتمع بأحد إلا في حال الدرس أو المطالعة ، وكان شيخه ملتفتا إليه التفاتاً تاماً مراعياً له في جميع أموره ، حتى كأنه ولده لصلبه ، لافرق، فحصل خيراً كثيراً مع

---

(١) وترجم الشيخ عبد الله البسام : (طلحة بن حسن بن على بن عبد الله بن بسام الوهيبى ، ولد فى أشيقر فى بيت علم ، وولى قضاء بلده ، وتوفى سنة ٩٧٠ هـ)

(٢) كتب فى هامش الترجمة مانصه : (وبلغنا عن عبد الجبار المذكور أنه ولد فى الدواسة (لعله الديوانية) وكان أبوه شيخا رحمه الله ، فانظر كيف قدرة الله تعالى ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى .

الاستقامة والاجتهاد في أنواع العبادة وكرم النفس ، وحسن الخلق ، والإعراض عن الدنيا ، ولازم شيخه إلى أن قربت وفاته ، فأجازه ودعا له ، وأوصى له بشيء من ماله وكتبه ، وأوصاه أنه هو الذي يغسله ، وأنه بعد وفاته يرحل إلى الشام لتكميل طلب العلم .

فلما توفي شيخه سنة ١٢٣٢ . ارتحل إلى الشام وسكن بالمدرسة المرادية سنين مُدماً للاشتغال بالعلم متفرغا له التفرغ التام ، وقرأ على مشايخ دمشق وأجلهم خاتمة المحققين الشيخ مصطفى الرحيباني شارح « الغاية » وابن الشيخ سعدي[1] والشيخ غنام بن محمد وغيرهم ، مع الاستقامة التامة وحسن السلوك ، ودوام المراقبة ، والذكر لله تعالى ، والاقتصار عن الناس إلا لما لابُدّ منه لما أدرك في الفقه والفرائض ، وشارك في غيرهما ، ثم استجاز مشائخه واستمد دعاءهم ، فأجازوه ودعوا له وأثنوا عليه .

وكان رفقته في الطلب يطنبون في مدحه بكل جميل ، ويصفون كرم نفسه بما يجد(؟) فرجع إلى بلده بلد سيدنا الزبير ، فعكف عليه الطلبة لقراءة الفقه ، وصغارهم في النحو والصرف ، وشاهدوا الفتوح والبركة في أنفاسه الطيبة الطاهرة ، لحرصه على التعليم ، وحسن قصده ، وصبره على الطلبة ، وإرشادهم ، ورَفْدهم بما يقدر عليه وتأديبهم بالآداب الشرعية ، وانتفاعهم بحاله قبل مقاله ، ثم طلبه أهل البصرة ليكون خطيباً وواعظاً في جامع عزيرأغا فانتقل إليها ودرس ووعظ ، وسَلَّكَ المريدين وصار مرشد البلدة ، فسلك على يده خلق كثير من أهلها وأحبوه غاية المحبة ، واعتقدوه إلى الغاية ، وهو أهلٌ لذلك ، وصار الغرباء الواردون إلى البصرة على كثرتهم واختلاف أجناسهم يحطون رحالهم لديه ، ويتضيفون عنده مدة إقامتهم قلّت أو كثرتْ ومن أراد السفر منهم زوده من ماله ، وأرسله إلى التجار فجمعوا له شيئاً ، ووصى عليه أهل المراكب أو أمراء القوافل ، وكان الأمراء والتجار يفرحون بأدنى إشارة منه . وأخبرني بعض أصحابي قال : كنا بالبصرة جماعة

---

(١) كذا في الأصل .

من العامة ونكتب بالبيع والشراء قليلا فإذا قرب المغرب ذهبنا إلى مسجد الشيخ المذكور ، وصلينا معه المغرب فتمد السُّفْرة ويأكل الحاضرون ونحن من جملتهم ، مضى لنا على ذلك أشهر ولا نشتري عشاء وغيرنا مثلنا قال : وكان يعظ العامة ويحثهم على صلاة النافلة في كل وقت ، ولكلامه وقع في القلوب ، وكان حسن النغمة بالقرآن شجيَّ الصوت ، يقصده أهل البصرة من أقاصيها للصلاة خلفه واستماع قراءته ، ولم يزل على ذلك مدة مديدة إلى أن أراد أهل الدولة إدخال أوقاف المسجد التي تحت يده في بيت المال ، ويرتب له راتب من بيت المال ، فأبى عن ذلك تورعاً وفارق البصرة سنة ١٢٦٠ وقدم مكة في رجب تلك السنة ، وأقام بها يدرس في الفقه والفرائض إلى أن حج ، ثم توجه إلى المدينة المنورة فأقام بها مدة ، ثم رجع إلى البصرة لبيع عقاره فباعه ، ورجع وحج ، ثم أقام بالمدينة يحج في أكثر السنين مواظباً على الدرس ، ونفع الطلبة ، وتسليك المريدين ، وصار له في المدينة اعتقاد عظيم ، وكان لا يذهب إلى الحكام ، حتى انى كنت أقرأ عليه سنة ١٢٦٣ في المدينة المنورة فجئت يوماً إلى شيخ الحرم النبوي ، الوزير داود باشا والي بغداد سابقاً وكان يشتهي الاجتماع بالشيخ والشيخ يأبى ذلك ، فسألني عنه ، فأخبرته فظهر لي منه محبة اجتماعه به فأتيت إلى الشيخ ، وأخبرته ، وحسنت له أن يذهب إلى الباشا المذكور ، لأنه من أهل العلم والفضل محباً للعلماء ، وعسى أن تستخرج منه كتاباً إلى والى البصرة بتخفيف المظلمة عن بستانكم ، ومراعاة من يلوذ بكم . فأبى أشدَّ الإباء وقال : نحن صابرون على ظلمهم ، ولا نعدم فيه أجراً ، ولا أصل إلى أحد منهم ، بل توَجُّهي إلى الله سبحانه . وكان رحمه الله عزوفا عن الدنيا وأهلها ، لا يرى شيئاً من أمورها ولا يتطلع ، ولا يقبل من الحكام أعطية ولا مرتَّباً ولا يحب أن يذكره أحد عندهم ، ولا عند التجار ، وقد كنت أقرأ عليه سنة (مجيئه) إلى مكة المشرفة فجاء شخص من أهل الخير من الهنود ، ودار على المدرسين ، وسأل عن أسمائهم ، ثم ذهب إلى الهند وتسبَّب لهم بصدقة جليلة ، فلما جاءت بأسمائهم ومن جملتهم الشيخ المترجم وكان في تلك الأيام في المدينة المنورة ، سألني الوكيل عنه ، فأخبرته

فأعطاني نصيبه ، وكنت في تلك الأيام متوجهاً إلى المدينة المنورة فذهبت به معي وحين واجهته أخبرته فلم يعجبه ذلك مني وقال: لم تعرض باسمي؟ فحلفت له بالله العظيم أني لم أعرض بكم وإنما هو من تلقاء أنفسهم وكان جالساً عنده بعض العلماء الغرباء فقال : أعطها الشيخ فأعطيتها إياه ولم يدرِ كم عددها ، ولاالتفت إليها . وهكذا كان احتقاره للدنيا ، مع أنه يحتاج في بعض الأوقات حتى لا يوجد في بيته إلا التمر فيهون أهل بيته ويقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم تمضي عليه الشهران لا يوقد في بيته نار ، وما لهم طعام إلا الأسودان التمر والماء ونحن نجزع إذا مضى لنا يوم واحد ! ! وإذا فتح عليه بشيء بعد ذلك لا يدخره ، بل ينفق منه ويتصدق إلى أن ينفد ، وهكذا حتى أن زوجته لما عرفت عادته هذه صارت تلبس ثيابها وتقف عند باب المسجد بعد صلاة العشاء إلى أن يخرج ، فتسأله كأنها من الفقراء ، فيعطيها وهو لا يعرفها ثم تسبقه إلى طرف السوق ، فتسأله فيعطيها ، وهكذا إلى أن يصل إلى البيت . وتجمع ذلك إلى أن ينفد ما عنده ويقول : كلوا اليوم تمراً . فيقولون : ليس عندنا ولا تمر . فيقول : نصبر وسيأتي الله برزق. فيقولون : عندنا دراهم أمانة لامرأة أذنت لنا في اقتراضها فيقول : هاتوها فيأخذها وينفق منها ، ويتصدق فتقف له امرأته عند باب المسجد على العادة وهكذا .

وأصيب بولده علي ثم بولده الشيخ أحمد وكان قد قرأ وحصل ، وظهرت نجابته فصبر واحتسب .

وبالجملة فكانت أحواله عجيبة وما أظن أنه وجد في هذا الزمان مثله في مجموع خصاله ، وما كان يقطعه عن حضور الجماعة في المسجد إلا المرض الشديد ، وإذا خفّ عنه قليلا تكلف وخرج ، ولقد مرض سنة وفاته في رجب بمرض خطر ، فجاء إليه الطبيب وعالجه ، فسكن الألم قليلا ، قصدت عيادته أنا لا أظنه يخرج أسبوعاً أو أزيد وإذا به قد قابلني في الطريق، راجعاً من صلاة الظهر ، وقلت له: لم تخرجون مع ذلك الأثر الذي معكم وتوصية الطبيب بعدم الحركة ؟ ! فقال : لا أصبر ما دمت أقدر . فقدر الله تعالى أن المرض عاوده في أواخر رمضان وجهدوا به ان

يفطر فأبي وتوفي خامس شوال سنة ١٢٨٥ وصار له مشهد عظيم وعزى فيه بعض رؤساء طيبة الطيبة وصلينا عليه صلاة الغائب في المسجد الحرام يوم الجمعة سابع عشر شوال ورثيته بقصيدة مطلعها :

لقد كسفت شمس الهداية والرشد ... وكوّر بدر الدين والعلم والزهد
وقد فقدت عين التورع فاغتدى ... لما قد دهاه اليوم يلطم للخد
طريقة أهل الله أضحت مصابة ... على فقد مولاها تنوح بلا حد
بموت إمام الدين والحق والهدى ... وزاهد هذا العصر في الجاه والنقد
مطيب هذا الخلق خلقا مكرما ... يفوق عبير المسك والعنبر الهندي
وأجلدهم في طاعة الله منذ نشأ ... تقمص من نسج العبادة في برد
وأوفرهم من خشية الله قسمة ... وأقومهم لله بالشكر والحمد
وأنصحهم للطالبين بعلمه ... وأنفاسه الزهراء والبذل للرفد
وأبعدهم من منصب ووظيفة ... ومن راتب عند الملوك لمستجدي
وما كان في غير العبادة همه ... أو العلم حتى أن حواه ثرى اللحد
وقد هجر الأوطان في الله والملا ... وجاور خير الرسل واسطة العقد
فوالله ما ظني على الأرض مثله ... لكثرة تقواه على صحة القصد
ستبكيه من خير المساجد بقعة ... مصلاه في جنح من الليل مسود
ويبكيه فقه للإمام ابن حنبل ... يقرره بالضبط والصدق والنقد
ويبكيه عند النقشبندي طريقة ... يقوم بها في الناس تهدي ويستهدي
ويبكيه بيت الله والحرم الذي ... به قبلة الإسلام في القرب والبعد
لقد نعمت في حضرة القدس روحه ... وقال لها رضوان : أهلا إلى عندي
. . . تذكرنا به السلف الألى ... سمعنا بهم ما بين هاد إلى مهدي
مضى عابد الجبار بالزهد والتقى ... وبالفضل والأفضال والقبض والمد
فيا ناصر الإسلام فاجبر مصابه ... على فقد من في رزئه أعظم الفقد
بغير انتهاء للبكاء مؤرخ
أقام بدار الفوز في جنة الخلد

١٤١ ٢٠٧ ١٢٤ ٩٠ ٥٨ ٦٦٥

= ١١٨٦ هـ

٢٠ ـ عبدالرحمن بن عبدالله بن سلطان بن خميس العائذي نسباً[١]

الملقب أبا بُطين ، الفقيه الفاضل ، له مجموع في الفقه[٢] توفى سنة ١١٢١ قلت : وهو جد والد شيخنا الشيخ عبد الله أبا بطين الآتي

٢١ ـ عبدالرازق بن محمد بن علي بن سلوم التميمي[٣].

الذكي الأريب ، ولد في بلد سيدنا الزبير سنة (. . .)[٤] وقرأ على مشايخها ، منهم والده ، ثم رحل إلى بغداد ، فقرأ بها الفقه على الشيخ الورع موسى بن سُمَيكة ــ تصغير سمكة ــ وعلى أجلاء بغداد ، في النحو والصرف والمعاني والبيان ، والمنطق والأصول ، وحصل ومهر ، ثم رجع إلى بلده ، وقرأ الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والخطأين والهيئة والهندسة على ولده وغيره ، ومهر في ذلك المهارة التامة ، بحيث اشتهر بذلك في عصره وأقر له أهله فيها ، وكان يتوقد ذكاء قلّ علم إلا وله فيه يد حتى الأوفاق والزايرجة والروحانيات ، ولكنه مائل إلى معاشرة الأمراء والأحداث ، وله معهم مماجنات لا تليق ، ولو تصون لكان نادرة عصره لما حازه من الفنون المتداولة وغيرها ، وقد سمعت رفقاءه في الطلب من فضلاء بغداد ومنهم مفتيها العلامة البارع السيد محمد الألوسي يصفونه بشدة الذكاء البالغ ، وكرم النفس ، وحسن العشرة .

وحج سنة من طريق البر فوصل إلى مكة في شوال ، وحضر دروس

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام : (ولد في بلدة الروضة وقرأ على علماء سدير وغيرهم وهو من ادرك الشيخ محمد بن اسماعيل الأشيقري والشيخ عبد الله بن ذهلان وغيرهما) .

(٢) وقال : (وألف كتابه المشهور المسمى « المجموع فيما هو كثير الوقوع » وقد اختصره من « الاقناع » للشيخ الحجاوي وزاد عليه أشياء هامة وفرغ من تأليفه سنة ١١١٣ .

وذكر أنه توفي في الروضة عام ١١٢١ هـ .

(٣) زاد الشيخ عبد الله البسام بعد سلوم : (بن عيسى بن سليمان بن محمد بن خميس بن سليمان الوهيبي التميمي) .

(٤) بياض في الأصل .

علامتها الشيخ عبدالله سراج في التفسير والحديث ، فأورد عليه أول ماحضر سؤالا فلم يستحضر الشيخ الجواب ، فأخذ الكراس من المحفظة وطالع فيه وأجابه ، وكان قد سمع بوصوله ووصف له بقصر القامة ، والتوسط في الملبوس ، فلما رأى سؤاله َمتيناً تفرس فيه أنه هو فقال : أنت فلان؟ فقال : نعم : فلما ختم الشيخ الدرس قام إليه وحيَّاه ، وذهب به إلى بيته ، وأضافه ذلك اليوم ، فجرت بينهما مباحثات دلت الشيخ على صدق ما وُصِف به من شدة الذكاء والاستحضار ، وعزّ في عينه وأعين أقرانه ، ومن الغد جاء تلامذة الشيخ إلى المذكور في بيته للسلام عليه ، وسألوه واستفادوا منه ، وعجزوا عن مجاراته في المباحثة . فسلموا له ثم قال لهم : إن الشيخ ترك البارحة في تقريره في التقييد وجهاً من علم الهندسة مما في الآية وهي قوله تعالى : (انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب) فقالوا وما هو ؟ قال : إن الشاخص ذا الثلاث شعب لا ظل له . فقالوا : لم يذكر هذا أحد من المفسرين . فقال : بلى ذكره الجلال السيوطي في « الاتقان » فذهب التلامذة إلى الشيخ عبدالله وأخبروه بما دار بينهم وبين المذكور ، فتناول « الإتقان » وتصفحه فلم يجد هذا فيه ، فقال لأحدهم : ارجع إليه وقل له : في أي موضع من « الإتقان » ؟ فذهب فقال له : في (النوع الخامس والستين) . هكذا أخبرني بهذه الحكاية أحد التلامذة وهو الشيخ علي كمال الطائفي وبالجملة فقد كان المذكور من أشد أهل زمانه ذكاء وفطنة ، لو لم يُخلد إلى البطالة .

وشرح «سلم العروج في المنازل والبروج» لشيخ شيخ شيخه الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق الأحسائي سماه « مرقاة السلم » وكان ينظم الشعر ، وسوّدَ مسودات شتى لم يبيض منها غير شرح السلم المذكور ، وحاز كتباً نفيسة كثيرة من جميع الفنون ، بحيث كان يشتري بعض التركات جملة ،

وتولى قضاء سوق الشيوخ وخطابتها بعد أخيه المرحوم الشيخ عبداللطيف ، فصار له جاه تام عند الحكام وكلمة نافذة ، وانفرد في تلك الجبهة بالحل والعقد إلى أن توفى فيها سنة ١٢٥٤ [١] .

٢٢ – عبد العزيز عبد الرحمن بن عدوان بن رزين الرزيني الحنظلي [٢]

قال الشيخ محمد بن فيروز : هو من أهل أثيفية ويقال أثيثية بالثاء المثلثة قرية من قرى الوشم – قدم علينا في حياة والدي ، واسمه عدوان ، فحوله إلى عبد العزيز فكان هو اسمه وقرأ على الوالد في « مختصر المقنع » من أوله إلى كتاب الصلاة وحين رأيت توقد قريحته وجودة فهمه أشرت إلى والدي أن ينقله إلى « المنتهى » فنقله ، وقرأ منه باب الشروط في البيع ، ثم توفى الله الوالد فكمله على الفقير ، وقرأ النحو والصرف وعلوم البلاغة والعروض والقوافي والفرائض والحساب ، وأصول الفقه ، ومصطلح الحديث والمنطق ،

---

(١) نقل الشيخ عبد الله البسام عن الأستاذ عباس العزاوى فى كتابه « تاريخ علم الفلك : (كان المترجم شريكا فى الدرس مع الأستاذ محمود الألوسى عند الشيخ علاء الدين الموصلى ، وتولى منصب القضاء فى سوق الشيوخ ، وأخبرنى الأستاذ الحاج محمد الساقى أنه كان يخبر عن المطر قبل وقوعه بثمانى عشرة ساعة ، وعن تبدل الرياح قبل أربع وعشرين ساعة ولا يخطىء) .

وذكر من مؤلفاته :

١ – رسالة فى علم الميقات .

٢ – رسالة فى الجبر والمقابلة .

٣ – رسالة فى الخطأين عند محمد الساقى فى بغداد .

٤ – الطراز المعلم فى إيضاح السلم – شرح كتاب « سلم العروج إلى علم المنازل والبروج » للشيخ محمد بن عفالق .

٥ – الطريق الأقوم إلى صعود السلم . شرح مختصر لكتاب ابن عفالق – يوجد عند محمد الساقى فى بغداد .

على الفقير ، وبرع في ذلك كله وله تآليف ، منها رسالة في الوقف[1] رد بها على مبتدع العارض وله نظم في التوحيد على نهج السلف وأوله .

يرب البرايا أستعين وأبتدي

وله شعر حسن منه قصيدة رثى بها الوالد مطلعها .

دع ذكر ميَّة مع جارتها العُرُب   كفنا البكاء على حيٍّ من العرب

وسافر صحبتي إلى مكة المشرفة ، ثم إلى المدينة المنورة ، وبعد ما خرجنا منها ابتدأ به المرض فتوفي في الطريق ، عند واد يقال له العُظَيْم[2] في ٢٥ صفر سنة ١١٧٩ وصلى عليه الفقير ، ولقنته ، رحمه الله تعالى انتهى .

٢٣ ــ عبد اللطيف بن محمد بن سلوم التميمي

ولد في بلد سيدنا الزبير ، على رأس القرن[3] ظناً ، فنشأ بها فقرأ القرآن والعلم وحفظ مختصرات ، ودأب في الطلب ، وأكثر اشتغاله في الفقه حتى مهر فيه ، وقرأ على والده في الفقه والفرائض ، وعلى شيخ ذلك العصر الشيخ إبراهيم بن جديد وغيرهما ثم تحول مع والده إلى سوق الشيوخ ، وهي على شاطيء الفرات ، وحكامها مع تلك الجهات بنو المنتفق المشهورون فطلبوا من والده أن يعينهم على المذكور يتولى قضاءها وخطابتها ، وامتنعا ، ولم يزالوا بهما حتى حلف شيخ المنتفق : إن لم يتول عبداللطيف لأولّين فلاناً ، لرجل غير صالح للقضاء ولا للإمامة فرأى أن الأمر متعين عليه لئلا تضيع الأحكام بتولية أهل الجهل والظلم ، فرضي وباشره بعفة وديانة وصيانة وتثبت ، وتأن في الأحكام ، ومراجعة والده فيما أشكل عليه ،

---

(١) نقل الشيخ عبد الله بن بسام ما ذكر المصنف هنا سوى قوله : امنها رسالة فى الوقف إلخ فلعل هذا لم يثبت لدى الشيخ عبد الله ، لأنه لم يشر فى ترجمته إلى ذلك، والله يتغمد الجميع بعفوه ورضوانه .

وما كان الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب مبتدعا ، بل هو سيف مسلول على المبتدعة ، وأساس الدعوة التي قام بها يقوم على محاربة البدع ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

(٢) بضم العين وفتح الظاء تصغير عظم وهو واد يقع شمال القصيم شرق بلدة سميراء وفيه قرية تعرف بهذا الاسم ، وطريق الحج العراق كان يمر بقربه

(٣) أي الثالث عشر .

وباشر الإمامة والخطابة ، والتدريس والوعظ ، على الوجه الأحسن ، وكان محبباً إلى الناس الخاص والعام ، مقرباً عند الحكام ، لا تُردُّ له شفاعة ، ولا يلثم له جاه ، لحسن أخلاقه ، وورعه وعفافه وعبادته ، وجريه على نهج السلف الصالح في اتباع السنن النبوية ، وحج مراراً آخرها سنة ١٢٤٦ ووقع في مكة ذلك الوباء العظيم وخرج من مكة على طريق الشرق ، والوباء مع الحجاج لم يكف عنهم ، فلما وصلوا إلى البرود خارج مكة جمعهم الشيخ وصلى بهم ركعتين ، ووعظهم وبكى وأبكى ، ودعا الله برفعه فرفعه الله من ساعته ، ثم وصل إلى بلده سالماً فوقع فيها الوباء ومات شهيداً بالطاعون سنة ١٢٤٧ ودفن خارج سوق الشيوخ[١] عند والده .

٢٤ ــ عبد الله بن أحمد بن محمد بن عضيب الناصرى التميمى نسبا النجدى مولدا وموطنا

ولد سنة ...[٢] في قرية ...[٣] من قرى وادي سدير من بلدان نجد ونشأ بها وقرأ على علامة نجد ، والمشار إليه في ذلك الوقت أحمد بن محمد القُصَيِّر ، وعلى غيره فمهر في الفقه والفرائض مهارة كلية وشارك في بقية الفنون ، لعدم من يحققها في تلك الجهات ، فصار يتتبع الغُرباء من سائر الأجناس ، ويقرأ على من وجد أي فنّ عنده حتى يستفيد منه حتى أني رأيته كتب « شرح التهذيب » في المنطق ، وكتب عليه هوامش تدل على أنه قرأ فيه ولكن كان جل اهتمامه وقراءته وإقرائه للفقه ، لقلة رغبة أهل تلك البلاد في غيره ، ثم ارتحل إلى قرية من قرى القصيم تسمى المذْنَب ــ بوزن منبر ــ فبنى فيها مسجداً ، وحفر فيها بئراً أوقفها فصادف أن ماءها أعذب ماء في بلده ببركة نيّته ، فصارت مورد أهل البلد للشرب إلى الآن[٣] ، وكان يحفرها بنفسه ، لقلة ذات يده ويشارط الصبيان يرفعون

---

(١) سوق الشيوخ بلدة فى العراق .

(٢) كذا بياض فى الموضعين وفى كتاب « علماء نجد خلال ستة قرون » : (ولد فى حدود عام ١٠٧٠ فى إحدى بلدتى الروضة أو الداخلة من بلدان سدير) .

(٣) قال الشيخ عبد الله البسام : (وتسمى القفيفة الآن) .

التراب ، كل زنبيل بتمرة فكان يضع التمر عنده في أسفل البر ، وكلما ملأ زنبيلا تراباً وضع عليه تمرة ، فجذبه الصبيان وأخذوا التمرة وهكذا فاتفق أن التمرة سقطت من الزنبيل ولم يدر ، فحين رأى الصبيان لا تمرة فيه كبوه عليه في البئر ، والحاصل أنه قاسى فقراً وشدة إلى هذا الحـــد ولم يمنعه ذلك عن التعلم والتعليم والنسخ ، وفعل الخير . ثم إن أمير عُنيزة وكبار أهلها رغبوا في استجلابه إلى بلادهم ، فركبوا إليه وأتوا به ، فأوقف بعض الناس الراغبين في الخير بيته ليدرس فيه الشيخ فنشر العلم فى عنيزة وحثّ الناس على التعلم ورغبهم فيه وأعان الطلبة بماله ويكتبه ، وبما يقدر عليه من ورق ، وصار يشير على كل منهم بكتابة كتاب في الفقه غالباً ويبتدئه له ، ويساعده عليه وكما رأيت جملة من الكتب كذلك ، واشتغل عليه خلق من عنيزة منهم الشيخ صالح بن عبدالله الصائغ ، ومنهم الشيخ عبدالله بن أحمد بن إسماعيل ، والشيخ حُميدان بن تركى ، وأخوه الشيخ منصور ، والشيخ محمد بن ابراهيم أبا الخيل ، والشيخ سليمان بن عبدالله بن زامل قاضى عنيزة وخطيبها ، والشيخ محمد بن على بن زامل المسمى أبو شامة ، وخلق سواهم وانتفعوا به ، وراج للفقه سوق نافقة ، وكثرت كتبه ، وتواجد منها غريبها ، ونفع الله به نفعاً ظاهراً كما اتفق عقيب وصوله إلى عنيزة [1] أن حدثت فتنة بين الأمير وبين بعض عشيرته فغضب الشيخ من ذلك ، وأراد الخروج منها ، وقال للأمير : أجئت بي للفتن ؟! فترضاه الأمير وأكابر بلده بكل ما يمكن،وقالوا :كنا أمواتاً فأحيانا الله بك ، ونحن محتاجون لعلمك وتعليمك فكيف تفارقنا ؟ ! فرأى أن الأمر متعين عليه ، فانتقل إلى قرية متصلة بها ، تسمى الضَّبَط — بالتحريك — فبنى له فيها مسجداً وداراً ، وأعانه عليها أهل القرية واشترى بها أرضاً ، وصار يتعيش من زراعتها ، مواظباً على التدريس من بكرة النهار إلى ضحوه وبعد الظهر إلى قرب العصر ، وبعد العصر وبين العشاءين يقرأ غالباً

---

(١) ذكر الشيخ عبد الله البسام أنه ولى قضاء عنيزة عام ١١١٠ واستمر فيه حتى حصلت فتنة بين الأمير وبين بعض عشيرته .. الخ .

إما « تفسير البغوي » أو « ابن كثير » أو حديثاً أو وعظاً ، وبعد العشاء في ليالي الشتاء يقرأ درس الفرائض أو السيرة النبوية . وأخبرني بعض الطلبة الذين أدركتهم عن بعض تلامذته قال : كنت إذا خرجت من بيتي للدرس أشرع في قراءة بعض محفوظاتي فكنت أقرأ الرحبية والجزرية في طريقي إلى أن أصل إلى قرية الشيخ ،وكان ذا همّة في العلم علية وقوة عليه قوية يزداد رغبة في العلم كلما طعن في السن ، ولا يضحر من كثرة الدروس والمباحثة ، والمذاكرة والمراجعة ، كثير الإدمان على النسخ ، فكتب بخطه المتوسط في الحسن ، الفائق في الضبط ، مالا يحصى كثرة من كتب التفسير والحديث وكتب الفقه الكبار وغيرها ، بحيث أني لم أر ولم أسمع منذ أعصار عمن يضاهيه أو يقاربه في كثرة ما كتب فمما رأيته بخطه بعد تفوق كتبه وتشتتها فى البلدان القريبة والبعيدة « تفسير البغوى » والإتقان « والقاموس » وقواعد ابن رجب « والغاية »وشرح الاقناع و « متنه » « وشرح المنتهى » للشيخ منصور ومتنه عدة نسخ « وحاشية الاقناع » وحاشية المنتهى « وغير ذلك سوى المراسيل والمجاميع ، والتآليف الصغار ، هذا الذي رأيته وهو قليل من كثير ، وأول ما رأيته بخطه سنة ١٠٩٣ ولعل له شيئاً قبله ، فأظن ولادته في حدود ١٠٧٥ وتوفى سنة ١١٦١[1] في القرية المذكورة وقبره يزار إلى الآن فى مقبرتها لشهرته هنالك ، وبركته وآثاره وعلومه وكان قد أوصى اثنين من أخصاء تلامذته بأبيات منها في حفظي قوله :

أقيما بقبرى إذا ما دفنتمـــا ورشيتما بالما ترابا مسنما
ونادا على رأسي بتلقين حجتى ولا تنسيا ذكرى إذا ما ختمتما[2]

---

(١) زاد الشيخ ابن البسام : (فى شعبان) .

(٢) فى كتاب « علماء نجد » : (إذا مادعوتما) .

وعنــد فراق الروح للجسم لقـنا شهادة أن لا ، لا تلحنا فأسأما
وفي الليلة الغرا اقرآ لي فإنني أفاخر جيراني بما قد قرأتما
وأوصيكما بالقبر خوف انطماسه ويا للحد عن ضيق وان يتهدما

إلى آخرها وتفرقت كتبه شذر مذر على كثرتها وضبطها ، فإنه كان شديد الحرص على الكتب ، كثير الشراء والنسخ لها ، والإرسال في طلبها من البلدان ، وإن كان الطريق مخوفاً أرسل فارساً من فرسان الأمير ، يأتي بها له فينسخ الكتاب ويرسله إلى صاحبه ، هكذا همته ورغبته لا يصرفه عن ذلك صارف ، ويبذل فيها الأثمان الجليلة ، مع فقره ، وصار المسافرون من أهل البلد إلى الشام وبغداد وغيرهما يتقصدون شراء الكتب له ، ويهدونها إليه ، فلا يكون عنده تحفة أعظم منها ، ، حتى جمع من الكتب الجليلة العزيزة شيئاً عظيماً ، وكان له كتابات على كل كتبه ، وأجاب على مسائل عديدة بأجوبة سديدة ، وألف رسالة فى تحريم الدخان ، ووقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ سليمان بن على منازعة في حديث « البركة في ثلاث خلط البر بالشعير » فقال أحدهما : للبيت لا للبيع وقال آخر : بل للبيت وللبيع وطال بينهما النزاع ، وزاد الشيخ عبد الوهاب على المترجم في الكلام ، فأرسلا سؤلا إلى مفتي الحنابلة بدمشق وعلامتهم الشيخ محمد أبي المواهب وارتضيا ما يقول ، فأجاب بتصويب الشيخ المترجم له ، فعند ذلك أنشأ أبياتاً يذكر فيها ما سبق للشيخ عبد الوهاب من الحدة في الكلام ، لا تحضرني الآن قلت : ويؤيد قول القائل بالتقييد حديث قبيصة عند ابن ماجة وإن كان اسناده ضعيفاً كما في « بلوغ المرام » فإن فيه التقييد بكونه للبيع .

---

(١) ذكر الشيخ عبد الله البسام من آثاره .
١ — رسالة فى تحريم الدخان سماها « الأفعى » .
٢ — اختصر « القاموس » فى اللغة .

٢٥ ــ عبد الله بن داود الزبيري [١]

ولد في بلد سيدنا الزبير بقرب البصرة ، وبها نشأ فقرأ القرآن والعلم ، ثم ارتحل للاحساء للأخذ عن علامتها الشيخ محمد بن فيروز فلازمه وأخذ عنه وعن ولده الشيخ عبد الوهاب وغيرهما ، فهر في الفقه والأصول والفرائض والعربية ، ثم رجع إلى بلده ، فدرس فيها فأفتى وصنف تصانيف منها « الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود » في مجلد حافل ، أجاد فيه ومناسك الحج ، مجلد لطيف ، ورسالة ، في الربا والصرف ، وغير ذلك توفي سنة ١٢٢٥ في بلد الزبير . انتهى .

٢٦ ـ عبدالله بن عبدالرحمن الملقب كأسلافه أبابطين

ــ بضم الباء بصيغة التصغير [٢] ــ فقيه الديار النجدية في القرن الثالث عشر بلا منازع ، ولوالده أوجده مجموع في الفقه .

شيخنا العلامة الفهامة ، ولد في الروضة من قرى سُدَير سنة ١١٩٤ وبها نشأ ، وقرأ على عالمها الشيخ محمد بن طراد الدَّوسَري ، وكان قد ارتحل إلى الشام فقرأ فيه ، وأظنه على السَّفاريني وطبقته ، فلازمه شيخنا المترجم ملازمة تامة ، مع ما جعل الله فيه من الفهم والذكاء وبُطْء النسيان ، فهر في الفقه ، وفاق أهل عصره في إبَّان شبيبته ، ثم ارتحل إلى شقراء من بلدان الوشم ، وقرأ على قاضيها الشيخ عبد العزيز الحُصَيِّن ــ بالضم تصغير حصان ــ وهو أعلم منه بكثير ، فصار القاضي يحيل عليه

---

(١) علق الشيخ عبد الله البسام على هذا : (إلا أن الله تعالى أبى هذه الدعوة الطيبة في نمو وتقدم ، وتوسع في المشارق والمغارب ، وذهبت رعوده وبروقه خلبا ، فالحمد لله على المعتقد الحسن) .

(٢) نسبه الشيخ عبد الله البسام فقال : (عبد الله بن الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن حلطان بن خيس الملقب كأسلافه) أبابطين (وعشيرته) آل أبا بطين (من آل مغيرة) وليسوا المتفرعين من قبيلة بني لام ، بل هم من (عائذ) التي هي بطن كبير من عهدة إحدى قبائل قحطان)

ن صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ین صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

ما كانت أكبر حروفاً من القراءات السبع ، حسن الخط مضبوطه كتب كتباً كثيرة ، واختصر « بدائع الفوائد »[1] في نحو نصفه ، وتوفى رحمه الله تعالى في ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ وبموته فقد التحقيق في مذهب الإمام أحمد فقد كان فيه آية وإلى تحقيقه النهاية فقد وصل فيها إلى الغاية .

٢٧ – عبد الله بن عثمان بن جامع الزبيري ثم البصري [2]

ترجمة الشرواني في كتابه « نزهة الأفراح » فقال : جليل القدر والمحل ، سارت بدائعه في سائر الأقطار مسير المثل ، فضله الجلي اللامع أنور من البدر الساطع ، لسانه ينبوع البلاغة ، وبنانه يقطف من خمائله نور البراعة نظمه الغزير الفائق أرق من فؤاد العاشق ، ونثره الباهر للنهى ، افتر من نواظر المها .

أوصافنا لم تزده معرفة — وإنما لذّة ذكرناها

شرفت بلقياه عام ألف ومائتين وخمس وعشرين في بندر (كلكتا) المحروس ، بعد أن فاز بالنجاح في فوادح أليم العبوس فاطلعني على قصيدة كلامه الحر ، عبر فيها عما نابه من الدهر الخؤون وشوائب الضر وهي :

---

(١) ذكر الشيخ عبد الله بسام من مؤلفاته :

١ – « مختصر بدائع الفوائد بخط المؤلف فى مكتبة آل مانع فى عنيزة .

٢ – حاشية نفيسة على شرح المنتهى جردها من نسخته تلميذه وسبطه الشيخ عبد الرحمن المانع .

٣ – تأسيس التقديس فى الرد على ابن جرجيس مطبوع .

٤ – الانتصار – فى الرد على ابن جرجيس أيضا .

٥ – مختصر اغاثة اللهفان – لم يذكره الشيخ ابن بسام وهو مطبوع .

٦ – فتاوى وتحريرات تبلغ مجلداً لو جمعت .

٧ – رسالة فى التجويد .

(٢) نسبه الشيخ عبد الله البسام فقال : (عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن جمعة بن جامع بن عبيد بن عبد ربه الأنصارى الخزرجي نسبا ، قدم جدهم جامع من المدينة وسكن بلدة القصب ثم انتقل منها وسكن بلدة جلاجل فولد ابنه جمعة فى جلاجل ، ثم ارتحل إلى الشام لطلب العلم فعاد عالما .

هو الرزق لا يأتي بجدّ لطالب ولا باحتيال أو بطول التجارب
ولـكن بالمقسوم يأتي ومن غدى بتدبيره مغرى فأول خائب
ترى المرء يسعى والبوار بسعيه منوط ، ويأتيه القضا بالعجائب
ويبدو له الرأى الذي في بدوّه صلاح ، وفي عقباه شر المصائب
تيممت أرض الهند أبغي تجارة وأرتاد إنجاح الأماني الخوالب
وخلفت أصحاباً وأهلا ببلدة سقاها من الوسمى صوب السواكب
هي البصرة الفيحاء لا زال ربعها خصيباً وأهلوها بأعلا المراتب
فلما علوت اليم في الفلك وارتمت تسير بنا في لجـة كالغياهب
أحاطت بنا الأمواج من كل وجهة وكشرن عن أنياب أسود سالب
وأقبل ريح صرْصَرٌ ثم قاصف ترى البرق في أرجائه كالقواضب
ومزن ثخان كالجداول ماؤها ورعد مهيب ضارب أى ضارب
فلما رأينا ما رأينا تطايرت قلوب لنا نحو المليك المراقب
نعج إلى المولى بإنجا نفوسنا ونسأله كشف الملم المواثب
فلم يك إلا كالفواق إذا بنا ومركبنـا مثل النجوم الغوارب
فأمسكت لوحاً طافياً فركبته وصحبي صرعى بين طاف وراسب
أقت ثلاثا مع ثلاث بلجة تسير بى الأمواج فى كل جانب
فأنجانى الرحمن من كل شدة تجرعتها والله مولى الرغائب
فأنشدت بيتا قاله بعض من مضى أصيب كثلي والأسى خير صاحب
(نجوت وقد بلّ المرادي سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طالب)
فلله حمداً دائماً ما ترنحت ثغور الأقاحي عنـد لقيا الحبائب

وكتب إليّ هذه الأبيات طالباً ما فيها فعين الله على موشيها :

أنعم صباحا وقيت الشرّ قاطبة وفزت في كل ما ترجوه من رشد
فاضلا قد سما شأو المكارم من علم وحلم وآداب وفيض يد
أبعث لنا كرَماً « شرح الرضيّ » كذا الشرح المطول ياخلّ وياسندى
وامنن بتلخيصك الحاوى لمطلبنا يجلو صدى القلب من هم ومن كمد

فأنت عين لأعيان بها طلعت شمس الهدى وأضاء النور في البلد
لازلت في الرتبة العلياء ما نطقت بالحمد لسن الورى للواحدالصمد

أقول : وهو ممن أخذ عن العلامة الشيخ محمد بن فيروز ، هو ووالده الشيخ عثمان الآتي قاضي البحرين وشارح « أخضر المختصرات » .

٢٨ ــ عبد الله بن عيسى المشهور بالمويس

بضم الميم وإسكان التحتية تصغير (موس) ولد في بلد حُريملا ــ صوابه[١] حَرْمَة على وزن تمرة بضم الحاء المهملة من قرى وادي سُدير ــ وقرأ على مشايخ نجد ، ثم ارتحل إلى الشام فقرأ على علمائها وأظن أنه أخذ عن خاتمة المحققين السّفاريني ، ومهر في الفقه ، ثم رجع إلى بلده ، فمكث يدرس ويفتّي إلى أن توفى سنة ١١٧٥ .

وكان ممن أنكر على ابن عبد الوهاب ورد عليه وعلى أتباعه في ابتداء دعوتهم ، وكانوا يقنتون في صلاتهم على من لم يتبعهم[٢] فبين لهم أن هذا مبطل

---

(١) حاشية أدخلت فى الأصل ، وهى الصواب فالمويس من حرمة من قرى سدير .

جاء فى كتاب « علماء نجد » : (الوهيبى التميمى نسبا الحريملى (؟) النجدى ولد فى بلدة حرمة احدى بلدان سدير .

(٢) علق الشيخ عبد الله البسام على هذا : (والشيخ محمد ــ رحمه الله ــ وأتباعه براء من أنهم يقنتون فى الصلاة أو غيرها على من يرون أنه أتى من الأعمال ما يعتبر خروجا من الملة المحمدية ، بعد أن يوضحوا له ، ويدعوه بالتى هى أحسن فإن قبل فهو أخوهم ، وإن أبى وأصر بعد إبلاغه والإعذار إليه فإنهم يستعينون بالله تعالى عليه بالدعاء وبالجهاد المشروع .

ولذا فإن الشيخ محمدا قابل المثل بالمثل مع المويس ، فإنه أخذ يحذر الناس عنه ويبين لهم أعماله ، وأن كل فائدته التى حصلها من ذهابه إلى الشام هو إتيانه بحمل كتب منها بطريق غير مشروعة ، وقد أيد كلام الشيخ محمد ما قاله العلامة الشيخ محمد بدران فى كتابه « منادمة الأطلال » حينما ذكر مقر الحنابلة بصالحية دمشق مدرسة ابن أبى عمر فقال : (وقد كان بها خزانة كتب لا نظير لها فلعبت بها أيدى المختلسين إلى أن أتى بعض الطلبة النجديين فسرق منها خمسة أحمال من الكتب وفر بها) انتهى كلام بدران .

أما الصلاة فقد اطلعت على رسالة جليلة لأحد تلاميذ الشيخ محمد وهو الشيخ أحمد بن جامع ، يذكر أن المترجم المويس يثبط عن الصلاة جماعة ، ويخفف من شأنها . وقد رد عليه الشيخ أحمد المانع رداً جميلا وقد أوضحنا جملة منه فى ترجمته) انتهى .

وذكر الشيخ عبد الله أن المويس لما عاد من الشام صادف قيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لنشر دعوته فهاجمه المترجم وحاول الوقوف فى وجه الدعوة السلفية ، وأخذ يرد على الشيخ محمد ــ رحمه الله ــ وأتباعه ، وصار من أكبر المعادين له . انتهى .

للصلاة لأنهم مسلمون ، واعتقادكم كفرهم المسوغ للقنوت غير ثابت فلم يصغوا لقوله كما هي عادتهم .

٢٩ - عبدالله بن فايز بن منصور الوائلي

يلقب كعشيرته أبا الخيل ، من بني وائل المشهورين الآن [١] بعنيزة ، ولد في بلد الخبراء من قرى القصيم ، في حدود المائتين والألف ، وكان أبوه أميرها ، ثم تحول مع أبيه إلى عنيزة فقرأ فيها القرآن ، ثم انبعثت همته لطلب العلم ، بعد بلوغه ثلاثين سنة ، فلم يجد من يشفي أوامه ، فجاور في مكة سنتين يتعيش من النساخة ، وقليل من بيع وشراء على غاية التحري ، وتصحيح العقود وكان تعلم الخط في كبره ، ولا زال خطه يحسن إلى أن فاق وطرز الأوراق ، فكتب شيئاً كثيراً لنفسه وللناس ، وقرأ في مدة مجاورته الفقه ، على شيخنا الشيخ محمد الهديبي ، وعلى الشيخ عيسى بن محمد الزبيريين ، واجتهد في البحث والمراجعة ، وكان عمي من رفقائه ، ولكن شتان مابينهما فأخبر عنه أنه كان يقول: شيخنا الشيخ محمد الهديبي كما في الحديث: « فليحد شفرته وليرح ذبيحته » وشيخنا الشيخ عيسى كجمالة حرب ، أعطوها وقيفة يعني أن الشيخ محمد سريع التقرير والشيخ عيسى متآنٍ ، وبعد أن يقرأ المقرئ هنيهة فقال لي بعض الطلبة ممازحاً: أتدرى لم يسكت ؟ فقلت لا قال : يشاور الشيخ منصور أيش يقرر . وقرأ المترجم على غيرهما نحواً وصرفاً وفرائض ، فمن مشايخه في ذلك الورع التقي الزاهد الشيخ محمد المرزوقي مفتي المالكية ، وكتب له إجازة وغيره ، ثم رجع إلى بلده عنيزة بعلم جم

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام : (الشيخ عبد الله بن فايز بن منصور بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم أبا الخيل ، من آل نجيد ، ثم من المصاليخ أحد بطون عنزة الكبيرة الشهيرة – الوائل ، فآل أبي الخيل نسبة إلى جدهم محمد بن حمد بن نجيد الذى كان مزارعا فى قرية النبهانية ففر منها على خيل أعدائه ودخل عنيزة راكبا واحدة من الخيل والباقى فى أثره فسمي أبا الخيل ، وبقى اللقب فى ذريته إلى اليوم . وآل نجيد فخذ كبير يشمل أسراً كثيرة منهم آل القرعاوى وآل نجيد من المصاليخ - ومن عنزة نزح بعضهم إلى بريدة فصار منهم آل مهنا أمراء بريدة سابقاً . ولا تزال أسرة آل أبا الخيل على شهرتها ففيهم أعيان وعلماء ووزراء) انتهى

فنصبوه إماما في الجامع ، وخطيباً وواعظاً ثم ناكده أتباع الأمير تركي بن سعود ، ووشوا به عنده ، وعند قضاته ، بأنه ينكر عليهم ، ولايعتقد فيهم العلم ، وأنه لما احتاج إلى تحرير مزْوَلَة أرسل إلى الشيخ محمد بن سلوم يطلب منه كيفية وضعها ، وزعم أن آل الشيخ[1] ونظم في أثناء مجاورته منسكاً لطيفاً فرغ منه في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ ، ثم رجع ومعه السُّل يتزايد ، إلى أن مات تركي ، واستقل أهل عنيزه فنصبوه في الإمامة والخطابة فلم يقدر على المباشرة ، ومكث كذلك نحو سنة ثم توفى في ربيع الثاني سنة ١٢٥١ ودفن في مقبرة الضبط شمالي عنيزة ، وتأسف الناس عليه ، لأنه لم يخلف مثله ، وكان جلداً في العبادة ، وله مدارسة في القرآن العظيم ، مع جماعة ، في جميع ليالي السنة ، ويقرأون إلى نحو نصف الليل عشرة أجزاء أو أكثر ، وأعرف مرة أنهم شرعوا في سورة الفرقان بعد العشاء وختموا ، وكنت أحضر وأنا ابن عشر مع بعض أقاربي فيغلبني النوم ، فإذا فرغوا حُمِلت إلى بيتنا وأنا لاأشعر ، وكان مع القراءة يُراجع « تفسير البغوي » و « البيضاوي » كل ليلة رحمه الله[2]

٣٠ ـ عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عبدالوهاب[3]

بن فيروز التميمى النجدى ثم الاحسائى

ولد سنة (. . . . . .)[4] فى الأحساء ، وأخذ عن جم غفير من علماء نجد والأحساء وغيرهما ، منهم والده ، والشيخ فوزان بن نصر الله

---

(١) كذا فى الأصل ويستقيم الكلام بكلمة (يجهلون) .

(٢) قال الشيخ عبد الله البسام : (صنف منسكا لطيفا بنظم عذب وقد رأيته فى مكتبة الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع فى مكة المكرمة والمكتبة المذكورة اشترتها جامعة الرياض وهو فى قسم المخطوطات تحت رقم ١٣٠٠ بقلم أبى بكر خوقير) .

(٣) كذا فى الأصل وفى كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» : (عبد الله بن محمد بن عبدالوهاب بن عبد الله بن محمد بن فيروز الوهيبى التميمى النجدى أصلا ثم الأحسائى ، فمقر آل فيروز فى بلدة أشيقر من بلدان الوشم ثم انتقلوا منها إلى الأحساء

(٤) كذا بياض . وفى كتاب « علماء نجد » : (قال ابنه العلامة محمد بن فيروز :) وأمامه

النجدي ، تلميذ الأستاذ عبد القادر التغلبي الدمشقي ، ومنهم خاله الشيخ عبد الوهاب بن سليمان بن علي صاحب «المنسك» ومنهم عبد الوهاب بن عبد الله النجدي ، ابن تلميذ الشيخ محرّر المذهب منصور البهوتي وغيرهم ، وأجازوه ومهر في الفقه وأصوله وأصول الدين وغيرها ودرس وأفتى ، وأجاب عن أسئلة عديدة ، بأجوبة سديدة ، وكان دينا صيتاً تقياً نقياً ذا أوراد وتأله وعبادة .

توفي سنة ١١٧٥ هـ

وهو والد الشيخ المشهور[١] ووالد المترجم من أهل العلم والفضل[٢] ذكر حفيده الشيخ محمد في إجازته لكمال الدين الغزي أنه أخذ عن مشايخ نجد منهم الشيخ سيف بن عزاز .

= الوالد فقد ولد في اليوم السادس من شهر شعبان سنة خمس ومائة والف) هـ وجاء في هذا الكتاب (وكان من بيت علم كبير فأخذ عن علماء زمنه الذين منهم والده أول قاض تولى قضاء الكويت ، ولما وصل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الأحساء أثناء رحلته قبل إعلان دعوته اجتمع به وتعرف عليه لأنه ابن عمته . قال الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف في تعليقه على « عنوان المجد » نقلا عن « مقامات الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله تعالى : (ثم إن شيخنا رحمه الله رحل إلى الأحساء وفيها فحول العلماء منهم عبد الله بن فيروز أبو محمد الكفيف ، ووجد عنده من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ، ماسر به وأثنى على عبد الله هذا بمعرفته لعقيدة الإمام أحمد) انتهى كلام الشيخ عبد الرحمن بن حسن .

(١) عبدالوهاب ستأتي ترجمته

(٢) هو محمد بن عبد الوهاب ترجمه الشيخ عبد الله البسام في كتاب « علماء نجد » ومما ذكر عنه ما نقله عن حفيده : واما الجد الشيخ محمد فإن مولده في السنة الثانية والسبعين بعد الألف في أشيقر اخذ عن الشيخ سيف بن عزاز والشيخ عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب التميمي . ونقل عن « تاريخ الكويت » للشيخ عبد العزيز الرشيد أنه أول قضاة الكويت حيث توفي وهو قاضيها سنة ١١٣٥ وتأسيسها بين سنتي ١١١٠ و ١١٢٥ .

٣١ ــ عبد الله بن محمد بن ذهلان

نزيل الرياض وقاضيها ، وعلامة الديار النجدية .

كتب إليّ بعض فضلاء نجد ممن يعتني بالأنساب والتواريخ في الجملة أنه رأى في بعض التواريخ أنه من آل سُحُوب من بني خالد [١] ملوك الأحساء في سابق ، وهو ابن خال الشيخ عثمان بن أحمد صاحب « حاشية المنتهى » المشهورة وعليه قرأ الشيخ عثمان لما كان بنجد ، وبه انتفع ، وأخذ عنه كثير غيره ونقل منهم المنقور عنه في مجموعه شيئاً جمّاً من فتاواه وتقريراته وهو المراد بقوله : (شيخنا) وتوفي سنة ١٠٩٩ .

وفيها أيضاً توفي أخوه الشيخ عبد الرحمن وهو أيضاً من أهل العلم والفضل والدين ، وارتحل إلى الشام وقرأ على مشايخها ، منهم بل أجلهم بدر الدين محمد البلباني [٢] رحمهم الله تعالى .

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام : نقلا عن الشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى : (الصحيح أن الشيخ عبد الله بن ذهلان من آل سحوب من زعب لا من بنى خالد) وذكر أنه ولد فى العيينة أكبر مدن نجد فى ذلك الزمن ، وأنه قرأ على الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل الأشيقرى على ماذكر المنقور فى آخر مجموعه .

(٢) ترجمه الشيخ عبد الله البسام فى كتاب « علماء نجد فى خلال ستة قرون » ومما قال عنه : ولد فى العيينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها ومن أجل مشائخه فيها الشيخ محمد البلبانى صاحب المؤلفات التى منها « كافى المبتدى » و « أخصر المختصرات » ثم عاد إلى نجد ورحل مع أخيه العلامة الشيخ عبد الله إلى الرياض من العيينة واستوطناها لأن الشيخ عبد الله صار هو قاضيها ومفتيها وأكبر مدرسيها وكان المترجم من أهل العلم وجلس للتدريس ومن أشهر تلاميذه الشيخ أحمد بن محمد بن حسن القصير .

ونقل عن تاريخ المنقور أنه فى عام ١٠٩٩ أصاب الرياض وباء شديد مات منه خلق كثير ومنهم المترجم فكانت وفاته فى ٩ ذى الحجة سنة ١٠٩٩ هـ .

٣٢ ـ عبد المحسن بن علي بن شارخ الأشيقري

نسبة إلى أشيقر من قرى الوشم[١] ، قال الشيخ محمد بن فيروز : وهي بلد آبائنا أولا - قدم علينا وقرأ على الوالد « مختصرا المقنع » إلى أثناء الفرائض ، ثم توفى الله الوالد فابتدأ على الفقير أول « المنتهى » حتى أكمله ، وكان فقيها تقيا صالحا ، دمث الأخلاق ، وله ملكة تامة في علم الفقه والفرائض والحساب ، وفي العربية ما يحتاج له ، وله[٢] تأليف رد به على طاغية العارض انتقاه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، ثم طلب مني أهل بلد الزبير أن آذن له أن يكون لهم إماما وخطيبا ومفتيا فأذنت له ، فسار إليهم وكان عندهم مكرما معظما في تلك الجهات مقبول القول ، حتى توفاه الله شهيداً بالطاعون آخر ذي الحجة الحرام سنة ١١٨٧ .

---

(١) قال الشيخ عبد الله بن بسام : (عبد المحسن بن علي بن عبد الله بن نشوان الشارخي ، الملقب كأسلافه (التاجر) نسبته إلى عشيرته المسمين التجار ، المشرفي نسبة وهم الذين ينسبون إلى مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوى بن وهيب ، ووهيب جد الوهبة الذين هم من بني حنظلة أحد البطون الكبار من قبيلة بني تميم . وله في قرية الفرعة المجاورة لبلدة أشيقر .. ولما وقعت الفتنة في قريته الفرعة بين النواصر والمشارفة انتقل إلى أشيقر واستوطنها وذلك عام ١١٤٠ ثم سافر إلى الأحساء للأخذ عن آل فيروز .

(٢) لم يورد الشيخ عبد الله البسام هذا الكلام من (وله تأليف) إلى (ابن القيم) ولعله لم يصح عنده . ومهما كان ففضل الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على الأمة وجلالة قدره مما لا يستطيع أحد إخفاءه ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى العلماء المصلحين .

ونقل الشيخ عبد الله البسام عن الشيخ ابراهيم بن صالح بن عيسى مانصه : (والمترجم هو الذي راغم الشيخ عثمان بن منصور ، وأنه نقل عنه نسب الوهبة حتى انتهى به إلى بني على أحد بطون الرباب ، فرد عليه ابن منصور وعلماء الوهبة المعتبرون ، وبينوا له نسبهم من يعد وهيب بن قاسم حتى ينتهي إلى مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر ، وهذا هو الحق المنقول بالتواتر) .

٣٣ عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن مشرف بوزن محمد التميمي النجدي [١]

قرأ في الفقه على أبيه صاحب المنسك المشهور ، وعلى غيره ، وحصل وتفقه ودرس ، وكتب على بعض المسائل الفقهية كتابة حسنة ، توفى سنة ١١٥٣ [٢] .

وهو والد محمد صاحب الدعوة التي انتشر شررها في الآفاق ، لكن بينهما تباين ، مع أن محمداً لم يظهر بالدعوة إلا بعد موت والده وأخبرني بعض من لقيته عن بعض أهل العلم عمن عاصروا الشيخ عبد الوهاب هذا أنه كان غضبانا على ولده محمد ، لكونه لم يرض أن يشتغل بالفقه كأسلافه وأهل جهته ويتفرس فيه أن يحدث منه أمر ، فكان يقول للناس : ياما ترون من محمد من الشر ؟ ! فقدر الله أن صار ما صار [٣] وكذلك سليمان أخو الشيخ محمد كان منافيا له في دعوته ، ويرد عليه مردا جيداً بالآيات والآثار لكون المردود عليه لايقبل سواهما ، ولا يلتفت إلى كلام عالم متقدم

---

(١) ساق نسبه الشيخ عبد الله بن بسام فقال : (عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف بن عمر بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علي بن وهيب الوهيبي التميمي) .

(٢) في بلدة حريملا على ما ذكر الشيخ عبد الله بن بسام ونقل كثيرا من الثناء عليه عن مؤرخي نجد . وانه تولى قضاء العيينة ، ثم قضاء بلده حريملا

(٣) كل كلام ابن حميد في حق الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الهذيان الباطل وعند الله تجتمع الخصوم ، (ولا يظلم ربك أحدا) وبطلانه لا يحتاج إلى دليل .

وليس يصح في الأذهان شيء   إذا احتاج النهار إلى دليل .

وما ذكره عن الشيخ سليمان أخي الشيخ محمد فقد كان بينهما في أول الأمر نفور ، ولكنه زال بعد أن شرح الله صدر الشيخ سليمان لقبول الدعوة السلفية ، وقرر ذلك في رسالة له معروفة ومطبوعة .

ولا داعي للاطالة بتعقب كلام ابن حميد الذي هو أشبه بهذيان المحمومين ، لا بكلام العلماء المنصفين الباحثين عن الحق ، وكل من لديه إلمام بحقيقة دعوة الشيخ ومعرفة سيرته وتمسكه في كل أعماله بالنصوص الشرعية الصحيحة يدرك تجني ابن حميد عليه ، وقد قدم الاثنان على حكم عدل ذي رحمة واسعة .

أو متأخر ، كائنا من كان ، غير الشيخ تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، فإنه يرى كلامهما نصاً لايقبل التأويل ويصول به على الناس ، وإن كان كلامهما على [خلاف] مايفهم منه ، وسمى الشيخ سليمان رده على أخيه «فصل الخطاب في الرد على محمد بن عبد الوهاب» وسلمه الله من شره ومكره ، مع تلك الصولة الهائلة التي أرعبت الأباعد . فإنه كان إذا يأتيه أحد ورد عليه ولم يقدر على قتله مجاهرة يرسل إليه من يغتاله في فراشه ، أو في السوق ليلا ، لقوله بتكفير من خالفه ، واستحلال قتله ، وقيل : إن مجنونا كان في بلده ومن عادته يضرب من واجهه ولو بالسلاح ، فأمر محمد أن يعطى سيفاً ويدخل على أخيه الشيخ سليمان ، وهو في المسجد وحده ، فأدخل عليه ، فلما رآه الشيخ سليمان خاف منه ، فرمى المجنون السيف من يده ، وصار يقول : ياسليمان لاتخف إنك من الآمنين !! ويكررها مراراً ، ولاشكّ أن هذه من الكرامات ، وخلف سليمان المذكور عبد العزيز من الفضلاء الأتقياء النجباء ، وأهل الورع البالغ في زمنه إلى الغاية ، بحيث صار يطلق عليه أنه أورع أهل العصر ، وأخبرني عمي عثمان وهو من طلبة العلم ، وله اعتقاد عظيم في الشيخ المذكور لعبادته وزهده وصلاحه وورعه وتقواه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم كان في مسجدنا مسجد الجوز ، غربي عنيزة ، وكان الشيخ عبد العزيز المذكور يصلي قدامه ، فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه ، وجلست عنده فقال : هذا وأشار إلى عبد العزيز — أورع أهل وقته أو من أورع أهل بيته ، الشك من عمي قلت يارسول الله كابن عمر في زمانه؟ قال: نعم: فكتبت للشيخ أبشره بذلك فكتب إلي ما معناه أني لست من أهل هذا القبيل ، ولكن حسن ظنك في الفقير أراك هذا ، وإن كانت رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حقاً فالرؤيا تسر المؤمن ولا تغرُّه ، ونحوا من هذا الكلام ، وقد رأيت مكتوبه هذا عند عمي وخطه حسن في غاية النورانية وأصيب بولده النجيب الأديب الأريب ، الفاضل الذكي الشيخ محمد ، وكان قد قرأ وفهم وتميز ، وفاق أهل عصره بالحفظ ، فمن محفوظاته « مختصر المقنع » و « ألفية الآداب » وأظن » وألفية المفردات » و « الشذور » و « ألفية ابن مالك » و « جمع

الجوامع » النحوي وغير ذلك ولا أعرف مقاربه في كثرة المحفوظات ، وتوفى سنة ١٢٦٣ في الأحساء وعمره نحو ٢٧ سنة .

ثم توفى والده بعده بقليل رحمة الله عليهما ، وعلى جميع المسلمين ، وكان بعد واقعة إبراهيم باشا المصري في نجد سنة ٣٣[1] رحل إلى بلدان شتى ، فناسبه الأحساء فسكن فيها إلى أن مات .

٣٤ ـ عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب بن مشرف التميمي[2]

قرأ على أبيه وأبوه قرأ في مصر على محرر المذهب الشيخ منصور البهوتي ، وحصل كل منها(؟) وأفاد واستفاد، وافتى في مسائل عديدة بأجوبة محررة سديدة ، ولكنها لم تجمع فتشتتت إلا يسير في مجموع المنقور توفى المترجم سنة ١١٢٥ وكان قاضي بلدهم العيينة أم قرى نجد إذ ذاك ومقر أمرها كافة ، ومن بيت علم وفضل ، وتسلسل العلم في ذريته طبقات ، فكان حفيد ابنه حمد بن ابراهيم بن أحمد بن عبد الوهاب قاضي بلد مرات فاضلا توفى سنة ١١٩٤،وابنه[3] عبد العزيز بن محمد باقعة الزمان ، ولسان ذلك الأوان عجبا في الحفظ والاستحضار ، داهية في محاولات الملوك والأمراء ولد في العينية أو الدرعية قبل سنة ١١٩٠ وقرأ ففاق ، ولم تدخل في قلبه دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، مع أنه جده لأمه وزاده نفورا عنهم أن والدته تزوجت بعد وفاة أبيه الشيخ الفاضل عبد الله بن غريب[3] وكان مصانعا لهم في الظاهر ،

---

(١) أي (١٢٣٣ هـ) .

(٢) ساق الشيخ عبد الله البسام نسبه ومنه (عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر بن راشد بن بريد بن محمد) وما بعده تقدم في نسب الشيخ عبد الوهاب بن سليمان .

(٣) كذا ورد هذا الاسم (عبد الله بن غريب) ولكن جاء في كتاب « علماء نجد خلال ستة قرون » ماهذا نصه : (الشيخ محمد بن علي بن غريب من كبار علماء نجد وفقهائهم ، وعلى ما ذكر محمد بن حميد في كتابه « السحب الوابلة » أنه صاهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على ابنته التي مات عنها الشيخ حمد بن ابراهيم بن مشرف قاضي بلدة مراة فهو من بيت عالي النسب) إلى أن قال : (وكان للمترجم نشاط في سبيل الدفاع عن هذه الدعوة السلفية . ومن ذلك أن أحد علماء العراق بعث إلى علماء الدرعية بأسئلة في العقيدة فأجابه المترجم إجابة طويلة جاءت في كتاب ـ

مخالفا لهم في الباطن ، ورد على مخالفهم ، وأجاب عن عدة اسئلة في عدة فنون ، أرسلت إليهم من بغداد ، بعد أن عجزوا عنها فكان عندهم مقبولا معظما ، ثم إن شيخا غريبا من الأعاجم ، مقيما في الدرعية استحسانا لدعوتهم تملق الشيخ عبد الله المذكور واستجليه وسأله عن حقيقة حالهم ، وأجابه بالاستحسان ، وأنها الحق فقال : أنا في ذمتك ترشدني ، ويسألك الله عن ذلك إن كتمت عني الحق. فظنه صادقا وباح له بما كان يكتم في نفسه من تخطيهم ومجاوزاتهم الحد في التفكير والقتل والنهب فوشى به إليهم فمسكوه وعرفوا أنه إذا كان كذلك ينقضي (؟) عليهم أكثر من غيره لحذقه وفهمه ، وقوة

= طبع عام ١٣١٩ بالمطبعة الشرقية بمصر باسم « التوضيح عن توحيد الخلاق ، في جواب أهل العراق » إلا أنه نسب إلى الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو ليس له وإنما هو لشيخه الشيخ محمد بن غريب صاحب هذه الترجمة ، والكتاب وجد في بغداد عند بدوي يقال له الملا دليم مخطوطاً ليس له عنوان وليس عليه اسم مؤلفه فجعل له هذا العنوان ونسب إلى الشيخ سليمان . والكتاب فيه مسائل ليست على طريقة السلف في العقيدة ، ويبعد أن تصدر مع الشيخ سليمان في علمه وتحقيقه وذلك مثل قوله : (إن الله على ما كان من قبل أن يخلق المكان) وهذه العبارة يقصد بها المعطلة نفي استواء الرب تبارك وتعالى على العرش استواء حقيقياً يليق بجلاله .

وسبب تأليف هذا الكتاب أن الشيخ عبد الله أفندي الراوي البغدادي خطيب جامع الوزير سليمان باشا في بغداد أرسل إلى علماء الدرعية شبها في العقيدة يتحداهم بها فأجابه المترجم وفندها مسألة بعد أخرى بهذا الكتاب ، وبعث الكتاب إلى بغداد ليس عليه اسم مؤلفه فمكث في بغداد وهو النسخة الوحيدة هناك ويوجد نسخة خطية في المكتبة السعودية بالرياض ناقصة من الآخر قليلا بخط حسن ، وعليها تملك الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن حسن سنة ١٣١٩ .

ثم ذكر الشيخ ابن بسام ممن اخذ عن ابن غريب : الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد والقاضي عبد العزيز بن حمد ، والشيخ عبد العزيز بن حمد بن معمر .

وذكر أن (أحد الغرباء وشي به إلى الإمام عبد العزيز بن محمد بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأن معتقده في الدعوة على خلاف ما يظهر منه ، وكانت الدعوة في أول انتقالها من الجهاد باللسان والحجة إلى اسم دولة تجاهد وتكافح هذا الحق وتؤيده ، فقتل في الدرعية بأسباب هذه الوشاية عام ١٢٠٩ عفى الله عنهم أجمعين) انتهى بنصه .

(٣) لا يقبل كلام ابن حميد في الشيخ عبد العزيز بن حمد من أن الدعوة لم تدخل قلبه ، وكيف يكون هذا وهو أحد من اختاره الإمام عبد الله بن سعود رسولا لعقد الصلح مع محمد على باشا (أنظر خبر ذلك في تاريخ الجبرتي حوادث سنة ١٢٣٠ وانظر ترجمته مفصلة في كتاب « علماء نجد » للشيخ عبد الله بن بسام و « علماء الدعوة » للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ .

تصرفه في الرد مع اطلاعه على خباياهم فقتلوه، فنفر ربيبه المذكور عهم نفرة عظيمة ولكن لم يمكنه إلا المصانعة خوفا من القتل ، واستسلم لتيار الأقدار وأرسله سعود سفيرا إلى امام صنعاء فكفى ما أرسل فيه ، وسمعت مشايخ صنعاء يثنون عليه بالفضل والعقل ، والفهم والذكاء التام ، وحسن المحاضرة ثم أرسله عبد الله بن سعود إلى والي مصر محمد على باشا في الصلح فلم يتم لتشدده عليهم حسب تأكيد السلطان محمود عليه في قتالهم ، ولمقاصد له باطنية ودنيوية وذكر مؤرخ مصر العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن مفتي الديار المصرية الشيخ حسن الجبرتي في تاريخه الكبير أنه اجتمع به في هذه الرسالة وأنه بحث معه فوجده فاضلا نبيلا، ورأى منه ما أعجبه سمتا وخلقا وأدبا وحسن إفادة واستفادة وأنه نقلت إليه مخاطبته مع الباشا فأعجبته جدا وكذا ذكر لي عمي عثمان وخالي عبد العزيز بن عبد الله بن تركي ، وكان من طلبة العلم ومجالسه كثيرا ، فانه بعد أن زالت دولة آل سعود سنة ١٢٣٣ ارتحل إلى عنيزة فولى قضاءها فسمعت من أهلها وصفه بكل جميل منها الاجتهاد في العبادة والمداومة على تلاوة القرآن في كل حال ، حتى في حضور الخصمين ينصون دعواهم وهو يتلى [١] وكان فيصلا في الأحكام ويميل إلى ما يرجحه الدليل مما خالف المذهب ولا يبالي بأحد، ثم تحول إلى سوق الشيوخ فولاه شيخ المنتفق قضاءها إلى أن توفى فيها بعد الأربعين رحمه الله تعالى .

وقد طالت هذه الترجمة لما في ضمنها من التراجم فأغناني ذلك عن إفراد كل واحد منهم بترجمة وإن أفردها من أراد وضعها في مواضعها فلا بأس وقد أذنت في ذلك .

---

(١) كذا فى الأصل والمقصود : (يذكرون دعواهما وهو يتلو القرآن) .
(٢) ذكر الشيخ عبد الله البسام أنه ولد حوالى سنة ١١٩٠ ونقل ماهنا عن تاريخ وفاته .

٣٥ ـ عبدالوهاب بن عبدالله بن محمد بن فيروز التميمي الاحسائي(١)

ولد قبيل الظهر يوم الثلاثاء غرة جمادى الآخرة سنة ١١٧٢ وأخذ عن والده من صغره ، فقرأ عليه الحديث ومصطلحه ، والأصلين والنحو والمعاني والبيان والمنطق ، والفقه ، والفرائض ، والحساب والجبر والمقابلة ، والهيئة وغير ذلك وأخذ أيضا الحساب عن العلامة السيد عبد الرحمن الزواوي المالكي وأخذ النحو عن الشيخ عيسى بن مطلق ، وكان عنده أعز من أبنائه ، ومهر في جميع ما قرأ وبهر في الفهم حتى فاق أقرانه بل ومن فوقه ، فصار كثير من رفقائه تلامذة والده يقرأون عليه وكان ذا حرص واجتهاد إلى الغاية ، قليل الخروج من المدرسة ، حتى إنه اتفق له سبع سنين لم يخرج منها إلا لصلاة الجمعة وأما الجماعة في مسجدها ، والأكل يأتي له من بيت والده مع الطلبة ، وأكب على تحصيل العلم ، وإدمان المطالعة والمراجعة ، والمذاكرة والمباحثة ليلا ونهارا لم تنصرف همته إلى غيره أصلا حتى انه لما تزوج بأمر والده والزامه أخذ ليلة الدخول معه المحفظة فلما انصرف عنه الناس نزل السراج وقعد يطالع الدروس التي يريد يقرأها في غد ، ويقول في نفسه : إنه بعد إتمام المطالعة يباشر أهله فاستغرق في المطالعة إلى أن أذن الصبح فتوضأ وخرج للصلاة وحضر دروس والده من أولها ولم يعلم والده بذاك لكونه لا يبصر ولما فرغ من الدرس أتى إليه ولده وسلم عليه فبارك له وبارك له الحاضرون ، وفي الليلة الثانية فعل كفعله بالأمس ولم يقرب أهله من غير قصد للترك لكن لانشغاله بالمطالعة فيقول في نفسه : أطالع الدرس ثم ألتفت إلى الأهل فيستغرق إلى أن يصبح ، فأخبرت المرأة وليها بذلك فذهب وأخبر والده بالقصة فدعاه والده وعاتبه وأخذ منه المحفظة ، وأكد عليه بالإقبال عليها . وكان رحمه الله كثير التحرير ، بديع التقرير ، سديد الكتابة قل أن يقرأ كتابا أو يطالعه إلا ويكتب عليه أبحاثا

---

(١) وصل الشيخ عبد الله البسام نسبه بوهيب الذى تنسب إليه الوهبة ، ولخص ترجمته ممسا هنا .

عجيبة واستدراكات غريبة ، وفوائد لطيفة ، فمنها الكثير ، فمن أكثر ما رأيته كتب عليه « شرح المنتهى » للشيخ منصور ملأ حواشيه بخطه الضعيف المنور ، ولم يدع فيه محلا فارغا بحيث أني جردتها في مجلد وضممت إليها ماتيسر من غيرها وفيها فوائد بديعة لا توجد في كتاب ، وكذا رأيت «التصريح شرح الاقناع » و«شرح عقود الجمان» للمرشدي « وشرح جمع الجوامع » الأصولي وغيرها ، وصنف تصانيف عديدة ، منها ما كمل ، ومنها مالم يكمل ؛ لاخترام المنية له في سنّ الشبيبة فمنها « حاشية على شرح المقنع » وصل فيها إلى الشركة ، وهي مفيدة جدا ومما كمل « شرح الجوهر المكنون » للاخضري في المعاني والبيان والبديع ومنها « إبداء المجهود في جواب سؤال ابن داوود » وذلك أن تلميذه الشيخ عبد الله بن داوود سأله عن القول المرجوح ، وعن المقلد المذهبي ، وعن الناقل المجرد ومنها « القول السديد في جواز التقليد » ومنها « زوال اللبس عمن أراد بيان ما يمكن أن يطلع الله عليه أحد من خلقه من الخمس » وله قصائد بليغة ومقطفات عديدة منها قصيدة غزلية أولها :

هام قلبي بـكامل في الجمال ناقص الخصر جيده كالغزال

وأخرى أولها :

هجر المنامُ جفون صبٍّ ناحل يرعى النجومَ بغيث دمع هاطل

وأخرى مقصورة أولها :

آهاً لجسم ماله غير الضَنَى مُضَاجعَ ومُهجة من الهـوى

وأخرى قالها في مرض موته أولها :

دع ذكر زينب عنك واهجر واصدد واقطع حبال الوصل عنها واجدد

وأخرى توسل قالها فيه أيضاً أولها :

يا واحداً عمّ الورى بِصِلاَت وله عنتْ في سائر الصلوات

وأرسل إلى والده بهذه الأبيات وهو في بلدة الزبارة وقد ابتدأ فيه المرض يهنئه بشهر رمضان :

هُنِئْتَ يادرة تاج الكرام بغاية الخير بشهر الصيام
وفُزت بالأجر العظيم الذى يناله من صام صدقا وقام
في عِزَّةٍ قعسا ، وفي رِفعة مسلّما من موجبات السقام
أرجوك تدعو لي يا سيدي بواسع الرزق وحسن الختام

وحين قُرِئَتْ على والده أملى جوابها في الحال فقال :

جزاك مولاي جزاء به تبلغ مِنْ تقواه أعلى مقام
في كل شهر وزمان وفي كل مكان فاضل ذي احترام
معظما بين الورى مكرما يصغي إليك الكل عند الكلام
وأسأل الله بأسمائه يشفيك من أنواع كل السقام
وأن يديم الكسب من فضله عليك موصولا بغير انصرام
ثم صلاة الله موصولةٌ على النبي المصطفى بالسلام

وتوفاه الله في مرضه ذلك في شهر رمضان سنة ١٢٠٥ في بلد الزبارة ، من ساحل بحر عمان ودفن بها ورثي بقصائد شتى من غير أهل مذهبه وبلده ، فضلاءهم ، وعظمت مصيبة أبيه بهلكه واحتسب، وأتته التعازي والمراثي من علماء الشام وبغداد وغيرهما .

٣٦ — عثمان بن أحمد بن سعيد بن قائد

بالقاف النجدي[١] مولدا الدمشقي رحلة القاهري سكنا ومدفنا

ولد في بلدة العيينة من قرى نجد سنة (. . . .)[٢] ونشأ بها ، وقرأ على علامتها الفقيه النبيه الشيخ عبد الله بن محمد بن ذهلان ، وهو ابن عمته فأخذ عنه الفقه وغيره ، ثم ارتحل إلى دمشق ، فأخذ عن علمائها الفقه والأصول والنحو وغيرها ، وحضر دروس شيخ الحنابلة بها ومفتيهم الشيخ محمد أبي المواهب[٣] ، فوقع بينه وبين المترجم نزاع في مسألة إذا تساوى الحرير وغيره في الظهور أو زاد الحرير إذا كان مسدياً بالحرير ومُلْحَماً بغيره وأخرجته الصناعة فظهر السَّدا وخفيت اللحمة ، وهو الخز كالقرمسود[٤] والقطني فقال أبو المواهب بالحلّ ، وقال المترجم بالحرمة ، وطالت بينهما المنازعة والمناظرة فاحتد الشيخ أبو المواهب . . .[٥] فيها محرر الفنون للعلامة الشيخ محمد بن أحمد الخلوتي فأخذ عنه دقائق الفقه ، وعدة فنون ، وزاد انتفاعه به جداً حتى بهر وحقق ودقق ، واشتهر في مصر ونواحيها ، وقصد بالأسئلة والاستفتاء سنين ، وكتب على « المنتهى » حاشية نفيسة مفيدة

---

(١) أورد الشيخ عبد الله البسام نسبه هكذا : (عثمان بن عثمان – أيضا – بن أحمد بن أحمد بن سعيد بن عثمان بن أحمد بن سعيد بن عثمان بن أحمد قائد النجدى) .

(٢) بياض فى الأصل ولم يحدد الشيخ ابن بسام زمن مولده .

(٣) مترجم فى « مختصر طبقات الحنابلة » و فى « سلك الدرر » توفى سنة ١١٢٦ هـ

وذكر الشطى (ص ١١٤) أنه أخذ عن الشيخ عبد الحى العكرى صاحب « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ولم يترجم الشطى الشيخ عثمان .

(٤) كذا فى الأصل وفى كتاب « علماء نجد » للشيخ ابن بسام : (كالقز والقطنى) .

(٥) هنا سقط فى الأصل وجاء فى كتاب « علماء نجد » مانصه : (فاشتد أبو المواهب على المترجم ، وقد ذكر هذه المسألة فى كتابه « هداية الطالب » ص ١١٢ المطبوع بمطبعة المدنى ، وأشار إلى النزاع الذى وقع له فيها مع أبى المواهب . وبعد هذا خرج من الشام إلى مصر ، وأخذ عن علمائها حتى مهر مهارة تامة) انتهى .

ويظهر أن ما سقط من الأصل : ومن أخذ عنه فى مصر محرر الفنون – أو ماهو بمعنى هذا الكلام –

جرّدها من هوامش نسخته تلميذه ابن عوض النابلسي ، فجاءت في مجلد ضخم ، وصنف « هداية الراغب شرح عمدة الطالب » حرره تحريراً نفيساً ، فصار من أنفس كتب المذهب واختصر « درة الغواص » مع تعقبات يسيرة وله « شرح البسملة » ورسالة في الرضاع « ونجاة الخلف في اعتقاد السلف [1] وغير ذلك وكان خطه فائقا ، مضبوطا إلى الغاية ، بديع التقرير ، سديد الأبحاث والتحرير ، توفي بمصر مساء يوم الاثنين رابع عشر جمادى الأولى سنة ١٠٦٧ .

٣٧ ـ عثمان بن جامع النجدي ثم الزبيري [2]

الفقيه النبيه ، الورع الصالح ، قرأ على شيخ وقته الشيخ محمد بن فيروز في الفقه وغيره ، فأدرك في الفقه إدراكاً تاماً ، ثم طلبه أهل البحرين من شيخه المذكور ليكون قاضياً لهم ، ومفتيا ومدرسا ، فأرسله إليهم ، فباشرها سنين عديدة بحسن السيرة والورع والعفة والديانة والصيانة ، وأحبه عامتهم وخاصتهم ، وصنف « شرح أخصر المختصرات » شرحا مبسوطا نحو

---

(١) ذكر الشيخ ابن بسام أنه في صفات الله تعالى محقق على طريقة السلف . وذكر من مؤلفاته :

١ ــ هداية الراغب شرح عمدة الطالب .
٢ ــ حاشية على « المنتهى » في مجلد ضخم .
٣ ــ مختصر درة الغواص .
٤ ــ شرح البسملة .
٥ ــ نجاة الخلق في اعتقاد السلف « وهو رسالة مطبوعة .
٦ ــ « الاسعاف في إجازة الأوقاف » رسالة صغيرة مخطوطة .
٧ ــ رسالة في القهوة .
٨ ــ لخص النونية لابن القيم وفرغ من ذلك سنة ١٠٦١ .
٩ ــ رسالة في إن ـ لم يذكرها الشيخ ابن بسام في التيمورية بدار الكتب .

(٢) تقدم ذكر نسبه نقلا عن كتاب « علماء نجد » للشيخ عبد الله البسام وأنه ينسب إلى الأنصار ، الخزرج وأضاف الشيخ ابن بسام هنا : نسبة المترجم إلى الأنصار والخزرج نقلتها من مسودات الشيخ عبد الستار الدهلوي ، واورد ترجمة المترجم ما هنا .

ستين [1] كراسا ، جمع فيه جمعا غريبا ، ولم يزل على حسن الاستقامة والإعزاز التام ، ونفوذ الكلمة عند الأمير فمن دونه إلى أن توفاه الله تعالى سنة ١٢٤٠ انتهى .

٣٨ — عيسى بن محمد الزبيرى

قرأ عليه الشيخ ابراهيم بن جديد، والشيخ عبدالله [2] بن حمود وغيرهم، وأدرك وقت الشيخ محمد بن فيروز في البصرة ، ولكن لا أدري هل أخذ عنه أم لا ، ومهر في الفقه وألزموه بقضاء الزبير فباشره بلا معلوم ، ثم رغب عنه فألحوا عليه في الاستمرار بكل سبيل فأبى ، وقال : إنما يطلب القضاء لإحدى ثلاث : إما للثواب أو للجاه أو للمال . فأما الثواب فأبعد شيء وليتنا ننجو رأس برأس ، وأما الجاه فإن فلانا لما حكمت عليه بغير مطلوبه قال : (قطع الله هذا الوُجَيْه) حتى لم يقل هذا الوَجْه . وأما المال فإن عباءتي هذه التي صيّفت بها شتّيت بها بلا زيادة ولم أحج حجة الإسلام من قلة ذات اليد فأى داع إلى ارتكاب الخطأ ؟ ! فقالوا : نُعَيِّنُ لك كفاية السنة ونفعل ونفعل ، فأبى وعرف أنهم لا يتركون مراجعته فتكلف

(١) لم يذكر الشيخ ابن بسام هذا الشرح ولكنه زاد — فيما نقل عن ابن حميد : (قال الشيخ محمد بن فيروز : وقرأ على الوالد قليلا من « مختصر المقنع » ثم اشتغل على الفقير في الفقه والفرائض والعربية ، ففتح الله عليه) ولم يذكر سنة وفاته .

(٢) لم أجد في « السحب » له ترجمة وقد ترجمه الشيخ عبد الله البسام فذكر أن أصله من عنيزة وولد في الزبير من أسرة لا يرتفع نسبها إلى قبيلة من قبائل العرب ، وإنما هي عشيرة في عنيزة منها آل عبيد الله وآل جنيني وآل الصانع في المجمعة كلهم من أصل واحد وهو آل حمود — وذكر مشائخه وأنه تولى إمامة جامع الزبير الكبير ، ثم قضاء الزبير لما توفي القاضي صالح المبيض سنة ١٣١٥ وظل نحو عشرين سنة حيث عزل بالشيخ عبد المحسن أبا بطين واعيد سنة ١٣٣٩ إلى سنة ١٣٤٢ حيث ألغي القضاء في الزبير والحق بقضاء البصرة ، ثم عين مدرسا بمدرسة دويحس الدينية ، وقرأ عليه الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع .
وتوفي سنة ١٣٥٩ في الزبير .

وحج ، وجاور مدة ، ثم رجع إلى بلده ، وسكن فيها يدرس ويفتي إلى أن توفى سنة ١٢٤٨ ظنا وكان خطه حسناً وكتب شيئاً كثيراً رحمه الله[1]

---

(١) ومن كتاب « علماء نجد » باختصار :

١ – عبد الرحمن بن أحمد بن اسماعيل البكرى الشورى .

ولد فى أشيقر فى بيت علم فكان عالما فقيها حسن الخط كتب كتبا كثيرة بخطه الحسن المتقن .

وتوفى سنة ١٠٦٧ .

٢ – عبد الرحمن بن بليهد بن عبد الله بن فوزان بن محمد بن ..... بن بليهد بن عثمان .

ولد فى غسلة وقرأ على الشيخ عبد الله بن ذهلا ن وكان زميلا للشيخ أحمد المنقور توفى سنة ١٠٩٩ فى بلدته .

٣ – عبد الرحمن بن محمد بن ذهلان .

نشأ فى العيينة وأخذ عن علمائها .

ثم رحل إلى دمشق فأخذ عن الشيخ محمد البلبانى الحنبلى صاحب المؤلفات فى الفقه .

ثم عاد فرحل مع أخيه الشيخ عبد الله بن محمد إلى مقرن لأن الشيخ عبد الله صار قاضيها .

ومن تلاميذه أحمد بن محمد بن حسن القصير .

توفى سنة ١٠٩٩ .

٤ – عبد الرحمن بن محمد بن عثمان – ويلقب بالسحيمى – بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن اسماعيل ، البكرى الشورى التميمى .

ولد فى أشيقر وفيها تعلم .

وبرع بجودة الخط ، وقد اطلع الشيخ ابراهيم بن عيسى على أحد ما كتب من المصاحف وكان الرابع عشر .

وهو من أهل القرن الثانى عشر .

٥ – عبد القادر بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف الوهيبى ولد فى أشيقر وقرأ على علمائها حتى أصبح من علماء نجد .

وتولى القضاء لأجود بن زامل سلطان الأحساء

من أهل القرن التاسع وأول العاشر .

٦ – عبد الله بن ابراهيم بن سيف بن عبد الله الشمرى .

هو والد الشيخ ابراهيم مؤلف العذب الفائض .

من مشائخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وابنه الشيخ ابراهيم والشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق ، من علماء المدينة فى أول القرن الثالث عشر .

ووالده الشيخ ابراهيم بن سيف توفى سنة ١١٨٩ .

٧ – عبد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عقيل البكرى الشورى .

ولد فى أشيقر وفيها نشأ ودرس وولى القضاء حتى توفى سنة ١٠٦٧ هـ

٨ – عبد الله بن أحمد بن اسماعيل البكرى ثم الشورى . =

. . . .

— ولد فى أشيقر وتولى قضاء عنيزة وافتاءها
توفى سنة ١١٩٦ .

٩ — عبد الله بن أحمد بن محمد بن سحيم .
عاصر الشيخ محمدا وجرت بينهما مكاتبة . وكتب بخطه كتبا وجمع مكتبة وتولى قضاء سدير .
توفى سنة ١١٧٥ .

١٠ — عبد الله بن أحمد بن محمد بن مشرف الوهيبى التميمى .
ولد فى أشيقر وفيها تعلم وولى قضاءها وتوفى سنة ١٠٥٣ تقريبا .

١١ — عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن اسماعيل .
ولد فى أشيقر ودرس على حسن بن عبد الله أبا حسين الوهيبى وقتله الشريف عبد العزيز بن هزاع ظلما سنة ١١١٩ .

١٢ — عبد الله بن عبد الوهاب بن موسى بن عبد القادر بن رشيد بن بريد بن مشرف .
قرأ على الشيخ أحمد بن محمد بن بسام وغيره من علماء نجد ورحل إلى مصر فقرأ على الشيخ منصور البهوتى وغيره ثم عاد وتولى قضاء العيينة حتى توفى .
وتوفى سنة ١٠٥٦ فى العيينة .
وابنه عبد الوهاب قاضى العيينة توفى سنة ١١٢٥ .
وحفيد حمد بن عبد الوهاب توفى سنة ١١٢٦
وابن الحفيد عبد العزيز بن حمد . وهو سبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب توفى حول ١٢٤٢

١٣ — عبد الله بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن بسام الوهيبى .
ولد فى أشيقر ، وتلقى العلم عن أحمد القصير وحسن بن عبد الله أبا حسين ، وتولى قضاء بلدته سنة ١١٣٩ حتى توفى سنة ١١٦٠ ﻫ

١٤ — عبد الله بن عفالق : ولد فى نجار تولى قضاء العيينة وتوفى سنة ١٠١٩

١٥ — على بن جعفر الفضلى — من آل فضل من لام ثم من طىء — ولد فى أشيقر وفيها نشأ وتعلم وولى القضاء وتوفى سنة ١٠١٥ ﻫ .

١٦ — على بن عمر بن حسين بن على بن مغامس من آل مشرف من الوهبة . ويلقب بالخراز .
ولد فى أشيقر وفيها نشأ وتعلم وتولى قضاءها وتوفى سنة ١٠٥٠ .

١٧ — على بن محمد بن على بن محمد بن أحمد بن منيف بن بسام بن منيف بن عساكر بن بسام بن عقبة — من الوهبة .
ولد فى أشيقر وفيها نشأ وتعلم وتولى قضاءها وتوفى سنة ١٠٩٠ ﻫ .

٣٩ ـ غنام بن محمد النجدي الزبيري ثم الدمشقي

ولد في بلد سيدنا الزبير[1] وأخذ من علمائها ، ثم عن علامة العصر الشيخ محمد بن فيروز لما تحول إلى البصرة ، ودأب وحصل ، ثم رحل إلى بغداد فقرأ فيها مدة ثم ارتحل إلى الشام وقطن فيها إلى أن مات ، وتصدّى في دمشق لنشر الفقه ، وجلس يدرس في الجامع الأموي بأمر شيخه علامة الشام أحمد بن عبيد العطار ، وحضر أول ما فتح الدرس مع جملة من مشايخ دمشق من مذهب المترجم ومن غيره ، فأخذ عنه جمع من الفضلاء من أهل دمشق ، والنابلسيين القادمين والنجديين وغيرهم ، منهم شيخنا التقي النقي الشيخ عبد الجبار النقشبندي البصري والشيخ الصالح أحمد اللبدي وانتفعوا به ، ولم يزل ملازماً على الدروس والمطالعة ، مع تعاطيه التجارة بالتحري والصدق والورع ، وكان في أيام طلبه في بلده قد كتب كتباً نفيسة بخطه الحسن النير منها « شرح المنتهى » وملأ حواشيه بالفوائد والأبحاث حتى لم يترك فيه موضعاً خالياً فكانت هذه النسخة مشهورة بين الطلبة بدمشق ، يحضرونها وقت مطالعتهم ، ويستفيدون مما عليها وحصل كتباً نفيسة منها « شرح الاقناع » بخط مؤلفه ، وكان له أفضال على الطلبة ، وله شهرة عند أهل دمشق وتوفي بدمشق سنة ١٢٤٠ .

وخلف ولده الفاضل الشيخ عبد الرحمن طلب العلم مع الصلاح والخير والسكون وحسن المعاشرة والملازمة الكلية على الجماعة بالجامع الأموي بالصف الأول ، والامام الأول وسماحة النفس في إعارة الكتب توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٨٢ انتهى .

---

(١) ذكر الشيخ عبد الله البسام أنه ولد في نجد ثم ارتحل إلى الزبير .

(٢) ذكر الشطي في « مختصر طبقات الحنابلة » ص ١٤٨ أنه ولد في نجد وهاهو كلامه (الشيخ غنام النجدي : ترجمه الم فقال : هو الشيخ غنام بن محمد الزبيري أصلا ، النجدي مولداً ، الدمشقي سكناً . العالم المتضلع الفاضل الكامل المحدث الفقيه الفرضي الحيسوب . ←

أخذ الفقه عن العلامة الشيخ أحمد البعلي[1] ، والحديث عن الشهاب أحمد العطار ، وكتب له إجازة بخطه على ظهر ثبته وأخذ بقية العلوم عن علماء عصره ، وكان له وللشيخ مصطفى السيوطي [2] المنتهى في معرفة الفقه والفرائض والاطلاع على غوامضها ، ويوجد له تقارير وأبحاث كثيرة على هوامش شرح المنتهى ، بحثاً مع الأصحاب ، وحلا لمشكل كلامهم وقد أخذ عنه الفقه سيدي العلامة الجد[3] والشيخ سعيد السفاريني وغيرهما ، وانتفع به الطلبة انتفاعاً كثيراً وقرأت بخط الجد المذكور أنه توفي يوم السبت ثامن ذي القعدة سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف[4] ، ودفن بالمقبرة الذهبية من مرج الدحداح ، وقال الجد مؤرخاً وفاته :

جدث ثوى فيه الهمام الأمثل ... (غنام) ذو الفضل الذي لا يحجب
قد كان عوناً للذي رام العلى ... لا زال في دار الرضا يتقلب
لما دعي قالوا : نجا أرّخ أجل ... بشرى له في جنة لا يعطب

(١) ترجمه الشطي ص ١٣٠ وذكر أنه ولد سنة ١١٠٨ بدمشق وتوفي فيها سنة ١١٩١ هـ

(٢) ترجمه الشطي ص ١٤٨ وذكر أنه ولد بدمشق سنة ١١٦٥ وتوفي فيها سنة ١٢٤٣ وذكر أنه انتفع به أناس كثيرون من النجديين والنابلسيين . وأنه شرح كتاب « غاية المنتهى » قال : (كتاب « غاية المنتهى صنفه الشيخ مرعي السكرمي جمعاً بين « الاقناع » والمنتهى وصاحب الترجمة شرحه بشرحه المذكور « مطالب أولى النهى في شرح غاية المنتهى » ثلاث مجلدات ضخام)، ولما وقع الاعتراض من بعض علماء نجد ، على مواضع في المتن والشرح المذكور انتصر المرحوم الجد (وهو ممن أخذ عن المترجم) فجرد مازاد منها على الأصلين المذكورين وبحث وحقق ، فأيد منها ماشهدت له النقول والروايات ورد منها مالم يقم عليه دليل ، كاذكر ذلك في مقدمة كتابه الذي سماه « منحة مولى الفتح ، في تجريد زوائد الغاية والشرح » وقد تأدب مع شيخه غاية الأدب انتهى .

(٣) هو حسن بن عمر الشطي ترجمة حفيده بترجمة حافلة – ص ١٥٧ وذكر أنه ولد بدمشق سنة ١٢٠٥ وتوفي سنة ١٢٧٤ .

(٤) ذكر الشيخ عبدالله البسام أن وفاته يوم السبت الثامن من ذي القعدة سنة ١٢٤٠ . وذكر من مؤلفاته : (كتاباً في الفلك وقد نسخه والدي رحمه الله وقرأه في الزبير على الشيخ محمد بن شهوان إمام وخطيب جامع الرشيدية والمدرس بمدرسة النجاة الأهلية) انتهى كلام الشيخ عبد الله .

٤٠٠ - فراج بن سابق الزبيري

ولد في الزبير ، وقرأ على عالمه الشيخ ابراهيم بن ناصر بن جديد وغيره ، ثم حج وجاور بمكة فقرأ على زاهدها الشيخ عمر عبد الرسول[1] الحنفي التفسير والحديث ، وكذا على محدثها السيد يوسف البطاح الزبيدي ؛ وعلم القراءات والعربية على الشيخ أحمد المرزوقي الضرير ، وأجازوه ، وخطه حسن وغالب كلامه مسجوع وله نظم توفى سنة ١٢٤٦[2] .

٤١ - فوزان بن نصر الله بن محمد بن عيسى بن صقر بن مشعاب[3]

نزيل الحوطة من قرى سدير[4] ، عالم فاضل مشهور ، قرأ وأقرأ واستفاد وأفاد ، كتب إليّ بعض فضلاء نجد أنه رأى إجازة شيخه الشيخ أحمد بن محمد القُصَيِّر له ونصها بعد الصدر : وبعد فقد قرأ عليّ الأخ في الله ، الذكي ، الفاضل التقي ، الحبر الكامل الألمعي الشيخ فوزان

---

(١) التعبيد لغير الله لايجوز مثل (عبد الرسول وعبد الكعبة وعبد علي)

(٢) لم يزد الشيخ عبد الله البسام على مانقله عن ابن حميد في هذه الترجمة .

(١) قال الشيخ ابن بسام : (ابن عيسى بن أحمد بن عيسى بن صقر بن مشعاب هكذا نسبه بخطه حفيده الشيخ صالح بن مشعاب ، فهو من المشاعيب وهم من آل جراح من ذرية زهرى بن جراح ابن ثور أحد بطون الرباب اللاحقين بقبيلة سبيع بالحلف فالجد الأعلى للمترجم زهرى بن جراح الذى أنشأ عنيزة ، ثم ذكر نزوح المشاعيب من عنيزة

(٢) ذكر الشيخ ابن بسام أنه ولد فى عنيزة . ونزح من وطنه وسكن حوطة سدير ولذا اشتهر بنزيل الحوطة . وذلك قبل نهاية القرن الحادى عشر كما يفهم من إجازة شيخه أحمد القصير له وكان القصيم إذ ذاك خاليا من العلماء فقرأ على علماء سدير وعلى علماء الوشم حتى أدرك وصار من العلماء المعروفين) .

ثم ذكر أنه سافر إلى دمشق وأخذ عن علمائها كالشيخ عبد القادر التغلبى شارح « دليل الطالب » وأخذ عن الشيخ عبد القادر البصرى الحنبلى . وممن أخذ عنه الشيخ عبد الله بن محمد ابن فيروز والد عالم الأحساء . والشيخ المؤرخ محمد بن عباد الدوسرى قاضى ثرمداء فقد قال فى « تاريخه : (وفى سنة ١١٣٤ قرأت على فوزان بن نصر الله ، وابن عباد من آل موسى ذكر الشيخ عبد الله البسام ان له تاريخا يقع فى ٨ صفحات من عام ١٠١٥ إلى السنة التى توفى فيها وهى ١١٧٥هـ .

ثم ذكر الشيخ عبد الله البسام أن المترجم توفى فى حوطة سدير سنة ١١٤٩ هـ .

بن نصر الله الحنبلي بلغه الله من قصبات العلم مقاصده ، ورحمه ورحم والده ، غالب كتاب « المنتهى » قراءة بحث وتحرير وترَوٍّ في مواضعه المشكلة ، وتدقيق في أماكنه المغفلة ، قراءة كافية بلغ فيها الغاية وانتهى فيها إلى أقصى النهاية ، وأجزت له أن يروي عني ما يجوز لي روايته بشرطه المقيد عند أهله، جعلني الله وإياه ووالدينا من المتجاوزعن فرطاتهم يوم التناد ولا فضحنا الله وإياه بما اجترحنا يوم يقوم الأشهاد ، ، ونسأله أن يزودنا تقواه فلنعم الزاد ، وحضر القراءة المباركة الشيخ أحمد بن محمد ابن شبانة والشيخ حسن بن عبدالله أبا حسين وعبد القادر بن عبد الله العديلي سنة ١٠٩٩ .

لأهل العلم بالإجماع فوز ... وللأكرم ابن نصر الله فوزان

ومن مشايخه أيضاً العلامة الورع التقي الشيخ عبد القادر التغلبي ، وأخذ عنه جماعة عنه من علماء نجد والاحساء ، منهم الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن فيروز والد الشيخ محمد المشهور .

٤٢ ـ محمد بن ابراهيم بن محمد بن عريكان

ــ بضم العين بصيغة التصغير ــ من آل وطبان ، من بني وائل .

ولد قبل الثلاثين والمئتين في بلد الخبراء من بلدان القصيم ، وتربى عند خاله الشيخ عبدالله بن فائز ــ الماضي ــ وقرأ عليه القرآن والفقه ، ويسيراً من العربية ، ثم سافر إلى سوق الشيوخ ، فقرأ على علامة زمانه الشيخ محمد بن سلوم وولديه الفاضلين عبد اللطيف وعبد الرازق ، وهو قد بلغ أولم .. وكان يتوقد ذكاءً وله همة عالية في تحصيل أنواع العلوم

ثم رجع إلى عنيزة ، ولم يقنع من التعلم ، فسافر إلى مكة المشرفة ، وتتلمذ لمشهورها ذلك الزمن ، الشيخ عبدالله سراج الحنفي ، في فنون ، فوجد الشيخ قد استروح (؟) وأخلد إلى الرياسة ، فضاق صدره لعدم مطلوبه وهم بالتوجه إلى مصر أو الشام أو المغرب ، فسمع شخصاً يمدح السيد

---

(١) ترجمه الشيخ ابن بسام نقلا عن « السحب الوابلة »

محمد السنوسي [1] بالعلم الواسع . قال : فاستشرت أعلم تلامذة شيخنا في ذلك ، وسألته عن المذكور هل تعرف حقيقته ؟ قال : نعم . قلت : أخبرني . قال : أجمل أم أفصل ؟ قلت : بل أجمل . قال : حضرته يقرأ في المطوّل ، للسعد بحاشية السيد ، وهو ثلثهما (؟) فوقعت في قلبي موقعاً عظيما ، فذهبت إليه ، والتمست منه القراءة ، فأقرأني في فنون عديدة قلت : ولازمة المذكور سنين ، حضراً وسفرا ، حتى مهر في الحساب والفلك بأنواعه من هيئة وربُع واصطرلاب وغير ذلك ، ونظم في ذلك عدة مناظم ، ونظم « دليل الطالب » في ثلاثة آلاف بيت نظماً لا بأس به ، إلا أن نظمه بعده حسن وفاق ، حتى تراسل هو وأدباء اليمن بالقصائد الطنانة ، منها قصيدة للبليغ الكامل السيد أحمد صائم الدهر ، أولها :—

هو الجود حتى لا يخيب آمال (؟)

وآخر مطلعها :

بدت فأقرّتْ كل قلب وناظر ... فإن تحكيها يا بدرُ وجهاً فناظر

وكان عجيب الذكاء مع ما فيه من الخفة والاسترواح ..

وانفرد بتدقيق علم الجبر والمقابلة والخطائين والهندسة والهيئة ، حتى كان كبار تلامذة شيخه الشيخ عبد الله سراج يقرأون عليه ، ورأيته لا يرتضيهم تلامذة وأرسله شيخه السيد السنوسي إلى السودان في شغل ، فلما رجع وجد شيخه قد سافر إلى المغرب فلم تطب له الإقامة بعده ، وأراد اللحاق به ، فأرسله والى جدة عثمان باشا إلى الحبشة ، فطاب له المقام هنالك ، وسكن من سنة ١٢٥٧ ، وجاء منه مكاتبة سنة ١٢٧١ أن مراده المجيء ، ولكن له ولد لا يطيق الركوب على الدابة ، فلعله يكبر قليلا ، ويستصحبه معه لأنه إن تركه لم يجتمع به إلا في المحشر . ثم انقطع خبره بعد انتهى .

---

(١) هو محمد بن علي السنوسي الإدريسي صاحب الطريقة المعروفة توفي سنة ١٢٧٦ وقال الشيخ ابن بسام : إن ابن عريكان قرأ على السنوسي حينما كان مجاورا بمكة . فقد استقر بمكة وبنى زاوية في جبل أبي قبيس .

٤٣ — محمد بن حمد — بالتحريك — الهديبي (١)

— بضم الهاء وإسكان الياء التحتية بصيغة التصغير — نسبة إلى جدّ له يسمّى هُدَيْبا التميمي الزبيري مولدا ومنشأ المكي المدني جوارا ، المدني مدفناً، شيخنا الصالح العابد الورع الزاهد الفقيه النبيه التقي ، ولد في بلد سيدنا الزبير من أعمال البصرة في حدود سنة ١١٨٠ وبها نشأ فقرأ القرآن ، ثم العلم تفسيراً وحديثاً وفقها وفرائض ونحواً على الشيخ إبراهيم بن جديد وغيره ، ولكنه اختص به ولازمه ملازمة كليّة ، وانتفع ببركته وأحبه الشيخ محبة أكيدة ، وأخبرني أنه قال : خطب إليّ شيخي بنتي فأجبته ، فقال لي : أخاف عليك من كلام الناس لأنك قبيلي وأنا لست بقبيلي،وهذا عند الناس مستنكر فقلت : لا أسأل عن كلام الناس : فقال لا أرضى أن يتكلم فيك أحد . وقال : لما عزمت على الرحلة لسكنى الحرمين الشريفين عذلني وقال : اين تفارق أصحابك تستوحش لهم ويستوحشون لك ، ولا تجد من يذاكرك في الفقه ، وكلاماً من هذا القبيل . فلم ألتفت ، فلما رآني مصمماً بكى وقال : يا ليتني شعرةٌ في جسدك : فكاد ينخلع قلبي لفراقه ، وكدت أرجع عن عزمي ، ولكن سبق في علم الله مجاورتي ، فخرجت ومررت في طريقي بسوق الشيوخ ، فعرض عليّ شيخ المنتفق الإقامة عندهم ، ورغبني بكل طريق ، فلم أمل إلى ذلك فألحّ عليّ وقال : إذا مات قاضينا نوليك قضاء بلادنا فجاريته على مقدار عقله وقلت له : أكتب لي صكاً أنّي أعيش بعده ، فعرف غفلته وسرت إلى أن وصلت إلى المدينة المنورة وأخذت عن علمائها كالشيخ مصطفى الرحمني وغيره وفي الحديث ، وفي الفقه عن الشيخ أحمد بن رشيد الحنبلي ، وقد أخذت عن شيخه علامة الزمن الشيخ محمد بن فيروز ، حين قدم علينا البصرة لسكناها وأجازني ، فقد شاركت الشيخ أحمد في بعض مشايخه فصرت أنا مقرئ درسه مدة ، ثم هجم علينا سعود فصانعهم الشيخ أحمد ، وسلك معهم ، وقطعت حضور دروسه من يومئذ فعاتبني فقلت له : لابد أنهم يأمرونك بقراءة رسائلهم التي فيها تكفير المسلمين ، ، فكيف أقرؤها وأسمعها ؟ !

(١) ترجمه الشيخ عبد الله البسام نقلا عما هنا .

ثم قلت : أما تذكر حين أجازك شيخنا المرحوم الشيخ محمد بن هبرور وأوصاك بوصية منها :

أحــذرْ تُصبْ بعــارض من محق أهــل العــارض

فقد ظهرت إشارته ، وتحققت مكاشفته فقال : الله يعلم انى معهم بالظاهر لا بالباطن فقلت : ولم ؟ قال : لأدافع عن نفسى وعن أصحابي مثلك . ولقد صدق فانه دفع ونفع وقال : قلت سألت الله أن يرزقني أربع خلال أن يرزقني الإقامة بالمدينة أولا عشرين سنة ، والإقامة بمكة عشرين ، وأن يجعل موتي بالمدينة ، وأن لا أقطع الدروس إلا لمرض الموت ، وأن يرزقنى ولداً يقرأ القرآن ، ويطلب العلم ثم يموت حتى أحتسبه عند الله ، وقد استجاب الله له فيهن جميعها فجاء ولده عبدالله قرأ القرآن حفظاً وقرأ فى العلم فتوفاه الله ، وجاور فى المدينة عشرين سنة ثم تحول إلى مكة فجاور بها عشرين فلما تمت سنة ١٢٥٧ عزم على التوجه للمدينة والإقامة بها إلى الممات فبلغه الله ذلك وما قطع الدرس إلا لمرض موته وقال تلميذه وصهره على ابنتيه الرجل الخير صالح بن محمد بن جوعان : ما وضعنا الكراريس في كتبها إلا بعد موته . يعنى أنه لم ينو ترك الدروس فقد استجاب الله دعاءه ، وحقق رجاءه ، وكان قوي الرجاء بربه ، كثير الثناء عليه سبحانه دائماً يعدد نعمه عليه ، وكان في أول مجاورته لمكة يتسبَّبُ بالتجارة مع غاية التحري ، وتصحيح العقود ، والقناعة بالربح اليسير ، مع ملازمته على الدروس والعبادة ، ثم ترك التجارة وانقطع لا يخرج من المسجد إلا لبيته لمـا لا بُدَّ منه ، مواظباً على الصلاة مع الإمام الأول وخلف الإمام ، وكان كثير الخشوع ، دائم السجود والركوع ، عابداً ورعاً لا يأكل شيئاً من مال السلاطين ، بل يقبضه ويعطيه لبعض تلامذته ، كثير القراءة لكتب التفسير والحديث ، إذا قرأها لا يملك عينيه من البكاء خصوصاً الغزوات ، ولا يخل بوظائفه الليلية والنهارية إلا من عذر شرعي ، ولا يكاد يرى في طريق إلا لزيارة القبور ، أو لعيادة مريض ، ويعكف العشر الأواخر من رمضان كل سنة ، ولا يخرج من معتكفه إلا بعد صلاة العيد ، كما هو السنة في مذهبه بثياب اعتكافه ، وأول ما يخرج يذهب لزيارة المعلاة قبل أن يدخل بيته ولا يذهب إلى أحد ، ولا يشتهى أن يجيء عنده أحد ، ومن تطلبه ففي الدرس أو خلف الإمام .

توفى بالمدينة المنورة ثالث عشر ذى القعدة سنة ١٢٦١ ودفن في بالبقيع رحمه الله .

٤٤ ـ محمد بن ربيعة العوسجى النجدى (١)

قرأ على مشايخ نجد منهم الشيخ أحمد بن محمد القُصَيِّر ، ومنهم الشيخ عبدالله ابن ذهلان واشترى كتبه بعد موته ، وفيها كتب بديعة ، وكتب بخطه الحسن جملة ، ومهر في الفقه وكان قاضي بلد ثادق من وادى سُدَيْر توفى سنة ١١٥٨ (٢) .

٤٥ ـ محمد بن سيف العتيقى (٣)

رأيت له منظومة فى الآداب الشرعية لطيفة أولها :

أرى المجد صعباً غير سهل التناول أبيًّا شديداً معجزاً للمحـــاول

وهي طويلة ، وسمعت بعض الصلحاء يذكر له كرامة نقلها له بعضهم ، وهي أن المذكور حج ثم زار النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما خرجت القافلة خارج المدينة وعزم المذكور على الذهاب معهم إلى بلده رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، وقال له : يا محمد كيف تخرج من عندنا وأنت من جيراننا ؟ ! فلما أصبح نأى عن السفر ، ورجع إلى المدينة المنورة ، فأقام فيها أياماً قلائل ثم توفاه الله تعالى فيها ، ولا أدرى متى ولـكن غالب ظني أنه قبل المائتين بقليل أو بعدها بقليل والعلم لله سبحانه .

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام العوسجى الدوسرى : ولد فى ثادق عاصمة بلدان المحمل ، وآل عوسجة هم الذين عمرو ثادق سنة ١٠٧٩

وأقول : حدثنى الشيخ عبد الله بن عبد العزيز العنقرى أن للشيخ محمد بن ربيعة العوسجى نبذة فى تاريخ نجـــد ، بخط يده فى مكتبته أى مكتبة الشيخ العنقرى .

وقد ذكر الشيخ عبد الله البسام أن المترجم اشترى كتب شيخه ابن ذهلان لما توفى ، وأنه حصل كتباً كثيرة بخطه .

(٢) ذكر الفاخرى فى « تأريخه » أنه توفى فى شهر صفر سنة ثمان وخمسين ومئة وألف

(٣) زاد ابن بسام : (ابن أحمد العتيق النجدى ثم الزبيرى ثم ولد فى بلد حرمة ونشأ فيها وقرأ على علماء سدير ومن مشائخه والده سيف بن أحمد ، وبعد أن أدرك فى العلم انتقل إلى الزبير فسكن فيه. وجلس للتدريس والإفادة ، فانتفع بعلمه خلق كثير من تدريسه وفتاويه وألف مؤلفات منها « نظم الجواهر فى النهى والأوامر » ، وهو من بيت علم عريق فأبوه عالم وأخوه الشيخ محمد ابن سيف عالم وأبناء أخيه علماء . ثم نقل عن ابن حميد بعض ماذكر وقال : توفى فى المدينة فى نهاية القرن الثانى عشر وانقطع عقبه ، رحمه الله تعالى .

٤٦ ـ محمد بن طراد الدوسري

نسباً إلى أبي[١] الحسن ولد في سدير من نجد ، وقرأ على مشايخها ، ثم ارتحل إلى الشام[٢] فقرأ على علمائها ومنهم السفاريني فيما أظن ، ثم رجع إلى بلده فقرأ عليه جماعة منهم شيخنا الشيخ عبدالله أبا بطين توفي بعد المائتين والألف[٣] .

٤٧ ـ محمد بن عبدالرحمن بن حسين بن محمد بن عفالق العفالقي[٤]

نسبا الاحسائي بلدا

العلامة الفهامة الفلكي المحرر (؟) .

ولد في بلد الاحساء سنة(. ..)[٥] وبها نشأ وأخذ عن علمائها القاطنين بها ، والواردين إليها ، وأجازوه ومهر في الفقه والأصول العربية وسائر الفنون[٦] ، وفاق في علم الحساب والهيئة وتوابعهما ، فاشتهر بتحقيق

---

(١) كذا في الأصل وقال الشيخ عبد الله البسام : (محمد بن عبدالله بن حمد بن طراد الدوسري ، أصله من آل سيف أهل العينة ، وعشيرته القريبة يقال لهم آل أبا حسين . ولد في حوطة سدير) .

(٢) في سنة ١١٧٧ .

(٣) ذكر الشيخ عبد الله البسام أنه توفي في حوطة سدير عام ١٢٢٥

(٤) زاد في كتاب « علماء نجد خلال ستة قرون » (القحطاني ، فآل عفالق ينتسبون إلى عياف من ربيعة من عفرس بن خثعم) .

(٥) بياض في الأصل وفي كتاب « علماء نجد » (ولد المترجم في الأحساء عام ١١٠٠)

(٦) قال الشيخ عبد الله بن بسام في كتابه المذكور : (والمترجم أدرك أول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ، فعاداها وكتب إلى الشيخ رسالة يتحداه فيها بأن يبين له ماتحتوي عليه (سورة العاديات) من المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من العلوم البلاغية . إلا أنه توفي قبل أن تمتد دعوة الشيخ) .

علم الفلك وتدقيقه في عصره فما بعد ، وألف التآليف البديعة منها الجدول المشهور الذي اختصره تلميذه العلامة السيد عبد الرحمن الزواوي المالكي ، وعليه عمل الناس اليوم ، ومنها « مد الشَّبك لصيد علم الفلك » و« سلم العروج في المنازل والبروج » وغير ذلك وضبط هذا الفن ضبطاً عجيباً ، وجعل له أوضاعاً غريبة ، سهل فيها مأخذه وقرب طريقه ، واستدرك على من تقدمه أشياء ، فصار مرجعاً في هذه الفنون وعلى كتبه المعول ، واقرأ جميع الفنون جمعاً من الفضلاء أنبلهم الشيخ محمد بن فيروز ، وأخبر عنه بعجائب منها أنه قال : قال لي عند موته : في صدري أربعة عشر علما لم أسأل عن مسألة منها قبلك . والذي ظهر إلي أنه يعني غير الفقه والحديث والعربية والفلك ، لأن هذه العلوم قد أخذها عنه خلق كثير قبلي ومعي قال : وشرح « الغاية » في الفقه مبتدئاً من (كتاب البيع) فوصل فيه إلى (الصلح) حقق فيه ودقق ، وكان شخص من أقاربه يقرأ عليه مع رفقة له في قواعد الإعراب ، فلما خرج قال لبعض الطلبة : لم يزدنا الشيخ على مافي الشرح . فنقلت هذه الكلمة إلى الشيخ ، فلما كان من الغد وحضر الطلبة قال الشيخ لذلك الشخص : اقرأ الدرس الماضي فقرأه وشرع الشيخ في التقرير بأبلغ عبارة وأوسع نقل إلى الضحوة ، ثم قال لذلك التلميذ : ما فهمت من هذا ؟ فقال : لم أفهم شيئاً منه فقال : لهذا لم أزدك على ما في الشرح . وكان عالماً عاملا كاملا فاضلا محققاً ماهراً توفي في الاحساء سنة ١١٦٤[١] . انتهى .

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام : بعد ذكر هذا : (وقال الشيخ محمد بن سلوم إن وفاته سنة ١١٦٢ ولعله هو الصواب . والله أعلم . قال الشيخ ابراهيم بن عيسى توفي محمد بن عفالق وله ثلاث وستون سنة) .

٤٨ ـ محمد بن عبدالله بن محمد بن فيروز التميمي الاحسائي[1]

العلامة الفهامة ، كاشف المعضلات ، وموضح المشكلات ، محــرر أنواع العلوم ، ومقرر المنقول والمعقول بالمنطوق والمفهوم ، ولد في مدينة الأحســاء سنة ١١٤٢ ونشأ بها في كنف والده وكف بصره بالجدري وهو ابن ثلاث سنين ، وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر لأني كنت إذ ذاك لابساً أحمر ووضع الله فيه من سرعة الفهم وقوة الإدراك وبطء النسيان وشدة الرغبة والحرص ، والفتوح الباطنة والظاهرة ما يتعجب منه ، فحفظ كثيرا من الكتب منهــا مختصر المقنع في الفقه » وألفية العراقي » في المصطلح » وألفية ابن مالك » في النحو وألفية السيوطي » عقود الجمان في

---

(١) زاد الشيخ عبد الله البسام بين فيروز ومحمد (بن عبد الوهاب بن عبد الله بن فيروز ابن محمد بن بسام بن عقبة بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوى بن وهيب الوهيبى التميمى نسبا النجدي أصلا ، الأحسائى مولدا ومنشأ ، ثم البصرى وفاة الزبيرى مدفنا قال عن نفسه : أما الفقير ، أبوه وجده فيقال فى نسبة كل واحد منهما الفيروزى لأننا من ذرية فيروز ابن محمد بن عقبة بن وهيب بن قاسم ، وإلى وهيب تنسب قبيلتنا و آل مشرف فيقال لهم الوهبة ، ثم لخص ترجمته مما هنا . وقال : (وصادف ظهوره وشهرته عند قيام الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته ، فتكاتبا وتبادلا رسائل لاداعى لذكرها ، فأخذ الشيخ محمد على ابن فيروز وأتباعه إباحةالتوسل بالذوات ، وشد الرحال إلى القبور ونحوها من وسائل الشرك. والذى نقوله — لله تعالى ثم للعقيدة والتاريخ — أن الحق والصحيح هو مادعا إليه ومانهى عنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وإذا حصل غلط أو جهل من بعض من ينسب إلى نهجه وطريقه فلا عتب عليه فى ذلك . والقصد أن محمد بن فيروز بقى فى الأحساء يحارب بلسانه وبيانه الدعوة وأهلها وصار يكاتب السلطان فى (استانبول) ووزراءه ومشيخة الاسلام حتى عجز ، فلما قويت الدعوة بمساندة الأئمة من آل سعود الذين أعز الله بهم هذه الدعوة السلفية وأوشكت الجيوش السعودية أن تستولى على الأحساء فى عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود أرتحل ابن فيروز منالاحساءإلى البصرة ، وهناك استقبل فيها استقبالا حافلا وارتحل معه طوائف كثيرة من حاشيته وأتباعه وتلاميذه) وقال الشيخ عبد الله البسام — أيضا — (والقصد أن المترجم حارب هذه الدعوة ، فله رسائل إلى السلطان يحرضه على قمع الدعوة ، ويوجد شئ منها فى « عنوان المجد » لابن بشر الطبعة الأخيرة الكاملة إلى أن قال — ولما تيقن استيلاء أنصار الدعوة على الاحساء خاف منهم ... وقال قصيدة مؤثرة مطلعها :

سلام فراق لاسلام تحية ... على ساكنى نجد وأرض اليمامة

المعاني والبيان » « وألفية ابن الوردي » في التعبير ، وشيئا كثيرا لم أتحقق تعيينه ، بل سمعت من بعض صلحاء العوام أنه كان يحضر درسه في البصرة وهو علي « صحيح البخاري » بأسانيده من حفظه ، وهذا في عصرنا مستغرب جداً فالله أعلم بصحته ، وبالجملة قد كان في الحفظ آية باهرة ، متوقد الذكاء ، كأن العلوم نصب عينيه ، أخذ الحديث عن علماء عصره ، وكذا الفقه والنحو والمعاني والبيان ، وسائر الفنون ، وأجازوه باجازات مطوله ومختصرة ، وأثنوا عليه الثناء البليغ فممن أخذ منه الحديث حافظ عصره ، ومسند مصره ، الشيخ أبو الحسن السندي نزيل المدينة المنورة والشيخ العلامة محمد سعيد سفر المدني ، والشيخ سلطان الجبوري ، البغدادى ثم المدنى ، والشيخ سعيد بن غردقة الأحسائى (١) والعلامة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الأنصاري الأحسائي الشافعي ،والشيخ محمد حياة السندى ثم المدنى .

وأخذ الفقه عن والده وعن العلامة المحقق محمد بن عبد الرحمن بن عفالق الأحسائي ، ولازمه ملازمة كلية وكثر تفقهه به ، وكذا أخذ عنهما الأصولين ، وعن الثاني الفرائض والحساب وتوابعهما ، والهيئة والهندسة .

وأخذ النحو والصرف والمعاني والبيان عن شيخ الشافعية في عصره ، ورئيسهم في مصره ، عبد الله بن عبد اللطيف السابق ذكره .

ومهر في جميع هذه الفنون وتصدر للتدريس في جميعها ، وأفتى في حياة شيوخه ، وكتبوا على أجوبته وفتاواه بالمدح والثناء ، وتأهل للتأليف ، ونفع الله به نفعا جمًّا . وصار يرحل إليه من جميع الأقطار ، حتى أنه يجتمع عنده من الطلبة نحو الحسين وأكثر ، كلهم يقوم بكفاياتهم ، ويتفقد أمورهم ، في جميع مايلزم لهم . كأنهم أولاد صلبه بلا فرق ، ولا يمكن أحداً ممن يأتي عنده من الأجانب لطلب العلم أن ينفق من كيسه ، ولو كان

---

(١) في كتاب « علماء نجد خلال ستة قرون » : (سعد بن محمد بن كليب بن غردقة الأحسائي المالكي) .

غنياً ويقول : من لم ينتفع بطعامنا لاينتفع بكـــلامنا ! فوضع الله له القبول في أقطار الأرض ، وكاتبه علماء الآفاق من البلاد الشاسعة بالأسئلة والمدائح وطلب الإجازات ، والدعاء ، ونجب خلق ممن قرأ عليه ، فـــكان أهـــل البلدان يأتون إليه ، ويطلبون منه أن يرسل معهم واحداً منهم ، يفقههم في الدين ويعظهم ، ويقضي ويدرّس ويصلي بهم ، ويخطب ، فيرسل معهم من استحسن ، فلا يخالفه التلميذ في شيء أصلا ، بل كانت الطلبة يمتثلون منه أدنى إشارة ، ويعدونها أسنى بشارة ، وتركوا أوطانهم وأهاليهم ، وعكفوا [في] ناديه .

فممن برع منهم حتى وصل إلى درجة التأليف شيخ مشايخنا العلامة فرَضِيُّ زمانه ، الشيخ محمد بن سَلُّوم ، والفقيه النبيه الشيخ عثمان بن جامع ، وابنه الأديب اللبيب الشيخ عبدالله بن عثمان ، والمحقق النجيب الشيخ عبدالعزيز بن عدوان ابن رَزين ، والماهر الباهر الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد ، والعلامة الورع الزاهد الشيخ ابراهيم بن ناصر بن جـــديد ، والمحقق البـــارع الشيخ ناصر ابن سليمان بن سُحَيْم ، والفاضل الشيخ عبد الله بن داوود وغيرهم ومن هو دونهم خلق لا يحصون ، من الفضلاء من أهـــل الأحســـاء والبحرين والبصرة ، وبلد سيدنا الزبير ونجد ، بل لا يعرف في عصره لغيره من الشهرة مثل ماله بحيث أنه يطلق عليه شيخ العصر ، وكان قصير القامة ، طويل الاستقامة ، عليه أنوار زاهرة ، وآثار العلم والصلاح ظاهرة ، مهيبا معظما عند الملوك فمن دونهم ، مقبول الـــكلمة نافذ الإشارة ، بحيث كاتب السلطان عبد الحميد خان يستنجده على قتال البغاة الخارجين بنجد ، رأيت مسودة بخط ابنه النجيب الشيخ عبد الوهاب ، وافتتحه بقصيدة من نظمه ، ونثر بليغ ، فتحرك لذلك ، ولـــكن اخترمته المنية قبـــل إتمام مرامه ، وكان الشيخ معهم في همّ وأذى ، ونصبوا له الحبائل ، حـــتى بذلوا على قتله خمسمائة أحمر ذهبـــاً فتَسوَّر عليه جماعة من الأشقياء ليـــلاً ، وطلعوا إلى داره في سُلَّم فانكسر بهم ، وتعطل بعضهم ، فحمله الباقون وهربوا ، فعـــدَّت هـــذه من الـــكرامات التي لا تنكر ، وكان الشيخ يرد عليهم ،

يبين خطأهم ، وينصح الناس عنهم ، فلهذا أتخذوه أكبر الأعداء ، وكفروه ، وصار عندهم يضرب به المثل فى عظم الشرك ، وأنه ممن أضله الله على علم .

فلما رآى هذا منهم وهم في شوكة وصولة وفتك وسبي ، وأمرهم في ازدياد ، عرف أنهم يأخذون الأحساء ، فلم يطب له المقام بها ، وارتحل بأهله وأولاده ومن يعزّ عليه إلى البصرة ، وتبعه تلامذته ، فسافروا دفعات براً وبحراً ، مع غاية الخوف والوجل ، فسلمهم الله .

ولما وصل إلى البصرة تلقاه واليها عبد الله أغا بالاكرام والتعظيم ، وهرع إليه الخلق على مراتبهم للسلام عليه ، والتبرك برؤيته ، والتماس أدعيته ، وكان يوماً مشهوداً ، امتلأت منه قلوب أهل البصرة سروراً ، وطلب منه الأغا المذكور أن يقرأ « صحيح البخارى » في جامعه الذي بناه ، فجلس الشيخ للإقراء ، وتكاثر الخلق ، حتى ضاق المسجد عنهم فوسعه الباشا ، لأجل هذا الدرس ، وقد نقلنا قول من حضر ذلك الدرس أن الشيخ كان يُملي صحيح البخاري بأسانيده من حفظه ، ولكن المخبر رجل عاميٌّ لا يعتمد نقله في مثل ذلك ، بل أخبرني آخر مثله قال : كنا عند الشيخ ابراهيم بن جديد في بلد سيدنا الزبير ، فدخل عليه شخص بهيئة بدوي فقام له الشيخ ، واعتنقه وأكرمه ، وأقبل عليه بكليته ، فاستغربنا ذلك ، فلما خرج قلنا للشيخ عن ذلك فقال : هذا من تلامذة شيخنا من آل حُمَيْد أمراء الأحساء ، فلما أجلاهم سعود خرج معهم وهو يحفظ « صحيح البخاري » وسألته عن حفظه الآن لعله باق فقال : نعم بحمد الله ! وهذا إن صح فهو عجيب ، والله الفاتح سبحانه .

ثم صار للشيخ شهرة في البصرة ماهي دون شهرته في الأحساء ، وهرع إليه الطلبة من رحل إليه أولا ومن لم يرحل ، واستجازوه ، فأجازهم بإجازات بليغة أغلبها نظما من الرجز ، ولكن نظمه نظم العلماء

وكتب إليه علامة الشام مفتي الشافعية بها كمال الدين محمد بن محمد ابن محمد الغَزّي العامري قصيدة بليغة وكتابا يطلب منه الإجازة ، وأجابه وأجازه نظما نحو سمائة بيت فأرسل إليه قصيدة أخرى ضمن كتاب يتشكر منه ، ويطلب منه أن يرسل إليه تراجم مشايخه ومشايخهم ، وأقرانه وتلامذته ، ليثبتهم في كتابه « النعت الأكمل في طبقات أصحاب الإمام أحمد بن حنبل » فأرسل إليه جزءا ضمنه ما طلب ، ورأيته في شبيبتي ، ثم لما احتجت للنقل منه في هذا جحده مالكه ، فتوسلت إليه بكل طريق فلم ينجح فيه ، وأصر على الجحود والانكار فحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكتب للشيخ ناصر بن سليمان بن سُحيّم إجازة منظومة تنوف عن مائتي بيت أولها :

الحمد لله الذي قد رفعا ... مقام من للهاشميّ اتّبعا

محمد الهادي النبي المرسل ... بالحق والنور المبين المرسل (١)

إلى آخرها .

وأخبرني بعض كبار أقاربي الذين أدركتهم في حال الشيخوخة وكان صالحا متعبدا له مذاكرة في أطراف من العلم ، عن جدّي لأمي الشيخ عبد الله بن منصور بن تركي وكان من أهل العلم ، قال : مر بنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق قاصداً الحج معه تلامذة فضلاء منهم الشيخ المترجم ، وكان شيخه يعظمه كثيرا ويقدمه عليهم ، فتعجبنا وقلنا له : ما سبب تقديمك لهذا الأعمى ؟ فقال : تفرست فيه شيئا عظيما فإن

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب (المنزل)

صدقت فراستي فسينفع الله به هذا الجيل . قال : فما زلنا نسمع بصعوده وسموه إلى أن رأيناه بلغ ذلك المبلغ الذي لم يبلغه أحـد في عصره انتهى .

وله تصانيف ليست على قدر علمه وقدره ، وأجاب عن أسئلة عديدة في الفقه بجوابات مسددة بديعة ، لو جمعت لجاءت في مجلد ضخم ، ويا أسفي عليها فإن فيها من التحقيق والتدقيق مالا يكاد يوجد ، وكان له نهمة عظيمة في تحصيل الـكتب ، واستنساخها وكذلك ابنه الشيخ عبد الوهاب ، فـكان جماعة من طلبة العلم يكتبون لهم كتب العلم مدى أوقاتهم ، فكتبوا شيئا كثيرا جـدا .

توفي رحمة الله ليلة الجمعة غرة محرم الحرام افتتاح سنة ١٢١٦ وعمره خمس وسبعون سنة ، وصُلِّيَ عليه بجامع البصرة ولم يتخلف من أهلها إلا معذور ، ثم حـمل على أعناق الرجال إلى بلد سيدنا الزبير من بعدها ، وشيعه خلق ركبانا ومشاة فصلى عليه في جامع الزبير ، ثم دفن لصيق ضريح سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه وأرضاه ، وصار للناس حزن وكأب لفقده ، فلا تسمع إلا باكيا أو باكية . ورثي بقصائد بليغة كثيرة من أهل الأمصار من سائر المذاهب ، منهم الشيخ صالح بن حسين آل موسى الأحسائي المالـكي وآخره بيت التاريخ وهو :

وخاطبـه التاريخ فألا بقوله ... تبَوأتَ مِنْ عَدْنٍ أجَلَّ المنازل

ومنهم الشيخ صالح بن سيف العتيقي وآخرها بيت التاريخ وهو :

وأعطـاه ربي ماحوى تاريخـه ... هنئت في الفردوس أرفع مسكن

٤٩ ـ محمد بن علي بن سلوم التميمي [١]

العلم المفرد ، والهمام الأوحد ، ولد في قرية يقال لها العَطَّار – بفتح العين وتشديد الطاء – قرية من قرى سُدَيْر من نجـد ، وقرأ القرآن في صغره ، ونشأ في طلب العلم فلم يجد من يشفي أوامه فارتحـل إلى الأحساء ، للأخذ عن علامتها الشيخ محمد بن فيروز لشهرته ، فأكرم مثواه ، وقربه وأدناه ، وصار كولده لصلبه ، وقرأ عليه في التفسير والحديث والفقه والأصلين ، فمهر في ذلك ، لاسيما الفرائض وتوابعها من الحساب والجبر والمقابلة ، وكان فيها فرداً لايلحق ، واشتهر بها ، وصار عليه فيها المعول في حياة شيخه ، حتى أن شيخه أمره أن يقرىء بعض طلبة هذه الفنون لمهارته فيها ، ولم يزل ملازماً لشيخه في جميع دروسه ، رفيقاً في المطـالعة لابنه النجيب الشيخ عبد الوهاب ، وحج وزار فاستجاز علماء الحرمين فأجازوه ، وأجازه شيخه ومشايخ الأحساء وغيرهم بإجازات بليغة ، ثم لـما تحول شيخه إلى البصرة تحول[٢] معه ولم يفارقه حتى مات ، فسكن بلد الزبير ، ثم طلبه شيخ المنفق لقضاء بلده . سوق الشيوخ وخطابتها ، فامتنع ، فطلب ولده الشيخ عبد اللطيف فامتنع كما سبق في ترجمته ثم أجاب وقال لوالده بشرط أن تسكن معي في سوق الشيوخ لأراجعك فيما أشكل عليّ فرأى الأمر متعينا عليه فوافق وارتحـل إليها بأهله وأولاده ، وجلس فيها للتدريس ، فانتفع به خلق في المذهب ، وخصوصا الفرائض والحساب والجبر والمقابلة

---

(١) ساق الشيخ عبد الله بن بسام نسبه هـكذا : (محمد بن علي بن سلوم بن عيسى بن سليمان ابن محمد بن خميس بن سليمان الوهيبي ثم التميمي) وقال عن خميس جد ابن سلوم : (خميس بن سليمان الوهيبي ولد في أشيقر ... ولم يزل مجدا في طلب العلم حتى أدرك فولي القضاء في بلده أشيقر ، وكان بينه وبين العلامة الشيخ مرعي بن يوسف مصنف « الغاية » مراسلة وتعارف .. وتوفي في أشيقر . وأما ذريته فانتقلوا منها وسكنوا بلدة العطار . والمترجم خميس من علماء أول القرن الحادي عشر رحمه الله) انتهى ملخصا .

(٢) علق الشيخ عبد الله البسام على هذا بقوله – في الكلام على شرح البرهانية الكبير (قال في مقدمته : وإنما حرك ساكن العزم الفاتر وورود شيخنا الشيخ محمد بن فيروز . وورد على هذه الناحية قوى عزمي . وهذا يدل على أنه سبق شيخه إلى سكنى العراق لا كما قال ابن حميد) .

والخطأين والهيئة والهندسة فقد تميز أهـــل تلك البلدة في هـــذه الفنون ببركته ، وكان تقيا نقيا ، ورعا صالحا عابدا ، دائم المطالعة سديد المباحثة والمراجعة ، مكبا على الاشتغال بالعلم والانهماك فيه ، منذ نشأ إلى أن مات ، لين الجانب ، حسن العشرة ، دمث الأخلاق ، كريم السجايا ، متعففا قانعا ، ملازما للتدريس ، مرغبا في العلم ، معينا عليه ، حسن الخط ، جيـــد الضبط ، كتب شيئا كثيراً جـــدا ، رقيق القلب ، سريع الدمعة كثير الخشوع .

ألف تآليف مفيدة منها « الشرح الـــكبير للبرهانية » في الفرائض حقق فيه ودقق ، وجمع فيه زبدة الفن ، وقرظ له عليه شيخه وغيره من العلماء نظما ونثرا ومنها «الشرح الصغير» عليها[1] أيضا ومنها «مختصر صيد الخاطر» « ومختصر شرح عقيدة السفاريني»[2] « ومختصر مجموع المنقور» « ومختصر «تلبيس إبليس » « ومختصر عقود الدور واللآلي ، في وظائف الشهور والأيام والليالي » لابن الرسام « وشرح أبيات الياسيميني في الخطأين وغير ذلك .

ورأيت في مكتوب له إلى بعض محبيه أن له جزءاً في « مناقب بني تميم» وغير [3] ذلك .

وكانت ترد عليه الأسئلة من أفاضل كل قطر نظما ونثرا ، فيجيب عنهـــا كذلك ، منهم العلامة السيد عبد الرحمن الزواوي سأله عن ألغاز عديدة بنظم

---

(١) قال الشيخ عبد الله البسام (وقد عابه أمير بريدة سابقا عبد الله بن فيصل بن فرحان ، وصدره الشيخ عمر بن حسن ذكر أنه من شرق بالدعوة السلفية ولـــكنه لايدرى عما آل إليه أمره) .

(٢) وقال الشيخ ابن بسام : (وهو أحسن مختصرات هذا الشرح المطول وقد فرغ من اختصاره سنة ١٢٢٧ وقد طبع .

(٣) زاد الشيخ عبد الله : (وذكر ابن بشر أن له تاريخا صغيرا لنبلاء نجـــد ، ونقل عن الأستاذ عباس العزاوى أن له رسائل فى سائر العلوم الرياضية من الحساب والهيئة والهندسة ، وهى غير الرسائل والـــكتب التى لابنه عبد الرازق بن محمد بن سلوم

فأجابه عنها من بحره ، وقافيته[1] ، وأصيب ببصره في آخر عمره ، وتوفى ليلة الجمعة ثاني عشر رمضان بين الظهر والعصر سنة ١٢٤٦ في سوق الشيوخ وأوصى أن يدفن قريب السور خلاف عادتهم في دفن الأكابر في الصحراء بعيدا عن الأرض النّديّة وقال : أدفنوني في مكان أسمع منه الآذان ولا أدري مامستنده في ذلك ، ولعله اطلع على شيء في ذلك وقد ذكر الحافظ ابن حجر في « تخريج أحاديث الرافعي » حديثا : أنه لا يزال الميت يسمع الآذان مالم يُطيّن قبره رواه الحاكم ، ورواه الحافظ فإن كان هذا مستنده فهذا كما نرى في التطيين لا في البعد والعلم عند الله[2] .

وهو والد الشيخ عبد اللطيف والشيخ عبد الرازق الماضيين ، وناصر وأحمد والد صاحبنا الشيخ عبد الله الذي تولى قضاء سوق الشيوخ ومات فيها سنة ١٢٧٩[3] .

---

(١) أورد الشيخ عبد الله نماذج من المساجلات الشعرية التي جرت بينه وبين السيد عبدالرحمن الزواوى .

(٢) قال الشيخ عبد الله البسام: (والمترجم معاصر للدعوة السلفية التي جددها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وهو من الموالين لأعدائها - كمحمد بن فيروز وأحزابه - ولم يكن من الموالين لها ، إلا أنني لم أجد له رداً على الشيخ محمد ولا على دعوته ، ولم أر له كلاما فى ذلك ولا اعتراضا عليها ، مع أنني اطلعت على كثير من كتبه وأجوبته ، وما أحسن ماقال الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ : إنا لاندرى خاتمة هذا الرجل ، فالله أعلم بحاله ، وقد أفضى إلى علام الغيوب انتهى)

(٣) وممن لم أر لهم تراجم فى كتاب السحب الوابلة « فلخصت تراجمهم من كتاب وعلماء نجد » للشيخ عبد الله البسام

١ - محمد بن أحمد بن اسماعيل ولد فى أشيقر وفيها نشأ وتعلم وتولى القضاء والتدريس حتى جاء مرجعا لأهل نجد فى العلم ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الله بن محمدبن ذهلان والشيخ أحمد بن محمد ابن بسام وأحمد بن محمد القصير وتوفى سنة ١٠٥٩

٢ - محمد بن أحمد بن محمد بن منيف بن بسام الوهبى المعروف بالقاضى جفا القضاة أهل عنيزة تولى قضاء عالية نجد .

وهو من أهل القرن العاشر الهجرى .

٣ - محمد بن أحمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن سلطان الملقب بالقصير الوهيى .

ولد فى أشيقر من بيت علم فوالده كبير علماء نجد ، وعماه عبد الله ومحمد من العلماء .

. . . .

تولى القضاء ببلدته أشيقر حتى توفى سنة ١٣٣٩

٤ - محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن اسماعيل ولد فى أشيقر ، وصار من أهل العلم وتوفى سنة ١١٣٥

٥ - محمد بن عبد القادر بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف الوهيبى .
ولد فى أشيقر وكانت مقر علماء نجـد فى ذلك الزمن وفيها تعلم ثم انتقل إلى العينية فأخذ عن الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة الناصرى التميمى (توفى ابن عطوة سنة ٩٤٨) وهو من أهل القرن العاشر .

٦ - محمد بن عبد الله بن حسن بن منصور بن بريد بن مشرف ولد فى أشيقر . وفيها نشأ وقرأ على علمائها وتولى قضاءها وإفتاءها حتى توفى سنة ١٠٢٥ .

٧ - محمد بن عبد الله بن سلطان الدوسرى . درس على الشيخ سليمان بن على وولى قضاء المجمعة وافتاءها والتدريس فيها حتى توفى سنة ١٠٩٩

٨ - محمد بن عبد الله السويكت الوهيبى . ولد فى أشيقر ونشأ فيها وتلقى عن علمائها وكانت آهلة بالعلماء منهم أحمد بن محمد القصير وحسن بن عبد الله آل أبا حسين .
وتولى قضاء ثادق والتدريس والوعظ فيها وهو من أهل القرن الثانى عشر فشيخه توفى سنة ١١٢٤

٩ - محمد بن عبد الله بن الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل . ولد فى أشيقر وفيها تعلم ومن مشائخه الشيخ سليمان بن على بن مشرف - جد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهو تلميذ جده الشيخ محمد بن أحمد بن اسماعيل . وتوفى فى بلدته سنة ١١٠٩

١٠ - محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن اسماعيل ولد فى بلدة أشيقر فى بيت علم وكان فقيها وتوفى سنة ١٠٩٠

١١ - محمد بن الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الوهاب المشرفى الوهيبى ولد فى العينية وتلقى العلم عن أبيه قاضى العينية توفى سنة ١١٢٦ .

١٢ - محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن فيروز بن محمد بسام الوهيبى ولد فى أشيقر وتلقى عن علمائها ودرس فيها ثم تولى قضاء الـكويت سنة حتى توفى فيها سنة ١١٣٥

١٣ - محمد بن محمد بن حسن بن أحمد بن حسن بن سلطان - القصير - الوهبى التميمى .
ولد فى أشيقر وبها نشأ وتعلم ومن مشائخه أخوه أحمد القصير وتلقى عنه العلم جماعة منهم ابن أخيه الشيخ محمد بن أحمد القصير توفى سنة ١١٣٩

١٤ - محمد بن موسى البصيرى :
ولد فى العيينة فى أول القرن الحادى عشر . وتلقى العلم عن علمائها وغيرهم كالشيخ محمد ـ

٥٠ ـ ناصر بن سليمان بن محمد بن أحمد بن علي بن سحيم

بضم السين وفتح الحاء المهملتين ثم ياء تحتية ساكنة[1] ولد في بلد سيدنا الزبير من أعمال البصرة ، وقرأ على مشايخها ، ثم ارتحل إلى الأحساء للأخذ عن علامتها الشيخ محمد بن فيروز ، فقرأ عليه في أنواع العلوم ، حتى أدرك ماأمل ، وقرأ على غيره أيضاً ، وأجازه منهم قاموس ورَضِيّ العربية الشيخ عبد الله بن محمد الكردي ناظم حروف المعاني والزواجر وشارحهما فرجع إلى بلده ، وشرع يدرس ويفيد ، وكان عالما عاملا ورعا صالحا ، له شهرة وذكر عال ، لما جمع من العلم والتقوى ، ومدحه الأفاضل بالنظم والنثر ، منهم لسان الزمان ، ونابغة الأوان الشيخ عثمان بن سند البصري المالكي فقد كتب له نسخة من منظومته في أصول الفقه بخطه المنمق البديع وأهداها إلى المذكور وكتب عليها مانصه :

الحمد لله الكريم المفضل	مصليا على ختام الرسل
وآله الغر التقاة السادة	وصحبه ائمن الثقاة القادة
ما نسجت أنامل الأقلام	مطارف الإبداع للانظام
هذا وإني قد قضيت نظما	من هذه البكر العروب العصما
نمقتها بالرقم والكتابة	مزفوفة لباهر النجابة

= ابن أحمد بن اسماعيل، وزامل الشيخ عبد الله بن ذهلان، وممن أخذ عنه الشيخ عثمان بن قائد وتوفى فى العيينة آخر القرن الحادى عشر .

١٥ — محمد بن ناصر بن محمد بن عبد القادر بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد بن مشرف ولد فى أشيقر ، وكان والده وجده وجد أبيه من العلماء وعن علماء بلده وعن الشيخ عبد الله ابن ذهلان تلقى العلم . توفى فى القرن الثانى عشر .

١٦ — منيع بن محمد بن منيع العوسجى :

ولد فى بلدته ثادق ، وتلقى العلم عن الشيخ عبد الله بن ذهلان والشيخ سليمان بن على . وتميز فى علم النحو وتولى التدريس والإفتاء وتوفى فى ثادق عام ١١٣٤

١٧ — موسى بن عامر بن سلطان :

قاضى الدرعية . درس على يحيى بن عطوة . توفى سنة ١٠٢١

(١) قال الشيخ عبد الله البسام : (من فخذ الحبلان من قبيلة عنزة ... ولد سنة ١١٧٧هـ)

المنتهى في سائر الفنون ... حتى شأى مؤلف «الفنون»
كما إليه المنتهى والغاية ... في صحة الاسناد والرواية
مغنى اللبيب غنية الألباب ... بل بهجة الخلان والأصحاب
ومقنع الطلاب في العلوم ... ونزهة الأفكار والفهوم
ناصر الناصر دين الباري ... بعضب علم مصلت بتّار
زفقت هذي الغادة الخريدة ... بل هذه اليتيمة الفريدة
إلى جنابه التليد المجد ... وفهمه الماضي الحديد الحد
إذ طالما تشرف بالزفاف ... شريفة زُفّتْ إلى أشراف
فاسأل الله الذي يسرها ... بأن يقيم في حماه نشرها
والحمد لله مع الصلاة ... على النبي خاتم الهداة

وكان خط المترجم مضبوطاً نيراً وهو من بيت علم وفضل ، ولجده محمد رد على ابن عبد الوهاب أجاد فيه وإياه عنى الشيخ محمد ابن فيروز بقوله من إجازته للشيخ ناصر المنظومة :

وجدُّهُ الأجَلُّ ممن قمعا ... مبتدع العارض فيما ابتدعا
وبيته الرفيع في العلوم ... أرفع بيت شِيدَ في القديم

إلى آخره :

وتوفي المترجم سنة ١٢٢٦[1] في بلد سيدنا الزبير رضي الله عنه .

وتوفي والده سنة ١١٨١ وكان من أهل العلم والفضل[2] ، وكذلك والده

---

(١) زاد الشيخ ابن بسام يوم الجمعة السابع عشر من شهر محرم .

(٢) هو سليمان ترجمه الشيخ ابن بسام بما ملخصه : (ولد في المجمعة في ٧ ذي الحجة سنة ١١٢٠ واستوطن الرياض وصار مدرس أهل البلاد ومفتيهم وإمامهم وخطيبهم في زمن دهام بن دواس . ولما اشتهر أمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتب إلى المترجم كتابا لطيفا إلا أنه أظهر العداء ونفر عن الحق وصار يهاجم الشيخ ودعوته ، فاحتدم الجدال بينه وبين الشيخ ، وفي « تاريخ ابن غنام » نماذج من الجدال ، ولكن الله أظهر الحق وأخذ الباطل .. والمرجح عندي أن دعوة الشيخ لما قويت لم يبق للمذكور قدرة في محاربتها فسافر إلى الزبير لأن ابنه ناصرا ولد فيه ، فالراجح أن وفاته في الزبير في سنة ١١٨١هـ) .

محمد[1] وكذلك والده أحمد .

ومن أقاربه عبد الله بن أحمد بن محمد بن سحيم كتب كتباً كثيرة منها « منظومة ابن عبد القوي » في الفقه مؤرخة سنة ١١٧٣ وخطه حسن[2] .

٥١ ــ فاطمة بنت حمد الفضيلي الزبيرية

وتعرف بالشيخة الفُضَيْلِيَّة ــ بضم الفاء وفتح الضاد المعجمة وإسكان الياء التحتية وبعدها لام مكسورة فياء تحتية مشددة ــ الشيخة الصالحة العالمة العابدة الزاهدة ، ولدت في بلد سيدنا الزبير قبيل المائتين ونشأت بها ، وقرأت على شيوخها ، وأكثرت عن الشيخ ابراهيم بن جديد فأخذت عنه التفسير والحديث والأصلين ، والفقه والتصوف ، وقرأت [على] غيره كثيرا وتوجهت إلى العلم توجها تاما ، وتعلمت الخط من صغرها فأتقنته ، وكتبت كتبا كثيرة في فنون شتى ، وخطها حسن مُنَوَّر مضبوط ، وصار لها همة

---

(١) قال الشيخ ابن بسام : (يقال له رد على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقال إلا أن هذا البيت العلمي من قاوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وعاداها) .

وقال في ترجمة عبد الله بن محمد بن أحمد بن سحيم : (ولد في المجمعة ، وقرأ على علماء سدير وغيرهم ، وصارت هوايته نسخ الكتب لنفسه ، فجمع من ذلك مكتبة كبيرة غالبها بخط يده حتى لقب الكاتب . وصار عمدة لمقاطعة سدير في التدريس والافتاء والتعليم حتى اشتهر أمره فلما قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بدعوته كتب إلى المذكور رسالة لطيفة ذكرت في « تاريخ ابن غنام » إلى أن قال ــ والمترجم على ماقرأنا من تواريخ نجد ومادار حول دعوة الشيخ محمد رحمة الله هو أخف عشيرته معاداة للدعوة السلفية ولي المترجم قضاء المجمعة وتوفي سنة ١١٧٥ هـ

(٢) ومن كتاب « علماء نجد » باختصار :

ناصر بن محمد بن عبد القادر بن راشد بن بريد بن مشرف

ولد في أشيقر ، وتلقى العلم عن والده الشيخ محمد بن عبد القادر ، تلميذ أحمد بن عطوة ، وأخذ عنه ابنه الشيخ محمد بن ناصر . وتولى قضاء بلدته. وتوفي في القرن العاشر .

في جمع الـكتب فجمعت كتبا جليلة في سائر الفنون ، ولها محبة في الحديث وأهله ، فسمعت كثيرا من المسلسلات ، وقرأت شيئا كثيرا من كتب الحديث ، وأجازها جمع من العلماء واشتهرت فى مصرها بل وفى عصرها وكاتبها الأفاضل في الآفاق ، وكاتبتهم بأبلغ عبارات ، وأعظم مدح ، ثم حجت وزارت ورجعت إلى مكة المشرفة ، وأقامت بها في باب الزيادة في بيت ملاصق للمسجد الحرام ، ترى منه الـكعبة المشرفة ، وعزمت على الإقامة فيها إلى الممات، فتردد إليها غالب علماء مكة المشرفة ، وسمعوا منها وأسمعوها وأجازتهم وأجاروها ، خصوصا قمريتها(...)[1] العلامة الورع الزاهد ، الثبت القدوة شيخ الاسلام الشيخ عمر عبد الرسول [2] الحنفي ؟ والعلامة الحجة الورع العمدة الشيخ محمد صالح الرئيس مفتي الشافعية فإنهما كانا كثيري التردد إليها ، والسماع منها من وراء ستارة، ويريان أنهما يستفيدان منها وهي ترى كذلك كما أخبرني بذلك تلامذتها منهم الشيخ محمد بن خضر البصري ، قال : وكانت هذه حالهما مع بعضهما ، فإن الشيخ عمر كان يسابقني إلى حمل مداس الشيخ محمد صالح وتقديمها له ، من غير أن يعلم ، والشيخ محمد صالح يقول : ياليتني شعرة في جسد الشيخ عمر. فصار للشيخة المذكورة شهرة عظيمة ، وصيت بالغ ، وأسندت ، كثيرا من المسلسلات ، وأخذت الطريقة النقشبندية والقادرية ، وكان لهـا أوراد وأحزاب ومشرب رويٌّ في التصوف ، وأرشدت خلقا من الناس سيما النساء فقـد لازمنها ملازمة كلية ، وانتفعن بها انتفاعاً ظاهرا ، وصلحت أحوال كثير منهن ، وصار من يتردد منهن إليها يعرف من بين النساء بالدين والتقوى والورع ، والمواظبة على فرائض الدين ، والقناعة والصبر وحسن السلوك ،

---

(١) كلمة غيروا واضحة ولعلها (النيرين)

(٢) التعبيد للرسول ولغيره من المخلوقات لايجوز ، لأن العبادة لله وحده .

واتفق لها كرامة ظاهرة باهرة لا يمكن أدعاؤها ، وهي أنه كف بصرها في آخر عمرها فبقيت على ذلك نحو سنتين أو أكثر ، وكان بعض النساء الصالحات تخدمها محبة فيها وتبركا بها ، فعرض لها شغل في بعض الليالي عند زوجها وأولادها ، فاستأذنت الشيخة في المبيت عندهم تلك الليلة ، فأذنت لهـا ، فقامت الشيخة تلك الليلة للتهجد على العادة ، ولم يكن لهـا خبر بالدرجة : فتوضأت وزلقت رجلها فسقطت ، وانكسر ضلعان من أضلاعها فعصبتهما ، وصلت راتبها بغاية التكلف والمشقة ، ثم غفت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مقبلين من نحو الـكعبة قالت : فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم من ريقه الشريف بطرف ردائه وقال : امسحي عينيك فسحتهما ، فأبصرت في الحال ، ثم مسحت على الكسر فبرأ في الحال فقال : يافاطمة من غير استئذان؟ فقلت : ياسيدي يارسول الله إن الحدث الأصغر يندرج في الأكبر ، وأنت قد أذنت في البصر وهو أعظم فتبسم صلى الله عليه وسلم ، وقال : عمر عبد الرسول ومحمد صالح الرئيس في مكانهما كأبي بكر وعمر في زمانهما ، وفلان وفلان عند الناس من العلماء ، وهما عند الناس(؟) من الفساق ، فلما أصبحت أتى النساء إليها على العادة فوجدنها مبصرة ، وقصت عليهن الرؤيا ، وأتى إليها الشيخان المذكوران فأخبرتهما فبكيا وبكت ، وسألاها أن تخبر بأسمائهما[1] فقالت : لا : أكتم ذلك ، وهو بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم فناشداها الله في ذلك فقالت : لـكما على ذلك إذا قربت وفاتي أو موتكما قبلي فقدر الله وفاتهما قبلها فأخبرت بأنهما الممدوحان ، وأما المنعوتان فلم تخبر بهما أحداً أبداً ويقال إنها أرسلت إليهما وأخبرتهما ونصحتهما ، ولم يعلم من هما إلى الآن إلا بالظن والتخمين ، والله العالم بالسرائر والضمائر ، واشتهرت هذه الرؤيا وتناقلها الركبان ، وكاتبها

---

(١) كذا والظاهر وأن لا تخبر باسميهما .

علماء الشام والمغرب بأن تكتب لهم هذه الواقعة بخطها ، ورأيت كتبهم البليغة في طلب ذلك، وفيها من الرموز إلى أسرار الصوفية مالايعرفه إلامن له أعلا كعب فيه ، وقد أدركت خادمتها المذكورة وهي امرأة متفقهة دينة صالحة تقية، فأخبرتني عن أحوالها بالعجائب ، وكان لها شهرة عظيمة ، ولم نسمع في هذا العصر ولا فيا قبله بأعصار بمثلها ولا من يدنيها في عملها وصلاحها ، وزهدها وورعها ، وجمعها للفضائل بحيث يصدق عليها قول المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفُضِّلَت النســاء على الرجال

وأخذ عنها جم غفير ، كما سلف ، وأما النساء فاعتقادهن فيها فوق الحد ، وانتفاعهن بها لايحصى بالعد ، حتى أن من صحبها من النساء إلى اليوم يعرفن بالتفقه والصلاح والعبادة ، والحرص على الخير ، والقناعة والورع ، وبالجملة فقد كانت من عجائب الزمان جمالا للوقت ، وفخرا للنساء ، ووقفت كتبها جميعها على طلبة العلم من الحنابلة ، وجعلت الناظر عليها بلديها التقي الصالح ، شيخنا الشيخ محمد الهديبي ، فكانت عنده ، إلى أن أراد النقلة إلى المدينة ، فتورع في إخراجها من مكة ، فجعلها عنــد خادمتها شائعة بنت النجار وأولادها . ثم أرادت التحول إلى المدينة أيضا فأشرتُ عليها بأن تبقيها في مكة كما فعل شيخنا ، فغلب عليها أولادها ، وقالوا: إن الشيخة الواقفة لم تشترط ذلك فذهبوا بها معهم ، فتوفاهم الله تعالى وذهبت شذر مذر ، إلا أقلها كان عندي، فأبيت من إخراجه من مكة فبقي والحمد لله توفيت يوم[1] سنة ١٢٤٧ ودفنت في المعلاة في شعبة النور في حوطة المرحوم العلامة الشيخ محمد صالح الرئيس لصيقة لقبره بوصية منها رحمهما الله تعــالى[2] .

---

(١) بياض في الأصل . (٢) انتهى ما في « السحب الوابلة » من تراجم النجديين .

جبل طَمِيَّة

َطميَّة : ـ بفتح الطاء ـ ولكنها تنطق الآن بكسر الطاء فيم مكسورة أيضاً فياء مشددة مفتوحة فهاء ـ جبل أحمر ، مشهور في القديم والحديث ـ في أعلاه حجارة صفراء ، وعر الأعلى ، ولذلك تتربى فيه الصقور ويقصدها الاعراب ليجلبوها منه ، ويرى المرء الآن على البعد آثار ذرق الطير في أعاليه بيضاء واضحة .

ويقع جبل طمية : في أقصى الغرب لمنطقة القصيم على بعدحوالى مائتين وثلاثين كيلا من مدينة بريدة تشاهده وأنت في بلدة (عقلة الصقور) ثم يماشيك إذا كنت متجهاً إلى المدينة المنورة مع الخط الأسفلتى الذاهب إليها من القصيم لمسافة تزيد على خمسين كيلا : ويبعد عن بلدة (عقلة الصقور) نفسها اثنين وثلاثين كيلا .

وتسمية (طمية) قديمة لم يتغير من النطق بها شيء ما عدا الطاء أوله إذ كانت ينطق بها في القديم بالفتح .

قال ياقوت : طميَّة : بفتح أوله وكسر ثانيه ، وياء مشددة كياء النسبة وهو من قولهم : طمى يَطْمي َطمْياً .

نصوص قديمة فى طمية :

نقل الأصبهاني قول بعضهم : طمية علم أحمر صعب منيع ، لا يرتقى إلا من موضع واحد ، وهو يرأس حزيز [1] أسود يقال له المرقوة وهو

(١) الحزيز : هو المكان الغليظ المنقاد من الأرض جمعه أحزة . وحزان .

أذكر جبل بالبادية ، وهو يُتحصّن به وهو في بلاد مرة بن عوف ، وقال الأصمعي : طمية في بلاد فزارة[1] .

أقول : قوله أذكر جبل بالبادية يريد أشيع جبال البادية ذكراً . وتلك مكانة لا تزال باقية له في حواضر نجد فلا يكاد يوجد أحدٌ لم يسمع بطمية بخلاف غيره من الجبال .

وجاء في كتاب «المناسك»[2] في الكلام على طريق حاج الكوفة بعد ذكر الثلبوت (وادي الشعبة حالياً) : وحذاؤها بئر كثيرة الماء يسرة ، وعندها قصران ، ومتعشى ، ومن عندها يرى (الطميّة)[3] الجبل المرتفع يسرة وهو على طريق البصرة ، وبحضرة هذا الجبل عيون ومياه ومزارع للاعراب ، ويرى هذا الجبل قريب من المعدن .

أقول : قوله وهو على طريق البصرة هذا خاص بطريق البصرة إلى المدينة المنورة الذي ينطلق من النبّاج (الأسياح حالياً) ثم يمر بقو (قصيبا في الوقت الحاضر) ثم يمر بأثال فالعيون ثم الفوارة ثم يترك جبل قطن يمينه ، فيمر على وادي الرمة قرب عقلة الصقور ، حتى يصل إلى النقرة حيث يجتمع مع حاج الكوفة فيها .

أما طريق حاج البصرة إلى مكة المكرمة فإنه يذهب إلى الجنوب من ذلك كثيراً إذ يمر بضرية ثم الدفينة ولا يمكن أن يرى طمية فيه ، كما هو ظاهر . وأما قوله : أن بحضرة هذا الجبل عيوناً ومزارع للاعراب . فإن تلك العيون والمزارع كانت قد اندثرت تماماً إلى أن أعاد التاريخ نفسه فبدأ الأعراب باتخاذ الهجر – جمع هجرة وهي القرى التي يبتدعونها بنية الاستقرار والإقامة ثم يزرعون فيها المزارع وهناك غير بعيد من طمية عدد

---

(١) «بلاد العرب» : ١٥٣–١٥٤

(٢) ص ٦١٠

(٣) كذا الأصل ص ٣١٦ والمعروف بدون (ال) ولا تدخل (ال) على الأعلام إلا سماعا ويقول استاذنا حمد الجاسر إن إدخال أل هنا على طمية خطأ من أحد النساخ

من تلك الهجر ولكنها ليست ملاصقة له ، ومن أكبرها وأظهرها هجرة (عقلة الصقور) ومن أقربها إلى طمية الطرفيّة التي سبق ذكرها .

أما قول صاحب «المناسك» أن جبل طمية . . يُرى إلى قريب من المعدن فإن المراد به معدن النقرة . وهذا ظاهر الآن أي أنه ليس المراد بذلك معدن بني سليم الذي يسمى الآن (المهد) أو (مهد الذهب) فذلك مرتفع عن تلك المنطقة ، ولا يمكن أن يرى جبل طمية منه .

وقد قدمت في أول الرسم ذكر كون طمية بيسارك وأنت على الطريق (الأسفلتي) منطلقاً إلى المدينة المنورة من عقلة الصقور ، حتى تكاد تصل إلى النقرة ، وهو ظاهر إلى يسارك كأنه على البعد قلعة من قلاع العصور الوسطى . أما بعده عن النقطة التي تحاذيه تماماً من الخط (الأسفلتي) فإنه يبلغ ٢٣ كيلا .

وقال صاحب « المناسك » في معرض كلامه على طريق حاج البصرة إلى المدينة بعد أن تكلم على أبانين الجبلين اللذين تقدم ذكرهما في حرف الألف : ثم تجوز على ذلك فترى جبلا يقال له (طمية) وهو جبل يرى من طريق الكوفة في الجادة تراه كأن ظهوره دخان [1] .

أقول : ظاهر أن المؤلف يقصد بقوله (كأن على ظهره دخان) بالنسبة لمن يكون سائراً مع طريق الكوفة لأنه هو الذي يكون بعيداً جداً عن طمية ، أما من يسير مع طريق البصرة الذي هو طريق السيارات المسفلت في الوقت الحاضر من عقلة الصقور إلى النقرة تقريباً فإنه يكون أقرب إلى الجبل وهو يرى الجبل بوضوح ـ أما الذي يكون سائراً في طريق حاج الكوفة فإنه الذي يرى الجبل وكأن قمته تسبح في الدخان . على أن الذي بين الطريقين طريق حاج البصرة إلى المدينة وطريق حاج الكوفة ليس بعيـداً في هذه المنطقة لأنها قريبة من نقطة التقائهما في النقرة ، وأعتقد أن المسافة

(١) المناسك ص ٦١٠

في مسامتة طمية من جهة الشمال لا تزيد بين الطريقين على عشرين كيلا . على أنه مما تنبغي ملاحظته أن كون جبل طمية يرى على البعد ليس لسبب فرط ارتفاعه وإنما ذلك لكونه يقع على أرض مرتفعة ، ولذلك يعجب المرء إذا وصل إليه صغره ، رغم ما كان يتخيله عليه من الكبر والعظم على البعد ، وهذا يوضحه القول بأن طمية على رأس حزيز من الأرض أي مكان مرتفع منقاد .

قال ياقوت : عَرْقُوَةُ – بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وضم القاف ، وفتح الواو : واحدة العراقي : وهي أكمة تنقاد ، ليست طويلة في السماء ، وهي على ذلك تشرف على ما حولها ، وهي علم لحزيز أسود في رأسه طمية[1] .

أقول : ولكون جبل طمية يُرى على البعد قالت العامة من أهل تلك البلاد في أمثالها (كل جبل تمسّيه المطيّة ، الاساق و طمّية) أي كل جبل إذا رأيته، في النهاية تصله وأنت راكب المطية قبل المساء ما عدا جبل ساق وجبل طمية ، وذلك لارتفاعهما وكونهما يريان على البعد .

وفيما يتعلق برؤية جبل طمية من طريق الحاج الكوفي يقول أبو عبيد الله السكوني : إذا خرجت من الحاجر تقصد مكة تنظر إلى طمية ،وهو جبل بنجد شرقي[2] الطريق وإلى عكاش[3] وهو جبل تقول العرب : إنه زوج طمية . سمتهما واحد ، وهما يتناوحان ، وفيهما قيل :

تَزَوَّجَ عُكَّاشٌ طَميَّةَ بعد ما تأيّم عكاشٌ ، وكاد يشيبُ

وبعد هذه الخرافة عن طمية وزوجها عكاش ، ننقل رواية أعرابي لياقوت رحمه الله عن طمية وهي رواية صحيحة إن لم تكن دقيقة –

---

(١) « معجم البلدان » رسم عرقوة .

(٢) الصحيح أنه يقع إلى الجنوب الشرق من الطريق المذكور .

(٣) راجع رسم عكاش .

قال ياقوت : وخبرني بدوي من أهل تلك البلاد ـ أي ما حول طمية ـ أن طمية رابية محددة على ُجثّ الرُّمّة من القبلة . .

أقول : طمية يقع إلى القبلة من مجرى وادي الرمة ولكنها تبعد عنه بحوالي ٣٠ كيلا هذا وسوف تأتي تتمة لقصة زواج طميـة عند رسم (زوجها) ! عكاش ووالدهما

تسمية طميـة :

لا شك في أن تسمية طمية قديمة جداً لا يعرف العرب الأوائل متى نشأت ولا كيف كانت، ذلك لأنه جرت عادتهم ـ أو على الأدق عادة بعض علمائهم ـ إذا كانت تسمية بلد من البلدان قديمة أن ينسبوها إلى أناس قدماء كثيراً ما يكونون شخصيات إخبارية أي لا تعرف إلا الأخبار والأسماء ، وقد تكون شخصيات أوجدها خيال الرواة ليسدوا بها الفراغ الذي وجدوه .

ومن أولئك الشرقي القطامي وابن الكلبيّ . ومن ذلك ما ذكروه عن طميّة قال ابن الكلبي عن الشرقي : إنما سمي جبل طمية بطمية بنت جام بن ُجمّيّ بن تراوه من بني عمليق ... وكانت طمية أخت سلمى بنت جام بن ُجمّيّ عند ابن عم لها يقال له سلمى بن المحجن فولدت له ضميرا وبرشق، والقلاح ، والتربع ، فهم بالحيرة، ألا ترى أنّ العبادي [1] إذا غضب على العبادي قال له : اسكت يا سلمى بن طمية ، وإنما يعني سلمى بن طمية بنت جام بن جمي [2]

ونحن إنما نورد هذا لنتدلل على قدم تسمية هذا الجبل وأنها موغلة في التاريخ المجهول .

وكانت طمية في وقت من الأوقات في الجاهلية لبني كلب قال البكريّ:

---

(١) العباد : قوم كانوا من نصارى العرب سكان الحيرة واحدهم عبادي .

(٢) « معجم البلدان » - رسم طمية .

وانحازت كلب من منازلها التي كانوا بها ، من حضن[1] وما والاه ، إلى ناحية الرَّبذة[2] وما خلفها إلى جبل طمية وفي ذلك يقول زهير بن جناب الكلبيُّ وهو يوصي بنيه ويذكر منزلة (طميَّة) :

أبنيَّ إن أهلك فإني قد بَنَيْتُ لكُمُ بَنيَّه
وتركتُكُمْ أرباب سادات زنادُكُمُ وَرِيَّه[3]
ولكُلُّ ما نالَ الفتيَ قد نِلْتُهُ إلا التحيَّة
ولقد شَهِدتُ النارَ لِسُلاَّف[4] توقد في طميَّة

يعني يوم خزاز حين أوقدوا[5] .

ونقل ياقوت عن الأصمعي في تحديد مملكة حجر الكنديّ بنجْد : ما بين طمية إلى حمى ضرية ، إلى داره جلجل . وقال الكلبيُّ: معتق بن مُرُّ من بني عبيل ومنازلهم ما بين طمية أرض الشام إلى مكة إلى العُذَيب[6]

ومن الشعر في طمية قول عُمارَة بن عقيل في طمية وشطيب وذقان[7] :

سَرَى بَرْقٌ — فأرقني — يماني ... يضيء الليل كالفَرْد الهجان
يضيء ذُرَى طميَّة أو شطيب ... وفَلْج من طميَّة غير داني[8]
أيأمل مَنْ يرى رقات فَلْجٍ ... زيارة من يَرَى عَلمَيّ ذقان ؟
ودونَ مزارها بَلَدٌ يُزَجَى ... به الغوج المنوق وهو واني

---

(١) حضن : جبل لا يزال معروفا بهذا الاسم يقع فى أعلى نجد .

(٢) الربذة : تسمى الآن البركة سبق ذكرها فى مقدمة الكتاب.

(٣) زناد ورية : تورى ناراً : كناية عن المسكانة الرفيعة .

(٤) السلاف : المتقدمون : جمع سالف .

(٥) معجم ما استعجم ص ٤٩ . وتقدم ذكر يوم خزاز فى هذا الرسم فى حرف الخاء .

(٦) « معجم البلدان » : رسم : « معتق » .

(٧) ديوانه ص ٨٣ وتقدم ذكر شطب فى حرف الشين .

(٨) فلج هو الذى يسمى الآن الباطن إلى الشرق من الدهنا ، ويرجح أنه هو مجرى وادى الرمة العظيم عندما كان يصل فى جريانه إلى العراق .

يزّجّى يُساق. والغوج المنوق: الجمل المؤدب المروّض والغوج - الواسع الجلد، نوقت هذا الجمل: روضته وأدبته[1] وأنشد الهجريّ من قصيدة للسباق الباهليّ:

أما قدْ قُلتُ ويْحكِ فارضوني إلى أهل اليمامة أو ضرية[2]
فإن شئتم إلى آل المُهَيَّا ففيهم كل مكرمة وهيه[3]
حموا ما بين دار بني سُليْم إلى ماردٍ فيدُ إلى طمية[4]
إلى دار الحريش فبطن برك بلاداً لا تعنفها الرعية[5]

وقال آخر[6]:

أتيْن على طميّة والمطايا إذا استُحثثن أتعبن الحرور[7]

وقال السمهريّ اللّص[8]:

أعنِّ على بَرق أريك وميضه يشوقُ إذا استوضحتُ برقاً عنانيا
أرقتُ له، والبرق دون طميّة وذي نجَبٍ يا بعده من مكانيا[9]

وقال عمر بن لجأ[10]:

تأوّبني ذكر لزولة كالخبْل وما حيث تلقى بالكثيب ولا السّهل

---

(١) «بلاد العرب» ص ١٥٠

(٢) فسره بقوله: المفارضة المقاضاة. الفراض، جمع فارض: الفقيه.

(٣) في حاشيته: أبو المقلد جعفر بن عمر بن المهيا سيد كعب اليوم.

(٤) فيد قرية مشهورة على طريق الحج الكوفي شمال القصيم تابعة لإمارة حايل.

(٥) برك: واد لايزال معروفاً، يخترق جبل عارض اليمامة من الغرب مشرقا.

(٦) بلاد العرب ص ١٥٤

(٧) فسر الحرور من الإبل ومن الخيل الذى لا ينساق ولا ينقاد. يكون الدهر متخلفا
اتول: قد شرحت مثلا عاميا نجديا: (ماينساق ولا ينقاد). وبينت أصله في كتاب «الأمثال العامية في نجد»

(٨) «معجم البلدان» طمية.

(٩) ذو نجب راجع رسم (النجبية) على أن هناك أكثر من مكان يقال له ذو نجب.

(١٠) «معجم البلدان» طمية.

تحلّ وركن من طمية دونها وجرفاء مما قد يحل به أهلي
تريدين أن أرضى وأنت بخيلة ومن ذا الذي يرضي الإخلاء بالبخل؟!

وقال الحصين بن الحمام [1] :

أما تعلمون يوم حِلْفَ طَمِيَّة وحلفاً بصحراء الشُّطُون ومُقْسَماً

قال البكري : يقول ذلك لبني ذبيان فدلك أن طَمِيَّة في بلاد غطفان ، وكذلك الشطون . والمقسم الموضع الذي تحالفوا فيه ، وتقاسموا على الوفاء.

وقال الأديبي : طمية هضبة بين سَمِيْرا [2] وتُوْز ، يسرة طريق الحاج ، وهم مصعدون ، ويمينه وهم منحدرون [3] .

أقول : وهذا وهم ذلك لأن توز منزل للحجاج بعد فيد وقبل سميراء[4] وتلك المنطقة تقع بحذاء الشمال لمدينة بريدة وذلك بعيد جداً عن أن يكون حذاء طمية ، وإنما الصحيح ما ذكره أبو عبيد السكوني وقدمناه عنه من أنك تنظر إلى طمية إذا خرجت من الحاجر ، ومعلوم أن الحاجر منزل للحاج بعد سميراء بمسافة طويلة .

وقلنا : إنك ترى طمية بعد أن تترك عقلة الصقور [5] وأين ذاك من المنطقة التي تقع بين فيد وسميراء ؟ !

وفي كتاب نصر : طمية جبل في ديار أسد قريب من شطب جبل آخر [6] أقول : وشطب الذي أشار إليه قريب من أبان وهو الذي لبني أسد [7]

---

(١) رسم . طمية .

(٢) سميراء لاتزال معروفة بهذا الاسم وهي تابعة لإمارة حائل لذلك لم نذكرها .

(٣) « معجم البلدان » طمية .

(٤) راجع كتاب المناسك من ص ٣٠٦ حتى ٣١٧

(٥) راجع رسم (عقلة الصقور)

(٦) « معجم البلدان » – طمية

(٧) راجع رسم (شطب)

وجبل طمية : مرتفع عن ديار أسد ، إلا إذا كانوا تداولوه في بعض الأزمان بعد ظهور الإسلام بمدة طويلة فذلك ممكن .

وقال البكريُّ : طُميَّة : بضم أوله وفتح ثانيه ، وتشديد الياء أخت الواو . على لفظ التصغير : موضع قد حددته في رسم المجيمر[1] فانظره هناك . ورد هذا الإسم في شعر أبي دؤاد : طَميَّة بفتح أوله وكسر ثانيه ، وكذلك رواه الأخفش عن رجاله عن المفضل وعن الأصمعي[2] .

أقول : وفيما نسبه إلى أولئك الأعلام وفي بقاء الاسم على ما هو عليه بصفة التكبير ما يرد قوله إنه بصيغة التصغير بيّ قوله : موضع . ولم يقل : جبل فإذا كان يقصد أنه ليس جبلا فهو وهم ثانٍ .

أما كلامه الذي أشار إليه في رسم المجيمر ، فهو أغرب من هذا وأعرق في الوهم والخلط فيما اعتقد ، حيث أنشد بيت امريء القيس المشهور من معلقته :

كأن طُميَّة المجيمر غدوة من السيل والاغثاء فَلْكَةُ مغزَل

وقال : طُميَّة جبل هناك . ورواه محمد بن حبيب : كأن قليعة تصغير قلعة . ورواه الطوسي : كان به رأس المجيمر غدوة . أرادا برأس المجيمر : الجبل المذكور[3] .

أقول : إنه رحمه الله لو كان يعرف طمية ذلك الجبل العظيم الذي لا تستطيع الإبل إذا رأته في أول النهار أن تبلغه قبل حلول المساء لما

---

(١) راجع رسم « المجيمر » من كتابنا هذا .

(٢) رسم طمية .

(٣) « معجم ما استعجم » : رسم المجيمر .

استساغ أن يقول : إنه ربما كان هو المراد بتشبيه امرىء القيس له بفلكة المغزل ، وأنه هو رأس المجيمر . ذلك الجبل الصغير الذي لا يعد شيئاً إذا ما قورن بجبل طمية العظيم .

هذا إلى جانب ما عرف من أن لفظ امرىء القيس في معلقته في رواية مشهورة هو :

كأنَّ ذُرى رأسِ المجيمر غُدْوةً من السيل والاغثاءِ فلكةُ مغزَلِ (١)

شـعر عامي :

تقول العامة في مراغمة من لا يهمهم سخطه : (إضرب برأسك طمية)
قال غنيمان الغنيمان من شعراء بريدة في مطلع القرن الرابع عشر :

والله لَوْلا ذلَّةَ العَبْد منْ غَبْر وأنْتُم خَبَرْ بالعِلّة الباطِنيَّه (٢)
لا أرزْ لكم رايَهْ بِرُوُس الطَّياهِير واللّي زِعل يَضْرِب برأسه طمَيَّة (٣)

وقال أحد شعراء البادية من قبيلة حرب :

أنا رضيتَ الحَقْ لَيا وعَلَيَّه ومن لا ارْضاه الحق ما انيب مرضيه (٤)
يَضْرِبْ براسه ما نَبا منْ طمَيه ويِرْدِه لُورْقان يِعَدِّ له ويثنيه (٥)

الرياض

محمد بن ناصر العبودي

---

(١) هذا هو لفظ الزوزني في شرح المعلقات السبع «وشرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري راجع شرحنا بيت امرئ القيس هذا وأبيات قبله في رسم ضارج من معجمنا هذا .

(٢) العبد : يشير إلى نفسه لأن أصله كان عبداً مملوكاً . والذلة : الخوف . وغبر : يرمز به إلى محمد بن عبد الله بن رشيد الذي كان هو حاكم القصيم في ذلك الوقت بعد أن هزم أهله في وقعة المليدا . وخبر . أخبر .

(٣) أرز : أرفع : راية : علم : بفتح اللام . والطياهير : كثبان الرمل العالية . يقول : لولا ذلك لرفعت راية العصيان على أعلى الأمكنة ومن غضب مني عليه أن يضرب برأسه جبل طمية .

(٤) ما نيب مرضيه : ما أنا بمرضيه أي : لا أبالي سخطه .

(٥) نبا : أرتفع . ورقان : جبل بتهامة لا يزال باقيا باسمه . ويقع في الجنوب من المدينة المنورة (راجع كلاما عليه في مجلة العرب : م ٥ ص ١٠٦٦) .
ويعدله ويثنيه : يقيمه ويميله : يريد يكرر ذلك .

الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب

(عرفت الدكتور عبد المحسن الحسيني معرفة اجتماع قصير ، وكان يعنى بترجمة كتاب « شمال الحجاز » للمستشرق الويس موزل التشيكوسلوفاكي . الذى نشرت له مجلة « العرب » ترجمة كتابه « شمال نجد » وكان الدكتور الحسيني مهتما بأبحاث جغرافية جزيرة العرب ، وقد بعث إلى بنسخة من كتابه الذى عرب فيه القسم الجغرافى من كتاب موزل المذكور ، فأبديت له — كتابة بعض الملاحظات ولم أتلق جوابا منه . ولما قدمت الاسكندرية أردت مقابلته — وكان مدرسا فى كلية الآداب فيها . فعلمت أنه ندب للعمل فى (باكستان) ثم علمت بعد زمن بوفاته رحمه الله.

وكان من آثار الدكتور الحسيني هذا البحث الذى نشره فى المجلدين السادس والسابع من « حوليات كلية الآداب » فى الاسكندرية فى سنتى ٥٢ و ١٩٥٣ م وقد رأت « العرب » فى إعادة نشره إحياء لذكرى هذا الباحث الجليل : وإن كان فيه مالا يتفق مع رأى بعض المعنيين بالدراسات الجغرافية عن الجزيرة وخاصة ماذكر عن الجلس ، فتحديده لهذه المنطقة بحاجة إلى إمعان بحث وتوسع فى الدراسة).

حدود الجزيرة العربية :

اختلفت المصادر العربية في رسم الحدود الجغرافية لبلاد العرب . ويرجع اختلافها في ذلك إلى تباين المناهج التي اتبعتها في تناول الموضوع ومعالجته . ونستطيع أن نستخلص من بين هذه الخلافات أربعة آراء رئيسية في معالجة الموضوع .

أما الرأي الأول فهو رأي فقهاء الدولة ورجال التشريع فيها . ذهبوا في تحديدهم لرقعة البلاد العربية إلى اتخاذ التقسيم الإداري — الذي اعتمد عليه ديوان الخراج في تحديد أعمال الدولة — أساساً يستندون إليه في مذهبهم الذي ذهبوا إليه .

(ذكر ابن وهب عن مالك قال : أرض العرب مكة والمدينة واليمن) .

(وقال أحمد بن المعذل : حدثني يعقوب بن محمد بن عيسى الزهري. قال : قال مالك بن أنس : جزيرة العرب المدينة ومكة واليمامة واليمن) .

(وقال المغيرة بن عبد الرحمن : جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها[1] .

فهذه النصوص الثلاثة تتفق على تحديد رقعة بلاد العرب بمكة والمدينة واليمن ولكنها تختلف بعد ذلك في شأن اليمامة . وقد اعتمدت هذه النصوص على وجهة النظر الفقهية التي كانت تأخذ - في تحديدها للامصار وكور الأقاليم وما تشتمل عليها من القصبات والمدن - بالتحديد السياسي الذي حددته الدولة . فالأعمال الرئيسية في بلاد العرب كانت مكة والمدينة واليمن . وكانت نجد تدخل ضمن عمل المدينة .

أما اليمامة فاختلافهم في شأنها راجع إلى اختلاف وضعها بين العصرين الأموي والعباسي . ففي عهد الأمويين كانت اليمامة تضاف أحياناً إلى المدينة ، وأحياناً تفرد برأسها فتكون قصبة مستقلة . وبهذا نستطيع أن نفهم الاختلاف الذي نراه بشأنها في النصوص التي رويت عن مالك . وأما في عهد العباسيين فكانت اليمامة والبحرين وعمان عملا واحدا من أعمال العراق . (البحرين من أعمال العراق . وحده من عمان ناحية جزفار[1] . واليمامة على حيالها ، وربما ضمت اليمامة إلى المدينة ، وربما أفردت . هذا كان في أيام بني أمية ، فلما ولي بنو العباس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا[2] .

فحدود البلاد العربية على هذا الرأي هي التي تدور حول مكة والمدينة واليمن تدخل في ذلك نجد ، لأنها كانت تعتبر من أعمال المدينة دائماً ، وقد تدخل اليمن ضمن هذه الحدود ، وأما في عهد العباسيين فكانت تضاف إلى أعمال العراق ، وتدخل في ذلك توابع اليمن من الأحقاف والأشحار(٢) إذا اعتبرنا الضمير في « قرياتها » يعود على اليمن .

أما عمان والبحرين فتخرجان عن هذا التحديد إذ كانتا دائماً من أعمال

---

(١) كذا ولعل الصواب (جلفار) .
(٢) جمع شحر .

العراق في عهد الأمويين والعباسيين على السواء ، لذلك أخرجها مالك والمغيرة والزهري من أعمال بلاد العرب .

ومرجع الفقهاء في هذا — كما نفهم من قول أبي إسحق الحربي — هو عمل(٣) عمر بن الخطاب في خلافته وأخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصاري من جزيرة العرب إلا أنه لم يخرجهم من نجران ... (١) ولاالىمامة والبحرين فسميت بالعروض (٤) فعمر قد اعتبر بلاد العرب قاصرة على أعمال مكة والمدينة ، وبهذا أخذ الفقهاء أول الأمر فيما يظهر ، ولكنهم أمام عمل الأمويين والعباسيين — الذين أضافوا اليمن إلى أعمال بلاد العرب — لم يكن لهم بُدٌ من أن يعدلوا عن رأيهم الأول ، وأضافوا اليمن كذلك إلى رقعة البلاد العربية .

وقد تأثر بعض الجغرافيين بهذا الرأي في تحديدهم لرقعة الجزيرة العربية .

وأما الرأي الثاني فيحدد رقعة البلاد العربية تحديداً جغرافياً فيجعل البحر حدها الغربي والجنوبي والشرقي ، ويكمل هذا الحد من ناحية الشرق نهر الفرات الذي ينعطف بعد ذلك في شمال سوريا ، ثم يتجه (٢) حتى يصل إلى خليج العقبة (٣) .

قال ابن حوقل : (والذى يحيط بها — ديار العرب — بحر فارس من عبادان — وهو مصب ماء دجلة في البحر — فيمتد على البحرين حتى ينتهي إلى عمان ، ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن ، حتى ينتهي على سواحل اليمن إلى جدة ، ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي إلى أيلة ، ثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب من هذا البحر .وهذا المكان من البحر لسان ويعرف ببحر القلزم . والقلزم مدينة على طرفه وسيفه — فإذا استمر على تاران وجبيلان وصل إلى القلزم وينقطع حينئذ ، وهو شرقي ديار العرب وجنوبيها وشيء من غربيها . ثم يمتلمن أيلة على مدائن قوم لوط فلسطين ،

---

(١) يظهر أن فى الكلام نقصاً .

(٢) أى الحد (٣) كذا والصواب (البصرة)

وأذرعات وحوران والبثنية وغوطة دمشق ونواحي بعلبك وهي من عمل دمشق ، وتدمر وسلمية ، وهما من عمل حمص ، ثم إلى الخناصرة وبالس وهما من عمل قنسرين . وقد انتهى الحد إلى الفرات . ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتّى ينتهي إلى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة ، والحديثة وهيت والأنبار إلى الكوفة ، ومستفرغ مياه الفرات إلى البطائح ، ثم تمتد ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة ، إلى حد واسط ، فتصاقب ما جاور دجلة وقاربها عند واسط مقدار مرحلة ثم تستمد وتستمر على سواء البصرة وبطائحها حتّى ينتهي إلى عبادان .

وهذا الذي يحيط بديار العرب : فما كان من عبادان إلى أيلة فإنه بحر فارس ويشتمل على نحو ثلاثة أرباع ديار العرب ، وهو الحد الشرقي والجنوبي وبعض الغربي . وما بقي من حد الغربي من أيلة إلى بالس فمن الشام ، وما كان من بالس إلى عبادان فهو الحد الشمالي . ومن بالس إلى أن تجاوز الأنبار فمن حد الجزيرة . ومن الأنبار إلى عبادان فمن حد العراق (٤) .

وبحر فارس الذي يذكر في هذا النص يقصد به الخليج الفارسي ، وبحر اليمن ، ثم البحر الأحمر . وقد أطلق المؤلف عليهما جميعاً اسم بحر فارس .

ويتفق مع هذا النص تماماً مع نص الإصطخري الذي يورده في « المسالك والممالك » (٥) ، لم يختلف عنه إلا في كلمة واحدة إذ قرأ كلمة (البحيرة الميتة) . الواردة في النص البحيرة المنتنة . وهذا الاتفاق قد يدعونا إلى الظن أن هذا التحديد الجغرافي للجزيرة العربية قد سبقهما إليه مصدر سابق اعتمدا عليه وأخذا عنه . ولما كان الإصطخرى قد عول في كتابه على كتاب « صور الأقاليم » لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي الذي يذكره المقدسي على أنه إمام هذا العلم (٦) فمن المحتمل أن يكون هذا النص الذي بين أيدينا هو نص أبي زيد البلخي . وقد يرجع ذلك إطلاقه اسم بحر فارس على البحر الأحمر وبحر اليمن . فالبحر الأحمر في المصادر القديمة غير الفارسية كان يضاف إلى الحبشة لا إلى فارس فكان يسمى بحر الحبشة .

فهذا التحديد الجغرافي الذي يشتمل عليه النص يتفق — فيما يبدو — مع لفظ الجزيرة الذي أضافه العرب إلى بلادهم فقد تصوروها والماء يحيط بها من جهاتها .

قال الخليل : سميت جزيرة العرب جزيرة لأن بحر فارس وبحر الحبش والفرات ودجلة أحاطت بها وهي أرض العرب ومعدنها (٧) .

ولا يذكر بحر الروم في هذا التحديد مع الحاجة إليه ، لاستكمال صورة الجزيرة من ناحية حدها الغربي ، والظاهر أن بعض الاعتبارات الجغرافية أو التاريخية قد جعلت الحد الغربي لبلاد العرب يبتعد قليلا عن ساحل البحر الأبيض ، فالحد كما يرسمه ابن حوقل والإصطخري يتجه من أيلة إلى البحر الميت ، ثم إلى الشراة والبلقاء وحوران وغوطة دمشق ، ونواحي بعلبك أي أن هذا الحد هو الإنكسار الاخدودي الفاصل بين سلسلة الجبال الساحلية المطلة على البحر الأبيض وبين الهضبة الداخلية المطلة على البادية . فهذا الإنكسار يقوم حائلا دون اتصال الأجزاء الداخلية بالساحل بصفة عامة ، ويتكون من وادي العربة الواصل من العقبة إلى البحر الميت ، ثم من الأخدود الذي يشغله البحر الميت ونهر الأردن ، ثم من سهل البقاع الذي تقع فيه بعلبك ثم من مجرى نهر العاصي حتى إقليم الغاب . إذ يتجه الإنكسار بعد ذلك نحو الأراضي التركية حتى مرعش .

وهذا الحد يظهر أكثر وضوحاً وتأكيداً في أجزائه الجنوبية منه في جزئه الشمالي . فوادي العربة وأخدود البحر الميت والأردن يكون شبه خندق طبيعي يحول دون القبائل العربية وأقاليم الساحل ، ويكون مشابهاً لذلك الخندق الصناعي الذي اتخذه كسرى في الناحية الشرقية من البادية ليحول دون البدو وريف العراق .

وقد أخرج هذا الحد شبه جزيرة سينا من دائرة البلاد العربية ، ولكنه كان جديرا أن يدخل الإمارات التي كانت تقع في شرقيه في حدود البلاد العربية . ولكن الاعتبارات السياسية — التي كانت تجعل هذه الإمارات تابعة لإقليم

الشام اقتطعتها من حيز الجزيرة العربية ، وأضافتها إلى إقليم الساحل . « ويتصل بأرض العرب بناحية أيلة برية تعرف بتيه بني إسرائيل ، وهي برية وإن كانت متصلة بديار العرب فليست من ديارهم ، وإنما كانت برية بين أرض العمالقة واليونانية وأرض القبط ، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى فلذلك لا تدخل في ديارهم . وقد سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر الجزيرة ، حتى صارت لهم بها ديار ومراع — ولم أر أحدا عزا الجزيرة إلى ديار العرب لأن نزولهم بها وهي ديار لفارس والروم في أضعاف قرى معمورة ومدن لها أعمال عريضة فنزلوا على خفارة فارس والروم حتى إن بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم ، مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام (٨) فالإدارات السياسية التي كانت تنشأ على أطراف البرية خاضعة لفارس أو الروم كانت لاتعتبر من بلاد العرب رغم دخولها في حيزها الجغرافي . ولهذا فإن كثيراً من الجغرافيين كانوا يفضلون في تحديد الحد الجغرافي من هذه الناحية استعمال عبارة (مشارف الشام) أو (أطرار الشام) ، وذلك للاعتبارات السياسية والتاريخية التي كانت تدخل ذلك الإقليم في بلاد الشام وقال الأصمعي : (جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من أقصى عدن أبين إلى أطرار الشام — هذا في الطول — والعرض من جدة إلى ريف العراق) (٩) .

وأما الرأي الثالث فيوفق بين الرأيين السابقين فيراعي في تحديده لرقعة البلاد العربية الاعتبارات الجغرافية والاعتبارات الإدارية في تقسيم الدولة وخير من عبر عن هذا الاتجاه المقدسي « في كتابه أحسن التقاسيم » : (وهذه صورة جزيرة العرب . وقد جعلناه أربع كور جليلة وأربع نواح نفيسة . والكور : أولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر . والنواحي : الأحقاف ، الأشحار ، واليمامة ، وقرح (١٠) فهو بهذا التحديد يقصر الجزيرة العربية على الجزء الذى يطيف به البحر من الخليج الفارسي إلى خليج العقبة ، والذى يحده من الشمال خط يمتد من العقبة (أيلة) إلى الخليج الفارسي . وهذا القدر

هو الذي ذكره ابن حوقل على أنه ثلاثة أرباع ديار العرب ، ولكن المقدسي يقتصر عليه ليخرج البلاد الشامية من حدود الجزيرة العربية ، مراعيا في ذلك الاعتبارات السياسية والتاريخية التي كانت تجعل من الشام إقليماً مستقلا . وهو في تحديده كذلك لم يتقيد بالنظام الإداري للدولة ، الذي كان يعتبر البحرين وعمان واليمامة من أعمال العراق ، والذى كان يأخذ به الفقهاء ولكنه غلب وجهة النظر الجغرافية فأدخل هذه الثلاثة فى حدود الجزيرة العربية ، على الرغم من تبعيتها الإدارية للعراق .

ويصور لنا المقدسي جزيرة العرب في صورة طريفة تنم عن إدراك أصيل فيتخيلها صفة مستطيلة تمتد من قعر اليمن إلى بادية السماوة ، وبابها إلى بادية السماوة ، وظهرها إلى عدن ، ووضع في طولها سريران أحدهما على امتداد الآخر وبجانب كل سرير فضاءان : (واعلم أن مثل هذه الجزيرة كمثل صُفّة فيها أدنى طول قد وضع فيها سرير من صدرها إلى بابها بينه وبين الحائطين من يمين وشمال فضاء ، والسرير قطعتان ؛ فالسرير الداخل هو نجد اليمن ، وهي جبال تقع فيها صنعاء وصعدة وجُرَش ونجران ، وبلد قحطان وعدن في الصدر في آخر الجبل ، لأن ثالث الحيطان هو بحر الصين ، وهذه السروات عامرة ، بها الأعناب والمزارع ، والفضاء الذى عن يمين السرير تهامة ، تقع فيه زبيد وبلد انها . والفضاء الذي عن يساره يسمي نجد اليمن ، تقع فيه الأحقاف ومَهْرة إلى تخوم اليمامة ، ومنهم من يدخلها وعمان في هذه الخطة . وهذا السرير مع الفضائين هي اليمن . والسرير المؤخر إلى باب الصفة يسمى الحرة من تخوم اليمن إلى قُرّح ، جبال كلها يابسة لاينبت إلا مواقع المواشي والعضون والثمام ، يقع فيه الحرم والعمق ومعدن النقْرة ، وتلك الجادب . والفضاء الأيمن يسمى الحجاب . وطية الحجاز قليلة يقع فيها ينبع والمروة والعيص . والسواحل عمارات ونخيل والفضاء الأيسر يسمى نجد الحجاز يقع فيه اليمامة وفيد ، وما على الجادة من المنازل . ويسمى هذا السرير مع فضائيه الحجاز ويدخل هجر فيه . ويقابل باب الصفة الباديةوهذا شيء رايته وقسمته والله أعلم(١١) فالبادية بادية

السماوة والشام والعراق خارج هذه الصفة أو خارج الجزيرة العربية ، وهي بابها .

ويتفق هذا الرأي مع الروايات التي نقلت لنا عن الأصمعي وأبي عبيدة والتي تجعل حدود جزيرة العرب من الشمال (أطرار الشام) أو (منقطع السماوة) .

« قال الأصمعي : جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من أقصى عدن أبين إلى أطرار الشام ، هذا هو الطول ، والعرض من جدة إلى ريف العراق » . وأبو عبيدة يذهب إلى نفس هذا التحديد غير أنه يعتبر الطول عرضا والعرض طولا وينقل عن الأصمعي قولا آخر يؤيده فيما ذهب إليه . « قال أبو عبيدة : جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى بطواره من أرض العراق إلى أقصى اليمن في الطول . وأما في العرض فما بين رمل يبرين إلى منقطع السماوة وينقل عن الأصمعي فيذكر أن طولها من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول وأن عرضها من جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطرار الشام (١٢) .

وأما الرأي الرابع فيريد أن يجعل إحاطة الماء من جميع الجهات هو الأصل الأول في مفهوم الجزيرة ، وعلى هذا الأساس اللغوي في فهم التسمية (جزيرة العرب) يذهب إلى رسم حدودها الجغرافية ، جاعلا من الفرات وخليج فارس وبحر اليمن والبحر الأحمر والنيل وبحر الروم ماءاً محيطا بجزيرة العرب من جميع جهاتها . وهذا التحديد يختلف عن تحديد الإصطخري وابن حوقل بأن أدخلا النيل وبحر الروم في رسم الحد الغربي للجزيرة العربية .

عن الزبير بن بكار قال حدثني محمد بن فضالة : إنما سميت جزيرة لإحاطة البحر بها والأنهار من أقطارها وأطرارها . وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط عن الجزيرة — وهي مابين الفرات ودجلة — وعن سواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة ، وامتد إلى عبادان ، وأخذ البحر من ذلك الموضع مغربا مطيفا ببلاد

العرب منعطفاً عليها ، فأتى منها على سفوان وكاظمة ، ونفذ إلى القطيف وهجر وأسياف عُمان والشِّحر ، وسال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبين ، وعدن ودهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن — بلاد حكم والأشعريين وعك — ومضى إلى جدة — ساحل مكة — وإلى الجار — ساحل المدينة — وإلى ساحل تيماء وأيلة ، حتى بلغ قُلْزم مصر ، وخالط بلادها . وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا ، معارضا للبحر ، حتى دفع في بحر مصر والشام . ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين ، ومرَّ بعسقلان وسواحلها وأتى على صور — ساحل الأردن — وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنّسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنّسرين والجزيرة ، إلى سواد العراق (١٣) .

فالمشكلة التي يضعها أمامنا هذا النص هي اعتباره النيل الحدَّ الغربيَّ للجزيرة العربية (وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام) ومايتبع هذا الاعتبار من إدخال بلاد النُّوبة والبُجة وصحراء مصر الشرقية في حدود الجزيرة العربية .

وقد يكون الدافع لرسم حدود الجزيرة العربية على هذا النحو هو التغير اللُّغويُّ لكلمة جزيرة مع شيء من السذاجة ، أو الغفلة عن الحقائق الجغرافية أو مع شيء من المهارة في صنعة التأويل والتخريج ، وإن كان ذلك على حساب الحقائق الجغرافية ولكن قد يكون هناك بعض الاعتبارات الأخرى التي أدخلها صاحب هذا التحديد في حسابه ، فلنحسن به الظن شيئاً ما .

إن سكان الصحراء الشرقية في المنطقة التي تقع بين اسوان والبحر الأحمر يتصلون اتصالا وثيقا بسكان قلب الجزيرة العربية . وقد أدرك العرب هذه الحقيقة والتفتوا إليها وسجلها الجغرافيون منهم .

قال اليعقوبي في وصفه للطريق من قفط إلى البحر الاحمر ووصفه لمناجم الذهب في هذه المنطقة : (ومن الخربة — خربة الملك منجم قديم في هذه

المنطقة – إلى رحم معدن تبر – ثلاث مراحل . ويرحم قوم من بلي وجهينة وغيرهم من اخلاط الناس يقصدون للتجارات)(١٤) .

ويقول في مكان آخر : (من العلاقي – واد بين اسوان والبحر الأحمر – إلى موضع يقال له وادي الجعل مرحلة ثم إلى موضع يقال له عتب ثم إلى موضع يقال له كنار يجتمع الناس به لطلب التبر وبه قوم من أهل اليمامة وربيعة (١٥) ومن العلاقي إلى موضع يقال له دح ينزله قوم من بني سليم وغيرهم من مصر عشر مراحل (١٦) .

فهذه النصوص تبين لنا مقدار صلة الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية ونوع هذه الصلة وكيفيتها . فإن كان بعض هذه النصوص يفسر وجود قبائل الجزيرة العربية في هذه المنطقة بأسباب تجارية واقتصادية أي إن وجودهم بها كان على نطاق ضيق ، فقد كانت وجهة القبائل البدوية في هجراتها من الجزيرة العربية، ولذلك فإن وجودهم بها لابد وأن يكون على نطاق أوسع من ذلك الذى استخلصناه من النصوص السابقة: (وأما اليمامه فواد والمدينة به تسمى الخضرمة .. وكانت قراراً لربيعة ومضر فلما نزل عليها بنو الأخيضر جلت العرب منها إلى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وقرت ربيعة ومضر هناك وصارت لهم وليتم كالدار التي لم يزالوا بها . وابتنوا بها غير منبر كالمحدثة التي بظاهر أسوان وكالعلاقي وهو المنهل يجتاز به الحجيج إلى عيذاب) .

وإذا كانت هجرة القبائل العربية إلى هذه المنطقة من الصحراء الشرقية ظاهرة غير مطردة حدثت من قبيل المصادفة فلا يجوز لمحمد بن فضالة أن يدخلها في اعتباره – إن كان قد راعى مثل هذه الاعتبارات – فيرى أن هذه البقعة من الصحراء الشرقية امتداد لقلب الجزيرة العربية . ولكن ربما كانت هذه الظاهرة ظاهرة مطردة في العهود البعيدة التي وعتها ذاكرة العرب فكان البحر لا يقف أمامهم حائلا يمنعهم من العبور إلى عدوته الأخرى والإقامة بها فعبر ابن فضالة عن هذا المعنى فأدخل هذه المنطقة في حدود الجزيرة العربية .

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار تكشف لنا عن مقدار تأثر الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية وبالمنطقة الواقعة إلى جنوبها فالادريسي في وصفه لبلاد البجة يقول : (ومن بلاد البجة بلد بختية وهي أيضا قرية مسكونة وبها سوق لا يعول عليها وحولها قوم ينتجون الجمال ، ومنها معايشهم وهي أكثر مكاسبهم . وإلى هذه القرية تنسب الجمال البختية وليس يوجد على ظهر الأرض جمال أحسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطى وهي بديار مصر معروفة بذلك) (١٧) فالجمال البختية التي يتغنى العربي بفضائلها هي — كما نرى من هذا النص — من نتاج العدوة الغربية للبحر الأحمر ، وليست من نتائج الجزيرة العربية . فمثل هذه الظاهرة كانت جديرة أن تلفت صاحب هذا الرأى إلى ما كان بين الجزيرة العربية وبين العدوة الغربية من البحر الأحمر من صلات ترجع إلى عهود بعيدة .

فأمثال هذه الاعتبارات قد دفعت محمد بن فضالة إلى أن يضيف هذا الجزء من الصحراء الشرقية إلى حدود الجزيرة العربية . ولكن مثل هذا الرأى قد يبدو لنا غريبا الآن لأن فكرتنا عن الحدود السياسية الحديثة تمنعنا من أن نتصوره ، ولكن يجب أن نذكر أن فكرة الحدود السياسية في الأزمنة القديمة لم تكن لتمنع من ذلك . والبدو من شأنهم أن يتقدموا بحدودهم في الاقاليم الحضرية التي تحيط بهم إلى أقصى ما يستطيعون وإلى أن توقفهم قوة الحضر . ومما يحسن ذكره أن حامية الحدود الشرقية التي كان عليها أن تذود البدو عن أرض الحضر في مصر كانت في بعض عصورها عند مدينة أسوان .. (١٨)

تقسيم الجغرافيين للجزيرة العربية :

والأسس التي اعتمد عليها الجغرافيون في تقسيمهم للجزيرة العربية أساسان :

أما الأساس الأول :

فيتخذ من إقليم الحجاز وجباله محوراً لهذه التقسيم. ولعل اللغة العربية قد شاركت في جعل هذا الأساس المتوارث أكثر رسوخا في الأذهان من غيره ، فذهب إليه أكثر الجغرافيين .

فالحجاز معناه الفاصل أو الحاجز حجز بين أقسام الجزيرة وفصل بينها وأكّدَ هذا الفصل والتقسيم. (قال الخليل(١٩) سُمّي حجازا لأنه فصل بين الغور وبين الشام ، وبين تهامة ونجد (٢٠) . وقال الزبير بن بكار : سألت سليمان بن عيّاش السعديّ لِمَ سُمّيَ الحجاز حجازا ؟ فقال : لأنه حجز بين تهامة ونجد (٢١) قال ابن الكلبي : الحجاز ما يحجز بين تهامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد (٢٢) .

فالحجاز هو الذى يفصل بين الشام وبين الغور ، ويفصل بين تهامة والعروض ، وبين اليمن ونجد فهو الذي فصل بين هذه الأقسام جميعا وحدد لكل قسم منها حيزه الخاص .

والبكريّ يعرض لخط التقسيم هذا الذي ظهر في ثوب لغوي فيحاول أن يصوغه في ــ أسلوب جغرافي فيقول : (٢٣) (وجبل السراة هو الحدّ بين تهامة ونجد وذلك أنه اقبل من قُعْرَة اليمن ــ وهو أعظم جبال العرب ــ حتى بلغ أطراف بوادي الشام ، فسمته العرب حجازاً . وقطعته الأودية حتى انتهى إلى ناحية نَخْلَة ، فمنه حَيْطَى ويَسوم ــ وهما جبلان بنخلة ــ ثم طلعت الجبال بعد منه فكان منه الأبيض ــ جبل العرج ــ وقُدْس وآرة ، والاشعر والأجرد ــ وهما جبلان لجهينة . . . وطول السراة ما بين ذات عرق إلى حد نجران اليمن ــ وبيت المقدس في غربي طولها ــ وعرضها ما بين البحر إلى الشرف (؟).

فصار ما خلف هذا الجبل في غربيه إلى أسياف البحر ــ من بلاد الأشعريين وعك وكنانة ــ إلى ذات عرق والجحفة وما والاها وصاقبها

---

(١) هذا القول ليس للبكرى . بل نقله نقلا وأصله من رواية ابن الكلبى « العرب ».

وغار من أرضها : الغَوْرَ ، غور تهامة . وتهامة تجمع ذلك كله . وغور الشام لايدخل في ذلك . وصار ما دون ذلك في شرقيه من الصحاري إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً . ونجد تجمع ذلك كله . واعراض نجد هي بيشة ، تَرْجُ ، وتبالة ، والمراغة ورنية . وصار الجبل نفسه سراته — وهو الحجاز — وما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ومن بلاد مذحج : تَثْليث — وما دونها إلى ناحية فيد — فذلك كله حجاز . وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما : العروض — وفيها نجد وغور ، لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسايل أدوية فيها — والعروض يجمع ذلك كله . وصار ما خلف تَثليث وما قاربها إلى صنعاء ، وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشِّحْر وعُمَان وما بينها : اليمن — وفيها التهائم والنجود — واليمن يجمع ذلك كله (٢٤) .

والمقدسيُّ يتأثر كذلك بهذا التقسيم الذى تحمله التسمية اللغوية لاعلام الجزيرة فيأخذ به ، ويصوغه في أسلوب جغرافي ، ويتخذ منه أساسا لتقسيمه مخالفا في ذلك أعلام هذا الفن الذين سبقوه ومعلنا مخالفته لهم في ذلك . فأبو زيد البلخي الذي يعتبر إمام هذا الفن قد جعل الجزيرة العربية إقليما واحدا ، وهو لم يلتفت إلى ما التفت إليه المقدسيُّ من أنَّ جبال الحجاز تقسم الجزيرة قسمة طولية إلى إقليمين متمايزين . وأن إقليم الحجاز — الذي يختلف في طبيعته عن اليمن — يقسم هذه الجزيرة — بتمايزه هذا — قسمة عرضية كذلك فيكون الحجاز هو القسم الشمالي وتكون بلاد اليمن هي القسم الجنوبي . ولذلك تنقسم الجزيرة العربية إلى أربعة أقسام .

والمقدسي لا يفوته أن يدخل الاعتبارات الدينية والفقهية في احتجاجاته ، هذه الاعتبارات التي حرص على مراعاتها في تحديد رقعة بلاد العرب ، وفي رسم أقسامها : (واليمن الجليلة والحجاز . فان قال قائل لم جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبين؟ قيل له : أما اليمن فالنبي صلى الله عليه وسلم جعلها حيث فَرَّق مواقيتها في الاحرام(٢٥) . وأما خراسان فإن أبا زيد جعلها

اقليمين وهو إمام هذا العلم بخاصّة في إقليمه فلا عيب علينا أن جعلناها جانبين (٢٦) .

ومثل الصفة الذي يضربه ليصور به صورة جزيرة العرب يوضح لنا كيف طبق الطريقة التي ذهب إليها في تقسيم بلاد العرب . فهو قد اعتبر السرير الأول الجنوبي جبال اليمن الذي تقع فيه صنعاء وصعدة وجرش ونجران وأرض قحطان . والفضاء الذي يقع إلى جانبه من ناحية البحر هو تهامة . والفضاء الذي يقع في جانبه من الناحية المقابلة هو الاحقاف ومهرة حتى تخوم اليمن . ثم ينبه إلى أن من الجغرافيين من يدخل اليمامة وعمان في هذه المجموعة . وأما السرير الثانى الواقع إلى الشمال من السرير الأول فهو يختلف عنه من ناحيةالخصب فالأول أرضهعامرة بالأعناب والمزارع والثاني جبال كلها يابسة لا تنبت إلا مواقع المواشي والعضون والثّام . والسرير الثانى هذا هو الحرة وهي تمتد من تخوم اليمن إلى قُرْح أي إنها تقع شمال الاقليم الأول ويقع في هذه الحرة مكة والعمق ومعدن النقرة وتلك المجادب . والفضاء الذي يقع في الجانب المقابل أي في الناحية الاخرى هو نجد الحجاز يقع فيه اليمامة وفيد ويدخل فيه هجر . والسرير الأول مع فضائية هو اليمن ، والسرير الثاني مع فضائيه هو الحجاز (٢٧) .

فهو يقسم بلاد العرب إلى يَمَنٍ وحجاز ثم يقسم كل واحد منهما إلى جانب شرقي وجانب غربي ، واقليم مرتفع في الوسط ، هو في القسم الجنوبي جبال السراة ، وفي القسم الشمالي حرة الحجاز . واليمامة قد تعتبر من إقليم اليمن الذي يمتد حتى عمان ، وقد تعتبر من إقليم الحجاز الذي يمتد حتى هجر .

فجبال السراة وحرة الحجاز هي المحور الذي يقسم بلاد العرب طولا وجبال الحجاز القاحلة التي تختلف عن جبال اليمن والتي يتسع عرضها حتى يشمل اليمامة ونجداً تكون — بعرضها الممتد من الغرب إلى الشرق — المحور الذي يقسم بلاد العرب عرضا فيقع في شماله هجر واليمامة ونجد والجلس ، ويقع فى جنوبه عمان والعروض والأحقاف والشحر واليمن . والحجاز نفسه . الذى يفصل بين القسمين يقع في وسط المجموعة الأولى :

وعلى ضوء هذه الحقيقة — وهي — أن جبال الحجاز تقسم الجزيرة العربية طولا وعرضا — نستطيع أن نفهم النصوص السابقة التي اتخذت من الحجاز أساسا للفصل بين جميع أقسام الجزيرة العربية .

واما الأساس الثاني :

فيدع جانبا قلب الجزيرة وما تحتويه من جبال ويتخذ ساحل البحر قاعدة لتقسيم الجزيرة . وابن حوقل والاصطخري يأخذان بهذا الأساس وهما خير من عبر عنه . وهما يقسمان الجزيرة على أساس خطوط عرضية تخترق الجزيرة من غربها إلى شرقها ، وتكاد تكون متوازية تقريبا . فهي تقسم الجزيرة إلى مناطق مستعرضة يتلو بعضها بعضا . وقاعدة هذه الخطوط ترتكز إلى نقط على ساحل البحر .

وأول هذه الخطوط هو الخط الذي يمتد من السرين على البحر الأحمر (وهي ميناء قديمة تقع جنوب جدة بين الليث والقنفدة) ويتجه نحو الشمال الشرقي إلى يلملم ثم شرقا إلى الطائف ومنها إلى الخليج الفارسي .

والخط الثاني يبدأ من مدين (على البحر الأحمر ، وهي واحة البدع الآن وهي قريبة من الطرف الجنوبي الشرقي لخليج العقبة) ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي إلى الحجر ، ثم يشرق بعد ذلك إلى جبلي طيٍّ ، ومنهما إلى اليمامة ، ثم إلى الخليج الفارسي .

والخط الثالث يقع شمال الخط الثاني ويحصر بينه وبين الخط الثاني منطقة تمتد من اليمامة شرقا والمدينة غربا وتتقدم شمالا حتى تستغرق حدودها الشرقية بقية سواحل البحرين .

والخط الرابع يمتد من بالس غربا إلى الأنبار شرقا . ويتصل بهذا الخط خطان رئيسيان أحدهما من عبادان إلى الانبار ويكون منه ضلع مستطيل تتجه مساحته إلى الغرب حتى يلاقي مساحة مستطيل الآخر الذي يمتد من الغرب إلى الشرق وتتكون قاعدته من الخط الثاني الذي يصل بين بالس وأيلة .

والاقليم الذي يقع جنوب الخط الأول هو اليمن . والاقليم الذي يقع إلى شماله هو الحجاز . والاقليم الذي يقع بين الثاني والثالث هو نجد . والاقليم الذي يقع شمال الخط الرابع هو بادية الجزيرة . والاقليم الذي يقع غرب الخط الأول المتصل به هو بادية العراق . والاقليم الذي يقع شرق الخط الثاني المتصل بالخط الرابع هو بادية الشام .

(فما كان من حدّ السَّرَّيْن حتى ينتهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتداً على نجد اليمن إلى بحر فارس مشرقا فمن اليمن ، ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . وما كان من حد السرَّيْن على بحر فارس إلى قرب مَدْيَنَ راجعا في الشرق على الحجْر إلى جبلي طيء ممتدا على ظهر اليمامة إلى بحر فارس فمن الحجاز ، وما كان من اليمامة إلى قرب المدينة راجعاً على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين فمن نجد . وما كان من حد عَبَّادان إلى الانبار مواجها لنجد على ديار اسد وطيٍّ وتميم وسائر قبائل مصر فمن بادية العراق ،وما كان من حد الانبار إلى بالس مواجها لبادية الشام على أرض تيماء وبَرِيَّة خُسَاف إلى قرب وادي القرى والحجر فمن بادية الجزيرة . وما كان من بالس إلى أيلة مواجها للحجاز على بحر فارس إلى ناحية مَدْيَن معرضا لأرض تبوك حتى يتصل بديار طيء فمن بادية الشام . على أن من العلماء بتقسيم هذه الديار من زعم أن المدينة من نَجْد ، لقربها منها وان مكة من تهامة اليمن لقربها منها(٢٨)

في هذا التقسيم اتخذ ابن حوقل والاصطخريُّ الساحل أساساً لتقسيمهما ، إذ كان نظام الملاحة هو الذي يميز المناطق الساحلية بعضها عن بعض وبالتالي فهو يميز المناطق الداخلية كذلك . فنظام الملاحة فى جنوب البحر الأحمر حتى السرين أو جُدة يختلف عن نظامها في شماله لاختلاف نظام الرياح . ونظام الملاحة في خليج العقبة يختلف عن نظامها في قسمي البحر الأحمر فكانت السَّرَّيْن ومَدْيَن نقطتين فاصلتين بين نظم الملاحة في البحر الأحمر ففصلت كذلك بين المناطق الداخلية في الجزيرة) (٢٩) .

ولنحاول الآن أن نتبين المنطقة الداخلية التي اعتبرت حدودها أساسا معترف به في تقسيم الجزيرة العربية وتمييز أقسامها .

الحجـاز :

فهم العلماء من كلمة (الحجاز) معنى (الحجز) فهو يحجز بين تهامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد كما يقول ابن الكلبي (٣٠) أو يحجز فيما بين نجد والسراة كما ينقل ابن دريد (٣١) أو يحجز فيما بين الغور وبين الشام وفيما بين تهامة ونجد كما يرى الخليل (٣٢) . غير أن البعض لم يفهم من مدلول التسمية معنى الحجز بل فهم منها شيئا آخر وهو الاحتجاز بمعنى شد الوسط بالحجزة أو بالحجاز . فالحبل وكل ما تشد به وسطك لتشمر ثيابك حجاز (٣٣) وإلى هذا ذهب بعض من روى عنهم البكري فقال : (سمي حجازا لأنه احتجز بالجبال ، يقال احتجزت المرأة إذا شدّتْ ثيابها على وسطها ، وأبرزت عجيزتها وهي الحجزة) (٣٤) . وإلى هذا المعنى ذهب ابن السكيت في نقله عن الأصمعي فيقول : (ما ارتفع من بطن الرُّمَّة فهو نجد ، إلى ثنايا ذات عِرْق . وما احتزمت به الحرار : حرة شوران وحرة ليلى وحرة واقم وحرة النار وعامة منازل بني سليم إلى المدينة. فما اجتازت ذلك الشق حجاز كله (٣٥) وصاحب « المحيط » يستعمل أصلا كلمة احتجزت بدلا من احتزمت فيقول : لأنها احتجزت بالحرار الخمس حرة بني سليم وواقم وليلى وشوران والنار فهذه الحرات هي سلسلة تتابع من الجنوب إلى الشمال ويكون متوسط اتساعها مسيرة ليلتين سريعتين أو ثلاث) .

فبلاد الحجاز قد احتزمت بالجبال أو بالحرار فسميت حجازا ، أو قد حجزت جبالها وحرارها بين نجد والسراة أو بين نجد واليمن أو بين نجد وتهامة أو بين الشام والغور فسميت لذلك حجازا .

والحجاز حجازان : الحجاز الأسود ، وحجاز المدينة (٣٦) . أما الحجاز الأسود فهو سراة ثقيف أو السراة الثالثة ، تبدأ بعد انتهاء السراتين الجنوبيتين سراة الأزد في قعر اليمن ، وسراة فهم وعدوان فيما يليها (٣٧) . فإذا انتهت هذه السراة الثانية عند جبل تَثْليث بدأت السراة الثالثة واستمرت حتى الطائف . وعند ذلك يبدأ الحجاز الثاني حجاز المدينة . وهو سلسلة من الحرات تتابع من الجنوب إلى الشمال حتى منطقة تبوك . ولكن في منتصف

المسافتين بين مكة والمدينة أو ما يقرب من ذلك عند نقطة يقال لها العرج (عرض ٢٣) يبلغ ذلك الحجاز الثاني نهايته أيضا وبانتهائه ينتهي الحجازان : (طول الحجاز من حد العرج إلى السراة) (٣٨) . وإذ قد انتهى الحجازان يبدأ قسم ثالث من إقليم الحجاز وإن كان يتخذ تسمية مخالفة فيعرف بالجَلْس ، ويبدأ عند عقبة العرج ويتجه إلى الشمال حتى إقليم الجناب وتبوك ، والقسم الساحلي تحفه جبال هي امتداد الجبال الشمالية المعروفة بالشراة وحسْمَى المتصلة بجبال الشام . (والعرج أيضا عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج تذكر مع السُّقْيا — عن الحازميّ — وجبلها متصل بجبل لبنان) (٣٩)

فالحجاز هو الحجاز الأسود ، وهو الجزء الشمالي من سلسلة جبال السراة يبدأ من جبل تثليث في الجنوب ، ويمتد إلى الطائف في الشمال ، ثم حجاز المدينة وهو سلسلة من الحرَّات ويحمل اسم الحجاز حتى عقبة العرج ، ثم الاقليم الثالث وهو بقية إقليم الحرات الذي يحمل اسم الجَلْس ، ثم الجناب ويمتد حتى تبوك أو معان شمالا .

حد الحجاز الجنوبي :

يتكون الحجاز الجنوبي من ثلاث مناطق متجاورة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب في موازاة الساحل ، ويقع عند نهاية كل واحدة منها خط الحدود الذي يفصل بين الحجاز واليمن من قبلها. وهذه المناطق الثلاث هي : المنطقة النجدية الداخلية — جبال السراة المتوسطة — تهامة أو منطقة الساحل الخارجية .

وخط الحدود في المنطقة النجدية المحصورة بين سلسلة جبال السراة وبين رملة يبرين (الربع الخالي) يحدده لنا أكثر الجغرافيين عند بلدة يقال لها (الهجيرة) أو (المهجرة) عند شجرة تسمى (طلحة الملك) . (ثم إلى سروم راح) منازل الطريق من مكة إلى صنعاء (قرية عظيمة فيها عيون وكروم ، وجرش منها على ثمانية أميال ، ثم إلى المهجر ، قرية عظيمة فيها عيون . وفيما بين سروم راح) والمهجر طلحة الملك شجرة عظيمة تشبه الغَرَبَ ، غير أنها أعظم منه ، وهي الحد ما بين عمل مكة وعمل اليمن)(٤٠)

والنص الذي ينقل عن قدامة والذي يتفق مع نص ابن خرداذبة هذا يضيف : (وكان النبي صلى الله عليه وسلم حجز بها بين اليمن ومكة) (٤١) والادريسي في منازل الطريق بين مكة وصنعاء يذكر هذا الحدّ كذلك ، موضعه طلحة الملك في قرية المهجرة نفسها : (ومن سروم إلى المهجرة وهي قرية عظيمة فيها عيون وفيها بئر بعيدة القعر غزيرة الماء وبهذه القرية شجرة عظيمة تسمى طلحة الملك تشبه شجر الخلاف غير أنها أعظم منها وهى حد ما بين عمل مكة واليمن) (٤٢) والبكريّ في وصفه حدود اليمن يقول : (وحدها الثالث طلحة الملك إلى شرون . وشرون من عمل مكة) (٤٣) فهو يذكر شرون بدلا من سروم راح وقدامة يكتبها كذلك شروم راح .

ونستطيع أن نستخلص السبب الذي من أجله صارت طلحة الملك هذه الحد بين الحجاز واليمن من نص لابن خرداذبة: (فمن صنعاء إلى خيوان أربعة وعشرون فرسخا ، ومن خيوان إلى صعدة سته عشر فرسخا ، ومن صعدة إلى المهجرة ، وهي تحت عقبة المنضح عند طلحة الملك التي هي أول عمل اليمن عشرون فرسخا . فبين المهجرة وصنعاء ستون فرسخا) (٤٤) فالمهجرة وطلحة الملك تحت (عقبة المنضح) للقادم من اليمن وهما دون هذه العقبة للقادم من مكة صاعداً نحو اليمن . فعقبة المنضح هذه هي الحد بين الحجاز واليمن . والذي أتيح له أن يصعد عقبة من عقبات البادية يستطيع أن يدرك تماما كيف تكون العقبة فاصلا بين إقليم وآخر .

وخط الحدود هذا الذي يقع أسفل عقبة المنضح ويمر بالمهجرة أو طلحة الملك يتكون من مجموعة من البلاد بعضها في غرب طلحة الملك وبعضها إلى الشرق منها ، ويتضح لنا ذلك من وصف الهمداني لمحجة صنعا إلى نجد يصل بعد تمام خمسة عشر بريداً أو بعد أن يكون قد قطع ١٨٠ ميلا إلى بلدة كُتْنَة وهي أول حدّ الحجاز ، وتقع على خط عرض واحد مع جرش التي تقع في غربها على مسافة أقل من يوم ، ومع الهجيرة وتثليث اللتان تقعان إلى الشرق من كُتْنَة على مسيرة يوم كذلك وخط العرض الذي يقع عليه كُتْنَة كما ذكره الهمداني (٤٥) هو ١٧/١٠٦ . فالهجيرة التي يذكرها

الهمداني هي المهجرة التي ذكرتها النصوص الأخرى . غير أن لفظ (المجيرة) هو الأصح فيما يظهر . والراجح أن ابن خرداذبة وقدامة والادريسي قد خلطوا بين (المجيرة) هذه التي هي نقطة الحدود وبين (المجيرة) التي تقع جنوبها في أرض اليمن بمقدار ٧٢ ميلا تقريباً . كما خلطوا بين سروم راح التي هي على الحدود وبين سروم الفيض التي تقع إلى الجنوب بمقدار ٥٠ ميلا ، كما يتضح ذلك من مقارنة منازل الطريق بين صنعاء ومكة عند هؤلاء وعند الهمداني .

وتَثْلِيث هذه التي تقع على خط الحدود السابق ولعلها كانت أبْعَدَ نقطة فيه إلى جهة الشرق قد سُمِّيَ باسمها الجزء الجنوبي من نجد الحجاز ، كما سمى الجبل الذي يقع خلفها والذي نجده في الخرائط الحديثة باسم جبل تثليث .

والبكريُّ يتخذ تثليث هذة منطقة الحدود في بعض تحديداته : (وصار ما خلف تثليث وما قاربها إلى صنعاء وما والاها من البلاد إلى حضرموت والشّحْر وعمان وما بينهما اليمن — وفيها التهائم والنجود — واليمن يجمع ذلك كله) (٤٦) .

ولكى نستطيع أن ندرك موقع هذا الحد من مكة التي هي أبرز نقطة في الحجاز نذكر منازل الطريق بين هذا الحد وبينها : من كُتُنْبَةَ إلى يَبَمْبَم ٢٠ ميلا ثم إلى بنات حرب ٢٠ ميلا — ثم إلى الحسداء ٢٢ ميلا — ثم إلى بيشة بعطان ٢١ ميلا — ثم إلى تبالة ١١ ميلا — ثم إلى القريحا ٢٢ ميلا — ثم إلى كَرَى ١٦ ميلا — ثم إلى تُرَبَة ١٥ ميلا — ثم إلى الصفن ٢٢ ميلا — ثم إلى الفتق ٢٣ ميلا . والفتق هذه على خط عرض واحد مع الطائف ومكة . فالطائف ومكة تقعان إلى الغرب منها . أما الطريق فليس هنالك طريق ينحدر منها إلى مكة ولكن يسير الطريق شمالا إلى رأس المناقب التي تبعد عن الفتق ٢٢ ميلا ، ثم يعود فينحدر إلى الجنوب والغرب حتى قرن المنازل فمكة (٤٧)

---

(١) البكرى ينقل عن غيره كما تقدم

وخط الحدود في منطقة تهامة الساحلية يضعه الجغرافيون عند حصن السرَّيْن الواقع على ساحل البحر ، ثم يمتد هذا الخط إلى الشرق حتى ينتهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتداً على نجد اليمن : (فما كان من حدّ السرين حتى ينتهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممتداً على نجد اليمن إلى بحر فارس مشرقاً فمن اليمن . ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . وما كان من حدّ السرَّيْن على بحر فارس إلى قرب مَدْيَن راجعاً في المشرق على الحِجْر إلى جبل طيّء ممتداً على ظهر اليمامة إلى بحر فارس فمن الحجاز (٤٨) وبحر فارس هنا يشمل الخليج الفارسي وبحر اليمن والبحر الأحمر .

وهذا الحد يقع إلى الشمال كثيراً من الحد السابق ، فهو إذا ارتفع إلى الجبل فإنما يرتفع إلى ظهر الطائف أي في الجزء الشمالي من سراة ثقيف . والسبب في اتخاذ هذا الخط حدّاً بين الحجاز واليمن من هذه الناحية يرجع إلى اعتبارين .

فطبيعة السرَّيْن تجعل منها نقطة عسكرية وبحرية ، تتحكم في الطريق البرى وفي طريق النقل البحري بين اليمن والحجاز ، ويصف ذلك الإدريسي فيقول : (والسرين حصن حصين حسن موضعه ، كثيرة مياهه ولواليه وجابيه شيء معلوم ، ورسم ملزوم ، على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالتجارات والمتاع والرقيق . وجباياته المحصلة يصل نصفها إلى صاحب تهامة ونصفها الثانى إلى صاحب مكة الهاشمي) (٤٩) وبمقارنة وصف هذا الميناء بوصف الموانىء الأخرى التي تقع في نفس الساحل مثل حَلْي وضَنْكان والسقية(؟) نجد أنها هي الحصن الحصين والميناء الأمين فيما بين تهامة واليمن .

وهذا الحصن يقع خلف جبل يلملم الذى يعترض الطريق الساحلى الواصل بين الشمال والجنوب ، فهذا الجبل الذي يمتد من الشرق إلى الغرب شمال السرين يحول دون سيطرة الحجاز على هذا الحصن .

والبحر الأحمر من حيث الملاحة والرياح ينقسم إلى منطقتين : إحداهما شمالية ، والأخرى جنوبية ويفصل بين المنطقتين خط عرض جدة .

فأصبحت السرين من ناحية الملاحة تتصل بالمواني الجنوبية في نظامها وتختلف عن المواني الشمالية التي هي معظم مواني الحجاز .

فخط الحدود يمتد من (السرين حتى ينتهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف) ومعنى ذلك أنه يتجه من السرين نحو الشمال الشرقي . والذي دعا إلى تقدمه هذا هو جبل يلملم الذي يعترض من الشرق إلى الغرب الذي يتصل بسراة ثقيف .

وخط الحدود في منطقة جبال السراة — وهي المنطقة الوسطى التي تقع بين المنطقتين السابقتين — يختلف تبعاً لاختلاف موقعه في هاتين المنطقتين ، فالحدُّ الأول الذي يتخذ الهجيرة نقطة امتداده يمتد منها غرباً على جبال السراة فيصعد الجبل عند عَشْر ثم يميل إلى الشمال قليلا ، ويهبط إلى سطح البحر عند ميناء حمضة ، التي تقع جنوب حَلْي وبالتالي جنوب السرين . وهذا هو تحديد الهمداني الذي ينقله عنه ياقوت : (فإلى حدود الهُجَيرة وتثليث وكُتنة وجرش ، ومنحدراً في السراة التي شعف عنز — وشعف الجبل أعلاه إلى تهامة إلى أم جحدم إلى البحر إلى جبل يقال له كدمل بالقرب من حمضة — وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة) (٥٠) والحدُّ الثاني الذي يتجه من السرين شمالا يدخل السراة الثانية سراة بني عقيل(١) في حدود اليمن ، ثم يمضي بهذه الحدود شرقاً فيدخل فيها البحرين وهجر ، وقيل : هجر قصبة البحرين وقد عدَّها قوم من اليمن (٥١) .

حد الحجاز الشمالي :

بذلت قبل الآن بعض المحاولات الحديثة لتخطيط الحدِّ الفاصل بين شمال الحجاز وجنوب الشام وكانت النصوص العربية القديمة عنصراً أساساً في هذا التخطيط .

---

(١) العرب : مصدر هذا النقل عن (لامنس) ولكن لانعرف سراة تدعى سراة بني عقيل ، وبنو عقيل من بني عامر ، ومنازلهم في جنوبي نجد ، ولا يتصلون بالسراة وان كانوا متاخمين لحدود اليمن الجنوبية . ولكنهم في السهل .

وأول هذه المحاولات محاولة (لامنس) وانتهى فيها إلى وضع الحدود بين سورية والحجاز في المنطقة الواقعة قريباً من واحة العُلا في جنوبها (٥٢). وهذه الفكرة يراها صاحب المحاولة الثانية — وهو [لويس موزل] (٥٣) فكرة لامعة لمن ينظر إليها نظرة سطحية ولكنها إذا بحثت على ضوء التفاصيل وُجدت غير صحيحة من وجهة النظر العلمية . فصاحبها لم يميز بين الحدود السياسية والحدود الجغرافية كما أنه لم يعر النصوص (اللاتينية) (واليونانية) أي اهتمام ، كما أنه لم يشرح النصوص العربية بأمانة . ويذهب موزل بعد ذلك إلى وضع الحدود الشمالية للحجاز عند السفح الجنوبي لجبال الشراة حيث وضع بطليموس الحد الشمالى لبلاد العرب السعيدة . ويرى موزل بعد ذلك أن النصوص العربية رغم ما بينها من اختلافات — نتجت عن تغير الحدود السياسية فى بعض العصور — فإنه يستخلص منها جميعاً أن الحد الجغرافى للحجاز من ناحية الشمال هو المنحدر الجنوبى لسفح جبل الشراة كما حدد بطليموس قبل ذلك .

ويبدو لي أنه قد كان للحجاز أكثر من حدٍّ واحد — أو بعبارة أخرى : أن حدود — الحجاز كانت ثلاث نقط فقط ، تقع كل واحدة منها على رأس شعبة من الشعب الثلاث التي تصل بين الحجاز والشام . وأولى هذه الشعب تمتد على ساحل البحر وهي الشعبة الغربية ، والثانية تسير في المنخفض الرئيسي بين المدينة والعُلا إلى تبوك ومعان — هذا المنخفض الذي كانت تسير فيه سكة حديد الحجاز — وهذه الشعبة هى الوسطى ، والشعبة الثالثة تسير مع الطريق الواصل بين سلسلة الواحات التي تكونها خيبر وفدك إلى تيماء ثم دومة الجندل ، وهذه الشعبة هي الشعبة الشرقية .

فحدود الحجاز كانت تنتهي في الشعبة الغربية الساحلية إلى مدينة مدين التي توجد بقاياها الآن تحت اسم واحة البدع ، وهي أقصى ما نصله في الشمال من ناحية الساحل ، ثم تميل بعد ذلك إلى الجنوب والجنوب الشرقي مع طريق الحاج المصري حتى شغب وبدا والسُّقيا إلى أن تصل الحجر ثم وادي القرى .

وابن حوقل والاصطخري اللذان يتخذان ساحل البحر أساساً لتفصيل أقسام الجزيرة العربية يؤكدان لنا ذلك في وضوح : (وما كان على حد السرين على بحر فارس) يطلق على البحر الأحمر وبحر اليمن والخليج الفارسي بحر فارس (إلى قرب مدين راجعاً في المشرق على الحجر إلى جبل طيء ممتداً على ظهر اليمامة إلى بحر فارس فمن الحجاز) (٥٤) فالطريق الواصل من مَدْيَنَ إلى الحجْر أسفل الجبال ، والذي يكون الحدّ الشمالي للسهل الساحلي للحجاز يمرُّ بِشَغْبٍ وَبَدَا ، وهذا يشرح لنا نص البكري الذي يحدد به الحد الشمالي للحجاز : (وحد الحجاز الأول بطن نَخْلٍ وأعلى رُمَة وظهر حرة ليلى والثاني مما يلي الشام شَغْب وبدا . والثالث مما يلي تهامة بدر والسُّقيا ورُهاط وعُكَاظ ـ والرابع مما يلي (...) ساية وَوَدَّان (٥٥) .

وطريق الحاج المصرى يفصل لنا هذا الخط أكثر من ذلك . فمنازل المحجة تمر بالنقط الرئيسية في هذا الحد ، وهي كما يذكرها ابن رستة وابن خرداذبه وقدامة تتكون من المراحل الآتية : مَدْين ـ الاغراء ـ منزل ـ الكلابة ـ شَغْب ـ بَدَا ـ السرحتين ـ البيضاء ـ وادي القرى .

واليعقوبي الذي يذكر منازل هذا الطريق بشيء من الاختصار قد حفظ لنا ـ من حسن الحظ ـ اسم هذا المنزل المجهول لدى أصحاب التحديد الأول . فهو يقول من مدين إلى منزل يقال له أغراء ثم إلى قالس ثم شغب ثم بدا ثم السقيا . فهذا المنزل المجهول هو قالس . والبيضاء للذه المذكورة قبل وادي القرى هي إحدى منازل الحجْر .

وأما في الشعبة الوسطى فإن حدود الحجاز تمتد إلى الشمال بعد النقطة التي تقع على محاذاة (مدين) فتبوك تقع على محاذاة مدين (ومدين على بحر القلزم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل) (٥٦) والحدود بين الحجاز والشام تقع إلى الشمال منها. فابن حوقل نفسه ـ والاصطخري كذلك حين يذكران تبوك يقولان : (وتبوك بين الحجر وبين أول الشام على أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام وهي حصن) (٥٧) . فتبوك بينها وبين أول الشام

أربع مراحل . فإذا كانت في محاذاة مَدْيَن فحدود الحجاز تمتد إذن في الشعبة الوسطى – إلى الشمال – مقدار أربع مراحل شمال أبعد نقطة في حدود الشعبة الغربية .

والنقول كثيرة في اعتبار حدود الشام فيما وراء تبوك واعتبار تبوك من الحجاز : (وحد الشام ما وراء تبوك وتبوك من الحجاز) (٥٨) .

والطرف النهائي لهذه الشعبة لم تحدده المصادر العربية تماماً ، وذلك لأن الطريق فيما بعد تبوك في الشام يكاد يكون قفراً أو تكاد تكون منازله غير واضحة عند الجغرافيين . فهم يذكرون منازل هذا الطريق الذي يسلكه الحاج الشامي على النحو الآتي : دمشق – منزل – ذات المنازل – سرغ – تبوك . وسرغ [١] هذه تذكر في تاريخ الفتوح الاسلامية فيذكرون أن أباعبيدة سار بجيش المسلمين إلى سرغ ومن هناك سار إلى الشام . فكان سرغ هذه كانت في حدود العرب .

وأرى أن النهاية الشمالية للحدود من هذه الناحية كانت إلى الشمال قليلا ولكن إلى الشمال الغربي فقد كانت تنتهي في أغلب الأحيان إلى واحة مَعَان .

وأما في الشعبة الشرقية فقد كانت حدود الحجاز تتقدم نحو الشام مسيرة ثلاثة أيام، من واحة تيماء ، هذه الواحة التي تقع على الطرف الغربي لصحراء النفود المسمى عند العرب برمل الهَبير [٢] أو برمل عالج : (وتيماء حصن عامر بنيته أزلية وهو أعمر من تبوك وبينهما أربع مراحل . وبين تيماء وأول الشام ثلاثة أيام . وتيماء مياه ونخيل ومنه تمتار البادية (٥٩) .

وإذا أردنا أن نعين المنطقة التي تنتهي إليها الحدود من هذه الناحية فنستطيع أن نضعها في المنطقة التي يقترب بها الطرف الغربي للنفود من

---

(١) هي المعروفة الآن باسم (المدورة) .

(٢) الهبير : هو الرمل الواقع شرق فيد ، يمر به طريق الحج العراقي من الكوفة وبغداد (العرب) .

جبل الطبيق ، والتي تكاد تفصل وادي السرحان وواحة الجوف (دومة الجندل) عن منطقة تيماء .

والسبب الذي من أجله صارت الحدود الشمالية للحجاز على هذه الصورة نستطيع أن ندركه إذا تنبهنا إلى بعض الاعتبارات . فجبال حسمى وجبال الشراة تقسم الجزء الشمالي من الحجاز إلى ثلاث مناطق تكاد تكون منفصلة يستقل بعضها عن بعض ، والاعتبارات المختلفة من جغرافية وسياسية واقتصادية قد دفعت نقطة الحدود في كل منطقة منها إلى مدى يختلف في كل واحدة منها عنه في الأخرى .

منذ أوائل القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً والتنافس الدولي يدفع إلى السيطرة على ممرات التجارة العالمية في هذه المنطقة . فسليمان وحليفه الفينيقي حيرام حاولا السيطرة على الطريق البحري الذي يصل بين سواحل اليمن وميناء إيلات — (عصيون جبر بعد ذلك أو ايلة أو العقبة حديثاً) وقد استطاعا كما استطاع من بعدهما يوشافط (٨٧٣/٨٤٩ ق . م) وأمازية وابنه عزية (٧٧٩/٧٤٠ ق.م) — وغيرهم أن يسيطروا على هذا الطريق العالمى . وكان على الدول التي خلفت — بعد ذلك — أن تتابع نفس هذه السيطرة على الطريق ، وأن تؤكد هذه السيطرة بكافة الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية (٦٠) . وفي نفس الوقت كانت ملوك سبأ وخلفاؤهم من ملوك معين الذين كانوا يتحكمون في التجارة الجنوبية لبلاد العرب يحرصون على السيطرة على طريق النقل البرى الرئيسي الذي يصل بين الجنوب والشمال بين مأرب في جوف اليمن وبين ديدان (العلا) ومعان في الشمال (٦١) ، وكان على خلفائهم من بعدهم أن يتابعوا هذه السيطرة . وفي الوقت نفسه كذلك كان الأشوريون يحاولون السيطرة على هذه الطرق الرئيسية للتجارة العالمية وتحويلها إلى ناحيتهم ، وذلك بالسيطرة على النقط المركزية في قلب الجزيرة العربية وربطها بمصالحهم والنفاذ عن طريقها إلى ساحل البحر الأحمر . وكانت دومة الجندل (واحة الجوف) وتيماء والقبائل الضارية حولهما هدف هذه السيطرة ، ليتحكموا بذلك في طريقي

النقل البري والبحري . في عهد بلازر الرابع (٧٤٦-٧٢٧ ق.م) اضطرت الملكة زبيبي سيدة دومة الجندل أن تدفع الجزية له وتعترف بسلطانه . كما اضطرت كذلك – في عام ٧٣٢ ق.م – الملكة شمسي ملكة إحدى الواحات المجاورة أن تعترف بسلطانه وأن تقبل في واحتها مقيماً سياسياً من قبله ، ولكنها حين حاولت أن تنحرف إلى عدوه شردها فاضطرت القبائل الساكنة في تيماء وما حولها أن تدفع له الجزية مباشرة (٦٢) . وقد تابع البابليون بعد ذلك ومن بعدهم الفرس – نفس هذه السياسة . غير أن ميدان سيطرتهم ونفوذهم كان إلى الجنوب من المنطقة السابقة وذلك لأن مملكتهم كانت تقع إلى الجنوب بالنسبة لمملكة الأشوريين فكان طريق سيطرتهم يقع إلى الجنوب من صحراء النفود فاعتمدوا على قبيلة طي ثم على كندة بعد ذلك (٦٣) .

وطبيعة هذه المنطقة الجغرافية كانت تلعب دوراً هاماً في حفظ التوازن والمنافسة بين هذة القوى الثلاث المتطاحنة ، فجبال حسمَى والشراة تفصل الساحل عن الأخدود الرئيسي الأوسط الذي يشغله الطريق البري الرئيسي بين الجنوب والشمال ، ومناطق الحرة الوعرة حرة الرجلاء وليلى وخيبر تفصل خط الواحات (تيماء – فدك – خيبر) عن الطريق الرئيسي الأوسط ، وتلحق هذه الواحات بإقليم البادية ونجد .

حقاً إن هذه الطريق تكاد تقع تحت رحمة منطقة مركزية في الجنوب تستطيع التحكم فيها . وهذه المنطقة هي منطقة المدينة ، أو منطقة قرح التي تقع شمالها قليلا (وادي القرى) ، أو منطقة الحجر أو واحة ديدان العلا القريبتان منها . فوادي إضم – الذي ينحدر من حرة خيبر غرباً (١) ثم يتجه إلى الجنوب والجنوب الغربي حتى يصل إلى المدينة ويتجه بعد

---

(١) وادى إضم لا ينحدر من حرة خيبر الواقعة فى الشمال الشرقى من المدينة ، بل هو مجمع أودية المدينة التى تأتى من الجنوب ومن الشرق بالنسبة للمدينة ، من سلسلة جبال الحجاز مثل ورقان وما حوله ، ومن سيول حرة بنى سليم المنحدرة من شرقها ، ومن الحرار والجبال الواقعة بقربها ، المحيطة بالمدينة ، وليس منها حرة خيبر (العرب)

ذلك إلى الشمال حتى واحة ديدان ثم ينحدر صوب الغرب فيصب في البحر الأحمر عند الوجه (قريباً من ميناء العويند) والذي يعرف الآن بوادي الحمض — يمكن من السيطرة على الطرق الثلاثة . فواحة ديدان — تسيطر على طريق النقل الرئيسي وهو الطريق الأوسط والشعبة الغربية لوادي إضم تمكن من السيطرة على إقليم الساحل وموانيه حتى مدين . والشعبة الشرقية منه تمكن من السيطرة على خيبر ثم بعد ذلك على فدك وتيماء . وقد تستطيع القوة التي تسيطر على واحة ديدان (العلا) أن تدفع سيطرتها أبعد من ذلك حتى معان ، فتتخذ منها مركزاً تسيطر به على النهايات الشمالية لهذه الطرق فتستطيع من معان التحكم في الطريق الغربي وذلك بالسيطرة على إيلات (ايلة أو العقبة) إذ يمكن الوصول إليها بواسطة الطريق الذي يربط بينهما خلال وادي اليتم[1] والذي يمر بجبل سعير (الجزء الشمالي من السراة) . كما تستطيع السيطرة على طريق تيماء بالتحكم في دومة الجندل — خلال الطريق الواصل بينهما شمال جبل الطبيق وشمال الحرات على الطرف الجنوبي للبلقاء أو بادية الشام . وبذلك ينتقل خط الحدود الفاصل بين الحجاز والشام إلى الخط الواصل من أيلة إلى معان إلى دومة الجندل ، والذي يمتد طرفه الغربي إلى البحر وطرفه الشرقي إلى النفود . ولكن طبيعة هذه المنطقة لا تجعل مثل هذه السيطرة أمراً سهلا . فهذه الجبال الوعرة التي يصعب فيها الاتصال قد حالت دون تماسك هذه المنطقة وجعلتها مسرحاً لقبائل أو لشعوب صغيرة يعيش بعضها في عزلة وفي نزاع مستمر مع البعض الآخر . ففيها كان العمونيون والمؤابيون ، وأهل أدوم وسعير ، وثمود وأصحاب مدين ، والأنباط وسكان طور بعل وغيرهم من أمثال هذه الأقليات المستقلة المتعادية . فنتج عن ذلك تفكك هذا الإقليم وظهور المدن أو المقاطعات التي تعيش في حماية الحصون ، وكان المظهر الوحيد للتعاون بين مدن هذه المنطقة مقصوراً على اتصال كل مدينة

---

(١) هو المعروف قديما باسم (الأتم) ورد في شعر النابغة الذبياني وغيره . أنظر كتاب « شمال المملكة » .

أو منطقة في الطريق الداخلي الرئيسي بنقطة تقع في حذائها على الساحل لتكون بمثابة حصن لها . أو على العكس من ذلك كان مقصوراً على اتصال حصون الساحل بنقط مركزية في الطريق الداخلي لتموين هذه الحصون وتصريف تجارتها في داخل الجزيرة . فكانت كل مدينة مع فرضتها على الساحل أو كل حصن ساحلي مع نقطة ارتكازه في الإقليم الداخلي تُكَوِّن وحدَةً متماسكة مستقلة يقوم وجودها على حساب غيرها من هذه الوحدات(٦٤) .

ونستطيع أن نزيد ذلك وضوحاً باستعراض هذه الصلات . فقد اتصلت معان بأيلات خلال وادي اليتم ، واتصلت سلع (بترا) بأيلة (إيلات أو العقبة) خلال وادي العربة ، واتصلت تبوك بمدين (واحة البدع الآن) عن طريق ممر شتار – المار بالسفح الجنوبي لجبل الشراة بين البلقاء والمدينة – ، واتصل إقليم قرح أو وادي القرى والحِجْر وما يتصل به من واحة ديدان (العلا) وشَغْب وبَدّا (بدا يعقوب) والسُّقْيَا (سقيا يزيد) – بالعونيد (العويند على الخرائط الحديثة) أو بالوجه خلال وادي الحمض ، واتصل إقليم خيبر – وما يتصل به من المروة (ذىالمروة) وفدك – بالحوراء (هي ميناء . . . القديمة كما يرى شبرنجر) ، واتصلت المدينة بالجار ، واتصل حصن ينبع الساحلي بالمدينة كذلك .

ونظام القبائل في هذه المنطقة قد يزيدنا وضوحاً في فهم طبيعتها وتبين الحدود البشرية والاجتماعية فيها . فالقبائل العربية في هذه المنطقة ترجع إلى نظم أربعة ثلاثة منها قحطانية وواحد عدناني .

أما أول هذه النظم فالنسب الذي يرجع إلى الأزد من قبائل اليمن ويضم الأزد وخزاعة وبجيلة والأوس والخزرج ثم غسّان ، وهذه القبائل امتدت ديارها على طول ساحل البحر الأحمر من شمال الحجاز ، وكانت تسيطر على طريقي النقل الرئيسيين بين الجنوب والشمال الطريق البحري ، والطريق البري ، فكان بعضها يسكن تهامة والساحل والبعض الآخر

يسكن في الداخل على طول الطريق الذي يخترق سلسلة السراة والحجاز والشراة .

وكانت هذه القبائل تعمل في النقل البريّ والبحري للتجارة في الوقت الذي كان يسيطر السبئيون والمعينيون على التجارة العالمية في الجزيرة العربية . ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن الأزد هم بحّارة العرب الذين كانوا يُعَيَّرون بهذه المهنة بين القبائل العربية ، وكانوا يجوبون البحر الأحمر وبحر اليمن والخليج الفارسي .

وأما النظام الثاني فهو النسب العدناني الذي يرجع إلى اسماعيل والذي كانت تسكن قبائله في أول الأمر سلسلة الحرات وأطرافها الشرقية التي تمتد من الشمال إلى الجنوب من دومة الجندل تقريباً إلى حرة بني عقيل [1] المعروفة بسراة فهم وعدوان الواقعة جنوب الطائف بين سراة ثقيف وسراة شنوءة أو الأزد ، والتي كانت ديارهم تقع إلى الشرق من ديار قبائل الجنوب التي ذكرناها في النظام السابق .

والمصادر اليهودية تذكر أولاد اسماعيل على أنهم هم أدوم وعلى أنهم كانوا في وادي فاران . أما أدوم فإنها دومة الجندل كما حقق ذلك موزل وأما فاران فهو معدن فاران الذي يقع في حرة بني سليم وهو أحد المعدنين القديمين المشهورين بديار العرب . أحدهما فاران هذا ، والآخر عقيق بنى عقيل في حرتهم [2] والذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم « مطرت أرض عقيل ذهباً » (٦٥) . فأرض أولاد اسماعيل هي إقليم الحرات شرقي سلسلة الجبال وهو المشهور بالذهب . والشعر العربي يصف مضر بانهاء مضر الحمراء (٦٦) ويقولون في تفسير ذلك : إنه نسبة إلى الذهب فهذا التفسير له معناه . يقولون : إنه نسبة إلى الأدم الأحمر الذي

---

(١) لاذكر لحرة بنى عقيل هذه فيما أطلعنا عليه من المؤلفات القديمة . (وفوق كل ذى علم عليم) مع ملاحظة الفرق بين الحرة والسراة ، وسراة فهم وعدوان معروفة (العرب)

(٢) عقيق بنى عقيل — هو وادى الدواسر الآن — ولا يقع فى حرة ، بل فى سهل واسع من الأرض .

اتخذ منه خيمتهم الحمراء ، وهذا له معناه كذلك ، فكلمة أدوم معناها في اللغة العبرية الحمرة والبحر الأحمر كان يسمى بحر أدوم ، فترجم ذلك بالأحمر (٦٧) فلعل هناك صلة بين صفة الحمرة في مضر وبين نسبة الحمرة إلى واحة أدوم . وأما العمل الرئيسي لقبائل هذا النظام الثاني فكان رعي الإبل ونتاجها في منطقة الحرات وما سال منها شرقاً ، وكانت هذه الإبل تعد لنقل متاجر الجنوبيين .

وأما النظام الثالث فهو نسب القبائل التي تنتهي إلى قضاعة من قبائل الجنوب ويشمل قبائل كلب وبني سليح وتنوخ وجرم وراسب وبهراء وبليّ ومهرة وعذرة وجُهينة ونهد . وهذه القبائل تسكن المنطقة التي تقع بين ساحل البحر الأحمر وبين طريق النقل الداخلي وإلى الشرق منه قليلا في بعض إقليم الحرات في المنطقة الواقعة بين ايلة شمالا والوجه جنوباً . وفرع من هذه القبائل يسكن دومة الجندل والحيرة . فهذه القبائل كانت تمتد في منطقة أشبه بحزام أو شريط يصل فيما بين الحيرة والخليج الفارسي وبين منطقة أيلة ومدين على البحر الأحمر . وكانت هذه القبائل تسيطر على طريق التجارة الواصل بين منطقة الفرات والخليج الفارسي وبين منطقة خليج العقبة والشام . كانت هذه القبائل متعاونة أول الأمر مع قبائل الأزد التي تسيطر على الطريق من الجنوب إلى الشمال — ويشيرون في ذلك بإشارة لها معناها فيقولون : إن زعيماً من الأزد أتى البحرين فالتقى هناك بزعيم من قضاعة فتحالفا على التعاون فسموا تَنُوْخاً . ولكن هذه القبائل بعد ظهور الأشوريين على مسرح الحياة العالمية اضطرت للخضوع للأشوريين . ومما تجدر ملاحظته أنه كان على رأس هذه القبائل ملكات من أمثال زبيبي وشمسي كُنّ إلى جوار ذلك كاهنات القبيلة . ومن بين هذه القبائل كذلك قبيلة عذرة التي اشتهرت في الأدب العربي بالهوى العُذْرِيّ . وإذا لاحظنا أن عبادة « أشتار »[1] القديمة التي كانت معروفة عند الساميين كانت تدور حول الحب ، وتهدف إلى قهر الموت والفناء عن طريق الحب

---

(١) هو عشتر .

أمكننا أن نتبين مقدار تأثر هذه القبائل بالحياة الأشورية وبالنظام الاجتماعي الأشوري (٦٨) .

وأما النظام الرابع فهو النسب الذي ينتهي إلى كهلان من قبائل اليمن والذي يدخل فيه لخم وكندة وطيّ وعاملة وجذام . وكانت ديار هـــذه القبائل تمتد من الخليج الفارسي والفرات شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً قريباً من إقليم مدين . وكانت ديار هذه القبائل تقع على الجملة جنوب ديار القبائل السابقة يفصل بينهما النفود الشمالي ، فكانت ديارهما تشتركان في المنطقة الشمالية للحجاز . ولعل هذا الفرع لم يظهر إلا في وقت متأخر حين بدأ النزاع بين الأشوريين والبابليين . فالأشوريون يحاولون السيطرة على الطريق التجاري بمجموعة القبائل التي ترجع إلى قضاعة والبابليون يحاولون ذلك بالمجموعة التي تسكن جنوب المجموعة السابقة وترجع إلى كهلان . وقد اعتمد الفرس على قبائل هذا النوع الثاني فيما بعد ذلك ، إذ اعتمدوا على ملوك الحيرة وكندة .

فالمنطقة الشمالية للحجاز هي هذا الإقليم الذي كانت تختلط فيه النظم الأربعة السابقة من أنساب الجزيرة العربية . وإن كان هذا التحديد سيخرج المنطقة التي تقع فيها تيماء – والتي كانت منطقة معزولة – من الإقليم الشمالي للحجاز وقد يكون ذلك أصح وأجدر بالاعتبار ، فإقليم تيماء يتصل ببادية نجد أكثر مما يتصل بإقليم الحرات في الحجاز فجبل الطبيق وبادية السماوة تفصله عن إقليم الحجاز وبعض الجغرافيين يعتبره من اقليم بادية الجزيرة وبرية خساف لاتصاله بدومة الجندل وتدمر .

الحد بين الحجاز ونجد :

يتكون الحد الشرقيّ لإقليم الحجاز من سلسلة مناطق متتابعة يتلو بعضها بعضاً ، من الشمال إلى الجنوب ، وتأخذ كلما هبطنا نحو الجنوب في الاتساع والانبعاج نحو الشرق حتى يبلغ ذلك أقصاه عند الوسط تقريباً ثم تعود بعد ذلك فتضيق ويأخذ طرفاها في التجمع والالتصاق الواحد منهما

إلى الآخر حتى تبلغ أقصى الجنوب، فتكون هناك أضيق ما نجدها . وهذه السلسلة من المناطق التي تؤكد أسماؤها وأعلامها وجودها المستقل المتميز — ترسم لنا بواسطة حدودها الشرقية أو الغربية خطاً الحدود بين الحجاز ونجد وذلك تبعاً للاختلاف من حيث اعتبارها في إقليم نجد أو إقليم الحجاز ، وهذه المناطق على الترتيب من الشمال إلى الجنوب : منطقة القرى — الجناب — النجلس — نجد العليا — أرض العالية — تثليث .

منطقتنا القــرى :

هذه المنطقة هي المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية من إقليم الحجاز . وكان لها خصائصها المستقلة التي ميزتها عن غيرها ، وأفردتها بالتسمية التي عرفت بها وهذه المنطقة هي التي تقع فيها واحات خيبر وفدك والسوارقية وأمثالها . والأصمعي يؤكد لنا هذا التمايز في نصه الذي يقول فيه : (ومادون الرمل (النفود) إلى الريف من العراق، يقال له العراق . وقرى عربية كل قرية في أرض العرب نحو خيبر وفدك والسوارقية وما أشبه ذلك(٦٩) والمغيرة بن عبد الرحمن في تحديده لبلاد العرب يقول : (جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرياتها (٧٠) . وهذه المنطقة وإن كانت تتصل بوادي القرى[١] إلا أنها تستقل عنه في خصائصها . وهي منطقة تقع في وسط الحرات الوعرة قائمة في شبه عزلة واستقلال ، ولما كان طريق الوصول إليها هو عن طريق الجنوب الشرقي من وادي القرى أو من وادي خيبر فاعتبرت هذه المنطقة من الحجاز . وتلامس هذه المنطقة عند حافتها الشمالية والشمالية الشرقية حدود نجد أو حدود البادية . وفي شمالها الغربي تقع المنطقة المنخفضة التي تفصل بينها وبين تبوك والتي تعتبر منها منطقة المحتطب ، وذلك يتم الإقليم الفاصل المحيط بها من الشمال الغربي والشمال والشمال الشرقي والذي يفصل بين نجد وشمال الحجاز .

فالحدود بين نجد والحجاز في هذه المنطقة تبدأ من منطقة المحتطب

---

(١) (قرى عربية) انظر عنها مجلة « العرب » س ٢ ص ٧٦٩ و س ٤ ص ٨٩٨٣

هذه ، وتتجه إلى الشرق والجنوب الشرقي أسفل منطقة الحرات التي تقع عليها فدك وخيبر والسوارقية حتى تتصل برمل الهَبير[1] أو عالج (النفود) وهي بهذا تفصل بين تيماء التي تقع إلى الشمال عند الطرف الغربي للنفود وبين إقليم الحرّات . فتيماء من بادية نجد : (ومنها تمتار البادية كما يقولون (٧١) .

وإقليم الحرات من الحجاز ، ومما يجدر ملاحظته أن منطقة المحتطب هذه ينبت فيها الغضا وقد اعتبر ابن الفقيه ظهور هذا النبات علامة لتمييز نجد عن الحجاز فهو كما يرى لا ينبت إلا في نجد : (وقد قيل: فرق ما بين الحجاز ونجد أنه ليس بالحجاز غضاً فما أنبت الغضا فهو نجد وما أنبت الطلح والسَّمر والأسل — وواحدته أسَلَة — فهو الحجاز (٧٢) .

الجنـــاب :

ويقع شمال أرض فزارة — ذبيان — وجنوب أرض كلب : (فإن جاوزت بلاد بني فزارة إلى أرض كلب فأنت بالجناب[2]) والأصمعي يؤكد لنا وضع هذا الإقليم بين غطفان وكلب : (والجناب ما بين غطفان وكلب) (٧٣) فإذا تجاوزت بلاد فزارة فأنت بالجناب إلى أرض كلب (٧٤) فالجناب يقع في منطقة الحرات الشمالية[3] التي تكون الجهة الشمالية لإقليم الحجاز والتي تقع نجد والبادية أسفل منها . وهذه الحرات هي : الحرة الرَّجلاء. حرة راهص . حرة راجل . حرة ليلَى . وحرة الرجلا هذه في ديار بني القين : (الحرة الرجلاء وهو علم لحرة في ديار بني القين بن جسْر ، بين المدينة والشام وحرة راجل في بلاد بني عبس . وحرة راهص

---

(١) رمل الهبير يقع وسط النفود شرقي فيد على طريق حجاج العراق ، والكاتب يقصد الطرف الغربي من النفود الواقع شرق تيماء بقربها .

(٢) الجناب — بكسر الجيم — هو مايعرف الآن باسم الجهراء — انظر كتاب « في شمال شرق الجزيرة » .

(٣) لايقع في الحرات بل في الطرف الشمالي الشرقي من حرة خيبر وحرة ليلى (أثنان) شرق الصمد صمد عذرة — وهو الآكام والجبال الواقعة شرق العلا .

هي في ديار فزارة . وحرة ليلى لبني مرة بن عوف من ذبيان (٧٥) وتكون هذه الحرات الجهة الشمالية لمنطقة الجلس[1] .

وكان يسكن بالجناب هذا قبائل عُذْرة وبَلِيّ «والجناب أرض عذرة وبَلِيّ» (٧٦) وكان بين إقليم الجنوب وبين تيماء في المنطقة التي تكاد تقع على حدود البادية حصن السموءل ، وبين جناب وتيماء حصن الأبلق الفرد الذي كان ينزله السموءل) (٧٧) .

الجلس :

إذا تصورنا الحجاز شُجَيْرة قريبة من الأرض لها جذر طويل ضارب فيها ، ولها جذع قصير تعلوه مجموعة كثيفة من الأغصان قد عمل التقليم والقَص في الجانب الأيسر منها فقصر عن الجانب الأيمن ، كانت هذه الأغصان هي إقليم الجلس ، وكان ساحل البحر الأحمر هو المقَص الذي جار على جانبها الأيسر وكانت أغصان جانبها الأيمن هي الإقليم الممتد شرقاً وشمالا حتى جبلي طيء . وكان رأس هذه الشجيرة هو إقليم الحرات الشمالية ، وكانت نقطة اتصال أغصانها بجذعها عند منتصف الطريق بين مكة والمدينة وإن كانت إلى مكة أقرب منها إلى المدينة . أما جذعها فهو جبال الحجاز وأما جذرها الطويل فهو جبال السراة .

فالجَلْس كما يحدده لنا ابن الكلبي مابين الجُحفة وجبلَيّ طيّ ويعُدُّ المدينة منه . قال : (والجلس ما بين الجحفة إلى جبلي طيّ والمدينة جلسية(٧٨) ويذهب إلى هذا التحديد أيضاً عرّام بن الأصبغ ويزيده وضوحاً بتعداد بعض الأماكن التي تدخل فيه : : (الجلس ما بين الجحفة إلى جبلي طي. والمدينة جلسية وأعمال فدك ، وخيبر ووادي القرى والمروة والجار والفرع) والبكري يستكمل لنا توضيح هذه الحدود من الجنوب ثم من

---

(١) أوفى وصف وتحديد للحرات في كتاب « أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع » .

الشرق فيقول : (الجلس ما ولي بلاد هذيل) ويقول : (وبلاد أسد الجلس [1] والقنان وأبان الأبيض وأبان الأسود إلى الرُّمَة) .

والجحفة هذه – وهي النقطة التي يبدأ عندها إقليم الجلس – منزل من منازل الحاج بين مكة والمدينة بينها وبين المدينة ١٧٣ ميلا وبينها وبين مكة ١٠٣ ميلا وهي قريبة من ساحل البحر الأحمر تبعد عنه بمقدار ثمانية أميال فقط ، وهي وفق حساب الهمداني تقع على خط ١٠ ، ٢٢ من خطوط العرض [2] .

وجبلا طيء هما أجا وسلمى يقعان على خط عرض ٢٧ تقريباً على يسار الطريق الواصل من الحجاز إلى الكوفة على مسافة ٤٠٣ ميلا من مكة ٢٤٧ ميلا من المدينة .

ولما كانت الجحفة تقع على خط ساحل البحر لا تبعد عنه إلا بمقدار ثمانية أميال فقط ، ولما كان الجار فرضة المدينة على ساحل البحر قد عدّه عرام ابن الأصبغ من إقليم الجلس فإقليم الجلس يضم جزءاً من تهامة أو الغور وهو يمتد من الجحفة جنوباً مشرفا على ساحل البحر إلى ما يحاذي أجا وسلمى وخيبر فدك .

وإذا كان جزء من الجلس من قسمه الغربي يقع في إقليم تهامة فهل يقع قسمه الشرقي جميعه في إقليم الحجاز ، أو أن طرفا منه يقع في إقليم نجد ؟

البكري يحدد لنا حدود الحجاز من هذه الناحية فيقول : (ومن المدينة إلى طريق الكوفة إلى الرُّمَة حجاز ، وما وراء ذلك نجد إلى أن تشارف

---

(١) الجلس هنا تصحيف الجبس – وهذا جبل بقرب القنان وأبان وهو في القصيم في نجد ، وليس معدوداً من الجلس لا هو ولا القنان ولا أبان « العرب » .

(٢) الجحفة لاتزال معروفة في الجنوب الشرقي من بلدة رابغ .

أرض العراق . ومن طريق البصرة إلى بطن نَخْلٍ [1] حجازٌ ، وما وراء ذلك نجد إلى أن تُشارف البصرة . وما بين المدينة إلى طريق صنعاء إذا سلك على مَعْدِنِ بني سُليم حجاز إلى الجُرَّد إلى نجران إلى صنعاء . ومن المدينة إلى بطن نخل إلى شباك ابن عليثة حجاز إلى الرَّبَذَة . وما وراء ذلك إلى الشرف إلى أضاخ وضَرِيَّة واليمامة نجد (٧٨) .

وبطن نخل على الطريق من المدينة إلى الكوفة وهي تقع في شرق المدينة في محاذاتها مع ميل إلى الشمال مقداره درجة تقريباً وهي تبعد عن المدينة بمقدار ٤٩ ميلا (عرض بطن نخل ٢٥° وعرض المدينة ٢٤° تقريباً . وفق حساب الهمداني) .

والربذة [2] على الطريق من مكة إلى الكوفة على بعد ٢٠٠ ميل من مكة ، ٥٨ ميلا من معدن النقرة ، وهي مجمع طريقي مكة والمدينة الذاهبين إلى الكوفة . والربذة بين معدن النقرة ومكة . وعرض الربذة ٢٥.

ومعدن النقرة [3] وهي مجمع الطريقين تقع بين الحجاز وبين فَيْد، وبينها وبين فيد ١١٩ ميلا وبينها وبين مكة ٢٥٨ ميلا وبين المدينة ١٢٨ ميلا وهي على عرض ٢٦ . وبطن نخل تبعد عنها بمقدار ٧٩ ميلا .

ومعدن بني سُليم [4] على الطريق من مكة إلى الكوفة بينها وبين مكة ١٦٠ ميلا وبينها وبين معدن النقرة ١٢٤ ميلا ، والربذة في منتصف تقريباً بين معدن النقرة ومعدن بني سليم فبين الربذة ومعدن النقرة ٥٨ ميلا وبين الربذة ومعدن بني سُليم ٦٦ ميلا . ومعدن بني سُليم على عرض ٢٣/٣٠

وطريق البصرة (من البصرة إلى مكة) يقع إلى الشرق والجنوب قليلا

---

(١) نخل هو مايعرف الآن باسم (الحناكية) « العرب »

(٢) انظر عن تحديد الربذة «العرب» س ١ ص ٤١٨-٧٢٤ و س ١٠ ص١-٤ وس١١ ص٤١٦

(٣) معدن النقرة لايزال معروفاً يقع على الطريق بين القصيم وبين المدينة قبل الحناكية والنقرة الآن بلدة مسكونة « العرب » .

(٤) معدن بني سليم هو مهد الذهب الآن بلدة معروفة .

من طريق الكوفة (من الكوفة إلى مكة) والمسافة الواقعة بين الطريقين هي مسيرة ثلاث مراحل وهي المسافة الواقعة بين معدن النقرة في طريق النبّاج [1] في طريق البصرة . ثم تأخذ المسافة بعد ذلك في الضّيق حتى يلتقي الطريقان عند ذات عرق [2] ، ميقات أهل العراق .

فالبكريّ يصور لنا القسم الشرقيّ من الحجاز مُثلّثاً تستند قاعدته إلى وادي الرُّمّة شمال المدينة ، وضلعه هو الخط الواصل بين المدينة ومكة ، ووتره يتكون من عدة انكسارات فتبدأ النقطة الأولى عند التقاء الرمة بطريق الكوفة ، ويسير هذا الوتر حتى الربذة . ومن الربذة إلى معدن بني سليم ثم الطائف ، يضاف إلى ذلك منطقة أخرى تقع بين بطن نَخْلٍ إلى طريق البصرة .

فحدود الحجاز وفق هذا التحديد تنتهي في الشمال عند إلتقاء الرمة بطريق الكوفة أي في ثلثي الطريق بين المدينة وجبلي طيّء تقريباً .

وإذا أخذنا في ذلك بتحديد عَرّام بن الأصبغ الذي يجعل حدّ الحجاز : (من معدن النقرة إلى المدينة) فتنتهي هذه الحدود كذلك قبل أن تصل إلى جبل طيّ بمسافة طويلة تقارب مئة ميل . وديار بنيّ أسد التي تقع في الجلس [3] تقع في هذا الجزء الذي يخرج عن حدود الحجاز . وما ولي ديار هُذَيل الذي يقع في الجلس هو ديار سُلَيْم وهَوَازن وهي تقع في حدّ الحجاز هذا . .

ولما كان جزء كبير من شمال النّجْد يقع خارج حدود الحجاز فقد دفع ذلك قوماً إلى اعتباره من نجد، ويساعدهم في ذلك أن الحجاز عندهم

---

(١) النباج شرق القصيم منه ، ويعرف الآن باسم (الأسياح) وهذا نباج بنى عامر وهناك نباجان غيره .

(٢) ذات عرق تعرف الآن باسم الضريبة – بفتح الضاد وكسر الراء .

(٣) ديار بنى أسد تقع فى نجد ، لا فى الجلس ، وكلمة (الجلس)، هنا تصحيف (الحبس) وهو جبل يقرب القنان ، شمال أبان .

حجازان الحجاز الأسود وهو سراة شنوءة أو الحجاز ، والحجاز الآخر هو حجاز المدينة وبعضهم لا يعتبره من الحجاز إذ يعتبر نهاية الحجاز عند العرج (٧٩) فى الطريق بين مكة والمدينة . وهي تبعد عن المدينة بمقدار ٨٥ ميلا وعرضها ٢٣ : (وكذلك إذا تصوبت في ثنايا العرج إلى أقصى بلاد بني فزارة أنت متهم فإن جاوزت بلاد بني فزارة إلى أرض كلب فأنت بالجناب) (٨٠) ولذلك اعتبروا المدينة من تهامة . واعتبر بعضهم الجلس نجداً لإقليم الغور خاصة : (فمعنى تهامة والغور واحد ومعنى حجاز وجلس واحد هكذا ذكر الزبير بن بكار عن عمه وقال غيره : معنى حجاز وجلس ونجد واحد) : (والجلس علم لكل ما ارتفع من الغور في بلاد نجد) (٨١) .

فالجلس فيما يبدو إقليم قائم بذاته ، يقع في شمال الحجاز الأسود . وجزء منه من الغور وهو الجزء المرتفع من الساحل ، وجزء منه من نجد وهو امتداد حرات خيبر ولبلى نحو الشرق ، وجزء ثالث منه من حجاز المدينة الذي عرف فيما بعد مع الحجاز الآخر باسم الحجاز فقط .

وحدود الحجاز الشرقية في إقليم الجلس هذا تقع عند التقاء طريق العراق بوادي الرمة ، عند الخط الفاصل بين الربذة والشرف وهو ما يسميه البكري بحد الحجاز الأول : (وحد الحجاز الأول بطن نخل وأعلى رمة وظهر حرة ليلى) (٨١) .

نجد العليـا :

ونجد نجدان علياً وسفلي : (ويقال في نجد العليا النجد وفي السفلي أرض نجد (٨٢) والنجد أو نجد العليا هي أدنى النجدين إلى الحجاز ، والسراة تمتد من الشمال إلى الجنوب في شرقي سلسلة الحرات الوسطى . (وقال أبو منصور : حرة ليلى وحرة شوران وحرة بني سليم في عالية نجد (٨٣) وحرة لبلى في شمال خيبر وشرقيها . وحرة شوران في شرقي وادي العقيق وفي شرقي المدينة : (قال عرام عن جبل المدينة جبلان أحمران عن يمينك

وأنت ببطن العقيق تريد مكة وعن يسارك شوران) وحرة بني سليم أو حرة النار في منازلهم حول معدن بني سليم .

والفاصل ما بين الحجاز ونجد هو هذه الحرات فما سال منها نحو المشرق والشمال الشرقي فهو من نجد ، وما سال منها نحو المغرب فهو من الحجاز (وقال عمارة بن عقيل : ما سال من الحرة حرة بني سليم وحرة ليلى فهو الغور ، وما سال من ذات عرق مقبلا فهو نجد . وحذاء نجد أسافل الحجاز وهي وجرة والغمرة . وما سال من ذات عرق موليا إلى المغرب فهو الحجاز) (٨٤) غير أن عمار يقصر معنى الحجاز في نصه على الحجاز الأسود خاصة ويطلق لفظ الغور على إقليم الجلس وما ينقله ابن الفقيه يحدد لنا ذلك في صورة أكثر وضوحاً : (قال جعفر : أودية نجد تسيل مشرقة وأودية تهامة تسيل مغربة (٨٥) .

فالمنطقة شمال وجرة والغمرة التي يعتبرها عمارة بن عقيل من الغور أو اسافل الحجاز هي منطقة الجلس (الغمرة على عرض ٢٢ وهو عرض الجحفة وبينها وبين مكة ٧٣ ميلا) وقد بينا أن القسم الشرقي من منطقة الجلس أو ما سال من بطن الرمة شرقاً أو ما سال من حرة ليلى وخيبر شرقاً فهو نجد . وماسال من حرة شوران شرقاً فهو نجد . ويقع ذلك عند اتصال الحلس بنجد في هذه المنطقة قريباً من الربذة . وماسال من حرة سليم شرقاً فهو نجد كذلك ، وحده جبل حضن الذي قالوا فيه : إن من رأى حضنا فقد أنجد (حضن جبل بالعالية مشرف على السي إلى جانب ديار سليم وهو أشهر جبال نجد) فحضن هو الحد بين إقليم الحرة وبين نجد .

والجغرافيون الذين اتخذوا ساحل البحر أساسا لتحديد الأقسام الداخلية للجزيرة يضعون نجداً في المنطقة الواقعة شمال المدينة فتكون الحدود بين نجد والحجاز هي من ناحية الشمال فحسب،ولعلهم قد أضافوا اليمامة إلى أعمال المدينة ، كما كان الحال في عهد الأمويين ، فتكون الحدود بين نجد والحجاز هي إقليم حرة خيبر ، ومنطقة جبلى طيء إلى أن تتصل برمل الهبير (النفود)

ومن ذهب إلى هذا التقسيم ابن حوقل والاصطخرى : (وما كان من اليمامة إلى قرب المدينة راجعا على بادية البصرة حتى يمتد على البحرين فمن نجد)(٨٦)

ارض العالية — أو العروض :

وأرض العالية التي تقع إلى الجنوب من نجـــد العليا وإلى الشرق من الحجاز كانت تعرف بالعروض أو الأعراض ، وهي المنطقة المشتركة بين نجـــد والحجاز وتمتد مساحتها شرقا حتى اليمامة والبحرين وجنوبا حتى اليمن . وابن الكلبي يميزها ويرسم لنا حدودها فى نصه الذي يقول فيه : (وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض) (٨٧) ويذهب إلى ذلك أيضا أبو اسحق الحربيّ فيقول :(وأخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من جزيرة العرب إلا أنه لم يخرجهم من نجران ولا اليمامة والبحرين فسميت العروض) (٨٨) فهذه المنطقة كانت منطقة واحدة متميزة تقع بين الحجاز ونجـــد واليمن والخليج الفارسي .

والجزء الغربيّ من هذه المنطقة الذى يقع بين جبال السراة ورمال الرُبع الخالي المعروفة برملة بني سعد ، أو رملة يبرين ، وإن كان هو — فى حقيقة الأمر الطريق البري الوحيد الموصل بين اليمن وبين اليمامة ثم إلى البحرين وعُمَان أوبين تهامة والحجاز وبين هذه المناطق — خلال واديالدّواسر الذي يشُقّ منطقة الرمال الفاصلة [1] — فإنه على الرغم من ذلك كان منفصلا ومستقلا من الناحية الجغرافية عن هذه المناطق . فإن بحر الرمال كان يفصله عن اليمامة والبحرين وعُمَان ، وإن كانت الصلاة الأخرى الاجتماعية والاقتصادية تربطه بهما .

فالإعتبارات الجغرافية تضيف هـــذا الأقليم إلى الحجاز أو إلى نجـــد العليا الملاصقة للحجاز . والنصوص تؤكد هذه الإضافة: (والأعراض أيضا قرى بين الحجاز واليمن) (٨٩) وأعراض الحجاز رساتيقه الواحد عرض(٩٠).

---

(١) وادى الدواسر لايشق تلك الرمال بل تحجزه بعد مجاوزة جبل العارض (طويق)

(وأعراض نجد هي بيشة تَرْج ، وتبالة والمراغة وَرْنَية) (٩١) وكلمة نجد المستعملة هنا هي نجد الحجاز أو (أرض – العالية) .

والحسُ اللغويُّ قد تنبه إلى أن منطقة العروض أو الأعراض هذه هي في واقع الأمر منطقتان تفصل بينهما رمالُ الرُّبع الخالي ، فأكد ذلك الفصل في التسمية فكان يطلق العروض على اليمامة والبحرين وعمان – وكان يطلق ، اسم الأعراض على القسم الآخر .

والخط الواصل بين حَضَن في الشمال ، وبين جبل تَثْليث في الجنوب ينطبق على الحافة الغربية لمنطقة الرمال الفاصلة وهي تُكَوِّن الحدَّ بين الحجاز ونجد في هذه المنطقة إذا اعتبرنا هذه الرمال من منطقة نجد .

تهامة :

يطلق على الساحل المحصور بين البحر وجبال السراة أو الحجاز لفظ تهامة أو الغور ، غير أن الأغلب أن يطلق لفظ تهامة على الجزء منه الواقع في حدود اليمن ، فيقال تهامة اليمن ، ويغلب إطلاق لفظ الغور على الجزء الشمالي منه الواقع شمال الجحفة ، ويطلق لفظ الغور أو تهامة – بدرجة واحدة من التساوي – على الجزء الأوسط منه الواقع في حيز الحرم حتى الجحفة .

وأساس التخصيص في هذه التسمية هو الارتباط بجبال السراة ، فسلسلة السراة التي تنتهي عند ذات عِرْق ، حيث تختفي النهاية الشمالية لسراة ثقيف أو – السراة الثالثة – تنتهي معها تهامة حيث يلتقي طرفا نجد وتهامة بعد أن اختفى الحجاز الأسود الفاصل بينهما . لذلك كانت ذات عِرْق فَصْلَ مابين تهامة ونجد والحجاز : (وذات عرق فصل مابين تهامة ونجد والحجاز . وقيل لأهل ذات عرض : امتهمون أنتم أم منجدون ؟ فقالوا : لا متهمون ولا منجدون) (٩٢) وكانت الحدود الشمالية لتهامة تقف عند الخط الواصل من ذات عرق هذه إلى البحر : (وأما تهامة فإنها قطعة من اليمن جبال مشتبكة أولها مشرف على بحر

القلزم مما يلي غربيها . وشرقيها بناحية صعدة وجرش ونجران ، وشماليها لحدود مـــكة ، وجنوبيها من صنعاء على نحو من عشر مـــراحل)(٩٣) — وفي النقطة التي تختفي عندها الحجاز الأســـود تبـــدأ سلسلة حـــرات الحجـــاز التي تتجـــه إلى الشـــمال مكونة حجـــاز المدينة الذي يعلو منطقة الجلس ابتداء من حـــد الجحفة . ويسير ســـاحل تهامة موازيا لهـــذا الحجاز حتى إذا صادف إقليم النجلس مضى فيه قليلا إلى نقطة تقـــع في الشمال والشمال الشرقي من الجحفة حيث يلتقي هناك حجاز المدينة (أو إقليم الحـــرة) وتهامة (أو الغـــور) وإقليم الجلس . وهذه النقطة التي تلتقي عندها الأقاليم الثلاثة تعرف بالعَرْج : (طول الحجاز من حد العرج إلى السراة)(٩٤) والمنطقة التي تقع جنوب الجحفة هي الغـــور أو تهامة والمنطقة التي تقع إلى شمال الجحفة على ساحل البحر هي الغور فقط أي غـــور الجلس : (فصار ماخلف هـــذا الجبـــل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعكّ وكنـــانة إلى ذات عرق والجحفة وما والاها وصاقبهـــا وغـــار من أرضهـــا الغور : غـــور تهامة — وتهامة تجمع ذلك كله — وغور الشام لايدخل في ذلك ؟ (٩٥) .

ولمـــا كانت العرج نقطة اتصال جبال الحجاز بجبال لبنان : (والعرج عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج تذكر مع السُّقيا — عن الحازمي وجبلهـــا متصل بجبل لبنان) (٩٦) فإنا نستطيع أن نفهم لمَ خُصِّص الجُـــزْء من شـــمال الجحفة باسم الغـــور فقط — وذلك لأن غور الشام لايدخل في حـــدّ تهامة وغور الشـــام لايدخل في ذلك ، وكثـــيرا مانجـــد هـــذه المنطقة تسمى « بسيف البحر » إلى جانب تسميتها بالغور .

ولما كان الجـــزء الجنوبي من ساحل البحر يعرف بتهامة وكان الجزء

الشمالي منه يعرف بالغور فإن الجزء الأوسط جمع بين الاسمين فسمي تهامة وسُمي الغـور أيضـا .

ومن حدّد مفهوم لفظ الحجاز فقصره على الحجاز الأسود أي جبـال السراة فقد اعتبر مكة من تهامة فهي دون هـذا الجبل ، محصورة بينه وبين البحر ومن فهم من لفظ الحجاز والحجازين جميعـا : الأسود وحجاز المدينة فكة عنده من الحجاز لأنها تقع في الهضبة المرتفعـة التي ترتكز عليها جبال السراة أو الحجاز الأسود .

وكذلك شأن المدينة فهي من تهامة أو الغور عند من يقصر معنى الحجاز على الحجاز الأسود فقط وهي من الحجـاز على المعنى الثاني ، فهي تقـع فوق نفس الهضبة الحجازية التي ترتكز عليها سلسلة السراة .

ومن لايعتّرف إلا بالحجاز الأسود قد يعتبرها كذلك من نجـد لأنه قد يعتبر إقليم الحَلْس من نجد : (على أن من العلماء بتقسيم هـذه الديار من زعم أن المدينة من نجد لقربها منها وأنّ مكة من تهامة اليمن لقربها منها (٩٧)

ونصوص الجغرافيين في رسم الحدود الحاجزة بين أقسام الجزيرة العربية تكشف لنا عن طريق تحليلها واستعراض أوجه الخلاف بينها عن بعض من مراحل التطور في حياة الجزيرة العربية .

وقد كانت هذه المراحل تنعكس في أغلب الأحيان على الأعلام الجغرافية والعناصر الثابتة في حياة الجزيرة العربية . ولعلنا نوفق إلى تتبع هذا التطور في مناسبة أخرى .

عبد المحسن الحسيني

الحـواشي :

١ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) .

٢ ــ ياقوت : معجم البلدان ــ مادة « البحرين » .

٣ ــ البكري : معجم ماستعجم « القاهرة ١٩٤٥) ١٢ .

٣ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ١٨/١٩

٤ ــ الاصطخري : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٢/١٣

٥ ــ المقدسي : أحسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٨

٦ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

٧ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ والاصطخري : مسالك الممالك ليدن ١٩٢٧) ١٤

٨ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

٩ ــ المقدسي : أحسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٨

١٠ ــ المقدسي : أحسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٩٤/٩٥

١١ ــ البكري : معجم ماستعجم القاهرة ١٩٤٥) ٦

١٢ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة : ١٩٤٥) ٧

١٣ ــ اليعقوبي : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٣٣٣

١٤ ــ اليعقوبي : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٣٣٤

١٥ ــ اليعقوبي ٣٣٥

١٦ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٣١

١٧ ــ الادريسى : نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق (مخطوط ــ صورة شمسية بمكتبه جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٩٤ / ٣٦

١٨ ــ ينقل ذلك جورجي زيدان عن استرابون وبلين : « العرب قبل الإسلام» ١٩٣٩) (١٦٢ وحتى في العصور الحديثة فان دي بوا ــ أرميه يصور لنا صورة مما بقى من صور هذه الصلات القوية بين بلاد العرب وصحراء مصر الشرقية . في مقالة له عن القصير يذكران أن المدينة لايسكنها إلا التجـار الذين يقبلون من بلاد العرب ومصر ، وأن المدينة ليس لها سكان أصليون . وأن المشايخ بها والإدارة هم تجـار من ينبع

تعهدوا بأن يقدموا إلى الحكومة المصرية حصة مما يجبونه على المتاجر

Do Bois-Ayme : Sur la ville de Q'oceyr. (Description de l'Egypte 2éme ed. Vol, XI, 385).

١٩ ــ البكري : معجم ماستعجم « القاهرة ١٩٤٥) ١٢

٢٠ ــ البكري ١١ .

٢١ ــ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان « ليدن ١٨٨٥ (٢٧ والبكري يورد نفس النص غير أنه يضع لفظ اليمامة بدل تهامة) معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ غير أن نص ابن الفقيه أوضح .

٢٢ ــ لعل كلمة (جلس) وما شابهها قــد سقطت من هذا المــكان . فالمعنى لايستقيم إلا بمثل ذلك .

٢٣و٢٤ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٨/٩

٢٥ ــ المقدسي : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٧/٦٨

ــ لأهل اليمن ميقاتان تبعا لإختلاف الطريق التي يأتون منها فمن أتى من صنعاء عن طريق نجــد فيقاته مع أهــل نجــد قرن المنازل . ومن أتى من طريق الساحل (طريق زبيد) فيمقاته يلملم . فالطريق الأول هو الطريق الشرقي والآخر الغربي ويفصل بينهما جبــل السراة .

٢٦ ــ سبق أن أوردنا نص المقدسي الذي يمثل فيه صورة جزيرة العرب .

٢٧ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٢٠/٢١ ــ الأصطخري مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤/١٥

٢٨ ــ وبعض الجغرافيين من العرب مثل الادريسي قد اتبع نظرية الأقاليم السبعة في وصف الجزيرة العربية فوقعت في الجزء الخامس من الأقليم الأول وفي الجزئين الخامس والسادس من الاقليمين الثاني والثالث . ولمــا كانت مثل هــذه الطــريقة لا تعرض لجزيرة العرب عرضا خاصا باعتبارها أقليما مستقلا فلم نشر إلى هــذا المنهج في تقسيمها إذ هــو جزء من النظرية العامة في تقسيم العــالم المغمــور .

٢٩ ــ ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ ــ البكري معجم ماستعجم القاهرة ١٩٤٥) ١٠

٣٠ ـ البكري : ص ١١
٣١ ـ البكري : ص ١٢
٣٢ ـ القاموس المحيط .
٣٣ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١
٣٤ ـ البكري ص ١٤
٣٥ ـ هذا التقدير هو تقدير النضربن شميل(ياقوت : معجم البلدان مادة حرة»
٣٦ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣
٣٧ ـ ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٣١
٣٨ ـ ابن الفقيه ص ٢٢
٣٩ ـ ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « العرج » .
٤٠ ـ ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥
٤١ ـ قدامة : الخراج (ليدن ١٨٨٩) ١٨٩ .
٤٢ ـ الادريسي : نزهة المشتاق (مخطوط) الأقاليم الثاني الجزء الخامس .
٤٣ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٦
٤٤ ـ ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥ .
٤٥ ـ الهمداني : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ١٨٦/ ٧ .
٤٦ ـ البكري : معجم ماستعجم(القاهره ١٩٤٥) ٩
٤٧ ـ هذا التقدير هو تقدير الهمداني وقد رجحنا على غيره .
٤٨ ـ ابن حوقل : صورة الأرض ليدن ١٩٣٨/١٩ ـ الأصطخري : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤ .
٤٩ ـ الادريسي : نزهة المشتاق (مخطوط) الأقليم الثاني الجزء الخامس .
٥٠ ـ ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « يمن » .
٥١ ـ ياقوت « مادة البحرين » .
٥٢ ـ H. Lammens : L'ancienne frontiére entre la Syrie et le Hidjaz (B. I. F, A. B. vol. Xv, 69 ff)
٥٣ ـ Tha Northen Hegaz - (New York 1926) 257.

٥٤ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ ــ الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤ .

٥٥ ــ البكرى : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ .

٥٦ ــ ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٣٢ .

٥٧ ــ ابن حوقل صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٣٢ ــ الاصطخرى : مسالك الممالك ليدن ١٩٢٢) ٢٠ ــ الأدريسي : نزهة المشتاق (مخطوط) الأقليم الثالث الجزء الخامس وهو يذكر نفس النص تقريباً .

٥٨ ــ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

٥٩ ــ الأدريسي : نزهة المشتاق (مخطوط) الأقليم الثالث الجزء الخامس .

٦٠ ــ من أمثلة ذلك محاولة الرومان استمالة امرئ القيس سيد جزيرة تيران (ايوتاب) واقليم مدين بدعوته إلى النصرانية وزيارة القسطنطينية بدعوة من الأمبراطور ليو ومنحه لقب فيلارك عام ٤٧٣ .

٦١ ــ Musil : The Northen Hegaz (New York 1926) 243 ff.

٦٢ ــ Musil : Arabia Deserta (New York) 1927) 477 ff.

٦٣ ــ كانت كندة تسكن إلى الشرق وإلى الجنوب قليلا من منازل طيّ في المكان المعروف بالشرف وهو يقع الآن تقريباً بين الرياض وحائل[1] مع ميل قليل إلى الغرب . ولا يخفى النزاع بين الفرس والروم للسيطرة على كندة وذبيان وكلب وعبس وطي لبسط نفوذهما

٦٤ ــ على هذه المنطقة وامرؤ القيس سيد جزيرة تيران (إقليم مدين) كان حليفا للفرس أول الأمر قبل أن يستميله الروم إليهم .

٦٥ ــ أنظر الهمدانى : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) معدن فاران ١٧٠ وعقيق بني عقيل ١٧٧ .

٦٦ ــ انشدوا في ذلك :

إذا مضر الحمراء عب عبابها   فمن يتصدى موجها حين تزخر ؟

---

(١) الشرف لايقع بين الرياض وحائل بل يقع غرب الرياض ، غرب السر ، ويقع بالنسبة لحايل جنوباً على مسافة بعيدة ويعرف الآن باسم الشرفة « العرب »

٦٧ ـ Le Pére : De La mer Rouge Description de l'Egypte 2éme édit. T XI, 198.

٦٨ ـ لا أدري إذا كانت هناك صلة بين عبادة « اشتار » وبين تسمية الممر الواصل بين مدين وتبوك وبالتالى بين مدين وتيماء باسم ممر شتار[1] (ككتاب) .

والهمــداني في تعــداده لشطوط بحر العرب (السواحل والمواني) يعــد منها تيه تيماء . وكلمة تيه كما يتضح من نصه معناها الساحل أو المرسى المتصل بواد يصله بالداخل (صفة جزيرة العرب) ليدن ١٨٨٤ ، ١٢٧

٦٩ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٥

٧٠ ـ هــذا إذا اعتبرنا الضمير في كلمة « قرياتها » يعود على جزيرة العرب وإن كان من الممكن أن يعود على اليمن فهي أقرب مذكور إليه .

٧١ ـ كانت تيماء منازل طيء (البكري : معجم ماستعجم (القاهرة١٩٤٥) مادة تيماء ، وطي من قبائل نجــد لذلك اعتبرت تيماء من نجــد وليست من الحجاز .

٧٢ ـ ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ .

٧٣ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣ وص ١٤ مادة (جناب)

٧٤ ـ ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « نجــد » .

٧٥ ـ ياقوت : معجم البلدان ـ مادة « الحرار » .

٧٦ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) مادة (تيماء) . والصفحات من ١٠ ٪ ١٥

٧٧ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

٧٨ ـ البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

٧٩ ـ يعتبر بعض الجغرافيين أن العرج هي نقطة إتصال جبال الحجاز بجبال

---

(١) أخشى أن تكون كلمة (شتار) محرفة عن شار ، وهو جبل عظيم فى جنوب حسمى ومن قربه طريق إلى تبوك من منطقة مدين « يمر بعقبة الحرية .

لبنان فلذلك يقصرون اسم جبال الحجاز على السلسلة التي تمتد منهـا نحو الجنوب والعرج عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج ، تذكر مع السقيا – عن الحازمي – وجبلها متصل بجبـل لبنان » ياقوت : معجم البلدان مادة العرج .

٨٠ – البكري معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٣ وص ٨,٧

٨١ – ياقوت : معجم البلدان – مادة « جلس » .

٨١ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

٨٢ – الهمداني : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ١٧٧

٨٣ – ياقوت : معجم البلدان – مادة « الحرار » .

٨٤ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٤

٨٥ – ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٦

٨٦ – ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٢١ – الاصطخري : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤ .

٨٧ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

٨٨ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢ .

٨٩ – ياقوت : معجم البلدان – مادة « عرض » .

٩٠ – القاموس المحيط – مادة « عروض » .

٩١ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

٩٢ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

٩٣ – ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٣٦ – الاصطخرى مسالك الممالك ليدن (١٩٢٧) ٢٣

٩٤ – ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ .

٩٥ – البكري : معجم ماستعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

٩٦ – ياقوت : معجم البلدان – مادة « العرج » .

٩٧ – ابن حوقل : صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ٢١ .

ذات السلاسل أين موقعها ؟!

. . قرأت في مجلة « الفيصل » في سنتها الأولى أن ذات السلاسل التي سميت بها الغزوة التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، بقرب المدينة ، وأنها سميت بذلك لمياهها . فأين موقعها بالنسبة للمدينة ؟ ؟

الرياض — حسين كماخي

العرب : المعروف أن ذات السلاسل التي سميت باسمها سرية عمرو بن العاص في العهد النبوي تقع في شمال الحجاز ، بقرب حِسْمًا (حسمى) بقرب الحدود الأردنية ، حيث منازل جُذام ، الواقعة شمال بلاد قبيلة بليّ .

وكان لعمرو بن العاص في قبيلة بليّ خؤولة ، ولهذا كان رئيس تلك السرية لمنزلته من هذه القبيلة التي يربطها بجذام الجوار والنسب ، إذ القبيلتان من قحطان .

ويحسن إيراد بعض نصوص المتقدمين التي تدل على أن ذات السلاسل بعيدة عن المدينة ، وتحدد موقعها .

قال البكريُّ في « معجم ما استعجم » : ذاتُ السَّلاسِل : بفتح أوله على لفظ جمع سلسلة : رمل بالبادية ، قال الأخطل :

كأنّهـا قاربٌ أقرَى حلائله
ذات السَّلاسِل حتّى أيبَس العودَ

وفي كتاب البخاري : قال ابن اسحاق عن يزيد بن عروة : ذات السلاسل في بلاد عُذْرَة وبليّ وبني القين . وقال اسماعيل بن أبي خالد : غزوة ذات السلاسل هي غزوة لخم وجُذام . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم عمْرو بن العاصي على جيشها . قال ابن اسحاق : بعثه ليستنفر العرب بالشام . وذلك أن أم العاصي بن وائل كانت امرأة من بليّ . قال ابن اسحاق : سار عمرو حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له سلسل ، وبه سميت الغزوة غـزوة

السلاسل ، خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فأمده بأبي عُبيدة بن الجرّاح في جيش .

والسلاسل في غير هذه الرواية ماء لجذام ، وبه سميت تلك الغزوة ذات السلاسل .

انتهى . وغير واضح التفريق بين هذا الماء وبين الماء الذى قبله ، وكلاهما لجذام . وقال ياقوت في « معجم البلدان » : السلاسل . ماءٌ بأرض جذام ، وبذلك سميت غزاة ذات السلاسل . وقال ابن اسحاق : اسم الماء سلسل . وبه سميت ذات السلاسل . وقال جرانُ العَوْد :

وفي الحيّ مَيلاءُ الخمار كأنّها
مهاةٌ بِهَجْلٍ من أديمٍ تعطّفُ

كأنّ ثناها العِذابَ ، ورِيقها
ونَشْوةَ فيها ، خالَطتهنّ قَرْقَفُ

يُشَبّهها الرّائي المُشبّهُ بيضةً
غدا في النّدى عنها الظّليمُ الهَجَنّفُ

بوعساء من ذات السّلاسل يلتقي
عليها من العلقى نباتٌ مؤنّفُ

وقال الراعي :

ولما عَلَتْ ذاتَ السّلاسل وانتحى
لها مُصْغياتٌ للفجاءِ عواسِرُ

وفي حديث عاصم بن سفيان الثقفي أنهم غزوا غزوة السلاسل ، ففاتهم العدو فأبطأوا ، ثم رجعوا إلى معاوية . قال أبو حاتم بن حبّان عقيب هذا الحديث فى كتاب « الأنواع » : غزوة السلاسل كانت فى أيام معاوية . وغزوة ذات السلاسل كانت في أيام النبي صلى الله عليه وسلم . قلت : ولا أعلم ما هذه السلاسل . انتهى . كلام ياقوت . ولا أرى شعر جران العود النميري الذي أورد ياقوت ينطبق على الموضع المذكور . وإنما يقصد (وعساء من ذات السلاسل) أرضا لينة من أرضٍ ذات سلاسل وهي حبال الرمل الممتدة .

وبلاد جُذام حول سلسلة جبال حِسْمَى إلى ساحل البحر إلى الشام ، وحلت محلها بنو عقبة ثم بنو عطية والحويطات ، وتلك البلاد تقع شمال بلاد قبيلة بليّ التي لا تزال في مواطنها القديمة .

شلال وهل الاسم قديم ؟!

. . ذكرتم في رحلتكم إلى العُلا . المنشورة في جزء رمضان وشوال ١٣٩٧ وادي شلال وقلتم : إنه بفتح اللام مخففة . ولكن الذي أعرف أنه بتشديد اللام ، فهل هناك من كلام المتقدمين ما يدل على تخفيفها ؟

العلا — عبد الله عمر

العــرب : لم أسمع — وأنا في العلا — هذا الاسم إلا مخفف اللام ، وكذا أملى عليَّ وكيل إمارة تلك البلدة الشيخ عبدالله بن نويصر ، وهو خبير بهذه البلاد ، وقد نص المتقدمون على تخفيف اللام

قال أبو عبيد البكريُّ في « معجم ما استعجم » : شَلالُ بفتح أوله ، على بناء فعال لا يُجري : وادٍ معروف ، أوله ببلاد بني ضنّة من عُذْرة ، رهط بُثَيْنة ، قال جميل :

فلولا ابنة العذْرِيّ لم تر ناقتي شَلالَ ولم أعْسفْ بها حيث أعْسفُ

فهل أبلغ من هذا دليلا على تخفيف لام (شلال) وعلى قدمه ؟! ويظهر أن السائل الكريم ليس من أهل العلا إذ لو كان من أهلها لما خفي عليه هذا.

وقد قيل لي : إن أحد الإخوة الذين يحاولون أن يفهموا شيئاً عن تحديد مواضع في بلادنا قال : إنه يعرف شَلالا — بتشديد اللام — والحق أنه جاهل ولا يدري أنه جاهل ، وشلال — لا يسوغ تنوينه كما فعل .

الرَّوْحاء هل هي الراحة ؟

في أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم يرد ذكر الروحاء كثيراً ، وقد سألت عنها فقيل لي : إنها تسمى الراحة ، فهل هذا صحيح ؟ وأين تقع الروحاء ؟

المدينة — علي حسن رويحلي

العــرب : ينبغي ملاحظة أن اسم الروحاء يطلق على مواضع منها :

١ — الروحاء الواقعة في الطريق من المدينة إلى مكة ، وهذه أشهر المواضع ، ولها ذكر شائع في كتب السيرة النبوية وفي التاريخ وفي معاجم الأمكنة ، ولا يزال موضعها معروفاً يمر به الطريق من الفريش إلى المسيجيد ، وهناك بئر ومسجد ، وتعرف باسم (الراحا) لأن أبناء البادية يبدلون الواو ألفا في هذا الاسم وانظر عن تحديد هذا الموقع مجلة « العرب »[1] .

٤ — الرَّوْحاء : في شرق الجزيرة فقد ذكر في «النقائض»[2] : أن الفرزدق لما هرب من زياد أتى الروحاء — بعد قُصَيّبة كاظمة — فنزل في بكر بن وائل ، فأَمِنَ وقال في ذلك .

قد ميَّلتْ بعد المسير فلم تجد
لعزرتها كالحيِّ بكر بن وائل

فسارت إلى الأجفار خمسا فأصبحت
مكان الثريا من يد المتناول

— يعني خمس ليال —

إلى أن قال :

إذا هي حلَّتْ بين سعد ومالك
وَجيْدَ لها ما بين فَلْجٍ وحائل

سعد : هو ابن يزيد (؟)

٢ — الروحاء موضع بقرب رجلة التيس ، وهذه شرق الدهنا ، وردت في شعر الراعي[3] :

شُقْرٌ سَماويةٌ ظلَّتْ مُحَلاَّةً
بِرِجلَة التَّيْسِ فالرَّوْحاءِ فالأمر

٣ — الروحاء : موضع قرب حِبْران — على ما في كتاب نصر ، ونقله صاحب « معجم البلدان » في الكلام على الرُّخيخ . وحِبْران والرُّخيخ يقعان غرب جبلي طيِّء ، شرق الحرة .

---

(١) السنة الأولى ص ٨٥٥-٨٥٦ (٢) ٦١٤ و ٦١٥

(٣) « معجم ما استعجم » للبكري .

العنوان
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
شارع الملك فيصل - هاتف ٢٢٩١٥
الرياض - المملكة العربية السعودية

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها: حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
٢٥ ريالاً للأفراد و٧٥ ريالاً لغير الأفراد
المرسلات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء: ٦ ريالات

ج ١١ و ١٢ س ١٢ جماديان ١٣٩٨ هـ - إيار - حزيران (مايو / يونيو ١٩٧٨ م)

رابطة للأدباء

في حديث لي في (الإذاعة) قبل بضعة شهور [١] دعوت إلى إنشاء (رابطة للأدباء) في بلادنا ، ووجهت الرجاء إلى أمير الشباب فيصل بن فهد ، ذي اليد الكريمة على الأدب والأدباء بإنشاء (النوادي الأدبية) في بلادنا .

هذه النوادي التي كان لها أثر كبير في إنعاش الحركة الأدبية بما تنشره من مؤلفات ، وما يُلقَى فيها من محاضرات ، وما تقيم من حفلات تجمع الأدباء ، وتوجد بينهم أقوى الصِّلات .

وكان مما لفتُ إليه النظر كثرة ما تقوم تلك النوادي بنشره من كتب ، قد لا تكون ذات أثر في الحركة الأدبية في بلادنا ، بل ليس من المبالغة القول بأن كثيراً منها على درجة من الضعف ، بحيث لا يتلاءم مع ما بلغته حياتنا الأدبية ، فنشرها والحالة هذه إن لم يكُنَ من قبيل العبث وإهدار جزء من نشاط النوادي ، المادي . فلا أقلّ من أن يُوصف بأنه غير جدير بالنشر ، لا سيَّما وأن كثيراً منها سبق نشره قبل سنين تزيد على العشر .

---

(١) في شهر ذي القعدة ١٣٩٧ .

وإذن فنحن أمام قضيّة بحاجة إلى المعالجة ، نشأت عن إنشاء النوادي الأدبية، فما كل المشرفين على تلك النوادي على درجة من الثقافة وسعة المعرفة تمكن من اختيار المؤلف الصالح للنشر ، وما كلّ من كان على مثل تلك الدرجة من المُشرفين على أحد النوادي الأدبية بالقادر على أن يستوعب قراءة كل كتاب يقدم للنادي لنشره ، لكي يختار الأصلح . ثم إن المبالغ التي تصرف في كتب قد لا تضيف جديداً إلى أدبنا يعتبر صرفها في غير محله .

ولقد أدركت حينما حضرت (مؤتمر أدباء العرب) في دورتيه العاشرة في الجزائر والحادية عشرة في طرابلس شدة الحاجة إلى وجود رابطة للأدباء في بلادنا ، فكل واحد من الأدباء الذين حضروا — ويحضرون الدورات الأدبية لمؤتمر الأدباء العرب — يمثل في رابطة للأدباء في بلاده ، وكلّهم ينتخبون من قبل تلك الرابطات ، وقل أن يُوجَدَ قُطرٌ عربيٌّ مُثّلَ أدباؤه في إحدى الدورات المذكورة لا يوجد للأدباء فيه رابطة .

وكان مما قلت في حديثي في الإذاعة : إنّ وجود رابطة للأدباء في بلادنا يدفع النوادي الأدبية فيها إلى القيام بأعمالها بقوة ونشاط . وأنه سيكون خير وسيلة لكي تشرف (رعاية الشباب) على هذه النوادي إشرافاً تامّاً ، لأن من غير المعقول أن (رعاية الشباب) تستطيع توجيه تلك النوادي الوجهة الصحيحة من جميع نواحيها ما لم تكن لها هيمنة مباشرة على أعمالها ، وتلك الهيمنة لا تتم مالم توجد هيئة تباشر الإشراف الفعليّ على كل نشاط أدبي ، ولن يكون ذلك بدون وجود رابطة للأدباء يكون من اختصاصها توجيه النوادي الأدبية توجيها تامّاً ، من حيث اختيار العاملين فيها ، واختيار ما تتولى نشره من كتب ، وإيجاد روابط قوية بين تلك النوادي التي هي الآن على درجة من التفكك والتنائي ، وعدم الارتباط يحول دون أن يكون لها الأثر القوي في حياتنا الأدبية .

وما الفائدة من هذه (النوادي الأدبية) إذا لم تسهم إسهاماً قوياً في دفع الحركة الأدبيَّة قدماً، وإزالة ما يخيّم عليها من ركود وضعف — وقل إنْ شئتَ: وموت!؟ وما جدوى هذه الكتيبات التي تنشرها ومنها ما مضى على نشره عشرات السنين — ما جدواها في أثر تلك النوادي!!

ولا أدري ما هو أثر هذه النوادي في خلال السنوات الخمس التي مضت على إنشائها؟! ولكن الذي لا يشك فيه أحدٌ أنها بأمَسّ الحاجة إلى الرعاية المباشرة، ولن تنجح هذه الرعاية ما لم تكن من الأدباء أنفسهم، وما أعتقد بأنهم في نظر أولي الأمر بأقل شأناً من (الرياضيين) وفرق عظيم بين (النوادي الأدبية) و (النوادي الرياضية)!!

وإيجاد رابطة للأدباء من خير الوسائل وأقواها لتتم هيمنة (رعاية الشباب) وإشرافها الفعليّ على النوادي الأدبية، فهي — والحالة هذه — من أهم ما يجب أن تعنى به (رعاية الشباب).

وأيّ محذور في وجود هذه الرابطة ما دامت ستُنشأ من قبل رعاية الشباب وتحت إشرافها؟!

إنني أتوجه بهذا الرجاء إلى الرجل الذى له الخطوة الأولى المباركة في إنشاء النوادي الأدبية، وليس عليه بعزيز أن يتبعها بخطوة مباركة أخرى من شأنها أن تجعل تلك النوادي قائمة على أسس ثابتة تمكنها من أداء عملها في إنعاش الحياة الأدبية في بلادنا.

وهو رجاء لا أعتقد أنّ أديباً واحداً من أدباء هذه البلاد لا يشاركني فيه، بل لا أعتقد أن سمو الرئيس الأعلى لرعاية الشباب يجهل أثره العظيم في توجيه أعمال تلك النوادي توجيهاً صالحاً، مثمراً الثمرة المرجوَّة من إنشائها.

والله الموفق.

حمد الجاسر

الآثار في المنطقة الشرقية

مقـــدمة من تحرير المجلة :

عندما كنت في الظهران (بين عامي ١٣٦٣ و ١٣٦٩) كان ممن عرفت وقويت صلتي به الأستاذ الشاعر خالد الفرج ، وكان قد أقام في مدينة القطيف مدة طويلة عُنيَ في خلالها بجمع بعض النوادر من المخطوطات والتحف ، ومما جمع تمثال مكسور الرأس ، ولوح حجريٌ فوقه كتابة بالمُسْنَد (الخط الحِميَري) وقد خشي أن يؤخذا منه ، فعمد إلى دفنهما داخل بستان له في جنوب القطيف يدعى (العيَّاشيَّة) وكان يُخفي أمرهما ، غير أن أحد علماء الآثار من الأمريكيين بواسطة (شركة الزيت العربيـة الأمريكية) استطاع الاطلاع عليهما وتصويرهما .

وللأستاذ خالد رحمه الله مع الآثار خبر طريف ، أورده فِلبي في كتابه « أرض مَديَن » ولا أعتقده صحيحاً لأنه اتهمه بتكسير أحجار تحوي كتابات قديمة في جهات تبوك .

ثم علمت فيما بعد أنَّ ذلك العالم الأمريكي نشر بحثاً عن الآثار في الاحساء ونواحيه ، نشر ذلك البحث في المجلة الجغرافية الأمريكية في شهر أبريل سنة ١٩٤٨ وتحدث عن اللوح الحجري والتمثال اللذين سبق ذكرهما .

ولم ألبث إلا يسيراً حتى اطلعت على خلاصة ذلك البحث منشوراً في مجلة « المنهــل » في عام ١٣٦٧ معرباً بقلم الأستاذ أحمد علي المدرس بمدرسة الأمراء في ذلك الوقت ، فأرسلت إليه بعض الملاحظات فكتب إلي بتاريخ ١٣٦٧/٢/٣ من مكة المكرمة كتاباً يقول فيه : (... فشكراً لك وألف شكر ، على أن ترجمة المقال نالت استحسان عالم بحاث ، وستضحك كثيراً إذا صرحت لك بأن ما أشرت إليه في الهامش من عدم معرفتي للأسماء لم يكن سببه (سواك) فقد كنت متأكداً أن أحداً سواك لا يلتفت إلى ذلك ، أو ليس في وسع أحد سواك أن يلتفت إليه ، ولقد حمدت الله

على أن ما أملته ورجوته وقع – وشكراً لك على الإفادات القيمة ، وقد بقيت للمقال بقية ، وبها بعض أسماء ربما احتاجت إلى إصلاح أو تهذيب منك ، وبعدها أحاول نشر ما تكرمت به من التصحيحات) .

وقال في ذلك الكتاب : (إن كلمة (الجرعاء) أو (الجرها) أو كما ذكرها مترجم أخر لهذا المقال (كرحا) فأقول عنها : إنني اطلعت على مقال الأستاذ رشدي في « البلاد السعودية » ولكني مع هذا استحسنت ذكر النص الإنجليزي ، اعتقاداً من أن ما ذكره الأستاذ رشدي يكون تعديلا من العرب ، لأنّ الكلمة في الأصل منقولة ومروية عن اليونانيين ، أو اللاتينية ، وهم نقلوها بالطبع من لغات الشمال القديمة ، وهذه اللغات وأهلها بالطبع كانوا قبل المسيح بأرقام شبه خياليّة ، فأين العرب وأين لغاتهم في تلك الأيام ؟ ! وأظن أن حرف العين والغين والخاء والهمزة ما وجدت إلا في اللغة العربية ، وبعد ظهور العرب ، والدليل على ذلك أن غير العرب في الوقت الحاضر يصعب عليهم النطق بهذه الحروف – ولا سيما بالعين – وبناء على هذا الظن ما أظن أن الكلمة أو البلدة المذكورة اسمها عند اليونان أو عند استرابو (الجرعاء) بهذا النص الأخفشي أو الخليليّ أو القالوني هذا ما أظنه .

وأزيدك علماً أنني قلت لصديق عن هذا البحث : يظهر أن هـــذا البحث كله ظنٌ وحدس ، وَهْمٌ في وَهْمٍ ولا حقيقة لشيء .

أما الصورة والتمثال فيكونان من الأشياء القريبة كالعهد الجاهلي ، ولكن نُجاري الزّمن و(الدّمن) وتعرف معنى الدمن أنها تقابل البهرجة الكذّابة) . إلى آخر ما كتبه الأستاذ أحمد علي .

ثم لا أدري شيئاً عن هذا البحث ولكنني بعد زمن مررت ببغداد فقدم الي الأستاذ الشيخ عبد الله الخيال حينما كان وزيراً مفوضاً هناك نسخة معربة منه .

وفي هذه الأيام بينما كنت في الرياض أجمع معلومات تتعلق بكتاب « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » – قسم المنطقة الشرقية – وجدت

تلك الترجمة بين أوراق كنت قد هيأتها للنشر في صحيفتي اليمامة التي كنت أصدرها فحدثت الأمور بما حال دون ذلك ، فلما وجدتها الآن رأيت في نشرها جانباً من إطراف القراء ببحث قد يكون غريباً عند بعضهم وإن كنت أوافق الأستاذ أحمد علي بأن كثيراً مما يحويه البحث من الآراء لا تقوم على أساس تاريخي قوي .

أما كاتب هذا البحث فهو أمريكي يدعى (بيتربروس كورنوال Peter Bruce Cor Nwall) أتم دراسته العالية ، وحاز شهادة اختصاص بتاريخ العرب وآثارهم القديمة من جامعتي (أكسفورد) و (هارفارد) وقد قام بالتنقيب عن آثار الاحساء بمساعدة من (شركة الزيت العربية الأمريكية) و (جامعة كاليفورنيا) و(جامعة هارفارد) ونشر بحثه بعنوان (البحث عن ماضي جزيرة العرب In Search of Arabias Past)

وقد حذفنا من مقاله كلمات يسيرة ليست من صلب الموضوع وفي نشرها مالا يستحسنه بعض القراء . ومن الممكن الاطلاع عليها في المجلة الجغرافية الأمريكية The National Geographis Magazine April 1948 .

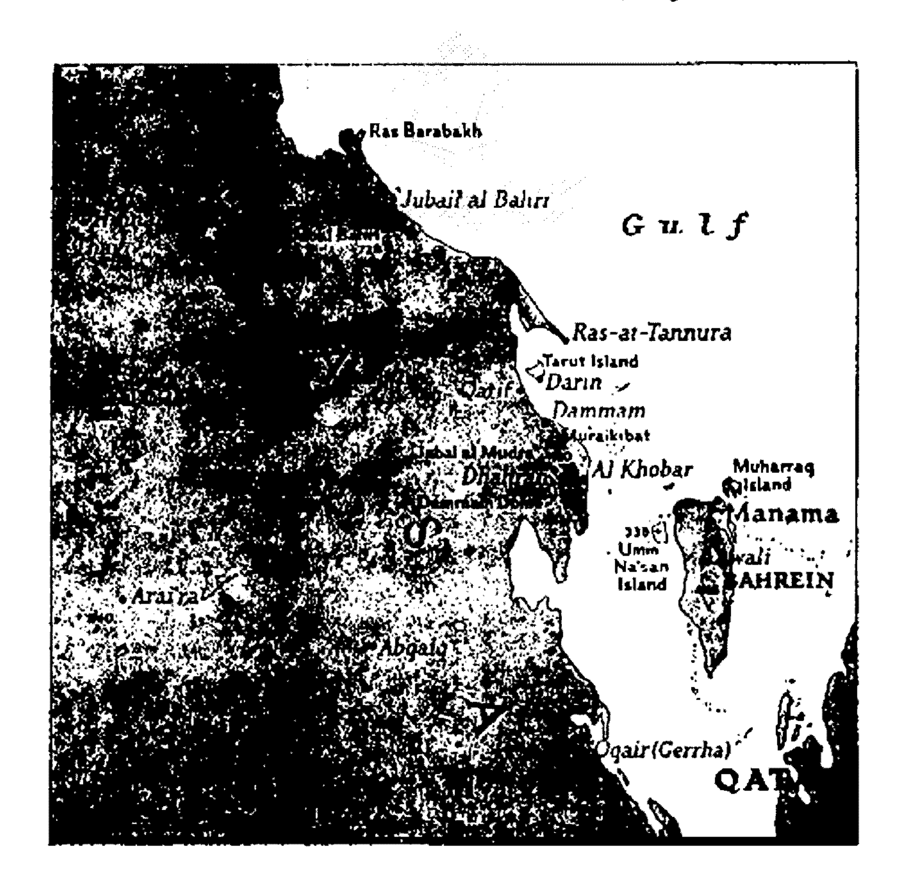
وها هي ترجمة البحث :

ليس بين أقاليم المملكة العربية السعودية الصحراوية اليوم إقليم يضارع مقاطعة الاحساء تقدماً في العمران ، أو قرباً من المدنية الغربية الحديثة ، أو يدانيها في شهرتها العالمية الذاتية . والاحساء شقة أرض ضيقة طويلة قاسية تساحل الخليج (. . .) طولا كشف المهندسون الأميركيون تحت سطحها مستودعات زاخرة بالنفط .

وثمة أربعة آلاف مهندس وموظف أمريكي يعيشون اليوم في الاحساء حيث تنتصب مصافي النفط الجبارة في رأس تنورة ، تحيط بها الدور والنوادي وأحواض السباحة ، وتتخلل أراضيها شبكة من الطرق المعبدة تجوبها مئات من سيارات الحمل والسيارات الأخرى اللازمة لتسيير أعمال هذه الصناعة النامية التي تدر الثروة على العرب كما تجهز الأوروبيين والأمريكيين بالنفط الذي هم بأمس حاجة إليه . .

كان ذلك في يوم اشتد قيظه من أيام أيلول (سبتمبر) عام ١٩٣٣ عندما وطئت أقدام بعض علماء طبقات الأرض الأمريكيين سواحل البلاد العربية فأقاموا ساعة وصولهم مخيماً صغيراً لاقامتهم ومقراً لأعمالهم الكشفية الذي سرعان ما تطورت إلى عمل من أعظم الأعمال ، لاستثمار أعظم منابع النفط في العالم .

ولقد كانت الاحساء إلى ذلك الوقت أرضاً منعزلة منسية ؛ زارها سياح من الأوربيين ومكث بها بعضهم زمناً قصيراً ومع ذلك فلم يعلم غير القليل النادر من تاريخ الإحساء (وطوبوغرافيتها) المفصلة كما أنه لم يتيسر لأحد أن يعلم ما تحويه أرضها من كنوز أثرية (أنظر الخارطة) تحت أكمات مستديرة الشكل من الرمال ، والتقطوا من بينها نقوداً وخرزاً وكسر أسلحة أسلحة (بورنزية) كما بلغهم أيضاً وجود تماثيل ومخطوطات حجرية وعاينوا شواهد مدنيات قديمة في تلك الأرجاء .



أول من نقب عن آثار الاحساء :

سعدت على حين غرة في أواخر عام ١٩٤٠ بمنحي فرصة نادرة وهي الأمر بالبحث عن آثار الأحساء فكنت بذلك أول عالم أثريٍّ أتيح له تسجيل هذه الآثار وتنسيقها .

قطعت طريقي إلى تلك المفازة جوّاً عبر (الباسفيك) وآسيا وبلغت البحرين الجزيرة الغنية بالنفط بعد بضعة أيام من حادث قصفها من قبل الطيارين الطليان في محاولتهم الجريئة لتدمير مصافي نفطها العظيمة .

لم يكن الوقت إذ ذاك مناسباً لظهور عالم ما في منطقة الخليج (. . .) بيد أن سلطات الخليج برهنت على عواطفها بما أسدته من رعاية نحوي ، فباشرت عملي هناك أول ما باشرت بفتح بعض المدافن قبل أن أصل الأرض المقصودة . وكان عدد هذه المدافن التي هي أشبه بأكمات ترابية قائمة قرابة خمسين ألفاً ، وتغطي واجهة الربع الشمالي من جزيرة البحرين ، ويتفاوت ارتفاعها من بضعة أقدام إلى ٨٢ قدماً بينما تبلغ مساحة قاعدة أكبرها مائة قدم ، فهي تشبه هرماً صغيراً وبما أن علماء (الجيولوجية) الأمريكان يفيدون بوجود عدد كبير من هذه الروابي منتشرة على مساحة بضعة أفدنة من الجزء المقابل للبحرين من جزيرة العرب فإنه يستدل بذلك على أن هــذه المدافن جميعاً من آثار قوم سكنوا هذا الجزء من المعمورة في الزمن الغابر .

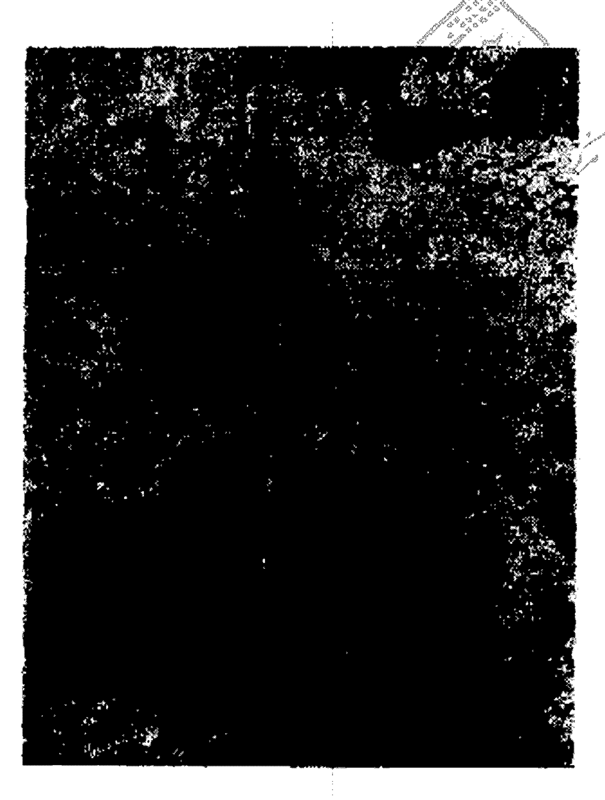
وضعت حكومة البحرين بسخاء تحت تصرفي رئيس عمال وزمرة من العمال ليتولوا مهمة الحفر بالمعاول ، ورفع التراب ، وكان هؤلاء الرجال يزاولون عملهم بفرح ورغبة ، وكان بعضهم يحث بعضاً على العمل بكلمة (يا الله) ويتجاوبون بأهازيج شجية .

وهذا الضرب من الغناء عند القيام بالعمل مشهور في البلاد العربية ، فلقد وجدت البحارة الشيعة من أهل البحرين يلهجون بأناشيدهم باسم حفيد الرسول (حسين) يقولونه بنغمة صاعدة ويردفونها بقولهم (حسن) حفيده الآخر بنغمة هابطة وهكذا .

أختام وعلب زينة للنساء تعود إلى العهود القديمة :

اتضح لي أنه رغم رجوع هذه الروابي الأثرية إلى العصر (البرونزي) فلا زالت روابي منها مستطيلة الشكل في الطرف الشمال من الجزيرة ترجع إلى العهد الفارسي فنازلا .

وعثرت في داخل هذه المدافن على توابيت صنعت من الملاط أو الحجر بداخلها جماجم بشرية وأواني من صلصال ، وخواتم وقلائد من خرز ، وعلب زينة نسائية وجرار للدماء مصنوعة من الرخام المعرق ، كما اكتشفت تحت سطح أحد الشوارع في المنامة — مدينة البحرين الكبرى — قاعة مجلس شورى صغيرة غريبة الهيئة ، إذ تحتوي على تسعة مقاعد منقورة من الصخر على شكل دائرة ، يبدو للناظر أن هذه القاعة ليست عربية المظهر بل إنها يغلب عليها الطابع اليوناني أو الروماني ، ومتأثرة بفنيهما إلى حدٍ ما .



أما رقم (٩) فقد تمتع في الأزمان التاريخية القديمة بنوع خاص من القدسية والاجلال فمن منا لا يذكر عرائس الشعر والأدب التسع ، أو يمين لارس بورس الغليظ بالآلهات التسع ؟ !

وعبرت بعد تنقيب زاد على الشهر الواحد المضيق الضحضاح الذي يفصل جزيرة البحرين عن أرض الاحساء من بلاد العرب ، واتخذت الظهران مقراً لأعمالي في مستقر شركة النفط المريحة ذات الهواء المكيف ، وانصرفت فور وصولي إلى مسح أرض المقاطعة مسحاً أثريا وقد كان تحت تصرفي سيارتا حمل ، أقطع بهما المسافات في حقل العمل ، بينما تألفت حاشيتي الصغيرة من عالم (جيولوجي) أمريكي وسائق سيارة وعسكري مسلح .

كان أول غرضي زيارة ميناء العقير الصغير ، فعلى مقربة منه توجد منطقة خرائب أثرية ، يرى علماء الآثار أنها بقايا آثار مدينة (جرعاء) Gerrab [1] إحدى مدن جزيرة العرب المفقودة . وكانت (جرعا) هذه على العهدين اليوناني والروماني الأولين من أشهر الأسواق والمراكز التجارية في الشرق الأوسط ، ويعتقد أنها شيدت من قبل اللاجئين الكلدانيين من بابل ، وكانت مخازنها التجارية تضيق باللبان والبهار الطيب وغيرهما من الأموال والبضائع التجارية الصادرة من جنوب جزيرة العرب والهند إلى أفريقيا .

وكانت الطرق التجارية في ذلك العهد التي تربط أوربا ببلاد (الشرق الخرافي) تمر عبر الخليج (...) وجزيرة العرب أكثر من مرورها عبر البحر الأحمر وهكذا نمت تجار (جرعا) وزادت أموالهم حتى قيل : إنهم فاقوا السبأيين باقتنائهم مقداراً عظيماً من المصنوعات المعدنية من الفضة و الذهب مثل أسرة النوم والمساند الثلاثية القوائم والأحواض وأواني الشرب ، وحتى قيل : إن دور هذه المدنية وجدرانها وسقوفها كانت مطعمة بالعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة .

ومن أبواب مدينة (جرعا) خرجت القوافل تتلكأ بسيرها الوئيد

(١) يقصد الجرعاء .

نحو الجزيرة وتشق طريقها نحو حضرموت أو موانئ البحر الأحمر أو البحر الأبيض المتوسط .

بيد أن جرعا هذه لم تلبث حتى طمست معالمها وغارت في بحر من الغموض والابهام بمدة مديدة من الزمن قبل القرون الوسطى حتى عسر على علماء القرن التاسع عشر تعيين موقعها . ويشير بعض العلماء إلى أن ثمة تقارب يوجد بين اسمي جرعا والعُقَير ، ولهذا فقد أحدث القول بوجود خرائب واسعة في جنوبي الأحساء اهتماماً وحمل على شيء من الرجاء .

حشرات بق صغيرة تدب على كثبان الرمال :

كان علينا أن نشق طريقنا نحو العقير جنوباً من الظهران مارين وسط كثبان من الرمال عالية في صحراء الجافورة الشمالية . وكان ارتفاع بعض هذه الكثبان يبلغ مائة قدم ، ولكنها تنحدر بصورة فجائية من الناحية الجنوبية .

وكنا نتسلق حينا بقوة وعزم ، وحينا كانت تقف دواليب سياراتنا الأمامية ، وتعجز عن الدوران فتتقهقر السيارة إلى الخلف فكان علينا والحالة هذه أن ندعمها من الوراء خشية تدهورها إلى أسفل، وكنا نتأرجح بدفعها صُعُداً إلى الأمام إلى مسافة بعيدة، ثم نواصل السير بعدها . وهكذا كانت سياراتنا من نوع (بيك أب) المجهزة بدواليب وإطارات ذات ضغط تبدو في رحلتها هذه كحشرة بق تشق طريقها على تل من الرمل وهي تتسلق وتهبط وتغير مجرى سيرها مئات المرات .

سرنا على هدي (البوصلة) وعطفنا آخر الأمر نحو جهة الشرق فخرجنا من منطقة كثبان الرمال المحاذية لميناء العُقَيْر المحتشدة ، المطلة على مياه الخليج الزرقاء وتقع إلى جهة الشمال الشرقي لهذه الميناء منطقة الخرائب الواسعة ، يعلو سطحها شظف الأواني الفخارية ، وتمتزج بتربتها قطع الزجاج الملون ، وكانت أساسات جُدْرانها البيضاء تمتد ملتوية كخط متعرج خلال الأنقاض القديمة ، بينما انتشرت هنا وهناك أكوام من أحجار البناء المرجانية .

هنا حقاً تقع مدينة (جرعا) العتيقة بيد أنه لم يكن ثمة أثر لبناء ، أو لكتابات ، أو أعمدة ، لاشيء سوى مساحات واسعة من أرض تغطيها الحجارة القاسية ، وتحوم فوقها أسراب زمج الماء (نوع من طيور البحر) وهي تصفر بحدة .

وذكر (بليني Pliny) – ٢٢ / ٧٩ م – أن قطر مدينة جرعا القديمة يبلغ خمسة أميال ، وأن فيها أبراج قائمة مشيدة من أحجار الملح المربعة .

ويضيف (استرابو Strabo) الجغرافي اليوناني أن تربة جرعاء فيها الشيء الكثير من الملح ، وأن أهلها يعيشون في بيوت مصنوعة من الملح ، وبما أن شدة حرارة الطقس المنبعثة من أشعة الشمس المحرقة تسبب تساقط قشور ملحية من الجدران بصورة دائمية فكان السكان دائماً يضخون الماء على الجدران لتحفظ قوتها ومتانتها .

ولعل التعليل لهذه الظاهرة يقلل شيئاً من حدة الخرافة القائلة : إن جدران هذه المدينة مشيدة من حجارة الملح . فليس ثمة معدن للملح يقوم قريباً منها ، غير أن مساحات واسعة من السبجات (أرض ملحية) الغنية بسلفات الكلس وبلورات الملح تحيط بهذه المدينة . وعلى هذا فالأحجار المصنوعة من هذه التربة لابد من أن تكون عرضة لتغير كيماوي شديد ، ولابد أن يكون (سترابو) مشيراً إلى تأثير تجوهر مادة الملح في الطين . ومن الواضح إذن أن نعلم لماذا هذه المدينة (الملحية) ذابت في وقت ولم تترك بعدها أثراً فوق أسسها الصخرية .

ولقد وجدت الأراضي المحيطة بالعقير يابسة تكتسح سطحها رياح جافة وهي عطشى وقد رسى الملك (أنتيوخوس الثالث) بأسطوله في هذا الميناء وهو ينوي إخضاع المدينة وعشائرها المجاورة – غير أنه لما رأى جدب أرضها ومحلها الشديد تخلى عن فكرة احتلال هذه البلاد احتلالا دائماً وكرر راجعا على أعقابه بعد أن رأى ذلك .

السعي وراء السلام والحرية في التقدم :

وهكذا عندما أرسل ملك جرعا رسالته إلى أنتيو خوس الثالث وهو ينوى فتح بلاده كتب له قائلا: (لا تخرب أيها الملك نعمتين أنعمت بهما آلهتنا علينا وهما الحرية والسلام الأبديّ) . وقنع أنتيوخ بجزية كبيرة من الفضة يؤديها له ملك جرعا وقفل راجعا بأسطوله .

لاقانا ونحن راجعون إلى الظهران أعرابيان أحدهما جاء بثلاثة جمال محدودبة الظهر من جهة غير معلومة ، والآخر كان يجثم على ذراعه عقابُ صيد ، وكان يطمع – على ما يظهر – بصيد أرنب بريّ ، وكان شاحب اللون، ضئيل الجسم ، والصيد بواسطة الصقر إذا اتبع بكامل معداته يتم من قبل جماعة من راكبي الخيل تتبعهم كلاب الصيد (السلوقية) الهزيلة ويحمل عنهم صقور الصيد جماعة من العبيد السود ، وقد غطوا عيون الطيور بأقنعة سميكة من الجلد الأحمر أو الأخضر موشاة بخيوط الذهب أو الفضة . فإذا كانت طريدة الصيد غزالاً شارداً انقض عليها الصقر من علٍ وأنشب مخالبه الحادة في رأسه وأخذ ينقر عينيه المرعوبتين حتى يعميهما فيعجز الحيوان المسكين عن الهرب ، وتلحق به الكلاب المطاردة . بيد أن هذا النوع من الصيد نادر الوقوع على شواطىء الأحساء ، وحتى البدو الرحل تراهم يجتنبون خوض هذه المنطقة .

ويعتقد الجيولوجيون أن بلاد الأحساء كانت قليلة الرمال ، وأن الأمطار كانت تتساقط عليها بوفرة كما أن الأشجار والبحيرات كانت من المشاهد المألوفة فيها .

ريح الشمال تسوق كثبان الرمل :

طرأ تغيير طبيعي على مناخ جزيرة العرب وعلى إتجاه الرياح التي تهب عليها فنشأ عن ذلك جدب ، وجاءت كثبان الرمال تسوقها الرياح الشمالية الغربية تنساب كالأمواج ، نحو منطقة الأحساء فتغطيها ، وما زالت منذ ذلك الحين تعتدى على تلك الواحات المخصبة فتنزع عنها معالم النضرة والحياة ، وتتحرك

هذه الكثبان الرملية الهائلة بفعل الرياح مسافة ٤٠ إلى ٥٠ قدما في السنة الواحدة وقد هبت الرياح الشمالية الغربية فجرفت معها كثبان الرمل ، وأناخت بها على ما صادفته من مدن قديمة وبساتين زاهرة ، وطوت معالمها ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس ، فعلى مقربة من العقير حيث ازدهرت بساتين النخيل في العصور السالفة لا يوجد الآن سوى بحر من الرمال ، تشق سطحه في بعض الجهات نخيلات تنفض رؤوسها المغضنة كأنها أعجاز نخل خاوية .

ولقد كان من دواعي اليأس أن لانجد في خرائب (جرعا) شيئاً من الآثار الكتابية أو آثار أخرى ذات أهمية ، والأسوأ من ذلك كله أنني يممت صباح ذات يوم باكر شطر الظهران ، لأجد نفسي على مقربة من مقر أعمال شركة النفط فأصبحت في هذا المكان نكرة غير معروفة ، واستدعاني مدير الشركة لمقابلته وبادرني بالسؤال بلهجة تدل على القلق والانزعاج : (أين الفيل) ؟ ! فسألته مستغربا (الفيل ؟ !) قال : نعم ذلك الفيل الكبير الذي عثر تم عليه أثناء التنقيب في العقير . ! ! علمت بعدئذ قصة هذا الفيل .

وذلك أن الرجال الذين كانوا معي سئموا من عدم وجود أخبار يتحفون بها ذويهم وأصدقائهم عن أعمالي الحفرية في العقير ، فاخترعوا قصة عثوري على (الفيل) الكبير أثناء الحفر ، ولفقوا كيف أني هرعت إلى حفظه في السيارة ، وأرسلته إلى مكان ما ، توطئة للإبحار به ، إلى بلد بعيد ! !

وكلما زاد القلق والاهتمام بهذا الاكتشاف زاد (الفيل) ضخامة وحجما كما زاد التأثر عليَّ لنقلي مثل هذا (الكنز) إلى خارج المملكة العربية السعودية وعلى كل فقد وفقت في تهدئة هذه العاصفة ، وإن كنت لا أكتم أسفي وإن كان دخان هذا الحادث لم يكن مصحوبا بشرر . . . . .

الآثار في الظهران :

إن أهم موقع في بلاد الإحساء عموماً هو الظهران وما جاورها وهي القاعدة الأساسية لشركة النفط . وهنا يوجد آثار بناء حجرى مدوّر عظيم

تعلو سطوح منحدراته الخارجية آلاف المدافن ، من النمط الذى يرجع إلى العهد (البرنزي) الذي سبق ذكر وجوده في جزيرة البحرين .

وبعض هذه المدافن في الظهران يشبه دائرة من الاستحكامات الترابية الواطئة ، ولعل الحكمة من بناء هذه الاستحكامات المحيطة هي لأجل منع حفر مدافن مجاورة لها ، فكل مدفن له رصيف وجدران تحيط بأطرافه طولها ٦٠ قدما وهي تتجه صوب الشمال . وفي بعض المحلات تزدحم هذه المدافن وتتقارب بحيث تكون أشبه بمدينة الأموات .

وفي جزيرة البحرين كما في الأحساء تحتوي كل رابية صغيرة من هذه الروابي على تابوت حجري واحد ، وأما الكبيرة فتحتوي على ما لا يقل عن قاعة دفن واحدة مبنية من الأخشاب المرصوفة بالملاط ، وأينما تكون الأبواب فهي متجهة نحو الجنوب الغربي فما الذي يدل عليه هذا التنظيم والاتجاه؟ إذ أن زاوية الاتجاه لهذه الأبواب تقرأ عادة ٢٥ درجة بين الجنوب والغرب ، فهل ياترى جاء بناة هذه المدافن من تلك الجهة ؟! وثمة تعليل آخر وهو أنه لما بنى أحد هذه القبور جعل مدخله باتجاه نجمة العشاء إذ أن الفلكيين يقدرون أن مجال السمت لمدخل هذا القبر يطابق سمت الزهرة عند مغيب الشمس ، ولدينا من الأدلة على أن عبادة كوكب الزهرة كانت على شيء من الشهرة والانتشار في هذا الطرف من العالم .

ولم يَتَسَنَّ لي معرفة أولئك المدفونين في التوابيت التي يرجع عهدها إلى العصر النحاسي ، أو التبث من حقيقتهم إلا بعد مرور عدة أشهر — قضيتها في أعمال الحفر ، يضاف إلى ذلك سنوات عديدة في البحث والاستقصاء .

كان هؤلاء القوم يعرفون باسم (الدَّلمونيين)[٢] وكان ملكهم يحكم الأحساء وجزيرة البحرين أيضاً وقد انصرف هؤلاء إلى التجارة مع السومريين

---

(٢) ألا تكون هناك صلة بين هذا الاسم وبين جزيرة (دلما) الواقعة في الخليج العربي جنوب جزيرة البحرين « العرب » .

والأشوريين ، وشغلتهم الحروب معهم أيضاً مدة لا تقل عن ألف عام امتدت من أوائل الألف الثاني قبل المسيح إلى سنة ٥٠٠ ق م .

لم يبلغ الدلمونيّون شأوًا من الحضارة والرقي يضارع ما بلغته الممالك التي نشأت في بلاد مابين النهرين . ومصادر البحث عنهم تكاد أن تنحصر فيما أتانا من أخبار البابليين والأشوريين ، عدا مخطوطات حجرية مسمارية عثر عليها في جزيرة البحرين .

تخبرنا هذه السجلات المكتوبة على ألواح من الصلصال على هيئة إسفين طبيعي أو المنقوشة على الحجر أن (دلمون) كانت مدينة مقدسة بالنسبة للسومريين وأن (زيوسدرا Ziusudra) نوح عند البابليين « ذهب ليعيش في جزيرة دلمون (البحرين) بعد حادثة الطوفان العظيم ، وإلى هذه الجزيرة نفسها حج (كلكامش) المتشبه بالآلهة ليتعلم (سر الحياة) من (زيوسدرا) ، الحكيم الذي وهبه حياة أبديّة (مثل ما أعطى للالهة) .

تصدير التمور في الأزمنة السحيقة :

وثمة مصادر أخرى تدل على أن جزيرة (دلمون) كانت موطن السومريين الأذكياء ، حيث عاشوا فيها قبل أن ينزحوا إلى وادي دجلة والفرات ليستوطنوه . وتدلنا أعمال الحفر وأبحاثه المستقاة من حطام اللوحات الحجرية على تفاصيل أخرى ، عن هذه المملكة العربية العريقة في القدم . مثلا أن التمر كان أهم صادرات هذه المملكة ، وكانت التمور هذه لاتقل جودة وشهرة عن مثيلتها ذات اللون الصنوبري الشفاف ، المشهورة في الأحساء هذا اليوم ، والتي تصدر إلى سائر أنحاء العالم العربي .

وتدلنا تلك الأبحاث أن معبود (الدلمونيين) الخاص كان الإله (انزاك Inzak) وزوجة (لحموى Lakhamuy) حوالى سنة ٢٣٦٠ قبل الميلاد وأن سرجون الأكادي الشهير غزا جزيرتهم وغنم سفنها وقبل هذا التاريخ أرسل أمراء (لاكاش Lagash) إلى (الدلمونيين) في الجنوب

في الجنوب أشياء نافعة كالحنطة وخشب الساج والجبن والشعير المقشر وقايضوا بها معدن النحاس الذي كان يحمله تجارة الدلمونيين المجازفون من الأرض المعروفة اليوم بعمان .

وخلال أيام الحكم الأشوريّ صارت مملكة (الدلمونيين) هدفاً لحملات ضغط (هتلرية) شديدة ، إذ أنّ الأشوريين كانوا قد وطدوا العزم على إخضاع هذه المملكة وإلحاقها بامبراطوريتهم الواسعة وعلى هذا الأساس فإن (سنحاريب) بعد أن دمر مدينة بابل وأحرقها سنة ٦٨٩ قبل الميلاد أرسل إلى ملك (الدلمونيين) شيئاً من رمادها الأسود دلالة ماكرة منه على أن مصير بابل قد صار إلى هذا الرماد الأسود .

كان لهذه (الهديّة) وقع عظيم في نفوس (الدلمونيين) على ما يظهر وتدعي المصادر الأشورية أن (الدلمونيين) نظروا إليها – أي إلى الهدية الرماد الأسود – فتملكهم الخوف من (آشور) فأرسلوا خزائنهم إلى (آشور) – وأرسلوا معها الصنّاع المهرة الذين جمعوهم من أنحاء البلاد معهم من النحاس وعُددٌ مصنوعة منه وأواني من مصنوعات بلادهم .

وعلى عهد حكم حفيد (سنحاريب أشوربانبال) المثقف المترف ، (المسمى أسنابر Asnapperof) في كتاب عزرا النبي (٤ / ١٠) أشير إلى أن (دلمون) مقاطعة من مقاطعات مملكة أشور ، ومن هذا يتضح أنه كان على مملكة (دلمون) أن تخضع لحكم الأشوريين في النهاية وأن (تقسم لها يمين الاخلاص والولاء) .

وعثرت تحت أطباق التراب في قلب الروابي القديمة في جزيرة البحرين التي يرجع تاريخ معظمها إلى الألف الثاني قبل المسيح على جماجم بشرية ومصنوعات من الفخار وأسلحة وعدد من النحاس كما عثرت على قشور بيض النعام وقطع من صناديق مصنوعة من عاج .

ووجدت في كثير من غرف هذه المدافن هياكل عظمية لأكباش

وخراف ، دلالة على أنها تقدم قربانا للفداء ، وهذه العادة لم يقض عليها الإسلام القضاء التام في هذا الجزء من العالم . وقد نشاهد حتّى اليوم رؤوس القوارب في البحرين مغطاة بقطع من جلود الغنم[1] .

موطن القراصنة القدماء :

أما من أي مكان جاء (الدلمونيون) فلا يزال سراً من الأسرار .

ومع ذلك فإن ثمة أسباب تدعو للاعتقاد أنهم انحدروا من الربع الجنوبي الغربي لجزيرة العرب ، وبعد أن استوطنوا في موطنهم الجديد انصرفوا إلى التجارة ، كما انصرفوا إلى (القرصنة) أيضاً . ذلك لأن السفن كانت تمخر في ذلك الحين (٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد) عباب البحر ، وتساحل في هذه البلاد في سيرها التجاري بين بلاد ما بين النهرين وبلاد الهند وعمان وجنوبي جزيرة العرب وغيرها من البلاد التي ما زال أمرها في لبس وغموض .

وكانت العادة المتبعة ــ والملاحة لا تزال في عهد طفولتها الأول ــ أن تسير السفن جوار السواحل ما وسعها ذلك ، وكان الشاطىء الايراني من الخليج غير محبب إلى نفوس البحارة ، إذ أنه كان أقل من الساحل العربي خصوبة وكرما ، ولا زالت البواخر في يومنا هذا تفضل ملازمة الساحل العربي في سيرها لتلك الأسباب . وهكذا فإن مملكة (الدلمونيين) كانت تقع على خط ملاحة التجارة القديمة التي اصبحت معروفة لدينا اليوم .

أما البضائع التي كانت تنقل إلى الشمال فكانت تشمل الغنم (المعز) ومدن النحاس من عُمان والمرُّ المكاوي واللبان الذكر من جنوب جزيرة العرب وخشب الساج من الهند ، وكذلك الكتّان والحجر الأشهب المحبب لصنع التماثيل ، والعاج والاحجار الكريمة ، ولابد أن يكون من بين هذه الصادرات (القردة والطواويس) .

---

(١) لا نعتقد وجود أية صلة بين الأمرين ، والاسلام قد أزال كل معالم الشرك والتخريف ولله الحمد « العرب » .

وعلى أثر وصولي إلى الظهران أبلغني مهندس أمريكي أنهم قد اكتشفوا أثناء قيامهم ببناء خزانات الماء في بلدة الدوادامي الواقعة في قلب المملكة العربية نصلا كبير الحجم وعندما احضره إليّ وجدت أنه حقا قد اكتشف شيئا يبعث على الدهشة والاهتمام. فقد كانت بلطة يدوية منحوتة بدقة، تعود إلى العصر الحجرى المتأخر، وقد يكون هذا السلاح نُحت واستعمل من قبل احد الناس الذين عاشوا في العصر (الاكيولي) الغابر — أحد عصور ما قبل التاريخ السحيقة — وربما كان ذلك قبل المسيح بمائة الف سنة.

حلقة الاتصال بين أفريقيا وفلسطين:

كان هذا الاكتشاف الأخير إشعارا بوجود خزائن لا تقدر قيمتها من الآثار القديمة التي يجب أن تكون مدفونة في قلب جزيرة العرب، هذه المنطقة التي لازالت غير معروفة لدى علماء ما قبل التاريخ تمام المعرفة. فالجزيرة العربية كانت ولا ريب حلقة الاتصال بين القارة الافريقية وفلسطين..

انهمكت في دراسة بعض التصاوير الجوية التي عرفت عن مقاطعة، الظهران، وذلك قبل سفري إليها، وعاينت هذه التصاوير بدقة بواسطة (المجهر) البصرية فلفت نظري أمكنة معينة منها شككت أنها قد تكون منطوية على آثار لرجل العصر الحجري.

كانت هذه المنطقة هي المسماة جبل (المدْرع) والمعروفة باسم (درع الشمال) وهي تل لا يتجاوز ارتفاعه ٤١٠ من الأقدام عن سطح البحر، تتوسطه أرض مسطحة صخرية تشبه دكّة مستوية القطع، تقع في ثلث المسافة من القاعدة إلى القمة. وقد أثارت مكانتها البارزة اهتمامي صعدت إليها يحدوني الأمل، وشرعت أول ما شرعت بفحص سطحها فوجدت بعض (المدافن) منتشرة عليه هنا وهناك، كما وجدت قطع الأحجار الصوانية المنحوتة، وقد لفت نظري بريقها ولمعانها، وهي تخالط تربة ذلك التّل. كانت الامطار غسلت هذه القطع الصوانية حديثا فكانت نظيفة بيضاء.

أمضيت أياماً بجمع هذه القطع الصوانية وخزنها في أكياس كتانيّة وقد كانت هذه الأحجار أدوات أعمال مختلفة كأدوات الكشط (الخرط) ورؤوس آلات مدببة، وأشياء أخرى من منبوذات صناعية يدوية منوعة. وبعض هذه العدد الصغيرة يوحي بأنها قد صنعت من قبل بناة هـذه المدافن كما يدل بعضها أنها قد نحتت من قبل رجال العصر الحجري الحقيقيين ولكنهم أقرب إلينا في الزمن من أولئك (الأكيوليين) البدائيين الذين جابوا قلب الجزيرة العربية.

وعندما كنت منصرفاً إلى جمع هذه الأدوات الحجرية طلع عليّ فجأة غلامان بدويان وطفقا يرقبانني عن كثب. وعليهما إمارات الاستغراب والتعجب من عملي. ولعلهما تملكهما العجب من قيامي بجمع هذه الأحجار وتأملها ودرسها، ثم وضعها باعتناء في أكياس، انحنى أحدهما على الأرض وأخذ يجمع معي الحجارة ويناولني إياها فوجدتها غير مصنوعة صنعا بشرياً فهززت له رأسي، دلالة على عدم نفعها لي، إلا أن الغلام لازم عمله وثابر على جمع الحجارة وتقديمها لي، حتى انتخبت واحدة منها أخيراً كانت متقنة النحت حقاً ووضعتها داخل الكيس، وهنا انفجر الغلامان الآخوان بضحكة عالية وصاحا: (ما شاء الله)!!

ولعل هذين الغلامين وجدا في مهمة جمع الحجارة لعبة (حزيرة) يحزرون بموجبها أي حجر يقع عليه اختيار - هذا الرجل المجنون - وأي حجر يَرْفضه . . .

ولقد وجدت في هذه البقعة الوسطى من مقاطعة الاحساء أشياء أخرى جديرة بالدراسة والبحث . . .

أمكنة صيد اللؤلؤ القديمة :

وهناك على مقربة من الشاطىء إلى شرقي مناطق التلال والروابي الأثرية تقوم أكمات كبيرة مستطيلة الشكل من الأصداف يتجاوز طول الواحدة منها مائة ياردة على وجه التحقيق . وهذه الأصداف دليل على وجود مصايد اللؤلؤ فيما غَبَرَ من العصور .

ونحن نعلم مما كتبه جغرافيو القرون الوسطى أن صناعة صيد اللؤلؤ كانت من أهم الصناعات المزدهرة على طول هذه السواحل ولعلها هي اليوم كما كانت من قبل .

فالبحرين ذات شهرة عالمية واسعة اليوم لنفاسة لؤلؤها البراق وجودته أما قدم هذه الصناعة ومدى تغلغلها في الزمن القديم فلا يزال كما هو عليه سرٌ يحوطه الغموض . ويمكننا أن نرجع بها إلى ما لا يقل عن عهد الاسكندر الكبير (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) . فبعد هذا التاريخ بثلثمائة سنة صرح (بليني Pliny) أن (البحرين مشهورة بكثرة لؤلؤها) وثمّة لوح حجريٌ مسماريٌ وجد في (أور) يذكر أن جرابا من (عيون السمك) قد جلب من (دلمون) فإذا كانت هذه العيون تدل على اللؤلؤ فيعلم إذن أن محار اللؤلؤ كان مما يُسعى إليه منذ ذلك العهد القديم . ولعل حبّاته الجوهرية البراقة كانت تستعمل لتزيين الحسان السمواوات من (سومر) .

وإلى شمال هذه الأكمات من الأصداف على مسافة ميلين باتجاه البرّ عثرت على مركبات حجرية يسميها الأعراب (المريكبات) وهي أشبه بشجرة متحجرة على الأرض ، أو كأنها جثة مومياء من مخلفات العصر

(البلايستوسينى Pleistocene) ـــ الدور الجليدي الأول الذي نشأ فيه الإنسان ـــ عندما كانت أوربا ترجف من برد الدَّوْر الجليدي .

برج السكوت :

ولعل هذه الأكمة المتحجرة تكون ذات قيمة أكثر إثارة للتطلع ، فهي تمد علماء (الجيولوجيا) وطلاب معرفة الماضي القديم لشبه جزيرة العرب بمعلومات قيمة . فبينا تسوق الرياح هذه الأكمات في الاحساء شطر الجنوب والجنوب الشرقي نرى هذه الأكمة المتحجرة (المريكبات) تقابل الجنوب الغربي ولعل ذلك ناشيء أنه عندما أخذت هذه الأكمات بالتصلب والتحجر كانت الريح تهب من الجهة الشمالية الشرقية ، وهذا مما يدل على أن مهبّ الرياح في جزيرة العرب كانت تختلف عما هي عليه الآن اختلافاً تاماً في طول البلاد وعرضها .

وعثْرت في منحدرات الجهة الجنوبية الغربية (للمريكبات) على أكثر من حفرة غريبة الحفر ، مساحة بعضها قدمان في قدم واحدة وعمقها ثمان بوصات وبعضها يشبه توابيت الموتى في الحجم . فهل تكون هذه الحفر قد استخدمت في يوم من الأيام بمثابة دخم الموتى (أي برْج السكوت) ؟! .

لقد سكن هذه الربوع عدد عديد من أتباع الديانة (الزردشتية) النازحين من إيران في القرون الأولى من عصرنا الحاضر ، فلعلهم كانوا يستخدمون هذه الحفر لعرض جثث موتاهم لضوارى الحيوان والكلاب لتلتهمها فتلك هي عادة (الزردشتيين) مع موتاهم وهي نفس عادة أحفادهم الفرس القاطنين في الهند في هذا اليوم .

وسارت بنا السيارة ميلين نحو الساحل الشمالي (المريكبات) فزرت أوّلاً بلدة الدمام الصغيرة الشهيرة بقلعتها الحجرية الجاثمة فوق صخرة عالية على شاطيء البحر يحيط بها الماء عند ارتفاع المد[1] . ووجدت في جوانب

---

(١) أصبحت الدمام أعظم مدينة في المنطقة . وقد هدم ذلك البرج (القلعة) « العرب » .

هذه القلعة عدداً من المدافع القديمة يعلوها الصدأ ويغلب على الظن أن هذه القلعة شيدت من قبل (البرتغاليين) الذين ارتادوا سواحل الخليج في مطلع القرن السادس عشر للميلاد ، وقد نزع هؤلاء خطوط التجارة المربحة من يد العرب وأسسوا أول امبراطورية أوربية حديثة في آسيا . وما هذه القلاع الجبارة التي أسسوها في الخليج سوى دليل صامت على عظمة سلطانهم القصير المدى ، الذي سرعان ما انهار أمام هجمات الثوار من العرب والإيرانيين ثم ما برح أن تلاشى أمام جبروت الفتح الهولندي والانكليزي وقوتهما البحرية .

أعظم قراصنة البحر توفيقا :

كان رحمة من جابر أعظم القراصنة الذين جابوا البحار شأناً وأكبرهم توفيقاً ، وكان معقل هذا مدينة الدمام وقد استمرت قرصنته طيلة سنين تبدأ من أوائل القرن التاسع عشر الميلادي[1] .

وكان الدافع لحركات رحمة وقرصنته عداوته لشيوخ البحرين . فكان بدافع من هذه العداوة يسوق الخمس أو الست من السفن الكبيرة المجهزة كل واحدة منها بما يقارب مائتين إلى ثلاث مئة رجل مسلح من رجاله الضامري الأجسام المحتالين ، ويمخر بهم عباب البحر ليصطاد ما تيسر له من السفن والمراكب الماخرة من الكويت والبصرة ومسقط ومن موانيء أخرى .

وقد شاهد أحد الأوربيين (رحمة) فقال عنه : إن هيئته أشبه بجذع خاو ركبت فيه أربعة أطراف ضامرة . وفي كل جزء من أجزاء بدنه من ضربات السيوف وطعنات الأسنة ومواقع الرصاص ما لا يعد ولا يحصى .

كذا كان حال رحمة بن جابر حتى وافته منيته في آخر معركة حدثت بينه وبين أعدائه . فقد كان عليه أن يواجه عدوه وهو محصور مع عدد من رجاله في سفينة فرأى رجاله يخسرون المعركة لا محالة فأشعل النار في سفينته وفجرها قطعاً متناثرة بمن عليها فهلك هو ورجاله .

وعلى بعد عشرة أميال إلى الجهة الشمالية الشرقية من الدمام تقع مدينة

---

(١) ليس (قرصانا) بل كان مجاهداً ناشراً للدعوة السلفية -رحمه الله- ترجمته في «عنوان المجد» لابن بشر

القطيف وهي المدينة البحرية الرئيسة في الأحساء وقد وجدت من الأدلة ما يكفي لإثبات أن هذه المنطقة كانت ولا تزال مأهولة بالسكان بكثافة من الأيام التي أعقبت العصر النحاسي حتى يومنا هذا .

وقد اختلطت على هذه التربة بقايا آثار تلك القرون العديدة اختلاطاً غير مقصود ، فقد التقطت منها كسَراً من الأواني الفخارية من مصنوعات القرون الوسطى ، كما عثرت على قطع من العملة الصينية تعود إلى أيام حكم الأمبراطور (تشي تسنك Chetsung) عام ١٠٨٥ — ١١٠٠ ب والأمبراطور (لي تسنغ Litsung) عام ١٢٢٤ — ١٢٦٤ ب.م .

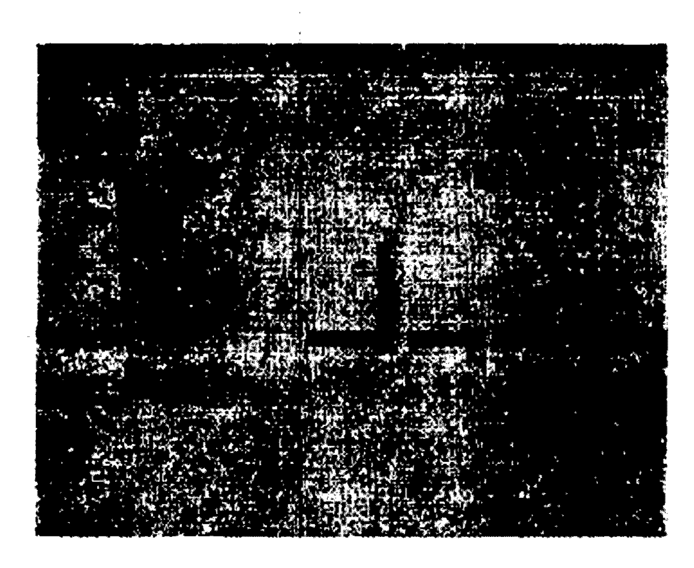
كانت السفن الصينية الكبيرة ترتاد هذه المياه لتتبادل مع السكان سلع بلادها النائية وتقايض بها اللؤلؤ والتمور والعطور وغير من البضائع منذ القرن العاشر الميلادي .

وقد صارت العملة الصينية العملة المتداولة في بعض أقاليم الخليج في أحد الأزمان .

وعلى مقربة من القطيف وجدت نماذج من (الطويلة) وهي قطعة من النحاس المخلوط بالنيكل وهذه الطويلة على شكل حرف v إحدى شعبتيه مستقيمة والأخرى منحنية قليلا من طرفها الأعلى . وقد ضربت هذه العملة من قبل أحد الأمراء الكرمانيين قبل أن تطأ قدما وليم الفاتح أرض انكلترة بمئة عام وعلى رغم قدمها السحيق فهي لا زالت مقبولة من قبل أصحاب الحوانيت في الهفوف قاعدة الاحساء .

وبساتين النخيل الكائنة غرب القطيف فيها صف طويل من الآبار الارتوازية ذات مياه دافئة درجة حرارتها ٨٤ (فهرنهايت) . وتجرى مياه هذه الآبار نحو الشرق داخل مجارٍ حفرت لها تحت الأرض ، ويستقي منها المستقون من فوهات على مسافات معينة في الطريق وقد أقيم على كل فوهة منها جدار اسطواني الشكل مرتفع البناء ليحفظ البئر من تجاوز الرمال . وقد زاد أهل القطيف في طول جدران هذه الفوهات كلما زاد تجاوز الرمال على سطح الأرض وجعلته مرتفعاً . غير أن الرمال جاوزت الآن هذه المنطقة

وغيرت عنها مجراها فظلت هذه الفوهات القائمة الاسطوانية الشكل تعلو عن سطح الأرض منصبة كأنها الأبراج الشاهقة أو مداخن عالية (أنظر صورتها).



(الأبراج التي بنيت على أفواه مجاري العيون في القطيف لحمايتها من سقوط الرمال في تلك المجاري)

وتؤيد التحريات العلمية ما يعتقده أهل البلاد من أن هذه الآبار كانت يوماً ما في أواسط منطقة مزدهرة ببساتين النخيل الباسقة ، كما يدعي العرب أن وسائل الريّ كانت عامرة فيها منذ أمد طويل قبل عهد الإسلام .

ونظراً إلى أن طرز هذه الآبار إيراني فالمعتقد إذن أن يكون أحد ملوك السلالة الساسانية هو الباني لهذه الآبار .

في عام ٣٢٠ م أغار (سابور الثاني Shapur) أول ملوك الساسانيين على بلاد الاحساء وأعمل السيف برقاب أهلها وأباد أهم عشائرها حتى أعيا هذا القصاب كثرة سفك الدماء ، فأمر رجاله بثقب أكتاف الأهلين وربطهم بحبال من أكتافهم المثقوبة وسحبهم أسرى وقد سماه العرب لقسوته الفظيعة هذه سابور ذي الأكتاف .

أثارت كيفية بناء آبار القطيف هذه موضع إعجاب المهندسين الأميركان ودهشتهم إذ كيف استطاع بناتها أن ينزلوا ببناء جدرانها الاسطوانية حتى الطبقة (الأيوسنية) — الطبقة الجيولوجية الثالثة — ذات المسام الكثيرة مع سرعة نضح الماء من خلالها وتدفقه أثناء القيام بالحفر والبناء ...

ماء عذب من تحت البحر :

ويستخرج من هذه الآبار بضعة آلاف من البراميل من الماء العذب الفرات وتنتاب المرء الحيرة والدهشة إذ يفكر في كيفية توصل الأقدمين إلى حفر الآبار وفتحها حتى وصلوا بها إلى تلك الطبقة السفلى ولم يكن لديهم آنذاك سوى آلاتهم الإبتدائية البسيطة .

أما تعليل ذلك عند العرب فبسيط ، فالنجوم الساقطة على الأرض هي التي حفرت تلك الآبار العميقة ، فملأها الله ماء عذباً فراتا . .

وجزيرة البحرين كالاحساء من هذه الوجهة . ففيها عدد كبير من مثل هذه الآبار وأشهرها الينابيع المستمدة مياهها العذبة من تحت سطح البحر الواقعة على بعد من الساحل ويتدفق من هذه الآبار كميـات وافرة من مياه عذبة ، يملأ الآن منها الأهلون جرارهم ، وهذه الثروة الطبيعية الزاخرة من المياه العذبة في الإحساء وهي الثروة التي تدانيها ثروة في باقي أقسام جزيرة العرب كانت موضع تعليق الكتاب والمؤرخين القدماء وكان يشار إليها باحترام وتجلة بأنها هبة من الله .

أما مصدر هذه المياه فلُغزٌ مُعمّى حتى هذا اليوم[1] .

ولقد ظن العرب أن مصدرها ثقب كائن تحت سطح نهر الفرات يتسرب منه الماء قاطعاً تلك المسافة إلى الاحساء . بيد أننا نعلم أن مصدر هذه المياه هو (جبل طويق) الذي يبعد (٣٥٠ كيلا) إلى غرب القطيف ومنها تجري أنهر من تحت سطح الأرض إلى الأحساء .

---

(١) علل وجود هذه المياه (هوغارث) فى كتابه « اختراق الجزيرة » بأن الأمطار المتساقطة على جبل العارض وماحوله ، يختزنها جوف الأرض حتى تبرز بشكل ينابيع فى منطقة الأحساء ومن بين جغرافيى العرب من لمح هذا كالهمدانى فى « صفة جزيرة العرب » فقد ذكر أن امرأة وقعت فى نهر الناقة فى الأفلاج فظهر سوارها فى نهر علم فى الأحساء .

ويشاهد فى ماء عين نجم آثار بعر الحيوانات فى بعض الأحيان مما يدل على أن مياه المطر تجرفها من ظهر الأرض إلى جوفها حيث يجرى الماء فينبع هناك « العرب » .

وفي مكان ما بين خرائب القطيف المنتشرة حوالي المدينة يجب أن يكون موقع مدينة (بلبانا Bilbana) وقد عين موضعها ههنا أيضاً الجغرافي الشهير (بطليموس Ptolemy) . كما أن (بليني) يخبرنا أن قبيلتين من القبائل عاشتا على ضفاف خليج القطيف الذي سماه بخليج (كبوس Capeus) وكانت تعرف إحدى القبيلتين باسم (كولوبش Caulopes) والثانيـــة باسم (كاتيني Chateni) وأن اسم قطيف على ما يظهر ينتمي إلى اسم القبيلة الأخيرة منهما . فمن أي الأقوام كانتا ؟ ! . . .

لا يسعنا الجزم بالاجابة على هذا السؤال بغير الحدس فإننا إذا أخذنا ما ورد عن بعض الكتاب المتأخرين نجد أن هاتين القبيلتين ينبغي أن تكونا قد قامتا على أعمال القرصنة . وكانت القرصنة في ذلك العهد خطرة وشديدة الضرر بطرق التجارة حتى أن السفن عند المرور بتلك المنطقة تحمل كتيبة من رماة السهام .

وظلت حرفة القرصنة مزدهرة طوال قرون مديدة في الخليج ولم يكن في الإمكان قلع جرثومها إلا في أوائل القرن الماضي عندما أخذت البوارج البريطانية تطارد عصابات القراصنة وقد اضطرت هذه القوات مرة إلى إنزال آلاف من الجنود المسلحة لتهاجم مدينة تحصن بها هؤلاء القراصنة الشقاة .

والقطيف التي أتيحت لي زيارتها من بعد كانت تحتل فيما مضى مركزاً شهيراً وبنى فيها البرتغاليون قلعة بعد دخولهم المنطقة بعد عام ١٥٥٠ بقليل أي في نفس السنة التي احتلوا فيها المدينة .

الطيور أنيسة الأطفال :

بقيت القلعة على ما هي عليه ، بيد أن المدينة ذاتها غير جذابة ولا نظيفة . وكانت الحمير القوية البيضاء تسير مخترقة طرقاتها تحمل على ظهورها الناس أو السلال المملوءة بالتمر أو حزم الحطب وغيرها من الأشياء وقد

كانت هذه الحمير تعتبر على عهد البرتغاليين (من أجود أصناف الحمير في العالم) وحتى اليوم فإنك تراها قد انتشرت في بلاد بعيدة كتنجانيقا في أفريقيا الشرقية وقد نقلت إليها بطريق زنجبار ودار السلام .

وحينما كنت أسير في القطيف كانت زمرة من الأولاد الفضوليين تلتف حولي، وكان البعض منهم تنتشر على وجوههم آثار الجدري وغيره، وأحياناً كانوا يحملون معهم طيورهم الأليفة وقد ربطوا أحد ساقيها بخيط دقيق ويتألف مجموع سكان أغلب موانيء الخليج من أجناس مختلفة تنتمي إلى سلالات نزحت من العراق وإيران ، وأهل القطيف عادة تنقصهم همة الاندفاع ، ذوو أجسام صغيرة وملامح وقسمات غير منسجمة . وبعض موظفي شركة النفط في الظهران ورأس تنورة من العرب من الهفوف ومن نجد وهم أناس فطنون أجلاء لهم قابلية التعلم السريع وحذق ما لم يكونوا يعرفونه من قبل . وفوق ذلك فلهم أجسام قوية وطلعات مقبولة .

ولا يمكن لمن يعرف هؤلاء إلا أن يجزم بسرعة بأن لو أتيحت لهؤلاء الشبان السعوديين فرصة التعلم المواتية وغيرها لأصبحوا بمثابة العمود الفقري في أمة عربية جديدة متقدمة

وعندما كنت أشتغل في أعمال الحفر في القطيف طرق سمعي وجود حجر عليه كتابة وتمثال حجري قيل : إنهما دفنا تحت سطح بستان نخل بعد العثور عليهما . فقمت واستحصلت إجازة الشيخ المحلي لأحفر الموضع ، وشرعت بأعمال الحفر ، يساعدني على ذلك زمرة من العمال وآلات حفر مختلفة . كان شيخ ذلك المكان رجلا قصير القامة ، ملتحي الوجه أخذ يستعيد ذاكرته لتعيين موقع دفن هذه الآثار ، وصار يتمشى بين أشجار النخيل الباسقة رواحا ومجيئا ، وهو يدرس التربة ويتأمل معالمها جيداً وإذا به يقف ويلتفت نحوي، ناشراً ذراعيه ويهيب بي قائلا: (توكل على بركة الله) وأشار بطرف يده إلى بقعة أرض مساحتها نصف قطرها لا تتجاوز الخمسين ياردة



(التمثال واللوح الحجر – شاهد القبر – والرجل الجالس هو الشيخ خالد الفرج – رحمه الله –)

ثم قال : إنه يعتقد أن الآثار تقع ضمن هذه المنطقة ، ولو أنه لا يتذكر محل دفنها بالضبط . وهذا كل ما استطاع أن يقوله الرجل بهذا الشأن .

وأهبت برجالي للعمل ، فأخذوا يسبرون سمك تربة المكان الرملية بقضبان معدنية وطويلة ، تستعمل للبحث عن الآثار ، وظللنا نبحث ونبحث حتى امتد ظلال النخيل أمامنا على الأرض ، إذ تجاوز الوقت بعد العصر ولم يسعدنا الحظ بعد . . .

وشعرت فجأة بدافع يحفزني على العمل فتناولت قضيباً من هذه القضبان الطويلة ، وصرت أغرزه بقوة في الأرض الناعمة بعد أن خطوت عدة خطوات على غير هدى ، فلم يكد القضيب يدخل مقدار قدمين تحت سطح التربة حتى أحسست به يصطدم بجسم صلب ويقف عن الولوج .

اللوح الحجرى يدل على انتشار الديانة المسيحية :

وهرع رجالى إذ شعروا بذلك ، وصاروا يحرفون التراب صائحين (ما شاء الله ما شاء الله) وبعد قليل من دقائق كانت الدفينتان متصبتين أمامنا على الأرض ، لوح حجري عليه كتابة سبئيّة تقرأ هكذا (هذا شاهد قبر وضريح اليابن بن شاسار من عائلة س م م من فخذ د. ل من قبيلة شواذب) ولعل أهم نقطة وردت في هذه هي الكتابة التي وجدت على هذا الشاهد الذي يعود إلى القرن الخامس أو السادس للميلاد . وورود الإسم (إيليا) يدل على أن الرجل صاحب القبر مسيحي .

كانت المسيحية قد تغلغت إلى ربوع كثيرة من ربوع بلاد العرب عندما بدأ محمد[1] ينشر دعوته وكان الإنجيل قد انتشر فيها بواسطة المبشرين النازحين إليها من بلاد سورية والحبشة . وحيثما سار تعليم الإنجيل وأثمر أبطل العرب عباداتهم الوثنية وإيمانهم بالشمس والقمر والزهرة وبعدد آخر من الآلهة المختلفة[2]

أما التمثال الذى عثرنا عليه مع شاهد القبر فكان ارتفاعه ثلاثة أقدام وكان ناقص الرأس والكفين ولا يستبعد أن يكون الوهابيون قد ضربوا عنقه وهم (محطمة الأوثان) إذ أن التماثيل وغيرها من الأنصاب المنقوشة مما يحرمه الإسلام .

والظن أن هذا التمثال يمثل عن راهباً وثنياً يقوم باجراء طقوس القربان بمساعدة صبي ، ويرجح أن تاريخه يرجع إلى ٢٠٠ عام بعد المسيح .

ويدعي صديقنا الشيخ أنهم عثروا على هذا التمثال أول ما عثروا عليه في جزيرة (تاروت) الواقعة في خليج القطيف وقد عثر العرب هناك على تماثيل أخرى شبيهة بهذا التمثال وعلى عمله ذهبية .

---

(١) عليه الصلاة والسلام .

(٢) حذفنا من هنا كلاما عن الديانة المسيحية .

كنت عازماً على زيارة جزيرة تاروت التي سماها (كلود يوس بتولمي claudius Ptolemy) المؤرخ اليوناني المصري في خارطته العربية باسم (Tharo) تارو وعلى هذا فقد أقلعت من الخبر على ظهر قارب ومعي عالم جيولوجي وبضعة أنفار من العرب وحاذيت الساحل شمالا نحو الجزيرة وكان ذلك قبل عيد الميلاد بيومين .

وكانت ريح الشمال — الشمالية الغربية القوية — تهب بسرعة وسرعان ما أظلمت السماء فكان ذلك بمثابة إنذار منها بخطر اقتراب عاصفة تجرفنا معها جرفاً ، ومن عادة هذه الريح أن تهب بسرعة ٦٠ ميلا في الساعة أحياناً فتحمل معها مقداراً من الغبار والرمل من كثبان نفود .

وثمة رياح أخرى أكثر خطراً وأشد وقعا في الحقيقة على البحارة ألا وهي الريح الجنوبية الشرقية التي يسميها البحارة باسم (الكوس) وتكون مصحوبة عادة بالأمطار الشديدة والعواصف الهوجاء .

وقد كانت هذه الريح مصدر خوف للأقدمين أيضاً فقد عثر على لوح حجري في (أور الكلدانيين) يحمل (تعويذة) ضد شر رياح الجنوب .

منظر من رحلات السندباد البحرى :

وعندما قاربنا جزيرة تاروت ذكرتنا مناظر هذه الجزيرة برحلات السندباد البحري . إذ أن جدران (دارين) المدينة الرئيسة في هذه الجزيرة شديدة الانحدار وتشمل معظم جهة الجنوب ، فلهذا توحي للناظر إليها أنها مدينة خرجت من البحر فجأة .

وتاروت مدينة يكتنفها غموض وأحلام وهذا يصدق على كل جزر الخليج التي تعكس صدى حوادث السندباد ومغامراته الرائعة .

ولم أجد أي أثر على سطح جزيرة تاروت من معبد أو هيكل قديم مما يمكن اعتباره من الخرائب الأثرية ، بيد أن مدينة دارين بجملتها قد شيدت على ما يظهر على أنقاض أبنية قديمة . وليس سوى مكان واحد جدير بالعناية

الأركولوجية (علم الآثار) وهذا المكان هو عبارة عن بقعة صغيرة تعلوها أكمات بدائية يقول عنها السكان إنّها بقايا قبور عفّى عليها الزمان . والحق أن لا شيء سوى الحفر بقادر على أن يميط عن أسرارها اللثام .

وفي القرون الوسطى اشتهرت هذه الجزيرة بكثرة ما كان يدخر فيها من المسك والأفاويه مما كان يرد إليها من الجنوب ويعيش سكانها الآن محترفين صيد السمك ، وقد كان السمك الغذاء الرئيسي للأقوام التي عاشت منذ الأيام القديمة على شواطيء الخليج . . .

ويروي أن أحدق واد اسكندر الكبير كان يجوب البحر مرة باحثاً عن طريق صالحة للملاحة من الهند إلى الفرات فوجد في طريقه أناساً : (يغطي الشعر الكثيف أجسادهم وتشبه أظافرهم مخالب الطير والسباع كانوا يستعملونها في تقطيع السمك وتقطيع الخشب الرقيق ، أما ملابسهم فكانت مصنوعة من جلود السمك الكبير السميكة) .

جزيرة أكلة الأسماك :

اعتاد كهنة السومريين — كما كشف البحث — على لبس ملابس يتنكرون بها كالأسماك في مواسم وأوقات معلومة . وزار بحارة اسكندر الكبير مرة قوماً اسمهم (إكثاى أوفاجي Ichthy Ophagi) أي أكلة الأسماك ، وكان السمك غذاؤهم وهم يصطادونه بواسطة الشباك التي يلقونها في البحر وينتظرون مدة من الزمن ليقذف المدُّ فيها ما يقع منه . وفي الدمام رأيت على السواحل نوعاً من الشباك يضارع النوع الذى كان يصنعه (أكلة الأسماك) .

وعقب رجوعنا من زيارة تاروت اتجهت لزيارة القسم الشمالى من منطقة الاحساء وصادفت في طريقي قوافل الإبل تدلف في سيرها الوئيد نحو الواحات المختلفة الواقعة في الشمالى الغربي .

وكانت الأرض مجدبة قليلة الأشجار ولا شيء يسترعي الاهتمام ، غير

أنني وجدت على بعد سبعة أميال إلى جنوب الجبيل البحري الميناء الصغير مدينة غريبة مهجورة تقوم على قمة جبيل بحرى . وعلى قمة هذا التل تقع أنقاض بيوت حجرية مستطيلة الشكل ، تفصل بينها شوارع مرتبة ترتيباً نموذجياً حسناً ، ولم يكن فوق التل أو في سفحه أثر لبئر ، كما أنني لم أعثر على خزان أو مستودع للماء . ومهما يكن الأمر فلابد أن ساكني هذه البقعة قد أعدوا الماء الذي يشربون بحالة من الحالات .

كان المكان هذا منيعاً حصيناً ولا ريب في أنه قاوم غارات وغزوات شنها فرسان غزاة من الصحاري المجاورة . وتدلنا كسر الفخار التي عثرت عليها هناك وألوانها الزرقاء والخضراء على أن هذه المدينة التي نُسيَ اسمها يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى .

طرق سمعي بين الفينة والفينة حديث عن قلاع ساحلية قديمة تقع على بعد ٨٥ ميلا إلى غرب الجبيل . فقمت للبحث عن آثار هذه الخرائب ترافقني سيارتا الحمل وكان طريقنا نحو الغرب ، في بحر متموج من الرمال فكنا في هذه السفرة أشبه براكب قارب فوق متن سلسلة من الأمواج غير المتناهية .

مدينة قوافل قديمة :

وقفنا في (الحناة) نتزود بالبنزين والحناة هذه واحدة من بضع قرى في هذا القفر النائي وقد عثر الكابتن شكسبير Capt. W. H. I. Shakespear عام ١٩١١ في هذه القرية وفي خرائب ثاج على ثلاث كتابات سبئيّة مهمة . والكابتن شكسبير هذا كان المبعوث السياسي لحكومة الانكليز في الكويت وقد قام بعدة جولات استكشافية إلى الداخل إلى أن قتل في سنة ١٩١٥ أثناء بعض المناوشات القبلية على حدود نجد [1] .

---

(١) بل قتل في وقعة جراب في داخل نجد ، بين الملك عبد العزيز آل سعود والأمير عبد العزيز بن رشيد رحمهما الله .

ويقع المكان المسمى بـ (ثاج) على طريق القوافل المهم الذي يربط مملكة (الحيرة) في بلاد ما بين النهرين بنجران في جنوب جزيرة العرب وقد وجد المسيحيون بكثرة في هذين المكانين .

وواصلنا من الحناة سيرنا جهة الغرب متوغلين فى قلب مقاطعة نجد ، قلب البلاد العربية حيث السهول المنبسطة السمراء تمتد إلى الآفاق البعيدة وكانت التلول المائدية الشكل المنبثة على الأرض تضفي على منظر هذه المفازة شيئاً من الروعة والبهاء بحيث تذكر الناظر إليها بمناظر بلاد (أباك Apache) من أعمال أمريكا الجنوبية الغربية .

أولى القلاع الجبلية :

بلغنا بعد أن قطعنا سلسلة منحدرات حوضية الشكل تسمى بوادي المياه أقصى حافة الجرف الشرقية وعندها أسرعنا إلى تسلق أولى القلاع .

كانت القلعة هذه عبارة عن مستعمرة لا هي بالصغيرة ولا بالكبيرة تجثم على قمة رابية منعزلة تحيط بها جدران شيدت بالآجر المجصص، باستواء سطح جانب الصخرة المشيدة فوقها فتكون بهذه الواسطة قلعة حصينة آمنة .

ومن إحدى جهات القلعة برز شبه إفريز من الحجر الكلسي في وسطه كوة مدورة تتسع لمرور شخص واحد منها ، في وقت واحد كان يتسلق — على ما يظهر — بواسطة حبل يدلى له من هذه الكوّة . وقد حفر في أرض القلعة المهجورة الصخري بئر بالغ العمق .

ويُظَنّ أن هذه القلعة شيدت في غضون القرن التاسع ، القرن المشحون بالقلاقل والفتن عندما كان القرامطة الغلاة يجوبون شرقي جزيرة العرب ويتحاربون . ثم هجرت منذ أمد ليس بالقريب .

كان القرامطة هؤلاء أعداء خليفة المسلمين الألداء ، إذ لهم بيهم الخاص ، وقد استولوا على عدد من المدن والجهات الهامة من هذا الجزء من البلاد العربية، وقد أتيح لهم غزو مكة نفسها بالفعل واستولوا على الحجر الأسود المقدس، وانتزعوه من مكانه ونقلوه إلى الاحساء حيث بقي لديهم أكثر من عشرين عاماً .

تركنا بعد ذلك هذه القلعة الجبلية وخيمنا في مكان يبعد ٣٤ ميلا شرقي قرية السُفْلَى وعندما خيم الظلام دلف إلى داخل الخيمة رجل طاعن في السن ، عرفناه من بعد، إنه واحد من خيرة الأدلاء الأمناء المعول عليهم في شبه جزيرة العرب الرجل الذي يعرف الجزيرة من (الرُّبْع الخالي إلى وادي السرحان) . وجلسنا نتجاذب الحديث على ضوء المصباح في الخيمة ، وكنت أسأله عن تكوين الأرض في القسم الشمالي الشرقي من الجزيرة وما إذا كان قد طرق سمعه وجود كهوف أوخرائب فيها أثرية بارزة ، ولكنه أكد لي أن لا شيء من هذا القبيل عدا القلاع القائمة فوق الهضبات .

لم أتمالك نفسي عن الاسترسال في التأمل والتفكير وقلت في نفسي : لعل هذا الرجل قد مر أثناء سفراته العديدة داخل هذه البلاد على كثير من المشاهد والآثار الخافية التي تحكي قصتها يوماً لعلماء الآثار وقد تكون قدماه ركلتا مراراً شظفا أثرية منحوتة من الصوّان ، نبذها أقوام بدائيون لا يمكن أن يخطر على بال هذا الرجل حتى وجودهم ومقامهم في هذه الأصقاع .

كما أنه ليس من البعيد أن تنطوي أرض جزيرة العرب على مادة غزيرة لعلماء البيلونتوجيا (علم الحيوانات والأشجار المتحجرة) إذ أن (الجيولوجيين) النفطيين عثروا عند بلوغهم الطبقة (البيلوسينية) في العصر (البيليوسيني) ، — وفيه الجو في شمال أوربا ونشأ الانسان القردي —على عظام أسنان وقوائم

هيكل عظمي لحيوان (المستوطون Mastodon) وهو حيوان منقرض يشبه الفيل كما عثروا على بقايا عظام فك لظبي بدائي . وهذه البقايا الحيوانية ربما كان لها من العمر حوالي ٢٥ مليوناً من السنين .

الخليج في الصيف فرن نار مشتعل :

وفي اليوم التالي اكتشفت قلعتين هضبتين أخريين لا تختلفان عن القلعة السابقة . وكانت الشظف الحجرية تنتشر مختلطة بتربتهما وهي على شكل نصال السهام ، المستعمل لصيد الطيور كما وجدت أكواماً من كسر الأواني الفخارية المختلفة .

انتهى بنا الطريق في الإياب إلى مقرنا في الظهران وبعد بضعة أسابيع فقلت راجعاً إلى البحرين على ظهر (يخت) بخاري لأن الربيع كان قد حل وكان عليّ أن أنجز أعمالا حفرية في جزيرة البحرين ، قبل أن يداهمنا فصل الصيف، وترتفع درجة الحرارة وتجعل من الخليج أتوناً مستمر اللظى . إذ ترتفع درجات الحرارة خلال أشهر الصيف فيه إلى ١٣٠ في الظل .

وعلى العمال عندئذ أن يدفنوا آلات عملهم وعددهم تحت التراب ، عندما يقفون عن العمل ، لأنهم إن تركوها فوق سطح الأرض سخنت إلى درجة لا يقدرون على إمساكها بأيديهم ثانية .

وتركت الاحساء وعاديّاتها المنوعة على أسف ومضض ، يحدوني أمل واحد ، وهو أن تكون هذه الفُرْقة قصيرةً، لاأن أودعها وداع فراق طويل . ولكن عليّ أن أقول ههنا ما يقوله العرب في مثل هذه الحال : الله أعلم ! !

في رحاب الحرمين
من خلال كتب الرحلات إلى الحج

– ١٦ –

كنا نشرنا في مجلة « العرب[1] » طائفة من الأشعار التي ذكرت في منازل طرق الحج ومناهله ، ومما اطلعنا عليه – في رحلات علماء المغرب تقول كثيرة عن رحلة للسيد البكري ، ضمنها وصف طريق الحج من من مصر إلى مكة المشرفة .

وعند ذكر كل منزلة من منازل الطريق يورد أبياتاً لطيفة من شعره ، وقد مرّ في الرحلات التي نشرناها طرف من ذلك . وقد رغبنا بنشر الرحلة كاملة ، ولكننا لم نطلع على نسخة منها ، فاكتفينا بنقل ما وجدناه من تلك الرحلة في كتب الرحلات قال العياشي : قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ محمد البكري وأظنه شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين ، ذكر فيها منازل الحج ودياره ذهاباً وإياباً ، وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق وصعوبتها وسهولتها . بنثر بليغ وعبارات رائقة ، وذكر في كل منزلة شعراً يتعلق بأحوالها ، فأردت أن أقتطف منها ما يكون في إذن هذه الرحلة شنّفا[2] .

البركة :

فأول المنازل البركة التي توحدت في مشارق أنوارها ، ومشارع شوارع أقطارها عن المشاركة وقصرت عن أوصافها درر[3] الألسن ،

---

(١) السنة الثالثة من ص ٣٠٤ إلى ٣٤٤

(٢) « الرحلة العياشية » : ١ – ١٦٠ ومحمد بن أحمد بن ناصر الدرعي صاحب « الناصرية » ١-٣٥٣ نقلا عن العياشي وكذا أبو مدين وأشرنا إلى رحلته بكلمة (المدينية) ونقلها عن عن العياشي الورثيلاني في رحلته .

(٣) العياشية : « ذوي الـسن » .

وجمعت بين الماء والخضرة وقدوم الوجه الحسن ، فهي مخضرة الأكناف ، بديعة الأوصاف ، قد صدحت أطيارها ، ونفحت بالنسائم أزهارها ، وبها الخيام منصوبة ومرفوعة ، والخيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مع موقف[1] آثارها على الأقدام ، يستدل بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام ، كأنها في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة ، والإكليل إذا قارن الزهرة ، وبها سوق يساق إليه بدائع البضائع ، التي يحتاج إليها المسافر في أكثر الوقائع ، ما قصد نحوه قاصد،إلا وعاد منه موصولا بالصلة والعائد ، وكان هذا النعيم المقيم يسايرنا في الذهاب والإياب ، إلى أن رجعنا إلى بركة الحاج ثانياً ولقينا الأحباب :

في بركة الحج ترى نخلا زها لكن عجبْ
زبرجداً يحكي وما ثماره إلا الذهب
فيها نسيم رائق بلطفه يشفي الوصب
والطير فوق مائها يشدو بأنواع الطرب
فيالها من بركة تبلغ القلبَ الأرب
عوذتها من طارقٍ وغاسقٍ إذا وقبْ[2]

البويب :

البُويب المعروف بالتصغير ،وفي الحقيقة هو باب الدرب ومفتاح المسير ، فاجتمع شمل الركب في ذلك المكان ورجع المودع في خبر كان .

ومدة المسير في تلك المرحلة ثلاث ساعات[3] (يقصد من البركة إليه)

المصانع :

ثم نادى منادي الرحيل فسار الركب – من البويب . إلى أن أصبح

---

(١) مع وقوف أشايرها .

(٢) عن « الناصرية » ١٥٣٨ ورحلة أبي مدين و « العياشية » ١-١٩٠

(٣) عن الناصرية -١٥٤ والعياشية ١-١٦١

مقارباً للبر (؟) الطويل وهو المكان المعروف بالمصانع ... وبه تقطير الجمال وضبطها في مسير الركوب ...

فياله من يوم تقطر فيه الدموع ، ويطول فيه الوقوف والوقوع ، وتشرب فيه الفقراء كاسات الردى ، لشدة ما يحصل لها من جور الجنود واعتداء الاعتداء (؟) فما من فقير إلا ويحتاج إلى غنيٍّ يسعفه ، وإلى عادل من ظلامته ينصفه .

قال الشاعر :

قد أتينا إلى محل المصانع   فاصنع الخير فيه إن كنت صانع
وانفع الناس في كثير جميل   علَّ تلقى خيراً كثيراً ونافع

واعلم أن عدة درج المسير[1] إلى هذه المرحلة ست ساعات[2]

عجرود :

فوصلنا إلى بندر عجرود ، وماؤه ملح أجاج غير مورود ، فأتى أهل بندر السويس ، وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل والميس ، وأهدوا إلينا الأحطاب للمشاعل ، والأغنام للمآكل ، وعدة درج هذه المرحلة المبهجة سبع وثمانون درجة[3]

المنصرف — وادى القباب :

قال البكري : في رحلته من عجرود إلى النُّخَيْل : ثم سرنا إلى النواطير ورأس وادي المنصرف ، وهو واد بكثرة الرمال والكثبان قد عُرف ، ليس به ماء ولا مرعى ، وإنما عيون الناس لمضيق أرجائه ترعى ، قال الشاعر :

نزل الركب بوادي المنصَّرِفْ   وعلى لقياه كم مال صرف
نحمد الله الذي جئنا له   وجميع الهمّ عنا مُنْصَرِف[4]

---

(١) الساعة ١٥ درجة .

(٢) عن « الناصرية » : ١-١٥٤ والعياشية ١-١٦١

(٣) عن « الناصرية » ١-١٥٤ والعياشية ١-١٦١

(٤) هذا المنصرف بكسر الراء والذى بقرب المدينة المعروف الآن باسم المسيجيد بفتحها .

ثم سرنا إلى وادي القباب ، وهو واد فسيح الرحاب ، تهيم به قلوب الأحباب ، وتذكر به عهد زينب والرباب ، لا سيا اجتماع الأصحاب ، في مواطن البعد والاغتراب . قال الشاعر :

شاقنا وادي القباب المرتضى   في اسمه وهو فسيح في الربى
فوصلناهُ وقد قلنا : عسى   بعده نأتي إلى وادي قُبا

وميقات المسير عشر ساعات على التمام ، وبعد إقامتنا به إلى وسط النهار تهيأنا للقيام .

التيه ــ نخل :

ثم نادى المنادي بالرحيل ، فسرنا إلى رأس وادي تيه بني إسرائيل ،

قال الشاعر :

لا تسلكنّ بوادي التيه منفردا   بلا دليل ترى وقْعَ الردّى فيه
فما سمعت كلاما من أخي ثقة   في الناس إلا وقال : احذر من التيه

ومدة المسير إليه عشر ساعات .

ثم سرنا إلى قلعة نخل المحمية ، وتعجبنا من كثرة الفواكه الشامية ، من سفرجل ورُمّان ، وعنب على اختلاف ألوان ، والخيرات الكثيرة ، وما يحتاج الحجاج إليه من الذخيرة ، والفساقي المملوءة بالماء البارد ، المعدة للغادي والوارد ، قال الشاعر :

إلى نخْل الحصينة سر حميداً   ترى فيه المُنَى والخير باقي
ولا تشكو الظماء لفقد ماءٍ   فساقيها مقيم بالفساقي

ومدة المسير ست ساعات محررة ، وخمس من الدرج مقدرة[1] .

القريض ــ العقبة :

ثم سرنا من النخيل[2] إلى وادي القريض المشهور وهو واد ينبت به الشوك

(١) عن « الناصرية » ١٥٧ - ١٥٨ والعياشية ١-١٦٥ الساعة ١٥ درجة

(٢) كذا وتقدم نخل .

عوضا عن الزهور ، فكم آذى بشوكه من أقدام ، وعطل لمن له على المشي إقدام ، ولا سيما الحفيا لا تساع أرضه ، وزيادة فضائه في طوله وعرضه

قال الشاعر :

في وادي القريض[1] كم سائر من غير نعل ثابت الكعب[2]
قد صار كالاعجام من شوكه يرقص من قرص على الكعب

وسيرها اثنتى عشرة ساعة كاملة .

ثم سار الركب إلى بئر العلائي التجريد (؟) وهي محطة بئرها معطلة بها قصر مشيد ، وبقربها جاذرة منحدرة (؟) وأشجار أثل منتشرة ، وبجانبها فسقيتان ليس بهما منفعة ، فما ورد عليهما حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتهما بالأربعة (؟) قال الشاعر :

إلى بئر العلائي قد أتينا وفزنا بالنجاح وبالثناء
شكرنا للدليل وقد دعانا إلى شيء يوصل للعلاء

ومدة السير إليه اثنتى عشرة ساعة في المسير

العقبة :

وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير ، وهو سطح واسع الأكناف ، متسع الجوانب والأطراف ، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة ، لأن مدة المسير إليه اثنتى عشرة ساعة ، ثم سرنا إلى العقبة وما أدراك ما العقبة ، فكم بها من حدرات ومضيق ، وجبال في شكل الحمرة والبياض وهي عقلة في الطريق ، وصعود وانهباط ،وعلو وانحطاط ، قال الشاعر :

عقبات تسلك الناس بها بعقول لم تنزل مرتعبه
قد قطعناها بوقت هين لم نر فيها أمورا متعبة
نحمد الله الذي خلصنا فاسترحنا من عقاب العقبة

---

(١) (العياشية ، : (في وادي فيحاء) وفي رحلة إلى مدين (فرض)

(٢) عند أبي مدين (العقب) .

فقطعنا تلك الحذرة الكبرى ، ثم سرنا إلى واد بشاطىء البحر وأحطنا به خبرا ، وبجانب البحر مغاثر ماؤها عذب فرات ، وآبار تسقى منها الناس بسائر الجهات ، ورأينا نخلا زاهية ، وقلعة حصينة عالية ، فاقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام . وقد وردت الفواكه من غزة وأعمالها نصبت للبيع ، وانخفضت الأسعار . ورفعت البواقي على أحمالها .

وبقلعتها توضع الودائع وترد إلى الاياب ومدة المسير تسع ساعات بالحساب[1]

ظهر الحمار — بين الجرفين :

ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار ، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار ، يصعد إليها من عقبتين ، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين . قال الشاعر :

صعدوا على ظهر الحمار لعلهم ... أن يبلغوا بصعودهم كلُّ الأمَلْ
تعب الحمار من الطريق وطولها ... ومديدها واجتثّ من بعد الرَّمَلْ
حتى الجمال به شكتْ يا هل ترى ... يقبلْ به عذر الحمار أو الجمل ؟

ومدة المسير إليه ثمانية من الساعات .

ثم سرنا إلى ما بين الجرفين ، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين ، يتحرز منه أن يقذف بالحجاج ، في أيام السيل إلى البحر الملح الأجاج قال : الشاعر ملغزا فيه :

وخمسة أحرف في اللفظ تقرا ... فإن صحفتها صحت بحرفين[2]
وإن اسقطت خُمْسَيْها فيبقى ... ثلاثة أحرف من أصل ألفين[3]

---

(١) عن « الناصرية » ج ١ ص ١٦١ و ١٦٢ والعياشية ١-١٦٤و١٦٤

(٢) أي : جرفين — حرفين .

(٣) الفين (فين) رذا أسقطت (حر) يبق (فين)

الشرفة ـــ مغار شعيب :

ومنها إلى الشرفة ، وهي بطول المسير متصفة ، تتعب فيها الجمال ، ولو رحلت بالأرحال ، لما فيها من الوهاد ، والطلوعات الشداد ، وخلف جبالها قبيلة بني عطية ، المعروفين بالسرقة والأذية قال الشاعر :

إذا ما جئتَ للشَّرفَّـةْ	ترى العربان مختلفـة
وأما العبس فاجعلهـــا	بحسن الحفظ متصفة
فإن منعتْ بحارسهـا	وإلا فهي منصرفه

ومدة المسير خمس عشرة ساعة ، من غير ريب ، وبعده المغار المعروف بمغار شعيب ، وهو غار تتبرك به الناس ، وترى فيه الحظ والإيناس ، وبه الماء العذب والنخيل ، وشجر المقل والأثل والظل الظليل قال الشاعر :

قد وصلنا إلى مغار شُعَيْب	فرأينا المياه كالأنهار
فاستقينا من مائه واشتفينا	وظفرنا بغاية الأوطار
وذكرنا بغاره غار ثور	من هوى للصدِّيق والمختار
خير من أنزل الإله عليه	(ثاني اثنين إذْ هُما في الغار)

ومدة المسير ثمان عشرة ساعة [1] .

عيون القصب :

ثم منها ـــ مغار شعيب ـ إلى عيون القصب ، إذا نظر إليها العاجز ذهب عنه الوصب ، لأن خضرتها نظرة ، والأشجار بها منتظمة ومنتشرة . قال الشاعر :

قد وصلنا لعيون القصب	واستراح القلب بعد النصب
وعيون المـاء فيها قد جرتْ	كسيول الغيث بين القصب
فجلسنا في صفاء حولها	وظفرنا عندها بالأرب
وتشوقنا لشادٍ مطرب	يتغنى بعيون القَصَب

(١) عن الناصرية ١٦٤ - ١٦٥ العياشية ١-١٧١

(١) عن الناصرية ١٦٤ - ١٦٦ العياشية - ١-٣٢

ورأينا مجاوراً لتلك العيون ، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون ، ويتَعَاجَبْنَ بظفائر الشعور ، فيمنعن من عقل الحبّ الشعور ، كأنهن أقمار ، أو كأنما نبتت في وجناتهن الأزهار ، فكان قطع المفاوز والأوعار كالتنزهات في الرياض والأزهار ، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة :

بروحي أفدي ظبية بـدوّية　　لها وجنة فيها الأزاهير نابته
إذا رُمْتُ منها أن تكلمني غدت　　تكلمني ألحاظها وهي ساكته

ومدة المسير إليها أربع ساعات وثلاث من الدرج .

المويلح :

ثم منها – عيون القصب – إلى بندر المويلح المشهور ، ورأينا بساحله مراكب من السويس والطور ، فياله من بندر فاق البنادر ، يأتي إليه الوارد والصادر ، وبه جملة من الكروم ، التي تذهب برؤيتها الهموم ، وبمخازن القلعة تودع الودائع ، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع ، من ثمار تجلبها العرب ، وزلابية عجينها كالجبن ، وإذا قُلِيَتْ أشبهت الذهب ، وبهذا البندر رجل من أهل الأحوال ، حاز رتبتي الجلال والجمال ، صاحي مجذوب ، تميل إليه محبة القلوب ، وله أسرار ظاهرة ، ومكاشفات باهرة – وأطال ثم قال :

فأقمنا بهذا البندر مدة ثلاثة أيام ، ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة وخمس من الدرج [1] ..

دار أم السلطان – سلمى :

قال البكري : ثم سرنا من المويلح إلى دار أم السلطان ، التي هي لعرب البادية أوطان ، ونزلنا بوادي سلمى وكفافة ، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة ، وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل ، وبجانبه القسطل الذي [2] منتظم

(١) عن الناصرية ١٦٦ والعياشية ١-١٧٢

(٢) في العياشية : (البرى ينتظم كالنخيل وحفائد) دغ والمدينة (البرى منتظم كالنخــل وحفاير) .

النخيل ، في حفائر ماؤها عذب بارد ، يشرب منها الغادي والوارد .
قال الشاعر :

إنَّ وادي سلمى بهيٌ بهيج حيث فيه قبر الولى المسمى
صاحب السِّرِّ والمعارف مرزو ق الكفافي طاب روحا وجسمها
فإذا جئت قبره فتأدَّب وتوسل بجاهه ثم سل ما[1]

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة . ومدة السير كاف على التمام[2]
[يقصد ٢٠ ساعة ، إذ المكان بحساب الجمل تساوي رقم ٢٠]

الأزلم :

ثم سرنا — من سلمى — إلى بندر الأزلم ، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم ، فماؤه ملح أجاج ، ماشربه إنسان إلا احتاج للعلاج ، فأقمنا به من غير إقبال[3] ، ورحلنا منه بعد الزوال ، ومدة المسير إليها ست عشرة ساعة وخمس من الدرج (؟)

اصطبل عنتر :

ثم سرنا إلى مرحلة تسمى اصطبل عنتر ، وقد اختفى فيها ركب العربان للأذى وتستّر ، والمسير إليها بين جبال صاعدة وجورات وأوعار متقاربة ومتباعدة ، وبها آبار عَذْبة ، يود كل ظمآن شَرْبه ، قال الشاعر :

إن جئت للاصْطَبْل لا تَغْفل به عند النزولْ
واحْذَر من العرب الذى بجباله أبداً تصولْ
واعلم — فديتك — أنه صَعْبٌ ولكني أقولْ
قد سمّي الاصطبلُ من عَرَبٍ به شِبْهَ الخيولْ

ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة[4] .

---

(١) التوسل بالجاه من الأمور المحرمة ، إذ التوسل يكون بالأعمال الصالحة .
(٢) عن الناصرية ١ - ١٦٩ والعياشية ١-١٧٤
(٣) في المدينية (قبال) .
(٤) « الناصرية » ١ - ١٦٩ والعياشية ١-١٧٥

وادي الأراك — الوجه :

ثم سرنا منه — الاصطبل — إلى وادي الأراك ، وهو وادٍ ليس لانفراد محاسنه اشتراك ، وبعده دخلنا بين جبال وأوعار ، ومضيق وأحجار ، وحزرات [1] طوال ، وصعودات وتلال ، حتّى نزلنا ببندر الوجه المبارك ، وصار حصنه متقارباً مُتَدَارِكْ ، فرأينا فيه الآبار الخالية ، وحفائر الماء العذب بقربه غير خالية (؟) فأقمنا به إلى قبيل العصر ، وقد زال من الناس الحصر ، قال الشاعر :

قد دخلنا بندر الوجه الذي   فيه قُوتٌ كلَّ عام يختزَنْ
وشربنا من مياه عذبة   شربُها يجلو عن القلب الحزن
نحمد الله الذي أسعفنا   ورأينا ذالك الوجْه الحسن

ومدة المسير إليها سبع عشرة وثلثا ساعة [2]

مفرش النعام ـ أكره :

وقال : ثم سرنا من الوجه إلى مفرش النعام ، إلى حذرات [3] وآكام ، وأماكن يرى منها البحر الأجاج ، وشدة تلاطمه بالأمواج ، ثم إلى حذرات كبيرة المقدار ، من الصخور والأوعار ، ونزلنا في مرحلة [4] يقال لها بركة أكره ، وهي أرض بها حفائر ماء تكره ، ماؤها مُرُّ المذاق ، من تقيد بها بشربه حصل له الإطلاق ، وهي مرحلة لا ترتاح بها النفوس ، ولا يضحك العبوس ، قال الشاعر :

يا مَنْ رأى أكَرَهَ في سيره   أبْشرْ بنَيْل القصد والمنيَة
لا تكره المكروه في أكره   فبالمكاره حُفّتِ الجنَّهْ

ومدة المسير إليها تسع ساعات وثلث ساعة [5]

---

(١) في المدينة (حذارت) بالذال في كل المواضع . ولعلها حذرات .
(٢) : « الناصرية » ١-١٦٩-١٧٠ والعياشية ١-١٧٥
(٣) في المدينية مشرف و (حلورات) وفي كل ما تقدم (حذرات) .
(٤) في العياشية والناصرية : (رملة)
(٥) « الناصرية » ص ١-١٧٤ العياشية ١-١٧٩

الحنك :

قال البكري : ثم سرنا – من اكره – إلى مرحلة يقال لها الحنك ولها من بين القرى [1] اسم مشترك ، بين فضاء واسع المجال ، ومراعي أعشاب لجمال ، إلا أنها خالية من الماء للوراد ، والإقامة بها إنما هي على طريقة السير المعتاد ، ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة [2]

العقبة السوداء – الحوراء :

قال البكري : ثم سرنا – من الحنك – إلى العقبة السوداء المشهرة وقطعنا مفازتها ، ونزلنا بالحوراء النضرة ، وهي مرحلة رملها غزير ، ومحاطبها كثير ، وبها شجر الأراك الأخضر ، والماء من حفائر رملها يتفجر ، قال الشاعر :

جئنا إلى الحوراء وهي محطة [3] فيها الأراك نزاهةً للرائيْ
ناديت خلىّ : قف بها متأملا [4] وانظر لرَمْل مُغمَّرٍ بالماءِ
واغنم زمانا مقبلا بسعوده فيه اجتماع الشمل بالحوراء

ومدة المسير إليها في جمل الأعداد [5] ، حررها أهل الإرشاد [6]

مغارة نبط :

وقال : ثم سرنا – من الحوراء – إلى مغارة نبط ، وهي حد عربان جهينة في الشّيْل والحطّ ، وبطرفها مضايق وحذرات [7] ، وجبال راسيات شامخات ، وشجر أثل كالنخيل ، وحفائر ماء عذب يشفى العليل ، قال الشاعر :

---

(١) فى الناصرية والمدينية (القرون)
(٢) « الناصرية » ١-١٧٤ والعياشية ١ - ١٧٩
(٣) فى المدينية (محاطة) .
(٤) وفيها (متمثلا) ، .
(٥) كذا ويظهر أن حرف الجمل الدال على العدد غير مذكور وقد ترك أبو مدين بياضا
(٦) العياشية ١-١٧٩ والناصرية ١-١٧٤ .
(٧) فى العياشية : (حزرات) وفى المدينية : حذرات .

وفي أكره والتي بعدها مرارة ماء تزيد القساوه
فجئنا إلى نبط نشكوا الظمأ فأنعشنا ماؤها والطلاوه
ولما صبرنا على غيرها فأعقبنا صبرنا بالحلاوه

ومدة المسير إليها عدد كاف [1] ، وهي عشرون ساعة من غير اختلاف [2]

طراطير الراعى (الاباطيح) وادى النار ـ الخضراء :

ثم سرنا من نبط إلى طراطير الراعي ، وهى أماكن [3] تحمد فيها المساعي ، وهي جبال سود فوق الجبال ، وتسمى أيضاً بالأباطيح كما يقال ، ثم إلى واد يسمى وادي النار ، وهو واد بين جبال ووعر وغبار ، ثم نزلنا بالخضراء وقيل الخضيرة – بالتصغير – وهي من أعمال بندر الينبوع في المسير ، قال الشاعر :

انظر إلى الخضراء واغنم بسطها تلقى رباها نزهة للرائي
فلرب حشاش شكى من همه قد زال عنه الهم بالخضراء

ومدة وصولنا إليها بالمسير [4]

دار البقر ـ الوعرات السبع ـ ينبع :

قال البكري : ثم رحلنا من الخضراء واستقبلنا دار البقر [5] ، ورأينا أول الوعرات قد ظهر ، وهي سبع وعرات كبيرة أصعبها الأولى والأخيرة ، بين كل وعرة فضاء ، وبعده عقلة في الطريق ، ويليها شفا جبل هائل ومضيق ، ثم أنخنا الركاب ببندر ينبوع ، وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع ، به حدائق ونخيل ، وعيون بين زرع تسيح وتسيل ،

---

(١) كاف أى (٢٠) بحساب الجمل .

(٢) « الناصرية » ١ - ١٧٤ والعياشية ١ - ١٨٠

(٣) فى العياشية : (وهى مكان تحمد فيه)

(٤) بياض وفوقه بياض بالأصل بنسختين (عن الناصرية ١٧٥ العياشية ١-١٨٠

(٥) فى العياشية : « دارين البقر » وفى المدينة (دارى) .

وكان به سور منيع ، وجامع مفرد وسيع ، وبيوت فسحة الرحاب ، فآل أمرها إلى الخراب ، وبه الآن سوق للحجاج ، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج ، وبه أفران وحيشان [1] (؟) كبار ، وعشوش تسقى فيها القهوة من أيدي الجوار . قال الشاعر :

حَبَّذا بنــدر ينبــوع وما ... فى رُبَاه من رياض وعُيُونْ
وسقاة من مِــلاَح نُهَّــد ... يصرعن (؟) الصَّب من نبل العيون
فارتحلْ عنهن واذهب وانتصح ... فإذا خالفت أذْهبْتَ العيونْ

وجميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن ، ويَعُمُّ نَفْعُها الساكن والظاعن ، فنصبنا بهذا البندر الخيام ، وأقمنا به ثلاثة أيام ، ومدة المسير إليه سبع عشرة ساعة [2] .

الأبرقان ــ بدر :

وقال : ثم سرنا من ينبوع [3] في فضاء ورمال وآكام وجبال ، حتى وصلنا إلى الأبرقين [4] وهي كناية عن جبلين متفرقين ، أحدهما رمل صاعد، والآخر من وعر وجلامد ، وبينهما تُدَقُّ الطبول الحربية لنصرة خير البرية ، فيسمعها من كان أهلاً للسماع ، ويحجب عنها أهل الزيغ والابتداع [5]

ثم دخلنا قرية بدر وحنين ، التي حماها الله من كل شين ، وبها جسر(؟) طويل ، وعيون تجري بين حدائق ونخيل ، وبها مسجد العريش وقيل مسجد الغمام ، وموضع حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومحل النصرة لجيوش الإسلام ــ إلى أن قال : قال الشاعر :

يا أهلَ بَدْرٍ لقد طابتْ مآثركم ... وقد علا قدركم في أرفع الدرج

---

(١) فى المدينية (وحشيان)

(٢) « الناصرية » ١٧٥١ والعياشية ١٨٠١

(٣) فى العياشية (ينبع) وكذا المدينية

(٤) فى المدينية (الفرقين) .

(٥) دق الطبول خرافة سببها أن الرمل بعد أن يتراكم من فعل الرياح ينهار فيسمع له صوت .

فُزْتم بِغُفْرانِ أوزارٍ وحُسْنِ ثَنَا   على المدى نشره من أطيب الأرج
يكفيكم في عُلاكم قولُ مادحكم: «هم أهل بَدْرٍ فلا يخشون من حرج»

ومدة المسير إليها ثمان ساعات واثنتي عشرة درجة [1]

البزوة — عالج — جبل القرود — سبيل محسن — ودان :

وقال البكري : ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة وتسمى طرف النجحار [2] (؟) ثم إلى عالج وجبل القرود ، ومكان يسمى ودّان ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور وتنزهنا في خضرة أعشابه وسرحه المعطور ، قال الشاعر :

قد شكا لي بَعْضُ المحبِّين يوماً   ظمأ الماء قلتُ : ذا غيرُ مُمْكنْ
كيف تشكو الظما ، وتجْزَعُ منه   وبهذا السبيل أحْسَنَ مُحْسن ؟ !

ومدة المسير ثمان عشرة من الساعات وعشرون درجة [3]

بستان القاضي — رابغ :

وقال البكري : ثم سرنا من سبيل محسن إلى بستان القاضي ، ونسينا بقرب الديار تعب المسير الماضي .

ثم نزلنا برابغ محل الميقات ، وتجردنا من لبس المخيط وأحرمنا ورأينا حفائر ماء تنبع ، ومزارع بطيخ يتنوّع ، ومسجداً قديم الأثر ، ويسمى بالجحفة [4] كما ورد في الخبر ، وهو محل وقته المصطفى ، زاده الله رفعة وشرفاً . قال الشاعر :

---

(١) إشارة إلى الحديث : « إن الله أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم

(٢) في العياشية (النجحار) وفي الناصرية و « المدينية : (النحجار)

(٣) العياشية ١ - ١٨٧ والناصرية ١-١٨٤

(٤) موضع الجحفة بعد رابغ بنحو ١٥ كيلا يدعه الطريق القديم ذات اليمين . والطريق الحديث ذات اليسار ، ولا يزال موضع الجحفة معروفا ، وقد أنشئ فيه مسجد بجوار مقبرة وآثار قديمة .

تجرّدت لما أن وصلت لرابغ ولبّيتُ للمولى ، كما حصل الندا
وقلت : إلاهي عندك الفوز والغنى وإني فقير ، قد أتيت مُجرّداً

ومدة المسير إليها ست عشرة ساعة وعشر من الدرج [1] .

الجرينات ـ طارف قديد :

قال البكري : ثم سرنا – من رابغ – إلى الجرينات ، ونزلنا بطارف قُديد ، الذي لايحل في حرمه للمحرم الصيد ، وأرجاؤه واسعة المجال ، كثيرة الوعر والرمال ، إلا أنها تبشر بقرب البلاد ، وهي مواطن الأمجاد . قال الشاعر :

قدْ نزلْنا بطارف لقُديْد ودخلنا حماك نرجو الحمايهْ
فتفضــلْ على عبيد وفود منك ترجو دفْعَ العنا بالعنايهْ

ومدة المسير إليها سبع عشرة ساعة [2]

عقبة السويق ــ خليص ــ الديسة ــ مدرج عثمان ــ عسفان :

وقال : ثم سرنا – من طارف قُديد – إلى عقبة السّويق ، وهي عقبة عالية الرمال في الطريق ، ثم منها إلى خليص الشهيرة ، وبها فسْقيّة من الماء كبيرة ، ومنها إلى الديْسة ، ويحترز بها من اللصوص أحجاب النفوس الخسيسة.

ثم خرجنا من مدرج عثمان إلى قرية عُسفان ، وبها البئر التي تفل فيها سيد البشر ، وهي بئر من شرب من مائها زال عنه الضرر [3] . قال الشاعر :

إنّ عسفان تسامت رفعة وعلت قدرا على كل القُرَى
وبهــا بئر النبي المصطفى خير من صلّى وصام وقرا
فإذا جئت لها كن محسنا فعسى تُحسب من أهل القرَى

ومدة المسير إليها (زاى) فى العدد . . . [4]

---

(١) العياشية ١-١٨٧

(٢) العياشية ١-١٨٥ و « الناصرية » ١-١٨٤

(٣) لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى تلك البئر ، وهو عليه الصلاة والسلام أجل من أن يبصق فى ماء ينتفع به الناس .

(٤) العياشية ١ - ١٨٨ و (الناصرية) ١-١٨٥ و (زاى) تساوى ٧

جبل العميان ـ الوادى :

وقال البكرى : ثم سرنا من عسفان إلى جبل العميان ، الذى نجتمع فيه الفقراء ، بقصد الإحسان ، ونزلنا بالوادي ، وهو نهاية سير البوادي ، وهو واد خصيب ، يرى فيه طالب النزاهة أوفر نصيب ، أغصانه زاهية ، وقطوفه دانية ، وأطياره ناطقة ، وجداوله دافقة ، ومزارعه تنبت من كل زوج بهيج ، ويفوح من أزهارها كل عرف أريج ، وهي زائدة الابتهاج ، وعلى كل حديقة سياج ، فلو رآه مصريٌ من الناس ، نسي الروضة والمقياس ، وبه عشش تسكنها عرب البوادي ، وبأرضه ينبت شجر الكادي.

قال الشاعر :

يا حبّذا وادٍ فسيح الفضـا	أريجه قـد عطّر النـادي
كم فيه من فاغية قد زكت	وفيه زهرُ الفُلّ والكادى
وكم ثمـار وزروع بـه	والماء فيه يُنعشُ الصادي
قلتُ لخلي حين شاهدته	ولاح لي نور السنا بادي
هل دار ليلى قد تدانتَ لنا ؟	فقـال لي : إنّكَ بالوادي

ووصوله خمس عشرة ساعة بالمسير ، وخمس من الدرج بالتحرير [1]

سبيل الجوخى ـ مساجد ميمونة ـ كداء :

ثم سرنا ـ من الوادي ـ إلى سبيل الجوخي المعروف ، ورأينا جنان مكة دانية القطوف .

ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة ، وقد اقترن بسماء سُمُوّها كوكب الثريا بالزّهرة ، ولاحت لنا أعلام الديار . ومشاهد المشاعر والآثار ، ووصلنا ثنية كدا ، وبعدها المعلّى التي بها مشاهد أهل الهدى ، وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين ، حتى تلقتنا هواتف البشائر (لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرام إنْ شَاءَ اللهُ آمنين) فدخلنا من باب السلام ، وشاهدنا البيت والمقام [2] .

---

(١) « الناصرية » : ١-١٨٥ والعياشية ١-١٨٨

(٢) العياشية : ١-١٨٩ « والناصرية » : ١-١٨٦

«تاريخ الإسلام» للذهبي
وموقف مركز إحياء التراث منه

- ١ -

صدر عن (مركز تحقيق التراث) في مصر ، القسم الأول من الجزء الأول من كتاب «تاريخ الإسلام»[1] للحافظ الذهبي ، وفيه تفصيل لمغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما لم يرد في الأجزاء التي نشرها الأستاذ حسام الدين القدسي ، وسيوالي المركز نشر أجزاء الكتاب – على ما جاء في مقدمة هذا الجزء – ما نشر وما لم ينشر .

وحقّق هذا القسم الدكتور محمد عبد الهادي شعيره رحمه الله ، وشارك في التحقيق بعض الباحثين في مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية . ومنهم خديجة محمد كامل ، وفوزية فؤاد علي يوسف . وإلهام محمد خليل ، وأحمد عبد المجيد هريدي .

ووقع في ٣٢٠ صفحة من القطع الكبير . تقع المقدمة في ٦١ صفحة والفهرس الموجز في خمس صفحات . والطباعة في دار الكتب .

ويبدأ الجزء بخطبة المؤلف وبذكر مصادر كتابه ، وينتهي بذكر حوادث سنة ست من الهجرة ، حيث يبدأ القسم الذى يليه بذكر (غزوة خيبر) .

مركز تحقيق التراث :

لا بدّ لي من كلمة موجزة عن عمل بعض القائمين بتحقيق التراث في (دار الكتب المصرية) أوّل عهدي بالدار ، قبل ثلاثين عاما . وعن جانب من عمل

---

(١) وقد صدر في العام الماضي وتأخر نشر هذا المقال

(مركز تحقيق التراث) الذي أنشيء في تلك الدار منذ بضعة عشر عاماً ، فقد كان أول قسم قويت الصلة بيني وبين العاملين فيه من أقسام الدار هو (القسم الأدبي) وكان القسم المشرف على تحقيق الكتب التي تنشرها الدار ، مثل « تفسير القرطبي » و « الأغاني » ومجموعة من الدواوين الشعرية .

ولا أزال أذكر من بين العاملين في ذلك القسم الأساتذة محمد أحمد العدوي – وكان رئيسه – ومصطفى البرهامي ومحمد عبد الجواد الأصمعي وأحمد لطفي السيد – سمي رئيس المجمع – وابراهيم طفيّش – رحم الله الماضين ، وبارك في أعمار الباقين .

وأذكر أن أول صلة لي بهذا القسم نشأت عندما اتصلت بقسم المخطوطات طالبا الإطلاع على كتاب تاريخ « ابن المجاور » وكان رئيس ذلك القسم عالم أزهري معمّم ومجبّبٌ يدعى الشيخ محمد عبد (رب) الرسول ، وكان الأستاذ فؤاد السيد من موظيفه ، وبه كانت صلتي ، فأخبرني أن الكتاب الذي طلبته مُعَارٌ في (القسم الأدبي) ومن الممكن أن أطلع عليه هناك . وذهب – رحمه الله – معي ليبسّر لي أمر الإطلاع عليه . فأدخلني على شيخ كثّ اللحية ، معمم مُجَبَّب ، مشرق الوجه ، قد كاد وجهه يختفي بين صفحتي كتاب ضخم كان بين يديه . وقال له : هذا الأخ من الحجاز ، ويريد الإطلاع على كتاب « تاريخ ابن المجاور » فأمرني بالجلوس ، وسألني من أيّ بلدة أنا من الحجاز ؟ فأخبرته أنني من نجد ، ولما استقرّ بي المجلس على كرسي بجوار الشيخ – قال لي : ماذا تشرب ؟ فاعتذرتُ ولكنّه ألحّ . فقلت : قهوة ، ولتكن مُرّةً ! فقال للساعي الواقف بجواره : إتنا بقهوة بسكّر ، رغم أنف هذا النجدي – قال ذلك ضاحكاً – وأردف قائلا :

الرسول عليه الصلاة والسلام يحب الحلواء والعسل ، وأنت تريدها مرّة ؟ . !

كان ذلك الشيخ هو الأستاذ ابراهيم طفَيش ، وهو من كبار علماء

الإباضيّة ، وكنت قد سمعت به ، وقرأت بعض ما نشر من كتب مثل كتاب « الملاحن » لابن دُرَيْد .

وقدم لي الشيخ «تاريخ ابن المجاور» النسخة المصورة عن مخطوطة (طوب قبو) في اصطنبول ، ومن غريب ما حدث أنني أثناء مطالعتي فيها وأنا عنده في تلك الساعة ، وقع نظري على كلام سيّءٍ في الكتاب عن الاباضية ، فسألت الشيخ : هل طالعتم الكتاب ؟ وما رأيكم فيه ؟ فقال : لا بأس به . فأريته الكلام المتعلق بقومه ، فما كان منه — رحمه الله — إلا أن طغت عليه العاطفة طغياناً دفعه إلى تناول الكتاب مني بعنف ، وكاد أن يقذف به ، ثم أخرج ورقة استعارته من مكتبه ، وأمر رجلاً كان يجلس على مقربة منّا أن يرجعه إلى « قسم المخطوطات » وأن يأتيه بورقة الاستعارة التي في ذلك القسم .

قويت صلتي بالشيخ ابراهيم طفيّش ، بل بكثير من العاملين في (القسم الأدبي) فكنت إذا أردت الاطلاع على أي كتاب مخطوط أطلب من أحدهم استعارته ، فأطلع عليه عنده ، وقد انسخ ذلك المخطوط ؛ أو اطلب من أحد موظفي ذلك القسم نسخه ، وأتولّى معه المقابلة والتصحيح ، فمما نسخت من الكتب في ذلك العهد « تاريخ ابن المجاور » وكتاب « المقتضب من جمهرة النسب » لياقوت الحموي بخطّه ، وعن نسختي من هذا الكتاب نسخ الأستاذ محب الدين الخطيب نسخةً بخطه ، أطلعني عليها ، ووضع في هوامش نسختي بعض التصحيحات .

ثم تولى رئاسة (القسم الأدبي) الأستاذ الجليل محمد أبو الفضل ابراهيم ، فعرفته وقويت صلتي به ، وكان بينه وبين الأستاذ فؤاد السيد من الصلة والصداقة أقوى مما يكون بين الشقيقين .

فقد كان الأستاذ أبو الفضل يرجع إلى فؤاد — رحمه الله — في كل دقيقة وجليلة من أموره في عمله في (دار الكتب) عرفت ذلك بعد أن خالطت

الرجلين وعرفتهما أتم معرفة ، بعد أن قويت صلتي بالقسم الأدبي ، وازدادت معرفتي بفؤاد السيد بعد أن صار المسؤول عن (قسم المخطوطات) .

ولم اكن وحدى الذي عرف (القسم الأدبي) واستفاد من علم العاملين فيه ، بل كان ذلك القسم بمثابة (نادٍ) يلتقي فيه جميع المهتمين بالتراث العربي ، فقد عرفت فيه كثيرا من الباحثين من العلماء من المغرب ومن الشام ومن اليمن ومن العراق ، وبعض المستشرقين ، ممن كانوا يجدون في علم أولئك القائمين على تصحيح ما تنشره الدار خيرَ ما يتوقون إلى معرفته ، ويرون في عملهم من الجودة والعناية ما يتخذونه قدوةً وأسوة حسنة .

ثم دارت الأيام ، وتغيرت الأحوال ، وزال (القسم الأدبي) من دار الكتب ، فحل محلَّه (مركز تحقيق التراث) في وقت وضعت ظروفه (دار الكتب) في معزلٍ عن كثير ممن كانوا يجدون فيها خير مدرسة لكل ما يتصل بالتراث العربي ، لا من حيث وفرة ما فيها من مخطوطاته ، ولا من حيث كثرة من تضمُّ في مختلف أقسامها من المعنيين به فحسب .

ومع كثرة ترددي على القاهرة ــ أثناء حضور (مؤتمر مجمع اللغة العربية) إلا أن صلتي بالدار انقطعت بعدما علمت بصعوبة الإستفادة مما فيها من كتب .

ولم يكن بين الكتب التي نشرها (مركز تحقيق التراث) ما أثار في الرغبة إلى مطالعته .

ولكنَّ أحد الإخوة عندما أخبرني بأن المركز نشر الجزء الأول من « تاريخ الإسلام » للذهبي وقلت له : لديَّ الطبعة الأولى منه . قال : إنه مما لم ينشره الأستاذ حسام الدين القدسي ، فهو يحوى المغازي ، عن مخطوطة قد تكون أنت الذي أخبرت بها ، فقد ورد اسمك في مقدمة ذلك الجزء . فكان قوله هذا مما حفزني إلى استعارة الجزء من أحد الاخوان ، ومطالعته .

ولا أدري هل من الخير أن أقول : ويا ليتني لم أطالعه ؟ !

لقد رأيت فيه ما تمنيّت أنني لم أره في أيّ كتابٍ عربي منشور .

من المدرك – بداهةً – أن معنى (تحقيق الكتاب) : التحقُّق والتثبّت من أنَّ ما ينشر منه مطابقا حقا لأصله ، كما وضعه مؤلفه بدون زيادة أو نقصان ، أوتغيير في النّصّ ، أو تحريف له ، متى كان لأصل ذلك الكتاب من النسخ مايصح الاعتماد عليه، وإن لم يكن ذلك فلاأقلَّ من أن يُطابِقَ المنشورُ النسخةَ المخطوطة الموثوق بها ، إن كان لأصل الكتاب نُسخٌ ، أو النسخة الوحيدة إن لم يكن سواها .

أما ما يعترض المحقق من خطأ أو غموض في عبارة ، فإن عمله حيال ذلك يجب أن يكون منفصلا عن عمل مؤلف الكتاب ، إذ لا يسوغ له أن يتصرف في كلامه بزيادة أو نقصان أو تغيير ، ولو فعل ذلك لخان أمانة العلم ، وأبرز الكتاب بصورة غير مقبولة – كما حدث في هذا الجزء الذي نشره (مركز تحقيق التراث) من « تاريخ الإسلام » .

ما كنت أودُّ الإفاضة في الحديث في هذا الموضوع ، لولا أن الأمر يتعلّق بتراثنا ، وعلى تراثنا يرتكز أساس حياتنا الروحية والثقافية ، وهو تراث الأمة كلُّها ، لايختص بقطر من الأقطار العربية دون غيره ، ولا بجيل من أجيال الأمة وحده ، بل هو ملك لكل أجيالها ما تعاقبت تلك الأجيال ، وواجب جيلنا صيانة هذا التراث ، والحفاظ عليه ، وتسليمه أمانة مُصانة لمن يحافظ عليه بدون عبث أو تحريف .

ما أهون هذا التراث – تراث أمتنا الفكري – إذا وكّلنا أمره لمن لايحسن القيام به ! ! ، إننا نرتكب خطأ جسيما – بل جريمة منكرة – إذا وضعناه في أيد لاتحسن صيانته ، ونرتكب خطأ جسيما إذا تركناه لبعض الناشئين أو العاجزين، ليقدموه لنا محقَّقًا مُصحَّحًا ، صالحاً للانتفاع به ، والاستفادة منه – بل الركون إليه باعتباره أساس حياتنا الفكرية .

هذا العدد من الفتيات اللواتي لم يتجاوزن – بعد – مرحلة الدراسة ، وهذا

(الدكتور) الجليل عمْراً ، وقَدْراً، الضعيف جسما وصحة، ما كان ينبغي تعريض واحد منهم للنقد ، ولا عرض عملهم للتجريح والتنقيص من قدره ، لولا أن الأمر يتعلق بحياة أمة وثقافتها . ولأجل تلك الحياة يستسهل كل شيء في سبيل الحفاظ عليها ، فلنلج في الموضوع :

جاء في المقدمة الطويلة التي تعرض لها بالنقد أحد الباحثين في «مجلة معهد المخطوطات»[1] — ص ٤٩ مانصه :(أخبرنا القدسيُ عن حمد الجاسر عضو المجمع اللغوي في نجد : الموجود من تاريخ الإسلام للذهبي في نجد : يوجد عند الأمير عبد الله .. أربعة مجلدات ..القدسي عن حمد الجاسر عضو المجمع اللغوي : عند الشيخ على آل مبارك بالأحساء .. جزءان ١٢ و ١٣) ...

أنا لم أقل : (الموجود من تاريخ الإسلام في نجد) كذا وكذا ، ففي نجد مكتبات لا أعرف ما فيها ، وقد يوجد من الكتاب أجزاء عند بعض الناس لا أعلمها وإنما قلت : (يوجد في نجد) وفرق بين قولك : (الموجود في المكتبة خمسة كتب) وقولك : (يوجد في المكتبة من الكتاب الفلاني خمسة أجزاء) .

عرضت للذكر هذا — وهو سهل يسير — إذ سبقت الإشارة إلى أنه كان من أسباب مطالعتي هذا الجزء فلننظر ماذا عمل محققوهُ .

الأمر الأول — الزيادة في النص :

ليس عمل محقق الكتاب شرح النص ، أو إضافة ما يراه مكملا لمعناه ، فتلك وظيفة الشارح أو المؤلف. وعمل المحقق ينحصر في إبراز النصّ صحيحا كما ورد عن المؤلف . ولو أراد المحقق أن يضيف أو يشرح فيجب أن يفصل فعله عن الأصل ، وأن يبرزه في الحواشي ، أمّا إذا لم يفصله فإن عمله يعتبر تَصَرُّفا غير مقبول ، بل خيانة للأمانة العلمية التي تحتم نقل النصوص عن أصحابها مع نسبتها إليهم بدون تصرُّف .

فما هو موقف محققي « تاريخ الأسلام » إزاء هذا الأمر ؟ ! لقد استغلق

(١) في الجزئين الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين .

عليهم فهم كثير من العبارات الواضحة. إما لعدم دُرْبَتهم على قراءة المخطوطات أو لقصور فهمهم ، فما كان منهم إلا أن غيروا بعض الكلمات في مواضع ، وزادوا كلمات أخرى في مواضع ، لا تستدعي الزيادة ، ميزوها بأن أشاروا في الهوامش إليها ، مع وضع بعضها داخل مربعين [..] . وحذفوا حروفا أو كلمات لم يستطيعوا قراءتها .

ومن اليسير الرجوع إلى المخطوطات الموجودة من الكتاب وإلى الأصول التي رجع إليها المؤلف ، من اليسير ذلك لمن يريد أن يحقق الكتاب تحقيقا صحيحا . حتى يتضح ما انبهم من عبارات المؤلف ، أو خفي من كتابه من بعض كلماته في بعض النسخ .

وها هي أمثلة للزيادات في الأصل :

١ ــ ص ٨٠ : (ومن المنافقين نبتل بن الحارث ونجاب بن عثمان). وفي الهامش : (في الأصل : نجاد ــ بالدال ــ ولم نجده في الإصابة ولا في الاستيعاب ورجحنا أن يكون اسمه نجاب بالباء ، شهد بدرا) كيف يكون منافقاً وهو ممن شهد بدراً ؟ والرسول صلى الله عليه وسلم قال في حقهم : « إن الله أطلع على أهل بَدْر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

إن الصواب : (ومن المنافقين نبتل بن الحارث ، وبجاد بن عثمان) كما في كتاب : « السيرة النبوية » تأليف ابن هشام (١ / ٥٢١) والمحبر (٤٦٧) وأنساب الأشراف (١/٤٧٥) وتاريخ الطبري (٣ ــ ١١١) - على ما جاء في مطبوعة الأزهر من هذا الجزء

٢ ــ ص ١٢٨ في خبر وقعة بدر : (فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، وبينهم وبين الماء رملة عصة) وفي الهامش : (في الأصل : رملة وعصة ، ولا وجود لهذه الصفة في اللغة ، وقد قرأنا العبارة بحذف الواو وتفسيره : رملة عصة . أي رملة صلبة ، لأنَّ عصَّ على وزن ملّ معناها صلب ، اشتد - المحيط) .

وبعد كلام الأصل : (فأنزل الله عليهم مطرا شديداً ... وصار الرمل يعني ملبدا) !

وفي ص ١٣٨ : (وكان على المسلمين دمة خفيفة لبدّلهم الأرض) والمقصود المطر .

وكلمة (وعصة) صوابها (دعصة) بالدال لم يستطع المصححون قراءتها فصحفوا الدال واوا ، ثم حذفوها وجعلوا الكلمة (عصة) ثم تمحلّوا لها من المعاني ما لا يتفق مع سياق الكلام ، إذ الدعصة السهلة الناعمة ، فلما أصابها المطر لبّدها وجعل المشي عليها ممكنا .

٣ – ص ١٣٥ : (وكانت عاتكة قد رأت [رؤيا] قبل قدوم ضمضم فذكروا رؤياها إلى أن قال) .

والصواب : (وكانت عاتكة قد رأت قبل قدوم ضمضم ، فذكر رؤياها) .

فكلمة : رؤيا لا محلّ لها ، إذ قد تقدم ذكر هذه الرؤيا . وكلمة (فذكروا) صوابها : (فذكر) كما في كتب السيرة .

٤ – ص ١٣٦ : (قد [حلمت] بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم) وفي الهامش (الأصل مطموس والقراءة تقريبية ، وجاء في مقابلها عند ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٦ فقال – أي أبو جهل – : هذا أيضا نبي آخر من بني عبد المطلب) .

والصواب : (قد جئتمونا بكذب بني المطلب مع كذب بني هاشم) وكلمة (حلمت) جعلت الجملة ركيكة وغيرت المعنى .

٥ – ص ٧٧ : (فجاءوا فقالوا فقال [النبي صلى الله عليه وسلم] أى رجل عبد الله فيكم ؟) .

لا محلّ للزيادة . فقد تقدم ذكره عليه الصلاة والسلام في أول الخبر . والزياة هذه تسبب ركاكة العبارة .

٦ ـ ص ٧٢ : (وذكر الحديث لنا) .

وكلمة (لنا) لا محل لها ، ولم ترد في الأصل ، وقد يكون الكاتب وضع فاصلة وصورتها عند المتقدمين (.) فلم يدرك المصححون هذا ، بل لم يدركوا أن كلمة (لنا) نابية في هذا الموضع .

٧ ـ ص ١٤٤ : (فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى فأبى الفتيان وقالوا : جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم [الأنفال لنا] فأنزل الله) إلخ .

صواب الجملة : (فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى ، فأبى الفتيان وقالوا : جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا) إلخ .

وهنا خطآن : أولهما أن المشرفين لم يحسنوا قراءة (جعله) فقرأوها (جعل) والخطأ الثاني زيادة (الأنفال لنا) .

٨ ـ ص ٢١١ : (ما منهم أحد إلا وهو قعيد تحت حجفته من النعاس) وفي الهامش :(في الأصل عند والتصويب من السياق) .

وصحة العبارة : (ما منهم أحد إلا وهو يميد تحت حجفته من النعاس) .

فكلمة (قعيد) لم ترد في الأصل ، وإنما ورد (يميد) أن يتحرك ويضطرب من النعاس . ولما لم يحسن المصحح قراءتها غيّرها .

٩ ـ ص ١٥٣ : (عبد الله [بن عبد مناف بن النعمان بن سنان] أبو سلمة بن عبد الأسلم) وفي الهامش : وهو أنصاري سلمي .... والاسم ناقص في الأصل ، وقد استكملناه من ابن حجر في الإصابة) .

والصواب : (عبد الله بن مسعود ، صهيب بن سنان ، أبو سلمة بن عبد الأسد) .

ثم بعد ذلك ذكر أعيان الأنصار . فالزيادة لا محل لها . وكيف يصح إضافة اسم رجل من الأنصار بين رجال ليسوا منهم ، لأن اسماء الأنصار أوردها المؤلف بعد هذا .

١٠ – ص ١٥٣/١٥٤ : (ومن بني عمرو بن عوف : مبشرين عبد المنذر ، وأخوه [زيد] ولم يحضرها أخوهما أبو لبابة) وفي الهامش : (وهو زيد بن عبد المنذر أخ أبي لبابة ذكر أبو عبيد أنه شهد العقبة ....)

كلمة زيد التي زادها المصححون خطأ ، والصواب (رفاعة) مكانها ، كما في كتب السيرة .

١١ – ص ١٥٧ : (ولا في دين أحد من [اتباع] الملك) وفي الهامش : (اضطررنا إلى هذه الإضافة الغير موجودة في الأصل) إلخ .

الخطأ هنا نشأ من قراءة (الملك) بدل (الملل) جمع ملة ، لتشابه الكلمتين في الكتابة . ولو رجع المصححون إلى أصل آخر لما اضطروا إلى إضافة ما لا يصح أن يضاف ، فقد غيّر المعنى .

ويتضح من صنيع المحققين أنهم لم يحسنوا قراءة النسخة المخطوطة من الأصل . ولهذا وقعت منهم هفوات كثيرة . نستمر في الإشارة الموجزة إلى بعضها .

١٢ – ص ١٦٨ : (وحدثني ابن إسحاق عن عبادة بن الوليد) وفي الحاشية : (في الأصل : أبي ، والتصحيح من متن ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ص ٤) .

وأقول الصواب – كما في الأصل

(وحدثني أبي إسحاق) فالقائل محمد بن إسحاق ، يحدث عن أبيه إسحاق بن يسار ، وبهذا السند وردت الرواية في السيرة لابن هشام(٢/٤٩) وابن كثير في التفسير (٣/١٢٦) والبداية والنهاية (٤/٤) .

١٣ – ص ١٧٥ : (ووجد رعاةً) وفي الحاشية : (في الأصل لم يثبت التاء المربوطة) .

والصواب : (ووجد رِعَاءً) . وهم جمع راعي وهي لغة فصيحة

صحيحة وردت في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان » فما الداعي لاستبدالها ؟ !

١٤ ـ ص ١٨٧ : (لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا ، [بل] أثبت مكانك) .

كلمة (بل) لا محلّ لها .

١٤ ـ ص ١٩٠ : (فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة أي [يا] قوم) .

غريب أمر هاؤلاء المصححين : كأنهم دخلاء على اللغة العربية . لا يدركون أن (أي) تغني عن (يا) في هذا الموضع .

١٥ ـ ص ١٩٤ : (وليس مع المسلمين فرس [واحدة])

ولماذا تزيد (واحدة) وكلمة (فرس) اسم مفرد ؟ !

١٦ ـ ص ٢٩٣ : (عن الأسود عن قيس بن نبيح العنزى) .

هو الأسود بن قيس فكلمة (عن) تحريف (بن) .

١٧ ـ ص ٢٩٥ : (ثم حشوا فضول ما فضل من ازوادهم في جُرُبهم) وفي الهامش (في الأصل لغفوا ومعناها لعق ولا يتفق وسياق الخبر) .

قرأ الإخوة المصححون كلمة (لفقوا) بفاءين (لغفوا) بغين معجمة ثم فاء ، فلم يروا لها معنى ملائما فغيروا الكلمة .

١٨ ـ ص ٢٠٠ : ـ وفي خبر أنس بن النضر (فلقيه سعد بن معاذ فقال : أي سعد ! إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، واهاً لريح الجنة .

قال سعد : فما استطعت [رؤيته] يارسول الله ما صنع) وفي الهامش : (إضافة للايضاح من عندنا) ما هذا ؟ إن العبارة يفهمها كل قارىء بدون هذا الإيضاح الذي غير المعنى ؟ !

١٩ ـ ص ٢٥٦ : (وكانت صفيةُ في فارع حصن حسان بن ثابت وكان معها فيه مع النساء والولدان .قالت (صفية) فمرًّ بنا يهودي ..) .

ولماذا تضاف كلمة (صفية) ألمجرَّد التصرف بعبارة المؤلف السلسلة الواضحة ؟ .

٢٠ – ص ١٠٦ : (رواه محمد بن إسحاق من طريق يونس بن بكير [عنه] بمعناه) .

– ص ١١٠ : (وكان عمير من شياطين قريش ، وممن [كان] يؤذي المسلمين) و (هو الذي حزرنا [للقوم] يوم بدر) وص ١٢٢ : (فكانت [في] الريح الأولى جبريل .. وكانت [في الريح] الثانية ميكائيل)

٢١ – ص ١٣٥ : (فوضع جهيم بن الصلت [يده على] رأسه فأغفى ، ثم فزع فقال لأصحابه) وفي الهامش (في الأصل نزع والتصحيح من عندنا) وكذلك كلمة [يده على] التي لا محل لها .

– ص ١٤٢ : (وقالت اليهود : [تيقنا] أنه النبي الذي نجد بعثه في التوراة) .

٢٢ – ص ١٧٢ : (وانتظره أعداء الله فراث عليهم [الرسول بعض الريث] فأقبل رجل من المدينة فقال : لقيته قد دخل أزقّة المدينة) .

٢٣ – ص ١٣٨ : (فعمد [الرسول] البدر) .

والكلام كلمة عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وكل الكلمات التى بين المربعات من زيادة المصححين ! ؟

٢٤ – ١٣٩ : (وتحمّل دية ابن الحضرمي و [تتكفل] بما أصاب محمد في تلك العير) وفي الهامش : (إضافة يقتضيها السياق) . ولماذا يقتضيها مع وجود كلمة (تحمل) ؟ !

٢٥ – ص ١٣٨ : (وحفض أبو سفيان فلصق بساحل البحر) وفي الهامش : (في المحيط حفضه يحفضه بمعنى جمعه ، والمقصود حسب السياق : جمع الأبل وساقها) .

كلمة (حفض) هنا صوابها (خفض) بالخاء المعجمة ، أي انحدر نحو طريق الساحل ، وترك الطريق الأعلى المارّ بقرب بدر .

٢٦ ـ ص ١٤٠ : (حتى يصيبوا عدداكم ولا آمن أن تكون لهم الدائرة عليكم) وفي الهامش (في الإصل الزبرة والتصحيح من السياق).

والصواب : (حتى يصيبوا أعدادهم منكم ، ولا آمن أن تكون لهم الدبرة عليكم).

فهنا إساءة قراءة النص ، مع التصرف فيه بالزيادة .

٢٧ ـ ص ١٤٠ : (ألا يستحيون من ذلك ، أن يقبلوا الدية) :

والصواب : (ألا تستحيون من ذلك أن تقبلوا الدية) .

٢٨ ـ ١٤١ : ((ويأبى معظم الناس إلا أن المحرز هو الذى قتله) وفي الهامش كلام في ترجمة محرز بن نضلة طويل .

والصواب : (ويأبى عظم الناس إلا أن المجذر هو الذى قتله) .

والمجذر هو ابن ذياد البلوي ، لا محرز بن نضلة الذي ظلمه الإخوة المصححون ، فنسبوا إليه قتل رجل هو برىء من قتله ! .

٢٩ ـ ص ١٤١ : (فلما بصر إليه) .

والصواب : (فلما نظر إليه) يقال : بَصرُ به ـ لا بصر إليه .

٣٠ ـ ص ١٤٢ : (النبي الذي نجد بعثه في التوراة) .

والصواب : (النبي الذي نجد نعته في التوراة) .

حرف المحققون نعته ـ أي صفته ـ بكلمة (بعثه) لأنهم لم يحسنوا قراءة الكلمة .

٣١ ـ ص ١٤٢ : (وقد ذكرت هذه القصة بنحو قول موسى بن عقبة وابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة) وفي الهامش (في الأصل : عقبة ابن لهيعة . كأنهم اسم واحد والصواب فصلهما) !

والصواب : (وقد ذكر هذه القصة بنحو قول موسى بن عقبة ، ابن لهيعة) الخ . فكتابة الأصل صحيحة لاغبار عليها ، وإنما أُتِيَ الإخوة المحققون من عدم استطاعتهم قراءة الجملة على وجهها الصحيح .

٣٢ – ص ١٤٥ : (أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على أعداؤهم أدنى من هذه الشجرة) وفي الهامش : (في الأصل :) عدائهم (والخطأ في الإملاء ونقص الألف) .

والجملة : (أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة) .

ولا خطأ ولا نقص ولكنّه الجهل – قاتل الله الجهل .

٣٣ – ص ١٤٧ : (وكان قد أخذ معه عشرين أوقية ذهبا) .

والصواب : (وكان قد أُخِذَ منه عشرون أوقية ذهبا) .

٣٤ – ص ١٤٧ : (وقال عبد العزيز بن عمر إن الزهري وهو ضعيف : حدثني عن محمد بن موسى) .

والجملة : (وقال عبد العزيز بن عمران الزهريُّ وهو ضعيف – حدثني محمد بن موسى) .

والخطأ في القراءة سبَّب تضعيف الزهري ، وهو عند المحدثين الامام محمد بن مسلم بن شهاب من كبار الأئمة ومشاهير العلماء .

أما محمد بن عمران – وهو من بني زهرة أيضا – فهو اخباري ضعيف عند المحدثين .

٣٥ – ص ١٤٨ : (وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء فيه [نزل] (إن يعلم الله في . .) واستشهد منكم بعدتهم) .

والجملة : (وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء ، واستشهد منكم بعدتهم) .

وكلمات : (نزل : (إن يعلم الله في) لا أدري من أين أتى بها الإخوة المحققون .

٣٦ – ص ١٤٩ : (حدثني العباس أن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس) الخ .

والصواب : (حدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس) إلخ .

٣٧ — ص ١٤٩ : (أنقتل أبانا وإخواننا) .

وهي : أنقتل آباءنا وإخواننا) .

ومن عادة المتقدمين حذف الهمزة في الكتابة في كثير من الكلمات .

٣٨ — ص ١٥٠ : (هل لك أن اعطيك شيئا تعطها إياه) ؟ .

ما الداعي لجزم (تعطها) أي حذف الياء منه .

إن الصواب : (هل لك أن اعطيك شيئا تعطيها إياه) ؟

٣٩ — ص ١٥٣ : (ومن بني عبد الأشهل : عباد بن بشر بن وقش الأشهلى ، أبو الهيثم بن التيهان) وفي الهامش : (في الأصل : عباد بن مسلمة) وقد حذف الإخوة اسما من هذه الجملة ، (ومن بني عبد الأشهل : عباد بن بشر ، محمد بن مسلمة ، أبو الهيثم بن التيهان) .

٤٠ — ص ١٥٥ : (وذكر ابن إسحاق وغيره سائر المقتولين ، وكذا أسماء الذين أسروا) .

والصواب : (وذكر ابن إسحاق وغيره سائر المقتولين وكذا سمى الذين أسروا) .

٤١ — ص ١٥٦ : (إنه قدم إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء) وفي الهامش : (في الأصل : قدموا والصحيح ما أثبتناه) .

صحة الجملة : (إنه قد ضوى إلى بلد الملك) إلخ .

ولمّا لم يحسن المصححون قراءتها غيروها ، ولهذا فما أثبتوه هو الخطأ لا الصحيح .

وضَوَى : أوى والتجأ .

٤٢ — ص ١٥٧ : (قال : فهل معك شيء مما جاء به عبد الله) .

والصواب : (قال : فهل معك شيء مما جاء به عن الله ؟) .

٤٣ — ص ١٥٨ : (فأرسل إلينا ليبينا لنا) وفي الهامش : (المراد ليبين نا الرسولان) .

قرأ المصححون — خطأ — كلمة (ليسألنا) هذه القراءة المضحكة ، وفسروها هذا التفسير المضحك المبكي .

٤٤ — ص ١٥٩ : (كان مع عمرو وعمارة بن الوليد) .

والصواب : (كان مع عمرو عمارة بن الوليد) . إذهما رسولا قريش إلى النجاشي .

٤٥ — ص ١٦٠ : (فلما قربوا منه قاصب نفسه ومات) وفي الهامش : (من قصب يقصبه بمعنى قطع كما في القاموس المحيط) .

(قاصب): صوابها : (فاضَتْ) ولكن هكذا قرأها المصححون ، وهكذا فسَّروها .

٤٦ — ص ١٩٣ : (فخرج من مكة سرًّا خائفا في ثلاثين فارسا ليحل يمينه ، فنزل بجبل من جبال المدينة يقال له نبت) . وفي الهامش : (كذا في الأصل مرتين في مناسبتين ، وفي ابن هشام : ثيب ص ٥٥٩ ج ٢ وبحثنا عن الجبل بالقراءتين في حرف الثاء والباء فلم نجد شيئا ، وأقرب شيء إليه هو النباه على وزن حصاة ، قال (؟) وهو إسم جبل . وقال ياقوت أيضا (؟) : واختلف في هذا الاسم فروى على عدة وجوه . نقول : ولا يوجد شيء قريب من حرف الثاء . وعند ابن كثير « نيب » ج ٣ ص ٣٤٤ والغريب أن تهمل أعلام المغازي العلم على خلاف العادة) كذا !

وجاء في ص ١٦٤ : (إلى أن نزل بجبل يقال له نبت على نحو بريد من من المدينة) .

وأقول : كل هذا الكلام الطويل الممل لا معنى له ، فاسم الجبل (تيب) بالمثناة الفوقية بعدها مثناة تحتية ساكنة فباء موحدة ، وهو جبل لا يزال معروفا ، إذا كنت في مطار المدينة شاهدته في الجنوب الشرقي رأي العين ، ويقال فيه (تيأب) بالهمز ، أيضا .

ويبدل العامة باءه ميا فيقولون (تيم) وهم كثيرا ما يعاقبون بين الحرفين فيقولون في الرقم والهدم : الرقب والهدب .

٤٧ — ص ١٦٦ : (جهز رسول الله — ص — فاطمة في حميل وقربة ووسادة أدم حشوها أدجر) وفي الهامش : (الحميل هو الشيء المحمول من بلد إلى بلد ، — المحيط) و (بالأصل : ادخر — بالخاء الفوقية وتظنها أدجر بمعنى يبيس النبات (؟) بالجيم التحتية — المحيط — ونقترح أن نقرأ « أجدر » جمع جدر ، ولعله أراد أن يصور التقشف) !

صواب الجملة :(جهز رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة في خميل ووسادة أدم حشوها إذخر) .

والخميل والخميلة هي القطيفة . وكلمة (أدجر) صوابها : إذخر ، وهو نبت معروف في الحجاز . كانت تحشى به الوسائد، لأن ورقه لين يشبه لينه لين القطن .

أما اقتراح الإخوة المصححين فقد ورد في غير محلّه ! !

٤٨ — ص ١٦٦ : (وفيها توفي خنيس بن حذافة . . وتأممت منه حفصة) .

والصواب : (وتأيّمت) وتحريف الكلمة نشأ من عدم احسان القراءة مع جهل معنى التأيّم ، والا فما معنى (تأممت) ؟ !

٤٩ — ص ١٧١ : (فإن صدقوا وآمنوا بك آمنا بك ، فقص وخبرهم ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله) .

والصواب : (فقص خبرهم) ولا حاجة للواو .

٥٠ — ص ١٧٨ : (كانت غفار سوقة في الجاهلية) .

والصواب : (. . سرقة) ويؤيد هذه الأخيرة ما ورد عنهم في أول الكلام : (واتبعه سراق الحجيج من غفار) .

٥١ — ص ١٨٠ : (فبعث إليه سعد محمد بن مسلمة وأبا عيسى والحارث بن أخ سعد) وتكررت (أبو عيسى) ص ١٨١ وص ١٨٢ .

والصواب : (فبعث إليه سعد محمد بن مسلمة ، وأبا عبس ، والحارث بن أخي سعد) وهو أبو عبس بن جبر الحارثي – تهذيب التهذيب (١٢/١٥٦) والاستيعاب (٤/١٢٢) .

٥٢ – ص ١٨٥ : (فكلموا أبا سفيان ومن كان له في تلك العير تُجارا)

الصواب : (ومن كان له في تلك العير تجارة) . وفرق بين الكلمتين .

٥٣ – ص ١٩٣ : (وأصيبت أنامله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت باسم الله) إلخ .

والجملة هي : (وأصيبت أنامله فقال : حسّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت باسم الله) .

٥٤ – ١٩٣ : (لا تشرف يصيبك سهم) .

والصواب : (لا تشرف يصبْك سهم) .

جواب النهى ، وهو مجزوم .

٥٥ – ص ١٩٣ : (أما مرتين أو ثلاثة) .

والصواب : (أو ثلاثا) وهذا مما يدرك بداهة .

٥٦ – ص ١٩٤ (وقضموا رباعيته) وفي الحاشية إشارة إلى أن ابن كثير أورد (وقصموا رباعيته) وكلمة (وقصموا) هي الصواب ، فالمقام مقام قصْم – بالصاد المهملة – وليس مقام قضم بالضاد المعجمة .

٥٧ – ص ١٩٤ : (وكانوا قد سكوا أزقة المدينة بالبنيان حتى كانت كالحصن) وفي الهامش : (نقترح قراءة (شكوا) ونفترض وجودهم في السماع ، والأصح والأرجح أن نقرأ (سكروا) أي حبسوا وسدوا – القاموس المحيط) .

والجملة : (وكانوا قد سكوا أزقة المدينة بالبيبان) لا البنيان ، ، ومن هنا تتضح صحة الكلمة ، وعدم الحاجة إلى تلك الحاشية .

٥٨ – ص ١٩٥ : (فجاسوا العدو ضَرْباً) وفي الهامش : (كذا في الأصل) .

وهي (فحاسوا العدو ضرباً) من حاس – بالحاء المهملة لا بالجيم .

٥٩ – ص ١٩٧ : (فنظر حذيفة فإذا هو يأتيه اليمان فقال : أبي أبي) إلخ . .

الصواب : (فإذا هو بأبيه اليمان) فأبوه واسمه اليمان قتل في تلك الوقعة .

٦٠ – ص ١٩٩ : (ثائر برأسه) .

وهي : (ثائر رأسه) .

٦١ – ص ١٩٩ : (فناديته : يامعشر المسلمين) .

والصواب : (فناديت : يامعشر المسلمين) إذ لا مرجع للضمير هنا .

٦٢ – ص ١٩٩ : – في خبر قتل مسيلمة – قال : (فأرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه) وفي الهامش : (كذا في الأصل) .

وهي : (فأرميه بحربتي) إلخ .

٦٣ – ص ١٩٩ : (قالت جارية على ظهر بيت : وأمير المؤمنين قتله العبد الأسود . أخرجه البخاري) .

الصواب : (وا أمير المؤمنين ! !) إلخ – بالواو بعدها ألف حرف النُّدْبة ، فهي تندبه .

٦٤ – ص ١٩٩ : (سمعت سعداً يقول : نقل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته يوم أحد) .

والصواب : (نثل) أي اخرج لي سهامها ، ولا معنى لكلمة (نقل) هنـــا . .

٦٥ – ص ٢٠١ : (ثم ينقروا بطني) .

وهي : (يبقروا) : بقر البطن : شقّه .

٦٦ – ص ٢٠٤ : (فسألوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت امرأته) .

الصواب : (فسلوا أهله ما شأنه ؟ فسئلت امرأته) .

٦٧ ــ ص ٢٠٤ : (فلق بالحجارة) وفي الهامش : (في الأصل : فلدت والتصويب في السياق) .

الصواب : (فَدُثُّ بالحجارة) الدث الرمي بالحجارة .

٦٨ ــ ص ٢٠٢ : (لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شفر يطوف) .

والصواب : (يطرف) بالراء لا بالواو ــ والمقصود شفر العين ، ويطرف : يتحرك .

٦٩ ــ ص ٢٠٣ : (فلم يجدوا قتيلا إلا وقد مثلوا به ، إلا حنظلة بن أبي عامر ، وكان أبوه مع المشركين ، فنزل لأجله . فزعموا أن أباه وقف عليه قتيلا فدفع صدره برجله ثم قال : ذنبان أصبتهما ، قد تقدمت إليك في مصرعك هذا يادبيس) وفي الهامش : (كذا في الأصل ولم يسم العرب بهذا الاسم ، ومعناه اللغوي عسل التمر فالمراد النداء الحلو من الأب المشرك لابنه المسلم الشهيد) .

الصواب : (إلا حنظلة ابن أبي عامر ، وكان أبوه مع المشركين فترك لأجله) أما الحاشية الطويلة العريضة فقد أوردتها لطرافتها .

٧٠ ــ ص ٢٠٣ : (فدفن في ثمرة كانت عليه) وفي الهامش :(ورد لفظ ثمرة ونمرة في ابن كثير .. والمراد البردة التي كفن فيها الشهيد) .

والصواب : (فدفن في نمرة) .

والنَّمِرةُ نوع من الأقمشة التي يكتسى بها في ذلك العهد ، أتت كتب اللغة على وصفها .

٧١ ــ ص ٢٠٥ في خبر أبي بكر : (كنت أول من ناء يوم أحد) ، فرأيت رجلا يقاتل مع رسول الله ــ ص ــ دونه) .

والصواب : (أول من فاء) أي رجع ــ لاناء التي لا معنى لها هنا .

٧٢ .. ص ٢٠٦ : (وبين وبين المشرق رجل لا أعرفه) .

والصواب : (وبيني وبين المشركين رجل لا أعرفه) .

٧٣ ــ ص ٢٠٨ : (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رخى عن قوسه حتى اندقت سيتها) وفي الهامش : (كذا في الأصل غير ظاهرة) .

والجملة : (رمى عن قوسه) وسِيَةُ القوس طرفاها المنعطفان .

٧٤ ــ ص ٢٠٧ من شعر حسان في عتبة بن أبي وقاص :

فأخزاك ربي ياعتيب بن مالك وألقاك قبل الموت إحدى الصواعق

والصواب : (ولقّاك) إذ لقّى تتعدّى إلى مفعولين ، بخلاف ألقى .

٧٥ ــ ص ٢٠٨ : (فكانت أحسن عينيه وأحدها) .

والوجه : (وأحَدَّهُمَا)

٧٦ ــ ص ٢٠٨ : (ومص خالد بن سنان ابن أبي سعيد الدم عن وجهه ثم ازورود ، فقال رسول الله ــ ص ــ من مس دَمُهُ دمي لم تمسه النار) .

والصواب : (ومص مالك بن أبي سنان أبو أبي سعيد الدم عن وجهه ثم أزدرده) .

فخالد بن سنان هو أبو سعيد (الخدري) . وازدرده : بلعه .

٧٧ ــ ص ٢٠٨ : (وقال الواقدي .. عن المقداد بن عمر قال : فرمما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يوم أحد يرمي على قوسه ويرمي بالحجر ، حتى تحاجز أوتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو في عصابة صبروا معه) وهو المقداد بن عمرو البهراني ــ (لا ابن عمر)

فرمما : صوابها : فربما .

حتى تحاجز أوتيت : صوابها : حتى تحاجزوا وثبت رسول الله .

٧٨ ــ ص ٢٠٩ : (ان أبا حذيفة بن اليمان حليف الأنصار أصابه المسلمون في المعركة ، فتصدق حليف بدمه على من أصابه) .

وكلمة (حليف) صوابها : (حذيفة) كما تقدم .

٧٩ ــ ص ٢٢٠ : (وقال أبو بكر بن عباس عن يزيد بن أبي زياد) .

والصواب : (وقال أبو بكر بن عياش) وهو مترجم في « تهذيب التهذيب »[1] للحافظ ابن حجر .

---

(١) ج ١٢ ص ٣٤

٨٠ ــ ص ٢٢٦ : (فلما أتوا أداني أرض بني عامر بعث أربعة إلى بعيض نُبَّاههم ــ أو قال إلى بعضهم) .

الصواب : (فلما أتوا أدنى أرض بني عامر ، بعث أربعة ممن بعث إلى بعض مياههم ، أو قال : إلى بعضهم) .

٨١ ــ ص ٢٢٦ : (هل يرضي من حسان طعنة أطعنها عامرا ؟ قيل : نعم ، فشدَّ عليه فطعنه) .

الصواب : (هل يرضى حسان مني طعنة) الخ .

٨٢ ــ ص ٢٣٣ : (وكان اسمها بُرَّة ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية) .

وصواب الاسم (بَرَّة) بفتح الباء لا بضمها .

٨٣ ــ ص ٢٣٤ : (فقال الأنصاري : يا آل الأنصار ، وقال المهاجري يا آل المهاجرين) وفي ص ٣٠٠ أيضاً .

والصواب : (فقال الانصاري : يا للانصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين) .

٨٤ ــ ص ٢٣٩ : (ثم نقَّرت لي الحديث فلأكر راجعة) .

والصواب : (ثم بقرت لي الحديث فأكرّ راجعة) وتبقير الحديث : توسيعه وإيضاحه .

٨٥ ــ ص ٢٤٧ : أن صفوان قال :

لا تلق ْذباب السيف عني فإنني
غلام إذا هوجيت لست بشاعر

والصواب : تَلَّقَ ذباب السيف . وبه يستقيم الوزن .

٨٦ – ص ٢٥٣ : (فالحنوا إلى لحناً أعرفه) وهي : (فالحنوا لي لحناً أعرفه) .

٨٧ – ص ٢٥٤ : (أمرا تحبه فنصنعه ، أم بشيء أمرك الله به ؟) .

وهي : (أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به) .

٨٨ – ص ٢٥٥ : (في يده حربة يرقد بها) وفي الحاشية : (يرقد : يسرع . وفي الأصل يرقل – راجع ابن هشام ج ص ٢٢٦ ط الحلبي) .

والصواب : (في يده حربة يرقل بها) كما في الأصل

٨٩ – ص ٢٦٠ : عن غزوة الأحزاب (وقول موسى وعروة : إنها في سنة أربع وهمٌ بيّنٌ ، ويشهد قول عبيد الله عن نافع عن ابن عمر : عرضني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني ، فلما كان يوم الخندق عرضت عليه وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني ، فيحمل قوله تعالى على أنه كان قد شرع فى أربع عشرة ، وأنه يوم الخندق كان قد استكمل خمس عشرة ، وزاد عليها بعد ذلك الزيادة).

وكلمة (ويشهد) صوابها : (ويشبهه) كما يفهم من السياق كله .

٩٠ – ص : ٢٦٤ (إئتنى بخبر القوم ، ولا تدعوهم علي)

والصواب : (ولا تذعرهم علي) كما في ص ٢٦٥ .

٩١ – ص ٢٦٨ : (أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى فقلت : أنى ابن عتيك بهذه البلاد) ؟

والصواب : (. . أنّىَ ابن عتيك بهذه البلاد) ؟

٩٢ – ص ٦٩ :٢ (فدخلت فكثت) وهي (فكمنت) كما في صحيح البخاري .

٩٣ – ص ٢٧١ : (إنه ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة) .

وهي : (آية ما بينك) الخ .

٩٤ – ص ٢٧٣ : (متفق عليه . ومر أيضاً من حديث عبد الحميد بن جعفر ، عن المقبري به . وخالفهما محمد بن اسحاق) .

كلمة : (ومر أيضاً) : صوابها (وم أيضاً) أي روى الحديث الإمام مسلم . وقد أوضح المؤلف في المقدمة أنه يرمز لاسم (مسلم) بحرف (م) وقد حرّفها الإخوة المصححون حيث لم يفهموا معناها .

٩٥ – ص ٢٧٧ : (فلو أذنت لنا فردنا إلى الإبل) .

الصواب : (. . . فرحنا إلى الإبل) .

٩٦ – ص ٢٨٣ : (فإن قعدوا قعدوا موتورين ، وان يجيئوا يكن عنقاً قطعها الله) .

والصواب : (وإن يَحْنُوا تكن عُنُقاً قطعها الله) .

٩٧ – ٢٨٥ : من كلام عروة بن مسعود الثقفي لقريش في خبر الحديبية : (ألستم تعلمون أني استنقرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني) .

والصواب : (ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلما بلحوا علي جئتكم) .

٩٨ – ص ٢٨٨ : (والله ما شكلت منذ أسلمت) وفي الهامش : (شكل الأمر وأشكل بمعنى التبس – القاموس – وفي نهاية الارب :

والله ما شككت . وفي مغازي الواقدي : ارتبت ارتياباً لم أرتبه منـــذ أسلمت) .

والصواب : (ما شككتُ) من الشك .

٩٩ ــ ص ٢٩٧ : (درأ رجل رجلا من الفريق الآخر) وهي : (إذ رَمَىَ رجل رجلا من الفريق الآخر) .

١٠٠ ــ ص ٢٩٨ : (الجد بن قيس محتبيا إبط بعير)

وهي : (الجد بن قيس مختبئاً تحت إبط بعير) .

١٠١ ــ ص ٣٠١ : (وقال هشام بن عروة : حدثنا الوليد قلت : ورواه دحيم بن الوليد) .

والصواب : (دحيم عن الوليد) .

١٠٢ ــ ص ٣٠١ : (أخبرتني أم ميسر أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وهي : (أم مبشر) كما في إحدى نسخ الأصل .

١٠٣ ــ ص ٣٠٦ : (وأصحابه مخالطهم الحزن) وفي الهامش : (في الأصل مخالطوا وما أثبتناه عن تفسير البغوى بهامش تفسير ابن كثير ٥١٧/٧) .

والصواب : (وأصحابه مخالطوا الحزن) كما في الأصل .

١٠٤ ــ ص ٣٣٩ : (هات ما سمعه . قال : سمعته يقول)

والصواب : (هات ما سمعتَهُ) الخ .

(للحديث صلة)

حمد الجاسر

التاريخ العربي وجغرافيته

– ١ –

أكرمني أخي الأستاذ أمين مدني فأتحفني بنسخة من كتابه « التـاريخ العربي وجغرافيته » وهو الجزء الثالث من مؤلفه . « العرب في أحقاب التاريخ » وقد أفضل فأضفى علي صفة (الرائد) ولا يسعني إزاء فضله هذا أن أدع جهده العظيم الذي بذله في تأليف هذا الكتاب بدون أن أبدي رأيي حيال ما جاء فيه من طريف الآراء ، وأصفه بالطرافة لأنه جدير بذلك .

وستكون كلمتي عن هذا الكتاب مبنية على اعتبارات ذكرها المؤلف الكريم منها : —

١ — تبلور نتائج لم يُعنَ بجمعها محقق من المؤلفين (ص ٤٨٠) .

٢ — وكلُّ نتيجة تقف مفردةً سيَستَهدفُها النقد (ص ٤٨٠) .

٣ — فالنقد بمعناه الصحيح ضروريٌّ ، في مثل هذه البحوث ، لسلامة تاريخنا من الشوائب التي ما زلنا في حاجة إلى إزالتها (ص ٤٨١) .

ويحسن أن نعرض بإيجاز محتويات هذا الجزء ، فقد فصله المؤلف إلى فصول تسعة :

الفصل الأول : تحدث فيه عن العرب وأرضهم .

الفصل الثاني : عن أقسام الجزيرة ، ضمنه بعض الآراء في بيان أقسامها وتاريخها

الفصل الثالث : الحجاز : جغرافيته وسكانه .

الفصل الرابع : نجــد سكانه وجغرافيته .

الفصل الخامس : العروض وحدوده وسكانه .

الفصل السادس : تهامة حدودها وسكانها .

الفصل السابع : اليمن في موكب الحضارة والسياسة .

الفصل الثامن : الهلال الخصيب تحدث فيه عن العراق وعن الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) .

الفصل التاسع : عن مصر العـمَّـليقيّة العربية ، حيث اعتبرها جزءاً من جزيرة العرب فتحدث عن حدودها وعصورها .

وجاءت هذه الفصول في ٥٣٢ صفحة ، بما فيها المقدمة ، ثم أتبعها بفهارس للاعلام والأماكن من ص ٥٣٣ إلى ٥٨٤ صفحة .

يضاف إلى ما تقدم عشرون خريطة إحداها ملونة .

ولا يتضح ما بذله المؤلف الفاضل من جُهْد إلا لمن اطلع على كتابه اطلاع الباحث ، وعانى ما يعانيه كُلُّ مُهْتَمٍّ بدراسة تاريخ العرب في عهودهم القديمة .

ولا أعتقد أن المؤلف حينما ذكر وظيفة النقد الصحيح أتى بذلك اعتباطاً ، وإنما كان يعني ما يقول ، وأنه أراد أن يكون لكتابه هذا منه نصيب ، وهو أجل من أن يعتقد أن كل ما أورده من الآراء في مَنْأى عن النقد .

ولقد تحدثت في أحد أجزاء مجلة « العرب »[1] عن الجزء الثاني من هذا الكتاب حديثاً لم يوافقني المؤلف الفاضل على ما فيه من ملاحظات ، بل نشر رداً على ما كتبت في « جريدة المدينة » فكان أن نقلت هذا الرد ونشرته بنصه في مجلة « العرب »[2] ولم أعلق عليه بحرف ، لأني رأيت من حق من قرأ ما كتبته عن الكتاب أن يعرف رأي مؤلفه حياله .

وأنا حين أتحدث عن هذا الجزء لست على ثقة بأن المؤلف الكريم سيوافقني على ما سوف أبديه من آراء ، لأنني أسْتَشِفُّ من خلال عباراته أنه يسوق بعضها مساق الواثق بصحتها . ومن الصعب أن يعدل المرء عن أمر يراه حقاً ، كما أن من الصعب أن يعتقد امرؤٌ صحة رأي قبل أن يتضح له من براهينه وأدلته ما يحمله على الاعتقاد بصحته . ومن الخطإ حقاً أن يثق المرء بجميع ما يبديه من آراء .

---

(١) صفحة ٢٣٤ - ٢٣٩ السنة السابعة .
(٢) ص ٤٦٤-٧٧ السنة السابعة .

ومن عادتي أن لا أهتم إلا بقراءة الكتب التي أراها جديرة بالقراءة ، ومتى قرأت الكتاب فقد تنطبع في ذهني بعض الملاحظات فأحب أن أشرك فيها القراء وهذا ما كان مني بعد أن تصفحت هذا الكتاب .

١ ـ حول حدود جزيرة العرب وأقسامها :

لا أريد إشغال ذهن القارىء والإطالة عليه بايراد أقوال المتقدمين في تحديد الجزيرة وذكر أقسامها في الكتب المؤلفة عن المواضع وفي كتب اللغة ، من تلك الأقوال ما يعرفه كل معنيٍّ بدراسة جغرافية الجزيرة [١] .

والمؤلف الكريم ممن اطلع على تلك الأقوال اطلاع الباحث الدارس ، ولكنه أتى على كثير منها بالنقد ، وجاء بآراء جديدة وطريقة حقاً تخالفها ، فمن ذلك على سبيل المثال اعتباره العراق والشام كله والصحراء الشرقية من وادي النيل من جزيرة العرب ، ولم يكتف بذلك بل وصم من لم يعتبر تلك الأجزاء من الجزيرة بأنه ممن وقع في شباك المزاعم الاستعمارية (ص ٩ ص ٦٢) .

أنا أعتقد أن القضايا العلمية يجب أن لا تتأثر بالعاطفة ، وأن بعض العلماء الذين حددوا الجزيرة فلم يدخلوا تلك الأقسام لم ينظروا إلى أوضاع الجزيرة في عهودهم كنظرتنا إلى أوضاعها في عهدنا ، ثم إنهم لم يتأثروا في تلك العهود الماضية بما عرفناه في عهدنا الحاضر باسم (الاستعمار) ولكنهم لاحظوا حالة العرب في تلك العصور والبلاد التي كان نفوذهم فيها قوياً وغالباً ، والأقطار التي تمتد سيطرتهم عليها ، ومن هنا حددوا جزيرة العرب كما عرفوها وكما هو الواقع في عهودهم .

يبقى أن نقول : هل لنا أن نحدد تلك الجزيرة في عهدنا وأن نغير

---

(١) في موضع آخر من هـذه المجلة بحث مطول عن هذه الأقسام (ص ٧٤٧ إلى ٧٩٧) .

أمن ، بعض أجزاء منها [illegible] على [illegible] عواطفنا في هذا العصر ؟ هذا يسوغ هذا حينما نريد أن نؤلف أي تأليف كان ، باستثناء التاريخ والجغرافية فهما علمان يقومان على أساس الماضي وعلى الوضع الطبيعي للبلاد ولا دخل للعاطفة فيهما ، وليس في الاستطاعة تغيير الماضي ، أو التأثير في الوضع الطبيعي الجغرافي للبلاد .

ووضع مصطلحات حديثة وتغيير الأسماء القديمة في الأماكن الجغرافية وإن كان ميسوراً لكل أحد — كما حاول المؤلف حينما سمي الخليج الشرقي للجزيرة (الخليج الإسلامي) ولكن مجرد التسمية لا أثر لها ، ولا تغير من الماضي شيئاً . والمؤلف يتحدث عن الماضي حديث المؤرخ ، وهو يتحدث عن حقائق جغرافية وتلك ترتكز على أسس ثابتة لا يستطاع تغييرها .

حدود نجـد :

وللأستاذ أمين مدني في تحديد نجد رأيٌ طريف حقاً وغريب أيضاً ملخصه — كما جاء في كثير من عباراته وكما يتضح من رسمه في الخريطة التي قال إنها (وضعت على ضوء أقوال قدامى جغرافي العرب) وألحقها بالكتاب ، يحده من الناحية الغربية خط يوشك أن يكون مستقيما يمتد من حرة الهتيمة الواقعة غرب فيد ، بقربه ، صوب الجنوب حتى جبال القهر الواقعة شرق بلاد عسير — أي من درجة الطول ٤٢/١٥° إلى ٤٤/٢٥° (ويحده من الجنوب اليمن ، أما من الشرق فقد تداخلت حدوده مع حدود إقليم العروض) .

والحد الشمالي لنجد بادية الشام والعراق .

والمؤلف الكريم يتخذ من أقوال المتقدمين قاعدة لما بني عليه آراءه في هذا التحديد ، ومن تلك الأسس حسب رأيه :

١ — ان اسم نجد يطلق على نجود كثيرة (ص ١٩١) .

٢ — ان جواد علي نقل أن علماء العرب يقسمون نجد إلى قسمين نجد

العالية وهو ما ولي الحجاز ، وأن شرف عبد المحسن البركاتي يعد القسم الشمالي من نجد وهو حائل وما والاها ـ أنه يسمى نجد الحجاز (ص ١٩٢).

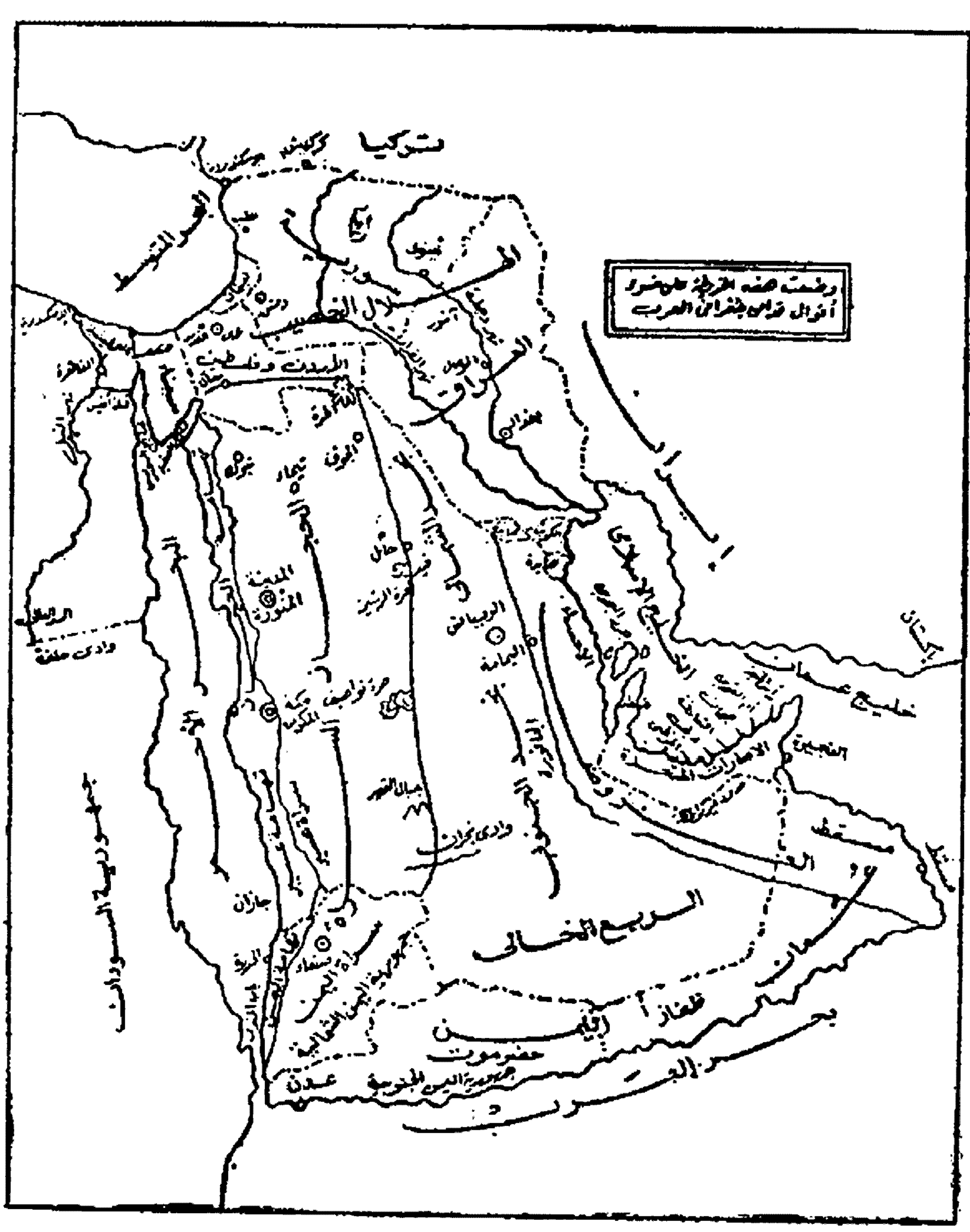
٣ ـ أن الأصمعي يقول : إذا عرضت لك الحرات بنجد قبل ذلك الحجاز ، والحرار تعرض لك من وراء فيد حيث توجد حرتا الهتيمة والدهامة (ص ١٩٣) .

٤ ـ أن ما ورد في كلام بعض المتقدمين من تحديد نجد من الناحية الغربية بأنه : (ماسال عن ذات عِرْقٍ مقبلا فهو نجد) ذات عرق موضع من الأماكن التي ذكرها ياقوت ، والعروق التي ذكرها ياقوت في معجمه تراها منثورة على خريطة الجزيرة العربية بأسمائها الحديثة ، والعرق لغة الجبل . والذي يبدو ـ وهذا نص كلام المؤلف ـ أن المقصود من هذه المواضع هو أحد العِرْقين : عرق سبيع أو عرق الوادي حيث تراهما قريبين من حدود الحجاز (ص ١٩٣) .

٥ ـ أما قول : من رأى حَضَناً فقد أنجد . فحضن هذا بعيد عن الطائف ، وفي معجم ياقوت : اسم لجبال منها حضن جبل قريب من ديار سليم ، ومنها حضن جبل بالعالية ، وقيل جبل ضخم بناحية نجد . ومنها حضن من جبال سلمى (ص ١٩٥) .

٦ ـ وكأنَّ المؤلف الفاضل وقد قال : (كانت أقوال القُدامى وما زالت ، موضع بحث ونقاش عند كل من بحث في جغرافية نجد وتاريخه ، ولا يجد الباحث في تحقيق المتأخرين الوضوح الذي نجده في أقوال المتقدمين ، فلم تتضح حدود نجد الحديث في بحوث المتأخرين (ص ١٩٤) كأنه أراد أن يستريح ويريح القارىء فأتى بذلك التحديد العجيب الغريب لإقليم نجد وحصره في رقعة ضيقة ، وحمَّلَ أقوال المتقدمين من الجغرافيين ما لا تحتمل وفسَّرها بما لا يتفق مع المقصود منها .

ولا نريد أن نسترسل في بحث هذا الموضوع ولكننا نكتفي بإيضاح بعض جوانب من أقوال المتقدمين ، لا نقول : إنها خفيت على الأستاذ المؤلف



(نجد كما في الخريطة التي رسمها المؤلف وقال : إنها على ضوء
أقوال قدامى جغرافيي العرب !!!)

أمين مدني ، ولكننا نعتقد بأننا لا نجد أحداً من القراء يفهم منها ما فهمه الأستاذ أمين .

وقبل ذلك تنبغي الإشارة إلى أنَّ كثيراً من المتقدمين من يحدد أقاليم الجزيرة متأثراً بوضعها السياسي أو الإداري في عهده فيدخل أقساماً من هذا القطر في قطر آخر ، ومنهم من يقف في تحديده على المعنى اللغوي ، ومنهم من لاحظ التقسيم الجغرافيّ ، ولاحظ أن كثيراً من أقسام الجزيرة لا توجد بينها فواصل طبيعية ، تفصل كل قطر عن الآخر ، وإنما هناك صفات بارزة لكل قطر تختص به دون غيره ، ومن هنا كان التقسيم الجغرافي الدقيق لتلك الأقطار غير واضح في كثير من أقوالهم لكل أحد .

ولا شك أن المؤلف قد أدرك هذا ، وأورد أقوالا تتعلق به ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من الوقوع في الخلط بين المدلول اللغوي لبعض الأسماء وبين المدلول الجغرافي .

ومن أمثلة ذلك أنه أدخل في إقليم الحجاز أجزاء واسعة ، ليست منه ، بمجرد كونها ذات جبال . ولم يدرك أن كلمة (حجاز) لا يمكن تطبيقها كلها متى وردت على الإقليم المعروف بهذا الإسم ، وان يكن ادرك ذلك فهو لم يأخذ به . لأنه اعتبر قول بعضهم : (وما احتجز به من شرقيه من الجبال وانحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازاً والعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً). اعتبر المواضع المذكورة من الحجاز ولم يلحظ الأستاذ أمين أن المقصود بكلمة (حجاز) هنا هو المعنى اللغوي على حدّ قول الأخنس بن شهاب التغلبي [1] :

وَنَحنُ أُنَاسٌ لا حِجَازَ بأرضِنَا ... مِن الغَيْثِ ما نَلْقى وماهُوَ غالبُ

---

(١) من قصيدة في « المفضليات » .

وقول ابن الوزير المغربيّ في كتاب « أدب الخواص[1] » : وكذلك يسمى العرب كُلَّ جبل حجز بين أرضين حجازا ، قال حُريث بن عتّاب النبهاني الطائيّ :

لَنَا نسوَةٌ لم يجرِ فيهنّ مَقْسَماً — خميسٌ ولا بَعْدَ التَّساهمِ مُرْبِعُ
حَماهنّ من نَبْهان جَمعٌ عرمرَمٌ — وصُمّ العوالي، والحجازُ المُمَنَّعُ
يرَى خارجيّاً لا يزالُ إذا بَدا — تُشيرُ لَهُمْ عيْنٌ إليه وأصْبُعُ

يعني بالحجاز هاهنا جبل طيء . والخارجي عنا به أنه ظهر وبدا للعيون . انتهى .

ونعود لنوضح للقارىء جوانبَ من خطأ الأستاذ أمين مدني في تحديده لإقليم نجد ، إذ التوسع في الموضوع يقتضينا إفراده بمؤلف ، وهذا مما لا حاجة إليه :

إن أبرز أعلام حدود نجد الغربية هي جبل حَضَن ، وموضع ذات عرق، والحرار ،فلنحاول إيضاح هذه الأعلام التي وردت في أقوال المتقدمين :

جبل حضن :

لا وجه لنفي المؤلف أن المقصود من جبل حضن - الجبل المعروف شرق الطائف . لأن هذا الجبل هو أشهر جبل عُرف بهذا الاسم ، وهناك من المتقدمين من أدخل الطايف في إقليم نجد لوقوعها شرق السلسلة الجبلية المعروفة باسم الحجاز ولإطلال كثير من قراها ومواضعها على جبل حضن . .

أما ما نقله عن ياقوت من أن حضناً اسم لجبال فينبغي تصحيحه فكلمة (اسم لجبال) لم ترد في كلام ياقوت ، وها هو نص ما ورد في « معجم البلدان » : حَضَن : بالتحريك ؛ وهو في اللغة العاج : وهو جبل بأعلى نجد ، وهو أول حدود نجد ، وفي المثل : أنْجَدَ من رأى

---

(١) نشرت مجلة « العرب » الجزء الموجود منه

حضناً . أي من شاهد هذا الجبل فقد صار في أرض نجد ، وقال السكري في قول جرير :

لوْ أنَّ جمعَهُمُ غداةَ مُخاشِنٍ   يُرْمَى بهِ حَضَنٌ لكادَ يزُولُ

حضن : جبل بالعالية ، ومُخاشِن : جبل بالجزيرة ، وقال يزيد بن حذاق في أخبار المفضَّل : — ثم أورد أبياتاً منها — :

فإنْ تبعَثُوا عيناً تمنَّى لقاءَنا
يَرُمْ حَضَنًا ، أوْ من شمام ضَبيِسْا

وقال نصر : حضن جبل مشرف على السيِّ إلى جانب ديار سُليم ، وهو أشهر جبال نجد ، وقيل : جبل ضخم بناحية نجد ، بينه وبين تهامة مرحلة ، تبيض فيه النسور ، يسكنه بنو جُشَم بن بكر ، وقال أبو المنذر في كتاب « الافتراق » : وظعنت قُضاعة كلها من غور تهامة ، بعد ما كان من حرب بني نزار لهم واجلائهم إياهم ، وساروا مُنْجدين فمالت كلب بن وبرة إلى حضَن والسيِّ وما صاقبه من البلاد ، غير شكم اللات بن ثور بن كلب فإنهم انضموا إلى فهم بن تيم اللات بن أسد بن وبرة بن تغلب وصاروا معهم ولحقت بهم عُصَيْمَة بن اللبو بن أمرمناة بن النمر بن وبرة فانضمت إليهم ، ولحقت بهم قبائل من جرم بن ربَّان فثبتوا معهم بحضن فأقاموا هنالك وانتشرت قبائل قضاعة في البلاد

وحضن أيضاً : من جبال سلمى ، عن نصر . انتهى كلام ياقوت .

وعلى هذا فإن كُلَّ كلام ياقوت ينطبق على جبلين : أشهرهما الواقع شرق الطايف والثاني جبل يقع متصلا بجبل أجا ، وليس من جبال سلمى بل هو واقع غربها ، يفصل بينهما جبل رمَّان وجبال أخرى . وقول ياقوت : إنه جبل بالعالية ، وأنه مشرف على السيِّ إلى جانب ديار سليم ، وأنه أشهر بلاد نجد ، وأن بينه وبين تهامة مرحلة وأنه من مساكن بني جُشَم وأن بني عُصَيْمَة ومن معهم مكثوا في حضن [1] . فكل هذه الأقوال تنطبق

(1) ولا تزال بنو عصيمة (العصمة) وبنو جشم (الجشمة) تحلان قريبا من حضن غربه ، في نواحي الطائف .

على مسمى واحد وهو جبل حضن المعروف وكل من لديه إلمام بمعرفة مواضع الجزيرة يدرك هذا .

وياقوت رحمه الله وغيره من المتقدمين ينقلون في تحديد الموضع الواحد أقوالا متعددة في حدود ذلك الموضع ،وبعبارات مختلفة فنجد أحد المتقدمين يحدد الموضع بذكر سكانه ، وآخر يحدده بوصفه كقوله : تبيض فيه النسور لعظمه ، وثالث يحدده بالنسبة لما حوله من المواضع كقوله : جبل مشرف على السيّ ،والسيّ هو صحراء رُكْبَة وهكذا ، ومن ليس لديه دربة ومعرفة بطرق المتقدمين في تحديد المواضع يتخيل أن مثل تلك الأقوال تنطبق على مواضع متعددة .

ذات عرق :

أما رأي صديقنا الأستاذ أمين حول ذات عرق فلا أعتقد أن قارئاً واحداً يوافقه عليه ، فالمتقدمون قالوا عن عرق (ذات عرق) : هو جبل أحمر يرتفع حين تجاوز بطن العقيق مشرفاً على تهامة [1] .

وقالوا : ذات عرق مَهَلّ أهل العراق ، وهو الحد بين نجد وتهامة وقال الأصمعي : ما ارتفع من بطن الرُّمة فهو نجد ، إلى ثنايا ذات عرق ، وعرق الجبل المشرف على ذات عرق وقال ابن عُيَيْنَة : إني سألت أهل ذات عرق : أمتهمون أنتم أم منجدون ؟ فقالوا : ما نحن بمتهمين ولا بمنجدين [2] .

وإذن فذات عرق هي المكان الذي يُهلُّ منه الحجاج القادمون من العراق عن طريق نجد — أي يحرمون — ويهل منه حجاج شمال نجد وهو المعروف الآن اسم الضَّرِيْبة ، لا يشك في ذلك أحد .

ومع أن الأستاذ أمين المدني يدرك أن العرْق هو الجبل ، فقد وقع في هفوة شنيعة بل هفوتين إحداهما حينما قال : (يبدو أن المقصود من هـذه المواضع هو أحد العرقين عِرْق سبيع أو عرق الوادي حيث تراهما قريبين من حدود الحجاز) فهذان العرقان ليسا جبلين ، بل رمال ممتدة طويلة ،

---

(١) كتاب « المناسك ص ٣٣٥ . (٢) معجم البلدان .

ثم هما في وسط نجد ، وليسا قريبين من حدود الحجاز إلا إذا أردنا أن نق
عبارات المتقدمين وأن نتحكم فيها حسب ما يبدو لنا ، وهذا ما نربأ بباحث
كالأستاذ أمين من الوقوع فيه .

الحرار :

استدل الأستاذ أمين المدني على حدود نجد الشرقية بقول الأصمعي : فإذا عرضت لك الحرار بنجد قيل ذلك الحجاز . هذا قائلا : (والحرارَ تعرض لك من وراء فَيْد حيث توجدُ حرَّتا الهتيمة والدهامة ١٨٤ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٩) فلنرجع إلى كلام الأصمعي كاملا ونصه في « معجم البلدان » لياقوت : قال الأصمعي : ما احتّزمت به الحرار ، حرة شوران وحرة ليلى وحرة واقم ، وعامة منازل بني سليم إلى المدينة ، فذالك الشق كله حجاز . وقال أيضاً في كتاب « جزيرة العرب » : الحجاز اثنتا عشرة داراً : المدينة وخيبر وفدك وذُو المروة ودار بَليٍّ ودار أشْجَع ودار مُزَيْنة ودار جُهينة ونَفَرٌ من هوازن، وجُلُّ سُليم وجُلُّ هلال ، وظهر حرة لَيْلى، ومما يلي الشام شَغْبٌ وبَدَا . وقال الأصمعي في موضع آخر من كتابه : الحجاز من تخوم صنعاء من العبلاء وتَبالة إلى تخوم الشام ، وإنما سمى حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد ، فمكة تهامية والمدينة حجازية والطائف حجازية . انتهى .

وفي « معجم البلدان » أيضاً عن الأصمعي : العرب تقول : إذا خلفت عجلزاً حتى تنحدر إلى ثنايا ذات عرق . فإذا فعلت ذلك فقد اتهمت إلى البحر ، وإذا عرضت لك الحرار فتلك الحجاز) .

وعلى هذا فالأصمعي قد أوضح الحرار التي تحدُّ الحجاز وليس من بينها حرتا الهتيمة والدهامة . وكأنَّ الأستاذ المدني ألقى نظرة على الخريطة فشاهد الحرة الواقعة غرب فيد ، فظنَّ أن كل حرة ينبغي أن تكون داخلة في الحجاز وهذا خطأ ، فالحرار قد توجد في غير الحجاز ففي طرف الدهناء الغربي حرة رماح فهل نقول على هذا أن الحجاز يحده شرقاً طرف الدهناء الغربي؟!

لا تزال الحرار التي ذكرها الأصمعي معروفة بأوصافها إن لم تكن

معروفة بأسمائها ، وتكاد أن تكون امتداداً لسلسلة جبال الحجاز التي تقع المدينة في طرفها الشرقي حيث تنفصل سلسلة الجبال للمتجه من المدينة إلى نجد وتضعف ، ومن هنا ذهب بعض المتقدمين إلى اعتبار المدينة من بلاد نجد[1] وأن الحجاز يبتديْ شرقها من ثنايا العرج وهذا قول مرجوح فهي داخلة بين حنايا السلسلة الجبلية وأطراف تلك السلسلة تمتد منها شرقاً بميل نحو الشمال حتى الحناكية (نخل قديماً) بل تتجاوز ذلك حتى تتصل بجبال العلم المتصلة بحرة خيبر ، ثم تمتد الحرار نحو الشمال .

إن الحرار التي ذكر الأصمعي هي :

١ ــ حرّة شوْران : الحرّة المُطلة على سدّ العاقول بقرب المدينة .

٢ ــ حرّة ليلى : هي الحرّة المتصلة بحرة خيبر من الغرب ، المعروفة الآن باسم حرة اثنان وحرّة هتيم وحرّة ضرغد، كل ناحية منها تدعى باسم[2] .

٣ ــ حرّة واقم : هي حرّة المدينة التي جرت فيها الوقعة المعروفة ، وهي متصلة الآن بعمران المدينة ، بل تجاوزها .

فأين حرّة الهتمة من هذه الحرار ، وهي حرّة لم تكن معروفة بهذا الإسم إلا في عهد متأخر ؟ !

والغريب من الأستاذ أمين مدني أنه لما أورد قول : (الحجاز ما احتجزت به الحرار) أضاف : (الحرار التي ذكرها ياقوت هي حرة أوطاس) وسرد ما جاء في معجم البلدان « من أسماء الحرار ومنها : (حرّة رماح وحرة شرج وحرة ضارج)[3] :

وحرة رماح في غربي الدهناء ، وحرة شرج شمال شرق القصيم ، وضارج في وسط القصيم ، فهو بعمله هذا أوصل حدود الحجاز الشرقية إلى قرب الدهناء ! (للحديث صلة) حمد الجاسر

---

(١) جاء في كتاب « المناسك » ص ٥٣٧ : (وقال ابن الكلبي : ونجد فيما بين الحجاز إلى الشام إلى العذيب ، والطائف من نجد ، والمدينة من نجد) .

(٢) والأصمعي في تحديده كان دقيقاً فلم يدخل كل حرة ليلى ، بل قال (ظهر حرة ليلى) على مانقل عنه الأستاذ أمين مدني (ص ١٨٢) فشرقي الحرة وهو ضفنها ومسايل أوديتها الشرقية تـ[illegible]ـد من منطقة (عدنة) وتلك في نجد .

(٣) صفحة ١٨٢ .

ابن السيد البطليوسي الأندلسي

- ٢ -

ابن السيد وأبو العلا :

وكان المعري ، من بين جميع الشعراء ، أكثر إعجاباً ، وأوسع تأثيراً ، وقبولا ، عند المغاربة ، ولم يكد يظهر شعره في الشرق ، حتى ذاع صيته في الأندلس، ووصلت دواوين شعره وجميع آثاره إلى الأندلس في حياته ، وتلقاها الناس بالقبول ، ووجدت لها جواً مناسباً وبيئة صالحة لذيوعها ، وانتشارها ، وأقبل الشعراء ، والأدباء والعلماء، على حفظها ، ودراستها ، كما أقبل عليها الأمراء ، وأعجبوا بها إعجاباً كبيراً ، حتى أن أبا بكر ، محمد بن عبدالله المظفر ، صاحب بطليوس ، وأديب ملوك عصره :(كان ينكر الشعر على قائله في زمانه ، ويقيل رأي من ارتسم في ديوانه ، ويقول : من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو المعري فليسكت ولا يرضي بدون ذلك [١] .

وكانت آثاره قد دخلت الأندلس ، إما بطريق الراحلين من الأندلس إلى المشرق ، أو بطريق الوافدين من المشارقة على الأندلس . فمن الراحلين إلى المشرق ، الآخذين عن المعري ، أبو الربيع سليمان بن أحمد السرقسطي ، وأبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي ، وأبو عبدالله بن جابر القرطبي . ومن الوافدين على الأندلس ، من تلاميذ المعري أبو الفضل البغدادي ، وأبو عمرو السفاقسي وغيرهما [٢] .

---

(١) أعمال الاعلام ص ١٨٤ ومقدمة الانتصار ص « ش »

(٢) مقدمة الانتصار . ص « ش » .

وكذلك فإن الأندلسيين قد تناولوا آثار المعري شرحاً ومعارضة . فمن المعارضين له ، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، صاحب رسالة « الساجعة والغريب » التي عارضه بها في « الصاهل والشاحج » كما عارضه في خطبة الفصيح ، وسقط الزند » بالإصلاح وثمرة الأدب » . ومنهم أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الذي عارضه في خطبة «الفصيح » بكتاب سماه « جهد النصيح » ، وأبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي ، صاحب « المقامات اللزومية الشهيرة » ، وأبو عبد الله محمد بن مسعود ابن أبي الخصال الغافقي ، وزير يوسف بن تاشفين ، وصديق صاحبنا ابن السيد ، كان قد عارض المعري في « ملقى السبيل » [1] .

أما صاحبنا ، أبو محمد ابن السيد ، فإنه لم يكن من المعارضين للمعري ، وإنما كان من المعجبين به ، المعتنين بآثاره ، الشارحين لها . فقد درس شعره ، وحفظه ، وفهمه حق الفهم ، وقدره حق قدره . انظر إليه كيف يعترف بمكانة المعري وشعره : « ولعمري إنه شعر ، قوي المباني ، خفي المعاني ، لأن قائله سلك به غير مسلك الشعراء ، وضمنه نكتا من النحل والآراء ، وأراد أن يرى معرفته بالأخبار ، والانساب ، وتصرفه في جميع أنواع الآداب ، فأكثر فيه من الغريب ، والبديع ، ومزج المطبوع بالمصنوع ، فتعقدت ألفاظه ، وبعدت أغراضه [2] » .

وقد رأى في شرحه أن ترتيبه على حسب الحروف المعجمة أتم في الوضع ، وأجمل للتصنيف ، فاحتاج لذلك ، إلى أن يزيد فيه من شعره ، ليكون أوفى للغرض ، وأنفع ، فأضاف إليه قدراً كبيراً من اللزوميات ، وجامع الأوزان ، وكتبه الأخرى [3] .

---

(١) تعريف والقدماء بالمعرى ص ٤٤١ — ٤٤٥ ومقدمة الانتصار ص « ت » وابو العلاء وما إليه ص ٢٠٤ .

(٢) شروح سقط الزند ص ١٥ .

(٣) نفس المرجع .

« وهو (في شرحه لآثار المعري) ناقد ، دقيق الفهم ، صافي الحس ، وقد أعانه هذا ، وما له من غزارة الحفظ ، وسعة الإطلاع ، وتحققه في علوم الفلسفة ، والمنطق ، وغيرها ، من فهم أغراض أبي العلاء ، وإدراك خفي معانيه . وكذلك كان عوناً له في دقة الموازنة ، وسلامة المقارنة ، وفي تتبعه للمعنى ، حتى يدرك أول من قاله ، ونبه عليه ، وفي تعقبه لأصل الخاطر ، فلا يدعه حتى يصل إلى مبتدعه » [1] .

نبذة من آراء القدماء والمحدثين في ابن السيد

١ – قال الفتح ابن خاقان في شيخه :(الفقيه الأجل ، أبي محمد عبد الله بن السيد أدام الله علوّه ، وتاج مفرقه ، وهلال أفقه ، ومهبّ نفح صراره ومحلى أنواره ومجلى أنجاده وأغواره ما نصه : « إنه ضارب قداح العلوم ، ومجيلها ، وغرة أيامنا البهية ، وتحجيلها ، لو أدركه قيس لما قضى للحلم وتراءى ولا شفعا ، ولو عاصره ابن العاصى لما ادعى ضرا ، ولا نفعا ، حلب الدهر أشطره ، وتلا حروفه وأسطره ، وخدم الرياسات ، وعلم طرق السياسات ، ونفق ، وكسد ، ووقف وتوسد ، وهو اليوم شيخ المعارف ، وإمامها ، ومن يديه مقودها ، وزمامها ، لديه تنشد ضوال الأعراب ، وتوجد شوارد اللغات ، والإعراب ، إلى مقطع دمث ، ومنزع في النفاسة غير متنكث ، وندى خرق به العوائد ، أورق عوده في يد الرائد ، وعفاف كف حتى عن الطيف ، ومكي الحرمين بالخيف ، ولقد نزلت منه بالنقى الطاهر ، ولقيت منه ما لقي عوف بن محلم من ابن طاهر ، ورأيت نار مكارمه تتألق ، وبت كأنما على النار الندى والمحلق ، وله تحقق بالعلوم الحديثة ، والقديمة ، وتصرف في طرقها المستقيمة ، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع ، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع ، وتواليفه ، في الشروحات ، وغيرها صنوف ، وهي اليوم في آذان الأيام شنوف ، فنها « المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس » و « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » ، وكتاب « التنبيه على

---

(١) مقدمة الانتصار ص « ض » .

على السبب الموجب لاختلاف العلمـــاء في اعتقاداتهم ، وآرائهم ، وسائر أغراضهم ، وأنحائهم » ، وغير ذلك » [1] .

وقال فيه ، تلميذه الآخر ، وهو ابن بشكوال : « وكان عالماً بالآداب واللغات مستبحراً فيهما ، مقدما في معرفتهما ، واتقانهما ، يجتمع الناس إليه ويقرءون عليه ، ويقتبسون منه ، وكان حسن التعليم ، جيد التلقين ، ثقة ، ضابطا ، وألف كتباً حسانا » [2] .

وقال الضبي صاحب «بغية الملتمس» : أبو محمد البطليوسي . . . إمام في اللغة ، والآداب ، سابق ، مبرز ، وتواليفه دالة على رسوخه ، واتساعه ونفوذه ، وامتداد باعه ، . . . وكان ثقة ، مأمونا على ماقيد ، وروى ، ونقل ، وضبط » [3] .

ويقول السيوطي في بغية الوعاة [4] : « كان عالما باللغات ، والآداب ، مستبحرا فيهما ، انتصب لإقراء علوم النحو ، واجتمع إليه الناس ، وله يد في العلوم القديمة » .

ويقول ابن خلكان ، بعد أن نقل قول ابن بشكوال ، وذكر تصانيفه وأثنى عليها : « وبالجملة ، فكل شيْ يتكلم فيه ، فهو في غاية الجودة ، وله نظم حسن » [5] .

وقال في المغرب : « أبو محمد عبد الله بن السيد ، أحد من تفخر به جزيرة الأندلس ، من علماء العربية » [6] .

---

(١) أزهار الرياض ٣ — ١٠٥ — ١٠٧ والقلائد ص ٢٠٢ . ونفح الطيب ١ — ٤٢٥ — ٤٣٠

(٢) الصلة ص ٢٨٧ وعنه ابن خلكان ١ — ٢٨٧ وعنه الشذرات ٣ — ٦٥ واليافعي ٣ — ٢٢٨

(٣) الضبي ص ٣٢٤ .

(٤) ٢ — ٥٥ — ٥٦ .

(٥) ابن خلكان ١ — ٢٨٧ .

(٦) المغـرب ١ — ٣٨٥ .

وقال الأستاذ الكبير ، حامد عبد المجيد ، في بداية مقدمة الانتصار :
« ابن السيد البطليوسي ، إمام من أئمة النحو واللغة ، وعلم من أعلام الأدب وصورة صادقة للعقل الخصب ، والتفكير الناضج . أديب ، عالم ، اجتمعت لديه مواهب الأديب ، ومنح صفات العالم المحقق . شخصية متعددة النواحي ، مختلفة الجوانب . فهو نحوي لغوي ، فقيه عالم ، أديب شاعر ، له تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة ، ومشاركة في علوم الفلسفة ، والمنطق ، وعلم الهيئة ، وغير ذلك » .

« وإذا كانت آثار الإنسان تدل على شخصيته ، ونفسيته ، ومواهبه ، وتكوين مزاجه ، فإن ما خلفه هذا الأديب العالم ، من بدائع التأليف ، لتدلنا ، على أن ابن السيد — رحمه الله — كان واسع الإطلاع ، غزير الحفظ ، صافي الطبع ، صائب الرأي ، بارع الحكم ، واضح البرهان ، ومثل هذه الشخصية ، خليقة بالبحث والدرس ، جديرة بالعناية والاهتمام »[1]

وقبل أن ننتقل إلى الفصل القادم ، للكلام على مؤلفات ابن السيد ، ثم على شيوخه ، وتلاميذه ، ونختم كلامنا عن محاسن الرجل ، ومزاياه ، لابد لنا أن نذكر هاهنا ، كتتمة لهذا الفصل ونهايته — قول الفتح ابن خاقان ، الذي ختم به تأليفه البارع عن حياة شيخه ، الفقيه الأجل أبي محمد ابن السيد البطليوسي رحمه الله ، وهـذا نصه : « قال أبو نصر : هذا ما سمح به خاطر ، لم تخطر عليه سلوة ، وذهن ناب لم ترهف له نبوة ، ووقت أضيق من المأزق المتداني ، ومقت للزمن ، شغلني عن كل شيء ، وعداني ، أتجرع به الصاب ، وأتدرع منه الأوصاب ، فما أتفرغ لإنشاء قول ، ولا أصحو من الانتشاء من هول ، وإلا فمحاسن الرجل كانت أهلاً أن يمتد

(١) مقدمة الانتصار .

عنانها ، لكن عاق عن ذلك الدهر الذي شغل ، وأوغلنا في شعاب الانكاد ، حيث وغل »[1] .

مؤلفــاته :

يصرح ابن القفطي في « إنباه الرواة[2] ، أن ابن السيد البطليوسي ، كان قد ألف تواليفه الكثيرة ، وهو في بلنسية . إلا أنه لم يبدأ بها التأليف لأول مرة ، وإنما كان قد بدأ هذا العمل السامي ، في عهد مبكرّ جداً ، لأنه يقول في مقدمة المثلث ، بأنه كان قد ألف في هذا الموضوع كتاباً آخر من قبل ، وذلك عام سبعين وأربعمائة . فإذا كان مولد ابن السيّد كما صرحت به المصادر إجماعا ، هو عام ٤٤٤ هـ ، فمعنى ذلك أنه كان قد أخذ في التأليف في ميعة الشباب ، وعنفوانه ، وذلك في نحو السادسة والعشرين من عمره . إلا أنه يعترف بأن التأليف الثاني في المثلث ، خير من الأول ، كما جاء في المثل الفارسي : « إن محاولة الفنان الثانية تكون أجمل من الأولى » .

ومؤلفات ابن السيد التي تزيد عن عشرين كتاباً ، تنقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول : هي الكتب التي طبعت ونشرت . والقسم الثاني : يشمل الكتب من مؤلفات ابن السيد التي عرفنا عن وجود نسخها في شتّى مكتبات العالم ، ولم تطبع إلى الآن . فيما بلغنا . والقسم الثالث : من مؤلفاته هي الكتب التي فقدت أصولها ، وذهب بها الزمان ، وعصفت بها يد الأيام ، ولم نعثر على وجود نسخة منها . فمن القسم الأول : ستة كتب ، ومن الثاني : خمسة كتب ، ومن الثالث : أحد عشر كتاباً ، فيما علمنا .

---

(١) أزهار الرياض ٣ — ١٢٧ .

(٢) كما نقله عنه الأستاذ حامد في مقدمة الانتصــار .

١ ــ الاقتضاب في شرح أدب الكتاب :

بهذا الاسم سماه المؤلف ، وبهذا الاسم ذكره أصحاب التراجم ، والمؤرخون ، من أمثال ابن بشكوال ، وابن خاقان ، وابن خلكان ، والمقرى في نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، وابن خير الإشبيلي في فهرسته ، والحاج خليفة ، سوى السيوطي ، والأستاذ بروكلمان ، فإنهما يذكرانه باسم « شرح أدب الكاتب »[١] .

وقد اشتهر أدب الكاتب لابن قتيبة ، عند المغاربة باسم « أدب الكُتّاب » فإن ابن خير يقول في فهرسته : « كتاب أدب الكُتّاب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري رحمه الله ، حدثني به الأستاذ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الرماك النحوى ، رحمه الله ، قراءة مني عليه ، قال : حدثني به الأستاذ أبو الحسن على بن عبدالرحمن التنوخى ، رحمه الله ، قراءة مني عليه ، قال : حدثني به الأستاذ أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي الأعلم الخ »[٢] .

وبهذا الاسم ، قد شرحه كثير من المغاربة ، ومنهم أبو الحزم الحسن بن محمد بن يحيى بن عليم الأنصاري البطليوسي رحمه الله[٣] . وقد ذكره المقرى باسم « شرح آداب الكتاب » . وكذلك ابن السيد ، قد صرح في خطبة شرحه لأدب الكاتب أنه موسوم بأدب الكتاب »[٤] .

وقال ابن خلكان ، وقد ذكر أدب الكاتب لابن قتيبة : « وقد شرح هذا الكتاب أبو محمد ابن السيد البطليوسي ، شرحا مستوفى ، ونبه على

(١) الصلة ص ٢٨٧ وأزهار الرياض ٣ – ١٠٧ . وابن خلكان ١ – ٢٨٧ ونفح الطيب ٢ – ١٢٤ وابن خير ص ٣٤٤ والكشف ص ١٤١١ .

(٢) ابن خير ص ٣٣٣ .

(٣) ابن خير ص ٣٤٤ والصلة ص ١٣٩ .

(٤) الاقتضاب ص ٢ .

مواضع الغلط منه ، وفيه دلالة على كثرة إطلاع الرجل ، وسماه ، « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » [1] . وكذلك قال الحاج خليفة عند كلامه على أدب الكاتب لابن قتيبة ؛ « وله شروح أجلها شرح الفاضل الأديب أبي محمد عبد الله بن محمد ، المعروف بابن السيد البطليوسي » [2] .

وقد طبع الكتاب ببيروت سنة ١٩٠١ م في المطبعة الأدبية وقام على تحقيقه ونشره المعلم عبد الله أفندي البستاني . وقد قرأنا النسخة المطبوعة من ألفها إلى يائها قراءة مسهبة فوجدناها مليئة بالأخطاء بعضها مطبعية وبعضها من قبل المحقق إذ لم يستطع قرأة المخطوط قراءة صحيحة جيدة وليس هذا هو موضع التنبيه على الأخطاء وإنما تكفينا الإشارة إليها [3] .

وقد نسب هذا الشرح لأحمد بن محمد بن أحمد أبي العباس المرسي ، المتوفي ٤٦٠ هـ ، المعروف بابن بلال ، الذى قرأ عليه المظفر عبد الملك ، في صغره ، عند كونه بمرسية ، في حياة أبيه المنصور ، أبي الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، صاحب بلنسية . وقد كان أبو عبد الله بن خلصة النحوي كتب رسالة ناقض فيها أبا محمد بن السيد البلطليوسي ، وبكتّه وذكر أنه أغار على شرح أدب الكتاب لابن بلال ، وانتحله ، وسماه بالاقتضاب [4] .

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول ، في شرح الخطبة ، والثاني في التنبيه على الأغلاط ، والثالث في شرح الأبيات ، ونسبتها لقائليها . وقد صرح المؤلف نفسه بذلك ، عندما أراد أن يشرح موضوعه ، وأغراض الشرح ، وأهدافه ، حيث قال : « غرضي ، في كتابي هذا ، تفسير خطبة

---

(١) ابن خلكان ١ — ٢٨٧ .

(٢) الكشف ١ — ٤٧ .

(٣) انظر معجم المطبوعات ص ٥٧٠ .

(٤) ابن الابار ١ — ٢٥ . وقد اشتهرت رسالة ابن خلصة هذه وتداولها الناس) ورووها عنه انظر التكلة ص ٢١٠ .

الكتاب ، الموسوم بأدب الكتاب ، وذكر أصناف الكتبة ، ومراتبهم ، وجل ما يحتاجون إليه في صناعتهم ، ثم الكلام بعد ذلك على نكت من هذا الديوان يجب التنبيه عليها ، والإشارة إليها ، ثم الكلام على مشكل إعراب أبياته ، ومعانيها ، وذكر ما يحضرني من أسماء قائليها ، وقد قسمته إلى ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول في شرح الخطبة ، وما يتعلق بها من ذكر أصناف الكتاب ، وآلاتهم ، والجزء الثانى فى التنبيه على ما غلط فيه واضع الكتاب ، أو الناقلون عنه وما منع منه ، وهو جائز ، والجزء الثالث فى شرح أبياته »[1] .

وفى نهاية القسم الأول أضاف ابن السيد بعض الفوائد الجمة ، والمصطلحات الفنية ، والمعلومات الثمينة ، كأصناف الكتاب ، وما يحتاجون إليه ، وآلاتهم التي يحتاجون إلى معرفتها ، ومعنى الكتاب والكاتب ، وطبع الكتاب ، وختمه ومن المصطلحات كعنوان الكتاب ، والديوان ، والبراءة ، والتوقيع ، والتاريخ ، ويختم القسم على ذكر الأوائل ، كأول من افتتح كتابه بالبسملة ، وأول من قال « أما بعد » وأول من طبع الكتب ، وأول من كتب فى كتابه « من فلان بن فلان ، إلى فلان بن فلان » ، وغير ذلك من الفوائد .

وأما الأغلاط ، التي نبه عليها في الجزء الثاني ، فهي تنقسم إلى أربعة أقسام : فالقسم الأول ، هي مواضع ، غلط فيها ابن قتيبة ، والقسم الثاني ، أشياء اضطرب فيها كلامه فأجاز في موضع ما منعه في آخر ، والقسم الثالث ، هي أشياء جعلها ابن قتيبة من لحن العامة ، وعول في ذلك على ما رواه بعض أئمة اللغة ، وأهمل آراء بعضهم ، وأنكرها ، وكان ينبغي له أن يقول : إن ما ذكره هو المختار عنده ، والأفصح عنده ، والقسم الرابع من الأخطاء ، هي مواضع في الكتاب وقعت غلطا في رواية أبي على القالى ، والتي نقلت إلى ابن السيد بطريق أبي نصر ، هارون بن موسى في رواية أدب الكاتب عن القالي . وابن السيد ، رحمه الله ، لا يجزم القول في كونها أغلاط ابن قتيبة أو الناقلين والرواة عنه[2] .

---

(١) الاقتضاب ص ٢ .

(٢) الاقتضاب ص ١٠٦ .

ونظن أن معظم هذه الأخطاء ، التي نبه عليها ابن السيد يرجع إلى غفلة الناقلين ، وإهمال الرواة ، وتخليطهم في كلمات الأبيات ، وغيرها من مواد الكتاب . ويدل على صحة قولنا هذا ، ما نبه عليه ابن السيد في ألفاظ بيت من أبيات الكتاب (لبشار بن برد أو عروة ابن أذينة) وهو :

يقلن : لقد بليت ، فقلت كلا وهل يبلى من الطرب الجليد

فينبه عليه ابن السيد قائلا : « هكذا نقل إلينا عن أبي نصر هارون بن موسى ، عن أبي علي البغدادي ، رحمة الله عليهما ، والصواب : فقلن « بالفاء » [1] . وإننا نجد في المطبوع من أدب الكاتب « فقلن » بالفاء ، وقد ذكر المحقق الأوربي للكتاب ، بهامشه ، أن في نسخة من نسخ الكتاب ، « يقلن » مكان « فقلن » [2] .

وقد قال في بداية القسم الثالث من الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، أن غرضه أن يقرن بكل بيت من أبيات الكتاب ، ما يتصل به من الشعر من قبله أو من بعده ، إلا أن أبياتا يسيرة ، لم يعلم قائلها ، ولم يحفظ الأشعار ، التي وقعت . ثم يقول « إن في معرفة ما يتصل بالشاهد الشعري ، ما يجلو معناه ، ويعرب عن فحواه ، فإن كثيراً من المفسرين للأبيات ، المستشهد بها قد غلطوا في معانيها ، حين لم يعلموا الأشعار التي وقعت فيها هذه الأبيات ، لأن البيت إذا إنفرد ، احتمل تأويلات كثيرة » [3] .

وللكتاب نسخ مخطوطة في مكتبات العالم ، كالقاهرة ، والاسكوريال ، وفاس ، والقيروان ، ذكر ذلك الأستاذ الكبير بروكلمان في تكملته ١ — ١٨٥ . وفي نهاية الكتاب الثاني من الاقتضاب عبارة نصها : « نجز الكتاب بحمد الله ، وحسن معونته ، وصلى الله على محمد ، خاتم أنبيائه ، في اليوم الثاني من ذي القعدة ، سنة خمس وثمانين وخمسمائة » [4] .

---

(١) نفس المرجع ص ١٠٧ .
(٢) أدب الكاتب طبعة ليدن ص ٢٣ .
(٣) الاقتضاب ص ٢٨٨ .
(٤) الاقتضاب ص ٢٨٦ .

فالظاهر أن النسخة التي عول عليها البستاني كانت قد كتبت بعد موت ابن السيد بقرن ونصف ، أو نحو ذلك .

٢ ــ شرح سقط الزند :

كان ابن السيد رحمه الله من المعجبين بشخصية المعري المولعين بشعره ، كما ذكرنا قبل ذلك . وكان قد أخذ شعره عن أخيه أبي الحسن ابن السيد ، وعبد الدائم القيرواني ، وأبي الفضل الدارمي البغدادي ، الذي ذكره ابن السيد فقال : إنه شيخه في شعر أبي العلاء المعري[١] . وقد شغل بأبي العلاء ، وشرح شعره ، واختار من دواوين شعره « سقط الزند » فشرحه واستوفى فيه المقاصد ، كما يقول ابن خلكان[٢] ، وهو أجود من شرح صاحب الديوان ، أبي العلاء نفسه ، الذي سماه « ضوء السقط » ، ويُعَدُّ هذا الشرح أقوى شرح سقط الزند ، وأكثرها نفعاً وأوفاها إستيعابا[٣] .

وليس شرح ابن السيد خاصا بسقط الزند ، وإنما يتناول مؤلفه طائفة أخرى من شعر المعري ، في كتبه الأخرى . كجامع الأوزان ، ولزوم مالا يلزم . إلا أنه مع هذه الزيادات ، التي ضمها إلى شرحه هذا ، فقد فاته بعض القصائد من سقط الزند[٤] .

وقد انفرد ابن السيد من بين شراح « سقط الزند » بترتيب شرحه على نظم حروف المعجم ، وقد صرح بذلك ، حيث قال : « ورأيت أن ترتيبه على نظم حروف المعجم ، أتم في الوضع ، وأجمل للتصنيف فاحتجت لذلك إلى أن أزيد فيه ما يفي بالغرض »[٥] إلا أنه وضع ترتيب الحروف على طريقة المغاربة ، وليس على طريقة المشارقة[٦] .

---

(١) الانتصار ص ٢٨٦ .
(٢) ابن خلكان ١ ــ ٢٨٧ .
(٣) انظر مقدمة شروح سقط الزند .
(٤) نفس المرجع .
(٥) شروح سقط الزند ص ١٥ .
(٦) انظر مقدمة شروح سقط الزند .

« وهذا الشرح ، يمتاز بكثرة التعرض للتحقيقات اللغوية ، والمسائل النحوية ، وهو شديد الولوع بالموازنة ، والمقابلة ، بين معاني أبي الطيب ، وأبي العـلاء ، وليس بدعا منه أن يسرف في ذلك فإن البطليوسي قد تصدى لشرح ديوان المتنبي ، فكان لذلك أثره في إستيعابه لشعره ، ومعانيه ، وهو أيضـاً يلتزم التسجيع في أكثر عباراته ، فلا ينزل إلى التكلف ، وإنما يصطنع ذلك في سهولة ويسر » [1] .

وللكتاب عدة نسخ ، توجد في شتى مكتبات العالم ، منها في تونس ، والقاهرة [2] .

وقد طبع هـذا الشرح مع شرحي الخوارزمي ، والتبريزي ، في القاهرة بإشراف وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، وبتحقيق لجنة مكونة من الأساتذة الأعلام [3] .

٣ ـ كتاب الانتصار :

وقد ورد ذكره بهذا الاسم في المعجم لابن الأبار (ص ٣٠١) حيث قال : إن الفتح سمعه من ابن السيد سنة ٥١٦ هـ). وقد قام على تحقيقه ، ونشره الأستاذ الكبير ، الدكتور حامد عبد المجيد ، وأخرجه باسم « الانتصار ممن عدل عن الاستبصار » ، وذكر أنه لم يتحقق اسمه من نسخه المخطوطة ، التي وصلت إلى يده ، لأنهـا تختلف في اسمه ، ولا تعينه واحدة منها ، وإنما جعلت كل منها للكتاب اسما ، اقتبسته من قول المؤلف في صدر تأليفه ، مشيراً إلى موضوع الكتاب ، وقال إن اسم الكتاب هـذا ، قد اكتشفه من مخطوطة بدار الكتب المصرية (برقم ١١ لغة م) ، وهي نسخة كتاب « القول المأنوس في شرح مغلق القاموس » لبدر الدين محمد بن عمر بن حسن [4] .

---

(١) نفس المرجع .

(٢) انظر مقدمة شروح سقط الزند وتكملة بروكلمان ١ ـ ٧٥٨ .

(٣) وهم : مصطفى السقا ، وعبد الرحيم محمد ، وحامد عبد المجيد ، وعبد السلام محمد هارون ، بإشراف الدكتور طه حسين .

(٤) مقدمة الانتصار ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

وموضوع الكتـــاب هو رد اعتراضات أبي بكر محمد بن عبد الله العربي [1] ، على ابن السيد في شرح سقط الزند ، كما يصرح به في خطبة الكتاب ويقول : « رأيت أراك الله منهج الحق وسنتـــه ، وجعلك من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه — اعتراضات ابن العربى علينا فى شرح شعر المعرى . ولسنا ننكر معارضة المعارضين ، ومناقضة المناقضين ، فإنها سبيل العلماء المعروفة ، وطريقهم المألوفة : (الطويل) .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وإنما ننكر من هذا الرجل — وفقنا الله وإياه إلى صالح العمل — أنه تعسف ، وما أنصف ، وجاء في المعارضـــة والخلاف ، بأشياء ، استطرفنا غاية الاستطراف ،وذلك أنه وجد أبياتاً أفسدها ناسخ الديوان ، بالزيادة والنقصان ، فعادت مكسورة الأوزان ، ونبت العين عما فيها من الشين ، فنبه عليها في طرر الكتاب ، وبين فيها وجه الصواب ، كأنه توهم — عفا الله عنه — أننا من الطبقة التي لا تقيم وزناً الشعر ، ولا تحسن شيئاً من النظم والنثر . وكذلك وجد لحناً من الناسخ في بعض الأحرف ، فظنه من قبل المؤلف المصنف ، فتفضل بأن نبه عليه في طرر الكتاب ، فجعلنا عنده في مرتبة من لا يقيم وزن الشعر ، ولا يحسن الإعراب [2] .

وابن العربي هذا ، كابن السيد ، من المغاربة ، المعجبين بشعر أبي العلاء ، المولعين بقراءته ، وحفظه ، ودراسته . إلا أنه يمتاز برحلته إلى المشرق ، ورواية شعر المعري عن أعلام الشرق مباشرة . فإنه قد تتلمذ على أبي زكريا التبريزي ، من تلاميذ المعري ، المختصين به . أما ابن السيد فإنه لم يرحل إلى المشرق ، وإنما أخذ شعر المعري عن ابي الفضل البغدادي الوافد على أهل الأندلس وغيره .

وكانت رحلة ابن العربي إلى الشرق سنة ٤٨٥ هـ ، وهو لم يتجاوز

---

(١) التكلة ت ١٥١٦ ومعجم المطبوعات ص ١٧٤ .

(٢) الانتصار ص ١ — ٢ .

السابعة عشر من عمره . ثم انصرف إلى الأندلس ، سنة ٤٩٣ هـ ، بعد أن أخذ ، وسمع ، وجمع فأوعى من المعارف ، وأصبح من المتخصصين في شعر أبي العلاء المعري . وعندما عاد إلى بلاده ، وقع في يده شرح سقط الزند لابن السيد ، فأخذ عليه ، واعترض .

والبطليوسي رحمه الله ، في هذا الكتاب ، لا يرد مآخذ ابن العربي فحسب ، وإنما يظهر أخطاءه ، ويبين أغلاطه . وهو في رده غزير الحفظ ، واسع الاطلاع ، جم المعرفة ، متمكن في علم النحو ، فلا تخفى عليه الدقائق . وقد ظهر أثر ذلك في كثرة استشهاده بشعر القدماء ، وفي التنظير بين أبيات المعري ، بعضها ببعض ، وفي الموازنة والمقابلة بين شعر المعري وغيره من الشعراء ، وهو قد درس شعر أبي العلاء في أكثر من نسخة ، كما يقول ، وكذلك فإنه ملم بما غير المعري من ألفاظ شعره في أخريات حياته ، وكان كثير النص عليها ، والإشارة إليها [1] .

وللكتاب ست نسخ ، مخطوطة في شتى مكتبات العالم ، وقد سرد ذكرها الدكتور حامد عبد المجيد في مقدمته للانتصار ، حيث فصل القول عن حياة ابن السيد ومؤلفاته [2] .

٤ ـ كتاب الحدائق في المطالب الفلسفية العويصة :

وهذا الكتاب قد قام بتحقيقه الأستاذ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ، وكيل المشيخة الإسلامية ، في الخلافة العثمانية ، وصححه ، وعرف به ، وترجم لمؤلفه ونشره السيد عزت العطار الحسيني ، مدير مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، في القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ .

المشاكل الفلسفية الغامضة العويصة ، التي حارت فيها العقول والأذهان ، وكان ابن السيد قد سئل عنها ، فرد عليها ، وهي ثمان مسائل ، كما ذكرها

---

(١) انظر مقدمة الانتصار .

(٢) وقد استفدنا منه كثيراً في هذا الموضوع ، فجزاه الله أحسن الجزاء .

في مقدمته قائلا : «سألتني .. عن معنى قول الحكماء : إن ترتيب الموجودات عن السبب الأول ، يحكى دائرة وهمية ، تبدأ من نقطة ، وترجع إليها ، ومرجعها في صورة الإنسان ؛ وعن قولهم : إن الإنسان ، تبلغ ذاته بعد مماته إلى حيث يبلغ علمه في حياته . وأن علمه يحكى أيضاً دائرة وهمية وعن قولهم : إن في قوة العقل الجزئى ، أن يتصور بصورة العقل الكلى . وعن قولهم : إن العـــدد دائرة وهمية ، كدائرة الآحاد ، والعشرات ، ودائرة المئات ، والألوف . وعن قولهم : إن صفات البارئ تعالى ، لايصح أن يوصف بها ، إلا على طريق السلب . وعن قولهم : إن البارئ ، تعالى ، لا يعرف إلا نفسه . وما البرهان على بقاء النفس الناطقة بعد الموت »[1] .

وأما مدى نجاح ابن السيد ، رحمه الله ، وتوفيقه في الإجابة عن هذه المطالب ، ضيقة المسالك ، والرد عليها ، فناهيك بما قاله المحقق العلامة ، في تعريفه بالكتاب ، ومؤلفه : «وقد أجاب المؤلف في هذا الكتاب عن تلك الأسئلة العويصة ، إجابة خريت ، خبير بتلك المضائق ، بصير بوجوه كشف الحقائق . وسعى في أن لايحيد في بيانه قيْدَ شعرة ، عن حدود شرع الله ، بقدر ما استطاع ، ولمباحثه صلة وثيقة . بمباحث اللمعة ، وقد أجاد في بيان آراء الفلاسفة في تلك المتغالب »[2] .

٥ ـ التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة :

وقد ورد ذكر الكتاب بهذا الاسم عند ابن خلكان في الوفيات ، وابن بشكوال في الصلة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، والبغدادي في هدية العارفين ، وقد ورد ذكره عند ابن خير[3] باسم « كتاب التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين في عقائدهم ، ومذاهبهم ، مع الكلام في الاسم والمسمى ». وقال : إن سمعه عن أبي محمد العبدري ، تلميذ

---

(١) كتاب الحدائق ص ٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٤ .

(٣) ابن خير ص ٢٥٨ .

ابن السيد ، وهو عند المقرى ، في أزهار الرياض [1] ، كتاب « التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين ، في رأيهم ، واعتقاداتهم » وقال : إنه كتاب عظيم » لم يصنف مثله .

واسم الكتاب عند الفتح بن خاقان [2] ، في رسالته ، التي كتبها عن حياة ابن السيد ، كتاب « التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء في اعتقاداتهم ، وآرائهم ، وسائر أغراضهم ، وأنحائهم » . وذكره السيوطى باسم كتاب « سبب اختلاف الفقهاء » . وأما الحاج خليفة ، فقد سماه في كشف الظنون ، كتاب« التنبيه على الأسباب الموجبة للخلاف بين المسلمين » [3] وعند ابن فرحون [4] « كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة »

وقد طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٣١٩ هـ بتحقيق الشيخ أحمد عمر المحمصاني البيروتي ،الأزهري وسماه «الانصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم » [5] .

٦ ـ المسائل والأجوبة :

هذا الكتاب يشتمل على الردود والأجوبة ، عن بعض المشاكل ، والأسئلة ، التي كان ابن السيد قد طولب بالجواب عنها ، بعضها استفهام واسترشاد ، وبعضها امتحان وعناد [6] . وتوجد له نسختان ، كما ذكر الأستاذ الكبير بروكلمان في تكملته (١/٧٥٨) ، نسخة في الاسكوريال باسم « المسائل والأجوبة » ، برقم ١٥٩٨ ، وأخرى في مكتبة جامع القرويين بفاس ، باسم « كتاب الأسئلة » ، تحت رقم ١٢٤٠ . وقد نشر الأستاذ

---

(١) أزهار الرياض ٣ — ١٠٢ .
(٢) أزهار الرياض ٣ — ١٠٧ .
(٣) السيوطى ٢ — ٥٥ — ٥٦ .
(٤) الكشف ١ — ٢٣٣ .
(٥) الديباج ص ١٤١ .
(٦) معجم المطبوعات ص ٥٧٠ وتكلة بروكلمان ١ — ٧٥٨ وانظر فقه الإسلام ص ١٩٩

ابراهيم السامرائي ، مختارات من الكتاب ، في مجموعة سماها « رسائل في اللغة » . في بغداد ، سنة ١٩٦٤ م ، وذكر أنه حصل على نسخة جيدة ، من تونس كتبت في سنة ١٢٩٩ هـ ، وقد سماه « المسائل والأجوبة » ، كما صرح به ابن السيد ، مؤلفه ، في خطبة الكتاب ، حيث قال : « سميته ، كتاب المسائل والأجوبة ليكون معروفاً بهذه السمة »[١] .

وإننا نظن ، أن هذا الكتاب ، هو نفس الكتاب ، الذي ذكره السيوطي في البغية ، باسم « المسائل المنثورة في النحو » ، والقاضي ابن شهبة في « طبقات النحاة » باسم « المسائل المنثورة المشهورة الغريبة » ، وابن خير باسم « كتاب فيه مسائل في العربية وغيرها » ، وقال إن من بين هذه المسائل ، مسئلة سحنون ، ومسئلة التشميت ، والفرق بين التوابع ، والخمسة[٢] ونرى أن هذا الخلاف ، والتخليط ، في اسم الكتاب ، قد وقع من قبل الناقلين والناسخين ، وأخذ كل منهم اسم الكتاب من محتوياته ، بصفة عامة ، فإنه يحتوي على الأسئلة وأجوبتها ، ومعظمها تتعلق بالنحو واللغة ، وهذا كثير ما يحدث بالكتب القديمة ، كما حدث « بالانتصار » من الاختلاف في اسمه[٣] .

وأما الدكتور حامد عبدالمجيد ، فانه قد جعل الأسئلة والمسائل والأجوبة كتابين مستقلين وهما واحد في الحقيقة ، كما أنه متردد غير جازم في « المسائل المنثورة في النحو » ، و « مسائل منثورة مشهورة غريبة » هل هما كتابان أم اسمان لكتاب واحد ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ، وهو ولي التوفيق والتسديد[٤] .

---

(١) رسائل في اللغة ص ١١٤ .
(٢) السيوطي ٢ — ٥٥ — ٥٦ ومقدمة الانتصار وابن خير ص ٣١٦ وهدية العارفين ١ — ٤٥٤ .
(٣) انظر مقدمة الانتصار .
(٤) نفس المرجع .

القسم الثاني من مؤلفاته

١ ــ المثلث :

هذا الكتاب الغريب ، قد جاء ذكره عند ابن خير في فهرسته[١] ، وقال إنه رواه عن القيسي والعبدري ، اللذين كانا من تلاميذ ابن السيد رحمه الله ، كما ذكره السيوطي في البغية ، وعنه المقّري في أزهار الرياض ، والقفطي في إنباه الرواة ، والقاضي ابن شهبة في طبقات النحاة ، وابن خلكان في الوفيات ، ووصفه ، وأثنى عليه ، فقال « إن المثلث في مجلدين ، وأن مؤلفه ابن السيد ، قد أتى فيه بالعجائب ودل على اطلاع عظيم ، فإن مثلث قطرب ، في كراسة واحدة ، واستعمل فيها الضرورة ، ومالا يجوز ، وغلط في بعضه » . وقد نقل قول ابن خلكان هذا ، ابن العماد في الشذرات ، واليافعي في مرآة الجنان[٢]

ويقول يوسف سركيس ، صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة ، إنه وقف عه نسخة خطية ، من كتاب المثلث لابن السيد ، الذي يقول فيه : « اجتمع لنا في المثلث ، المختلفة المعاني ٦٨٠ كلمة ، ومن المثلث ، المتفق المعاني ١٢٢ كلمة . وقد كنت صنفت فيه تأليفاً آخر ، مرتباً على نظم الحروف ، حسبما فعلت في هــذا التصنيف ، وذلك عام سبعين وأربعمائة وذهبت عني في نكبة السلطان ، جرت على ، وانتهبت معظم ما كان بيدي ، غير أنه لم يبلغ عدد ما ذكرته في هذا التأليف الثاني »[٣] .

وللكتاب عدة نسخ ، توجد في مكتبات العالم ، كما ذكر المستشرق الكبير ، الأستاذ بروكلمان ، في تكملته ١ /٧٥٨ ، والأستاذ حامد في مقدمة الانتصار ، وهي : مكتبة عاطف أفندي ، برقم ٢٧٥٤ ، ومكتبة لالى

---

(١) ابن خير ص ٣٦٢ .
(٢) انظر ابن خلكان ١ ــ ٢٨٧ والشذرات ٤ ــ ٦٥ واليافعي ٣ ــ ٢٢٨ وبغية الوعاة ٢ ــ ٥٥ ــ ٥٦ وأزهار الرياض ٣ ــ ١٠٢ والكشف ٢ ــ ١٥٨٧ وهدية العارفين ١٨ ــ ٤٥٤
(٣) وعو المعرى ق الزومية السابعة عشر ، ص ٤٥ .

برقم ٣٦١٦ ، والقاهرة ٢ ، ٣٤ و (لعلها هي النسخة ، التي ذكرها الأستاذ حامد في مقدمة الانتصار) وطنجة ١٢ ، ٥٦ . وكان أبو مروان عبد الملك بن يزيد القرطبي قد ألف كتاباً [١] في المثلث ، نحمى فيه منحى أبي محمد البطليوسي ، ورتبه على حروف المعجم ، وسماه « بحر الدرر وروض الفكر » . وكان ابن الأبار قد وقف على نسخة منه ، وكتب عنه ، وذلك في سنة ٥٢١ هـ ، وهي سنة وفاة ابن السيد رحمه الله . وعمر بن محمد القضاعي أيضاً ألف كتاباً في هذا الموضوع وسماه « الباهر في المثلث مضافاً إليه المثنيات » ، وهو من تلاميذ ابن السيد وسيأتي ذكره .

٢ ـ شرح الكامل لابن السيد البطليوسي :

هذا الشرح (الذي قد قمنا بتحقيقه كأطروحتنا الدكتوراه من جامعة بنجاب بلاهور) قد أهملته المصادر القديمة ، والحديثة ، ولم يذكره أحد من علماء التراجم بين مؤلفات ابن السيد ، إلا أبو عبد الله المراكشي في «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » وعبد القادر البغدادي في « خزانة الأدب » فإن المراكشي هو الذي أخبرنا بأن السيد كان قد كتب على الكامل ، وأن ابن سعد الخير ، من تلاميذه ، كان قد جمع ما كتبه من الطرر عليه وضمها إلى طرر ابن الوليد الوقشي ، ثم زاد عليهما من عنده [٢] . أما عبد القادر البغدادي فقد سماه « شرح الكامل لابن السيد » . وقد استفاد من هذا الشرح في خزانته ، وذلك في خمسة مواضع من الجزء الأول وفي أربعة من الثاني ، وفي تسعة من الثالث ، وفي ثمانية من الرابع [٣] .

ومن غريب الأمر أن شرح ابن السيد للكامل ، لم يشتهر في الشرق ، والغرب كما اشتهر شرحه لأدب الكاتب ، الذي سماه « الاقتضاب في شرح

(١) الذيل والتكملة السفر الخامس ص ١٨٨ .

(٢) خزانة الأدب ١ ـ ١٠ قال وقد ذكر مصادره التي استفاد منها في خزانته ، « والكامل للمبرد وشرحه لابن السيد البطليوسي ولأبي الوليد الوقشي » .

(٣) انظر اقليد الخزانة ص ٨٦ .

أدب الكتاب » ولم يذكره ابن بشكوال في صلته ، مع أن الكامل كان أكثر انتشاراً في الأندلس وأكبر اهتماماً وعناية عند أهلها ، ثم إن ابن بشكوال قد كان من تلاميذ ابن السيد كما صرح به غير مرة في صلته [1] . فلم يذكر هذا الشرح بين مؤلفاته ، ولا نستطيع أن نقول إن ابن السيد لم يخرج شرحه إلا بعد سماع ابن بشكوال عنه ، وقد أخرجه لابن سعد الخير وزملائه في الدرس ، لأن ابن بشكوال عاش مدة بعد ابن سعد الخير ، فإن الأول توفى سنة ٥٧٨ هـ وتوفى الثاني سنة ٥٧٠ هـ أو ٥٧١ هـ . فما السبب في ذلك ؟ لا يذكره ابن بشكوال ، أما ابن سعد الخير فإنه يجمع ما كتبه شيخه ، وأبو الوليد الوقشي . وقد يكون السبب في ذلك أن هذا الشرح لم يكن شرحاً في أدق معاني الكلمة ، وإنما كانت هي الطرر ، والحواشي على نسخة الكامل ، عند ابن السيد كان يرويه منها . وكذلك فإن سماع ابن بشكوال عن ابن السيد لم يكن كثيراً ومكثه لديه لم يكن طويلا ، أما ابن سعد الخير فقد كان مختصاً به ، وتلمذ عليه طويلا ، ربما طوال قيام ابن السيد ببلنسية ، ما يزيد من عشرين سنة ، فكان يعرف جميع ما كتبه شيخه ، وروى عنه ما كان يرويه من طريقته [2] .

ومن ثم يرْوه ابن سعد عن ابن السيد كشرح ، أو كتاب مستقل ، وإنما رواه كطرر ، وحواش كتبت على هامش نسخة شيخه للكامل ، وهذا ما جعله يذكر هذه النسخة ، ويقول : « في كتاب الأستاذ أبي محمد ، أو « قال الأستاذ أبو محمد » . ولم يذكر هذا الكتاب عند المشارقة باسم الشرح غير البغدادي ، فهو الذي سماه شرحا ، وأظنه سماه بهذا الإسم لأنه وجد على غلاف النسخة : « شرح الكامل » ولم يقرأ العبارة الآتية بعد هذا الإسم وهي « وإنما هي الطرر والحواشي على كتاب الكامل للمبرد » .

---

(١) انظر كتاب الصلة ص ٤٠٠ .

(٢) ويؤيد ما قلناه أن ابن بشكوال لم يذكر بين تلاميذ ابن السيد في المراجع الغربية والشرقية . ولم نطلع عليه ، ولم نتنبه إلى ذلك إلا إذا قرأنا ترجمة على ابن السيد حيث قال ابن بشكوال إنه « أخو شيخنا أبي محمد ابن السيد » . (انظر الصلة ص ٤٠٠) أما ابن سعد الخير فقد كان من المختصين بابن السيد كما صرح به المراكشي في الذيل والتكملة السفر الخامس ص ١٨٨ .

وشرح ابن السيد هذا ، (أو قل : طرره على الكامل) ، هو خير ما كتبه القدماء على الكامل ، حتى أن شرح ابن السيد يضاهي شرح المرصفي رحمه الله في بعض الأشياء [1] . وكذلك فإن ابن السيد في شرحه للكامل قد تفوق على الوقشي ، فيما كتبه عليه من الطرر والنكت .

ونقد ابن السيد للكامل نقد سليم ، مقتصد ، ومؤاخذاته على المبرد هي مؤخذات عالم جيد تنبيء عن فكر صائب ، يريد الإصلاح ، ولا يريد الطعن في شخصية الرجل ، ولا يتهمه بالجهل والغفلة . ولا يسبه سبا قبيحاً . أنظر إلى الوقشي كيف يثور على المبرد لأنه يظنه قد أخطأ في الاستشهاد ببيت شعر لأبي تمام وهو قوله [2] : (البسيط) .

قد قلصت شفتاه من حفيظته ... فخيِّلْ من شدة التعبيس مبتسماً

فيعلق عليه الوقشي ويقول : « ضمه قول حبيب هذا إلى ما قبله في المصلوب ، وحمله إياه عليه ، من أفحش الخطأ ، وإنما قول حبيب هذا في صفة الشجاع في الحرب ، وكلوحه من الحفيظة ، وهي الغضب ، ويبين ذلك ، ويقويه الأبيات التي قبل هذا البيت من قصيدة حبيب وهي :

أضحكت منهم ضباع القاع ضاحية ... بعدالعبوس وأبكيت السيوف دما

بكل صعب الذرى كل مصعب يقظ ... إنْ حل متئدا ، أوسار مُعتزِما

بادى المحيا لأطراف الرماح فما ... يرى غير الدم(؟) المعبوط ملتثما

يضحى على المجد مأمونا إذا اشتجرت ... سمر القنا ، وعلى الأرواح مُتَّهَما

قد قلصت . . . . . البيت .

لا شك أن البيت في صفة الشجاع في الحرب وليس في صفة المصلوب ، وأن المبرد هو المخطيء والوقشي هو المصيب إلا أن أسلوبه هو أسلوب ناقد ، ثائر ، غضبان ، قاهر ، لا يفكر في الإصلاح ، ولا يعفو عن

---

(1) إذا ألغينا شرح القصائد التي أكثر منها المرصفي في شرحه ، فإن شرح ابن السيد أجود وأنفع من شرحه .

(2) الكامل ص ٥٠٨ ، وانظر ديوان أبي تمام ص ٢٦٨ .

الرجل ، ولا يحتال في العذر لزلاته ، والتبرير لأخطائه . فليس هذا من وظيفة الوقشي ولا أسلوبه ، وإنما هو وظيفة البطليوسي ، رحمه الله ، وأسلوبه ، فإنه يحاول إصلاح الكلام ، ويحتال عذراً لزلات المبرد . انظر إلى طرته في هذا الموضع نفسه حيث يقول : « إن كان أبو العباس جعل قول حبيب مثل ما قدمه في وصف المسلوب ، فقد أخطأ ، لأن قول حبيب ، إنما هو في صفة شجاع ، وقد بينه بقوله في « حفيظته » وهو نحو قول عنترة :

« أبدي نواجذه لغير تبسم » .

وإن كان قد استأنف ضرباً آخر من التشبيه ، وقطع ما كان فيه ، فقد سلم من الخطأ . وليس هنا ما يقطع ، وأنه جعله مثل ما قبله من صفة المصلوب فيختم عليه ، فإنه خطأ » .

ولعل الوقشي كان قد تأثر بأسلوب علي بن حمزة البصري في مؤاخذته ، وتنبيهاته على الكامل ، لأنه في أكثر الأحيـــان يثور عليه ، ، ويسبه ، ويتهمه بالجهل والغفلة . وقد استفاد ابن السيد من تنبيهات ابن حمزة ، وقرأها فهو يصرح أحياناً ، ويقول : « هذا مما نبه عليه علي بن حمزه » ، إلا أنه لم يتأثر بأسلوبه في الأخذ ، والتنبيه على أخطاء الرجال . ونراه أحياناً ينتصر للمبرد ، ويرد مؤاخذات ابن حمزة ، أنظر تنبيه ابن حمزة على قول المبرد في قتل بسطام بن قيس أنه « قتل بالحسن وهو جبل [1] » ثم اقرأ ما يقوله ابن السيد في هذا الموضع من طرره على الكامل : « في بعض النسخ بحاء غير معجمة ، وباء ساكنة . وفي جمهور النسخ : جبل ، وليس بشيء ، وإنما الصواب بحاء غير معجمة ، وباء ساكنة ، وهو المستطيل من الرمل . وكذا قال الرياشي في الحماسة : الحسن نقا بالدهناء ، وقد رد على بن حمزة قوله جبل ، وزعم أن أبا العباس غلط في قوله « الحسن رمل » وإنما هو شجر . وعلي بن حمزة (هو) المخطيء في هذا ، لأن أبارياش قال : هما نقوان ، يقال لأحدهما الحسن ، والآخر الحسين ، ويدل عليه قول الآخر :

ويوم شقيقة الحسنين لاقت بنو شيبان آجالا قصـــاراً

(١) الكامل ص ١٣٠ وانظر التنبيهات ص ١١٦ .

أما الموضوعات التي تناولها ابن السيد في هذا الشرح ، فانها لا تختلف كثيراً عن الموضوعات التي تناولها الوقشي ، والمرصفي ، إلا أن ابن السيد يتناول موضوعاً أو موضعاً من الكامل ، فيعلق عليه بأسلوب سلس ، سهل ، ويفصل القول إذا اقتضته الحاجة ، ودعاه الموضوع إلى ذلك . أما إذا لم يكن في حاجة إلى ذلك أجمل القول فيه ولم يطل فيمل .

٣ ـ كتاب الحلل فى شرح أبيات الجمل :

بهذا الاسم ذكره الحاج خليفة ، في « كشف الظنون » وقال : إن ابن السيد لما فرغ من « إصلاح الخلل الواقع في الجمل » ، تكلم في أبياته وذكر أسماء قائليها ، وما يتصل بالشاهد من بعده ، أو من قبله ، وسماه « الحلل في شرح أبيات الجمل » ، وهو أصغر من الشرح حجماً ، أوله : الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم ، الخ [١] ، كما ذكره بهذا الاسم ابن شهبة ، والسيوطي والمقرى ، وابن العماد في الشذرات [٢] وبهذا الاسم يوجد له نسخة في مكتبة جامعة طهران [٣] . أما الأستاذ بروكلمان [٤] والقفطي وابن خير ، فقد ذكروه باسم « شرح أبيات الجمل » .

وقد ذكر الأستاذ الزركلي أن نسخة الحلل ، التي توجد في جامعة طهران ، كانت قد كتبت في ٥٢٦ ، وكانت في خزانة المتوكل ، أحمد بن سليمان المتوفي ٥٥٦ هـ [٥] .

---

(١) الكشف ١ – ٤٠٣ .

(٢) بغية الوعاة ٢ – ٥٦ وأزهار الرياض ٣ – ١٠٢ والشذرات ٤ – ٦٥ ومقدمة الانتصار .

(٣) فهرست كتاب خانة دانشكاه تهران ٢ – ٣٨٢ – ٣٨٥ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ .

(٤) انظر تكلمه ١ – ٧٥٨ ، والقفطي في إنباه الرواة ، ص ٤٠٣ ، وابن خير ص ٣٤٥

(٥) الاعلام ١٠ – ١٣٦ .

وقد حصلنا على نسخة منها ، بالتصوير الشمسي فرأينا أن اسم الكتاب هو كما ذكر خليفة ، ومن نحى نحوه ، وعلى غلاف الكتاب ، تحت اسمه ، عبارة ، بالخط الفارسي ، يختلف عن خط الأصل ، وهي : تصنيف السيد الأجل ، عبدالله بن محمد بن الحسن البطليوسي ، رحمة الله تعالى عليه ، ورضوانه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم . كتبه محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن الحسين . وفي زاوية ، ذات اليسار من ذيل الغلاف ، اسم مكتوب بالخط الفارسي وهو صلاح بن محمد بن صلاح [1] .

ومتن الكتاب يبدأ هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد وآله : . . . الحمد لله الذي علمنا ما لم نكن نعلم ، وفضلنا على كثير من خلقه وقدم ، وجعلنا ممن يقتدي به و يؤتم ؛ وصلى الله على محمد وآله وسلم . قال أبو محمد . عبدالله بن محمد بن الحسن البطليوسي ، رحمه الله : ، لما فرغت من الكلام في الخلل الواقع في كتاب الجمل ، أردت أن أتبع ذلك الكلام ، في إعراب أبياته ، ومعانيها ، وما يحضرني من أسماء قائليها . وغرضي أن أصل بكل بيت منها ما يتصل به ، ليكون أبين لغرض قائله . ومذهبه . ولم يمنعني من الكلام في إعرابها ومعانيها ما تقدمني من كلام غيري فيها . فربما كان لكلامي مزية على ما سواه ، وزيادة فائدة لمن وقف عليه ورواه . وأنا أسأل الله عوناً على ما أبديه ، إنه ولي الفضل ومسديه . ولا رب سواه ، ولا معبود حاشاه » .

أنشد أبو القاسم (الزجاجي) ، رحمه الله . باب النعت : (الكامل) .

---

(١) لم نعثر على ترجمة الزجاجي . ونظن الأول من تلاميذ ابن السيد ، والله أعلم بالصواب وهو علام الغيوب .

لا يبعدن قومي الذين هم   سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك   والطيبون معاقد الأزر

هذا الشعر لخرنق بنت [1] هفان القيسية ، وهي أخت طرفة بن العبد المالكي لأمه ، من شعر رثت به زوجها بسر [2] بن عمرو بن مرثد ، ومن قتل معه من بنيه وقومه . وكان غزا بني أسد بن خزيمة هو وعمرو بن عبدالله بن الأشل الخ ».

وفي نهاية الكتاب ، جاءت هذه العبارة : تم الكتاب بحمد الله ومنه ولطفه ، وتوفيقه ، وتأييده ، في سنة ٥٢٦ هـ [3] .

ويقع الكتاب في نحو ثمانين ومائة صفحة ، وفي كل صفحة حوالى عشرين سطراً ، وفي كل سطر نحو أربعة عشر كلمة

٤ ــ شرح الخمس المقالات الفلسفية :

وهو من مؤلفات ابن السيد ، التي ذكرها الأستاذ بروكلمان ، وقال أن نسخته توجد في بريل رقم ٥٦٦ [4] . ولا نتحقق ما هي المقالات الفلسفية التي تناولها ابن السيد في هذا الكتاب ، كما أننا لا نعرف ، هل له صلة بكتاب الحدائق أم لا ؟ .

٥ ــ الاسم والمسمى :

وقد ذكره الأستاذ بروكلمان بين مؤلفات ابن السيد ، ونص على وجود نسخته بالمغرب الأقصى ، وقد طبع الكتاب في إسلام آباد باكستان بتحقيق صديقنا الأستاذ أحمد الفاروق .

---

(١) انظر ديوانها ص ١٠ .
(٢) كذا وفي ديوانها ص ١٠ ، بشر .
(٣) أي بعد وفاة المؤلف بخمس سنوات .
(٤) تكلة بروكلمان ١ ــ ٧٥٨ .

القسم الثالث من مؤلفاته

١ ــ شرح الموطا :

وقد ذكر المترجمون لابن السيد ، أن له شرحاً لموطأ الإمام مالك بن أنس ، منهم ابن بشكوال في الصلة (ص ٢٨٧) والسيوطي في بغية الوعاة (٥٦/٢) والقفطي في أنباه الرواة (ص٤٠٣) ، والمقري في أزهار الرياض (١٠٢/٣) ، وابن خلكان في وفيات الأعيان (٢٨٧/١) ، وابن العماد في شذرات الذهب (٦٥/٤) ، واليافعي في مرآة الجنان (٢٢٨/٣) ، والحاج خليفة في كشف الظنون (١٩٠٧/٢) ، والبغدادي في هدية العارفين (٤٥٤/١) . وقد سماه الفتح : « المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس »[١] .

وقد كانت للمغاربة عناية خاصة بالموطأ ، لأن مسلك الإمام مالك الفقهي كان قد أصبح مسلكاً رسمياً في الأندلس ، ولهم شروح وتفاسير للموطأ، وتعليقات عليه ، ومؤلفات في تراجم رجاله، وأخبارهم . ومن بين هؤلاء الشراح المغاربة : الإمام أبو عمر بن عبد البر ، صاحب كتاب التقصي لما في موطأ مالك بن أنس ، وكتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ، وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي صاحب كتاب المنتقى في شرح الموطأ[٢] .

أما شرح صاحبنا للموطأ ، فانه قد عصفت به يد الإمام ، ولا نعرف عنه أكثر من اسمه الذي ورد في كتب التراجم والتاريخ .

٢ ــ شرح الفصيح لثعلب :

وقد كان كتاب اختيار فصيح الكلام لأبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني الملقب بثعلب رحمه الله ، موضع إعجاب ، وتقدير عند علماء اللغة

---

(١) أزهار الرياض ٣ ــ ١٠٧ .

(٢) انظر ابن خير ص ٨٦ ــ ٩١ . والكشف ٢ ــ ١٩٠٧ وقد طبع الأول بعضه من المغرب والثاني كله من مصر .

العربية في الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً . ولهم عليه ذيول ، وتنبيهات ، وتعليقات ، وشرح ، فمن ذلك كتاب فائت الفصيح لأبي عمر المطرز ، وكتاب التنبيهات لابن حمزة البصري ، وشرحا الفصيح لابن درستويه ، وابن خالويه ، وكتاب تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح ، لأبي علي أحمد بن فهد اللبلي النحوي المتوفي بتونس سنة ٦٩١ هـ . وغيره . ولم يتخلف صاحبنا ابن السيد رحمه الله في الميدان ، فقد أفرد كتاباً مستقلا ، لشرح هذا الكتاب الغر [١] .

ومن غريب الأمر أن المراجع الغربية والشرقية ، قد أهملت ذكر هذا الشرح ، ولولا الحاج خليفة ، والسيوطي ، رحمهما الله ، لما عرفنا اسم الكتاب ، ولا سمعنا ذكره . أما خليفة فقد ذكر الفصيح ، وشروحه ، في الكشف ، ومن بينها شرح ابن السيد . وأما السيوطي فقد استفاد منه في كثير من مواضع المزهر ، فمن ذلك في الصفحات ٢١٥ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٨ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٩٩ ، من الجزء الأول وفي الصفحات ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٢ من الجزء الثاني [٢] .

ولا نعرف هل له نسخة بقيت ، ولا زالت في مجاهل المكتبات ، وستكتشفها يوماً أيدي الباحثين المحققين ، أو عصفت بهـا يد الأيام ، وأبادتها حوادث الزمان ، فلا يرجى إحياؤها ، ولا بقاؤها !

٣ ـ كتاب الفرق بين الأحرف الخمسة :

وقد جاء ذكر هذا الكتاب بين مؤلفات ابن السيد ، في كثير من

---

(١) وقد قال فيه بعض الشعراء وقد أوصى ابنه بقراءته وحفظه (المزهر ١ — ٢٠١) :

كتاب الفصيح كتاب مفيد ... يقال لقاريه ما أبلغه

بني عليك به ، إنه ... لباب اللبيب وصفو اللغة

(٢) ابن خير ص ٣٣٩ و ٣٤٢ ، والطرف الأدبية ص ٢ ، والمزهر ١ — ٢٠١ ، والكشف ٢ — ١٩٧ .

المراجع ، وقد ذكره السيوطي [1] ، وبروكلمان [2] ، بهذا الإسم ، وهو عند ابن خير كتاب الفرق بين الحروف الخمسة [3] ، وعند ابن خلكان كتاب في الحروف الخمسة ، وعنه ابن العماد ، وقال : إن الحروف هي السين ، والصاد ، والضاد ، والظاء ، والذال ، وأنه قد جمع فيه كل غريب [4] ، وسماه القاضي ابن شهبة كتاب « الحروف الخمسة » وتبعه البغدادي [5] ، أما الحاج خليفه ، فانه يسميه كتاب الحروف الستة ، وهي الصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والدال ، والذال [6] .

وموضوع الكتاب ، كما عرفناه من الاقتباسات التي اختارها منه السيوطي في المزهر ، وكما يتبادر إليه الذهن من اسمه ، هو القلب والإبدال والفك والادغام وغير ذلك من مشاكل اللغة ومسائلها . وهو موضوع مفيد ، شيق هام عند النحاة واللغويين ولهم فيه مؤلفات كثيرة .

والاقتباسات التي أخذها السيوطي بعضها طويلة جداً ، مما يمكن لنا أن نعرف قيمة الكتاب ، ومكانته بين مؤلفات الفن ، فقد جاء في موضع [7] ما نصه : « قال أبو محمد البطليوسي ، في كتاب الفرق بين الأحرف الخمسة : من هذا الباب ما ينقاس ، ومنه ما هو موقوف على السماع ، كل سين وقعت بعدها عين ، أو غين ، أو خاء ، أو قاف ، أو طاء ، جاز قلبها صاداً ، مثل : يساقون ، ويصاقون ، وصقر وسقر ، وصخر وسخر ، مصدر سخرت منه ، إذا هزأت . فأما الحجازة فبالصاد لا غير . قال : وشرط

(١) في المزهر ١ — ٤٦٩ .

(٢) في تكملته ١ — ٧٥٨ .

(٣) ابن خير ص ٣٦٣ .

(٤) ابن خلكان ١ — ٢٨٧ والشذرات ٤ — ٦٥ .

(٥) هدية العارفين ١ — ٤٥٤ ومقدمة الا نتصار .

(٦) الكشف ٢ — ٢٧٣ . وقال إن ابن السيد توفى سنة ٤٩١ هـ ! وقال مرة (٢ — ١٩٧) أنه توفى سنة ٥١١ هـ ، وقال في موضع توفى ٤٢١ هـ (١ — ٧٤) وقال في موضع آخر أنه توفى ٥٢١ هـ (١ — ٤٠٣) وهو الصحيح !

(٧) من المزهر ١ — ٤٦٩ .

هذا الباب ، أن تكون السين متقدمة على هذه الحروف ، لامتأخرة بعدها، وان تكون هذه الحروف متقاربة لها لا متباعدة عنها ، وأن تكون السين هي الأصل . فان كانت الصاد هي الأصل لم يجز قلبها سينا ، لأن الأضعف يقلب إلى الأقوى ، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف ، وإنما قلبوها صاداً مع هذه الحروف لأنها حروف مستعلية ، والسين حرف متسفل ، فثقل عليهم الاستعلاء بعد التسفل ، ولما فيه من الكلفة . فاذا تقدم حرف الاستعلاء لم يكره وقوع السين بعده ، لأنه كالانحدار من العلو ، وذلك ضعيف ، لا كلفة فيه ، قال : فهذا هو الذي يجوز القياس عليه ، وما عداه موقوف على السماع » .

وفى موضع آخر [1] : « وفي كتاب الفرق للبطليوسى : حظلت النخلة ، وحضلت إذا فسدت أصول سعفها . وسمعت ظباظب الخيل ، وضباضبها : أصواتها وجلبتها . والعظّ ، والعضّ : شدة الحرب ، وشدة الزمان ، ولا تستعمل الظاء في غيرها » .

وأخذ منه في موضع آخر [2] : « وقال أبو محمد البطليوسي ، في كتاب الفرق : لم يقع في كلام العرب إبدال الضاد ذالا ، إلا في قولهم : نبض العرق ، فهو نابض ، ونبذ فهو نابذ ، لا أعرف غيره » .

٤ ـ أبيات المعاني :

موضوع الكتاب ، كما يتبادر إليه الذهن من اسمه ، ومن الاقتباسات التي أوردها البغدادي في خزانته ، هو معاني أبيات الشعر ، وحللها ، وشرحها وتوجيه إعرابها . وقد ذكره غير البغدادي ، ومنهم الأستاذ بروكلمان [3] . وهو من الكتب التي عول عليها واستفاد منها البغدادي في خزانته ،

---

(١) من المزهر ١ – ٥٦٢ .
(٢) المزهر ٢ – ٩٤ .
(٣) في تكمله ١ – ٧٥٨ .

في كثير من المواضع [1] ، فمن ذلك تعليق على البيت لشاعر مجهول وهو (الطويل) :

تمر على ما تستمر وقـــد شفت   غلائل عبد القيس ، منها صدورها

وهذا نص التعليق : « وقال ابن السيد في أبيات المعاني ، هذا البيت أنشده الأخفش ، وتوجيه إعرابه أنه فصل بين المضاف ، والمضاف إليه ، بما ليس بظرف ، وهو أفحش ما جاء في الشعر ، ودعت إليه الضرورة ، وتقدير الكلام : وقد شفت غلائل صدورها ، والغلائل جمع غليلة مثـــل عظيمة وعظائم ، وكريمة وكرائم ، وقال أبو الحسن الأخفش : إن كان الشعر لم يوثق بعربيته فيجوز أن يكون أخرج غلائل مضافة ، وقدر فيها التنوين ، لأنها لاتنصرف ، ثم جاء بالصدور مجرورة على نية إعادتها كما قال الآخر .

رحم الله أعْظُمًا ، دفنوها   بسجستان ، طلحة الطلحـــات

أي أعظم طلحة الطلحات ، فكذلك هنا يريد غلائل عبد القيس ، منها غلائل صدورها ، وقد حذف الثاني اجتزاء بالأول ، وهذا التأويل حسن ، لأنه مخرج الكلام ، وفيه ضعف من حيث إضمار الجار » [2] .

٥ ــ شرح ديوان المتنبي :

قد جاء ذكر هذا الشرح عند السيوطي ، والمقري ، والقاضي ابن شهبة ، والحاج خليفة ، وابن خلكان ، وقال : « وسمعت أن له (لابن السيد) شرح ديوان المتنبي ، ولم أقف عليه ، قيل إنه لم يخرج من المغرب » [3] .

وقد كان لعلماء الشرق ، والغرب ، عناية خاصة ، واهتماماً كبيراً ،

---

(١) انظر إقليد الخزانة لأستاذي عبد العزيز الميمني ص ١ – ٢ .

(٢) خزانة الأدب ٢ – ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٣) ابن خلكان ١ – ٢٨٧ وأزهار الرياض ٣ – ١٠٢ وبغية الوعاة ٢ – ٥٦ والكشف ١ – ٥٢٢ .

بشعر المتنبي ، حتى قال خليفة : « واعتنى العلماء بديوانه ، فشرحوه ، وقال أحد المشائخ ، الذين أخذ عنهم : « وقفت له على أكثر من أربعين شرحاً . ولم يفعل هذا بديوان غيره ، ولا شك أنه كان رجلا مسعوداً ورزق في شعره السعادة التامة » [1] .

وشرحه من المغاربة ، غير ابن السيد ، أبو القاسم ابن الافليلي ، وأبو الحجاج الأعلم [2] . وأغلب الظن أن هذه الشروح قد ضاعت فيما ضاع من التراث العربي الإسلامي ، على أيدي الأفرنج ، والله أعلم بالصواب.

٦ ـ التذكرة الأدبية :

ذكرها القفطي « في إنباه الرواة » ، ولا نعرف أحداً غيره ذكرها أو عثر على نسخة منها [3] .

٧ ـ جزء في علل الحديث :

ذكره ابن خير ، وقال إنه سمعه من الشيخ المحدث ، أبي الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام ، عن ابن السيد ، مؤلفه ، وقال إن هذا الجزء كان مكتوباً عنده في آخر شمائل النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عيسى الترمذي ، رحمه الله .

ولم نعرف له ذكرا عند غيره ولم نعثر على وجود نسخة منه .

٨ ـ فهرسة ابن السيد :

ومن دأب المغاربة أنهم كانوا يجمعون أسماء شيوخهم مع ذكر الكتب المسموعة عنهم ، وطرق روايتهم ، التي أخذوا منها هذه الكتب ، فمن ذلك

---

(١) الكشف ١ — ٥٢٠ .

(٢) انظر نفح الطيب ٢ — ١١٨ و ١٢٤ وابن خير ص ٤٠٣ والكشف ١ — ٥٢٠ — ٥٢٢ ، والصلة ص ٢٧٨ .

(٣) أنباه الرواة ص ٤٠٣ .

فهرسة ابن خير الأشبيلي ، ومعجم ابن الأبار في أصحاب القاضي أبي على الصدفي رحمه الله [1] .

وفهرسة ابن السيد هذه ، قد ذكرها ابن خير [2] . وابن الأبار وقد نقل عنها بعض تراجم الرجال [3] .

٩ ـ رسالة إلى ابن خلاصة :

وقد كان أبو عبدالله محمد بن خلاصة (أو خلصة) قد ناقض ابن السيد في رسالة له ، واتهمه بالانتحال [4] . فالظاهر أن البطليوسي رد عليه ، كما أنه رد على ابن العربي فيما أخذ عليه في شرحه لسقط الزند ، وسماه بالانتصار ممن عدل عن الاستبصار .

وقد ضاعت الرسالتان ، رسالة ابن السيد ، ورسالة ابن خلاصة كليهما ، فيما عرفناه ، والله أعلم بالصواب .

١٠ ـ رسالة إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم :

ذكرها ابن خير فقال : « ورسالة (ابن السيد) كتب بها إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعث معها بشعر إلى مكة ، زادها الله شرفاً ، حدثني بذلك كله الفقيه أبو الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام » [5] .

---

(١) انظر فهرسة ابن خير ص ٤٢٥ وما بعدها .

(٢) ابن خير ص ٤٣٣ .

(٣) ابن الأبار ١ – ٢١٩ .

(٤) انظر ابن الأبار ١ – ٢٥ وابن خير ٤٢٠ .

(٥) ابن خير ص ٤٢٠ (المغرب : الكتابة إلى قبره صلى الله عليه وسلم من الهدع) .

ونظن أن الشعر الذى بعث به إلى مكة ، مع هذه الرسالة ، هي قصيدته التي خاطب بها مكة ، وقد أنشدنا بعضها في شعره [1] .

١١ ـ اصلاح الخلل الواقع فى كتاب الجمل :

ذكره بهذه الاسم ابن خير [2] ، ورواه عن أبي الحسين ، عن ابن السيد . وذكره السيوطي والمقرى ، والحاج خليفة باسم « إصلاح الخلل الواقع في الجمل » وذكره القفطى [3] باسم « إصلاح الخلل الواقع في شرح الجمل » وذكره ابن شهبة ، وابن العماد باسم « الخلل فى أغاليظ الجمل » .

وقد وقف خليفة على نسخة من الكتاب وقال إن أوله : « الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً الخ » وأنه ذكر فيه أن الزجاجي رحمه الله ، قد نزع في كتابه الجمـــل المنزع الجميل ، فإنه حذف الفضول ، واختصر الطويل ، غير أنه قد أفرط في الإيجاز فأصبح كلامه بعيد الإشارة ، مختل العبارة ، مما دعا ابن السيد ، أن يصلح ما وقع فيه من الخلل ، وينبه على أغلاطه ، ويجعله سهلا ، قريب الفهم للقارىء [4] .

وكان ابن السيد قد اتبعه بكتاب آخر عن الجمل ، وهو كتاب « الحلل في شرح أبيات الجمل » ، الذي مر ذكره ، وهو أصغر من الأول ، على ما ذكره خليفة [5] .

---

(١) انظر أزهار الرياض ٣ – ١٤٧ .

(٢) ابن خير ص ٣٢٥ .

(٣) بغية الوعاة ٢ – ٥٦ وأزهار الرياض ٣ – ١٠٢ والكشف ١ – ٤٠٣ والشذرات ٤ – ٦٥ .

(٤) انباه الرواة ص ١٠٣ .

(٥) انظر الكشف ١ – ٤٠٣ .

وقد ذكر المراكشي في «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة [1]» ، أن أبا الحسن ابن سعد الخير الأنصاري ، صاحب القرط على الكامل ، وتلميذ ابن السيد الأخص ، كان قد أتم شرح الجمل للزجاجي لشيخه ابن السيد وذلك من بعد باب النعت إلى نهاية الكتاب لأن المؤلف رحمه الله أعجلته منيته قبل إكماله .

وبيان المراكشي مجمل ، لأنه إذا أراد بالشرح « إصلاح الخلل الواقع في الجمل » فهو غير صحيح ، لأن ابن السيد يصرح في خطبة شرح أبيات الجمل بأنه لما فرغ من الكلام في الخلل الواقع في الجمل ، أراد أن يتبعه بكتاب آخر في إعراب أبيات الجمل ، وشرحها وأسماء قائليها فتعيّن أن المراد بالشرح هو شرح أبيات الجمل ، وأن ابن السيد لم يكمله في حياته وإنما أكمله تلميذه أبو الحسن ، بعد وفاة شيخه ، إلا أننا لا نجد الإشارة إلى ذلك في النسخة المصورة للكتاب ، لا في أوله ولا في آخره ، ولا في متنه ، حيث يبدأ باب النعت ، والله أعلم بالصواب .

أما شرح الأبيات ، فإن لدينا نسخة مصورة منه ونعتزم نشره ، بعون الله ، وتوفيقه وإرادته ، وأما هذا الشرح ، الذي كان أكبر حجماً من شرح الأبيات . فلم نعثر على نسخة منه ، ولا نعرف أحداً من العلماء ذكر وُجودها في مكتبات العالم ، إلا أننا نتمنى بقاء الكتاب ونريد إحياءه ، لأنه من خير أعمال الرجل وأكبر مجهوداته في خدمة العلم والأدب ، وعسى الله أن يوفقنا أو أحداً غيرنا للبحث عن الكتاب واكتشافه ، وما ذلك على الله بعزيز ، فإنه ولي التوفيق وهو على كل شيء قدير .

---

(١) السفر الخامس ص ١٨٨ .

شيوخ ابن السيد

١ – حسين بن محمد بن أحمد أبو علي الغاني :

هو الشيخ أبو علي حسين بن محمد الغساني ، (بغين معجمة وسين مهملة مشددة) ، الجياني (بجيم ومثناة من أسفل ، مشددة) [١] ، أصل آبائه من مدينة الزهراء ، وعرف بالجياني لأن أباه كان قد نزلها في الفتنة ، فكان أبو علي يقول : لا حلل من دعاني بالجياني » [٢] .

وكان من شيوخ أبي علي الغساني أبو عمر ابن عبد البر ، وأبو الوليد الباجي ، وأبو عمر بن الحذاء القاضي ، شيخ أبي الوليد الوقشي ، رحمهم الله .

وكان الشيخ الغساني ، رئيس المحدثين في وقته بقرطبة ، موصوفاً بالجلالة ، والحفظ ، والنباهة ، والتواضع ، والتعاون [٣] . وذكره القاضي عياض فقال : « أن انفراد أبي علي(حسين بن محمد)الصدفي بالأمانة في الحديث بالأندلس لم يكن إلا بعد وفاة كنية وسميه أبي علي (حسين بن محمد) الغساني » [٤] . وقال أبو الحسن ابن مغيث : « كان من أكمل من رأيت علما بالحديث ومعرفة بطرقه ، وحفظاً لرجاله » [٥] .

وقد وصفه ابن بشكوال ، وأثنى عليه ، فقال : « وكان من جهابذة المحدثين ، وكبار العلماء المسندين وعنى بالحديث وكتبه وروايته وضبطه . وكان حسن الخط ، جيد الضبط . وكان له بصر باللغة والإعراب ، ومعرفة بالغريب والشعر والأنساب ، وجمع من ذلك كله ، ما لم يجمعه أحد في وقته » [٦] .

---

(١) ضبطه المقرى فى أزهار الرياض ٣ – ١٤٩ .

(٢) من هامش الصلة ص ١٤٨ .

(٣) الصلة ص ١٤٢ وأزهار الرياض ٣ – ١٥٠ .

(٤) المعجم لا بن الأبار ص ٧٨ .

(٥) الصلة ص ١٤٢ وأزهار الرياض ٣ – ١٥٠ .

(٦) نفس المرجعين .

وهو من شيوخ القاضي عياض ، كما ذكر المقري في أزهار الرياض [1] وأصابته زمانة في أخريات عمره ، فعطلته ، ورحل إلى المرية للاستشفاء بحمتها، وهي حمة بجانة وذلك قبيل وفاته بسنتين. ثم عاد إلى قريته، حيث توفي سنة ثمان وتسعين وأربع مائة . وكان مولده سنة سبع وعشرين وأربع مائة [2]

وكان قد جمع كتاباً حسناً مفيداً في رجال الصحيحين ، وسماه بتقييد المهمل وتمييز المشكل ، وكانت نسخة منه عند الوزير الأديب أبي عبد الله بن أبي الخصال ، وتقيد فيها أنه توفي يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وتسعين وأربعمائة [3] .

٢ ـ أبو سعيد الوراق :

وقد ذكر ابن بشكوال ، وابن فرحون ، أبا سعيد الوراق ، من شيوخ ابن السيد [4] . ولم نعثر على ترجمة له إلا عند الحميدى [5] ، فانه ذكر شخصاً بهذه الكنية ، واللقب ، ولم يذكر اسمه ، ولا نسبه ولا مولده ولا وفاته ، ولم يقل في ترجمته غير أنه كان من أهل الأدب والفضل ، وكان قد حج ، وحكى عنه قصة شاعر أسود ، كان في رفقة من الأعراب ، النازلين بعرفات . وكان هذا الأسود « يخدمهم فجعل النعاس يغلب عليه ، وهم يقيمونه لشغل لهم ، فلما طال عليه ، ضجر وجعل يقول (الرجز) :

في كل يوم شملتي مبلّة يقيّـل الناس ولن أقيّله

ولا نتحقق أهو نفس الرجل ، المذكور في شيوخ ابن السيد ، أو هو رجل آخر غيره . والله أعلم بالصواب .

ويذكر ابن خير أن ابن السيد أخذ عنه «الأصمعيات» حيث يقول :

---

(١) ٣ - ١٤٩ .

(٢) الصلة ص ١٤٣ وأزهار الرياض ٣ - ١٥٠ والمعجم لا بن الأبار ص ٧٨ .

(٣) ذكره ابن الأبار في معجم الصدفي ص ٧٨ .

(٤) الصلة ص ٢٧٨ والديباج ص ١٤١ .

(٥) الحميدى ص ٣٧٣ .

« وحدثني بالأصمعيات خاصة أبو الحسين عبد الملك بن محمد بن هشام ، رحمه الله ، عن الأستاذ أبي محمد عبد الله بن السيد البطليوسي ، عن الفقيه أبي سعيد الوراق ، عن أبي ذرعبد بن أحمد الهروي ، عن أبي بكر أحمد بن ابراهيم بن شاذان ، عن أبي محمد السكري ، عن أبي يعلي المنقري ، عن الأصمعي » [١] .

٢ ـ عاصم بن أيوب ، أبو بكر البطليوسى :

هو الوزير الأديب ، صاحب المظالم ، أبو بكر عاصم بن أيوب البلوي البطليوسي النحوي ، كان من أعيان بطليوس ، وأعلامها في الفنون والآداب العربية في وقته .

وكان قد أخذ العلوم عن شيوخ الأندلس ، وأعلامها ، من أمثال أبي بكر محمد بن الغراب ، وأبي عمرو السفاقسي (وهو من شيوخ أبي الوليد الوقشي) ، وأبي محمد مكي بن أبي طالب المقري ، واسمه حموش بن محمد بن مختار القيسي ، القيرواني المتوفى ٤٢٧ هـ [٢] .

وقد ذكره ابن بشكوال فقال : « وكان من أهل المعرفة بالآداب واللغات ، ضابطاً لهما : مع خير وفضل ، وثقة فيما رواه وأخبرنا عنه أبو محمد ابن السيد بجميع ما رواه » [٣] . وقال فيه صاحب البلغة ، ونقل عنه السيوطي أن أبا بكر البطليوسي كان إماماً في اللغة [٤] .

---

(١) ابن خير ص ٣٩١ .
(٢) وترجمته في معالم الإيمان ٣ — ٢١٣ والصلة ص ٤٢٣ وقال هو محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد ، والحميدي ص ٣٢٩ وقال إنه هو مكي بن محمد بن حموش .
(٣) الصلة ص ٤٢٧ .
(٤) بغية الوعاة ٢ — ٢٤ .

وله من المؤلفات : شرح المعلقات [1] ، وشرح الشعراء الستة [2] وشرح أشعار الحماسة [3] وكتاب الأوائل [4] ، وشرح ديوان رئيس الشعراء أبي الحارث الشهير بامرىء القيس ابن حجر الكندي [5] .

وقد توفي أبو بكر ، عاصم بن أيوب البطليوسي ، رحمه الله ، في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري ، وذلك سنة أربع وتسعين وأربعمائة [6] .

٤ ـ عبد الدائم القيرواني :

هو عبد الدائم بن مرزوق أبو القاسم القيرواني ، ثم الطليطلي ، كان من رواة شعر أبي العلاء المعري في المغرب ، وهو شيخ ابن السيد في شعر المعري ، كما صرح به في الانتصار [7] . ولا تحدثنا المصادر التاريخية متى كان قد وفد على الأندلس ، وفي أي مدينة من مدنها ، كان قد اشتغل بالتدريس ، ورواية شعر المعري . وأغلب الظن أنه كان بطليطلة ، حيث توفي ، وكان قد سافر إلى الأندلس في عصر قريب من تاريخ وفود أبي الفضل البغدادي ، إلا أنه لم يشتهر كشهرته ، ولم يحظ من العناية والاهتمام بمثل ما حظي به البغدادي . وهذا مما جعل أصحاب التراجم يهملون ترجمته ، وذكره ، ولم يترجم له إلا الضبي من المغاربة ، والسيوطي من المشارقة ، وذلك ضئيل ، مفرط في الإجمال ، والاقتضاب [8] .

---

(١) نفس المرجع .

(٢) ذكره ابن خير ص ٣٨٩ باسم كتاب الأشعار الستة الجاهلية وانظر بروكلمان ١ - ٣٠٩ وتكلمه ١ - ٥٤٣ .

(٣) ابن خير ص ٣٨٨ .

(٤) ذكره بروكلمان في تكلمه ١ - ٥٤٣ .

(٥) وقد طبع بمصر سنة ١٩٠٦ م .

(٦) بغية الوعاة ٢ - ٢٤ والصلة ص ٤٢٧ وبروكلمان ١ - ٣٠٩ .

(٧) الانتصار ص ٢٣ .

(٨) انظر الضبي ص ٣٨٦ ، وبغية الوعاة ٢ - ٧٥ .

وذكره الضبي فقال : « عبد الدائم بن مرزوق بن جبر (كـذا)
القيرواني أبو القاسم توفى بطليطلة سنة ٤٧٢ هـ [1] » . وترجم له السيوطي
فقال : « عبد الدائم بن مرزوق القيرواني ، نحوي قديم ، روى عن
أبو جعفر محمد بن حكم السرقسطي ، وأكثر أبو حيان في الارتشاف من
النقل عنه » .

ولم يذكره أحد منهما في شيوخ ابن السيد ، كما لم يذكره غيرهما بين
من أخذ عنهم . ولولا اعتراف ابن السيد بالسماع عنه ، لما عرفنا أنه من
شيوخه .

٥ ــ على بن أحمد البطليوسى :

هو علي بن أحمد بن حمدون أبوالحسن المقريء البطليوسي المعروف
بابن اللحلينة ، وذكره ابن بشكوال فقال : « روى عن أبي عمر المقريء وغيره
أخذ عنه شيخنا أبو محمد ابن السيد ، وغيره وتوفى في العشر الوسط من المحرم
سنة ست وستين وأربع مئة ببطليوس » [2] .

٦ ــ على بن محمد البطليوسى :

على بن محمد بن السيد ، أبو الحسن البطليوسي النحوي المعروف بالخيط
أخو صاحبنا أبي محمد ابن السيد البطليوسي ، كان مقدما في علم اللغة
وحفظها ، والضبط لها [3] .

وكان قد أخذ العلم عن أبي بكر بن الغراب ، وأبي عبد الله محمد
يونس وغيرهما . وأخذ عنه أخوه الأصغر أبو محمد كثيراً من كتب الأدب
والنحو واللغة . ولعله هو شيخه الأول في شعر أبي العـلاء المعري ، ف
ذكر ابن خير أن أبا محمد كان قد أخذ سقط الزند وضوءه عن أخيه ،

---

(١) الضبي ص ٣٨٦ .
(٢) الصلة ص ٣٩٧ وانظر بغية الوعاة ٢ - ١٤٢ .
(٣) بغية الوعاة ٢ - ١٨٩ والصلة ص ٤٠١ .

الحسن علي بن محمد ، عن أبي القاسم عبد الدائم بن مرزوق ابن خير القيرواني عن أبي العـــلاء المعري [1] .

وهو من الأدباء الشعراء ، ومن شعره [2] : (الكامل)

يارب ليل قد هتكت حجـــابه	بزجاجة وقـــادة كالكـــوكب
يسعى بها ساق أغن كأنهـــا	من خده ، ورضاب فيه الأشنب
بدران ، بدر قد أمنت غروبه	يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعمت برشف بدر طالع	فانعم ببدر آخر لم يغـــرب
حتى ترى زهر النجـــوم كأنها	حول المجرة ربرب ، في مشرب
والليل منحصر ، يطير غرابه	والصبح يطرده بـــاز أشهب

وكان ابن عكاشة [3] قد قبض عليه وألقاه في السجن بقلعة رباح ، لأسباب لم يذكرها التاريخ ، ولم يجلها البحث ، ولم تزل سرا غامضا إلى الآن . ومات ابن السيد ، الحيطال ، معتقلا ، في نحو الثمانين وأربع مئة ، أو في ثمان وثمانين وأربع مئة [4] .

٧ ـ أبو الفضل الدارمى البغدادى :

هو محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز ، أبو الفضل الدارمي ، البغدادي الوزير ، داعية أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي ، ورسوله إلى المعز بن باديس ، صاحب إفريقية ، ورسول المعري في بث شعره ، في بلاد إفريقية والأندلس. كان من أهل الفضل، والأدب ، والشعر . وهو شيخ ابن السيد في شعر أبي العلاء المعري كما صرح به في أكثر من موضع في الانتصار، وشرح سقط الزند [5] .

---

(١) ابن خير ص ٤١٢ وتعريف القدماء بالمعرى ص ٣٨٦ .

(٢) نفح الطيب ٢ – ٤٦٩ .

(٣) هو حكم بن عكاشة ، كان شجاعا مشهورا ، جبارا محتالا ، وهو الذى قتل الظافر بن المعتمد فى قرطبة ، وقتل هو فى آخر أيام المعتمد ، أعمال الأعلام ص ١٥١ و ١٥٨ .

(٤) الصلة ص ٤٠١ وبغية الوعاة ٢ – ١٨٩ .

(٥) انظر الانتصار ص ٢١ و ٢٣ و ٣٠ و ٤٥ وشروح سقط الزند ص ١٢٩٠ .

وعندما خرج من بغداد رسولا للقائم إلى المعز ، اجتمع في طريقه مع أبي العــلاء بالمعرة ، وأنشده قصيدة لامية مدح بها صاحب حلب ، فأعجب المعرى شعره وقبل عينه وقال : « لله أنت من ناظم » [1] . ووصل القيروان سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، فتقدم بفضل آدابه ، عند الكبراء ، وعرف قدره العلماء والفقهاء . وهو أول من أدخل كتاب يتيمة الدهر للثعالبي عندهم . وشهد حصار القيروان ، وخرج منها من أجل فتنة العرب واستيلائهم على البلاد ، وتوجه إلى سوسة ، وأقام بها عشر سنين [2] ، ثم رحل إلى الأندلس ، فنزل بدانية ، وعليها أبو الجيش ، مجاهد العامرى . ومن دانية رحل إلى بلنسية ، فلقى برًّا من أهلها ، وعرفوا قدره . إلا أنه أسرع الخروج منها إلى طليطلة ، وعليها المأمون بن ذي النون ، فاستقبله ، وأكرم مثواه ، وأجزل له العطايا ، وأجرى له ستين مثقالا في شهر واحد . وكان دخلها سنة ٤٥٤ ﻫ وتوفى بها في نفس السنة ، أو في العام بعدها كما قيل ، فرثاه أبو محمد بن خليفة المصرى [3] .

وكان ابن السيد حديث السن ، عندما سمع منه شعر المعري ، فقد ول سنة ٤٤٤ ﻫ ، ووفد أبو الفضل على الأندلس في نحو ٤٥٤ ﻫ نفس السنة أو سنة ٤٥٥ ﻫ ، فمعنى ذلك أن ابن السيد سمع منه في التي قضاها بطليطلة ، (التي لا تزيد عن السنتين) ، وهو في أو الحادية عشر من عمره .

وكان أبو الفضل البغدادى من الشعراء المجيدين ، وقائل في جارية تبخَّرت بالنَّدّ [4] : (الطويل) .

---

(١) نفح الطيب ٢ — ٧٧ .

(٢) معالم الإيمان ٣ — ٢٤١ والصلة ص ٥٤٠ .

(٣) معالم الإيمان ٣ — ١٤١ وما بعدها ونفح الطيب ٢ — ٧٧ والصلة ص ٥٤٠ والحميدى ص ٦٨ — ٦٩ والضبى ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤) نفح الطيب ٢ — ٧٨ .

ومخطوطة المتنين مهضومة الحشا	منعمة الأرداف ، تدمي من اللمس
إذا مادخان الند من جيبها علا	على وجهها أبصرت غيما على الشمس

ومن فرائد شعره ، قوله [1] (البسيط ؟) .

يا ليل ألا انجليت عن فلق	ظلّت ، ولا صبر لي على الأرق
جفا لحاظي التغميض فيك ، فما	تطبق أجفانها ، على الحدق
كأنني صورة ممثلة	ناظرها الدهر ، غير منطبق

تلاميذ ابن السيد

تلاميذ ابن السيد يكثر تعدادهم ويطول ذكرهم . وفيما يلي فهرس ، لأسماء بعضهم على ترتيب أبجدى ، مع ذكر المراجع لتراجمهم :

١ ـ إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن ، أبو إسحاق الأنصاري الغرناطي المتوفي ٥٧٩ هـ (ابن الأبار ١ / ١٨٩) .

٢ ـ إبراهيم بن خليفة بن أبي الفتح ، أبو إسحاق القضاعي المتوفي قبل لأربعين وخمسمائة (ابن الأبار ١ / ١٧٧ ومعجمه في أصحاب الصدفي ص ٦٢)

٣ ـ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ، أبو إسحاق الخزرجي التطيلي ، من الراحلين إلى المشرق ، (ابن الأبار ١ / ١٩١) .

٤ ـ إبراهيم بن محمد ، أبو إسحاق اللخمي السبتي ، المعروف بابن المتقن ، من الراحلين إلى المشرق ، السامعين من السلفي (ابن الأبار ١ / ٢١٣) .

٥ ـ أحمد بن جبير ، الكناني المتوفي ٥٥٢ ، والد ابن جبير الرحالة لمشهور ، كان من الكتاب الشعراء الوزراء ، (ابن الأبار ١ / ٧٧) .

٦ ـ أحمد بن جعفر بن عبد الله ، أبو محمد المعافرى ، البلنسي ، المتوفي ٥٤٧ هـ من قضاة الأندلس النابهين ، (ابن الأبار ١ / ٦٩) .

---

(١) نفح الطيب ٢ ـ ٧٧ .

٧ ــ أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد ، أبو بكر البلنسي ، المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ، وقد ذكره ابن الأبار فقال : وكتب علما كثيرا ، حتى انفرد بالرواية عن البطليوسي ، فكان آخر الرواة عنه بالسمع (ابن الأبار ١ / ١٠٥ وانظر ابن الفرضي ت ٥٣٨ لترجمة جده الأعلى) .

٨ ــ أحمد بن عبد العزيز بن الفضيل ، أبو العباس الوراق الأنصاري الشريوني القيسي ، المتوفى ٥٧٢ هـ (ابن الأبار ١ / ٩٦) .

٩ ــ أحمد بن الفرج أبو عامر التجيبي البلنسي ، صاحب « المجمل في العروض » . من العلماء الأدباء ، والشعراء الرؤساء ، (ابن الأبار ١ / ٦١)

١٠ ــ أحمد بن محمد بن عبد الرحيم ، أبو العباس الأنصاري ، المعروف بابن البراذعي (ابن الأبار ١ / ٨٣) .

١١ ــ أحمد بن محمد بن عبد الله أبو العباس الأنصاري المقريء ، المعروف بابن اليتيم ، المتوفى ٥٨١ هـ (ابن الأبار ١ / ١٠٣ وغاية النهاية ١ / ١٢١) .

١٢ ــ أحمد بن محمد ، أبو بكر الأنصاري البلنسي ، من الملازمين لابن السيد ، الآخذين عن أبي الطاهر السلفي (٥٧٦ هـ) ، (ابن الأبار ١ / ١٠ والسلفي ص ٢٨) .

١٣ ــ أحمد بن معد بن عيسى ، أبو العباس التجيبي ، الأقليشي الزاهد ، المتوفى سنة ٥٥٠ هـ ، من الأدباء الشعراء ، الراحلين إلى المشرق ، الآخذين عن علمائه ، الراوين لشعر ابن السيد البطليوسي . (وترجمته عند ابن الأبار ١ / ٧٥ ونفح الطيب ١ / ٨٧٢ والسلفي ص ٢٤ ، و ٢٥) .

١٤ ــ أحمد بن ملك بن مرزوق ، أبو العباس الطرطوشي ، ثم البلنسي المتوفى ٥٥٣ هـ من العلماء القضاة في الأندلس ، (ابن الأبار ١ / ٧٨) .

١٥ ــ جعفر بن أحمد بن خلف ، أبو أحمد البلنسي ، المتوفى ٥٦٧ هـ ، من الشيوخ الأخيار ، (ابن الأبار ١ / ٢٨٤) .

١٦ ـ حسين بن محمد بن حسين ، أبو على الأنصاري ، الطرطوشي ، صاحب الصلاة والخطبة بمرسية ، قرأ أدب الكتاب لابن قتيبة على ابن السيد ، (التكملة ت ٨٣ والمعجم لابن الأبار ت ٦٨) .

١٧ ـ حنون بن الحكم ، أبو الحسن اليعمري ، الأبذي (التكملة ت ١٠٧) .

١٨ ـ خلف بن عبد الملك بن مسعود ، أبو القاسم ابن بشكوال القرطبي الأنصاري ، المتوفى ٥٧٨ هـ ، صاحب كتاب الصلة ، وقد صرح فيه غير مرة ، أن ابن السيد البطليوسي من شيوخه (وترجمته في التكملة ت ١٧٩ ، والمعجم لابن الأبار ت ٧٠ ، والديباج ص ١١٤) .

١٩ ـ خلف بن محمد بن خلف ، أبو القاسم الأوريولي ، المتوفى ٥٥٧ هـ ، من قضاة الأندلس ، (التكملة ت ١٧٤) .

٢٠ ـ خليل بن إسماعيل بن خلف ، أبو محمد السكوني ، من الفقهاء المشاورين في الأحكام ، وشيوخ ابن خير الاشبيلي (التكملة ت ١٨٨) .

٢١ ـ سعيد بن فتح بن عبد الرحمن ، أبو الطيب الأنصاري الثغري ، ثم المرسي ، (الذيل الرابع ص ٣٩) .

٢٢ ـ سفيان بن عبد الله بن سفيان ، أبو محمد التجيبي القونكي ، المتوفى ٥٤٦ هـ ، (الذيل الرابع ص ٤٧) .

٢٣ ـ سليمان بن عبد الملك بن روبيل ، أبو الوليد العبدري البلنسي ، المتوفى سنة ٥٣٠ هـ ، (الذيل الرابع ص ٧٤) .

٢٤ ـ سليمان بن يوسف بن عوانة ، أبو الربيع الأنصاري اللاردي ، (الذيل الرابع ص ٩٨) .

٢٥ ـ طاهر بن عبد الرحمن بن سعيد ، أبو بشر الأنصاري الداني ، المعروف بابن سبيطة ، المتوفى ٥٤٠ هـ ، (التكملة ت ٢٧٠ والذيل الرابع ص ١٥٤) .

٢٦ – عاشر بن محمد بن عاشر ، أبو محمد الأنصاري الشاطبي ، المتوفي سنة ٥٦٧ هـ ، صاحب « الجامع البسيط وبغية الطالب النشيط » ، (التكملة ت ١٩٥٤ والضبي ت ١٢٧٠ ، والذيل الخامس ص ٩٩ ، والمعجم لابن الأبار ص ٢٩٨) .

٢٧ – عاصم بن خلف بن محمد ، أبو محمد التجيبي البلنسي ، المتوفي ٥٤٧ هـ ، من العاكفين على كتاب المدونة ، (التكملة ت ١٩٤٨) .

٢٨ – عبد العزيز بن أحمد بن غالب ، أبو الأصبغ البلنسي ، المتوف في حدود سنة ٥٧٣ هـ . (التكملة ت ١٧٦٣) .

٢٩ – عبد الله بن إبراهيم بن سعيد ، أبو محمد القونكي ، روى عن أبي محمد البطليوسي ، وروى عنه أبو بكر بن عبد الله بن خلف ، (الذيل الرابع ص ١٧٦) .

٣٠ – عبد الله بن أحمد بن سعيد ، أبو محمد العبدري البلنسي ، المعروف بابن موجوال ، المتوفي ٥٦٧ هـ ، من شيوخ ابن خير ، وصاحب شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، (التكملة ت ١٣٨٦ ، والمعجم لابن الأبار ت ٢٠٧) .

٣١ – عبد الله بن محمد بن الخلف ، أبو محمد الصدفي البلنسي ، المعروف بابن علقمة المتوفي في حدود ٥٤٠ هـ (التكملة ١٣٥٤) .

٣٢ – عبد الله بن موسى بن محمد ، أبو محمد الأنصاري البلنسي ، المتوفي بعد السبعين وخمسمائة ، (التكملة ت ١٣٩١) .

٣٣ – عبد الملك بن سلمة بن عبد الملك ، أبو مروان الأموي الوشقي ، المعروف بابن الصقيل ، المتوفي ٥٤٠ هـ ، (الحلل ٢ – ١٨٠ والتكملة ت ١٧٠٨ ، والذيل الخامس ص ٢٠) .

٣٤ – عبد الملك بن محمد بن هشام ، أبو الحسين القيسي الشلبي ، المعروف بابن الطلا ، المتوفي ٥٥١ هـ ، من شيوخ ابن خير ، (التكملة ت ١٧١٥ والذيل الخامس ص ٤٣) .

٣٥ ـ عبد الواحد بن محمد بن خلف ، أبو محمد القيسي ، المتوفي سنة ٥٥٠ هـ (التكملة ت ١٨٠٢) .

٣٦ ـ عبد الوهاب بن محمد بن أحمد ، أبو العرب البقساني البلنسي ، المتوفي ٥٥٢ هـ ، (التكملة ت ١٧٩٠ ، والذيل الخامس ص ٩٤ والمعجم لابن الأبار ت ٢٤٨) .

٣٧ ـ عبد الوهاب بن محمد بن علي ، أبو محمد القيسي الزاهد ، المتوفي سنة ٥٩٨ هـ ، وهو آخر وفاة من تلاميذ ابن السيد (التكملة ت ١٧٩٣) .

٣٨ ـ عتيق بن أحمد بن محمد بن خالد أبو بكر المخزومي المتوفي ٥٤٨ هـ (الذيل الخامس ص ١١٦ ، والتكملة ت ١٩٣٥).

٣٩ ـ عتيق بن عبد الجبار ، أبو بكر الجذامي البلنسي ، المتوفى ٥٣٩ هـ (وترجمته في التكملة ت ١٩٣٤ والذيل الخامس ص ١٢١) .

٤٠ ـ عدل محمد بن عدل ، أبو الحسن الغافقي المرسى ، من الراحلين إلى الشرق ، الرواة لشعر ابن السيد ، (السلفي ص ٩٧ الذيل الخامس ص ١٤١ والضبي ت ١٢٧١) .

٤١ ـ علي بن إبراهيم بن محمد ، أبو الحسن ابن سعد الخير البلنسي ، لمتوفي سنة ٥٧١ هـ ، صاحب القرط على الكامل .

٤٢ ـ علي بن عبد الله بن خلف المعروف بأبي الحسن ابن النعمة ، المتوفي سنة ٥٦٧ هـ ، من تلاميذ ابن السيد الأعلام النابهين ، والمختصين به ، (وترجمته في التكملة ت ١٨٦٣ والذيل الخامس ص ٢٢٦ ، ونيل الابتهاج ص ١٩٩ ، والمعجم لابن الأبار ت ٢٦٩ ، والضبي ت ١٢٢٤ ، وبغية الوعاة ٢ / ١٧١) .

٤٣ ـ علي بن عبد الله بن موسى بن طاهر ، أبو الحسن البرجي المتوفي سنة ٥٣٦ هـ (التكملة ت ١٨٤٥ ، والذيل الخامس ص ٢٣٧) .

٤٤ ـ علي بن عطية الله بن مطرف ، أبو الحسن اللخمي البلنسي ، المعروف بابن الزقاق ، المتوفى سنة ٥٣٠ هـ (التكملة ت ١٨٤٤ ، والذيل الخامس ص ٢٦٥ ، والمغرب ٢ / ٣٢٣ وهو فيه : علي بن إبراهيم بن عطية ـ والشذرات ٤ / ٨٩ وهو فيه علي بن عطية) .

٤٥ ـ علي بن محمد بن زكريا ، أبو الحسن الأنصاري اللاردي (الذيل الخامس ص ٣٠٥) .

٤٦ ـ عمر بن محمد بن أحمد ، أبو حفص القضاعي البلنسي ، المتوفى سنة ٥٧٠ هـ ، (التكملة ت ١٨٢٥ ، والذيل الخامس ص ٤٥٧) .

٤٧ ـ عمر بن محمد بن واجب ، أبو حفص البلنسي ، المتوفى ٥٥٧ هـ ، (الذيل الخامس ص ٤٦٧ ، والتكملة ت ١٨٢١) .

٤٨ ـ عياض بن موسى بن عياض ، أبو الفضل اليحصبي ، المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، من أئمة الأندلس ، وأعلامها الخالدين ، وتلاميذ ابن السيد النابهين ، وهو الذي كان سبباً لتخليد ذكراه ، ولولاه لضاعت الرسالة التي كتبها الفتح عن حياة ابن السيد ، وأخذها المقري بأسرها في «أزهار الرياض في أخبار عياض» ، وهو صاحب مشارق الأنوار ، وكتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ، (الديباج ص ١٦٩ ، والصلة ص ٤٢٩ وأزهار الرياض ٣ / ٥ وما بعدها ، و ١٠١ ، والمعجم لابن الأبار ص ٢٩٤ وتكملته ت ١٩٤٧ والضبي ت ١٢٦٩) .

٤٩ ـ عيسى بن محمد بن شاهد الأنصاري الاشبيلي ، (الذيل الخامس ص ٥٠٦) .

٥٠ ـ الفتح بن محمد بن عبيد الله ، أبو نصر القيسي الكاتب الوزير ، المتوفى ٥٢٨ هـ ، صاحب المطمح والقلائد ، سمع من ابن السيد كتاب الانتصار ، سنة ٥١٦ هـ ، (المعجم لابن الأبار ت ٢٨٥ ، والشذرات ٤ / ١٠٧ ، والذيل الخامس ص ٥٢٩ والإرشاد ١٦ / ١٨٦ ، والمغرب ٢ / ٢٥٤ وابن خلكان ت ٤٩٨) .

٥١ ـ محمد بن أحمد بن سعيد ، أبو عبد الله العبدري المقرىء ، المعروف بابن موجوال ، وهو أخو أبي محمد عبد الله العبدري المعروف

بابن موجوال ، المار ذكره ، (المعجم لابن الأبار ت ١٤٩ ، وتكلته ت ٦٩٠ ، والذيل الخامس ص ٦٤٢) .

٥٢ ـ محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ، أبو عبد الله اللخمي الطوطوشي الشاطبي ، المعروف بابن الأصيلي المتوفى ٥٦٣ هـ (التكملة ت ٧٤٩ ، والذيل الخامس ص ٦٧١) .

٥٣ ـ محمد بن أحمد بن عمران أبو بكر البلنسي ، المتوفي سنة ٥٦٣ هـ (التكملة ت ٧٣٧) .

٥٤ ـ محمد بن إدريس بن عبد الله ، أبو عبد الله المخزومي البلنسي ، المتوفي سنة ٥٤٦ هـ ، (التكملة ت ٦٦٦) .

٥٥ ـ محمد بن الحسن بن محمد ، أبو عبد الله الداني المقرىء ، المعروف بابن غلام الفرس ، المتوفي ٥٤٧ هـ (التكملة ت ٦٦٩) .

٥٦ ـ محمد بن عبد الرحمن بن أبي العاص ، أبو عبد الله الأنصاري ، المتوفي في نحو ٥٢٠ هـ ، من ولد سعد بن عبادة رضي الله عنه ، من تلاميذ الوقشي وابن السيد ، (التكملة ت ٥٥٠) .

٥٧ ـ محمد بن عبد الرحيم بن محمد ، أبو عبد الله الأنصاري ، من ولد سعد ، صحابي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (التكملة ت ٧٥٠) .

٥٨ ـ محمد بن عبد الله بن محمد ، أبو عبد الله الغرناطي ، المعروف بابن الغاسل ، المتوفي بعد ٥٧٠ هـ ، (التكملة ت ٧٦٩) .

٥٩ ـ محمد بن عبد الوهاب بن عبد الملك ، أبو عامر العبدري الطرطوشي ثم البلنسي ، (التكملة ت ٧١٢) .

٦٠ ـ محمد بن عبيد الله بن أحمد ، أبو عبد الله الخشني ، المعروف بابن العويص ، المتوفي ٥٧٦ هـ ، (التكملة ت ٧٨٣) .

٦١ ـ محمد بن عمر بن عبد الله ، أبو بكر العقيلي البلنسي ، المعروف بابن القباب ، وهو من تلاميذ الوقشي ، (التكملة ت ٥٨٦) .

٦٢ ـ محمد بن أبي القاسم بن عميرة ، أبو عبد الله المري الكاتب ، (ترجمته في التكملة ت ٧٨٧) .

٦٣ ـ محمد بن مخلوف بن جابر أبو عبد الله اللواتي النحوي البلنسي (التكملة ت ٧٦٧) .

٦٤ ـ محمد بن مسعود بن عبد الله ، أبو بكر الخشني النحوى المعروف بابن أبي ركب ، المتوفي ٥٤٤ هـ ، (التكملة ت ٦٥٥) .

٦٥ ـ محمد بن هشام بن عبد الله ، أبو عبد الله ، المعروف بالبّى ، من أهل مربيطر ، (التكملة ت ٨٠٨) .

٦٦ ـ محمد بن يحيي بن محمد ، أبو عبد الله الأنصاري البلنسي ، المتوفي سنة ٥٤٧ هـ ، (التكملة ت ٦٧٢) .

٦٧ ـ محمد بن يوسف بن سعادة ، أبو عبد الله المرسى ثم الشاطبي ، المتوفي سنة ٥٥٥ هـ ، من الراحلين إلى الشرق الآخذين عن علمائه ، وهو صهر أبي على الصدفي ، وإليه صارت كتبه ، (نفح الطيب ١ / ٥٦٥ ، والتكملة ت ٧٤٦ ، والمعجم لابن الأبار ت ١٥٨) .

٦٨ ـ محمد بن يوسف بن سليمان ، أبو بكر القيسي السرقسطي ، المعروف بابن الجزار ، المقتول سنة ٥٤٠ هـ ، (الحلل ٢ / ١٥٠ ، والتكملة ت ٦٣٥ ، والمعجم لابن الأبار ت ١٢٧) .

٦٩ ـ محمد بن يوسف بن عبد الله ، أبو الطاهر التيمي السرقسطي ، الاشتركوني ، المتوفي ٥٣٨ هـ ، صاحب المسلسل ، والمقالات اللزومية ، (الحلل ٢ / ١٤٠ والصلة ص ٥٥٦ ، والمعجم لابن الأبار ت ١٢٤ .

٧٠ ـ مروان بن عبد الله بن مروان ، أبو عبد الله البلنسي ، المتوفي سنة ٥٧٨ هـ ، (التكملة ت ١٠٨٨) .

٧١ ـ منصور بن مسلم بن عبدون ، أبو على الزرهوني الفاسي ، المعروف بابن أبي فوناس ، المتوفي ٥٥٦ هـ ، (المعجم لابن الأبار ت ١٧٤ والتكملة ت ١١٢٣) .

٧٢ ـ يحيي بن عبد الله بن فتوح ، أبو زكرياء الحضرمي الداني ، المتوفي في نحو ٥٥٠ هـ ، (التكملة ت ٢٠٤٣) .

الدكتور ظهور أحمد أظهر
رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بنجاب

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية

- ٢ -

(وتواصل « العرب » نشر بعض مواد القسم المتعلق بشمال المملكة ، مما لم يسبق نشره ، وسيصدر قريبا في جزء من اجزاء المعجم) .

زَبَرْجَدَة : قال البكري – في « المسالك والممالك » : (والزَّبَرْجَد وهو يوجد في جزيرة بين العُوَيْند والحوراء ، وتسمى تلك الجزيرة زبرجدة) . ومفهوم هذا أن هذه الجزيرة بقرب ميناء الوجه .

الزَّبِيْرُ – بفتح أوله – قال الصغانيُّ في «التكملة » وياقوت في «معجم البلدان »[1] : الزَّبير اسم موضع قرب الثعلبية قال أعرابي : (ورد اسمه في الثعلبية) :

إذا ما سماءٌ بالدَّنَاح تخايلَتْ　　فإنيٌّ على ماء الزَّبير أشيمُها

ويقول موزل [2] عن هذا الذي ذكره ياقوت : يقع بئر الزبار الآن على بعد ٢٨ كيلا إلى الجنوب الشرقي من الثعلبية (وانظر الزبيرة) .

الزَّبيْرة : – بفتح الزاي مؤنث ما قبله – وهي عُقَلٌ من مناهل التيسية ، الواقعة في الجنوب الغربيّ منها ، وبقربها أمُّ الذيابة وسَدْحَة ، آبار .

وأرى أنَّ الزَّبيرة هذه هي التي سماها ياقوت الزَّبير ، أو بقربها وهي من مياه قبيلة حَرْب ، جنوب شرق الثعلبية (بقرب خط الطول ٤٠ –

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) « العرب » س ٧ ص ٢٧٠ .

٤٣° وخط العرض ١ ـ ـ ٢٨°) وفيها مركز حكومي وتبعد عن حايل بنحو ٣٢٠ كيلا .

وفي « معجم البلدان » : الزبيرتـان ماءتان لطهية من أطراف أخارم خفاف ، حيث أفضى فى الفرع ، وهي أرض مستوية . انتهى .

وفي « التكملة »[1] : من أطراف أخارم جفـاف وأقول : بنو طهية ، هؤلاء من بني مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، منسوبون إلى أمهم[2] ، وبلادهم تقع شرق القصيم ، ومنها النبقة (النبقية) وتلك البلاد ليست بعيدة عن الزبيرة التي تقدم تحديدها . ولا أستبعد أن تكون كلمة (الفـرع) صوابها : الفـرغ ـ بالغين ـ وقـد أضافه ياقـوت إلى (قُبة) وقُبة هذه بقـرب الزَّبَيرة ، وخفاف أراه جفافاً ـ بالجيم ـ وهو موضع فى هذه الجهات .

الزُّبَيْنيَّات ـ بالضَّم : تَخبارَى تقع شرق بلدة طُرَيف وغرب أمّ أوْعال زَحَنَّفَق : ـ بالزاي المفتوحة بعدها حاءٌ فنون ساكنة ففاءان أولهما مفتوحة ـ : جبل أسود من جبال حـرة أبْضَةَ ، بين قـريتي أُبضَة والجُحْفَة ، يشاهد من القـريتين ، وهو يبعد عن مـدينة حايل بنحو ٩٠ كيلا شرقاً جنوبيا .

زَخَّةُ ـ بالفتح وتشديد الخاء ـ كذا في « معجم البلدان » وأورد أنـه موضع في بلاد طيِّءٍ ويوم زَخَّة من أيام العرب ، وأورد شعراً لبهكنة الفزاري ، وأراه تـصحيف رخة (بالـراء المهملة وانظره في موضعه) .

الزُّرابُ : جبال عاليةٌ بين فَيْد والجبلين ، عن بدويٍّ من أهل تلك البلاد ، خبرنا بها . كذا قال ياقوت في « معجم البلدان » .

الزُّراب : ـ أيضا ـ وادٍ يقع في الطرف الشرقي الشمالي لحرَّة بني

---

(١) : ٢ ـ ٥ .

(٢) « بلاد العرب » ص ٢٦٦ .

عطية ، ويبعد عن تبـــوك ٧٠ كيلا تقريباً في الجنوب ، وقد ورد ذكره في وصف مسير النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك وذكر المتقدمون أن فيه مسجداً من المساجد النبوية ، وسموا الموضع ذات الزراب .

الزُّرْق : — بضم الزاي وإسكان الراء وآخره قاف في « معجم البلدان » . رمالٌ بالدهناء ، وقيل : قرية بين النَّباج والسُّمَينة وهي صَعْبة المسالك قال ذُو الرُّمَّة :

فيا أكْرَم السَّكْن الذين تَحمَّلوا عن الدَّار والمُسْتَخلف المُتبَدل
كأنْ لمْ تحُل الزُّرْق ميٌّ ولم تَطأ بجرعاء حَزْوَى ذيْل مرْطٍ مرجل

وقال : ألا حَيِّيا بالزُّرق دار مُقَام .

وفي « بلاد العرب[1] » — بعد كلامه على الدهناء — في وصف الطريق من حجْر (الرياض) إلى البصرة (والصُّبَيْغاء وهي برقاء بمنقطع الدهناء إذا جزت الصُّبيغاء وقعت في أبْرق يقال له القنفذ ، ثم إذا جزت القنفذ استقبلت أول الصَّمّان ، وعن يسارك قبل ذلك الزُّرْقُ اللاتي ذكرهـن ذو الرمة ، وهي أجارع من الرمل ، وهي من أرض سعد ، وهي من الدهناء) .

وفي كتاب « المناسك[2] » عند ذكر السُّمَّينة التي تقع غـرب الينسوعة بتسعة وعشرين ميلا ، وشرق النَّبّاج بثلاثة وعشرين ميلا قال : (والسُّمينة بين مُضْرط ومرْبخ ، ينْحدر من أحدهما ويُصْعد في الآخر بصعوبة شديدة قال الراجز : —

أمنْ حذَار مُضْرطٍ تَمطَّبنْ (؟) لا بدَّ منْه فانْحَدرْن وارْقَيْن

فالأول منها التي تلى البصرة أصعبها ، فكان الحجاج لما انحدر انحدر ومعه جارية ، فلما استصعب على الجمالين الرمل في هذا الموضع

(١) ص ٣١٢ .
(٢) ص ٥٨٤ .

سألوا أصحاب الحجاج أن ينزلوا عن الإبل ، ليخففوا عنها فيمشوا فلم يبق إلا الحجاج وجاريته ، فقال الراجز :

الرمل لا يركب فيه أحد إلا النساء وأبو محمد

فالرجاز حتى الساعة يرتجزون في هذا الموضع بهذا ، ويرتجزون أيضا :

يا حبذا القمراءُ والليل ساجْ وطُرق مثلُ ملاء النساجْ

وهذه الرملة بها الزرق التي يذكرها ذو الرمة – إلى أن قال – : ثم من وراء هذا الرمل الشقائق ، وهي سبعة أحبل ، بينها سبع شقائق : لكل حبل منها اسم ولكل شقيقة اسم) انتهى المقصود منه .

وقال ياقوت في « معجم البلدان » : السمينة : أول منزل من النباج ، للقاصد إلى البصرة ، وهو ماء لبني الهجيم ، فيها آبار عذبة وآبار ملحة ، بينهما رملة صعبة المسلك ، بها الزُّرْقُ التي ذكرها ذو الرُّمة في شعره .

وقد أكثر ذو الرمة من ذكر الزرق ، ومن ذلك (١) :

فماأيأستني النَّفسُ حتَّى رأيتُها بحَوْمانَة (٢) الزُّرق احزألتْ حُدورُها

وقال (٣) :

وقرَّبن بالزُّرق الجمائل بعدما تقوَّب عن غربان أوراكها الخَطْر (٤)

الزرق : أكثبة الدهناء .

• وقال :

إذا شئت أبكاني بجرعاء مالك إلى الدَّحْل مستبدى لمي ومحضر (٥)
وبالزُّرق أطلال لمَيَّة أقفرتْ ثلاثة أحوال تُراح وتُمْطر

---

(١) ديوانه ص ٢٨٨ .
(٢) الحومانة : القطعة من الأرض الغليظة ، احزألت : احتفلت وشخصت .
(٣) ديوانه ٥٦٧ .
(٤) جائل : جمال ، تقوب : تقشر ، غربان الأوراك : رؤوسها ، الخطر : آثار البول التي تيبس على الغربان من ضرب الجمل بذنبه فوق وركه .
(٥) ٦١٥ .

الزرق : أكثبة بالدهناء .

وقال [1] :

كأنّي غداة الزُّرق يا مَيّ مُدْنَف يَكيدُ بنَفْس قدْ أجمّ حمامُها [2]

– وفي الشرح : الزرق : كثبان الرمل .

وقال أيضا ، وقرنها بمشرف :

وَعيْنٌ أرشّتْها بأكْناف مُشْرف
من الزُّرق في سفلك ديسار الحبَائب

فمشرف من الزرق ، وهو نقا طويل من أنقاء الدهناء .

وقال :

نظرْت ورائي نظرة الشّوق بعدما بَدا الجوّ من (جيٍّ) لنا والدّساكر
لأنْظُر هلْ تَبْدو لعيني نَظْرةٌ بحَومانة الزُّرق الحُمُول البواكر

إلى أن قال – :

جَذُبْن الهوى من سِقْط حَوْضَى بسُدْفة
على أمْر ظعّان دَعَتْه المَحاضِر
فأصْبَحن قد نكّبْن حوْضى وقابلَتْ
من الرّمل نَبْجاء الجماهير عاقرٌ

وفي تفسيره : أصبحن في مكان قابلتهن فيه من الرمل بنْبجاء – أي ضخمة الثبج يعني الرمل – عاقر : لا تنبت ، الجماهر : عظام الرمل ، وروى أبو عمرو البيت الأخير – كما ذكر المحقق الفاضل .. قد

---

(1) ص ١٠٠١ .
(2) مدنف : مريض ، يكيد : ينزع ، أجم : حضر ، حمامها : وهو القدر .

جاوزن حوضى وقابلت من الزرق . . ويلاحظ أن ذا الرمة يقرن الزرق بحُزْوى : فيقول [1] :

أسْقى الإلهُ به حُزْوى فجَاوبه ما قابَل الزرق منْ سهْل ومن جلَد

وهذا يدل على تقارب الموضعين، إلا أن يقال بأن السيل كثيراً ما يكون واسعا . وحزوى شرق الدهناء ، غرب الصمان ، وهي بعيـدة جداً عن طريق البصرة إلى مكة .

وقال ذو الرمة أيضا[2] :

فودَّعْن أقْواع الشَّماليل بعْدما ذوَى بقْلُها ، أحْرارُها وذكُورها

وفي الحاشية : الشماليل موضع في الزرق . وفي « معجم البلدان » : الشماليل حبال رمال متفرقـة بناحية معلقة . انتهى . وهذا يؤيد أن الزرق في جهة حزوى ، وأنها بعيدة عن طريق البصرة إلى مكة .

وفي « ديوان جرير » [3] قال :

ألا حَيِّ دار الهَاجريَّة بالزُّرق وأحْببْ بها داراً على البُعد والسَّحْق
سَقَتْك الغَوادي هلْ بربْعك قاطنٌ
أم الحَيُّ سارُوا نَحْو فيْحان فالعَمق(؟)

ـ هاجر : في بني ضبَّة ـ

وخلاصة ما يفهم من النصوص المتقدمة : ـ

١ ـ أن الزرق من أنقاء الدهناء ومنها نقا مشرف من أطول الأنقاء

٢ ـ أن الشماليل من الزرق ، والشماليل بناحية معْقلة ، وهذه لاتزال معروفة .

---

(١) ديوانه ص ١٩٠ .
(٢) ١٠١٨ - ١٠٢٣ .
(٣) ديوانه : ١٦٨ .

٣ ــ أن ذا الرمة يقرن الزرق بحزوى وحزوى معروفة وهي بجهة معقلة .

٤ ــ معقلة وحزوى يقعان جنوب طريق الحج البصري ، أي جنوب الحفر ــ حفر الباطن .

٥ ــ تحديد الحربي وياقوت ــ وقد أخذ عنه فيما يظهر من مقارنة النصين ــ يدل على أن الزرق تقع في الطريق البصري بين الينسوعة والسمينة . وهذا التحديد يخالف القول بأنها قرب معقلة وحزوى .

ولا مخرج من هذا إلا أن يقال : أن الزرق يقصد بها أعظم أنقاء الدهناء وأطولها ، ومعروف أن حبال الدهناء تمتدّ من الجنوب إلى الشمال مسافات طويلة ، فقد تكون أطراف الزرق الجنوبية غرب معْقلَة وحُزْوَى وتمتد حتى تبلغ طريق البصرة من حَجْرٍ (الرياض) شماله ، إلى طريق البصرة إلى مكة .

زَرُودُ ــ بفتح الزاي وضم الراء بعدها واو ساكنة فدال مهملة ــ : من أشهر منازل الحاج العراقي بعد الثعلبية وقبل الأجْفُر للمتجه إلى مكة .

ذكر في كتاب « المناسك[1] » : أنها سميت بزرود ابنة يثرب بن قانية من مهليل بن رام بن عبيل بن عوض بن رام بن سام بن نوح ــ نقل هذا عن ابن الكلبي الذي ألف كتابا في أنساب المواضع ، ومعروفة منزلته عند العلماء .

وقال في « المناسك » : وزرود قبل الخزيمية بميل ونصف ، وهي لبني أسد وبني نهشل أيضا ، وفيها من الآبار العامرة والمندفنة نحو من

(١) ص ٢٩٩ .

عشرين بئراً ، ماؤها غليظ ، وبها قصرٌ وحوانيت ، وبركة ماءٍ وحوض على بئر كبير قال الشَّماخُ بن ضِرار :

وراحتْ رَواحاً من زَرُوْد فنازعَتْ زُبالةَ جلْباباً من اللّيلْ أخْضَرا

ولقرب الخزيمية من زرود يقع الخلط بينهما ، فقد أورد صاحب « المناسك [1] » من قصيدة في وصف طريق الحج البصري بعد ذكر الثعلبية :

ثم الخزيمية أمُّــوا بعدها وَهْيَ زَرُود ، والنُّزُول عِنْدها

وفي « النقائض [2] » في شرح قول الفرزدق :

أتتْني أحاديثُ البُعيثِ ودُونه زَرُود فشامات الشَّقيق إلى الرَّمْل

زرود : لبني مجاشع بين الثعلبية والأجفر ، ليس لهم بالتربة (؟) ماء غيره من طريق الكوفة . والشَّقيقة الجدَدُ بين الرملتين ، وربما كان أميالا .

وفي « شرح ديوان جرير [3] » لمحمد بن حبيب : وليس لبني مجاشع بالبادية إلا زرود ووَقيْط . وقول الشماخ بن ضرار :

ورُحْنَ رواحاً من زرُود فنازعت زُبالة جلْباباً من الليل أخضرا [4]

هذا القول مشكل ، لأن المسافة بين زرود وزبالة لا يمكن أن تقطع في جزء يوم ، ولا في يوم كامل ولعله قصد ليل اليوم الثاني لا الذي راح فيه ، أو يكون قوله من قبيل قول ذي الرمة :

عشت من منى جنح الظلام فأصبحت

ببسيان أيديها مع الصبــح تلمــع

(١) كتاب « المناسك » ص ٥٦٤ .

(٢) ص ١٢٧ .

(٣) ص ٣٣٠ .

(٤) أصل الخضرة لون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسماء خضراء حتى سموا بذلك الكحل والليل « الحيوان » للجاحظ ٣ — ٢٤٦ .

وقال جرير يهجو الفرزدق [1] :

كانَّ مُجاشعاً نَخَبَاتُ نيب هَبطن الهَرْمَ أسفَلَ منْ سرارا
إذا حلُّوا زَرُود بنَوا عليْها بُيوت الذُّلِّ والعَمَد القصارا

وقال :

وإذا لقيتَ على زرُود مُجاشعاً تَركوا زرُوْد خبيْثة الأعطَان

وقال ياقوت[2] : روى أن الرشيد حجَّ ، فلما أشرف على الحجاز تمثل بقول الشاعر :

أقولُ وقد جُزْنا زَرُود عشيَّةً وراحَتْ مطايانا تؤمُّ بنَا نجْدا
علىَ أهْل بغْداد السَّلام فإنني أزيدُ بسَيْري عنْ بلادهمُ بعْدا

وقال مهْيار :

ولقَدْ أحنُّ إلى زَرُوْد وطيْنَتي منْ غيْر ما جُبلَت عليْه زَرُوْد

وقال ياقوت [3] : لعلها سميت بذلك لا بتلاعها المياه التي تمطرها السحائب ، لأنها رمال بين الثعلبية والخزيمية ، بطريق الحاج من الكوفة .

وقال ابن الكلبي عن الشرقي : زرود والسشقرة والربذة بنات يثرب بن قانية بن مهليل بن رخام بن عبيل أخي عوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . وتسمى زرود العنيقة وهي دون الخزيمية بميل .

قالو : أول الرمل الشيِّحة ، ثم رمل الشَّقيْق وهو خمسة أحْبُل حبلا زَرود وحبل الغرّ ، ومرْبخ ، وهو أشدها ، وحبل الطريدة ، وهو أهونها حتى تبلغ جبال الحجاز . انتهى كلام ياقوت .

ويلاحظ أن الدهناء لا تبلغ جبال الحجاز . ويمكن تخريج صحة هذا القول على أن المقصود بجبال الحجاز هنا جبال طيء فقد يطلق عليها

---

(1) « النقائض » ٢٥٠ — ٨٩٢ .
(2) « معجم البلدان » .
(3) « معجم البلدان » .

الحجاز (انظر هذا الاسم) أو أن المقصود حرار الحجاز ، فطرف الدهناء ، رمل عالج الغربي يكاد يتصل بطرف حرة ليلى الشمالي الشرقي .

وقد جرى بقرب زرود — في العهد الجاهلي معارك ، منها يوم من أيام العرب يضاف إليها .

قال النويري [1] : يوم زرود الثاني : أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع وهم بزرود ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم انهزمت بنو تغلب وأسر خُزَيْمَة بن طارق أسرَهَ أنيفُ بن جبلة الضّبي وهو فارس السليط وكان يومئذ نقيلا في بني يربوع ، وأسيد بن حنّاءة السَّليطي ، فتنازعا فيه فحكما بينهما الحارث بن قراد ، فحكم بناصية خزيمة لأنيف ، على أن لأسيد على أنيف مائة من الإبل قال : ففدى خزيمة نفسه بمائتي بعير وفرس فقال أنيف :

أخذْتُكَ قسْراً ياخزيمُ بن طارقٍ ولاقيْتَ مني الموْتَ يومْ زرُود
وعانقْته والخيْل تدمي نحورها فأنزلتهُ بالقاع غير حميد

وقال في « الروض المعطار » [2] : وزرود : حبل رمل بين ديار بني عبس وديار بني يربوع . وبزرود أغار خزيمة بن طارق التغلبي على بني يربوع ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزمت تغلب ، وأسر خزيمة ، وفي ذلك يقول الكلحبة اليربوعي من كلمة له :

فقُلْتُ لكأسٍ ألجميْها فإنمّا حلَلْتُ الكثيب من زرود لأفزعا

ولما وجه عمر رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص لحرب العراق ، خرج فنزل فيْد ، فأقام بها شهراً ثم كتب له عمر أن يرتفع إلى زرود ، فأتاها فأقام بها ، وأتاه ممن حولها من بني تميم بنو حنظلة ، وأتته سعد والرباب وعمرو ، وكان ممن أتاه عُطارد بن لبيب بن عطارد والزِّبْرقان

---

(١) « نهاية الأرب » ١٥ — ٣٨٣ .
(٢) ص ٢٨٧ .

وحنظلة بن ربيعة اليشكري وربعيٌّ بن شبث بن ربعي ، وهلال بن علقمة التميمي والمنذر بن حسان الضبي ، فقالت رؤساء حنظلة : يابني تميم قد نزل بكم الناس وهم قبائل الحجاز واليمن وأهل العالية ، وقد لزمكم قراها فشاطروها الرُّسل . ففعلوا فمن كانت له لقحتان فضَّ إحداهما عليهم ، ومن كان له أكثر فعلى حساب ذلك ، فقروهم شتوة بزرود ، ونزل الناس معه في أول الشتاء بزرود ، وتفرقوا فيما حولها ، وأقام سعد ينتظر اجتماع الناس ، ثم كتب عمر إلى سعد : أن سرّ حتى تنزل شَرَاف ، واحذر على من معك من المسلمين إلى أن كان من أمر القادسية ما كان) انتهى .

وزرود من مناهل العرب القديمة الواقعة على طريق الحج العراقي ولقدم زرود يحاول ابن الكلبي فيما نقل عن أبيه تعليل الاسم بنسبته لإحدى الأمم القديمة قال : سميت زرود وشقرة بزرود وشقرة ابنتي يثرب بن قانية بن مهليل بن رم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام بن نوح .

ويطلق اسم زرود على كثيب من النفود (الدهناء) مشرف على جوّ منخفض فيه آبار ، قال في كتاب « المناسك » : ودون الخزيمية بثلاثة أميال رمل يقال له حبلا زرود .

كما يطلق الاسم على موضع جلد يقع شرق هذا الرمل ، شرق المنهل يدعى شامة زرود ويقال شامات زرود يبعد عن الطريق ثلاثة أميال للمصعد ، بقرب الخط ٥٠َ ــ ٢٧° عرضا و١٣َ ــ ٤٣° طولا تقريباً ــ وتقع جنوب الطريق وبقربها بئر تدعى الوسيط .

وتبعد زرود عن بطن الأغر ــ كما في كتب المتقدمين ٣٨ ميلا ولكنها لا تبعد عن الحوير ــ الذي رجحت أنه هو الأغر ــ إلا بنحو ٣٥ كيلا .

وتبعد عن الأجفر ٥٨ كيلا وعن مدينة حايل بنحو ١٧٠ كيلا

وزرود من مياه قبيلة شمر ، وتقع زرود في وهدة منخفضة من الأرض وسط الرمال تحيط بها مرتفعات صخرية ــ حزوم ــ ولم أر من

آبارها باقياً سوى واحدة ، حين زرتها في ربيع الأول سنة ١٣٩٥ ، كما لم أشاهد بقرب البئر شيئاً من آثار العمران (تقع بئر زرود بقرب خط الطول ١٨َ – ٤٣° وخط العرض ٥٠َ – ٢٧°) .

الزَّرْيُ – بالفتح وإسكان الراء وآخره مثناة تحتية – : في كتاب «المناسك (١)» : (وعلى ستة أميال من الشقوق يمنة من الطريق بركة وقباب ومسجد يدعى الرُّسْتميَّة ، وهذا الموضع أول الزرْي ، والزري عقاب صغـــار وأرض خشنة ، صعود وهبوط ، إلى بطان ، ويقال : إنها نيف وسبعون عقبة ، وفيها رمل كثير ثم بركة الشُّيحة) ويفهم من كلامه أنها قبل بطان للمصعد بـ ١٢ ميلا ، وأن الرستمية أولها .

وذكر الهمداني (٢) أنَّ طريق زرْي طريق يتجه إلى اليمامة مارًّا بالدهناء من الاحساء ، ولكن هذا الطريق يقع جنوباً بعيداً عن طريق الحج الكوفي والواقع أن الطريق بين بطان وبين الشقوق ذو عقبات صغار ، وأرضه خشنة جداً .

الزُّرَيْبُ – تصغير الزَّرْب – : أرض تقع في شرق الحَنْفَة بينها وبين النفود ، شرق وادي نيَّان ، فيما بين الوجه وتيماء .

الزُّرَيْبُ – تصغير الزَّرب أيضاً : واد يقع شرقي الوجه على مقربة منه ، فيه نخل .

زُرَيْبين – مثنى زَرْبٍ مصغراً – : آكام تقع غرب بلدة جبَّة في النفود الكبير .

زعبَل : (انظر رعبل) .

الزَّعَبَلي – بفتح الزاي والعين والباء بعدها لام مكسورة مشددة .

---

(١) ص ٢٩٠ .

(٢) «صفة الجزيرة» طبعة دار اليمامة ص : ٢٨١ – ٢٨٢ .

فياء النسبة ، كأنه مركب من كلمتين [١] – بئر ارتوازية تقع غرب أنصاب ، على الحدود الشرقية ، في أسفل أودية الهذاليل ، شرقي زُبالة ، بميل نحو الجنوب ، وهو بعيد القعر ، إذ يبلغ طول رشائه ١٠٥ مائة وخمسة أبواع (٢١٠ أمتار) .

الزَّعْفرانُ – على اسم النبات المعروف – قال العيَّاشي [٢] – في كلامه على الوجه – : وفي أعلى الوادي بين جبلين ماءٌ يسمى الزعفران ، وماؤه طيب إلا أنه قليل ، فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل النجــدة والجرأة من الناس ، وربما هجمت عليهم العرب هنالك فيقع بينهم قتال ، إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون . انتهى. وهذا الماء هو الذي سماه العبدري وغيره الشَّعبين (انظره) على ما ذكر ابن عبد السلام في رحلته الكبرى .

الزُّغَيْبِيَّة – بالضم وفتح الغين المعجمة وإسكان المثناة التحتية وكسر الموحدة ثم مثناة تحتية مفتوحة مشددة فهاءٌ – ماءٌ بشرقي سميراء ، في طريق الحاج كذا قال ياقوت [٣] ، ولعل الصواب بغربي سميراء ، فهناك منهل أصبح الآن قرية من قرى قبيلة حرْب في الجنوب من حايل على بعد ١٩٠ كيلا بهذا الاسم .

وكتب إلى الأستاذ محمد العبُوديُّ : أن الزغيبية ماء عدٌ لقوم من ولد سليم من حرْب غرب شمال قرية البايث (الحاجر) بنحو ٢٠ كيلا .

الزَّقْلَة :– بالفتح وإسكان القاف وفتح اللام وآخره هاءٌ – : أرض

---

(١) وبعضهم ينطقه : (ازعبنل) .

(٢) « الرحلة العياشية » ١ – ١٧٤ .

(٣) « معجم البلدان » .

بين وادي أعَيوج غرباً ، وهَدْلُول المسَعْرى شرقاً ، في شمال الهذاليل . غرب منهل الشعبة .

زُلْفَةُ : — بضم أوله وسكون ثانيه وفاء — ماء شرقي سميراء . قال عُبَيد بن أيوب اللّصّ :

لعمرُكَ إني يومْ أقواز زُلْفَة على ما أرَى خلْفَ القنَا لَوَقُورْ
أرى صَارِماً في كَفِّ أشْمَطُ ثائر طوَى سِرَّهُ في الصَّدر ، فهوْ ضَمِيرْ

وقال عبد الرحمن بن حزْن :

سقَى جدثاً بيْن الغَميمْ وزُلْفة أحمُّ الذُرى ، واهي العَزَالى مطيرُها
إذا سكَنتْ عنْها الجنُوب تَجاوبَتْ جِلادُ مَرابيع السَّحاب وخُوْرُها
وإنّيْ لأصْحاب القبُور لغَابطٌ بسوْداء إذ كانتْ صدىً لا أزُورُها
كانَّ فؤادي يوْم جاء نعيُّها ملاءةُ قزٍّ بيْن أيْد تُطيرُها

وعَدَّ ياقوت[1] زُلْفة من مياه بني أسد وذكرها مع زوراء (انظر هذا الاسم) وكون الشاعر قرنها بالغميم يدل على قربها منه ، والغميم هذا هو الوارد في ذكر الاقطاعات النبوية ، وهو غير القريب من عسفان ، هو بقرب وادي الرمة حيث منازل بطون من بني تميم .

زَلُّوم — بفتح الزاي وتشديد اللام المضمومة بعدها واو ثم ميم — يطلق هذا الاسم على موضعين : أحدهما : جبل مرتفع في الشمال الشرقي من سكاكة على مسافة ٣٠ كيلا ، يمر به الطريق منها إلى عرعر . الثاني : قصرٌ أثريٌّ يقع غرب تيماء في واد يعرف باسم وادي زلوم ، بطرف بلدة تيماء القديمة[2] .

---

(١) « معجم البلدان » .

(٢) انظر عنه وعن آثاره « في شمال غرب الجزيرة ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

زَنَانير :ــ كأنه جمع زنار ــ قال البكرى فى « معجم ما استعجم » وفي شعر ابن مقبل : هي رملة بين بلاد غطفان وأرض طيّء ، قال ابن مقبل :

تُهْدي زنانير أرْواح المَصِيف لها ... ومنْ ثنايا فُرُوج الكوْر تُهْدينا

كذا قال البكرى وأرى الشاعر أراد موضعاً قريباً من الكَوْر المعروف ببلاد قومه فى جنوب نجد شرق رُنْية ، وزنانير هنالك [1] . وذكرت هذا للتنبيه على وهم البكري ــ رحمه الله ــ

الزَّوْراء :ــ مؤنث الأزور ــ في «معجم ما استعجم [2]» : قال أبو عبيد : عدنة ذو أرل ــ جبل ــ وفيها أقر ، وعُرَيْتنَاتُ ، والزَّوْراء ، وكنيب وعراعر ، وجُثْشُ أعْيار ، والعريمة والعُرَيم ، كلها لفزارة إلا الزوراء فإنها لبني أسد ، وهي كلها مياه مرة ، فهي التي يقال الأملاح والأمرار

وقال في « معجم البلدان [3] » : زُلْفة وزوراء ماءان لبني أسد ، وقال الحسين بن مطير :

ألا حبَّذا ذات السَّلام وحبَّذا ... أجارعُ وعساء النَّقيّ فدُوُرُها
ومنْ مرْقب الزَّوْراء أرْض حبيبةٌ ... إليْنا محاني مُتْنها ، وظهُوُرها
وسقياً لأعْلى الواديَيْن وللرّحا ... إذا ما بدَتْ يوْماً لعيْنك نُورُها
تحمَّل منْها الحيُّ لمَّا تلهَّبتْ ... لهُم وغْرةالشِّعرى ، وهبَّتْحرُوْرها

وقال في « معجم البدان » أيضاً : ضبَّاء ــ بالفتح ثم التشديد والمدّ ــ موضع في شعر الحسين بن مطير الأسدي :

وأصْبحتْ منْهمُ ضبَّاء خاليَةً ... كمَا خلتْ منْهم الزّوْراء فالعُوج

ويفهم مما تقدم أن الزوراء في أعلى بلاد بني أسد ، بجوار بلاد بني مرة ، على مقربة من فروع وادي الشعبة حيث عدنة .

---

(١) انظر « العرب » س ٧ ص ٤٢١ ــ ٧٠٦ .
(٢) ص ٩٢٤ .
(٣) رسم (الزوراء) .

الزَّوْر : في « معجم البلدان » : قال نصرٌ : الزور بفتح الزاي — : موضع بين أرض بكر بن وائل وأرض تميم على ثلاثة أيام من َطلّح ، والزُّوْر أيضاً : حبل يذكر مع َمنْور — جبل في ديار بني ُسليم بالحجاز — قال ابن ميَّادة :

وبالزُّوْر زوْر الرَّقمتَين لنا شجاً	إذا ندّيتْ قيْعانُهُ ومذاهبُه
بلادٌ متى ُتشْرف طويل جبالها	على َطرف يجْلبْ لك الشّوق جالبُه
تذكَّر عيْشاً قد مضى ليْس راجعاً	لنا أبداً أو َيرْجع الدَّر حالبه

ويفهم مما تقدم :

١ — أن الزوْر بقرب طلح ، أي في شرق الجزيرة .

٢ — أنه جبل في بلاد بني سليم في غرب الجزيرة .

٣ — أما الوارد في شعر ابن ميادة فهو غير المذكورين ، وينبغي أن يكون في بلاد قومه بني مرة من غطفان وأنه بقرب الرقمتين .

وقد تقدم أن في بلادهم موضعاً يدعى الرقمتين ، في شعر أورده الهجري :
ُجميْسية بالرقمتين محلَّها .

وابن ميَّادة كانت محبوبته من بني ُجميْس هؤلاء ، ولا شكَّ أنه أراد بالزور زَوْر الرقمتين موضعاً واقعاً في بلاد أولئك . وتقدمت الإشارة إلى أن بلادهم تقع بأطراف الحرة الغربية الشمالية .

زَوْرُ : اسم جبل من جبال أجا ، في وادي مشار ، شمال غرب حايل بحوالي عشرة أكيال .

الزُّولانيَّة : قال الهجريُّ : الثّلم آكامٌ متشابهة سهلة ، مشرفة على

---

(١) ٢٨٤ .

(٢) ص ٢٤٤ .

(٣) رسم قويسل .

الأجفرُ ، لبني ناشرة من بني أسد ، وأقرب المياه منها الزولانية ، وبين الثلم وفَيْد ١٥ ميلا (وانظر الثلم) .

الزُّويل : — على لفظ تصغير زول— في « معجم البلدان » : ذو الزُّويل موضع من ديار عامر بن صعصعة قرب الحاجر ، وهو من منازل الحاج من الكوفة . وفي شعر الحارث بن عمرو الفزاري :

حتى استغَاثوا بذي الزُّوَيْل ولا ۔ معَرْجاء من كلٌ عصْبة جزرُ

كذا قال ، وجهة الحاجر بعيدةٌ عن منازل بني عامر ، وإنما هي من منازل غطفان وأسد . ولعله ورد ذكره في خبر إحدى الوقعات على بني عامر في يوم الرقم أو غيره من أيامهم مع غطفان ، فانهزموا حتى بلغوه ، ويظهر أنه غرب الحاجر .

زُهمانُ : — بالضم — قال نصر : زُهمان واد لبني أسد كثير الحمض .. وزهمان أيضاً : ماء لأشجع أسفل من الحاجر على طريق الكوفة إلى مكة ، فوقه حرَّة النار على نحو من ليلتين ، بينهما تصب أعالي الرمة . كذا ويظهر أن صواب كلمة (أسفل) (أعلى) وكأن كلام نصر مأخوذ مما جاء في كتاب « بلاد العرب » ونصه : زُهمانُ فوق الحاجر ، وهو ماء لأشجع ، وفوق ذلك حرة النار ، من زهمان على نحو من ليلتين .

وفي معجم ما استعجم » لمزُرِّد :

وتسْكن منْ زُهمان أرْضا عذَّبة ۔ إلى قرْن ظبيْ حامداً مسْتزيْدها

زهمان واد يدفع في الرُّمة لبني فزارة قاله يعقوب (وانظر مويسل) .

وفيه أيضاً :— زهمان — بضم أوله وإسكان ثانيه على بناء فعلان ، وهو متصل بالرقم . . قال كعب بن زهير :

أتعْرف رَسماً بيْن زُهمان فالرَّقمْ ۔ إلى ذي مراهيْط كما خُطَّ بالقلَم

وقال ياقوت [1] : زَهمان بفتح الزاي وضمها .

---

(١) « معجم البلدان » .

وعلى ما تقدم فزهمان من روافد وادي الرمة الغربية القريبة من الحرة في جهات العَلَم .

زهوة : بئر (ارتوازية) تقع جنوب الدُّوَيْد ، بمسافة تقرب من ٨٠ كيلا ، سكانها الرُّمالُ من عنزَة ، مستقرون فيها .

الزُّهيريّات : آبارٌ في الشَّقيْق ، بقرب الرُّغيْفيات ، متجاورات من بلاد الحوف ، في جنوبه .

زيْتَة — بالزاي المفتوحة بعدها ياء مثناة تحتية ساكنة فتاء مثناة فوقية مفتوحة فهاء — واد يقع في الشمال الغربي من تبوك في الطريق إلى حَقْل .

زَيْمَر : موضع في جبال طيِّءٍ يذكر مع بُلْطة ويُضاف إليها قال امرؤ القيس :

وكنت إذا ما خِفْت يوْماً ظُلامةً   فإنَّ لها شعْباً ببُلطة زَيْمَرا[1]

ويفهم من هذا البيت قربه من بلطة التي لا تزال معروفة (أنظر بلطة) .

ويظهر أن اسم زيمر ليس خاصًّا بهذا الموضع ، ففي وادي تثليث في جنوب الجزيرة الآن قرية تُدْعَى زَيْمَر ، سكانها من قحطان (مذحج) .

سابلُ : — بالسين المهملة بعدها ألف فباء موحدة فلام — : جبل في الطرف الشرقي الشمالي من رمَّان ، جنوب حايل على مسافة تقارب ٩٠ كيلا (وانظر سَبَلات) .

ويدعى جبال سابل فهو سلسلة جبلية ، وبعضهم ينطقه سَبَل ، ولعل الألف نشأت من إشباع حركة السين .

ساحُوْتُ :— على وزن فاعول — : اسم بئر تقع في الشمال الغربي من الثُّليْثوات ، في أسفل شعيب السَّاقية ، بطرف رمْلة الذِّئب ، غرب سلسلة جبال المسمّى (مُحَجَّر قديماً) .

---

(١) « معجم البلدان » .

السَّادة : — فاعلة السَّدِّ — : أرضٌ منخفضة رملية تقع بين الرِّميثيات الواقعة في اللَّبة (لبة الدهناء الشمالية) وبين أودية الحزول الجنوبية ، ويخترقها فرع وادي الحُرِّ ، وشُعيب الرُّميثي .

ساقٌ : اسم ساق يطلق على عدد من الجبال ، إذ هو الجبل الدقيق الطويل . ومن أشهر تلك الجبال :

١ — ساق الجواء في شمال القصيم لا يزال معروفاً ، وقد ورد كثيراً في الشعر القديم [١] .

٢ — ساقُ جبل يقع غرب الحُمَيْمة ، وشرق قرية الطُّوية .

٣ — ساق جبلٌ يقع شمال ضَرْغد ، وغرب أجا بعيداً عنه (بقرب خط الطول ٢٨َ — ٤٠° وخط العرض ١٠َ — ٢٨°) وبقربه رس — بئر قليلة الماء — يعرف برسٌ ساق . وهذا غرب النُّويْطة ، وجنوب أريك (وُرَيْك) .

٤ — ساق العناب ذكره البكري فقال [٢] : قال الطوسي : عناب جبل على طريق المدينة ، وساق جبل حذاء عناب ، يقال له ساق العناب ، ويقال لهما جميعاً الساقان وربما قيل : العنابان . وأنشد الطوسيُّ لكعب بن زهير .

جعلْن القَنان بإبْط الشِّمال وساقَ العُناب جعلْن يمينا

ورجَّح الأستاذ العبودي أن ساق العناب يعرف الآن باسم الأصبغة ، غرب الجواء في إقليم القصيم ، بقربها هجرة تدعى بُقَيْعاء إصبع (العرب س ١٠ ص ٦٩٧) .

٥ — ساق الفَروين : قال فيه الراجز :

أقفر منْ خولة ساقُ الفَرَوين فقطنٌ فالركن من أبانين

---

(١) وانظر عنه « العرب » س ١١ ص ٦٥٠ .

(١) « معجم ما استعجم » — ساق — وانظر مجلة « العرب » جزء ربيع سنة ١٣٩٧ (السنة العاشرة) .

ويرى الأستاذ محمد العبودي أن ساق الفروين هو ما يعرف الآن باسم سُوَيقة ، وهو جُبيل صغير شمال ساق الحواء بينهما نحو ٤ أكيال (العرب : س ١١ ص ٦٥٩) .

ساقية فيْد : قرية تقع في الجنوب الشرقي من حايل على مسافة ٩٢ كيلا ، من قرى شمّر ، تقع في أسفل واد يدعى الساقية ، تنحدر فروعه من شرقي سَلمى ، ويتجه صوب الشرق ، يدعى أعلاه الصُّفَّيا ثم يتجه صوب الشمال الشرقي حتى يفيض في قاع يدعى قاع الأجفر ، بعد أن يجتاز قرية الأجفر .

ومن روافده شعب يدعى الساحل (أبو طَلْحاتٍ) ينحدر من سَلْمى

السَّالمي : - كأنه منسوب إلى سالم - : ماء يقع في الشمال الغربي من مدينة حايل ، على بعد نحو ٢٣٠ كيلا وهو من مياه قبيلة شمَّر ، وقد ذكره ابن دخيل ، وعده في بلاد سنجارة .

ساموْدة : من المراكز التي حدثت بعد مدّ خط الأنابيب ، في شرقي الدهناء ، وهي منهل من مناهل البادية ويتبعه من موارد البادية الأرطاويّة والسّلال والعود وَسرَابُ وُطليْحاء ، وعرِيْفج ووُسَيْط ، (من مياه البشوك) وما حولها .

وتقع سامودة في منخفض من الأرض ، فيه شعاب كثيرة ، يلب به من الغرب عرق من الدهناء (حبل) يفصل بينه وبين التينْسية ، وتقع شمال منهل الثُّمَامي .

وسامودة من مياه البشوك (تقع بقرب خط الطول ٥٥َ ـ ٤٤° وخط العرض ٥٢َ ـ ٢٧°) .

السايبيةُ - كأنها منسوبة إلى السايب - منهل يقع شرق جبة ، في النفود ، في جانبه الجنوبي الشرقي . وأوردها ابن دخيل في كتابه باسم (السائبة) وذكر أنها من بلاد عبدة من شمر .

وتبعد عن مدينة حايل بنحو ١٥٠ كيلا ، وهي من مياه قبيلة شمر .

سبًّا : بفتح السين المهملة والباء الموحدة مشددة بعدها ألف مقصورة — :
قال الهجري[1] : (سبًّا وصفاراء بئران برَمْل بحتر ، عن يوم من تيماء ، شرقاً إلى الشمال ، سبا مقصورة ، وصَفاراء ممدودة ، وكل مؤنث ، وتجمعان فيقال : سبًّا وصفاراء) .

وفي « معجم البلدان » : (سبا : ماءة لبني سليم . وقال القتال الكلابي

وأدْم كثيران الصَّريم تكلَّفت ... ظَنْيَة حتى زُرْننا وهْيَ طلَّح
سقَى الله حيًّا منْ فزارة دارهمْ ... بسبًّا كرَاماً حوْثُ مسوا وأصْبَحوا

ورواه أبو عبيد : بسبي — بكسر الباء . وحوث : لغة في (حيث) .

وقال نصر : سبًّا ماءٌ في أرض فزارة ، وفي شعر مروان بن مالك بن مروان المعنى الطائي ما يدل على أن سبًّا جبل . قال :

كلاَ تعْلبيْنا طامعٌ بغَنيمَــة ... وقدْ قدّر الرَّحمن ما هُوَ قادرُ
بجَمْع تظلُّ الأكمُ ساجدةً لهُ ... وأعْلامُ سبًّا والهضَابُ النَّوادر

وأقول :(١) القول بأنها من بلاد سليم غريب إذ شعر القتال ينص على أنها من بلاد فزارة ، وكذا قول الهجري ونصر. (٢): ويظهر أن شعر مروان بن مالك محرف وأن صوابه (وأعلام سلمى) وما أسهل تصحيف سلمى بسبيّ ، وقال البكري : (سبًّا — مقصور — : رملة معروفة بديار غطفان ، قال ابن أحمر :

فاقْترَتِ الجُدَّة البيْضَاء واجْتنَبتْ
منْ رمْل سبًّا العَدَاب الوَعثَ والكُثُبا

فهذا صريح بأنَّ سبًّا رمل .

وأقول : سبًّا بئر تقع بين جبيلات سُمْر ، تدعى المختنبيات ، لا ماء

---

(١) أبو علي الهجري — ٣٢٣ .
(٢) « معجم ما استعجم » .

فيها ، تقع جنوب شرق قرية العُشّ ، بما يقارب خمسة أكيال ، وقد يطلق الاسم على تلك الجبيلات ، ولكن سبّاً هذه لا تنطبق عليها الأقوال المتقدمة فليست برمل بحتر (النفود الكبير) الواقع بين منطقة حايل وبلاد الجوف ، وهي بعيدة عن بلاد بني سليم ، وخارجة عن بلاد فزارة ، في بلاد طيء ويظهر أنها الواردة في شعر مروان بن مالك المعنى الطائي ، إذا صحت كلمة (سبّاً) .

أما التي في رمل بحتر (النفود الكبير) فيظهر أنها من أبرز أعلامه ، كما يفهم من شعر ابن أحمر .

سَبْحَةُ : من آبار التَّيْسِيَّة ، في الشمال الغربي من قُبَّةَ ، مُجاورة للزّبيْرة غربها .

السَّبخةُ : جاء في كتاب « المناسك »[1] : (أرض بين النطاة والشق وهما واديان في خيبر) والسبخة هذه لا تزال معروفة ، ممتدة شمال بلدة خيبر وحولها .

سَبْطرُ ـ بفتح السين وإسكان الموحدة وفتح الطاء المهملة وآخره راء : ـ اسم لوادي قرية الشّملي ، والشملي نسبة لآل شِمْلان من عنزة ـ على ما سمعت عند زيارتي تلك القرية ، غير أن أحد سكانها أنكر هذا بشدة ، وهو من فخذ لا ينتمي إلى الشملان .

ووادي سَبْطر يسيل من شمال الحرة الشرقي حرة ضرغد (حرة ليلى) ويتجه صوب الشمال الغربي ، حتى يفيض إلى روضة التّنهات .

سَبْعُ رجل ـ على اسم العدد بالإضافة إلى رِجَل بكسر الراء وفتح الجيم ـ: واد صغير يقع جنوب لُوقة ، ينحدر من شمال السادة حتى يمر بمنهل الرّوْض ، في شرق الحُزُوْل شرقاً عن الهَبّكات . وتقدم ذكر الرِّجل في (أسنمة) ويظهر أنه هو هذا الوادي .

(وللبحث صلة) حمد الجاسر

---

(١) ص ٥٤٠ .

فهـــارس السنــــة الثانيــة عشــرة

أولاً: الكتاب والمعلقون والمؤلفون

ثانيًا: الموضوعات العامة

ثالثًا: الأعلام

رابعًا: الأسر والقبائل والجماعات

خامسًا: الكتب والصحف والمجلات

سادساً: المواضـع

سابعًا: الشـــعر